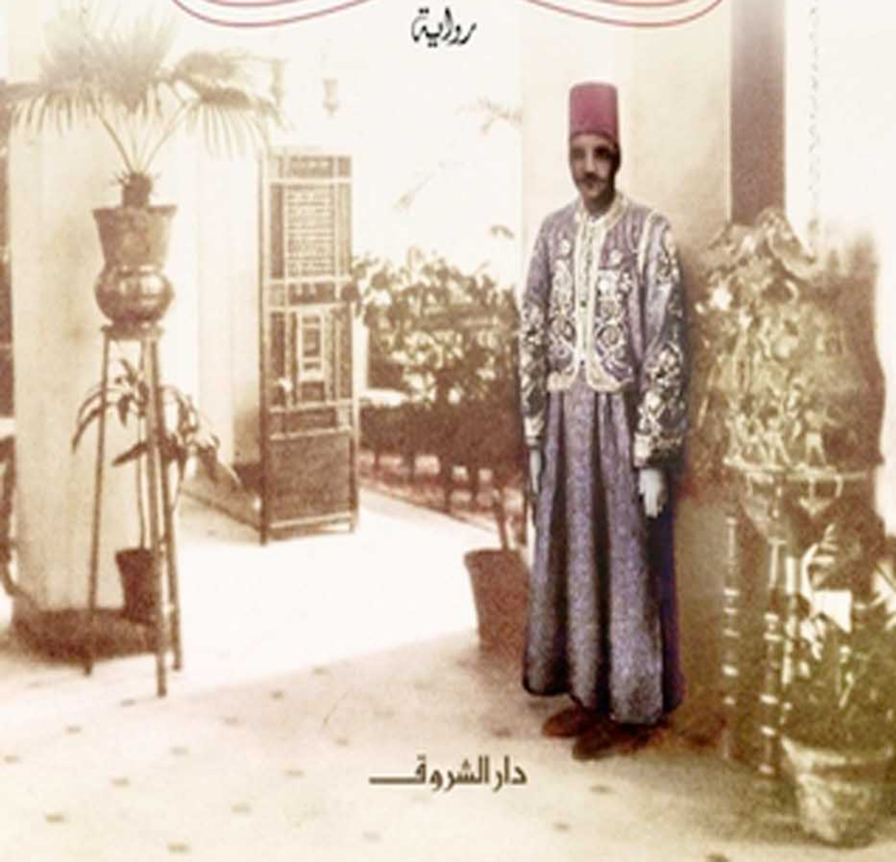
علاء الأسواني

نادي السَيَّارات

رواية



دار الشروق

نادي السيارات

نادي السيارات

علاء الأسواني

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٣/٥٩١١

ISBN 978-977-09-3231-5

علاء
الأسواني

نادي السيارات

دار الشروق

تفهَّمَتْ زوجتي أنني أحتاج إلى العزلة.

تركت لها السيارة الكبيرة بالسائق لتنقلاتها مع الأولاد، قُدت السيارة الصغيرة بنفسي إلى الشاليه الذي نملكه في الساحل الشمالي، ثلاث ساعات وأنا وحدي مع أفكاري وصوت أم كلثوم المنبعث من مسجل السيارة.. قبل أن أجتاز بوابة القرية دقق رجل الأمن في أوراقي.. أثناء الشتاء تشدد إدارة القرية إجراءات التأمين لمنع السرقات، لفحني هواء البحر البارد المنعش، كانت القرية خاوية تماما، بدت وكأنها مدينة مسحورة هجرها سكانها، الشاليهات مغلقة والشوارع خالية إلا من أعمدة النور، اجتزت ميدان القرية الرئيسي ثم عرجت على الشارع الذي يفضي إلى الشاليه، فجأة ظهرت سيارة يابانية حديثة يقودها رجل خمسيني وبجواره امرأة أربعينية جميلة.. مرت السيارة بجواري فتطلعت إليهما.. هما عاشقان جاءا إلى القرية ليختليا بعيدا عن الأعين.. لا شك في ذلك، هذا الصفاء، هذا التورد، هذا الصمت المفعم بالمحبة صعب أن يحدث بين زوجين، وصلتُ إلى الشاليه.. فتحت الباب فأصدر صريرا عتيقا، اتبعت نصائح زوجتي بحذافيرها؛ بدأت بفتح النوافذ وتشغيل الثلاجة وإزالة الأغطية من على الأثاث... أخذت حَمَّاما ساخنا ثم دخلت إلى حجرة النوم حيث أفرغت حقيبتي ووضعت ثيابي في الدولاب ثم أعددت جلستي في الصالة أمام الشرفة..

طلبت الأكل بالتليفون من المحل الوحيد الذي يعمل في الشتاء، أكلت بشهية؛ ربما بتأثير هواء البحر، أحسست برغبة لا تُقاوَم في النعاس، لَمَّا استيقظت كان الليل قد هبط، تطلعت من الشرفة، كانت القرية مظلمة وخاوية ما عدا شريطًا طويلًا من أعمدة الإضاءة، أحسست بوحشة ثم خطرت لي فكرة غريبة مُقلِقة:

أنا الآن وحيد تماما على بُعد مئات الكيلومترات من القاهرة، هل يمكن أن يحدث شيء ما فجأة؟ أن تصيبني أزمة قلبية مثلا أو يهاجمني لصوص مسلحون... هل يمكن أن أكون بطلا لواحدة من الحوادث التي أقرؤها في الجرائد؟

سيكون عنوانا مثيرا «مقتل روائي معروف في ظروف غامضة»... ركزت تفكيري حتى أطرد الهواجس. على مسافة ثلاثة كيلو مترات توجد مستشفى حديثة مجهزة سوف أُنقل إليها فورا لو أصابني مرض، كما أنه يستحيل أن أتعرض للسطو؛ الحراسة مشددة على القرية من كل المداخل وحتى من ناحية البحر، الحراس جميعا من عرب الساحل وهم يعرفون المنطقة جيدا ويطوفون في دوريات على مدى ٢٤ ساعة.. ليس هناك أدنى احتمال للسرقة، ولكن ماذا لو شكَّل الحراس أنفسهم عصابة للسطو على الشاليهات؟ يا لها من فكرة تصلح لفيلم بوليسي. أخذت حَمَّاما جديدا. كانت هذه هي طريقتي لكي أتخلص من أفكار أو أحاسيس لا أريدها. ما إن أقف تحت الدُّش وأشعر بالماء الساخن يغمرني حتى تنجلي صفحة ذهني وتصفو نفسي شيئا فشيئا. خرجت منتعشا وصنعت لنفسي فنجانا من القهوة ثم شرعت في العمل:

أوصلت اللاب توب إلى ماكينة الطباعة ثم زودتها برزمة كاملة من الورق.. كنت قد راجعت الرواية مرارا من قبل، لكني قررت أن أقرأها

لمرة أخيرة. استغرقت القراءة ثلاث ساعات. لم أغير كلمة واحدة، ربما أضفت فاصلة أو نقطة هنا أو هناك. أغلقت ملف الرواية على شاشة اللاب توب ثم نهضت وخرجت إلى الشرفة، أشعلت سيجارة ورُحت أتأمل الشارع الخالي.كنت أدرك أنني أتهرب من طبع الرواية.. أؤجل بقدر إمكاني تلك اللحظة الصعبة الفريدة من نوعها.. الآن، بضغطة واحدة من إصبعي على زر الطباعة سوف تولد الرواية.. ستخرج إلى النور، ستتحول فجأة من نص افتراضي يتشكل في خيالي إلى كائن مكتمل ملموس له وجود حقيقي وحياة مستقلة.كانت لحظة طبع الرواية تثير داخلي كل مرة مشاعر غريبة، قوية ومتناقضة.. خليط من الزهو والوحشة والشجن.. الزهو لأنني أنجزت هذا العمل والوحشة لأنني أفارق شخصيات الرواية التي عِشت معها طويلا، كأنني أقمت مع أصدقاء أحبهم وحان وقت الفراق.. أما الشجن فربما لأنني أتنازل عن شيء عزيز وأمنحه إلى الآخرين؛ كأنما أشهد زفاف ابنتي الوحيدة، بقدر سعادتي بزواجها يحزنني أنها لم تعد تخصني، وها أنا أُسلمها بيدي إلى رجل آخر.

قمت لأُعِد لنفسي فنجانا آخر من القهوة، ما إن دخلت إلى المطبخ حتى حدثت مفاجأة؛ استمعت إلى وقع أقدام.. لم أصدق أذني.. تجاهلت الأمر وانشغلت بإعداد القهوة، لكن الصوت تكرر بشكل أوضح، أطرقت وأصخت السمع.. هذه المرة تأكدت؛ إذن أنا لا أحلم، كان وقع الأقدام لأكثر من شخص.. وقفت مأخوذا، لا أحد يعرف أنني هنا.. مَن هؤلاء وماذا يريدون؟ اقترب وقع الأقدام شيئا فشيئا ثم دق جرس الباب، إنهم في الخارج.. ينتظرون أمام الباب. لا مفر من مواجهة الموقف. فتحت أدراج المطبخ واحدا تلو الآخر بسرعة حتى عثرت على سكين طويلة لها نصل حاد. وضعتها على الرف المقابل للباب بحيث

أستطيع أن ألتقطها في أية لحظة.. أضأت المصباح الخارجي ونظرت من العين السحرية.. رأيت رجلا وامرأة لم أتبين ملامحهما في الضوء الخافت، فتحت الباب ببطء وعاجلتهما قبل أن ينطقا بحرف:

ـ خير؟!

قالت المرأة بصوت مرح:

ـ مساء الخير يا أستاذ.

رحت أتطلع إليهما، قال الرجل بودٍّ كأنما يخاطب صديقا قديما:

ـ متأسفين لإزعاجك.. لكننا جئنا إليك في موضوع مهم.

ـ أنا لا أعرفكما.

ـ بل تَعْرِفُنا جيدا. هكذا قالت المرأة وهي تبتسم. استفزتني لهجتها الواثقة فقلت:

ـ من فضلك. بالتأكيد هناك خطأ ما.

ضحكتِ المرأة وقالت:

ـ لا يوجد أي خطأ.. أنت تعرفنا جيدا.

ازداد الموقف غموضا.. ابتسم الرجل وقال:

ـ ألا تذكر أنك رأيتنا من قبل؟

أحسست بخوف. خُيل إليَّ، للغرابة، أنني قد عِشت هذه اللحظة من قبل. بدا الرجل والمرأة فعلا مألوفَيْن لديَّ.. كأنني رأيتهما وتحدثت معهما في الماضي.كأن لقائي السابق بهما كان مطمورا في ذاكرتي ثم انبعث فجأة. قلت بصوت عالٍ:

ـ لا وقت لديَّ لمثل هذه الألغاز.. مَن أنتما وماذا تريدان؟

قال الرجل بهدوء مستفز:

ـ هل ستتركنا هكذا واقفَيْن على الباب؟ ندخل أولا ثم نتكلم، الغريب أنني انسقت.. تنحيت عن الباب وتركتهما يدخلان، كأنني انجذبت فجأة إلى مجال غامض ولم أعد أسيطر على نفسي. رُحت أستمع إلى ما أقوله وأتفرج على ما أفعله كأنني شخص آخر، دخل الرجل والمرأة بهدوء، كانا يتحركان بألفة كأنهما في بيتهما، جلسا متجاورَيْن على الأريكة فرأيتهما بوضوح لأول مرة في الضوء. كان الرجل في نهاية العشرينيات من عمره.. ضخم بغير ترهل، أسمر، وسيم.. أما المرأة فقد جاوزت العشرين بالكاد، جميلة، تأخذ القلب بجسدها الرشيق وملامحها الدقيقة المتناسقة، بسُمرتها الرائقة وعينيها الخضراوين الرائعتين.. كانت ثيابهما أنيقة لكنها من طراز عتيق يعود إلى الأربعينيات. ارتدى الرجل بدلة شاركسكين بيضاء هفهافة وقميصًا أبيض ياقته منشاة ورابطة عنق زرقاء عقدتها مثلثة صغيرة وحذاء إنجليزيًّا أبيض وأسود.. أما المرأة فكانت ترتدي تاييرا أزرق بياقة وأزرار وقلابات بيضاء وتضع قبعة شبيكة على شعرها المصفف على هيئة جدائل.. ثمة هالة عتيقة كانت تحيط بهما وكأنهما خارجان لِتَوِّهِما من ألبوم صور تذكارية أو من فيلم أبيض وأسود، تشتت ذهني تماما. لم أعد قادرا على استيعاب ما يحدث.. خطر لي أنني أعاني من هلاوس، لم أعد واثقا أن الرجل والمرأة الجالسَيْن أمامي حقيقيان.. أخرج الرجل سيجارة من علبة حمراء ماركة لاكي سترايك التي كانت شهيرة في الأربعينيات.. أمسك السيجارة بأصبعين ثم خبطها على ظهر يده ووضعها في فمه ثم أشعلها باستعمال ولاعة بنزين صغيرة. سحب نفسا عميقا وقال:

ـ أنا كامل همام وهذه أختي صالحة همام.

ـ مستحيل.

ضحك وقال ببطء:

ـ عارف إن الموضوع صعب على استيعابك.. لكن هذه هي الحقيقة.. أنا كامل عبد العزيز همام وهذه أختي صالحة.

حدقت في وجهه وفجأة تملكني الغضب وصِحْت:

ـ اسمع.. أنا لا أسمح لك بإضاعة وقتي.

ـ اهدأ حتى أشرح لك.

ـ لا أريد أي شرح من فضلك.. لديَّ عمل يجب أن أؤديه الآن.

ابتسمَتِ المرأة وقالت:

ـ نحن جزء من عملك.

وأضاف الرجل:

ـ بل نحن عملك ذاته.

لم أرد.. انتابتني قشعريرة، تتابعتْ دقات قلبي وتصبَّب العَرَق مني، وأحسست أنني سأفقد الوعي. كأنما أشفق الرجل على حالي فابتسم بودٍّ وقال بصوت هادئ:

ـ يا أستاذ أرجوك صدقني.. أنا كامل همام وهذه أختي صالحة. ربنا يعلم كم نحبك. أنا وأختي خرجنا من خيالك إلى الحياة الحقيقية.. أنت تخيلتنا في الرواية. تصورت تفاصيل حياتنا وكتبتها. بعد درجة معينة من رسم الشخصية فإنها توجد على نحو ما. تنتقل من الخيال إلى الواقع.

لم أرد.. ظللت أنظر إليهما. ضحكَتِ المرأة وقالت:

ـ أنا طبعا مقدرة تأثير المفاجأة عليك، لكن هذه هي الحقيقة، لقد خرجنا من خيالك ثم جئنا لمقابلتك.

ظللت صامتا، وقال الرجل بصوت مرح:

ـ يجب أن نشكرك. من حسن حظنا أننا بين شخصياتك، يعجبني إخلاصك لِفَنِّك. أنت تقضي أعواما في كتابة رواية واحدة. قليلون هم الروائيون الذين يتكلفون هذا الجهد.

ـ شكرا.

هكذا قلت بصوت خافت وأنا مأخوذ بفكرة أنني بدأت آلف ما يحدث على غرابته. رُحت أقلب نظري بينهما. ابتسمَت صالحة وقالت بصوتها الرخيم:

ـ لا تنظر إليَّ بهذه الطريقة وكأني من عجائب الدنيا، أنت كاتب كبير وتعرف أن هناك ظواهر كثيرة خارجة عن سيطرة حواسنا لا نستطيع تفسيرها. لقد بذلت كل جهدك من أجل خلق شخصيات حية. وها نحن أحياء فعلا أمامك.. أليس هذا ما كنت تريده؟!

قلت بصوت عالٍ:

ـ سأفترض أن ما تقولانه صحيح.. حتى لو كنتما كامل وصالحة همام فعلا، ماذا تريدان مني؟

اتسعت ابتسامة كامل ونفض رماد سيجارته في المطفأة ثم قال:

ـ آه.. دخلنا في الجد، بص يا أستاذ.. جئنا لمنعك من طبع الرواية.

ـ بأي حق؟!

ـ بصراحة الرواية جيدة ولكن تنقصها أشياء مهمة.

ـ مثل ماذا؟

كأنهما يُنفذان خطة معدة سلفا.. ابتسمت صالحة وقالت:

ـ الرواية تنقصها أحاسيسنا وأفكارنا.

ـ لقد عبرت عن أحاسيس وأفكار شخصياتي بالكامل.

ـ عبرت عنها من وجهة نظرك.

ـ طبعا لأنني المؤلف.

ـ ولماذا لا تتركنا نحن نعبر عن أنفسنا؟

ـ ليس من حق أحد أن يتدخل في عملي.

أطرق كامل لحظات كأنما يبحث عن الكلمات المناسبة ثم قال بهدوء:

ـ يا أستاذ. ثق بنا أرجوك؛ نحن نعلم مدى الجهد الذي بذلته، ولكن لا يمكن أن تصف أحاسيسنا وأفكارنا بالنيابة عنا.

ـ هكذا يفعل المؤلفون جميعا.

ـ لكن وضعنا مختلف.. لقد خرجنا إلى الحياة فعلا، من حقنا أن نتحدث عن أنفسنا.. لدينا أشياء مهمة لا بد من إضافتها إلى الرواية.

نهضتُ من مكاني وصِحْتُ:

ـ اسمع.. هذه روايتي أنا، كتبتها من خيالي وتجربتي، لن أسمح بإضافة كلمة واحدة لم أكتبها.

نهضَتْ صالحة من مكانها واقتربت منى فتسربَتْ إلى أنفي رائحة عطر «مساء باريس».. قالت:

ـ لا أفهم سر غضبك يا أستاذ.. نحن نريد مصلحتك.. لو صدرَتِ الرواية قبل أن نضيف إليها أحاسيسنا ستكون خسارة كبيرة لك.

لم يعد هناك ما يقال.. حسمت أمري ونهضت.. توجهت نحو الباب وفتحته وقلت بصوت عالٍ:

ـ تفضلا لو سمحتما.

ـ تطردنا؟

هكذا صاحت صالحة وهي تنظر إليَّ بعتاب. كان لعينيها الخضراوين تأثير غريب. قالت بتأثر:

ـ لم نفعل ما يستدعي معاملتنا بهذه الطريقة الفظة.

رددت قائلا:

ـ اخرجا من بيتي فورا.

نهض كامل أولا ثم نهضت صالحة وقالت:

ـ أنت مُصِرٌّ على إهانتنا! حسنا، سوف ننصرف، فقط أريد منك شيئا واحدا.

فتحت حقيبتها المستديرة على عجل وأخرجَتْ قرصا مضغوطا موضوعًا في علبة شفافة وقالت:

ـ هذه نسخة الرواية وقد سجلنا فيها كل ما حدث في حياتنا.

ـ حياتكما أنا الذي اخترعتها.

ـ أنت اخترعتها ونحن عشناها.

لا جدوى من النقاش،كدت أفقد سيطرتي على أعصابي وأرتكب حماقة، ظلت صالحة مبتسمة ويدها ممدودة بالقرص المضغوط، ولما أدرَكَتْ أنني لن آخذه وضعَتْه بهدوء على المنضدة الصغيرة، مَشَيَا بهدوء ثم خرجا وأغلقا الباب خلفهما برفق. ظللت مذهولا لحظات ثم ألقيت بنفسي على المقعد القريب..كنت مُشوشًا تماما؛ لا أعرف ماذا أفعل. أشعلت سيجارة.. يا الله.. ماذا يحدث ومَن هؤلاء؟ هل هما محتالان أم مخبولان؟ مهما يكن من أمرهما فكيف عرفا أسماء شخصيات روايتي الجديدة التي لم يقرأها مخلوق سواي؟ هل يمكن فعلا أن تنبعث حياة حقيقية في شخصيات أدبية مُتخيَّلَة؟ هناك علم كامل اسمه الباراسيكولوجي يبحث في الظواهر الخارقة التي نعجز عن تفسيرها.. خطرت لي فكرة مقلقة؛ ربما أكون مريضا. هل اضطربت نفسيا وبدأت أعاني من هلاوس؟ لو كنت حشّاشا لفسرت الأمر بجرعة زائدة... جربت الحشيش مرة واحدة فأصابني بحالة من البلادة جعلتني أتجنبه إلى الأبد. لا أعرف كيف يكتب بعض الأدباء أعمالهم تحت تأثير المخدرات.. الكتابة بالنسبة إليَّ تركيز حادّ. أنا الآن منتبه تماما، هذان الزائران حقيقيان لكني من هول المفاجأة تسرعت وعاملتهما بقسوة، لقد أخطأت عندما طردتهما، كان يجب أن أستبقيهما حتى أفهم سرهما.كان عليَّ أن أتجاوز ذهولي وأستمع إليهما.. نهضت وفتحت الباب ونزلت الدرجات بسرعة. قررت أن ألحق بهما.. سأعتذر لهما وأردهما.. لا بد أن أستجلي حقيقة ما يحدث. كنت واثقا من أنهما لم يبتعدا كثيرا.. مددت الخطى واجتزت ممر الحديقة. لَمَّا خرجت إلى نهر الشارع انتابتني حَيْرة؛ هل توجَّهَا يمينا أم يسارا؟! لو أخطأت في تقدير الاتجاه سأفقدهما إلى الأبد. لمحت موظف أمن تابعًا للقرية

بزيه الأزرق المميز؛ كان جالسا على مقعد من الخوص على الرصيف المقابل. هرعت نحوه، وقف احتراما، سألته إن كانت السيدة والأستاذ اللذان خرجا من عندي منذ قليل قد اتجها إلى ناحية البحر أم إلى ناحية الطريق الصحراوي.حدثت مفاجأة أخرى هوت على رأسي كالصاعقة؛ قال لي موظف الأمن إنه لم يرهما. وصفتهما له بدقة لكنه أكد أنه يجلس في مكانه من ساعات ولم ير أي شخص يدخل أو يخرج من الشاليه. توقفت عن مجادلته ورُحت أتلفت حولي كأنني أتشبث بالأمل الأخير. أسرعت في اتجاه البحر ثم عُدت بسرعة في الاتجاه المقابل. تمنيت أن ألمح صالحة وكامل لكنهما اختفيا تماما؛ أدركت أن ما أفعله لن يجدي شيئا.. عُدت نحو البيت. كنت ألهث.. صعدت الدرج ببطء، انتابني هلع مفاجئ؛ أنا فعلا مريض، أعاني من هلاوس، يظهر أمامي أشخاص لا يراهم أحد غيري. أحسست بالعَرَق يتصبب على جبيني وبِتُّ أسمع دقات قلبي القوية المتلاحقة.. طرأت على ذهني فكرة هي الفيصل الوحيد الباقي بين الوهم والحقيقة. فتحت الباب بالمفتاح وضغطت الزر فغمر الصالة ضوء المصباح، أغمضت عينيَّ وفتحتهما ثم تطلعت إلى المائدة،كان القرص المضغوط هناك، تماما حيث تركَتْه صالحة. أحسست براحة.. التقطت القرص المضغوط بأصابع مرتعشة من العلبة ثم أدخلته في اللاب توب.. انتظرت قليلا حتى أضاءت الشاشة وبدأتُ أقرأ.

(١)

بدأت الرواية عندما التقى رجل يُدعى «كارل بنز» بامرأة اسمها «بيرتا».

في الصورة الوحيدة المتوفرة له، يبدو كارل بنز شخصا غامضا على نحو ما، شارد الذهن فيما يشبه الترفع عن تفاصيل الحياة اليومية لدرجة أنه نسي أن يغلق أزرار معطفه وهو يقف أمام الكاميرا.



يبدو على وجهه حزن عميق راسخ، انكسار قديم خَلَّفَته طفولة قاسية، مات أبوه سائق القطار في حادث مروع وهو طفل لا يتجاوز العامين وقاتلت أمه الفقيرة بضراوة لتوفر له تعليما جيدا، اضطُر كارل للعمل في سن مبكرة ليساعد أمه في الإنفاق على إخوته..

نظرته في الصورة تعكس ذكاء واضحا وإرادة قوية لكنها أيضا تحمل بُعدا غائما غير محدد وكأنه يتطلع إلى شيء ما في أُفق بعيد، لا يراه أحد سواه.

أما بيرتا فإن صورتها تعكس جمالا من نوع خاص لا ينبعث من الشهوة أو الغواية بقدر ما يفيض بحنان أمومي، ثمة رِقّة أخّاذة ووداعة ملائكية في ملامح وجهها، ولكن هناك أيضا عزيمة قوية واستعدادًا كاملا للتضحية من أجل الواجب.



في يوم ٢٠ من يولية عام ١٨٧٢.

في مدينة مانهايم الألمانية، امتلأت الكنيسة عن آخرها برجال ونساء ارتدوا أفضل ما لديهم من ثياب واصطفوا جالسين في المقاعد، كان عدد المدعوين كبيرا حتى اضطُر بعضهم إلى متابعة المناسبة وهم وقوف.. بالرغم من الزجر والتوبيخ استمر الأطفال في الصياح والقفز

في أنحاء المكان. كانت جدران الكنيسة مطلية حديثا فأضافت رائحة الطلاء النفاذة إلى حرارة الجو شعورا خانقا؛ مما جعل السيدات يتأففن ويُحركن مراوحهن الحريرية المنقوشة بقوة أمام وجوههن.

فجأة.. سَرَت همهمات مرحة، وعلا تصفيق حماسي متقطع، ثم ظهر «كارل بنز» ببدلته البيضاء الأنيقة وهو يتأبط ذراع عروسه «بيرتا» التي تألقت في فستان رائع من الدانتيلَّا الفرنسية الخضراء مُرصّع بفصوص صغيرة من الماس الصناعي، ينحسر من أعلى بشكل دائري ليُبين نحرَها الناصع الأخّاذ، ثم ينزل محبوكا ليُظهر خصرها الرشيق، وينتهي من أسفل منتفشا مثل زِيّ راقصة باليه. مشى العروسان على مهل حتى وقفا أمام المذبح المقدس ثم بدءا في ترديد قسم الزواج خلف القس البدين الذي كان من وطأة الحر، بين جملة وأخرى، يجرع من إناء الماء البارد الموضوع بجواره ويجفف العَرَق على وجهه بمنديله الكبير الأبيض.

أمسك «كارل» بيد «بيرتا» وردد القسم بصوت أجش ونبرة مقتضبة وهو عابس كعادته كأنه مضطر لما يقوله، ولما جاء دور «بيرتا» تضرج وجهها واضطربت أنفاسها ثم خرج صوتها مضطرمًا متقطعا كأنها تلميذ يردد محفوظات صعبة أمام مدرس صارم:

ـ «باسم الرب يسوع اتخذتك يا كارل بنز زوجا لي».

«أعاهدكَ على أن أصحبكَ في الفرح والحزن، في الغِنَى والفقر، في الصحة والمرض.. سأظل معك دائما وسأُحبك دائما حتى يُفرقنا الموت».

انتهت المراسم وأعقب ذلك عشاء ضم الأهل وبعض الأصدقاء المقربين.

قُبيل منتصف الليل.. فتح «كارل» باب المنزل الجديد وتوقفت

«بيرتا» لحظة قبل أن تعبر بقدمها عتبة الباب، فكرت أنها الآن تُنهي فترة من حياتها لتبدأ فترة جديدة مختلفة وهمست بدعاء للرب أن يبارك حياتهما معا. كانت حجرة النوم في الطابق العلوي. قبل الزفاف لم تكن «بيرتا» قد منحت «كارل» إلا بضع قُبلات مختلسة انتزعها بجهد جهيد. كان ضميرها البروتستانتي اليقظ يمنعها من تسليم جسدها لأي رجل إلا بموجب زواج شرعي يُعقد في بيت الرب.. من هنا اتخذ لقاؤهما الجسدي الأول بُعدا احتفاليا متفردا، وظل منطبعا بأدق تفاصيله في ذهنها إلى الأبد.. لن تنسى «بيرتا» بعد ذلك، طيلة حياتها، تلك اللحظات الأولى العفوية، المرتبكة المتلهفة المحمومة والمبهجة مع ذلك؛ محاولاتهما للحديث في موضوعات شتى، جُملهما المشتتة المتقطعة.. الصمت الذي خيم عليهما.. كيف اندفع «كارل» نحوها وبدأ يُقبلها برِقة، أنفاسه الحارة المشبعة برائحة السيجار والكحول وملمس شاربه الشائك، البيجاما الحريرية البيضاء التي اختلطت رائحتها الجديدة برائحة جسده.. ستتذكر دائما كيف كادت تفقد وعيها من فرط الخجل وهي تهمس له أن يغلق الأنوار كلها، قُبُلاته المتتابعة التي جعلت جسدها يرتخي شيئا فشيئا حتى أحست بأنها تسبح في فضاء رحب مدهش، ثم ذلك الالتحام بين جسديهما، الغريب المفاجئ والمألوف المتوقع في نفس الوقت؛ الذي سبب لها ألما خفيفا، ولم يلبث أن منحها إحساسا رائعا بأنها قد اقترنت بهذا الرجل إلى الأبد.

تستعيد «بيرتا» تلك الأيام بابتسامة رضا وحنين،كانت الفترة الأولى للزواج أياما من الهناء الخالص.. بذلت «بيرتا» كل ما تستطيع من أجل إسعاد زوجها، كان أملها أن تنشئ أسرة مسيحية صالحة تكون بمثابة شجرة مثمرة في حديقة الرب.. ولكن، للأسف، شيئا فشيئا تكاثرت الغيوم حتى حجبت الشمس.. سرعان ما اكتشفت «بيرتا» أن زوجها

غريب الأطوار، مختلف عن كل الرجال الذين عرفَتْهم أو سَمِعت عنهم في حياتها، مختلف عن أبيها وإخوتها وأزواج صديقاتها جميعا.. إن غرابة أطواره تصل لدرجة يبدو فيها أحيانا وكأنه شخصان متناقضان اجتمعا في جسد واحد.

يكون «كارل» الرقيق الوديع الودود الذي أحبته وتمنت الزواج منه.. وفجأة، يمسه شيطان فينقلب إلى شخص آخر.. شارد الذهن، ضيق الصدر، عصبي، يتشاجر على أهون سبب، يعاملها بفظاظة لم تتوقع أبدا أن تصدر عنه.. يتحول عندئذ إلى شخص غامض يحيط كل ما يفعله بالكتمان لدرجة جعلتها تتساءل: ما الذي تعرفه فعلا عن هذا الرجل الذي تزوجته؟

كانت تعلم أنه يعمل مهندسا في مصنع ويشارك زميلا له في مشروع صغير لزيادة دخله.. وقد جاءها ذات يوم وطلب منها أن تُقرضه مبلغا من المال ليشتري حصة شريكه فلم تتردد لحظة، منحته ما أراد من مالها الخاص.. حينئذ، أظهر «كارل» امتنانه وقَبَّل يديها.. قال بتأثر إنه لن ينسى فضلها أبدا.. لكنه، بعد أيام قليلة، عاد إلى غرابة أطواره، فأخبرها أنه استأجر قبوا في منزل آل ميللر في الشارع المجاور ليكون بمثابة ورشة له، قال باقتضاب إنه سيُنجز هناك الأعمال التي لم يتمكن من إنجازها في المصنع، ثم تهرب بعد ذلك من الإجابة عن أسئلتها، ابتسم بغموض وتركها وخرج.

صار «كارل» يقضي في القبو ساعات طويلة ورفض بشدة أن تصحبه «بيرتا» إلى هناك وعندما سألته: «مَن ينظف لك هذا المكان؟».. تظاهر بأنه لم يسمع السؤال.

مع الأيام، ازدادت تصرفاته شذوذا، صار يقبع في ركن الصالة البعيد، يدخن السيجار وهو صامت، ذاهل تماما عن كل ما حوله، وفجأة يهب

واقفا ويهرع خارجا من البيت وكأنه تذكر أمرا خطيرا لا يقبل التأجيل، يغيب لفترة قد تمتد إلى ساعات ثم يعود ليستعيد جلسته الأولى.

ذات ليلة، كانت «بيرتا» معه في الفراش، وبينما جسداهما متلاحمان بعنف في ذروة التوهج، فتحت عينيها فجأة فرأت وجهه في بصيص الضوء المتسلل من خارج الحجرة.. كان «كارل»، خلال أكثر لحظاتهما حميمية، يتطلع بعيدا كأنما يفكر في أمر آخر.كان معها بجسده فقط بينما روحه تحوم في مكان بعيد.

تلك الليلة، أدركت «بيرتا» أنها فقدته إلى الأبد. دهمها حزن ثقيل وتصاعدت هواجسها لتتخذ منحًى آخر، ما الذي يجعل الرجل شارد الذهن حتى وهو يضاجع زوجته؟

انقضّت الإجابة على رأسها كصاعقة «كارل يعشق امرأة أخرى». هذا هو التفسير الوحيد لكل ما يحدث.. من هي عشيقة كارل؟ هل هي أجمل مني؟

متى وكيف أحبها؟ ولماذا لم يتزوجها بدلا من أن يخدعني؟ ثم مَن أدراني أنه أخذ المال ليستخلص الشركة لنفسه كما قال؟ مَن أدراني أنه لا يُنفق أموالي على عشيقته؟ بل ومَن أدراني أنه استأجر القبو ليعمل فيه؟ ألا يمكن أن يكون القبو المكان الذي يلتقي فيه بعشيقته؟ أسرة ميللر معروفون بالجشع، لن يمانعوا إطلاقا في أن يزني أي شخص في قبوهم ما دام يدفع إيجارا جيدا.

ظلت «بيرتا» تتعذب بشكوكها حتى انتبهت من نومها ذات ليلة فلم تجد «كارل» بجوارها، قفزت من الفراش تبحث عنه فوجدته جالسا في حجرة مكتبه، يدخن ويكتب على ورقة أمامه، ما إن لمحها حتى مد يده ليُخفي ما يكتبه.. سألته فدمدم باقتضاب:

ـ لديَّ عمل يجب أن أنجزه الليلة.

وقفت تحدق فيه.. أدرَكَتْ بالطبع أنه يكتب رسالة إلى المرأة الأخرى.. هل بلغت به الوقاحة لدرجة أن يترك فراش زوجته ليكتب رسالة إلى عشيقته؟

خطر لها أن تنقضَّ عليه وتنتزع الخطاب من يده وليكن ما يكون. ترددت لحظة ثم انسحبت إلى حجرتها.

تلك الليلة لم تنم.. سألت نفسها: لماذا لم تواجهه؟ لماذا لم تخطف منه الخطاب ليكون دليل إدانته في يدها؟

كانت في أعماقها تخاف من مواجهة الحقيقة.. إن هواجسها عن خيانة زوجها تفترس روحها بلا رحمة لكنها في الوقت نفسه تترك احتمالا ولو ضئيلا ببراءته، ماذا لو واجهته فاعترف وأعلن علاقته بالمرأة الأخرى؟ ماذا ستفعل عندئذ؟ هل تخبر أهلها؟ هل تهجر البيت؟ إنها تحتاج إلى الوقت حتى تحسم أمرها.

قررت مؤقتا أن تحافظ على الغطاء الهش بينهما حتى تستعد للمواجهة النهائية، على أن عجلة التعاسة إذا دارت لا تتوقف.. ذات صباح بعد أن تناولا الإفطار، حان موعد خروجه إلى العمل فوقفت كعادتها تودعه عند الباب.. فوجئت به يقول وهو يتحاشى مواجهة عينيها:

ـ سأبيت الليلة خارج البيت.

ـ هل أستطيع أن أعرف السبب؟

ـ لديَّ عمل لا يقبل التأجيل سأسهر لإنجازه في الورشة.

هنا، لأول مرة، لم تستطع «بيرتا» السيطرة على مشاعرها، انفجرت تردد صراخها عاليا في أنحاء البيت:

ـ «كفى يا «كارل».. لم أعد أحتمل أكاذيبك.. أي عمل الذي سيجعلك تبيت في الخارج؟ ماذا تظنني؟ لست طفلة ولا مغفلة، أنا أعرف كل شيء.. أنت تخونني.. تخونني يا «كارل»، لماذا تعيش معي على الكذب؟ اتركني واذهب إليها ما دمت تحبها».

كانت واقفة في مواجهته وقد وضعت يديها في وسطها، شعرها مهوش ووجهها حانق وعيناها الزرقاوان تعكسان غضبا ومرارة.. بدت متنمرة، مستعدة للقتال إلى النهاية لكنها عندما نطقت الجملة الأخيرة «اذهب إليها ما دمت تحبها». تقلصت عضلات وجهها فجأة وأجهشت بالبكاء. تطلع «كارل» إليها بهدوء ثم قطب حاجبيه وظل صامتا وكأنه لا يفهم ولم يلبث أن اقترب منها ومد ذراعيه نحوها محاولا احتضانها لكنها دفعته بعيدا بقوة وصاحت:

ـ ابعد عني.

عندئذ، فجأة، قبض على يدها بقوة وجذبها نحو باب الخروج فصاحت:

ـ ماذا تريد؟

ـ تعالي معي.

شدد قبضته على يدها وجذبها بقوة.

كان الجو خريفيا غائما والسماء مكفهرة تنبئ بأمطار قريبة.. أخذ «كارل» يتقدم بخطوة سريعة غاضبة بينما «بيرتا» تحاول عبثا التملص

من قبضته وقد كادت أن تنكفئ على وجهها أكثر من مرة، كان مشهدهما غريبا حتى إن بعض المارة توقفوا وأخذوا يتطلعون إليهما بفضول.. لما وصلا إلى منزل آل ميللر دار بها حتى وصلا إلى باب القبو وفتحه بالمفتاح مستعملا يده اليمنى بينما لا يزال قابضا بيسراه على يدها.. دفع الباب بقدمه فأصدر صريرا عتيقا وانزاح، جذبها إلى الداخل وأطلق يدها ثم أشعل المصباح، تحسست معصمها بيدها اليسرى ونظرت حولها.. كان المكان مزدحما بأشياء غريبة؛ ماكينات كثيرة من مقاسات متنوعة.. دراجات عديدة من أحجام مختلفة ملقاة على الأرض.. سبورة سوداء كبيرة مكتوب عليها عشرات المعادلات الرياضية.. لوحات هندسية لمحركات معلقة على الحائط، مائدة خشبية كبيرة اصطفت عليها قطع مفكوكة من عدة محركات.. مئات المسامير والصواميل موضوعة في عدة أوانٍ بجوار المائدة.. أجلسها «كارل» على المقعد الوحيد في القبو ثم ارتكن بظهره إلى الجدار القديم المتساقط طلاؤه في أكثر من موقع وأخذ يشرح لها ما يفعله بالتفصيل، راحت تتابعه ببطء ونظرة شاردة وكأنها تزن ما يقوله وتحلله في ذهنها، شيئا فشيئا تحولت نظرتها من السخط إلى الدهشة، عندما فرغ وجهت له بضع أسئلة فأجاب بدقة واستفاضة.. في النهاية.. لم يعد هناك ما يقال. ساد صمت عميق مُحمّل بمعانٍ كثيرة.. اقترب منها كارل، وفجأة، جثا على ركبتيه وراح يُقبل يديها وركبتيها وقال:

ـ بيرتا.. أنا أحبكِ.. لم أحب في حياتي امرأة غيركِ. أعتذر لأنني أنشغل عنكِ كثيرا؛ لكنني أعمل من سنوات لتحقيق الحلم الذي أعيش من أجله.. أملي أن أنجح يوما في اختراع عربة تسير بدون حصان، عربة تندفع بقوة المحرك.

احتضنته بقوة، دَسَّت أنفها في شعره وهمست:

ـ أنا أيضا أحبك.

تلك الليلة منحته جسدها كما لم تفعل من قبل، انفتحت أمامه كوردة أنعشها الندى، احتضنته بقوة كأنه عائد من سفر طويل، قَبَّلت كل جزء في جسده، هدهدته وكأنه طفلها، كأن شكها الطويل في إخلاصه قد انقلب في لحظة إلى إحساس بالذنب فأطلق طاقة فياضة من الحنان.. بعد ذلك تعلمت «بيرتا» كيف تحب زوجها كما هو، لم تعد تسعى إلى تغييره.. صار سيان عندها أن يشرد بذهنه وهو معها أو يمضي طوال اليوم في الخارج، بعد استبعاد احتمال الخيانة لم يعد يُقلقها شيء.. إنه زوج مخلص مجتهد، مسيحي مؤمن صالح.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إذا كانت لديه اهتمامات تستنفد وقت فراغه لا بأس. إنه على الأقل لا يسكر ولا يبدد أمواله في القمار أو مطاردة النساء كما يفعل أزواج كثيرون، عاشت «بيرتا» سعيدة مع كارل وأنجبت منه أربعة أطفال أخذت رعايتهم الجزء الأكبر من جهدها.. وظل هو يقضي معظم وقته في الورشة عاكفا على العمل.. وذات مساء، بينما هي منهمكة في إعداد العشاء.. انفتح باب المطبخ المفضي إلى الحديقة وظهر «كارل» وقد تلطخت يداه بالشحم وصاح:

ـ بيرتا.. اتركي كل شيء وتعالي فورا.

لم تفهم.. لكن الفرح الطاغي على وجهه سرعان ما انتقل إليها فجففت يديها ثم خلعت فوطة المطبخ وانطلقت خلفه.. كان من فرط العجلة قد ترك باب الورشة مفتوحا.. ما إن دخلت حتى رأت شيئا غريبا: دراجة عملاقة لم تر مثلها من قبل.. ثلاث عجلات كبيرات، اثنتان في الخلف وواحدة في الأمام، تحمل مقعدا عريضا يتسع لشخصين وخلفه جسم معدني يتدلى منه حزام جلدي أسود.



تطلع إليها «كارل» وأطلق صيحة وصفق بيديه، احتضنها بقوة ورفعها من فوق الأرض وهو يُغرق وجهها بالقُبُلات، بدا وكأنه لا يتحمل السعادة، صاح بحماس:

ـ بيرتا.. هذا أعظم يوم في حياتي.. لقد صنعت أول عربة بمحرك في التاريخ.

اقترب من العربة وأمسك بالحزام الجلدي واستمر في الصياح:

ـ انظري. إنها لا تحتاج إلى حصان ليجرها لكنها تتحرك بدفع هذا المحرك.

ـ أوه هذا عظيم.. شكرا للرب.

هكذا هتفت «بيرتا» وقد بدأت تدرك أهمية ما يحدث، ولم يلبث «كارل» أن قال بصوت حالم:

ـ غدا سأسجل الاختراع باسمي، سوف أحصل على تمويل لإنشاء مصنع لهذه العربات.. سيكون اسمها عربة بنز.. سنبيع آلاف العربات ونكسب الملايين.

بان التفكير على وجه «بيرتا» ثم قالت بصوت هادئ:

ـ كارل.. هل تعتقد أن الناس سيُقْبِلون على شراء هذه العربة؟ سوف يستغنون عن الجياد ويركبون عربتك.. عربة بنز؟

ـ طبعا.

ـ لا أعتقد يا «كارل» أن الأمر بهذه السهولة.. الناس يتركون عاداتهم بصعوبة كما أنهم لا يمكن أن يدفعوا نقودهم في سلعة لا يعرفون عنها شيئا.

تطلع إليها «كارل» مفكرا ونهضت هي من مقعدها ببطء، تقدمت نحوه وقد اكتسى وجهها بطابع من العزم.. أخذت رأسه بين يديها وطبعت قُبلة على جبينه وهمست:

ـ «كارل».. أنا سعيدة مثلك بالاختراع وفخورة بك.. لكن عملنا لم ينته، إنه بالكاد يبدأ.

* * *

في اليوم التالي شرعت «بيرتا» في تنفيذ خطتها.

استدعت «توم ميزنبرج»؛ أشهر مصور في المدينة، عجوزًا في السبعين، طويلًا ونحيفًا وشعره أبيض تماما.. ثيابه رثة مجعدة وكأنه ينام بها، جاء ثملا كعادته وأصر على قبض أجره كاملا مقدما، ثم قضى النهار كله في التقاط صور للعربة من زوايا مختلفة، انتظرت «بيرتا» حتى انتهى من تحميض الصور ثم اختارت أفضلها ووزعتها بنفسها على الصحف المحلية.. طلبت نشرها مع إعلان مدفوع القيمة، ظهر في عدد الأحد بالصيغة التالية:

«يسر المهندس «كارل بنز» أن يعلن لأهالي مدينة مانهايم أنه، بعد سنوات طويلة من العمل الشاق، قد توصل إلى اختراع عربة بنز؛ أول عربة في التاريخ تسير بالدفع الذاتي، هذه العربة لا تحتاج إلى حصان يجرها، وإنما يدفعها محرك صغير يعمل بوقود الجازولين.. إنها وسيلة جديدة مدهشة للانتقال ستجعل حياتنا أسهل وأجمل، ولسوف يقيم «كارل بنز» معرضا لسيارته يوم الأحد الموافق ١٥ من مايو القادم، أمام منزله، في تمام الواحدة بعد الظهر.. والدعوة عامة».

أثار الإعلان ضجة كبرى في مدينة مانهايم سرعان ما انتقلت إلى المدن المجاورة.. احتدم الجدل حول الاختراع الجديد: معظم الناس استغربوا الأمر وتساءلوا كيف يمكن لعربة أن تسير بغير أن يجرها حصان!! ظل أكثر الناس يتأرجحون بين الشك والتصديق، بعضهم من المتحمسين للعلم والتطور صدقوا الفكرة ودافعوا عنها، وبعضهم استهزءوا علنا بـ«كارل بنز» وعربته المزعومة، على أن أبرز المعارضين وأكثرهم شراسة كانوا المسيحيين المتزمتين الذين أخذوا يُرددون في كل مكان:

«إن دفع العربة بدون حصان مسألة مستحيلة؛ لأن الرب لم يخلق هذا الكون عبثا وقد خلق لنا الجياد خصيصا لتجر عرباتنا.. إنه ناموس أزلي لا يمكن لـ«كارل بنز» أو سواه أن يغيره».

جاب هؤلاء المتطرفون كل مكان في مانهايم ليؤكدوا للناس، بصوت منذر ونظرات حانقة كارهة: «أيها المؤمنون بيسوع، إن العربة الجديدة ليست اختراعا، وإنما واحدة من حيل الشيطان التي لا تنتهي

حتى يفتتن المؤمنون ويهتز إيمانهم بالرب.. «كارل بنز» ليس عالما ولا مخترعا وإنما هو مشعوذ يتصل مع زوجته بالأرواح الشريرة. لكن أحابيل الشيطان أضعف من خيط عنكبوت كما أكد الرب نفسه، وسترون بأنفسكم أن نهاية الزوجين المشعوذين ستكون مروعة، هكذا عاقبة كل من باع روحه للشيطان».

اشتد اللغط حول عربة «بنز»، واشتبك المعارضون والمؤيدون والمتشككون في نقاش لا ينتهي حتى لم يعد لأحد حديث آخر في مانهايم.

وفي الموعد المحدد للمعرض كان «كارل» و«بيرتا» قد أعدا كل شيء بإتقان.. أحضرا العربة من الورشة ووضعاها أمام باب منزلهما، وقد اجتهد «كارل» في تنظيفها وتلميع أجزائها المختلفة حتى صار منظرها مبهجا فعلا.

امتلأ الشارع عن آخره بالمتفرجين الذين ظلوا يتوافدون بلا انقطاع، احتشدوا في الطرق المؤدية للمنزل وتدافع بعضهم إلى مدخله حتى اضطرت الشرطة للتدخل من أجل فرض النظام.. أحاط الجنود بالعربة المغطاة لمنع الناس من العبث بها وانتشروا في تمام الساعة الواحدة في كل مكان من أجل تنظيم الجمهور ومنع الشغب.

ظهر «كارل بنز» بصحبة زوجته، كان يرتدي بدلة لونها رصاصي فاتح وقميصا أبيض وبابيون أحمر قانيا.. أما زوجته «بيرتا» فارتدت ثوبا أزرق سماويًّا في غاية الأناقة (اشترته خصيصا لهذه المناسبة)، وقبعة من نفس اللون تتدلى منها شرائط بيضاء.

سرى الهمس وشيئا فشيئا تحول إلى لغط، شق الزوجان طريقهما

بصعوبة بين المتجمهرين حتى وصلا إلى العربة المغطاة ثم بحركة واحدة خاطفة، نزع «كارل» الغطاء فظهرت العربة، وهنا لم يستطع الناس السيطرة على مشاعرهم فتعالت الصيحات والضحكات العصبية.. وقف «كارل» يتطلع إليهم وبدا كأنما يريد أن يتكلم، ارتفع أكثر من صوت يدعو الحاضرين إلى الهدوء ولما ساد الصمت قال «كارل» بصوت متحشرج من أثر الارتباك:

«أيها السيدات والسادة..

أشكركم على الحضور وأؤكد لكم أنكم تشهدون الآن بداية عصر جديد، إنكم تعيشون لحظة يتغير فيها العالم، يوما ما ستحكون لأحفادكم أنكم رأيتم أول عربة من طراز بنز، ها هي أمامكم.. إنها عربة لا تحتاج إلى حصان لكنها تندفع ذاتيا بواسطة محرك قمت بتركيبه في المؤخرة.. كما أن قيادتها بسيطة كما سترون بأنفسكم الآن».

اتكأ «كارل» بقدمه اليمنى على الدواسة الصغيرة المتدلية من العربة ثم صعد وجلس إلى مقعد القيادة.. ساد صمت عميق وتدافع الناس إلى الأمام ليشاهدوا ما يحدث بالتفصيل.. انحبست الأنفاس وتعلقت أنظار الناس جميعا بـ«كارل بنز» الذي جاهد حتى نجح في الاحتفاظ بابتسامة الثقة التي ظهر بها من البداية، وضع يده اليمنى على مقبض القيادة وأمسك بيده اليسرى حزام المحرك الجلدي الأسود، شده مرة واحدة بعنف فأصدرت العربة زمجرة عالية غاضبة ونفثت دخانا كثيفا ثم قفزت إلى الأمام فتعالى من الناس صراخ جماعي حاد ملتاع كأنهم على ظهر سفينة تتأرجح بقوة قبل أن تغرق في المحيط؛ كأنهم حتى تلك اللحظة كانوا في قرارات نفوسهم غير مصدقين أن ما يحدث أمامهم حقيقي. انطلقت العربة في الشارع والناس يركضون خلفها وهم

يصيحون ويصفقون ويهللون، بدا «كارل» مسيطرا عليها تماما، يوجهها بسهولة واقتدار كأنه فارس بارع يخضع جواده لمشيئته، تقدمت العربة بسرعة إلى الأمام واستطاع «كارل» أن يوجهها على الطريق الرئيسي فظلت تتقدم والناس يركضون خلفها، نجح «كارل» تماما لدرجة أن «بيرتا» علت وجهها ابتسامة ظفر وهي تتابعه بنظرها.

دار «كارل» مع الطريق بنجاح وعندما حاذى الشجرة الكبيرة، جذب ذراع الفرملة المعدني المثبت في المحرك ليوقف العربة، جذبها بقوة عدة مرات لكن الذراع للأسف لم تستجب... حاول «كارل» جاهدا أن يتحكم في مقبض القيادة لكن العربة، المنطلقة الآن بأقصى سرعتها، بدت فجأة وكأنها أعلنت العصيان، انحرفت بقوة وقفزت على الرصيف وفي لحظة واحدة فقدت توازنها ثم ارتطمت بالشجرة وانقلبت.. هكذا نزل المشهد الأخير: السيارة مقلوبة وعجلاتها تئز وتدور بينما المحرك يزمجر وينفث دخانا كثيفا.. بدت العربة حينئذ كأنها حشرة كابوسية عملاقة انقلبت على جنبها وعجزت عن استعادة وضعها الطبيعي.. كان «كارل» محشورا تحتها فاختنق بالدخان وأخذ يسعل بشدة وبذل مجهودا مضنيا حتى أفلح أخيرا في الخروج وقد تلوث بالشحم تماما، وجهه ويداه وبدلته الأنيقة.. ساد صمت عميق وثقيل، من فرط الذهول احتاج الناس لبضع لحظات حتى يستوعبوا ما حدث ثم فجأة، انطلقت كل مشاعرهم المكبوتة دفعة واحدة: أخذوا يصيحون ويقفزون ويضحكون بشدة وكأنهم جنوا.. ترك «كارل» السيارة كما هي وانسحب منكس الرأس عائدا إلى منزله و«بيرتا» خلفه، وكان عليه أن يتحمل تعليقات ساخرة شامتة انهالت عليه كالسهام المسمومة من كل اتجاه:

ـ حسنا يا سيد «بنز».. أظن جر العربات بالخيول أفضل بكثير من هذه الشقلبة.

ـ أتريدني أن أترك عربتي وحصاني لأركب صندوق الموت هذا؟

ـ نشكرك يا سيد «بنز» على هذه الفقرة الفكاهية.. أقترح عليك تقديمها في السيرك.

ـ هذا جزاء من يتحدى قوانين الرب.

ـ قل لشيطانك في المرة القادمة أن يصنع لك عربة متقنة.

فشل العرض تماما وحملت الأيام التالية للزوجين الحسرة والشماتة.. تحولت عربة «بنز» إلى مادة السخرية الأولى في مانهايم، وبقدر اهتمام الصحف بالاختراع في البداية صار تهكمها لاذعا، كان الناس يلقون «كارل بنز» في أي مكان بنظرات وعبارات ساخرة إلى درجة أنه صار يقلل قدر الإمكان من ظهوره في الأماكن العامة. أسوأ ما في الأمر هؤلاء المتسكعون السكارى الذين كانوا يفرغون من عب الخمر في الحانة في وقت مبكر ثم لا يجدون ما يفعلونه فيقررون الذهاب إلى «كارل بنز» للتفرج على عربته.. كانوا جميعا يتصرفون بنفس الطريقة: يدقون الباب بوقاحة ويصطنعون هيئة الجد ثم يطلبون منه مشاهدة العربة التي تسير بدون حصان لأنهم يفكرون في شرائها.. كان «كارل» يدرك من البداية أنهم عابثون لكنه يضع في اعتباره احتمالا ضئيلا أن يكونوا قد جاءوا فعلا لشراء العربة.. كان يقودهم إلى الورشة وما إن يقف أمام العربة ويبدأ في شرحها لهم حتى ينهالوا عليه بالأسئلة والتعليقات الساخرة.. عندئذ يتأكد له أنهم يسخرون منه فيتركهم بهدوء وينسحب صامتا، يجلس على المقعد في الركن ويظل صامتا حتى يستنفدوا طاقتهم الشريرة وينصرفوا..

تحمل «كارل» كل هذه الآلام وظلت «بيرتا» تؤازره بكل قوتها إما بالمواساة الصريحة وإما بتجاهل الموضوع ومحاولة التصرف بطريقة طبيعية والترويح عنه بأية طريقة.. على أن خيبة الأمل كانت أشبه بسحابة سوداء ثقيلة راحت تظلل الزوجين أينما ذهبا ومهما قالا أو فعلا.

في يوم حار من شهر أغسطس ١٨٨٨ اقترحت «بيرتا» على «كارل» أن يتناولا عشاءهما في حديقة المنزل،كانت قد صنعت له طبق الدجاج المشوي الذي يحبه وشربا معا زجاجة من النبيذ الوردي المثلج المنعش.. حاولت «بيرتا» أن تجعل العشاء ممتعا أو على الأقل عاديا يتحدثان خلاله عن أمور أخرى غير موضوع العربة والعرض الفاشل.. مضى كل شيء على ما يرام حتى ظهر فجأة رجل في نحو الخمسين بجوار باب الحديقة، كان يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا أزرق.. تطلع إليه الزوجان فألقى عليهما تحية المساء وقال بصوت مرتفع:

ـ عفوا يا سيدي.. هل أنت «كارل بنز» الذي اخترع العربة التي تسير بدون حصان؟

ـ نعم.

ـ أريد أن أراها من فضلك.

صمت «كارل» لحظة ثم تطلع إليه وقال بصوت عميق:

ـ ليس لديَّ ما أُطلعك عليه، آسف يا سيدي.

ـ كيف ذلك؟ أريد أن أرى العربة التي اخترعتها.

أطرق «كارل» قليلا ثم رفع رأسه نحو الرجل وكرر الإجابة بهدوء:

ـ ليس لدي ما أُطلعك عليه.

ظل الرجل ينظر إليه ثم انحنى وقال بأدب:

ـ حسنا يا سيد بنز، آسف على إزعاجك.. طاب مساؤك.

تلك الليلة، لما دخل الزوجان ليناما، ظلا مستلقِيَيْن في الظلام، متجاورَيْن، صامتَيْن تماما، ثم مدت «بيرتا» يدها لتحتضنه، وكأنما كان ينتظرها.. زحزح جسده وألقى برأسه على صدرها.. سألته بصوت حانٍ:

ـ لماذا رفضت أن تعرض العربة على الرجل؟

لاذ بالصمت لحظات ثم تنهد وقال بصوت خافت وكأنه يُحدث نفسه:

ـ سئمت من دور المهرج يا بيرتا.. لم أعد أتحمل نظرات الشك والأسئلة الوقحة وضحكات التهكم.

ـ إنهم حمقى.. لا يدركون قيمة ما أنجزته.

ـ كفى يا بيرتا.. لقد فشلتُ يا عزيزتي، هذه الحقيقة التي يجب أن أواجهها، كنت أركض لأعوام طويلة خلف السراب، كنت أطارد أشباحا.

سكت قليلا ثم استطرد هامسا:

ـ أستحلفك بالمسيح يا بيرتا. لا تحدثيني عن هذه العربة أبدا.

كان رأسه لا زال على صدرها.. استغرقا في الصمت من جديد وأحست بجسده يختلج، كان «كارل» يبكي.. أحست بغصة تُمزق قلبها، احتضنته بقوة، ظلا متلاصقَيْن حتى سمعت أنفاسه المنتظمة وأدركت أنه نام، عندئذ جذبت يدها بخفة وأزاحت رأسه برفق ووضعته على الوسادة.

ظلت جالسة في الفراش مستيقظة تحدق في الظلام وتفكر، ولما تسلل الخيط الأول من الضوء عبر النافذة المفتوحة.. كانت قد اتخذت قرارها، تسللت على أطراف أصابعها وفتحت الدولاب وسحبت ملابسها في الظلام ثم نزلت على الدرج وارتدتها في حجرة الاستقبال.. أيقظت ولدَيْها «يوجين» و«ريتشارد»، البالغَيْن آنذاك من العمر ١٢، ١٤ عاما. طلبت منهما أن يغتسلا ويرتديا ملابسهما بأقصى سرعة، ولما سألاها إلى أين ستذهب بهما دمدمت قائلة: «سأخبركما فيما بعد».

فتحت باب الخروج بحذر لئلا يصدر صوتا ثم توقفت وكأنها تذكرت شيئا.. تركت الولدين واقفَيْن وعادت إلى المطبخ والتقطت ورقة وقلمًا ثم كتبت بخط كبير: «كارل.. لا تقلق علينا.. ذهبنا لزيارة أمي وسوف نعود غدا».

علقت الورقة في مكان واضح حتى يقرأها عندما يستيقظ، ثم أغلقت الباب وأمسكت جيدا بالولدَيْن وانطلقت إلى الورشة، فتحت الباب ودفعت مع ابنيها العربة إلى الشارع، ثم ساعدتهما على الركوب وجلست على المقعد بينهما، أمسكت بالحزام الجلدي بيديها الاثنتَيْن وشدته بأقصى ما تملك من قوة.. عندئذ.. زمجر المحرك وأطلق دخانا كثيفا وقفزت العربة إلى الأمام.

(٢)

ارتفع أذان الفجر ففتحت رقية عينيها ورددت الشهادة همسا ثم انسلت من الفراش وأغلقت باب الحجرة برفق لئلا توقظ زوجها عبد العزيز. اتجهت إلى الحَمَّام وأَقْعَت أمام الوابور وأشعلته، ولما اطمأنت إلى قوة النار وضعت عليه الإناء الكبير الممتلئ لحافّته بالماء ثم ذهبت إلى المطبخ.. أعدت صينية الإفطار للضيوف وسندوتشات المدرسة للأولاد ولما عادت إلى الحَمَّام كان الماء يغلي فأخذت غيارها ودخلت. الحمام الصباحي عادة اكتسبتها منذ بداية الزواج.. كانت آنذاك تقيم في الصعيد مع حماتها (رحمها الله) التي كانت تراقب مرات استحمامها لتعرف متى نامت مع عبد العزيز. من هنا كان الاستحمام كل صباح طريقة ناجحة للتغطية على حياتها الخاصة.. مع الوقت تعودت أن تبدأ يومها بذلك الإحساس بالانتعاش، بعد أن تستحم تجفف جسدها بعناية وترتدي جلبابا نظيفا مكويا.. تصعد السلم وهي تحمل صينية الإفطار المغطاة بالسلك وتضعها أمام باب حجرة الضيوف. حجرة الضيوف فوق السطح، وهي مخصصة لمبيت أقارب الأسرة الذين ينزلون من الصعيد إلى القاهرة لسبب أو لآخر، للعلاج أو استخراج الأوراق أو التجارة.. حجرتهم فوق السطح متسعة وفيها حوض وملحق بها دورة مياه وسُلّم خاص منفصل. بيت عبد العزيز مفتوح دائما لأقاربه، وهو يعتبر ضيافتهم واجبا عليه تماما مثل رعاية أولاده.. بدأت رقية في إيقاظ أولادها.. محمود

الأصعب؛ توقظه أكثر من مرة لأنه يعاود النوم، تتعامل معه بصبر، تسامحه مهما يرتكب من أخطاء.. بعد شهور من ولادته لاحظت أنه بطيء الحركة والاستجابة، عرضته على طبيب كبير في أسوان فقال إنه سيعيش دائما متأخرا بعض الشيء في الإدراك عمن هم في سنه، ذهاب محمود إلى المدرسة تحصيل حاصل لأنه يعيد الإعدادية للمرة الثانية وهو ينفق كل مصروفه ووقته في رفع الأثقال وتنمية عضلاته حتى صار كالمارد وهو لم يتجاوز السابعة عشر من عمره.. بعد المحاولة الأولى مع محمود تذهب رقية لإيقاظ الكبيرَيْن: سعيد وكامل..كامل رقيق كالنسمة.. ما إن تمسح بيدها على رأسه حتى يفتح عينيه وينهض فيُقَبِّل يدها ثم يتولى هو إيقاظ سعيد. تحب أن تترك صالحة للنهاية لكي تمنحها وقتا أزيد للنوم، بعد أن يغتسل الأولاد ويرتدون ثيابهم يجلسون حول المائدة، تجتهد رقية حتى يكون الإفطار شهيا؛ بيض وجبن وفول وخبز طازج مع الشاي واللبن. بعد ذلك تجلس مربعة الساقين على الأريكة وفي يدها اليسرى مسبحتها الخضراء ذات الـ٩٩ حبة، يصطف الأولاد وينحنون أمامها واحدا بعد الآخر، تضع يدها على رءوسهم وترقيهم بآيات القرآن. تمنعهم من النزول معا اتقاء للحسد، سيقول الناس هؤلاء أولاد همام وينظرون إليهم فتصيبهم أمراض وكوارث. تصر على خروجهم تباعا، لا يخرج أحدهم من الباب إلا عندما يصل من قبله إلى نهاية الشارع. يتهرب سعيد دائما من توصيل أخته إلى المدرسة بينما يرحب كامل عن طيب خاطر، يصطحب صالحة إلى مدرسة السنية ثم يركب إلى الجامعة.. يكون محمود آخر من يخرج.. تأخذ أمه عليه العهد والقسم المغلظ على القرآن الكريم أنه سيذهب فعلا إلى المدرسة ولن يزوغ ليلعب الكرة في الشارع أو يذهب إلى السينما، والأهم أنه لن يتشاجر أبدا، أولادها ورثوا جميعا بشرة الهمامية السمراء الفاتحة إلا محمود، جاء لونه أسود فاحمًا كأنه سوداني جنوبي. في

المدرسة يعايره العيال برسوبه وسواد بشرته فيندفع ويضربهم؛ عندئذ تتحول قوته الجسمانية إلى خطر داهم. في العام الماضي تشاجر مرتين ففتح حاجبَ أحد التلاميذ وكسر ذراع آخَر حتى حذر مدير المدرسة أباه وأكد أنهم سيضطرون إلى فصله إذا كرر التشاجر. كان ذلك يومًا أغبر. ضرب عبد العزيز ابنه محمود بعنف وهو يصيح:

ـ «ألا يكفيك أنك فاشل وغبي؟! عامل نفسك بلطجي. أقسم بالله العظيم لو مددت يدك على أي تلميذ لأحضر إلى المدرسة وأضربك بالعصا أمام زملائك كلهم».

لم تغفر لزوجها أبدا ما فعله، محمود مسكين، عقله بسيط، الأصول توجيهه بهدوء، قبل أن يخرج محمود كل صباح تُقبله وتَرقيه وتكرر عليه نفس النصيحة:

ـ «إذا ضايقك أحد يا محمود إياك تضربه، ابعد عنه واقرأ الفاتحة في سرك».

يطمئنها محمود ويحتضنها.. تحس بقوة عضلاته فلا تستطيع أن تغالب إحساسا بالزهو. بعد خروج الأولاد يكون بمقدورها أن تخلو إلى نفسها، لا زال أمامها وقت حتى التاسعة موعد إيقاظ عبد العزيز، تعودت في هذه الساعة أن تعد كوبا من الشاي بالنعناع وتجلس بجوار النافذة. تستمتع بمراقبة الباعة والسيارات وتلاميذ المدارس والموظفين.. لكنها هذا الصباح منهكة.. لم تنم جيدا بالأمس.. ظلت تحدق من خلال الزجاج بدون أن ترى شيئا، حتى طعم الشاي لم تحس به، فكرت أنها في الشهر القادم تكون قد أكملت خمسة أعوام في القاهرة، يا الله، ما أسرع ما تمر الأيام. كان يوم سفرها من دراو إلى القاهرة حدثا كبيرا، يقولون إنه باستثناء زيارة الزعيم سعد زغلول الشهيرة إلى الصعيد، لم

تشهد محطة القطار في دراو ازدحاما كما حدث يوم سافرت بأولادها الأربعة إلى القاهرة.. في ذلك اليوم احتشد المودِّعون خارج المحطة وداخلها، أمام البوابة وفي الردهة وعلى الرصيف.. كل الأسر الكبيرة في دراو بعثت بوفود لتوديعها.

ناس محجوب، ناس عبد المقصود، ناس عويس، ناس شيبة.. حتى ناس البلم بالرغم من توتر علاقتهم بأسرتها بسبب النزاع المستمر على النخيل في الناحية الشرقية، تغلب إحساسهم بالواجب على ضغائن الماضي فبعثوا بعشرة رجال مع حريمهم وأولادهم للمشاركة في التوديع، كانوا جميعا يعطفون عليها؛ زوجها وابن عمها عبد العزيز همام؛ أحد أعيان دراو، الذي ورث عن أبيه أطيانا وأموالا، المعروف بشهامته وكرمه، الذي لم يتخل يوما عن مؤازرة قريب أو جار أو أي واحد من أهل بلدته.. ها هو تلاحقه الديون فيبيع أرضه قطعة قطعة حتى يفلس وتنقطع به السبل فيهاجر إلى القاهرة بحثا عن عمل مثل الأجراء والمطاريد بعد أن جاوز الأربعين من العمر، زاد من تعاطف أهل دراو أن كثيرين منهم احتاجوا في الماضي إلى مبالغ فأقرضهم عبد العزيز عن طيب خاطر، وكثيرا ما تغاضى بعد ذلك عن مطالبتهم بالرد. كانوا يشعرون في أعماقهم أنهم مسئولون على نحو ما عن إفلاسه، رأت رقية في عيون المودِّعين شفقة ومحبة واحترامًا عميقًا. إنها في نظرهم نموذج المرأة الصعيدية الأصيلة، لا تفارق زوجها ولا تتخلى عنه أبدا، تسانده، بالعزم ذاته، في الرخاء والشدة على حد سواء.

كل هذه المعاني كانت حاضرة يوم السفر كأنها سحابة كبيرة غير مرئية لكنها محسوسة تظلل المشهد.. نزلت رقية من الحنطور ولاحت على وجهها الأسمر الجميل ابتسامة كأنما تؤكد جَلَدها وتَقَبُّلها الكامل لنصيبها

واستعدادها لتحمُّل المزيد، كان الصغيران صالحة ومحمود يمسكان بطرف ثوبها الأسود بينما يمشي خلفها الابنان الكبيران سعيد وكامل، يحمل كل منهما حقيبة ومشنة على رأسه، أما الحقيبة الكبرى فقد حملها أخوها بشير على كتفه.. تدافع الناس ناحيتها وأحاطوها من كل جانب، أخذت تحييهم وتشكرهم واحدا واحدا.. صافحت الرجال واحتضنت النساء وقَبَّلتهن.. بعض النسوة كانت تفيض مشاعرهن فيبكين وبعضهن أعطين محمود وصالحة عسلية ونبوت الغفير.. محمود يلتهم الحلوى فورا أما صالحة؛ العاقلة المهذبة، فكانت تمتنع أولا وتنظر إلى أمها حتى تسمح لها بإيماءة.. عندئذ، تأخذ الحلوى وتقول بصوت واضح:

ـ متشكرة يا خالة.

ظلت رقية تتقدم ببطء، كلما انتهت من مصافحة بعض الناس أحاط بها آخرون.. ارتفعت الأصوات:

ـ نشوفك بخير يا أم سعيد.

ـ تروحي وترجعي غانمة سالمة بإذن الله.

ـ شِدة وتزول يا أصيلة.

ـ سلامنا إلى عبد العزيز.

استغرقت رقية وقتا طويلا حتى وصلت إلى الرصيف الذي يربض أمامه القطار، كانت تجرجر الأولاد خلفها ومن ورائهم يهرول أخوها بالحقيبة على كتفه.. وجدت نفسها من جديد وقد أحاطها المودعون من كل جانب.. لمحت نسوة من ناس البلم فتركت الجميع وتوجهت ناحيتهن، احتضنتهن بحرارة ثم تركت يدها في يد نوال زوجة عبد العال (كبير ناس البلم) وقالت لها بصوت مرتفع ليسمع الجميع:

ـ خطوة عزيزة.. مجيؤك على رأسي.

تأثرت زوجة عبد العال من حفاوة رقية فأخذتها من جديد في حضنها ثم تأملت وجهها وقالت بنبرة صادقة:

ـ ربنا يعلم يا رقية أني أحبك.

ـ وأنا أيضا أحبك يا بنت الأكابر.

ـ ناس همام أسياد البلد.

ـ بل أنتم الأحسن يا ناس البلم.. عملتم لبلدنا قيمة وهيبة.

ـ الشيطان لعنه الله هو الذي دخل بيننا.. ربنا يهدي الجميع.

ـ الأشقاء يختلفون ومصارين البطن تتصارع.. لكن الدم لا يهون أبدا.

ـ ربنا يحفظك يا رقية ويردك بألف سلامة.

في تلك اللحظة مال بشير على أخته رقية وأسرَّ في أذنها بشيء ما فأومأت برأسها واستمرت تتحدث مع زوجة عبد العال.

لم يكن من اللائق أن تقطع حديثها فجأة، كانت تدرك أن أي حركة مع زوجة عبد العال البلم بالذات، قد يُساء تفسيرها وتأويلها، وربما تتسبب في تجدد النزاع بين الأسرتين.

ظلت تتحدث مع المرأة بضع دقائق ثم انتقلت لمصافحة أسرة أخرى من المودِّعين.. لكن أخاها بشير هذه المرة جذبها بعنف من جلبابها نحو القطار الذي أصدر زمجرة عالية ثم أطلق دخانا كثيفا كأنه غضب فجأة.. ارتفع صياح المودِّعين عاليا وكأنهم يستغيثون وفي لحظة، أمسكت رقية بصالحة ومحمود وانطلقت تعدو وخلفها ولداها سعيد

وكامل وأخوها بشير.. ركضوا بأقصى ما أوتوا من قوة ليلحقوا بالقطار الذي كان يتأهب للانطلاق.

رشفت رقية من كوب الشاي وأفلتت منها ابتسامة وهي تتذكر.. في ذلك اليوم فاتها القطار من كثرة المودِّعين، عندما تحكي ذلك لجارتها عائشة تضحك بشدة وتردد النكات عن غباء الصعايدة.. في اليوم التالي حجز لها أخوها بشير تذاكر جديدة واضطر إلى المرور على بيوت دراو جميعا ليطلب من الناس عدم توديعها هذه المرة، أقاربها جميعا تفهموا الأمر ما عدا عبد البر ابن عمها عويس، أصر على توديعها من جديد، ولما جادله أخوها احتد عليه وقال:

ـ رقية بنت عمي مثلما هي أختك.. عليَّ الطلاق بالثلاثة سأذهب لتوديعها على المحطة ولو فاتها القطار مائة مرة.

جاء عبد البر فعلا في المرة الثانية وقد أحست نحوه بامتنان، عبد البر تربى معها وكان هناك كلام أنه سيتزوجها، لكن النصيب غلَّاب وهي تعلم أن إصراره على توديعها ليس بريئا تماما؛ ربما ما زال عبد البر يحبها بعد هذا العمر لكنها لا تجرؤ حتى على التفكير في ذلك احتراما لزوجها عبد العزيز الذي هو عندها سيد رجال الدنيا.. بعد خمسة وعشرين عاما لا زالت تذكر زفافها إلى عبد العزيز وكأنه حدث بالأمس.. تلك الليلة، نُحرت ذبائح كثيرة ولعلع صوت الرصاص في أنحاء دراو.. استمر الاحتفال أسبوعا كاملا ورددت النسوة آنذاك بحسد إن الجمل الذي حملها لبيت الزوجية كاد يئن من ثقل الذهب الذي أهداه إليها العريس، لن ترى امرأة العز الذي رأته أبدا.. كان لديها في دراو بيت كبير بمضيفة فسيحة وحديقة نخيل وخدم ومصاغ وجياد وجمال وبهائم ودواجن والأهم من كل ذلك: زوج رائع؛ لم يسئ إليها ولم يضربها ولم يهن

كرامتها وهي واثقة أنه لم يخنها قط.. تأخرت في الحمل فوسوست له أمه (الله يرحمها ويسامحها) وألحت عليه حتى يتزوج عليها، كانت تقول له على مسمع منها:

ـ أنت رجل؛ لازم تخلف ولد من صلبك، تزوج على رقية.. هكذا شرع الله.

أي رجل غير عبد العزيز كان سيتزوج عليها حتما، لو فعل ذلك لما لامه أحد، لكنه رفض وأعلن تمسكه بزوجته حتى لو عجزت عن الإنجاب نهائيا،كيف تنسى هذا الفضل؟ عندما بعثت أمه بالشيخ مشعل ليصنع لها حجابا للإنجاب استقبله عبد العزيز بفتور وقال:

ـ الله الغني عن حجابك.. لن أفعل شيئا ينهانا عنه رسول الله ﷺ.. الخِلْقة والحياة والموت والرزق من أمور ربنا لا ننازعه فيها أبدا.

ثم صمت قليلا وأضاف بلهجة ساخرة:

ـ ثم إذا كنت مصاحب الجن فعلا يا شيخ مشعل.. لماذا لا تطلب منهم أن يشفوك من الروماتيزم الذي ينخر عظامك؟!

بعد عامين من المعاناة، منَّ الله عليها فأنجبت ستة عيال راح منهم اثنان وبقي أربعة، ثم جاءت المحنة الكبرى وأفلس زوجها؛ الحمد لله على كل حال.. ربنا سبحانه وتعالى يختبر بني آدم بالنعمة ويختبره بالمصائب.. مَن كان يتخيل أنها ستبدأ حياة جديدة في القاهرة.. عبد العزيز يكافح بضراوة حتى يعيشوا بمستوى لائق: استأجر لهم شقة كبيرة ومريحة في شارع السد الجواني بالسيدة زينب، أربع حجرات وصالة وسطح للضيوف بسلم وباب منفصل، إيجار الشقة مرتفع ونفقات الأولاد لا تنتهي، بالإضافة إلى تكاليف الضيوف الذين لا ينقطعون عن

زيارتهم أبدا.. أكل وشرب ودخان وأحيانا كسوة، كان الله في عونه، من أين يأتي بكل هذه المصاريف وكيف يتحمل وظيفته البسيطة وقد عاش عمره سيدا في دراو؟ عندما أعطاها لأول مرة بدلة الشغل الصفراء ذات الأزرار النحاسية لكي تكويها قال بلهجة حاول أن تبدو عادية:

ـ أنا أعمل مساعد مخزن.. وهذه بدلة العمل.

بذلت عندئذ مجهودا جبارا لكي تخفي مشاعرها، ثرثرت عن أشياء عابرة وضحكت وهي تكوي البدلة بعناية، وضعتها في الحقيبة الصغيرة وودَّعته حتى الباب ولما انصرف أجهشت بالبكاء، عبد العزيز همام ابن الأكابر يعمل فَرَّاشا على آخر الزمن.. الحمد لله على كل شيء.. انتبهت من أفكارها ونظرت إلى الساعة المعلقة في الصالة فوجدتها جاوزت التاسعة.. هرعت نحو حجرة النوم وفتحت الباب بهدوء، تأملت وجه عبد العزيز وهو نائم.. كم تحب هذا الرجل، تعشقه، تلك القوة، الصلابة، ذلك الاعتزاز. كيف استطاع أن يتحمل هذه المحنة بجَلَد؟ كثيرون غيره كانوا سيموتون من القهر، لكن عبد العزيز مؤمن وراضٍ بقضاء الله.. هزته برفق حتى انتبه وقام، اغتسل وتوضأ وصلى الصبح وارتدى ثيابه وعندما جلس ليتناول الإفطار بدأت في تنفيذ خطتها.. تنهدت وقالت:

ـ ربنا يقويك علينا يا سي عبد العزيز ويرزقك برزقنا.

ساد الصمت، راح عبد العزيز يكسر قشرة البيضة بعناية ويضع البقايا في الطبق، سألها بهدوء:

ـ عاوزة حاجة؟

تنهدت رقية وهمست وكأنها تعتذر:

ـ قسط الجمعية.

ـ آخر الأسبوع إن شاء الله، حاجة تانية؟

ـ والله أنا مكسوفة منك، أنت عارف الولد سعيد متعب، رأسه وألف سيف يشتري قميص جديد.

ـ ربنا يسهل.

فرغ من الطعام ثم أشعل سيجارة ورشف من فنجان القهوة، انتهزت رقية الفرصة فتقدمت خطوة نحو الهدف، قالت وهي تبتسم:

ـ عندي طلب يا سي عبده وحياة حبيبك النبي ما تكسفني.

ـ خير؟

ـ عاوزة أتصرف في غويشتين وأشتري ماكينة سنجر، أنت عارفني طول عمري غاوية تفصيل، أجيب الماكينة وأخيط عليها، وأهي جابت كثير جابت قليل.. أنا قاعدة في بيتي بكرامتي، أي قرش يساعد في المصاريف.

تطلع عبد العزيز إليها، تعرف هذه النظرة جيدا.. هكذا يبدو عندما يسمع ما لا يعجبه، قال متهكما بمرارة:

ـ عاوزاني أرجع من الشغل ألاقيك قاعدة مع الزبائن؟

ـ الشغل عمره ما يعيب.

ـ بيت همام يبقى محل خياطة على آخر الزمن.

كانت تعلم أنه لن يوافق لكنها لم تيأس. قالت:

ـ طيب، بلاش حكاية الماكينة، البنت صالحة!

ـ ما لها؟

ـ لو سابت المدرسة وقعدت توفر مصروفات التعليم.

ـ يا شيخة حرام عليكِ، الولد محمود الساقط الغبي أصرف عليه دم قلبي والبنت صالحة النبيهة الشاطرة أقعدها في البيت وأضيع مستقبلها!

ـ مستقبلها إنها تتجوز وتخلف.

ـ طول ما عندها رغبة تتعلم لازم تتعلم.

ـ عندي فكرة ثانية.

ـ بزيادة أفكار يا أم سعيد.

هكذا قال وهو ينهض، تناول طربوشه من على المشجب وقال بهدوء وهو يضبط وضعه على رأسه:

ـ ولا يهمك يا رقية.. ستُفرج إن شاء الله.. أنا متأكد.

(٣)

كان ذلك هو الجنون بعينه.

المسافة بين مدينة مانهايم حيث تسكن «بيرتا بنز» ومدينة بفورتسهايم حيث تعيش أمها تزيد على المائة كيلومتر. كيف تخيلت لحظة أن باستطاعتها أن تقطعها بالعربة.. ثم ماذا تعرف هي أساسا عن العربة التي تقودها؟ معلومات قليلة استقتها من الشرح الذي قدمه «كارل» ثم رأته يقود العربة مرة واحدة، اجتاز بها عدة أمتار وانقلبت به، وهي تريد الآن أن تقطع بها مائة كيلومتر مرة واحدة. لا يحتاج الأمر إلى تفكير: لقد تأثرت من إحباط زوجها فاندفعت لارتكاب حماقة، فشلها مؤكد مثل هذه الشمس الساطعة.. إنها الآن وحيدة تماما، تحاول السيطرة على العربة اللعينة بينما ابناها ذاهلان يغالبان النعاس ولا يفهمان ما تفعله، منذ اللحظة الأولى، اكتشفت «بيرتا» أن مقود القيادة غير دقيق في نقل الحركة، عندما تُحركه «بيرتا» إلى اليسار أو اليمين تستغرق العربة لحظات قبل أن تغير الاتجاه.. أحست «بيرتا» أيضا بأن العربة خفيفة للغاية، تتأرجح بسهولة وكأنها قارب صغير تتقاذفه أمواج المحيط. أكثر من مرة اهتزت العربة بشدة وكادت تنقلب فأحست «بيرتا» بهلع وصاحت في ولديها لكي يتشبثا بالحاجز الأمامي، بعد قليل اكتشفت أن المحرك يتوقف بمجرد أن يرتفع مستوى الأرض وبالتالي كان عليها، عند كل مطلع، أن تنزل مع ولديها ليدفعوا العربة بأيديهم، بعد ذلك نفد

الوقود، فتركت الولدين في العربة وهرعت إلى أقرب صيدلية، طلبت عشر زجاجات من الجازولين، كان الجازولين آنذاك يقتصر استعماله على التنظيف المنزلي، الأمر الذي أثار فضول الصيدلي العجوز فقال بأدب وهو يرص الزجاجات في الكيس:

ـ أستطيع أن أخمن أن السيدة تعيش في بيت كبير يحتاج إلى كل هذا الجازولين لتنظيفه.

ابتسمت «بيرتا» بحرج وقالت:

ـ تعالَ معي لحظة.

خرج الصيدلي من خلف المكتب مترددا وهو يبتسم بدهشة وتبعها إلى الشارع حيث وقفت وقالت وهي تشير بيدها:

ـ أنا أستعمل الجازولين كوقود لهذه العربة.

كان الصيدلي قد سمع عن الاختراع فأحس بمزيج من الفضول والحماس وراح يتفقد السيارة كأنها مخلوق فضائي سقط على الأرض لتوه، أصر على مساعدتها، فتحت صمام الوقود وبدأ الصيدلي يصب ببطء جرعات صغيرة من الجازولين حتى امتلأ الخزان تماما، صعدت «بيرتا» إلى المقعد وشدت الحزام، زمجرت العربة ونفثت الدخان المعتاد، صفق الصيدلي مبتهجا وصاحت «بيرتا» عاليا لتشكره قبل أن تقفز بها العربة، بعد ذلك جاء دور التبريد: نفد الماء فتحول المحرك إلى قطعة من اللهب.. أبطلت «بيرتا» المحرك وتركت الولدين في العربة ثم مشت طويلا حتى وجدت صنبورا عموميا في حديقة وملأت منه خزان المياه المطاطي الذي خصصه «كارل» لهذا الغرض، تمنت «بيرتا» أن تكون هذه آخر المصائب ولكن هيهات فلم تلبث العربة أن ارتعشت وتوقفت من جديد، نزلت «بيرتا» لتكتشف أن الكاربيرتير مسدود، فكرت قليلا ثم

فكت دبوسا من شعرها وأخذت، بصبر نملة، تسلك ثقوب الكاربيرتير الصغيرة حتى نظفتها تماما.. بعد ذلك شدت الحزام لكن المحرك لم يستجب. شدته من جديد مرة ثم مرة ثالثة فدار أخيرا وانطلقت العربة.. بعد عشر ساعات كاملة سقطت خلالها كل أنواع المشكلات والأعطال على رأس «بيرتا». بعد أوقات عصيبة من خيبة الأمل والإحباط واليأس.. وصلت عربة بنز أخيرا إلى مدينة بفورتسهايم.. وقبل أن تذهب «بيرتا» إلى بيت أمها، توقفت أمام مكتب التلغراف.. تركت المحرك دائرا ونزلت بسرعة لترسل إلى زوجها البرقية التالية:

> «اليوم.. اجتازت عربة بنز مسافة مائة كيلو متر، من مانهايم حتى بفورتسهايم.. لقد نجحنا ياكارل، نحن فخورون بك».

في اليوم التالي، قادت «بيرتا» العربة في طريق العودة واستفادت من أخطاء الأمس، فجهزت مسبقا جيركن كبيرًا مملوءًا بالماء وعددا من زجاجات الجازولين واستعارت من أمها مجموعة من إبر الخياطة الرفيعة لتسليك فتحات الكاربيرتير إذا انسدت. واستطاعت بهذه التجهيزات أن تختصر ساعتين كاملتين من وقت الرحلة.. تعجز الكلمات فعلا عن وصف الحالة التي استقبل بها «كارل بنز» زوجته العائدة وولديه.. وقف أمام المنزل وما إن ظهرت العربة من بعيد حتى صاح وصفق، ولما نزلت «بيرتا»، بزهوة النصر، هرع يحتضنها ويغمرها بقُبُلاته.. وسجل بعد ذلك في مذكراته:

> «في لحظة ما، تخلى عني الناس جميعا حتى بدأت أشك أنا نفسي في قيمة ما أفعله، شخص واحد لم يهتز إيمانه بي لحظة واحدة.. شخص واحد يعود إليه الفضل في كل ما حققتُه.. زوجتي بيرتا».

* * *

انتشر الخبر من مانهايم وبفورتسهايم إلى بقية أنحاء ألمانيا ثم إلى أوربا والعالم كله، وسرعان ما انهالت العروض على «كارل بنز» وبدأ تصنيع السيارات، ببطء واستحياء أول الأمر ثم باندفاع وتصميم بعد ذلك.. كان جانبا كبيرا من الرأي العام لم يزل معارضا للفكرة من أساسها، إما عن تعصب ديني وإما عن جهل وإما احتجاجا على الضجة والدخان اللذين تسببهما السيارات، كثيرا ما تعرض قادة السيارات الأوائل إلى المطاردة خصوصا في الريف.. كان الناس يجرون خلف السيارة ليلعنوا قائدها، يقذفونها بالحجارة أو يضعون جذع شجرة ضخما في طريقها ليمنعوها من التقدم.. كانت تلك جهودا مستميتة بائسة في معركة تقررت نتيجتها سلفا.. بالرغم من كل شيء فقد ظلت السيارات تنتشر بسرعة مدهشة، وفي يوم ١٣ سبتمبر عام ١٨٩٩ سقطت أول ضحية للسيارات.. رجل أميركي اسمه هنري بليس، كان يحاول عبور الشارع في نيويورك عندما صدمته سيارة فحطمت جمجمته، وقد أثار مقتله مخاوف حقيقية وجدلا واسعا حول خطورة الاختراع الجديد لكن حماس الناس للسيارات لم يهدأ، ثم حدثت الطفرة على يد الأميركي هنري فورد (١٨٦٣ـ١٩٤٧)، الذي بدأ في إنتاج السيارات على نطاق واسع،كانت سياسته تعتمد على خفض هامش الربح وتعويض ذلك بزيادة الإنتاج. وكان مقياسه في ذلك بسيطا؛ أن يظل ثمن السيارة في متناول القدرة الشرائية للموظفين والعمال في مصانعه.. لأول مرة تحولت السيارة من لعبة مسلية للأثرياء إلى وسيلة مواصلات يومية غيرت تماما من حياة الناس وتفكيرهم.. لم تعد المسافات تشكل عائقا ضد رغبات الناس وسلوكهم، صار بإمكان قائد السيارة أن يعمل في مكان بعيد عن منزله وأن يصطحب أسرته في نزهة على شاطئ البحر ويعود بهم إلى البيت آخر النهار، رسخت السيارة إحساس الإنسان

بالاستقلال والخصوصية وأكدت له أنه سيد مصيره، ولم تكن مصر، الواقعة تحت الاحتلال البريطاني آنذاك، بعيدة عن كل ذلك، ففي عام ١٨٩٠، رأى المصريون السيارة لأول مرة، كانت فرنسية الصنع من طراز «ديون بوتون» جلبها حفيد الخديوي إسماعيل؛ الأمير عزيز حسن الذي كان يعشق المغامرة والتجديد، وقد أقدم على مخاطرة كبرى عندما قاد سيارته مع صديقين له من القاهرة إلى الإسكندرية عبر الطريق الزراعي الذي لم يكن ممهدا بالطبع آنذاك، استغرقت الرحلة عشر ساعات كاملة وتكلفت أموالا طائلة لأن سيارة الأمير عزيز، في طريقها إلى الإسكندرية، أتلفت مزروعات كثيرة وسقط تحت عجلاتها عدد غير قليل من المواشي والحمير، وكان الأمير يأمر بتعويض الفلاحين عن خسائرهم فورا ونقدا، لا شك أن المصريين أحبوا السيارات، ففي عام ١٩٠٥ كان في القاهرة ١١٠ سيارات، وفي الإسكندرية ٥٦ سيارة، وخلال عام ١٩١٤ استوردت مصر ٢١٨ سيارة.. ظل عدد السيارات يتضاعف حتى نشأت الحاجة إلى إنشاء نادي للسيارات يختص بشئونها جميعا: إجراءات الرخص ورصف الطرق وتحديد السرعة القصوى وطبع الإرشادات المرورية وفحص المحركات للتأكد من سلامتها.. وبعد محاولات متكررة استغرقت عشرين عاما، افتتح نادي السيارات الملكي رسميا لأول مرة عام ١٩٢٤.

كان المؤسسون جميعا من الأجانب والأتراك وأسندت رئاسة النادي إلى الأمير محمد علي وأهديت الرئاسة الشرفية إلى جلالة الملك فؤاد الأول، وتم انتخاب مجلس الإدارة الذي عين الإنجليزي «جيمس رايت» مديرا للنادي.. تم تشييد النادي كنسخة طبق الأصل من نادي كارلتون الشهير في لندن.. جاء المبنى تحفة معمارية تجمع بين الأناقة والعراقة.. ولما اجتمع مجلس الإدارة من أجل وضع لائحة النادي

نشأت مشكلتان، الأولى: هل يجوز منح عضوية النادي للمصريين؟! كان التيار الغالب يرفض ذلك، يتزعمه مدير النادي «رايت» الإنجليزي الذي قال وهو يشعل غليونه:

ـ أحب أن أكون واضحا، وظيفتنا في هذا النادي أن نقرر سياسة السيارات في مصر. المصريون جميعا، حتى لو كانوا أثرياء ومتعلمين، غير مؤهلين لاتخاذ القرارات، إن السيارة اختراع الرجل الغربي، وله هو وحده اتخاذ القرارات بشأنها، لا أتوقع من المصريين أبدا أكثر من شراء السيارة وركوبها.

وبعد أخذ ورد وشد وجذب، حذرهم عضو إيطالي يتقن العربية من أنهم لو أعلنوا رسميا منع المصريين من العضوية سوف يتعرض النادي إلى حملة شرسة في الصحف المصرية؛ مما سيؤثر حتما على مبيعات السيارات في مصر، تردد صوت الإيطالي في فضاء القاعة والأعضاء يتابعونه بصمت وانتباه:

ـ الشعور الوطني في مصر ملتهب ضد الاحتلال البريطاني، وقد يؤدي ذلك في أية لحظة إلى كراهية الأجانب ومقاطعة بضائعهم، نحن لا نريد ذلك.. أظن أننا جميعا نحب أن نرى المصريين يشترون المزيد من السيارات.

نظرًا لوجاهة التحذير، تناقش المجتمعون طويلا ثم اتفقوا على وضع بند في اللائحة يتوجب على المصري الذي يتقدم للعضوية أن يحصل على تزكية مكتوبة من عضوين بمجلس الإدارة، أما الأجنبي فيكفي تقديم ما يثبت أنه يملك سيارة حتى يمنح العضوية تلقائيا.. وهكذا يستطيع المجلس أن يمنع دخول المصريين، بقدر الإمكان، بطريقة رسمية لَبِقَة لا تستفز الرأي العام.

المشكلة الأخرى كانت الخدم. كان أعضاء المجلس يتمنون بالطبع أن يستقدموا الخدم من أوربا، لكنهم لما درسوا الأمر تبين أن تكلفة الخدم الأجانب ستكون باهظة لا يمكن لميزانية النادي أن تتحملها أبدا، كانت هذه مشكلة عويصة إذ كان لدى الأعضاء اعتراضات كثيرة على الاستعانة بخدم مصريين.

«إنهم قذرون، أغبياء، لئام، كاذبون ولصوص».

هكذا قال عضو فرنسي، وكان في الواقع يعبر عن الرأي الغالب وسط الأعضاء.. ظل موضوع الخدم عائقا حقيقيا استغرق الأعضاء في مناقشته أسابيع عديدة بدون الوصول إلى نتيجة حتى كان يوم الثلاثاء الموعد الأسبوعي لاجتماع المجلس، عندما دخل مدير النادي مستر جيمس رايت إلى المجتمعين وهو يحمل ملفا أصفر كبيرا.. ثم وقف على رأس المائدة وقال بنبرة رسمية:

ـ السادة أعضاء مجلس الإدارة.. لقد وضعت مشروعا متكاملا لاستعمال الخدم في النادي.. سأعرض عليكم المشروع الآن وأستمع إلى ملاحظاتكم.

صالحة عبد العزيز همام

لا زلت أحتفظ بصوري وأنا طفلة.

أطالعها الآن فأجدها تعكس سلاما نفسيا.. كم كنت أبدو مبتسمة ومطمئنة.. نعمت بطفولة سعيدة بلا شك. باستثناء غارات أخي سعيد المعتادة. لا أذكر أنني تعرضت لأزمة وأنا صغيرة.. كنت البنت الوحيدة التي يدللها الجميع، لم أعرف القلق أو الإحباط قط، حتى هِجرتنا من الصعيد إلى القاهرة، بدت لي كأنها رحلة إلى مكان أفضل، واقعتان لا أنساهما شكَّلت كل واحدة منهما نقلة في حياتي، كنت أستحم عندما فاجأني النزيف، دفعة من الدم غطت نصفي الأسفل، صرخت فهرعت أمي لنجدتي لكنها لدهشتي لم تُبد جزعا كبيرا، بل إنها اتبعت إجراءات عملية للسيطرة على النزيف، كانت تقول الخطوات بصوت عالٍ كأنها تعلمني.. بعد أن خرجت من الحَمَّام احتضنتني وأفهمتني أن هذا النزيف سيتكرر كل شهر، وأنني هكذا أصبحت امرأة يُعدها الله للإنجاب.

الواقعة الثانية حدثت وأنا تلميذة في الصف الثاني الثانوي في مدرسة السنية: أثناء الحصة الأخيرة، بينما الأستاذ مأمون مدرس اللغة العربية منهمك في شرح ظرف الزمان والمكان، انفتح باب الفصل فجأة ودخلت

أبلة سوسن وكيلة المدرسة، وقفنا احتراما لها فابتسمت وحَيَّتنا ثم أشارت لنا فجلسنا.. همست ببضع كلمات للأستاذ مأمون ثم تقدمت إلى وسط الفصل وقالت بصوت عالٍ:

«البنات اللاتي يسمعن أسماءهن.. يأتين معي».

كانت تقرأ من ورقة صغيرة في يدها، نادت ثلاثة أسماء: أنا وخديجة عبد الستار وعواطف كامل».

لم نكن نعرف سبب استدعائنا، ما إن خرجنا من الفصل ولفحنا الهواء البارد حتى انتابنا إحساس بالمرح، انطلقناكانت أبلة سوسن، كعادتها، تمشي بخُطوات منتظمة شبه عسكرية ولا تنظر خلفها أبدا.. أخذنا نقفز بخفة ونحن نتبعها، قلدت خديجة مشيتها، تبادلت النظر مع عواطف وكتمنا الضحك بصعوبة، كان تجاوبي مع عواطف حالة استثنائية، لم أكن أحبها.. كانت جميلة لكنها مغرورة بشكل لا يُطاق، البنات في الفصل كن يعقدن المقارنات بيني وبينها، أينا أجمل؟ لم أكن أحب الاشتراك في هذه المهاترات وإن كنت أثق بأنني أجمل منها طبعا، كنت أحفظ تفاصيل جسدي وأعتز بها؛ شعري الأسود الفاحم، عيناي الخضراوان اللتان ورثتهما عن جدتي، صدري البارز المشدود لأعلى، ساقَاي الرشيقتان، حتى قدماي الصغيرتان كنت أحبهما.

اصطحبتنا وكيلة المدرسة إلى مكتب أبلة الناظرة.. كان المكان معتما ما عدا بقعة ضوء تنعكس من الأباجورة على وجه الناظرة وهي تقرأ في أوراق أمامها على المكتب.. تسللَتْ إلى أنفي رائحة الخشب العتيق ورائحة أخرى خافتة معطرة لم أميز مصدرها. مجرد رؤيتنا لأبلة الناظرة عن قرب كان يصيبنا بالرهبة.. وقفنا أمامها صامتات حتى رفعت رأسها إلينا، حَيَّتْنا بابتسامة ثم قالت بسرعة كأنها أعدت الكلام سلفا:

«أنتُن البنات الوحيدات في الصف الثاني الثانوي اللاتي لم يدفعن القسط الثاني من المصاريف، هذا القسط كان مستحقا من شهرين طبقا للائحة، لا يمكن أن نسمح لكُن بدخول الامتحان النهائي إلا بعد دفع المصروفات.. أنا آسفة يا بنات لكنها تعليمات وزارة المعارف ولا بد من تطبيقها».

سلمتنا خطابات موجهة إلى أهالينا في مظاريف مفتوحة.. ثم قالت بلهجة حازمة لا تخلو من إشفاق:

«تفضلن الآن.. مع السلامة.. لا تحضرن إلى المدرسة إلا مع أولياء أموركن والمصاريف».

رن الجرس إيذانا بنهاية اليوم، كان علينا أن نعود إلى الفصل لنحمل حقائبنا وننصرف، شيئا فشيئا فقدت التركيز، بدأت أحس بأن جسدي يتحرك تلقائيا بعيدا عن سيطرة ذهني، كأننى أمشي بقوة دفع خارجة عن إرادتي، استوقفتنا بعض البنات وسألتنا عن سبب استدعائنا عند الناظرة، قالت لهن عواطف إن ثمة أخطاء في أسمائنا لا بد من تصحيحها قبل ملء استمارات امتحان آخر العام.. في تلك اللحظة أحسسنا بنوع من التضامن، تواطؤ صامت، صار لدينا نحن الثلاث سر يوحد بيننا ونخفيه عن الزميلات، الغريب أننا لم نتكلم فيما حدث، تبادلنا حوارا عابرا عن موضوعات أخرى، فجأة قالت عواطف بغضب:

ـ ليس من حق المُدَرسة أن تمنعنا من الامتحان لأننا لم ندفع المصروفات، أنا لا أتكلم عن نفسي؛ أسرتي مستورة والحمد لله، ليس لدينا مشكلة، غدا سأدفع المصروفات لكن لنفترض أن إحدى التلميذات فقيرة أو لديها أزمة، هل يضيع مستقبلها بسبب بضعة جنيهات؟

كنت أدرك أنها تكذب لكني لم أعلق.. كنت لا زلت مأخوذة

بما حدث.. تتردد في أذني كلمات الناظرة: «لن نسمح لكن بدخول الامتحان إلا بعد دفع المصروفات». صافحت خديجة وعواطف وقَبَّلْتُهما بطريقة آلية كأني منومة، حملت حقيبتي وخرجت من باب المدرسة فوجدت أخي كامل في انتظاري كعادته ليصحبني إلى البيت، ابتسم وصافحني ثم وضع يده على كتفي وسألني:

ـ كيف حالك؟

لم أرد، كنت أسيطر على مشاعري بصعوبة، كرر كامل السؤال وقد بدا عليه القلق:

ـ ما لك يا صالحة؟ هل حدث شيء في المدرسة؟

لم أحتمل رقته فانهمرت دموعي، أحسست بطعمها المالح على لساني.. ناولته خطاب المدرسة، قرأه بسرعة ثم طواه ووضعه في جيبه وقال:

ـ ولا يهمك.

في طريق العودة، أوقفني كامل عند بائع العصير في الميدان واشترى لي كوبا كبيرا من عصير الجوافة التي أحبها.. ربت على كتفي وابتسم وقال:

ـ أنت حساسة زيادة عن اللزوم؛ المسألة بسيطة، أبوكِ مشغول في عمله ونسي يدفع المصاريف، الصبح بإذن الله أروح معك المدرسة وأدفع المصاريف بنفسي.

هززت رأسي وحاولت أن أبتسم، كنت أريد أن أرضيه، كنت متأكدة أنه يكذب لكنني تظاهرت بتصديقه. عدنا إلى البيت، خلعت المريلة واغتسلت ثم ارتديت فستان البيت.. تقدم كامل وانفرد بأمي في المطبخ وعندما عادت، لاحظت أن وجهها منقبض وأنها تتحاشى النظر إليَّ.. بعد

الغداء قلت لأمي إن لديَّ واجبات مدرسية كثيرة فأعفتني من مساعدتها في المطبخ.. ذهبت إلى حجرتي.. أغلقت الباب خلفي.. ارتميت على السرير.. كنت أريد أن أنفرد بنفسي، أحسست للمرة الأولى بأنني لا أفهم ما يحدث: لو كان أبي مشغولا صحيح فلماذا لم يرسل مصروفات المدرسة مع أخي كامل؟ هل عجز أبي عن دفع المصروفات؟ الذي أعرفه أننا لسنا فقراء.. أعلم أن أبي ينحدر من أسرة كبيرة وثرية، لا زلت أحتفظ بذكريات رائعة عن طفولتي في دراو، باع أبي أرضه في الصعيد وجاء إلى القاهرة ليوفر لنا تعليما أفضل؛ هكذا قالت أمي.. كنت أردد بزهو أمام زميلاتي في المدرسة:

ـ أبي موظف كبير في نادي السيارات وهو يلتقي كثيرا بمولانا الملك ويتحدث معه.

كيف يعمل أبي مع جلالة الملك ويعجز عن دفع مصروفات المدرسة؟! لا بد أن الملك يدفع للعاملين معه مرتبات كبيرة، ماذا حدث إذن؟ أيكون أبي قد تعرض إلى حادث ما؟ هل سرق أحد أمواله أو هدده واستولى عليها؟ ماذا سنفعل في هذه المصيبة؟ أنا والحمد لله متفوقة أنجح دائما في المدرسة وأحرز ترتيبا متقدما على الفصل، لم أعرف الرسوب مثل أخي سعيد وأخي محمود، درجاتي جيدة في الجغرافيا واللغات ودائما أحصل على الدرجات النهائية في الرياضيات، فجأة، تحولت أفكاري إلى اتجاه آخر؛ شيئا فشيئا أحسست بالذنب، قد أكون السبب في أزمة أبي، كم مرة ألححت عليه حتى يشتري لي ملابس جديدة أو يصحبني إلى السينما! لو كنت أعلم بالضائقة التي يمر بها لما أثقلت عليه أبدا، كل طلباتي من أبي التي طالما ألححت عليه بها بدت لي في تلك اللحظة غير ضرورية وتافهة، بعد قليل عندما دخلت أمي وجدتني مغطاة في السرير،

أخبرتها بصوت ضعيف أني متعبة ومريضة.. وضعت يدها على جبيني وقالت بقلق:

ـ لازم الدكتور يشوفك.

ـ لا.. أنا محتاجة أرتاح.. لن أذهب غدا إلى المدرسة.

رمقتني أمي بنظرة غامضة وقالت:

ـ ربنا يسهل.

هكذا تظاهرت بالمرض حتى أمنح أبي الفرصة الكافية لتدبير المصروفات.. كانت هذه الطريقة الوحيدة لتفادي إحراج أبي، لم أكن لأجرؤ على مطالبته أو حتى مناقشة الأمر معه.. لم أكن لأتحمل أن أراه في موقف العاجز ولو للحظة واحدة.. أحضَرَتْ لي أمي كوبا من الليمون الساخن وانصرفت، بعد قليل جاء أخي كامل.. جلس بجواري وقال:

ـ سلامتك يا صالحة.

أعدت عليه شكواي من المرض، لا زلت أندهش من قدرته على قراءة أفكاري، تجاهل ما أقوله تماما وابتسم وقال:

ـ اطمئني، خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر سوف يتم تدبير المصاريف.

هممت بالكلام، كنت أريد أن أقنعه بأنني مريضة فعلا لكنه انحنى وطبع قُبْلة على جبيني ثم انصرف.

(٤)

«الكوو».. هكذا يُنطق اللفظ، زفرة واحدة من الحنجرة مع فتح الفم وتدوير الشفتين.. معنى الكوو باللغة النوبية القائد أو الكبير، لكنه في نادي السيارات يستدعي معاني أكبر. كأن الكوو كائن أسطوري، كأنه طائر خرافي، قريب وبعيد، ممكن ومستبعد، حقيقي ومتخيل، يتناقل عنه الناس الحكايات ولا يصدقون تماما أنه موجود حتى يتجلى أمامهم فجأة ثم يختفي فجأة ويتركهم تحت تأثيره العارم المزلزل.. الكوو شخص حقيقي، اسمه بالكامل «قاسم محمد قاسم»؛ نوبي سوداني، جاوز الستين من عمره.. يرطن بالنوبية وينطق العربية بلكنة ثقيلة فيخلط بين ضمير المذكر والمؤنث.. يتحدث الفرنسية والإيطالية بطلاقة ويكتبهما بصعوبة.. الكوو له صفتان: خادم وسيد، وظيفته الأصلية شماشرجي الملك؛ مسئول الملابس الذي يساعد مولانا على ارتداء الملابس وخلعها، الكوو أكبر شماشرجية القصر وأقدمهم وأقربهم إلى قلب جلالة الملك، علاقته بمولانا تتعدى وظيفته بكثير، شهد الكوو مولد جلالته بنفسه، حمل جسده الكريم وهو رضيع على يديه، راقب بفرح صادق حَبْوَه وترنُّح خطواته الأولى وبدايات نطقه المبتسر للحروف.. صحب الكوو مولانا وهو صبي في رحلات الصيد وركوب الدراجة ودروس الفروسية، كان الوحيد الذي يعرف أن جلالته يتظاهر بالمرض ليفلت من الدروس التي

يعذبه بها مدرسون ثقلاء.. الكوو هو الذي كان يختلس الحلويات من مطبخ القصر ويهربها إلى جناح مولانا وهو طفل عندما فرضت عليه مربيته الإنجليزية نظاما غذائيا صارما لإنقاص الوزن، الكوو هو الذي كان يعد ـ باحترام كامل ـ لقاءات الغرام الأولى لمولانا مع سيدات جميلات من الطبقة الراقية، حتى يتخلص جلالته من طاقته الحارة الفائضة كمراهق فلا تؤثر على تركيزه أو حالته النفسية، عندما سافر مولانا للدراسة في بريطانيا أصر على اصطحاب الكوو معه، وبعد أقل من عامين، عقب وفاة أبيه المفاجئة، عاد ليتولى عرش البلاد.. عندئذ، اكتسب الكوو نفوذا طاغيا غير مسبوق في القصر.. المراسلات الملكية كلها، مهما بلغت درجة أهميتها أو خصوصيتها، يفتحها الكوو بنفسه ويقرؤها على جلالة الملك الذي يستلقي كعادته كل صباح عاريا في البانيو الممتلئ بالماء الساخن ورغاوي الصابون، بينما إيلينا إخصائية الباديكير اليونانية تعتني بأظافر جلالته وحلاقة ذقنه وتشذيب شاربه وحاجبيه.. يقرأ الكوو الأوراق بصوت عالٍ، يستمع مولانا ثم يعلق بلفظ واحد أو اثنين على الأكثر.. «نوافق».. «نرفض». أو «فيما بعد».. أحيانا، عندما يكون مولانا مهموما أو مشغول البال لسبب أو لآخر. يتقلب جلالته في الحوض فيثير جسده الضخم زوبعة من الأمواج الصغيرة وكأنه سمكة كبيرة.. ثم يلوح بيده ويقول:

ـ قاسم.. تصرف.

عندئذ يقوم الكوو بالرد على المراسلات المستعجلة بنفسه، وفقا لتقديره بالطبع، يكتب بالفرنسية تعليمات لا تخلو عادة من أخطاء في القواعد.. الكوو، إذن، بوابة الملك الحقيقية وهو أقرب إلى جلالته بكثير من كل أفراد الديوان والسكرتارية. هناك حكاية معروفة يتناقلها الناس للتدليل على ذلك: عندما طلب رئيس وزراء مصر الدباغ باشا

مقابلة مولانا فسأله الكوو عن الغرض من المقابلة.. عندئذ، احتقن وجه رئيس الوزراء من الغضب.. عز عليه كثيرا وهو خريج أكسفورد أن يشرح لخادم الغرض من المقابلة فقال للكوو بلهجته الأرستقراطية التي تنقل الإهانة كاملة ولكن بأناقة:

ـ عندما يطلب رئيس وزراء مصر مقابلة الملك.. هل من حق أحد أن يسأله عن السبب؟

وفي اليوم التالي استدعى الملك رئيس الوزراء وتعمد ألا يدعوه للجلوس ثم قال له وهو يشير إلى الكوو:

ـ أتمنى أن تفهم يا باشا أن هذا الرجل يمثلنا.. احترامه من احترامنا.

انحنى رئيس الوزراء بشدة وهو يلهج بالاعتذار.. وتأكدت مرة أخرى مكانة الكوو الراسخة في القصر مما جعل الوزراء والساسة جميعا يخطبون وده. كانوا في أعماقهم يُكِنّون له احتقارا يجهدون في إخفائه. لم يكن الكوو بالنسبة إليهم في النهاية سوى خادم أسود؛ مجرد شماشرجي، جاهل، وضيع، سوقة.. لكنهم يحرصون على إرضائه لأن قدرته على الإفادة والإضرار بلا حدود.. يستطيع الكوو أن يوغر صدر مولانا ضد أي شخص أو يحببه فيه وفقا لما يريد. إنه يحفظ، عن ظهر قلب، مفاتيح شخصية الملك وإشارات حالته النفسية، كما يتمتع الكوو بخبرة عريضة في الحياة وذكاء فطري حاد وفراسة خارقة تمكنه من سبر أغوار الناس بضربة واحدة صحيحة، الحق أن طريقته في تقديم الوقائع والأشخاص إلى مولانا، جديرة بأن تُدَرّس في المعاهد الدبلوماسية.. من أول نظرة يدرك الكوو إن كان الملك رائقا أو معتكر المزاج ويقرر فورا ما يعرضه عليه وما يستبعده، أحيانا يلزم الكوو الصمت التام فيقضي يوما أو أياما وهو يلبي أوامر مولانا بدون

أن يوجه لجلالته كلمة واحدة، وأحيانا أخرى، يدرك الكوو بخبرته أن هناك مساحة للكلام أو أن الملك يحتاج إلى آرائه، كلام الكوو عن أي شخص لا يأتي أبدا في صورة تقريرية مباشرة لكنه يلف ويدور ببراعة، يحكي وقائع عنه أو يردد آراء أناس معينين في شخصيته تؤدي دائما بالملك إلى استخلاص النتائج التي يريدها الكوو بالضبط؛ لا أكثر ولا أقل. كل هذه المهارات يمارسها الكوو بيُسْر وتمَكُّن، كأنه لاعب كرة موهوب يسدد نحو المرمى من زاوية تمرن عليها ألف مرة، حتما يصيب الهدف.. هذا جانب من شخصية الكوو، ولديه جانب آخر لا يقل أهمية: إنه الرئيس الأعلى للخدم في القصور الملكية جميعا.. بعد ربنا سبحانه وتعالى، هو المتحكم الأوحد في حياتهم وأرزاقهم ومصائرهم.. عندما تحتاج القصور الملكية إلى خدم، يبعث الكوو بالجلابين لكي يطوفوا بجنوب مصر، في منطقة النوبة وأسوان، بحثا عن شبان تتوافر فيهم الشروط: الذكاء والصحة وقوة الجسد وحُسن السمعة.. يتم جلب المرشحين من الصعيد إلى مكتب الكوو في قصر عابدين، يختبرهم بعناية فيقبلهم أو يأمر بعودتهم من حيث جاءوا.. بنظرة متفحصة وحوار قصير، يستطيع الكوو أن يكتشف الشخص الوقح أو الناقم أو العصبي أو اللجوج أو اللئيم أو مدمن الخمور أو الحشاش، كل هذه صفات كفيلة باستبعاده من الخدمة.. بعد ذلك يقضي المرشحون عدة أسابيع في المدرسة؛ مبنى من طابقين في قصر عابدين، يتعلمون هناك فن الخدمة (L'ART DU SERVICE).. هكذا ينطقه الكوو أمامهم بفرنسية أنيقة مزهوّة.. يتكون البرنامج الدراسي من أربع قواعد:

أولا: النظافة الشخصية

الاستحمام يوميا صيفا وشتاء مع دعك الجسد بعناية خصوصا الرقبة

والقفا وتحت الإبطين، مع استعمال مزيل العرق، حلاقة الذقن يوميا وتنعيمها بعناية، دعك الأسنان بالفرشاة والمعجون صباحا ومساء، غسيل الشعر وتصفيفه.. العناية الفائقة بدعك الكعوب وقص أظافر اليدين والقدمين.

يتشدد الكوو في تطبيق هذه القواعد حتى تتحول شيئا فشيئا إلى عادات لدى الخدم لا يمكنهم الإقلاع عنها، وهو دائم التفتيش عليهم.. في أي لحظة، قد يطلب الكوو من الخادم أن يفتح فمه أو يريه قفاه ورقبته أو أظافر يديه، وكثيرا ما يأمر الخادم بأن يخلع حذاءه وجوربه ليتفقد قدميه.. الويل لمن يكتشف الكوو أن أظافره طويلة قذرة أو أن قدميه متسختان.. يأمر بضربه فورا ويجلجل صوته كالرعد:

ـ كيف ستخدم الملوك بقدمك القذرة هذه يا حيوان؟

ثانيا: حُسن المظهر

كل قفاطين الخدمة، على اختلاف أنواعها وألوانها، يجب أن تكون نظيفة؛ مغسولة ومكوية جيدا، زر واحد مقطوع أو ياقة مجعدة أو بقعة صغيرة على القفطان كفيلة بإنزال العقاب بالخادم المذنب، يجب أن تكون الجوارب جديدة ونظيفة ومشدودة جيدا، أما الأحذية فيجب تلميعها كل يوم حتى تبدو كمرآة مصقولة.

ثالثا: آداب الخدمة

لعل هذا الدرس الأهم: الخدمة إحساس، خضوع وانبهار، تسليم نهائي بالضآلة، انسحاق أمام تفوق طاغ.. الخادم الحقيقي يستمتع بالطاعة، يعتز بخضوعه، فضيلة الخادم في كلمة «حاضر»، مناقشة السيد

جريمة، بين الخادم والسيد ليس هناك وجهات نظر، لا حق ولا باطل.. هناك فقط ما يريده السيد، ما يأمر به.. بل حتى ما يتمناه أو يفكر فيه، هذا هو الحق ولا حق سواه.. في القصور لا تتحرج السيدة غالبا من استدعاء الخادم إلى حجرتها وهي ترتدي قميص نوم يكشف مفاتنها، الخادم بالنسبة إلى الهانم ليس رجلا، إنه خادم، أقل بكثير من أن يُعمل حسابه في أحاسيس الإثارة والغواية، الخادم الحقيقي حرف ساكن، موجود صحيح لكنه لا ينطق أبدا، ممنوع على الخادم أن يلفت الأنظار، لا يجوز له مثلا أن يرتدي ساعة أنيقة أو سلسلة ذهبية،كل ما يمكن أن يميزه ممنوع، يجب ألا يلاحظه السيد إلا عندما يحتاج إليه، الحاجز الضخم بين السيد وخادمه يعكس حقيقة كونية راسخة مثل بزوغ الشمس ودورة القمر، لا تتغير أبدا.. في لحظة ما، بتأثير مزاج رائق أو خبر مفرح أو كأس زائدة، قد يتبسط السيد مع الخادم.. عندئذ يكون على الخادم أن يجاريه ثم يعود أدراجه بسرعة، ينحني ويُشعل سيجار السيد أو يغير المطفأة أو يمسح المائدة ويرفع الأطباق، أية حركة يؤكد بها الخادم وعيه بأن هذا التبسط الكريم من السيد استثناء لا يقاس عليه.. هكذا يُعلم الكوو الخدمَ كيف يُبجلون أسيادهم، كيف يخاطبونهم باللقب المناسب، متى يقولون صاحب المعالي أو صاحب الرفعة أو العزة، الفرق بين الأمير والنبيل والباشا والبك، كيف يتحدثون إلى سادتهم بصوت خافت متضرع مصحوب بابتسامة هينة متوسلة، كيف ينحنون ويفسحون الطريق، لا يمشي الخدم بجوار أسيادهم أبدا، المحاذاة ندية، يتأخرون عنهم خطوتين اثنتين لا تزيدان ولا تنقصان إلا في حالة واحدة؛ عندما يطلب السيد من الخادم أن يدله على مكان ما.. عندئذ يتقدم الخادم خطوة واحدة وهو يدله إلى المكان وما إن يعرف السيد الطريق حتى يعود الخادم إلى الخلف ليحتفظ بمسافته المعتادة.

الأعضاء في نادي السيارات يستطيعون دائما عقاب الخدم المذنبين بطريقة منقولة من أندية أوربا.. من حق العضو في أية لحظة أن يطلب الكاييه «Le cahier»؛ كلمة فرنسية معناها كراسة مخصصة للأعضاء؛ حتى يكتبوا شكواهم في الخدم.. هذه الشكوى تنتقل مباشرة إلى الكوو الذي يعصف بالخادم المذنب بلا هوادة، ما إن يغضب العضو من الخادم حتى يطلب منه إحضار الكاييه.. عندئذ يعتذر الخادم للعضو ويتوسل إليه لكي يسحب شكواه. معظم الأعضاء يصفحون وثمة أعضاء لا يتمتعون بالتسامح، يُصرون على إيذاء الخدم المخطئين.

رابعا: التمني

تحية التمني بمثابة مشروع التخرج في مدرسة الخدمة، عندما يتقنها الخادم يصير مؤهلا لاستلام العمل، التمني تحية تركية تؤدَّى فقط أمام أعضاء الأسرة المالكة.. أثناء التمني ينصرف الخادم من المكان وهو يكرر الانحناء ويتقهقر للوراء نحو باب الخروج، فكرة التمني: ألا يعطي الخادم ظهره أبدا لصاحب السمو الملكي.. تحتاج تحية التمني إلى ذكاء وتركيز وتمرين طويل؛ لأن الخادم الذي يؤديها يمشي بظهره، في أية لحظة قد تنزلق قدمه أو يرتطم بالواقفين خلفه أو يتسبب في تحطيم محتويات المكان فتكون فضيحته بجلاجل.. يردد الكوو دائما على تلاميذه أن إتقان التمني يحتاج إلى عين الصقر وخفة الغزال ودهاء الثعلب، على مؤدي التمني أن يحفر تفاصيل المكان في ذاكرته، يجب أن يرسم في ذهنه بوضوح خط السير الذي سيقطعه وهو خارج بظهره، كيف يتفادى هذا المقعد ثم يلف حول هذه المائدة، كيف يختار ممر عودته في المنطقة الخالية، بعيدا عن تجمعات الضيوف حتى يخرج بظهره من الباب.. تحية التمني تعتبر من أمجاد الكوو التي يعتز بها. منذ صباه، كان بمقدوره أن

يؤدي التمني في أكبر القاعات وأكثرها ازدحاما ببراعة منقطعة النظير، ما إن يأمره الملك بالانصراف حتى يتقهقر بسرعة مذهلة وهو ينحني بشدة فيقطع مسافة طويلة ويتفادى الأشخاص والموائد والمقاعد بمهارة غريبة وكأنه أوتي القدرة على الرؤية من مؤخرة رأسه.

بعد أن يتقن الخدم أداء التمني ويطمئن الكوو إلى قدراتهم يبدأ في توزيعهم على أماكن الخدمة، أصحاب البشرة السوداء الداكنة يعملون في الخدمة القريبة من السادة مثل السفرجية والشماشرجية.. أما أصحاب البشرة السمراء الفاتحة فيرسلون إلى الخدمة البعيدة مثل المطبخ والحراسة والحدائق.. هكذا تقضي القواعد. وجه الخادم الأسود الفاحم يضفي أناقة حقيقية على أسياده.. قد تكون هذه الفكرة من تراث العبودية، أو ربما لأن البشرة الفاتحة تقترب بالخادم من لون بشرة السيد مما يحمل خطر الندية ولو من بعيد، بعد استلام العمل يظل الكوو متحكما في كل ما يفعله الخدم.. لا يحق للخادم إطلاقا أن يحتفظ بالبقشيش، يجب أن يعطيه فورا إلى رئيسه الذي يضعه آخر اليوم في صندوق البقشيش، المفروض أن يخلو قفطان الخادم من النقود. أي مليم يوجد في قفطانه يجر عليه عقابا شديدا، الكوو يأخذ نصف البقشيش لنفسه ويوزع النصف الآخر على الخدم وفقا لأقدميتهم وترتيبهم المهني.. هذا النظام يسمى «الترنك» ويشكل قاعدة مقدسة مَن يخالفها يُعرض نفسه لعقاب شديد.

«الترنك» لا يشمل رؤساء الخدم: ركابي الطباخ والمتر شاكر وبحر البارمان ويوسف طربوش مسئول القمار، هؤلاء يحققون مكاسب كبيرة عن طريق مناصبهم ويدفعون للكوو جزءا من أرباحهم يسمى «البوناس».. يتولى الكوو تسكين الخدم في شقق يخصصها لهم في

حي عابدين، العُزاب يعيشون ثلاثة أو أربعة في شقة، والمتزوجون مع أُسَرهم في شقق منفصلة، يظل الكوو متابعا لأدق شئون حياتهم، يعرف كل شيء عنهم حتى أسماء أولادهم، لا ينسى الكوو التفاصيل أبدا، هو الذي يزوجهم ويتولى تجهيزهم والعناية بهم وكثيرا ما يتولى تسوية خلافاتهم الزوجية، إذا تعرضت الزوجة إلى ظلم من رَجُلها تشكوه إلى الكوو الذي يستمع إلى الطرفين ويحكم بالعدل ويتابع تنفيذ الحكم، وقد يفاجِئ الكوو الزوجين بزيارة بعد ذلك ليتفقد ما يحدث بينهما على الطبيعة، كلمة الكوو نافذة ونهائية وقراره حكم قضاء بدون استئناف أو نقض، بين الحين والآخر يتذمر الخدم سرًّا فيما بينهم ويتهامسون بالشكوى من قسوة الكوو، لكن نبرتهم الشاكية الغنائية المشبعة بالشجن تحمل مع الألم بعض التلذذ.. كأنهم زوجة يشبعها زوجها جنسيا بشكل كامل ورائع، لكنها تشكو مع ذلك من حدة طباعه.. لن نعرف أبدا إن كانت تعاني أم تستمتع بمعاملته القاسية.

هذه السطوة القاهرة للكوو على الخدم تزول فورا وتنقلب للنقيض أمام الأجانب.. يكون الكوو واقفا كمَلِك متوَّج وسط الخدم، لكنه ما إن يرى أجنبيا حتى ينحني ويسبقه ويفتح له باب القاعة أو المصعد بيديه، الكوو يذعن للأجانب عن تبجيل صادق، لأنه يؤمن بتفوق الجنس الأبيض، يردد دائما: «الأجنبي دائما أحسن وأذكى منا، وتعاملاته أكثر احتراما منا سواء كنا عربا أم نوبيين».

الانحناء أمام الأجنبي لا يُقلل من هيبة الكوو وإنما يضاعفها.. كأنما يقول للخدم المحيطين به:

«أنا خادم مولانا الملك وخادم الأجانب، لكني سيدكم ورئيسكم الأعلى».

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما تهادت سيارة كاديلاك سوداء في شارع قصر النيل وتوقفت أمام نادي السيارات.. قفز السائق وانحنى وفتح الباب ثم نزل الكوو ببطء ملكي. كان يرتدي بدلة الشماشرجي من الجوخ الأخضر الفاخر الموشاة صديريتها بالقصب، بينما الكتَّافتان مذهبتان، وبطول الكُمّين يمتد شريط من الشراشيب الْمُذهبة التي تتحرك كالأهداب كلما هز الكوو ذراعيه. كان الكوو قد وضع على رأسه طربوشا أنيقا وأمسك بين أصابعه بسيجاره الكوبي الفاخر مشتعلا، راح بين الحين والحين يجذب منه نفسا، ثم ينفث سحابة كثيفة تغطي وجهه وتختلط رائحتها برائحة عطره الفرنسي المميز.. خلف الكوو يهرول حميد.. إنه مساعد الكوو وذراعه اليمنى ومنفذ عقوباته في أبدان الخدم؛ العقوبات تتراوح بين الصفع والمد على القدمين، وتبلغ في الجرائم الكبرى حد الجلد بالكرباج.. حميد شابٌّ أسود بَدِينٌ في العشرينيات من عمره، جسده المكتنز يهتز في كل حركة، طري لين كأنه لحم ودهن بلا عظام ولا عضلات، وجهه متجهم دائما، محتقن، ينضح بمرارة ما.. نظراته وقحة، متحفزة، كارهة، تتصيد أقل خطأ كأنما تتمنى وقوعه.. حميد تحيط به شائعات كثيفة: يقولون إنه ابن غير شرعي للكوو من راقصة كان يعشقها، وقد رفض أن يعترف بأبوته لكنه رعاه وأنفق عليه سرا، ولما كبر قربه وجعله مساعده الأقرب.. يقولون أيضا إن حميدا قد أفسده أحد الخدم وهو طفل، وداوم على مضاجعته حتى كبر وهو شاذ، وفقا لمعتقدات الصعيد الفلكلورية الراسخة في أذهان الخدم: تكونت في شرج حميد دودة تعيش في الظلام والرطوبة ولا تتغذى إلا على مني الرجال الذين يضاجعونه. إذا جاعت الدودة تنهشه في مؤخرته وتؤلمه؛ مما يضطره إلى البحث عن رجل ليضاجعه ويهدِّئ آلامه.. هكذا تحول حميد إلى لوطِيّ يحنّ إلى الرجال، يشتهي صدورهم المشعرة وسيقانهم القوية ويهتاج كالنساء إذا

رأى ذكورهم منتصبة؛ هذا الحنين الشهواني الشاذ، في رأي الخدم، هو ما يفسر استمتاعه بإذلال الرجال والقسوة إلى حد التشفي الذي ينفذ بها العقوبات البدنية. يؤكد بعضهم، ويقسمون على ذلك بالله العظيم إنهم شاهدوه بأعينهم ذات مرة بعد أن انهال بالسوط على خادم مذنب يتحسس بيده آثار الجلد على ظهر الخادم العاري بينما هو يعض شفته السفلى بقوة ليكظم موجات عاتية من الشهوة تجتاح جسده.

من الوارد بالطبع أن تكون كل هذه حكايات كاذبة اختلقها الخدم وراحوا يستمتعون بترديدها سرًّا حتى يشفوا غليلهم من حميد الذي يمقتونه كالموت.

ما إن اجتاز الكوو بوابة النادي حتى انتشر الخبر كرائحة حريق، سرَى بين الخدم هسيس مفزع: إلى أين يمضي الكوو؟ ماذا يريد؟ هل جاء لتفتيش روتيني أم للتحقيق في وشاية تلقاها بواسطة جواسيسه المنتشرين في كل مكان؟ تظل هذه الأسئلة دائما بلا إجابة. حملة تفتيش الكوو واحدة من ضربات القدر ليس لأحد أن يأمنها أو يعرف مداها، محنة حقيقية يبتهل خلالها الخدم إلى الله لكي يستر عليهم.. جولات الكوو في نادي السيارات مثل لعبة الروليت؛ لا يستطيع أحد، مهما بلغت مهارته أو خبرته، أن يتنبأ على أي رقم ستستقر الكرة.. مع الكوو الخير والشر يهبطان بمحض الصدفة.. قد يختبر الكوو مكانا واحدا ثم ينصرف، وقد يقضي النهار كله في النادي.. وقف الكوو أمام المصعد وتفحص بنظرة خبيرة أركان الباب ليتأكد من النظافة، حوَّل نظره إلى حيث يقف مرعي عامل المصعد العجوز الذي كاد يرتجف من الرعب، الحمد لله، كل شيء على ما يرام. ركب المصعد وتوجه إلى البار فهرع إليه بحر البارمان، انحنى وقال بالنوبية:

ـ مساء الخير يا جناب الكوو.. شرفتنا.

لا يرد الكوو على تحيات الخدم.. يكتفي بإشارة من يده أو إيماءة من رأسه إن كان مزاجه رائقا، أما إذا تعكر فهو يرفع حاجبيه في حركة هينة لا تكاد تُلحظ، وأحيانا يتجاهل التحية كأنها لم تكن. دخل الكوو إلى قاعة البار الخاوية في تلك الساعة والخدم يهرولون خلفه، أشار إلى حميد ففتح الدرج الخشبي وأخرج فواتير الليلة السابقة.. أمسكهم الكوو في يده وتطلع إليهم بنظرة سريعة ثم ألقى بهم فتناثروا في الهواء وصاح وصوته يختنق بالغضب:

ـ الشيك دوار يا بحر.

هَمَّ البارمان بحر بالكلام لكن نظرة ثاقبة من الكوو أخرسته فأحنى رأسه وتقهقر إلى الوراء، اكتفى الكوو بتسجيل الجريمة ثم استدار خارجا من البار.

لا بد هنا من بعض الشرح: «الشيك الدوار» طريقة معروفة يستولي بها البارمان على الإيراد بدلا من توريده للخزينة.. يأخذ فاتورة واحدة فيها طلبات تتكرر كثيرا، مثل ٢ بيرة أو ٢ ويسكي.. يسدد البارمان قيمة هذه الفاتورة مرة واحدة في الخزينة ثم يحتفظ بها معه وكلما تكرر الطلب قدمها من جديد للزبون وأخذ المال لنفسه.. من هنا جاءت تسميتها بالشيك الدوار؛ لأن الفاتورة الواحدة تدور على أكثر من زبون.. اتجه الكوو بعد ذلك إلى قاعة المطعم لكنه لما وصل إلى الباب، في اللحظة الأخيرة، عدل عن الدخول وغيَّر مساره فتوجه إلى صالة القمار، دخلها مسرعا ولا زال الخدم يركضون وراءه.. توجه بخطوة واسعة إلى مائدة في أقصى القاعة، بجوار النافذة، مد يده ومسح بها عدة مرات أسفل المائدة ثم رفع أصابعه ببطء أمام عينيه.. وقف العاملون حوله وأنفاسهم

تكاد تنقطع من الخوف، لو وجد الكوو أدنى أثر للتراب على أصابعه سيكون نهارهم أغبر، الحمد لله كان أسفل المائدة نظيفا، بلا ذرة تراب واحدة، تنفس العاملون في الصالة الصعداء، خرج الكوو مسرعا وقطع الردهة في طريقه للمصعد، ما حدث بعد ذلك يدل على فراسة الكوو الخارقة؛ بينما هو واقف ينتظر المصعد لمح من بعيد السفرجي إدريس، استدار يرقبه وقد بدا عليه التحفز،كأنه قد أحس بالخطر فقلص عضلاته وقوس ظهره وبات مستعدا للقتال، زفر الكوو بقوة وصاح في حميد وهو يشير ناحية إدريس:

ـ هاته.

تسمر إدريس في مكانه وبدت على وجهه ابتسامة إذعان، انقض عليه حميد وجذبه من كم القفطان بقوة كادت توقعه على الأرض، نطق الكوو بكلمة أخرى نزلت على رأس إدريس كالصاعقة:

ـ فتشه.

كان معنى ذلك أن يصطحب حميد المتهم إلى فوق السطح ويدخل به إلى الفستيير؛ الحجرة التي يبدل فيها الخدم ملابسهم.. وقفا في وسط الحجرة وحولهم الخدم الذين يسعون جاهدين لإخفاء أي مظهر لإشفاقهم على زميلهم، بدت على وجه حميد ابتسامة كارهة قبيحة متشفية ثم طلب من إدريس أن يخلع القفطان، فتشه بعناية.. مد حميد يده ليفتش السروال الداخلي لإدريس الذي أصدر أنينا خافتا لم يلبث أن تحول إلى ولولة مؤثرة.. وجد حميد في أعلى الجورب الأيمن ورقتين من فئة ربع الجنيه.

ـ حرامي.

هكذا صاح حميد ثم استدار بسرعة، ككلب صيد مدرب، ومد يده نحو الكوو بالورقتين، تناولهما الكوو ثم قال بصوت رخيم متأنٍّ:

ـ منذ متى تسرقني يا إدريس؟

علت ولولة إدريس الباكية:

ـ سامحني يا جناب الكوو، توبة يا جناب الكوو.

هز الكوو رأسه مرة واحدة، التقط حميد الإشارة وأومأ إلى اثنين من الخدم فأمسكا بإدريس من ذراعيه ليشلا حركته تماما، المتبع أن يقوم زملاء المذنب بتوثيقه أثناء الضرب، الغرض الظاهر السيطرة على جسده حتى لا تطيش الضربات، المعنى الحقيقي أنه لا صداقة أمام الخطأ.. يقيد الخدم زميلهم بأنفسهم كأنما يقولون: «مَن يخطئ يُعاقَب حتى لو كان زميلا عاشرناه سنوات، لن نتأثر بآلامه أو مهانته لأن ذنبه قد جرده من الحقوق».

اقترب حميد من إدريس الممسوك من زملائه وبدأ يصفعه.. كانت طريقة حميد في الصفع فريدة من نوعها؛ فهو يمد يديه بالتوازي أمام وجه الخادم ثم يصفعه بقوة بيديه معا بالتبادل، وبين الحين والحين تشترك اليدان في صفعة مزدوجة مدوية.. هذه الطريقة في الصفع تحقق أقصى درجة من الإهانة والألم معا، تلقَّى إدريس وابلا من الصفعات ثم وابلا آخر، اندمج حميد فاحتقن وجهه وتعكرت عيناه وبدأ يجز على أسنانه، لكن حظ إدريس، العاثر حقا، جعله يصيح فجأة:

ـ كفاية.. حرام عليكم.

توقف حميد وابتعد خطوة ثم قال هو يلهث منفعلا:

ـ حرام؟ أنا أعرفك معنى الحرام.

التفت حميد إلى الكوو الذي أجابه بإيماءة هينة لا تكاد تلحظ،كأنه مايسترو يأذن لأحد العازفين بأداء إضافي، قفز حميد بخطوة رشيقة لا تتسق مع بدانته والتقط العصا القصيرة الغليظة ورفعها في الهواء فأدرك الخادمان الممسكان بإدريس ما يجب عمله، شداه إليهما بقوة ثم ألقياه على الأريكة وخلعا حذاءه وجوربه ثم أمسكا بساقيه حتى أصبحت قدماه العاريتان في مواجهة حميد الذي زم شفتيه وتقلصت عضلات وجهه ثم رفع يده بالعصا إلى أعلى.. ونزل بها بقوة.

كامل عبد العزيز همام

في تلك الفترة كانت مشاعري جياشة مضطربة تنقلب من النقيض إلى النقيض.. يغمرني شعور بالبهجة والتفاؤل وتملؤني الثقة بالنفس، وفجأة، بلا سبب، أفقد حماسي وتنتابني كآبة وأفقد الرغبة في فعل أي شيء، أنسحب، أجلس وحيدا في حجرتي، أستلقي على فراشي، أقرأ وأدخن وأستسلم لخيالي الجامح، أتخيل نفسي في مواقف تفيض بالنبل والتضحية.. أنقذ فتاة بريئة من أيدي عصابة من الأشرار، أو أساند صديقا يمر بمحنة حتى تفيض عيناه بدموع الامتنان، أتصور نفسي دائما كبطل تراجيدي يفيض على كل من حوله بكرمه وشجاعته، لكن القدر يتربص به ويهزمه فيمضي إلى مصيره بخطى ثابتة وقلب جسور. أحيانا كنت أرى بيتنا على هيئة مسرح، أتطلع إلى إخوتي وهم يخرجون من حجراتهم ويتحركون في أنحاء البيت كأنهم ممثلون يؤدون أدوارهم في العرض، أتأملهم كأنني أراهم من خلف حائط زجاجي شفاف، أحيانا كنت أحس بأن ما أعيشه قد حدث لي بتفاصيله في حياة سابقة، كأن ما أراه أمامي كان مخبوءًا، كامنًا في أعماق ذاكرتي، وها أنا أحياه مجددا. في خضم مشاعري المتوهجة زارني الشعر لأول مرة، كتبت

قصيدة من عدة أبيات ونشرتها في مجلة مدرسة الحقوق واستحسنها بعض الزملاء.

بعيدا عن تقلباتي وخيالي الجامح كنت حزينا لما يحدث في بيتنا.

صارحتني أمي بالحقيقة: هاجر أبي من الصعيد بعد إفلاسه وهو يعمل مساعد مخزن من أجل إعالتنا.. كنت أرى في وجه أبي شيئًا منقبضًا كأنما يكتم ألمًا مزمنًا ويسعى لتقبله والتعايش معه، حتى عندما يتكلم بمرح أو يضحك يظل تعبير ما قاتمًا رابضًا في نظرته لا يفارقها أبدا.. كنت متعاطفا مع محنته؛ تمنيت لو أستطيع مساعدته.. فكرت في أن أجد عملا بجوار الدراسة، عرضت الاقتراح على أمي فقالت بحزم:

«عملك الوحيد أن تذاكر وتتخرج».

كنت أذوب إشفاقا على أسرتي وأحس بمسئولية جسيمة، قررت ألا أخذلهم، أنا مندوبهم إلى المستقبل ومَحَطّ أملهم الذي لا يجب أن يخيب، لن أنسى يومي الأول في الجامعة؛ كنت أرتدي البدلة الجديدة وقد حَلَقت شعري وذقني وتعطرت.. استيقظ أبي مبكرا ووقف يودعني، تأملني بابتسامة زهو وقال:

«مع السلامة يا أستاذ، ربنا يجعل لك في كل خطوة سلامة».

خُيّل إليَّ للحظة أنه يقاوم دموعه، إحساسي بالمسئولية جعلني أبذل قصارى جهدي في الدراسة.. أَصِل قبل المحاضرة بوقت كافٍ، أجلس في الصف الأول وأسجل بدقة كل ما يقوله المحاضرون وأبذل مجهودا كبيرا في المذاكرة.. اجتزت اختبارات السنة الأولى بنجاح وحصلت على تقدير جيد جدا، تهللت أسارير أبي فرحا بينما أصرت أمي على رقيتي درءًا للحسد، جعلتني أخطو سبع مرات فوق مبخرة مشتعلة تفوح

بالبخور، بدأت الدراسة في السنة الثانية بحماس.. كنت أتوق للتخرج حتى أعمل وأحمل مع أبي عبء الأسرة.. أخي سعيد الذي يكبرني بعامين مختلف عني تماما، نكاد لا نتفق على شيء؛ سعيد أناني، لا يفكر إلا في نفسه، كثيرا ما يتصرف بوقاحة، ذات مرة دخل إلى حجرتنا وجلس أمامي ثم قال فجأة بنبرة تهكم:

ـ ألا زال أبوك يعتبر نفسه عمدة دراو؟

ـ تكلم عن أبيك باحترام.

ـ قل لي تفسيرا واحدا لما يحدث في هذا البيت.

ـ علام تعترض يا فالح؟!

ـ نحن في ضائقة وبالكاد نجد ثمن الطعام ومصروفات التعليم وفي نفس الوقت، أبوك يستضيف مجموعة من الصعايدة العاطلين لينفق عليهم.

ـ هؤلاء الصعايدة أهلنا وهم ليسوا عاطلين، وإنما جاءوا إلى القاهرة لقضاء مصالح.

ـ هل تريد أن تقنعني بأن أبانا مسئول عن كل سكان دراو؟!

ـ طبعا.

ـ هذا سفه؛ نحن أولى بكل قرش ينفقه أبي عليهم.

ـ التضامن مع الأهل أحد المعاني الراقية التي لن تفهمها أبدا.

ـ هذه الأوهام هي التي أدت بأبيك إلى الإفلاس.

ـ اسكت.

ـ أنا أتكلم كما أريد.

هكذا نتشاحن دائما؛ سعيد موتور، يغار مني لأني ـ أخاه الأصغر ـ التحقت بالجامعة بينما هو في مدرسة الصنائع، يعتبر أبي مسئولا عن عدم التحاقه بالجامعة، ما أريح أن نلوم الآخرين على فشلنا، ليس ذنب أبي أن سعيد أهمل دروسه فرسب عامين ولم يحصل على درجات تؤهله للالتحاق بالثانوي العام.. تحول إحساس سعيد بالاضطهاد إلى عدوانية مزعجة، باستثناء أبي، لا يسلم أحد في البيت من أذى سعيد.. يتشاجر معي ويتطاول على أمي ويضرب محمود بلا سبب، أما المسكينة صالحة فإن غاراته عليها لا تنقطع.. الأسبوع الماضي.. تركت صالحة باب حجرتها مواربا واستلقت بملابس النوم في فراشها وهي تقرأ في كتاب مدرسي، اصطنع سعيد مشكلة كبرى، أقام الدنيا وأقعدها، اتهمها بسوء الأدب لأنها استلقت على بطنها وفتحت الباب.. ظل يصيح في وجهها وهي ترتعد من الخوف، كاد يضربها لولا أن أمسكت بيده ومنعته.. لا أكره أخي سعيد لكني أمقت مشاجراته التي لا تنتهي.

كانت هذه مفردات حياتي: الجامعة والبيت.. أزمتنا المالية وكفاح أبي، خيالي الجامح ورغباتي المكبوتة ومحاولاتي في الشعر، لم أكن أشك لحظة في أنني سأحقق هدفي، سأتخرج وأعمل وأساعد أسرتي، كانت حياتي تمتد أمامي كطريق طويل وصعب لكني أستطيع أن أرى نهايته، فجأة، تغير مساري، من عجب أن حياة الإنسان قد تتبدل تماما بسبب موقف صغير أو كلمة عابرة، قد يتغير مصيرنا فقط لأننا مررنا بشارع ما في ساعة معينة؛ لأننا اتجهنا يمينا وليس يسارا، لأننا تأخرنا في العمل فقابلنا بالصدفة شخصا ما.. في يوم أربعاء لن أنساه أبدا، اعتذر الأستاذ عن المحاضرة فقررت الذهاب إلى البيت لتناول الغداء على أن أعود لمتابعة المحاضرات بعد الظهر.. أثناء خروجي من المدرج استوقفني بعض الزملاء ودعوني إلى حضور الخطبة التي يلقيها حسن

مؤمن زعيم الوفد في الجامعة، كنت بعيدا تماما عن السياسة، اعتذرت عن عدم الذهاب معهم، صاح أحدهم ساخرا:

ـ جمِّد قلبك يا كامل.. أنت خائف يقبضوا عليك؟

استفزني ما قاله وكدت أرد عليه لكنني سكت، جذبني زميل آخر من ذراعي فذهبت معهم، قلت لنفسي سأقف معهم قليلا ثم أنصرف.. مشينا حتى وصلنا إلى الساحة المواجهة للقاعة الكبرى، رأيت آلاف الطلاب محتشدين وعلى درجات السلم المواجه لباب القاعة وقف حسن مؤمن بجسده الممشوق ووجهه الوسيم وعينيه العسليتين الواسعتين.. كنت أعرفه لكنه في تلك اللحظة بدا مختلفا؛ كأنه اكتسب وجودا جديدا جعل منه شخصا آخر.. كان مستحوذا على مشاعر الطلبة تماما، أخذ يحلل الموقف السياسي وشرح لنا التواطؤ بين الملك والإنجليز ثم ركز حديثه عن الاحتلال، راح صوته الجهوري يجلجل في الفضاء:

ـ أيها الزملاء، نحن عادة ما نربط الاغتصاب باغتصاب الجسد، هذا خطأ.. الاغتصاب بالأساس اغتصاب إرادة.. الاحتلال يريد إخضاع مصر، الإنجليز يريدون أن يكسروا إرادتنا.. الاحتلال اغتصاب، مصر مغتصَبة.. مصر مغتصبة.. هل تقبلون أن تكون بلادكم مغتصَبة؟

ارتفع هدير الطلبة، راحت الحناجر تهتف بحماس بالغ: «تحيا مصر.. تحيا مصر.. الجلاء.. الجلاء.. الجلاء بالدماء». الغريب أنني شيئا فشيئا وجدتني أهتف معهم، على استحياء في البداية ثم بقوة، انتقلت إلى روح أثيرية غامضة، صرت واحدا من الحشد ونسيت رغبتي في الانصراف.. بعد لحظات أشار لنا حسن مؤمن بيده فخَفَت الهتاف شيئا فشيئا حتى انقطع ولم يلبث صوته أن علا من جديد:

ـ أيها المصريون.. يا طلبة الجامعة، لا جدوى من التفاوض.. بريطانيا لن تخرج من مصر بالكلام، بريطانيا لا تفهم إلا لغة القوة؛ لقد احتلوا بلادنا بالقوة ولن يجلوا عنها إلا بالقوة، يا أبناء مصر وأملها، مصر تتطلع إليكم، هذا يومكم.. الجنود الإنجليز يغتصبون أمهاتكم وأخواتكم.. ماذا أنتم فاعلون؟

بلغ الحماس حد الجنون، اندفع الطلاب نحوه، حملوه على أعناقهم واندفعوا إلى الأمام.. بدأ طالب في إنشاد: «اسلمي يا مصر إنني الفدا»، وسرعان ما هدرت الحناجر بالنشيد.. رأيت بعض الطلاب يبكون كالأطفال من التأثر.. كان الحرس قد أغلقوا بوابة الجامعة من الخارج ليمنعوا المظاهرة من الخروج إلى الشارع.. ضغطت الحشود على بوابة الجامعة بأجسادها حتى انفتحت واندفعوا إلى الخارج، مشيت في المظاهرة أردد الهتافات بحماس، قبل أن نصل إلى كوبري الجامعة بدأ جنود الشرطة في التصدي لنا. كانوا يهجمون على شكل موجات متتابعة وهم مسلحون بعصِيّ غليظة يضربوننا بها، انهالت الهراوَى على رءوسنا وأجسادنا كيفما اتفق.. ارتفع الصراخ وسالت دماء الطلاب، في نفس الوقت كان المخبرون ينتظرون على جانبَيِ الميدان ليعتقلوا الطلبة الفارين، أحسست بخطر محدق، ركزت تفكيري في طريقة أنجو بها، بعد كر وفر وصلت إلى ممر صغير كنت أعرفه بجوار كلية الهندسة وركضت بأقصى سرعة في الشوارع الصغيرة المجاورة لحديقة الحيوان، أفلت من الاعتقال بأعجوبة، وصلت إلى البيت أخيرا.. تلك الليلة لم أستذكر حرفا، ظللت أدخن وأسترجع ما حدث.. تزايد انفعالي. تشبيه الاحتلال بالاغتصاب كان يملؤني بالغضب.. فتحت النافذة وتطلعت منها.. كانت هناك دورية من الجنود الإنجليز تعبر شارع السد متوجهة

إلى الميدان، ظللت أتفحصهم بنظري، كأنني أتعمد أن أستفز نفسي، هؤلاء الإنجليز الشقر بعيونهم الزرقاء وبشرتهم البيضاء جاءوا ليغتصبوا بلادنا.. تخيلت أن جنديا إنجليزيا يحاول اغتصاب أختي صالحة، أحسست بغضب هائل، تلك الليلة نمت بشكل سيئ متقطع واستيقظت متوترا، ارتديت ملابسي على عجل وذهبت إلى الجامعة، سألت عن حسن مؤمن، وجدته جالسا في الكافيتريا مع بعض الطلبة، كانوا يقرءون بعض الأوراق، تطلع إليَّ بابتسامة ترحيب خالية من الدهشة كأنه يتوقع رؤيتي.. همست له بأنني أريده على انفراد فقام معي في الحال.. كنت قد أعددت عدة جُمل للتعبير عن أفكاري. فجأة، انقشعت الكلمات من ذهني ونسيتها جميعا، ظللت واقفا أمامه وهو يتطلع إليَّ بابتسامة ودية، فجأة وجدتني أقول:

ـ أريد أن أفعل شيئا من أجل مصر.

كان صوتي حماسيا متهدجا وارتجف عندما نطقت كلمة مصر، حسن مؤمن زعيم حقيقي، أطرق وهز رأسه وكأنه يتفهم الأمر تماما.. سألني بضعة أسئلة عن فرقتي ومكان سكني ثم دعاني في نفس اليوم إلى اجتماع لجنة الوفد في حديقة كلية الزراعة الساعة الخامسة، اللجنة تضم طلابا من كليات مختلفة.. تعرفت إليهم جميعا وصرت عضوا في اللجنة، بعد انتهاء الاجتماع جذبني حسن من يدي ومشى بعيدا عن الزملاء وقال:

ـ أهلا بك يا كامل، أريد أن أطمئنك أن الذين يحبون مصر كثيرون، هناك جبهة واسعة من الوطنيين من مختلف الاتجاهات السياسية، إننا موجودون في كل مكان وسوف ننتصر بإذن الله.

بدأ حسن يكلفني بمهام مختلفة كنت أجتهد لأؤديها على أكمل وجه.. ترجمت بعض المقالات من الصحف الإنجليزية نُشرت في مجلة الوفد التي توزع مجانا في الجامعة، بعد ذلك كنت أساعد في إعداد سرادق الوفد في السيدة زينب.. يوما بعد يوم بدأت المهام تزداد.. بعد ثلاثة أشهر من انضمامي إلى اللجنة، فوجئت بحسن مؤمن يطلب لقائي في الصباح الباكر على غير العادة، ذهبت إليه في حديقة كلية الزراعة فوجدته ينتظرني وحده، كان يحمل في يده حقيبة سوداء ويدخن بشراهة، يشعل السيجارة من الأخرى، بدا عصبيا ومجهدا، كان وجهه شاحبا وعيناه محتقنتين تحوطهما هالات داكنة كأنه لم ينم طوال الليل. تلفت حوله ثم همس بلهجة جادة:

ـ وزير خارجية بريطانيا سيزور مصر بعد أيام، لقد أعددنا منشورا نرفض فيه الزيارة ونشرح جرائم الاحتلال.

تطلعت إليه صامتا، وضع يده على كتفي وقال:

ـ أريدك أن توزع هذا المنشور في السيدة زينب.

لم أرد، كان ما يحدث يسبق تفكيري، أطرقت ورحت أنظر إلى حشائش الحديقة تحت قدمي، ارتفعت أصوات بعض الطلبة الذين كانوا يلعبون الكرة بجوارنا، انتبهت على صوت حسن يهمس من جديد:

ـ من الأمانة أن أخبرك من البداية أن ما سوف تفعله جريمة يعاقِب عليها القانون.. إذا تم ضبطك بهذه المنشورات سيُقبض عليك وتُقدم إلى المحاكمة، وقد تقضي سنوات في السجن.

داهمني خيال مفزع، رأيتني في السجن، رأيت أمي تبكي بحسرة وأبي يتطلع إليَّ بوجه مكفهر من الحزن.. استطرد حسن قائلا:

ـ كامل.. أنت وطني وشجاع لكن أرجوك لا تتسرع.. سأعطيك مهلة للتفكير في الأمر، لو اعتذرت عن هذه المهمة سوف أتفهم موقفك.

ساد صمت عميق، مددت يدي بهدوء لآخذ الحقيبة، حاول أن يقول شيئا لكني جذبتها من يده.

(٥)

الناس في شارع السد الجواني يعتبرون الإصلاح بين الزوجين المتخاصمَيْن واجبا أخلاقيا ودينيا، ما إن يتشاجر زوجان في الشارع في أية ساعة من الليل أو النهار حتى يهرع إليهما الجيران، يستمعون بعناية إلى وقائع الخلاف ويقترحون الحل العادل مستشهدين بالقرآن والحديث ولا يتركون الزوجين أبدا قبل أن تعود المياه لمجاريها، الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، مشاجرات علي حمامة البقال وزوجته عائشة، لا يتدخل الناس لفضها أبدا.. ربما لأن مشاجراتهما عنيفة وصاخبة لكنها آمنة لا تؤدي إلى إصابات أو محاولات قتل أو انتحار كما يحدث مع آخرين.. أضف إلى ذلك أن مشاجراتهما تحمل طابعا احتفاليا مسليا، يتبادل خلالها علي حمامة وعائشة شتائم مقذعة لكنها طريفة ويقومون بحركات بذيئة مبتكرة حتى يبدو الأمر على نحو ما وكأنهما يقدمان عرضا أمام جمهور.. بالنسبة لسكان الشارع، ليس عم علي حمامة وزوجته عائشة حقيقيين تماما.. إنهما يملكان، بالإضافة إلى حضورهما العادي، حضورا آخر فلكلوريا حافلا بالنوادر والطرائف، يجعلهما أقرب إلى شخصيات السيرة الشعبية منهما إلى مجرد ساكنَيْن في الشارع.

«علي حمامة» اسمه في شهادة الميلاد: علي محمد حنفي.. لماذا اشتهر باسم «علي حمامة»؟ التفاسير متعددة: يقولون إنه لما جاء من قريته (أشمون محافظة المنوفية) وهو صبي في العاشرة ليعمل في محل

يونس الكبابجي في ميدان السيدة، اشتهر آنذاك بين صبيان الشارع بقدرته الفائقة على العَدْو السريع فأطلقوا عليه حمامة.. هذه الرواية تنافسها رواية أخرى تُرجع اللقب إلى وشم أزرق على شكل حمامة كان يحمله فوق صدغه وهو صغير كعادة الريفيين، ولما تكررت سخرية القاهريين من الوشم ذهب إلى حلاق الصحة وقام بمحوه.. لكن تسمية حمامة التصقت به.. أما الرواية الثالثة ـ وهي الأخطر والأكثر إثارة، فتؤكد أن علي حمامة، في شبابه، كان يحترف إجراء عمليات الختان للأطفال؛ من هنا جاءت تسميته بالحمامة التي هي في تراثنا المصري تستعمل كناية عن عضو التذكير للطفل.. كان يحمل حقيبة أدواته الطبية ويطوف بالقرى القريبة من القاهرة، يعرض خدماته ويتفاوض على أتعابه ويُجري عملياته لأطفال الفلاحين الفقراء.. ذات يوم ذهب لإجراء الختان لطفل في القليوبية وكان قد أسرف في تدخين الحشيش فصار مسطولا تماما، ولأنه يداوي احمرار عينيه بالقطرة فقد كان من الصعب ملاحظة تأثير المخدر عليه، كان البيت مزدانا بالمصابيح والأعلام الصغيرة احتفالا بختان الطفل، وما إن دخل علي حمامة من الباب حتى استقبلته عاصفة من الزغاريد، كانت النسوة المبتهجات في كل مكان: في المدخل وفوق السطح وفي الحجرات الداخلية والصالة حيث احتسى علي حمامة كوبا لذيذا من شربات الورد قبل أن يقودوه إلى الحجرة التي ينتظره فيها الطفل المراد ختانه، تم إخراج النساء من الحجرة وأمسك والد الطفل وعمه بجسده الصغير وألقيا به على السرير، وبالرغم من مقاومته العنيدة كشفا جلبابه ونزعا لباسه الداخلي، ثم باعدا بين ساقيه حتى صار المجال الجراحي مكشوفا أمام علي حمامة الذي، كعادته في كل جراحاته، بدأ بالبسملة والحوقلة ثم أقعى أمام الطفل ومد يده اليسرى وأمسك بالعضو التناسلي للطفل بينما الموسى الحادة تلمع في

يده اليمنى، شد العضو نحوه وبدلا من أن يزيل غلافه بضربة واحدة بارعة كما هي عادته.. بكل أسف، لم يستطع حمامة من تأثير الحشيش أن يضبط يده فانغرز الموسى في عضو الطفل الذي أطلق صرخات عالية حادة شقت عنان السماء، تدفق الدم كالنافورة فلطخ الفراش وبلاط الأرضية، ساد هرج ومرج وسرعان ما انتقل خبر النزيف إلى أقارب الطفل الواقفين في الخارج فاندفعوا إلى داخل الحجرة وقد انتابهم الهلع؛ حتى إن بعض النسوة شَرَعْن في النحيب والولولة وكأن الولد مات.. أراد علي حمامة أن يُطمئنهم، فأشار إليهم بيديه مهدئا ثم تنهد ورسم على وجهه ابتسامة عريضة وهز رأسه كأن ما يحدث عادي جدا ومألوف للغاية.. قال بصوت جَهِدَ ليضفي عليه طابع المرح:

ـ على فكرة.. الولد ابنكم حظه حلو، الغلاف نازل تحت، عارفين يعني إيه؟

ـ يعني إيه؟

هكذا سأله والد الطفل وقد بدا منزعجا وتقلصت عضلات وجهه كأن أحدا قد أيقظه لتوه من النوم رغما عنه.. أطلق حمامة ضحكة عالية مصطنعة تماما وقال:

ـ يعني المحروس لما يكبر.. رأس العضو تبقى كبيرة ويجنن النسوان.. آه.. معلوم.

هز رأسه مازحا إلا أن أحدا لم يبتسم لدعابته إطلاقا، ظلت صرخات الطفل تدوي كأنها صفارة إنذار بلا نهاية واستمر الدم يتدفق على هيئة خيوط رفيعة متداخلة على ساقيه، تطلع علي حمامة إلى وجوه أقارب الطفل المحتشدين حوله فوجدها عابسة مكفهرة وأدرك أن سحابة انزعاجهم سرعان ما ستمطر غضبا.. عندئذ طلب منهم، بهدوء واحترام،

إحضار بُنٍّ من المطبخ ليكبسوا به الجرح ريثما يذهب هو حالا، في أقل من دقيقة، ليحضر دواء مخصوصا من الصيدلية القريبة، ولما عرضوا عليه أن يذهب أحدهم لشراء الدواء رفض علي حمامة وقال إن الصيدلية فيها عدة أدوية بنفس الاسم وهو وحده يستطيع أن يختار الأفضل.. ثم.. قطعا للهواجس من جذورها وإمعانا في طمأنة الجميع، تعمد علي حمامة أن يترك معهم حقيبته الطبية بأدواتها، خرج إلى الشارع وتوجه نحو الصيدلية، كان يمشي بخطوة متمهلة وقورة تحسبا لأن يكون أحدهم يراقبه من النافذة.. لكنه ما إن تجاوز مجال أنظارهم حتى انطلق هاربا، أطلق ساقيه للريح.. هكذا بوضوح، بدون مواربة، لم يعد هناك جدوى من التظاهر.. ركض علي حمامة بأقصى سرعة حتى وصل إلى موقف سيارات الأجرة واستقل سيارة وحده إلى القاهرة (وهذه تضحية مالية فريدة من نوعها في تاريخه).. لكنه حمد ربنا وشكر فضله بعد ذلك لأن أهل الضحية لم يتعقبوه، أو ربما تعقبوه وفشلوا في العثور عليه لأنهم توقعوا أن يستقل القطار فطاردوه في المحطة، كما أنهم لا يعرفون عنه شيئا، لا اسمه بالكامل ولا سكنه.. بعد هذا الحادث المؤسف اعتزل علي حمامة نشاطه الجراحي وامتنع عن إجراء عمليات الختان ثم اتخذ مكانه الخالد في دكان البقال الصغير المعتم الذي يمتلكه في أول شارع السد أمام محطة الترام، يجلس طوال النهار خلف المكتب المتهالك وقد ارتدى الطربوش العتيق المنبعج أعلاه قليلا والبالطو الكاكي الذي يجعله يبدو أشبه بمُخبر في الداخلية وتحت البالطو يرتدي دائما جلبابا مقلما، إنه يمتلك ثلاثة جلابيب كلها مقلمة إذ يعتقد، لسبب ما، أن القماش المقلم يعتبر قمة الأناقة.. يظل علي حمامة صامتا بالساعات، لا يتكلم إلا للضرورة القصوى لأنه ـ شأن كبار الحشاشين ـ أميل إلى الانزواء والتأمل منه إلى الصخب والتفاعل.. وجهه كابٍ لا يوحي بأي

تعبير، يبربش دائما بعينيه الضيقتين وبين الحين والحين يحدق بقوة، يبذل مجهودا حتى يرى ما يحدث حوله (يشيعون أنه فقد نظارته من سنوات ومن فرط بخله استخسر أن يشتري نظارة جديدة مما أضعف نظره بشدة).. لكن علي حمامة، بالرغم من صمته وانزوائه وسكونه، وبالرغم من ضعف بصره وسنه المتقدمة ورثاثة هيئته.. ليس غافلا أبدا عما يحدث. إنه رابض، متربص، في حالة كمون كالبكتريا، يدخر طاقته لوقت الحاجة.. يراقب حركة البيع في الدكان: طلب البضاعة وإحضارها ووزنها ولفها وتسليمها للزبون وقبض الثمن ثم استقرار المال في الدرج، النسوة من البيوت المجاورة للمحل اللاتي ينادين ويقمن بإدلاء السلال من الشرفات فيهرع إليهن الصبي يأخذ الفلوس ويلبي قائمة الطلبات ويضعها مع الباقي في السلة، كل هذه التحركات يتابعها علي حمامة من مكانه بانتباه حاد يستدعي خلاله حواسه جميعا ليعوض ضعف بصره، ما إن تحدث مخالفة حتى يتدخل فورا؛ أكثر ما يفجر غضبه بالطبع أن يحاول أحد الزبائن تأجيل الدفع، وتفاديا لأي سوء فهم فقد علق في مدخل الدكان لافتة كبيرة كتب عليها «الشكك ممنوع والزعل مرفوع».. الزبون المشاغب لا يُفصح عادة عن نيته من البداية.. لكنه مثلا يطلب ربع جبن رومي أو براميلي أو سندوتش حلاوة طحينية، وبعد أن يمسك باللفة في يده.. يبتسم باستعباط ويقول:

ـ أدفع باكر بإذن الله تعالى.

عندئذ، فورا، يكسر حمامة حالة الكمون وينشط، يهب منتفضا ويصيح عاليا بصوت متحشرج مشروخ يثير استغراب الزبائن:

ـ لا يا حبيبي.. البكا على رأس الميت يا أخويا.. لما تدفع تبقى تأخذ البضاعة.

في نفس اللحظة يكون الصبي المدرب قد خطف اللفة من يد الزبون، الذي إذا كان من النوع الرذيل سوف يجادل ويلح فلا يجد علي حمامة عندئذ بُدًّا من التوجه إليه ليحسم الأمر، بالذوق وإن لزم الأمر بالعافية.

اشتهر علي حمامة بأنه بخيل وفظ، لا يهتم بمجاملة الناس ولا يحترم مشاعرهم وهو بالرغم من حرصه على أداء الصلوات في الجامع، لا يُفوت فرصة واحدة لغش البضاعة سواء في النوع أو في الوزن. ميزانه ملعوب فيه وقد استحدث نوعا من الورق المقوى، السميك جدا بطريقة فريدة من نوعها، ليزن به الجبن والبسطرمة فيقلل من الكمية المباعة.. كل هذه التصرفات الخسيسة جعلت الناس في شارع السد الجواني يكرهونه ويتمنون في أعماقهم لو لحقت به الخسارة بأية طريقة، على العكس من علي حمامة فإن زوجته عائشة تتمتع بشعبية جارفة في الشارع، ما إن تأتي سيرتها حتى يبتسم الناس وتلمع عيونهم ببريق يعكس مع الإعجاب والمودة شيئا من التسلية والسخرية، عائشة تشكل بالنسبة للرجال نموذجا للغواية الآثمة اللذيذة، الخلاعة الفاحشة الخلابة.. بالرغم من إدانتهم المعلنة لكثير من تصرفاتها فإنهم جميعا، في أعماقهم، يتمنون لو تمتعت زوجاتهم ببعض أنوثتها.. أما النساء فيُحْببن عائشة لأنها تُعبِّر عما يدور في داخلهن ولا يجرؤن على إعلانه، الصفة المميزة لعائشة أنها لا تخجل إطلاقا، تحب دائما أن تحكي، بصوتها المبحوح وابتسامتها اللاهية، ممارساتها الزوجية بأدق تفاصيلها.. عندئذ تجتمع النساء حولها ويستمعن إليها بشغف وبين الحين والآخر يُطْلقن صيحات صغيرة مرحة أو يخفين وجوههن من الخجل.. تؤكد لهن عائشة أن الجنس أجمل ما في الوجود وتصف لهن كيف تستحم كل ليلة وتُنَعِّم

جسدها وتُعَطّره وتظل عارية تماما تحت قميص النوم تنتظر زوجها.. قد تسألها امرأة من الحاضرات:

ـ ألا تحسين بالبرد وأنت عارية يا أختي؟!

عندئذ، في إطار العرض الفني الذي تقدمه، تطلق عائشة شخرة خفيفة مستنكرة ثم تحرك شفتيها المزمومتين بسرعة يمينا ويسارا (علامة خيبة الأمل) وتنتظر، مثل ممثل مسرحي مخضرم، حتى تهدأ عاصفة الضحك ثم تؤكد بصريح العبارة: «إن الشيء الذي يعطيه لها زوجها هو ما يدفئها، بل إن المرأة، بدون هذا الشيء، لن تعرف طعم السعادة أبدا». (وهي بذلك تتفق في الرأي إلى حد التطابق مع سيجموند فرويد بالرغم من أنهما، سيجموند وعائشة، لم يسمعا ببعضهما البعض قط).

إن الحديث الفاحش هواية عائشة المفضلة، تماما كما يهوى بعض الناس جمع الطوابع أو لعب الشطرنج، وهي لا تخص بحديثها النساء دون الرجال، ولكنها توزع فُحشها على الجميع بالتساوي، عندما تذهب لنشر الغسيل تختار النافذة الخلفية المواجهة لشقة الطلبة وتتعمد أن تفك زرارين من صدر جلبابها.. وهكذا، ما إن تنحني على الحبال وتمد يديها بقطعة الغسيل لتعلقها بالمشابك، حتى ينكشف ثدياها للواقف في شرفة الطلبة، وهي تفعل ذلك بإتقان فتبدو وكأنها غافلة عن نظرات الرغبة التي تكاد تلسعها من فرط الحرارة.. وعندما تَشَجَّع أحد الطلبة ذات مرة وعلق على جمال صدرها لم تغضب ولم تنهره.. بل دخلت معه في حديث ضاحك عن فائدة مداعبة الثدي أثناء الجنس، استفاضت في الشرح وسمت الأشياء بأسمائها مما أثار الطالب المراهق بشدة فاحتقن وجهه وانبهرت أنفاسه وأنهى الحوار بسرعة ثم هرع إلى الحمام ليطفئ شهوته. كأنما حدست عائشة ما ينوي فعله فأطلقت ضحكة

خليعة وانحنت تلتقط الإناء الفارغ ثم عادت أدراجها بمشية متأودة لاهية منتشية، لم تكن عائشة ـ للإنصاف ـ تبحث عن علاقة جنسية مع الطالب، لكنها أرادت أن تستمتع معه بالحديث عن الجنس، لا أكثر ولا أقل.. تماما كما يستمتع اثنان من عُشاق كرة القدم بالحديث عن أجمل الأهداف.. الخلاصة أن استمتاع عائشة بالحديث عن الجنس لا يقل عن استمتاعها بممارسته.. على أنها ـ والحق يقال ـ لم يُعرف عنها أنها خانت زوجها قط.. باستثناء شائعة واحدة خبيثة تؤكد أن علي حمامة قد كوَّن ثروته أساسا من الاتجار في الحشيش، وأنه بدأ العمل لحساب معلم كبير اسمه الحلو، سُمِّي بذلك لوسامته البالغة، يؤكد أصحاب الشائعة أن الحلو تعوَّد أن يسهر في بيت علي حمامة كل ليلة، يدخن معه الحشيش على الجوزة حتى يتعب علي حمامة وينام، عندئذ يتسلل الحلو إلى فراش عائشة ليقضي معها الليل، الذين يكرهون علي حمامة في الشارع (وهم كثيرون) يقولون إنه كان يتظاهر بالنوم ويقبض المقابل من الحلو في صورة امتيازات وأموال وبضاعة مجانية، الله أعلم طبعا بصحة الشائعة، لكن الملاحظ أن فوزي وفايقة، ابنا علي حمامة من عائشة، بالرغم من كونهما شقيقين إلا أن شكلهما مختلف تماما.. فوزي داكن البشرة دميم الوجه مثل أبيه، أما فايقة فمليحة الوجه بيضاء ناصعة كالأتراك، الأمر الذي يفسره البعض بأن فوزي ابن أبيه، أما فايقة فليست سوى ثمرة الحرام بين عائشة والمعلم الحلو.. هذه الشائعة الشريرة لا يميل أهل الشارع إلى ترديدها لأنها تخص الشرف الذي هو جد لا هزل فيه، ولأنهم برغم كل شيء يكنون لعائشة حبا صادقا يجعلهم يتجنبون الإساءة إليها ما وسعهم ذلك.. وهم يحبونها ليس فقط لطرافة تصرفاتها وكلامها الفاحش اللطيف، وإنما لأن لها جانبا آخر أصيلا يتجلى في المحن والأزمات.. إذا جد الجد تتلاشى

ابتسامة عائشة اللاهية وتتخلى عن ولعها بالفُحش ويكتسب وجهها هيئة مفكرة مسئولة، تنصت باهتمام إلى مشكلات الناس وتنصحهم بإخلاص وتخدمهم بقلب، لا ترد السائل أبدا ولا تتأخر أبدا عن مساعدة جاراتها سواء في أوقات الفرح مثل الولادة أو الزفاف أم في الشدة مثل الموت والمرض والطلاق.

بالأمس، بعد منتصف الليل بقليل، عاد علي حمامة كعادته إلى البيت بعد أن أغلق الدكان،كانت عائشة قد أعدت له العشاء فالتهمه بشهية ثم راح يرشف بتلذذ من كوب الشاي بالنعناع، انتهزت عائشة فرصة مزاجه الرائق وفاتحته في موضوع شائك وحساس ومعقد: طلبت منه نقودا لتشتري بدلة لابنهما فوزي.

فوجئ علي حمامة بالطلب، تطلع إليها مأخوذا وسرعان ما اعتدل في جلسته وتمالك نفسه.. رفض الفكرة بكلمات قليلة مقتضبة حاسمة ثم رشف من الشاي بصوت مسموع كأنما يؤكد رفضه، على أن عائشة لم تيأس، ظلت تحاصره بأساليب مختلفة: توددت له ودعت له بالصحة وطول العمر، أكدت أن ربنا سبحانه وتعالى يرزقه بوفرة لأنه بارٌّ بأهله وعياله لا يتأخر أبدا عن تلبية احتياجاتهم، ثم انتقلت إلى وصف احتياج فوزي الشديدة للبدلة.. ماذا يقول الناس إذا رأوا فوزي ابن الحاج علي حمامة ـ على سن ورمح ـ يمشي بثياب قديمة مهترئة.. كل هذه الحجج القوية المقنعة لم تؤثر إطلاقا في علي حمامة.. ظل على رفضه القاطع لشراء البدلة وشيئا فشيئا بدأ يستاء من إلحاح عائشة، التي اضطرت في النهاية إلى استعمال سلاحها البيولوجي: نهضت من مكانها، تأودت وتنهدت بحرارة ثم جلست بجواره على الأريكة، التصقت به تماما، الساق بالساق، كان عطرها القوي يملأ أنفه وسخونة جسدها تلسعه

وهو يعلم أنها كعادتها، عارية تماما تحت الجلباب.. لم تكتفِ بذلك بل مدت يدها ومسحت بها أسفل بطنه لتصل بإثارته إلى الذروة، أحس علي حمامة بالدم يتدفق في عروقه وتسارعت دقات قلبه وحجبت نظره غشاوة الرغبة، كاد أن يضعف ويمد يده إلى صدر زوجته الدافئ العامر لكنه أدرك أن استسلامه للغواية سيكبده خسائر مالية فادحة.. هب واقفا مبتعدا عن مصدر الحرارة ثم جلس على الفوتيل في الناحية الأخرى من الصالة، وما استجمع نفسه حتى بدأ في إلقاء مرافعته:

«الملابس الموجودة تكفي وتزيد، حتى لو كانت قديمة فالواجب رتقها وتجديدها.. هكذا يجب تربية الرجال، العيل لازم يعرف قيمة القرش.. أما تبديد المال على نزوات الأطفال فإنها أسرع طريقة لإفسادهم، ثم إن الولد فوزي غبي وخائب وساقط، عمره ١٧ سنة ولا زال في الإعدادية.. علام إذن يستحق بدلة جديدة؟ هل نكافئه على فشله؟».

نظرت إليه عائشة وسألت:

ـ يعني نسيبه هدومه مقطعة زي الشحاذين؟

ـ ما دام سقط في المدرسة يروح في ستين داهية.

هكذا قال حمامة بهدوء وهو يتفادى النظر إليها. سألته بلهجة تحدٍّ:

ـ آخر كلام.. هتشتري البدلة ولا لأ؟

ـ لأ.

هكذا أجاب علي حمامة بلا تردد، زامت عائشة وانتفضت من مقعدها.. وقفت في وسط الصالة وصاحت:

ـ يا رجل حرام عليك.. أنت هتموتني؟ عاوز تشلني؟ ابنك ضناك نفسه يشتري بدلة والفلوس على قلبك.. خاف من ربنا.

ـ هو ربنا قال لنا نرمي فلوسنا في الأرض؟

ـ أنت إيه؟ معدوم الرحمة.. أنت كافر ولا مسلم؟

ـ مسلم والحمد لله.

هكذا قال حمامة بنبرة ساخرة.. أطلقت عائشة ولولة طويلة حادة كانت ـ بلغة القانون الدولي ـ بمثابة إعلان حرب، ورد عليها حمامة بحشرجات مبتسرة مبهمة يمكن تفسيرها على أنها تأكيد على رفضه وعدم مبالاته بالعواقب، ثم ارتد إلى حالة الكمون، غارقا في سكونه الأبدي، محدقا في الفراغ كأن ما يحدث لا يخصه، توجهت عائشة نحوه حتى صارت في مواجهته ولطمت وجهها بقوة مرتين ثم صاحت:

ـ الله يخرب بيتك، كانت جوازة سودا، قالوا لي عليك من الأول أبخل من كلبة يزيد.

ـ اتجوزتيني ليه؟ حد ضربك على يدك؟

ـ كنت عيلة وعبيطة.. كان يوم أغبر يوم ما شفتك.

رد حمامة بهدوء:

ـ ولا تزعّلي نفسك.. تحبي نخلص وكل واحد يروح لحاله؟

ـ يا ريت، لو كنت رجل طلقني.

ـ هاتي الشبكة الأول.

شهقت عائشة ثم أطلقت شخرة معتبرة ولوحت بإصبعيها بحركة معروفة غير مهذبة ونظرت حولها كأنما تشهد متفرجين متخيلين.. وصاحت:

ـ شبكة إيه يا أبو شبكة.. وحياة أمك!!

ـ معلوم، شبكتك كانت بالشيء الفلاني، هاتيها الأول وأنا أطلقك.

ـ والنبي لأرميها لك على الجزمة القديمة يا وسخ.

هرعت عائشة إلى حجرة النوم ولم تلبث أن عادت بالعلبة القطيفة التي تضم الكردان الذهبي الذي هو شبكتها، صاحت وهي تلقي بها في حجر جلبابه.

ـ خذ يا معفن، اشبع بها.

أمسك حمامة بالعلبة، فتحها وتطلع داخلها متفحصا وكاد يشمها (كأنه يستلم بضاعة وردت إلى الدكان) ثم أغلقها ببطء ووضعها بحرص بجواره على الأريكة ثم تنهد وقال:

ـ أصلك فَقَرِية؛ مالكيش في الطيب نصيب.

وصل غضب عائشة إلى ذروته فأطلقت صرخات متتالية وفجأة، خلعت جلبابها بحركة واحدة وألقت به على الأرض وأصبحت عارية تماما.. ثم أخذت تخبط بكفها بين فخذيها وقالت:

ـ يكون في علمك، خلاص يا روح ماما، كان زمان وجبر، يحرم عليك دخوله يا علي يا بن نظيرة.

ـ يعني حتحرميني من الجنة يا تعبانة؟!

هجمت عليه، رفعت يديها مضمومتين وهبدت بهما على صدره، دفعها وقفز بخفة حتى صار بعيدا عن مرمى ضرباتها ثم تأبط علبة الشبكة وفتح الباب وانطلق هاربا، بينما صوت عائشة يدوي خلفه مُحمَّلا باللعنات والشتائم.

(٦)

في الضوء الخافت يقف بحر البارمان كل ليلة خلف البار، حوله زجاجات الخمر المتنوعة والكئوس النظيفة المقلوبة فوق الرفوف، عندئذ يبدو، بوجهه الخمسيني والبدلة السوداء اللامعة والقميص الأبيض والبابيون الأحمر، متوافقا مع وسطه الطبيعي كأنه قد خُلق للبار ولا يمكن أن يوجد خارجه.. (في المرات النادرة التي رآه فيها بعض الزبائن بعيدا عن البار، استغربوا شكله وبدا لهم وهو يرتدي ثيابا عادية ويمشي في الشارع كأنه متنكر لسبب ما).

يمارس «بحر» عمله بإتقان وانسجام كأنه يعزف على البيانو، يتلقى طلب الزبون وينحني مبتسما ثم يُعد الكأس المطلوبة ويقدمها برشاقة، إذا كان المطلوب كوكتيلا فسوف ينعم الحاضرون بمشهد فني ممتع، يدور بحر على قدم واحدة، يبدو منفعلا كعاشق وهو يضيف عناصر الكوكتيل بعضها إلى بعض ويكاد يرقص وهو يرج الخلاط ثم يصب الكوكتيل باعتزاز ويقدم الكأس ويظل منحنيا لثوانٍ كأنه ينتظر التصفيق.. يتطلع إليه الحاضرون بإعجاب وربما أفلتت صيحة من أحدهم:

ـ «Well done»، برافو بارمان.. ول دن.

يوميا، حتى الساعات الأولى من الصباح، يسيطر بحر على مقدرات البار كأنه يمسكها بيديه، تظل عيناه تجوبان أنحاء المكان بلا انقطاع، يلاحظ كالصقر مساعديه وهم يقدمون المشروبات للأعضاء، عند

ظهور أي خلل تعبر وجهه اختلاجة سريعة يلتقطونها فورا، ثمة تفاهم أثيري، شفرة خاصة يستعملها مع مساعديه: بدءا من تقطيبة وجهه إلى رفع حاجبيه إلى الإيماءة بالرأس ونهاية بحركة اليدين.. ثمة تناغم بين إيقاع بحر خلف البار وحركة مساعديه في الصالة، إذا أسرع هرولوا وإذا تمهل تحركوا ببطء كأنه قائد أوركسترا يحدد سرعة العزف بعصا القيادة.. أما الزبائن فإن بحر يتواصل معهم بحذر وحساسية، شارب الخمر عادة صاحب مزاج مرهف ومتقلب لكن بحر يعرف بالضبط متى يكون الشارب محتاجا إلى الكلام ومتى يحب أن يخلو إلى نفسه.. متى يروي لزبونه طُرفة لطيفة ومتى يسكت أو يبتعد.. بفراسة مدهشة يدرك بحر للوهلة الأولى إذا كان الزبون يشرب لينسى أحزانه أم يحتفل أم أنه جاء بحكم العادة، بنظرة واحدة يخمن إذا كانت المرأة الجالسة مع الزبون زوجته أم عشيقته، ويعرف فورا إذا كان الزبون طيب القلب سوف تزيده الخمر أريحية وتطلق طاقات حنانه أم أنه لئيم الطباع أو محبط وسوف يجعله السكر عدوانيا مؤذيا، بحر لا يغضب أبدا من إهانات السكارى بشرط أن يكونوا فاقدين للسيطرة على أنفسهم فعلا.. يردد دائما لمساعديه: «ليس على السكران حرج».. «السكران في ذمة الصاحي».. في حالات السُّكْر الشديد يتبع بحر مع الزبون إجراءت مهنية محددة: يتوقف فورا عن تقديم الخمر أو يقدم كوبا مليئًا بالماء والثلج مع نقطة ويسكي لإعطاء اللون، يساعد بحر الزبون السكران على الانصراف فيستدعي سائقه وإذا كان وحده فإن بحر يمنعه من قيادة سيارته ويطلب له سيارة أجرة مدفوعة الأجر مقدما حتى لا يتعرض لابتزاز السائق.

على عكس معظم الخدم فإن البارمان بحر يبدو معتزا بنفسه.. إنه لا يعتبر نفسه خادما، إن ما يفعله أرقى من مجرد التنظيف أو تقديم الطلبات، صحيح أنه يخضع لسطوة الكوو مثل الخدم جميعا لكنه يحس

أنه صاحب صنعة؛ فنان يمارس مهنة رفيعة، هذا الاعتزاز يدفعه إلى الحفاظ على كرامته بقدر الإمكان، إنه يتسامح مع إساءات السكارى إلا أنه في غير حالة السكر لا يسامح الزبائن إذا أهانوه، عندئذ ينفذ عليهم لائحة عقوبات متنوعة فعالة وآمنة، فعالة لأنها تحقق له انتقاما مُرْضِيا، وآمنة لأن ما يفعله لا يمكن إثباته كمخالفة أو تجاوز: يستطيع بحر مثلا أن يؤخر الطلب عن الزبون المذنب مع الاعتذار بنبرة تبدو غير صادقة (هكذا يتأكد للزبون سوء قصده لكنه يعجز عن إثباته)، طريقة أخرى للعقاب: يبالغ بحر في احترام الزبون ثم يخطئ في اسمه.. (هذه الطريقة تكون أكثر إيلاما إذا كان الزبون بصحبة امرأة غير زوجته). إذا تجاهل الزبون الخطأ في اسمه فإن بحر يكرره بوجه طفل بريء، وإذا صحح الزبون الاسم يعتذر بحر بشدة لكن الرسالة تكون وصلت: أن الزبون شخصية غير مهمة في نادي السيارات لدرجة أن البارمان يخطئ في اسمه.. الطريقة الثالثة في العقاب، أن يبالغ بحر في الترحيب والانحناء للزبون وما إن يتطلع الزبون إليه حتى يُظهر تعبيرا كارها مشمئزا يعبر وجهه بسرعة البرق ثم يعود بعد ذلك إلى مراسم الاحترام كأن شيئا لم يكن، بقيت طريقة رابعة للعقاب قاسية لم يلجأ إليها بحر إلا مرة واحدة؛ حدث ذلك منذ عامين عندما دخل إلى البار عبد العال باشا حافظ وزير الحقانية المعروف بسلاطة لسانه واستمتاعه بإهانة العاملين معه (حتى لو كانوا من كبار الموظفين)، سعى بحر بكل طاقته لتفادي الصدام ولكن عبثا.. فقد عامله الباشا من البداية بغطرسة مهينة، عبد العال باشا يحب البيرة وقد أحضر له بحر زجاجة مثلجة، ولما فرغ الباشا منها صاح بصوت سمعه كل الجالسين على البار:

ـ المفروض ترفع الزجاجة اللي خلصت وتسألني إذا كنت عاوز واحدة ثانية.. عاوزني أعلمك شغلك؟ أما إنك بارمان حمار صحيح.

لا يذكر بحر أنه طوال عمله قد أحس بالحنق والمهانة كما حدث تلك الليلة.. فجأة خطرت له فكرة، كأنها إلهام: أخذ بحر زجاجة بيرة وخرج من البار، اجتاز الردهة وتأكد أن أحدا لا يراه ثم اندفع ممسكا بزجاجة البيرة إلى دورة المياه ولم يلبث أن عاد بها إلى البار ووضعها على الرف الداخلي، ولما طلب الباشا زجاجة البيرة الثالثة، صب له بحر البيرة في الكأس وقدمها وظل وحده مستمتعا بمشهد عبد العال باشا حافظ، وزير الحقانية المنتفخ المتغطرس وهو يشرب البيرة مختلطة بقطرات من بول بحر البارمان.

هذه الواقعة، للإنصاف، تعكس سلوكا استثنائيا من بحر.. مجرد نقطة سوداء صغيرة في ثوب أبيض ناصع كبير.. يتمتع بحر عادة بتقدير الزبائن ومحبتهم وقد تكلل اسمه بأمجاد متكررة رفعته شيئا فشيئا فوق عرش المهنة؛ لعل أشهرها ما حدث مع الكولونيل وليم كولدويل وهو أرستقراطي إنجليزي كان أحد المساعدين المقربين للمارشال مونتجمري، يتميز الكولونيل كولدويل بصلف مستفز مغلف بتهذيب طقوسي زائف، ما إن جلس إلى البار حتى أدرك بحر أنه شخصية صعبة فبدأ يطبق أصول الخدمة بحذافيرها حتى لا يعطيه فرصة للتطاول أو اصطناع المشاكل، شرب الكولونيل كولدويل كأسا من الجين تونيك ثم وجه إلى بحر، بلكنته البريطانية الأنيقة، سؤالا يعتبر إهانة في حد ذاته إذ قال وهو يضع غليونه في فمه:

ـ اسمع يا بارمان.. هل تعرف كيف تصنع كوكتيلات؟

ـ بالطبع يا سيدي.

ـ أي نوع من الكوكتيلات؟

ـ كل الأنواع يا سيدي.

ـ هل أنت واثق من ذلك يا بارمان؟

ـ نعم يا سيدي.. في خدمتك.

فكر الكولونيل قليلا ونفث دفعة من دخان الغليون المعطر ثم ابتسم وبان على وجهه تعبير خبيث لاهٍ كأنه طفل يبدأ لعبةً مسلية.. ثم قال:

ـ إذن أعطني كأسا من كوكتيل «البيضة الواحدة».

نطق الكولونيل اسم الكوكتيل ببطء، كأنه يسدد ضربة تنس قوية ساحقة ثم يستدير بدون أن يتابع الكرة بنظره لأنه متأكد أن خصمه يستحيل أن يصدها.. انحنى بحر بطريقة عادية تماما وكأن الكولونيل قد طلب كوبا من الماء، سحب زجاجة شمبانيا وفتحها فانفجر غطاؤها في صخبه المحبب ثم حدق فيها مركزا كل ذهنه وصب قدرا محسوبا من الشمبانيا في الخلاط وأضاف المحتويات الأخرى وهز الخلاط للمدة المطلوبة بالضبط وأفرغه في كوب مليء بالثلج.. تابعه الكولونيل بانتباه ودهشة. تناول منه الكأس ثم شمها وتذوقها وسرعان ما لان طابع الصلف على وجهه وقال بلهجة جديدة مختلفة:

ـ أين تعلمت هذا الكوكتيل؟

ـ في مصر يا سيدي.

ـ هل تعرف لماذا سمي بكوكتيل البيضة الواحدة؟

ـ المقصود بهذا الكوكتيل أدولف هتلر يا سيدي.

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان مولودا بخصية واحدة فقط.

رفع الكولونيل حاجبيه ثم وضع غليونه على البار ومد يده ليصافح بحر، وفي النهاية وهو يدفع الحساب منحه جنيها كاملا كبقشيش.

بعد كل هذا المجد المهني يبقى السؤال: هل يسرق البارمان بحر الزبائن؟

الإجابة تتوقف على مفهومنا للسرقة، إن بحر يستعمل عدة حيل من أجل زيادة دخله، يستعمل الشيك الدوار فيقبض ثمن الفاتورة ذاتها عدة مرات. حيلة أخرى: تحاسب إدارة النادي البارمان بحر على أساس أن زجاجة الويسكي تحتوي على ٢٠ كأسا يجب أن يسدد ثمنها للخزينة، إذا قلل بحر مقدارا صغيرا من كل كأس يقدمها، فإنه يستطيع أن يصل بالزجاجة إلى ٢٦ كأسا، الكئوس الست الزائدة يبيعها لحسابه بالطبع، وأحيانا إذا كانت الظروف مواتية يحضر بحر زجاجة ويسكي كاملة يبيعها لحسابه، في هذه الألعاب ينتقي البارمان بحر زبائنه بعناية من بين الذين يسكرون بسرعة (فلا يلاحظون نقص كمية الويسكي في الكأس) أو أولئك الذين يتميزون بقدر من التسامح يجعلهم لا يدققون في الحساب ولا يطلبون الاطلاع على الفواتير. وهكذا؛ بالتفاهم مع المحاسب مرقص، يجني البارمان بحر أرباحا وفيرة من البار لكنه لا يَعتبر ما يفعله سرقة، إطلاقا، إنما هي حيل مشروعة تماما في عالم البارات حيث القاعدة أن كل شيء مباح ما دام الزبون مبسوطا.. مقابل أرباحه من البار يدفع بحر مبلغا شهريا إلى الكوو يسمى البوناس.

الليلة، يحس بحر بقلق لأن الكوو وبَّخه واتهمه بالسرقة أمام زملائه، الكوو لا يفعل ذلك إلا إذا بيت النية على شيء.. ربنا يستر. بحر ليس خادما عاديا وإنما هو واحد من الأربعة الكبار: الشيف ركابي والمتر شاكر ويوسف طربوش مسئول صالة القمار، هؤلاء رؤساء الخدم

ولهم معاملة خاصة، لا يضربهم الكوو أبدا وإنما يكتفي بتوبيخهم لكنه عندما يتهمهم بالسرقة على الملأ فهو يريد منهم نقودا، هكذا تعلم بحر بالتجربة، بقيت أيام قليلة على أول الشهر موعد تقديم البوناس للكوو، لكن بحر تجاهل ذلك وجمع المبلغ المعتاد في ظرف وضعه في درج البار، ظل يراقب سير العمل بنصف انتباه وهو متوجس ولما انتصف الليل قال لمساعديه:

ـ أنا ذاهب لمقابلة الكوو.

أدركوا من تعبير وجهه أن الأمر جلل، فسارع أحدهم وأخذ مكانه خلف البار، وضع بحر الظرف في جيبه واستقل تاكسيا إلى قصر عابدين، كان منتصف الليل أفضل وقت للقاء الكوو، عندما يكون مولانا الملك مشغولا على مائدة القمار في نادي السيارات أو ساهرا مع أصدقائه وصديقاته في الأوبرج.. عندما دخل بحر إلى مكتب الكوو استقبله حميد بفتور وتطلع إليه متسائلا، ابتسم بحر بتوسل وقال:

ـ يا سيد حميد، أريد أن أقابل جناب الكوو.

ـ انتظر.

هكذا قال حميد وهو يشير بإصبعه بنظرة سريعة إلى المقعد البعيد في الركن، بعد نصف ساعة كاملة عاد إليه حميد وقال باقتضاب:

ـ جناب الكوو يريدك.

تعمد حميد أن يستعمل كلمة يريدك بدلا من ينتظرك (لأن الكوو لا يليق به أن ينتظر أحدا). نهض بحر من مكانه وتوقف أمام المرآة ليلقي نظرة سريعة يَطْمَئن بها على هندامه، حذاؤه لامع، البابيون مستقر في مكانه والجاكيتة مكوية ونظيفة.. دخل بحر من الباب وانحنى بشدة وقال:

ـ مساء الخير يا جناب الكوو.

كان الكوو جالسا خلف المكتب، سيجاره مشتعل كالعادة يبث دخانا كثيفا وقد ارتدى زي الشماشرجي المزركش ووضع نظارته الذهبية وأخذ يقرأ بعض الأوراق الموضوعة أمامه على المكتب. تعمد الكوو أن يترك بحر واقفا أمامه نحو دقيقة كاملة قبل أن يرفع رأسه ويتطلع إليه، ارتسمت ابتسامة مهذبة على وجه بحر وانحنى ثم تقدم خطوتين ووضع مظروفا على طرف المكتب،كان الظرف مفتوحا والأوراق المالية تظهر منه، هكذا تعود بحر أن يقدم البوناس إلى الكوو الذي كان عادة ما يلقي نظرة على الظرف ثم يصرفه بإشارة من يده.. هذه المرة تطلع الكوو إلى الظرف وبدا عليه الاستياء ثم صاح بغضب:

ـ ما هذا؟

ـ فضلة خيرك يا جناب الكوو.

صاح الكوو:

ـ خذ الظرف وامشي.

بُهِت بحر وبدا على وجهه انزعاج بالغ، وحاول أن يتكلم لكن صوت الكوو جلجل في أنحاء القاعة:

ـ امشي من هنا.. امشي.

التقط بحر الظرف من فوق المكتب واستدار بسرعة ثم انطلق خارجًا.

(٧)

في السادسة صباحا يستيقظ جيمس رايت، يغسل وجهه وأسنانه ويشرب الشاي مع قطعتين اثنتين من البسكويت المحشو بالشوكولاتة الذي يحبه ثم يحمل حقيبته الرياضية ويخرج من باب الفيلا التي يسكنها على نيل الزمالك، يمشي على قدميه بضع دقائق حتى يصل إلى نادي الجزيرة حيث يلعب التنس لمدة ساعة، بعد ذلك يعود مرة أخرى إلى بيته فيأخذ حَمَّامًا ساخنا ويتناول إفطاره ثم يرتدي ثيابه ويتوجه إلى نادي السيارات الذي يعمل مديرا له منذ إنشائه، يعمل في مكتبه من التاسعة حتى الرابعة مساء، بعد ذلك يقوده سائقه مرة أخرى إلى نادي الجزيرة حيث يشرب كأسين أو ثلاث من الويسكي وهو يطالع الصحف الإنجليزية وقد يلعب الورق مع أصدقائه، وفي تمام الساعة السابعة يكون في بيته ليتناول العشاء مع زوجته فيكتوريا وابنته ميتسي.. هكذا تمضي حياة مستر جيمس رايت منضبطة كالساعة، شفَّافة ككوب ماء. في أية لحظة يمكننا أن نتوقع أين يكون وماذا يفعل.. مع ذلك فإنه، مثل معظم الناس، لديه ما يحرص على إخفائه.. مرتان أو ثلاث كل أسبوع. بعد أن يصحبه السائق إلى النادي، يدخل رايت إلى البار ويطلب كأسا واحدة يشربها بسرعة وهو واقف ثم يمشي في طرقات النادي كأنه يتريض حتى يخرج متسللا من الباب الخلفي، يغيب المستر رايت طويلا ثم

يعود إلى النادي ويستقل سيارته عائدا إلى البيت في موعده المعتاد.. أين يذهب رايت خلال جولاته السرية؟

بدأت الحكاية منذ عامين عندما نظم نادي السيارات حفله السنوي بمناسبة رأس السنة، حضر الحفل المندوب السامي البريطاني والسفراء الأجانب والوزراء وكبار الشخصيات وأمراء الأسرة المالكة، ثم فاجأ مولانا الملك المدعوين بلفتة سامية كريمة فظهر نحو الواحدة صباحا وهنَّأ الحاضرين بالعام الجديد ثم أخذ مكانه على المائدة الخضراء وظل يلعب الورق حتى الصباح، كان الحفل كالعادة يعكس أحدث خطوط الأناقة للرجال والسيدات، فرو وفساتين سهرة وبدل سموكنج؛ مباراة حقيقية في الأناقة، واحدة من المدعوات استرعت انتباه مستر رايت: امرأة أربعينية ضئيلة الجسد بيضاء شعرها أسود فاحم ناعم مقصوص على طريقة ألاجرسون، تدخن بلا انقطاع وترتدي فستانا أزرق بسيطا لا يناسب الحفل إطلاقا، راح رايت يراقبها باستغراب وتساءل: «كيف تجرؤ هذه المرأة على حضور حفل ساهر رفيع المستوى بفستان لا يصلح على الأكثر إلا لتناول الشاي؟». الغريب أنها كانت تتحدث وتضحك مع المدعوين بطريقة طبيعية كأنها لا تشعر بشذوذ مظهرها، تضاعف فضول مستر رايت ودفعه في النهاية إلى سؤال المتر شاكر:

ـ مَن تكون هذه السيدة ذات الفستان الأزرق؟

انحنى المتر شاكر وهمس:

ـ إنها مدام أوديت فتال يا سيدي.

ـ هل هي قريبة المسيو هنري فتال؟

ـ إنها ابنته يا سيدي.

هكذا ازداد الأمر غموضا، المليونير هنري فتال واحد من كبار تجار القطن في مصر، لماذا تبدو ابنته بهذا المظهر البائس.. أي سكرتيرة في مكتب أبيها بالتأكيد ترتدي ملابس أفضل منها.. ما معنى هذه الحكاية؟ ولماذا يبدو الحاضرون جميعا متفهمين لوجود هذا الأرنب البري بينهم؟ لم يعد بوسع رايت أن يحتمل فضوله فطلب كأسا أخرى تجرعها دفعة واحدة فزال تردده وتقدم نحو المرأة. تطلعت إليه فانحنى وقال:

ـ بونسوار مدام.. اسمحي لي أن أقدم نفسي.. جيمس رايت مدير نادي السيارات.

تناول يدها وقَبَّلَها فوجدها بضة يفوح منها عطر خفيف آسر، ابتسمت وقالت:

ـ أنا أوديت فتال، مُدرسة في الليسيه فرنسيه.. Enchanteé.

شجعته ابتسامتها فقال وهو يلتقط كأسا جديدة من الصينية التي يحملها السفرجي:

ـ هل لي أن أسأل لماذا لم نتشرف برؤيتك من قبل عندنا في النادي؟

ـ أنا لا أحب نادي السيارات.

ـ يا لَهُ من خبر مؤسف.

ـ لولا إلحاح أصدقائي لما جئت الليلة.

ـ يجب أن أشكر أصدقاءك.

ـ أرجو ألا تغضب مني، أنا أعبر عن رأيي بصراحة.

راح رايت يتأمل هذا الكائن الغريب الذي لا يخلو مع ذلك من طرافة، قال لها:

ـ هل لي أن أعرف لماذا تكرهين نادي السيارات؟

ـ لأنه مكان كاذب مصطنع، مليء بالأوغاد.

هكذا ردت أوديت بلهجة عادية، رفع رايت حاجبيه وتطلع إليها بانزعاج لكنها لم تبال واستطردت قائلة:

ـ هنا في نادي السيارات، يرتدي اللصوص أفخم الملابس ويتعطرون ثم يؤدون أدوارهم في مسرحية سخيفة.

ـ مَن تقصدين باللصوص؟

ـ كل هؤلاء المدعوين، أليس هؤلاء الباشوات نجوم الطبقة الراقية في مصر؟! اذكر لي أي اسم من الحاضرين وأنا أذكر لك سجلا كاملا لجرائمه.

على مدى واحد وستين عاما عاشها جيمس رايت لم يخض قط حوارا بهذه الغرابة، أدرك أنه أمام امرأة مختلفة عن كل اللاتي يَرَاهُن كل يوم، برغم غرابة أطوارها كانت تمتلك جاذبية ما، مؤكدة.. تحدثا طويلا حتى لاحظهما الحاضرون وتبادلوا تعليقات مرحة هامسة.. في السادسة صباحا أوصلها إلى بيتها، وفي اليوم التالي اتصل ليطمئن عليها، خرجا معا ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة دعاها إلى العشاء في المينا هاوس ثم أوصلها إلى شقتها في الزمالك.. قبل أن تنزل من السيارة تبادلا كلمات الوداع المعتادة لكنها فجأة اقتربت منه وطبعت قُبْلَة خاطفة على شفتيه، كاد يجن من الإثارة، احتضنها بقوة والتهمها بقُبُلاته.. تلك الليلة نام معها لأول مرة، بعد عام كامل من العلاقة لم يتبدد إحساسه بالدهشة، بقدر ما منحته أوديت من سعادة ظلت بالنسبة إليه كائنا غامضا، كلما توطدت علاقته بها ألحت على ذهنه أسئلة بلا

إجابة.. كثيرا ما يقف أمام المرآة يتطلع إلى وجهه المغضن بالتجاعيد وبقايا شعره الأشيب الذي يحيط بصلعته الفسيحة، ثم يتساءل ما الذي يجذب أوديت الجميلة إلى رجل غير وسيم يكبرها في السن بعشرين عاما؟ هل تعاني من عقدة الكترا؛ فهي تبحث عن صورة الأب التي تفتقدها؟ لماذا تركت قصر أبيها في المعادي واستأجرت شقة صغيرة في الزمالك؟ لماذا تضطر ابنة المليونير فتال إلى التدريس في الليسيه؟ حتى تنفق على نفسها؟ لماذا لم تعمل في واحدة من شركات أبيها المتعددة؟ ما حكاية زوجها اللبناني الذي يعيش في باريس وتتجنب دائما الحديث عنه؟ لماذا لا يعيشان معا؟ كل هذه الأسئلة طرحها على أوديت، عندئذ أربد وجهها الجميل وأجابته باقتضاب:

ـ لقد انفصلت عن أبي من سنوات، أزوره كل فترة لكني لا أسمح له بالتدخل في حياتي.

ـ لماذا انفصلتِ عنه؟

ـ نحن مختلفان في كل شيء.

ـ لو كان أبي مليونيرا مثل أبيكِ لما انفصلت عنه أبدا.

هكذا علق مستر رايت ضاحكا ثم سألها لماذا لا تعيش مع زوجها أو تطلب الطلاق.. ابتسمت أوديت وقالت بهدوء:

ـ جيمس هل تحبني؟

ـ طبعا.

ـ إذن أحبني كما أنا، لا تسلني عن حياتي.

انصاع لها وأقلع عن طرح الأسئلة، كانت أوديت امرأة غريبة وغامضة

لكنه أحبها كما لم يحب امرأة في حياته، لا يستطيع أن يتخيل حياته إذا تركته، لم يكن قط زوجا مخلصا لفيكتوريا ولم يشعر قط بتأنيب الضمير لخياناته المتكررة لها.. بالمثل كان على استعداد لاغتفار نزوات زوجته التي كان يدركها بحدسه،كان يعتقد أن الزواج ضروري لإنجاب الأبناء، لكنه فيما عدا ذلك نظام فاشل وسقيم، من هنا فإن العلاقات العابرة خارج الزواج تساعد على تجديد العلاقة بين الزوجين، تعوَّد أن يقيم علاقات عابرة قصيرة ثم يعود إلى زوجته فيكون أكثر إصرارا على إسعادها، كان شعوره نحو عشيقاته دائما متقاربا، أوديت وحدها ذهبت به بعيدا، فتحت له آفاقا جديدة من السعادة، كأنه لم يعرف امرأة من قبل.. كانت تثيره لدرجة جعلته، بعد كل هذا العمر، يكاد يشك في ميوله الجنسية، اكتشف أن مظهرها الصبياني أكثر ما يثيره فيها، لو أنها أطالت شعرها ولبست الكعب العالي وأغرقت وجهها بالمكياج وتثنت وتأودت مثل النساء لقَلَّت جاذبيتها كثيرا.. أجمل ما في أوديت هذه شيء ما يكاد يكون ذكوريا، شيء نافر فطري خشن.. خام (brute)؛ كما يقال بالفرنسية، حتى أحاديثها الجادة وأفكارها الثورية، كانت تحمل غواية ما، كانت لها طريقة فريدة في الحديث؛ تضغط دائما على مخارج الحروف وتؤكد ما تقوله بإيماءات من رأسها الصغير البديع، يبتسم رايت بحنان عندما يفكر فيها، يا لَهَا من كائن عجيب. عام كامل وهي تمنحه جسدها بغير أن تطلب شيئا، لا هدايا ولا أموال ولا امتيازات، مرة واحدة توسطت لِفَرَّاش في مدرسة الليسيه وطلبت تعيين ابنه في نادي السيارات.. في عيد ميلادها أهداها قلادة ذهبية، مالت على شفتيه وغابا في قُبلة طويلة ثم أبعدت وجهها قليلا وهي لا زالت تحتضنه وابتسمت وقالت:

ـ أرجوك لا تغضب، لكني لن أرتدي هذه القلادة.

ـ لماذا؟

ـ في الواقع أنا لا أرتدي الذهب.

ـ لعلكِ المرأة الوحيدة في العالم التي تكره الذهب.

ـ أنا لا أبني مواقفي في الحياة على عدد المؤيدين والمعارضين.

كانت أفكارها الغريبة المفاجئة تصيبه دائما بخليط من الدهشة والإعجاب، قال بصوت جاد:

ـ هل أستطيع أن أعرف لماذا تكرهين الذهب؟

ـ الناس يلهثون وراء الذهب لأنه مرادف للثروة، بينما هو لا يحمل قيمة في حد ذاته، قيمته تتلخص في ندرته وثمنه بينما شكله في رأيي بشع.

أغلق رايت علبة القلادة الذهبية وقال بما يشبه الغضب:

ـ آسف يا أوديت لأني أزعجتك بهذه الهدية.

ـ أنا التي أزعجتك بأفكاري الشاذة.

ابتسمتْ وحدقتْ في وجهه كأنما لتتأكد أنه لم يغضب ثم ابتسمتْ وقالت:

ـ مع ذلك فأنا أحتفظ بحقي في الهدية.

بعد أيام، اصطحبته إلى محل صغير في شارع سليمان باشا واختارت سلسلة فضية على هيئة مفتاح النيل.. كانت سعيدة بها للغاية بالرغم من أنها رخيصة، أما الهدية الذهبية فقد أهداها إلى زوجته فيكتوريا فسعدت بها.

بالأمس وصل قَبْلَها إلى الشقة، فتح بمفتاحه ودخل وأعد لنفسه كأسا وتمدد على الأريكة وهو يستطعم اللذعة الأولى للويسكي، جاءت أوديت ومن فرط الشوق التهمها أول مرة بغير أن يتحدثا، بعد الحب ظلا مستلقيين، يحب دائما عندما تدفس رأسها الصغير ما بين ذراعه وصدره، يستشعر أنفاسها الحارة فيميل ويُقَبِّل شعرها الناعم.. بعد قليل انتبهت وقَبَّلَته بسرعة ثم تطلعت إليه وقالت:

ـ تبدو الليلة مشغول البال.

ـ فعلا.

ـ ماذا حدث؟

ـ مشكلات العمل.

ـ احكِ لي.

ـ لا يوجد موضوع محدد.. بين الحين والحين أقوم بتفتيش مفاجئ على العاملين في النادي، وفي كل مرة أكتشف مخالفات فاحشة.

ـ يا لَكَ من مدير عظيم.

ـ لستُ مديرا عظيما، لكن المصريين شعب عشوائي وكسول.

ـ هل أنت جاد فيما تقول؟

ـ نعم، أنا أعتقد فعلا أن قدرة المصريين على العمل وقيمهم الأخلاقية مختلفة تماما عن الغربيين.

أبعدت أوديت رأسها عنه وتطلعت إليه باستهجان وقالت:

ـ لا يمكن أن أصدق أنك تفكر بهذه الطريقة؟

ـ لماذا؟

ـ هذه عنصرية.

ـ لست عنصريا، لكني أقول الحقيقة، المصريون كسالى وكذابون وقذرون.

ـ ما داموا بهذه البشاعة، لماذا تعيش بينهم؟ لماذا لا تعود إلى إنجلترا حيث النظافة والنشاط؟

ـ أنا مضطر للبقاء في مصر بسبب عملي.

ـ آه.. حقا.. يا لكَ من مسكين،كيف تتحمل الفيلا التي تعيش فيها مع أسرتك؟ والسيارة الفاخرة والمرتب الخرافي الذي تحصل عليه؟

ـ أوديت، لا تسخري مني، أنا فعلا أتمتع بامتيازات في عملي، ولولا ذلك لما تحملت الحياة في هذا البلد يوما واحدا.

ـ أنا لا أفهم لماذا يأتي الأوربيون هنا لينهبوا البلد ويمتصوا دماء المصريين بينما هم يحتقرونهم إلى أقصى درجة، أنت تتحدث مثل ونستون تشرشل الذي يعتبر أن احتلال بريطانيا لمصر واجب أخلاقي.

هكذا صاحت أوديت بحدة فاحمر وجه رايت من الانفعال وأسند ظهره إلى مسند الفراش وبدا شكله غريبا لَمَّا أشعل غليونه وهو عار تماما.. قال بصوت غاضب:

ـ ما دمتِ تُصرين على إفساد الليلة، دعيني أقول لكِ إنني أتفق مع السير تشرشل في رأيه، بريطانيا أو أية دولة أوربية متحضرة تبذل تضحية حقيقية عندما ترسل بجنودها إلى بلد متخلف مثل مصر أو الهند، لا أعرف إلى متى يعتبر البريطانيون أن مِن واجبهم أن ينشروا العمران وسط شعوب همجية.

ـ يزعجني حقا أن يمارس رجل شريف مثلك خداع النفس، البريطانيون يسرقون مصر وينهبون مواردها، هذه الحقيقة. البريطانيون لصوص.. قاطعو طريق بمعنى الكلمة.

ـ هل تُنكرين أن الاحتلال البريطاني قد ساهم في تحديث مصر؟

ـ أي تحديث صنعه الاحتلال كان بغرض تسهيل السرقة.. السكك الحديدية صنعها البريطانيون لتُقِلّ جنودهم وتنقل القطن المصري الذي يسرقونه، النظام الإداري الذي أدخلوه كان بهدف السيطرة على البلاد في كل المجالات، هل تعلم كم قاوم اللورد كرومر إنشاء الجامعة المصرية، سياسة بريطانيا في المستعمرات لا تتغير أبدا وتتلخص في كلمة واحدة؛ السرقة المنظمة. أستطيع أن أثبت لك ذلك بالأرقام والوثائق.

تطلع إليها بغيظ وقال بنبرة متهكمة:

ـ لا أفهم حماسكِ في الدفاع عن المصريين.. هل تعتبرين نفسكِ مصرية؟

ـ أنا مولودة في مصر لكني أحمل الجنسية الفرنسية وقد هاجر جدي إلى مصر من لبنان.

ـ أنتِ إذن لبنانية؟

ـ هل من الضروري أن ينتمي الإنسان إلى بلد محدد؟

ـ لا أستطيع أن أتخيل إنسانا بدون جنسية.

ـ الجنسيات فكرة فاشية تدفع البشر إلى انتماءات ضيقة وغبية وتجعلهم يحسون بالاستعلاء بعضهم على بعض، وتؤدي بهم إلى الكراهية والحروب.

ـ لكن الإنسان يحتاج في النهاية لأن ينتمي إلى بلد ما.

ـ هذه أوهام، أنا لا أعترف بالقوميات ولا الأديان، لقد ولدت يهودية لكني ملحدة، لست مصرية ولا لبنانية ولا فرنسية، أنا مجرد إنسانة.

ـ أما أنا فمواطن بريطاني.

ـ بريطانيا التي تنتمي إليها ارتكبت مجازر شنيعة في مصر والهند وإفريقيا راح ضحيتها آلاف الأبرياء.

ـ لست مسئولا عن ذلك.

ـ انظر التناقض، عندما تصنع حكومتك شيئا جيدا فأنت تفاخر بها، وعندما ترتكب جريمة تتنصل منها.

ـ أنا فخور دائما بكوني بريطانيًّا.

ـ هتلر أيضا كان فخورا بكونه ألمانيًّا وهو يحرق اليهود أحياء.

بدا وكأنما على وشك أن يفقد سيطرته. صاح:

ـ لقد مللت من محاضراتك، حسنا، لقد ارتكبتْ بريطانيا جرائم بشعة ضد شعوب المستعمرات، وكما ارتكب هتلر الهولوكست ضد اليهود ولكن ماذا يفعل اليهود بالعرب في فلسطين؟ ماذا تفعل عصابات الهاجاناه بالأطفال والنساء العرب؟ هل توزع الورود عليهم؟!

ـ إن ما تقوله يؤكد المنطق الذي أتبناه؛ لو تخلصت من كل انتماء ما عدا إحساسك بالإنسانية سيساعدك ذلك على اتخاذ الموقف الصحيح، باعتباري إنسانة فأنا أدين الهولوكست بنفس القوة التي أدين بها ذبح العرب بواسطة عصابات الهاجاناه.

ساد صمت عميق، لم يقطعه سوى نفثات الغليون، الذي لم يلبث رايت أن وضعه جانبا وأخذ يد أوديت وقَبَّلها وقال هامسًا:

ـ هل يمكن أن نوقف هذا النقاش؟

قَبَّل يدها مرارًا بحرارة ثم انتقل إلى تقبيل رقبتها فابتعدت وهمست ما بين الرفض والاستجابة:

ـ لا أفهم كيف ارتبطت بشخص رجعي مثلك.

همس وهو يحتضنها:

ـ قد أكون رجعيًّا لكني أحبكِ.

كامل

شرعت في العمل فورا، لم أفكر في العواقب، كنت كمن أغمض عينيه وألقى بنفسه في البحر مرة واحدة ليقضي على تردده، قررت أن أوزع المنشورات في ساعة متأخرة من الليل، حتى الثالثة صباحا تموج شوارع السيدة زينب بالمارة ورواد المقاهي، هؤلاء بينهم بالقطع مخبرون سيقبضون عليَّ ومعي المنشورات، بعد الرابعة صباحا يبدأ جمهور صلاة الفجر في الظهور، اخترت الوقت بين الثالثة والرابعة صباحا، بدأت جولتي من شارعنا.. كنت أدخل البيوت بالترتيب، أصعد إلى أعلى طابق وأبدأ في النزول وأنا أضع المنشورات أمام أبواب الشقق.. انتهيت من عدة بيوت في شارعنا وانتقلت إلى شارع آخر.. كنت أتجنب الدخول إلى البيوت

التي ألمح فيها نوافذ مضاءة.. مررت على عشرين بيتا على الأقل، لم أشعر بمرور الوقت من فرط الانفعال.. تطلعت إلى داخل الحقيبة فوجدتها فارغة، لم يتبق إلا حفنة منشورات ألقيتها كيفما اتفق أمام سينما الشرق المغلقة.. احتفظت في جيبي بنسخة واحدة من المنشور. كان ذلك خطئي الوحيد والفادح، اجتزت شارع القسم ومررت أمام مسجد السيدة زينب في طريقي إلى بيتنا، قبيل نهاية سور المسجد انشقت الأرض فجأة عن بضعة ضباط بريطانيين يصحبهم ضابط شرطة مصري، كمين تفتيش اتخذ موقعه في الميدان بحيث لا يمكن تجاوزه أو الإفلات منه.. ارتبكت.. كنت متأكدا أن الضباط لمحوني، لو ألقيت بالمنشور الآن سيقبضون عليَّ فورا ولو استمررت في المشي حتى ألتقي بهم سيلاحظون ارتباكي ويحاصرونني بالأسئلة، قطعا سيفتشون ملابسي ويجدون المنشور ويعتقلونني.. فجأة، أقدمت على تصرف غريب لا أعرف حتى الآن كيف خطر على ذهني.. استمررت في المشي وقبل أن أصل إلى حيث يقف الضباط بقليل، توقفت عن السير ووضعت قدمي اليمنى على السور، انحنيت وتظاهرت بأني أعقد رباط الحذاء، ففككت الرباط وعقدته من جديد، فعلت ذلك على مهل وكأنني أفكر في أمر ما، كأن الظروف عادية تماما، استغرق عقد الرباط نحو دقيقة كاملة ثم تقدمت نحوهم بهدوء، سألني الضابط الإنجليزي:

ـ ما اسمك؟

ـ كامل عبد العزيز همام.

ـ أين تعمل؟

ـ طالب في كلية الحقوق.

ـ إلى أين تذهب الآن؟

- إلى البيت.

كنت أتظاهر باللامبالاة والاستهانة، حاولت أن تكون نبرتي عادية.. نظر إليَّ الضابط لحظة ثم ابتعد مفسحا الطريق وقال:

- تفضل.

يا الله؛ نجوت، عندما أسترجع ما حدث لا أكاد أصدق، كانت فكرة عقد رباط الحذاء إلهاما خالصا لأنها استبعدت شكوك الضباط تماما، قرأت الفاتحة في سري حمدا لله على نجاتي، دخلت إلى حجرتي فوجدت أخي سعيد نائما على سريره.. وضعت المنشور في درج مكتبي، غيرت ثيابي ودخلت إلى فراشي وسرعان ما رحت في نوم عميق.. ما إن فتحت عينيَّ في الصباح حتى وجدت سعيد جالسا أمامي على حافة سريره وقد ارتدى ثيابه.. كان وجهه ينذر بمتاعب.. قال ساخرا:

- صباح الخير يا سي كامل.

- صباح الخير.

هكذا قلت وأنا أستجمع انتباهي، انبرى قائلا بنبرة متحدية:

- أين كنت بالأمس حتى طلوع الفجر؟

نهضت جالسا في الفراش وقلت:

- هل تُحقق معي؟

- أنا أخوك الأكبر ومن حقي أن أعرف أين كنت.

- لست طفلا ولا أحتاج إلى رعايتك.

نهض سعيد واقترب مني ثم أبرز المنشور أمام عيني وقال:

ـ هل هذه الورقة تخصك؟

ـ كيف تجرؤ على التفتيش في أشيائي الشخصية.

ـ لم أفتش، أنا وجدتها فوق المكتب.

ـ أنت كذاب، الورقة كانت داخل الدرج.

ـ في الدرج أو فوق المكتب، لن يغير هذا من الأمر شيئا، ما معنى هذه الورقة؟

عزمت على أن أمضي إلى النهاية، قلت بنبرة متحدية:

ـ اقرأ الورقة لتفهم.

ـ قل لي أنت.

ـ هذا بيان احتجاج ضد الاحتلال البريطاني.

ـ هذا ليس بيانا، هذا منشور.

ـ افترض أنه منشور، ماذا تريد؟

ـ هل تعرف عقوبة من يوزع منشورات؟

ـ أعرف.

ـ هل أنت مجنون؟

ـ بل أنا مصري بلادُه محتلة.

ضحك سعيد ساخرًا وقال:

ـ وهل أنت الذي سيحرر مصر؟

- أنا أقوم بواجبي.

- ما فائدة توزيع منشور كهذا إلا أن يؤدي بك إلى السجن؟ هل سيخرج الإنجليز من مصر خوفا من منشوراتك؟

- واجبنا أن نقاوم الاحتلال بكل الوسائل.

ضحك من جديد وبدا وجهه في تلك اللحظة كريها، قال متهكما:

- الأستاذ كامل همام سوف يهزم بريطانيا العظمى بواسطة المنشورات.

- حب الوطن معنى أعلى من إدراكك.

- حب الوطن لا يعني أبدا أن تُضيع مستقبلك وتلقي بنفسك في السجن.

- لو فكرنا جميعا مثلك، لن تتحرر مصر أبدا.

- متى تستيقظ من أحلامك؟

- ليس هذا من شأنك.

ساد الصمت بيننا، وضع سعيد يده على كتفي وقال بصوت هادئ زاد من استفزازي:

- كامل، اسمع يا حبيبي، أنا أكبر منك وأخاف على مصلحتك، ما تفعله سيجلب علينا المصائب، سوف أنسى الأمر هذه المرة لكنه إذا تكرر سأكون مضطرا لإخبار أبيك.

قلت وأنا ألهث من فرط الانفعال:

- أنت أحوج مني للنصح.

- ماذا تقصد؟

ـ أنت فاهم.

نظر إليَّ سعيد بغيظ وقال:

ـ طول عمرك قليل الأدب.

ـ احترم نفسك.

دفعني بيده فأمسكت به من القميص واشتبكنا، كان أقوى مني لكن غضبي البالغ جعلني أدفعه بشدة فسقط على السرير ثم نهض وسدد لي لكمة طاشت أصابتني في كتفي، دخلَت أمي الحجرة وهي تصرخ، اقتربت بسرعة من وجهه وهمست مُحذرًا:

ـ لو قلت لأمي كلمة واحدة عن المنشورات سأخبرها بما تفعله فوق السطح.

(٨)

ما إن يصل عبد العزيز همام إلى نادي السيارات في الصباح حتى يصعد لتحية الخدم الذين يكونون في تلك الساعة منهمكين في تنظيف النادي، الخدم كلهم صعايدة يعرفون قدر عائلة همام التي ينتسب إليها عبد العزيز، يتعاطفون معه باعتباره عزيز قوم ذل، ابن الأكابر الذي اضطر وهو مسن إلى العمل في الخدمة ليعول أولاده.. زاد من حبهم لعبد العزيز أنه خارج السياق، لا ينافسهم ولا يشترك معهم في البقشيش، كانوا يلجئون إليه في استشاراتهم ومشكلاتهم فيردهم إلى الأصول ويقضي بينهم بالعدل،كان بالنسبة إليهم سلطة عادلة محبة بلا بطش ولا ترويع، ما إن يظهر عبد العزيز حتى يهرع إليه الخدم مهللين مُرحّبين، يُعدون له مقعدا وشايًا وماء مثلجًا ويتبادلون معه الحديث، بينما هم مستمرون في التنظيف الذي لا يمكن أن يتوقف لحظة، كان عبد العزيز يستمتع بهذا اللقاء الصباحي مع الخدم وكثيرا ما يجلب معه فطيرًا مشلتتًا وقراقيش يوزعها عليهم، كان يحس بمتعة وهو يستمع إلى حكاياتهم ودُعاباتهم، يضحك معهم من قلبه وكأنه قد عاد إلى الزمن الأول وهو جالس مع أصحابه بعد صلاة العشاء أمام البيت الكبير في بلدته دراو، اليوم، على غير عادته، عندما وصل عبد العزيز إلى النادي لم يصعد لتحية الخدم، لم يكن به طاقة لرؤية أحد، كان يريد أن يختلي بنفسه، اجتاز مدخل النادي ثم عبر الصالة التي تفضي إلى المكاتب الإدارية حتى وصل إلى

المخزن، أدار المفتاح ثم دفع الباب فأصدر صريرا عتيقا، كان الهواء رطبا ثقيلا مشبعا برائحة الخشب، المخزن مكان فسيح معتم سقفه شاهق أشبه بكواليس مسرح، عالم خلفي يقبع في الظل منسيا خلف أضواء نادي السيارات المبهرة، صندوق دنيا عملاق تتكدس فيه آلاف الأشياء العادية والغريبة، المتوقعة وغير المتوقعة، صناديق الويسكي من كل نوع، أفخر أنواع السيجار، زجاجات النبيذ الفرنسي المعتق الفاخر بألوانه الثلاثة الأحمر والأبيض والوردي، صابون مستورد، زجاجات عطر لغسيل أيدي الأعضاء، ورق تواليت، مفارش مناضد، فيشات القمار، أدوات كهربائية وقِطَع غيار أدوات صحية، أطباق وكئوس وأكواب زجاجية من كل حجم ونوع، والأهم من كل ذلك: نوعان من أوراق اللعب (كوتشينة): كوتشينة فاخرة يلعب بها السادة الأعضاء، والكوتشينة الملكية، المستوردة خصيصا من أجل الملك، حوافها مطلية بماء الذهب، يستعملها مولانا دورًا واحدًا ثم تستبدل بها أوراق لعب جديدة، لا يلعب الملك بكوتشينة واحدة مرتين أبدا. في نهاية كل شهر، تجمع أوراق الكوتشينة الملكية المستعملة ويتم إدخالها في مفرمة خاصة في قصر عابدين تحيلها إلى مادة أشبه بالتراب ثم تلقى بعد ذلك مع مهملات القصر، إعدام الكوتشينات الملكية مهمة جدية يشرف على تنفيذها الكوو بنفسه، إذا تسللت أوراق اللعب الملكية إلى المقاهي الشعبية واستعملها الغوغاء والسوقة، ماذا يتبقى عندئذ من هيبة الملك؟!

مرة واحدة في تاريخ نادي السيارات، حاول خادم تهريب مجموعة من علب الكوتشينة الملكية المستعملة، كان ذلك زلزالا اهتز له النادي بعنف.. تم ضبط الخادم المذنب واقتيد إلى مكتب الكوو الذي قام من خلف المكتب وانتزع الكرباج من مكانه فوق الحائط وجلد الخادم بنفسه حتى شارف على الهلاك، بعد ذلك تم إبلاغ النيابة التي حققت

وأحالت الخادم إلى المحاكمة فأُدِين وقضى في السجن ثلاثة أعوام، كانت الرسالة واضحة: أن الكوتشينة الملكية المذهبة، مثل اللون الأحمر الساطع «الرويال» المقصور استعماله على السيارات الملكية، مثل البوق المميز لسيارات مولانا الذي لا يجوز قانونا لأي شخص آخر تركيبه في سيارته، كل هذه خطوط حمراء من يتجاوزها يتم سحقه فورًا.

بَدَّل عبد العزيز ثيابه وارتدى بذلة الشغل الصفراء ذات الأزرار النحاسية اللامعة، صنع لنفسه كوبا من الشاي وجلس على مقعد صغير آخِر المخزن تحت إطارات السيارات المعلقة في السقف، وسط الظلام والسكون أحس براحة وتنفس بعمق.. استرجع ما حدث فتدافعت إلى ذهنه الصور، في عهد مضى كانت زيارته للقاهرة مناسَبة للسعادة ينتظرها طوال العام، بعد أن يبيع محصول النخيل كان يأتي إلى القاهرة ليُرَوِّح عن نفسه، ينزل في لوكاندة الاتحاد في ميدان العتبة ويستغرق أياما في مباهج العاصمة، يتذكر تلك الأيام فتفلت منه ابتسامة، يسأل اللهَ المغفرة ويحمده كثيرا أنه تمكن من أداء فريضة الحج قبل أن يفلس، لعل ربنا سبحانه وتعالى يكون قد غفر ذنوبه القديمة، إنه الآن يقيم في القاهرة منذ خمس سنوات لكن شتان ما بين عهد وعهد، إنه الآن مساعد مخزن، بعد العز أصبح فقيرا يتسول مصاريف المدرسة لأولاده، يا الله، هل فعل في حياته ما يستحق عليه هذا العقاب؟! متى تنقشع هذه الغمة؟ إنه راضٍ بقضاء الله لكنه فقط يتساءل عن نهاية كل ذلك.. الإنسان يتحمل المشقة في مقتبل العمر حتى يُنعم اللهُ عليه بالرخاء، أما أن يعاني من هذا البؤس وهو في الخمسين.. أستغفر الله العظيم.. لو كان قدره أن يظل في هذه المحنة فإنه يدعوه صادقا أن يُعجّل بالنهاية؛ الموت أكرم. أشعل سيجارة أخرى وجذب أول نفس فأحس بصداع قاتل جعله يضع السيجارة في المطفأة ويمسك رأسه بيديه، جيوش من النمل تبدأ من جبهته وتزحف

بإلحاح على مؤخرة رأسه، يعرف هذا الصداع؛ ينتابه على فترات، صار الآن يهاجمه كل يوم وهو يؤجل زيارة الطبيب لا عن إهمال وإنما لأنه متوجس، خائف من المجهول، هذه أيام نحس لن تأتي بخير. يتخيل بجزع تلك اللحظة التي يرفع فيها الطبيب السماعة عن أذنيه ويكتسي وجهه بتعبير جاد ويخبره بكلمات منتقاة مهذبة بأن مرضه خطير، ماذا سيفعل عندئذ؟ مَن سينفق على أولاده؟ الأفضل أن يتحامل على نفسه بضعة أشهر حتى يحصل سعيد ابنه على دبلوم الصنائع ويجد عملا؛ عندئذ لو أعجزه المرض سيكون مطمئنا على أسرته.

انتبه عبد العزيز على صوت الباب يُفتح ثم تناهى إلى سمعه وقع الخطوات الثقيلة لجورج كومانوس؛ جورج يوناني مصري من مواليد شبرا.. بدين وخفيف الظل، يحب الحكي وإلقاء النكات.. الخدم يحبونه لأنه لا يتكبر ولا يؤذي أحدا.. هو مدير المخزن منذ إنشاء النادي، عشرون عاما قضاها كومانوس في هذا المكان الفسيح المظلم حتى صار جزءا من حياته، رفض كومانوس دائما بإصرار أن يستعمل أكثر من مساعد حتى لا تتوه المسئولية، عمل سنوات طويلة مع بلتاجي السوهاجي، كان رجلا أمينا ومخلصا ثم توفاه الله فأخذ كومانوس يبحث عن مساعد جديد حتى جاءه بعض الأصدقاء بعبد العزيز فأعجبه، وجده رجلا وقورا مهذبا، وجيها نظيف الملابس، ثمة تفاهم حدث بين الرجلين منذ الوهلة الأولى، لم يخيب عبد العزيز ظن كومانوس قط، تعلم العمل بسرعة وأتقنه ثم أدخل عليه تطويرا: بدأ يكتب المحتويات على عشرات الرقع الورقية الصغيرة ثم يثبت قائمة بمحتويات كل ركن في المخزن، أعجبت هذه الطريقة كومانوس لأنها تمكنه من مراجعة المحتويات بسهولة في أي وقت، مع الوقت صار عبد العزيز وكومانوس صديقين يجلسان معا أثناء يوم العمل الطويل، يتحدثان رجلًا لرجل ويتكاشفان بأسرارهما

الشخصية، عبد العزيز لا يخلط أبدا بين الصداقة والعمل، تكون الجلسة بينهما ودية وحميمة وما إن يدخل أحد ليطلب شيئا من المخزن حتى يهب عبد العزيز واقفا ينتظر الأوامر من رئيسه كومانوس، هذا الفصل بين الشخصي والمهني يعتبره كومانوس علامة تحضُّر؛ الأمر الذي شجعه على الاقتراب أكثر من عبد العزيز، دعاه مرة للعشاء في مطعم الأونيون أمام سينما ريفولي، تلك الليلة فوجئ كومانوس بأن عبد العزيز طلب سكالوب بانيه وراح يستعمل الشوكة والسكين ببراعة، لاحظ عبد العزيز دهشة فضحك وقال:

ـ ما تستغربش يا خواجة.. أنا صحيح صعيدي لكني اتعالجت وبقيت آكل السكالوب بالشوكة والسكينة.

حكى له عبد العزيز عن ذكرياته في القاهرة أيام الرخاء ثم تكررت دعوات كومانوس، وكان عبد العزيز يردها على قدر طاقته، مرة واحدة دعا عبد العزيز كومانوس إلى أكلة كباب في الحسين.. بعد ذلك كان بين الحين والحين يحضر طعاما طبخته أم سعيد ليتغديا معا في المخزن، ملوخية بالأرانب، بطة محشية بالبصل وأرز معمر.

هب عبد العزيز واقفا، حيَّاه كومانوس وخلع سترته ثم وضع في ذراعيه كُمّين من الساتان الأسود ليحمي قميصه الأبيض من التراب أثناء العمل، ثمة مهام كثيرة كان لا بد من إنجازها، صعد عبد العزيز إلى البار وأحضر صناديق البيرة الفارغة ثم صعد من جديد ليحمل صندوق ويسكي إلى المطعم، ولما عاد وقف ينتظر تعليمات كومانوس الذي تَفحَّصه بنظرة عميقة وقال:

ـ ما لك يا عبده؟

ـ ولا حاجة.

طلب إليه كومانوس إعداد كوبين من الشاي، ولما جاء بهما دعاه للجلوس وعزم عليه بسيجارة، رشف عبد العزيز من الشاي وسحب نفسا من السيجارة، عاود كومانوس قائلا:

ـ شكلك غير طبيعي، لازم تقول لي ما لك.

استند عبد العزيز على ظهر المقعد وقال بصوت خافت كأنما يُحدِّث نفسه:

ـ تعبت يا خواجة.

بدا القلق على وجه كومانوس وقال:

ـ مِن إيه؟

ـ مصاريف الأولاد كثيرة والحمل ثقيل عليَّ.

ـ أنا نصحتك من البداية ما سمعتش كلامي.

ـ ربنا يعلم إني عملت كل ما في وسعي.

ـ أنت أخذت شقة كبيرة إيجارها ربع مرتبك، كان ممكن تأخذ شقة صغيرة على قدك، امشِ على قد حالك وأنت تستريح.

ـ يا خواجة بيتنا في دراو كان دورين على مساحة ٤٠٠ متر.. غير النخيل والدوّار، بعد العز كيف أجيب أولادي وأحشرهم في جحر؟!

ـ الدنيا يوم لك ويوم عليك.

ـ لا يمكن أذل أحفاد همام.

سكت كومانوس وبان على وجهه التفكير، كان يحس بتعاطف مع عبد العزيز فتطلع إليه وقال بطريقته المباشرة الصريحة:

ـ اسمع، سأمنحك سلفة على مرتبك تقسطها براحتك.

ـ أشكرك طبعا، لكن أنا عاوزك في خدمة أكبر.

ـ إذا كانت في يدي أعملها لك.

ـ عاوز شغل إضافي، بعد مواعيد المخزن أطلع أشتغل في البار أو المطعم.. أجيب قرش يساعدني.

هرش كومانوس ذقنه وقال:

ـ ليس الموضوع بهذه السهولة، لا بد من موافقة مستر رايت مدير النادي.

ـ ممكن أروح أقابله؟

ـ مستر رايت لا يحب المصريين، وحتى لو وافق هناك مشكلة ثانية؛ إنك في المطعم أو البار ستكون تحت إشراف الكوو؛ وهو شخص صعب جدًّا.

ـ بيني وبينه العمل الذي أؤديه.

ـ أنت لا تعرف الكوو يا عبده، يحب يذل كل مَن يشتغل معه.

أطرق عبد العزيز صامتا ثم رفع رأسه وتطلع إلى كومانوس وقال:

ـ يا خواجة حاول تساعدني أرجوك.

صالحة

في اليوم التالي ظللت مستلقية في الفراش، صَنَعَتْ لي أمي عدة أكواب من النعناع والليمون الدافئ وأعطتني أقراصا مطهرة ابتلعتها

بصعوبة، قَدَّمَتْ لي في الغداء ربع دجاجة مسلوقة وسلطة خضار وألَحَّت عليَّ حتى أكلت، في نهاية اليوم لم تعد أمي تسألني عن صحتي، بين الحين والحين كانت تدخل إلى حجرتي لتحدثني عن موضوعات عابرة، كنت أحس أنها تدرك أنني أتظاهر بالمرض وتجاريني. في المساء جاء إليَّ كامل وقَبَّلني، ابتسم وقال:

ـ اليوم دفعت المصروفات بنفسي، خذي الإيصال، تستطيعين أن تذهبي غدا إلى المدرسة.

وضع الورقة على المائدة بجواري ثم قام لينصرف لكنني أمسكت بيده وقلت:

ـ كامل.. لحظة واحدة.

ـ خير؟

ـ ماذا حدث لأبي؟

ـ أبوكِ بخير الحمد لله.

ـ لماذا لم يدفع مصروفات المدرسة؟

ـ قلت لك من قبل إنه نسي يدفع.

ـ كامل.. من فضلك قل لي الحقيقة.

انفجرت في البكاء، كان التوتر الذي أتعرض له فوق طاقتي. وضع كامل يده على رأسي وراح يهدئني، ألححت عليه مجددا فأطرق وقال بصوت خافت:

ـ الحقيقة أن أبوكِ يمر بأزمة مالية.

ـ أليس أبي غنيا؟

ـ طبعا، لكنه لم يتمكن هذ العام من بيع محصول الأطيان التي يملكها.

تطلعت إليه صامتة، قال بهدوء:

ـ لا تشغلي نفسك بهذا الموضوع، مثل هذه الأشياء تحدث لكل الناس.

ـ صعبان عليَّ أبي.

ـ أزمة وتمر إن شاء الله.

ـ نفسي أساعده بأي طريقة.

ـ إذا أردتِ أن تساعديه اهتمي بدروسكِ، أكثر ما سوف يسعده أن يرانا متفوقين.

تطلعت إليه وابتسمتُ بصعوبة فانحنى وقَبَّل جبيني وانصرف.. في اليوم التالي عندما ذهبت إلى المدرسة لم يعد أي شيء كما كان.. كل شيء تغير؛ إحساسي بنفسي، نظرتي لصديقاتي، معاملتي للمدرسين.. كأنني صرت أخفي حقيقتي عن الجميع، كأن لي حياة سرية مختلفة عن الحياة المعلنة الطبيعية لزميلاتي، كنت أحس أيضا بأنني أقل من كل هؤلاء التلميذات، حتى اللاتي أعتبرهن ثقيلات الظل أو دميمات أو بليدات في الدراسة، كلهن أفضل مني لأنهن لا يضطررن مثلي إلى البقاء في البيت حتى يدفع آباؤهن المصروفات، بدأت أعاني من اضطراب النوم، صرت مشتتة الذهن تماما، بِتُّ عاجزة عن متابعة الشرح في الفصل، بعد أسبوعين من التخبط بدأت أحس بقلق بالغ من حالتي، لو أكملت العام بهذا التشتت سأرسب بالتأكيد، تذكرت ما قاله كامل:

«أكثر ما يسعد أبي أن يرانا متفوقين».

قررت أن أبذل كل جهدي في المذاكرة، ساعدتني الصلاة على التخلص من الأحزان، ما إن أتوضأ وأصلي حتى تهدأ نفسي وأستعيد تركيزي، رحت أستذكر بجدية وانتظام، كانت مذاكرة الرياضيات بالنسبة إليَّ متعة.. منذ وعيت على الدنيا وأنا أحب الأرقام، الرقم شيء حقيقي ومحدد، الكلمة كثيرا ما تعطي أكثر من معنى، أما رقم خمسة فهو رقم خمسة.. المعنى واحد عند الجميع. عندما كنت أركب الترام وأنا طفلة كنت أسلي نفسي بجمع وطرح أي رقم أراه من النافذة، أرقام السيارات والبيوت، كنت أجمعها وأطرحها في ذهني وأحس بمتعة، مع الوقت أدركت أنني أجري العمليات الحسابية بسهولة بالغة.. لا أذكر امتحانا واحدا للرياضيات لم أحصل فيه على الدرجة النهائية.. تكاد أمي تتوسل إليَّ حتى لا أستعرض قدراتي أمام البنات خوفا من الحسد؛ كنت أتفوق عليهن دائما وأندهش لماذا لا يفهمن العلاقة بين الأرقام التي تبدو لي واضحة وبديهية، عندما أجلس لحل مسائل الرياضيات ثم أطالع الحلول النموذجية في النهاية وأجدني لم أرتكب خطأ واحدا، أحس بسعادة غامرة، كثيرا ما أفكر في حياتي باستعمال الرياضيات، إذا رسمت خطا بيانيا لطفولتي أجد أنها مشت على خط مستقيم ثم تعرضت إلى انحناءات حادة؛ الخط المستقيم يمثل أيام السعادة الخالصة، كنت البنت الوحيدة التي يدللها الجميع.. عشت مطمئنة كأنني قابعة تحت غطاء وثير في يوم بارد.. كأنني لم أفارق حضن أمي، ألوذ بها وأشم رائحتها النظيفة الطيبة، فجأة انقشعت الأحلام ووجدتني أمام الحقيقة؛ أننا فقراء وأبي عاجز عن الإنفاق علينا، اجتهدت في المذاكرة، أمي وكامل كانا يشجعاني، أما أخي سعيد فكان يغار مني لأني متفوقة، بينما اضطر هو للالتحاق بالثانوي الصناعي، كان يصطنع أية مشكلة من أجل صرفي عن المذاكرة؛ يتهمني بالتسيب وقلة الأدب ويختلق الذرائع لعقابي،

يقلب الدنيا لأنني أعتني بأظافري أو أفرد شعري على البوكل أو لأنه ضبطني وأنا نائمة على بطني أقرأ في كتاب وباب حجرتي مفتوح، كل مرة يهم بضربي لكن كامل وأمي يتدخلان وينتزعاني من بين يديه.. كلما فكرت في سعيد أخاف وأحزن، لماذا يكرهني أخي إلى هذا الحد؟! أتألم من مشاعره تجاهي أكثر من ألمي مما يفعله بي.. عقب كل مشاجرة، عندما كنت أبكي كنت أحس بأن سعيد استراح على نحو ما، كأنه حقق هدفه؛ أصبح وجود سعيد يصيبني بالرعب، خصوصا في الأوقات التي يكون فيها كامل في الجامعة، ما إن أسمع صوت سعيد حتى أغلق باب الحجرة عليَّ، كأنني أختبئ منه.. فكرت في أن أشكوه إلى أبي لكنني تراجعت.. أبي لا تنقصه المشاكل، يكفي ما يعانيه من أجلنا، كل هذه الحرب التي كان سعيد يشنها ضدي كانت تجعلني أكثر تصميما على التفوق، لكن مشكلة جديدة كانت تنتظرني في المدرسة.. فوجئت أنا وزميلاتي بأبلة سعاد مُدرسة الألعاب تطلب منا أن نشتري حذاء باليه أبيض من النوع الذي يسمى باليرينا.

كنا نؤدي التمرينات الرياضية بالأحذية المطاطية العادية، وكانت تفي بالغرض، لكن أبلة سعاد، في واحدة من تقلبات مزاجها طرأت لها فكرة الباليرينا ففرضتها علينا، بعض التلميذات راجعنها في الفكرة، أكدن لها أن أحذيتنا المطاطية العادية أرخص وأمتن من الباليرينا التي هي باهظة الثمن وضعيفة، لن تتحمل بضع حصص وتتمزق، عبثا حاولنا إقناع أبلة سعاد بالتخلي عن فكرتها لكنها رفضت النقاش وقالت بلهجة نهائية:

ـ شراء الباليرينا إجباري، البنت التي ستأتي بدون باليرينا ستُعاقَب.

وجدت نفسي في ورطة، بعد أزمة مصروفات المدرسة لم أكن أجرؤ على مطالبة أبي بشراء الباليرينا، انتابني إحساس ثقيل بالذنب.. لو أنني

ادخرت المال الذي كنت أبدده على الذهاب إلى السينما وشراء أشياء غير ضرورية لكنت استطعت على الأقل أن أشارك في ثمن الباليرينا، ظل لديَّ أمل في أن تنسى أبلة سعاد الموضوع، ذهبت في الأسبوع التالي بالحذاء العادي، وقفت في آخر الطابور حتى لا تراني، مضى الوقت وأنا أحس بأن خطتي نجحت، لكن أبلة سعاد قبل نهاية الحصة بدقائق اقتربت مني وقالت بصوت غاضب:

ـ صالحة.. فين الباليرينا؟

اعتذرت، قلت إنني نسيت، قالت بلهجة متوعدة:

ـ الأسبوع القادم لازم تحضري بالباليرينا يا إما تتعاقبي.. مفهوم؟

هززت رأسي ووعدتها لكنني في الحصة التالية أيضا حضرت بحذائي المطاطي، هذه المرة كنت الوحيدة في الفصل التي لم تَشْتَرِ باليرينا، كان رد فعل أبلة سعاد عنيفا، طردتني من الطابور وقضيت الحصة كلها واقفة في الفناء تحت المنصة، بينما زميلاتي يؤدين التمارين الرياضية، هددتني أبلة سعاد بالتحويل إلى مكتب الناظرة إن لم أحضر الباليرينا في الحصة التالية، حوصرت تماما.. فكرت في أن أتغيب عن المدرسة يوم السبت لأتفادى حصة الألعاب، لم يكن ذلك ممكنا لأنني سأضيع على نفسي دروسا مهمة، أخيرا لجأت إلى أمي وحكيت لها فاحتضنتني وقالت:

ـ لماذا لم تخبريني من البداية؟

ـ لا أريد أن أكلف أبي، يكفيه حمله الثقيل.

كانت أول مرة أتكلم مع أمي عن الحقيقة، بعيدا عن الصورة الوردية التي رسمتها لي، قالت بنبرة جادة:

ـ أنا سأخبر أباك وهو سيتصرف.

ـ لا بد أن أشتري حذاء الباليه قبل يوم السبت، وإلا فلن أستطيع أن أذهب إلى المدرسة.

ـ لا تقلقي يا صالحة سنشتري لكِ ما تريدين بإذن الله.

ـ ماذا سأفعل إذا كان أبي ليس معه نقود؟!

كأنما مس هذا السؤال أمي، هزت رأسها وتوتر وجهها وغادرت الحجرة، وفي المساء ما إن رأيت أبي حتى بادرني قائلا:

ـ صالحة.. سأنزل معكِ يوم الجمعة ونشتري الحذاء.

تطلعت إليه وابتسمتُ.. يبدو أن ابتسامتي كانت بائسة على نحو ما لأن أبي قال:

ـ لا تقلقي، أنا وعدتكِ، يوم الجمعة بإذن الله.

هممت أن أتكلم لكني لم أستطع.. أردت أن أقول له إنني لولا غباء أبلة سعاد وعنادها لما أزعجته بطلباتي أبدا، تمنيت أن أعتذر له عن إلحاحي في الماضي على أشياء تافهة وأؤكد له أنني أحبه وأشكره من قلبي لأنه يشقى من أجلنا، جاء يوم الجمعة فارتديت أفضل ما لديَّ من ثياب، كنت أحب دائما أن أنزل مع أبي وحدنا، أن أمسك بيده وأمشي بجواره في الشارع، أحس عندئذ بالأمان، بالزهو، بأنني في حماية أبي وأنني فخورة به، هذه المرة كان إحساسي مختلفا.. كنت مشفقة على أبي ومحرجة من مواجهته وفي نفس الوقت كنت خائفة لأنني إذا لم أشترِ الباليرينا فسأتعرض إلى العقاب، أكثر ما كان يفزعني أن أتعرض إلى الفضيحة، أن تعرف تلميذات مدرسة السنية كلهن أن أبي فقير لدرجة

أن عجز عن شراء باليرينا، بدأت مع أبي جولة في شارع سليمان باشا.. كان حذاء الباليرينا متوفرا في معظم المحلات، رحت أتابع وجه أبي، ما إن نقف أمام الفاترينة وألاحظ أنه متردد حتى أقول:

ـ صاحب المحل ده حرامي، أبلة سعاد قالت لنا إن ثمن الباليرينا أرخص بكثير.

لم تكن أبلة سعاد قد ذكرت أي شيء عن الثمن لكنني كنت أحاول إعفاء أبي من الحرج، كنت أكذب بطلاقة وبلا إحساس بالذنب، لم أكن أطيق أن أرى أبي وهو عاجز عن شراء الحذاء، كنت أحس براحة في كل مرة يستجيب لي فيها أبي وننصرف لنرى محلا آخر.. طُفنا بالمحلات جميعا حتى وصلنا إلى نهاية الشارع، كان السعر دائما مرتفعا.. قلت لأبي لأمنحه فرصة انسحاب مشرف:

ـ هؤلاء التجار لصوص، لا تشترِ منهم، أعرف أنك تستطيع شراء الباليرينا حتى ولو كانت بضعف هذا السعر، لكن الاستغلال حرام.

كانت الجملة مرتبكة وغير موفقة لأن أبي بان عليه التأثر، ندمت على اندفاعي، أمسك أبي بيدي وقال:

ـ تعالي نروح السيدة.. نفس البضاعة تلاقيها هناك بنصف السعر.

ذهبنا إلى محل أمام الجامع ثم إلى محل آخر وآخر فلم نجد الباليرينا، بعد ذلك وجد أبي حذاء أزرق يشبه الباليرينا فطلب مني أن أقيسه، ترددت قليلا.. قِستُه فوجدته مضبوطا.. قام لكي يدفع ثمنه، لم أقو على تذكيره بأن المطلوب باليرينا لونها أبيض، عاد وهو يحمله وابتسم وقال:

ـ أعرف أن المطلوب حذاء أبيض.. لكن لا تقلقي.. سأتصرف.

لم أستطع أن أتناقش أو أعترض؛ أي كلمة مني في تلك اللحظة كانت تعني إحراج أبي، وجدت أمي في انتظارنا.. سألتنا بحنان يعكره قلق:

ـ خير؟

كنت أحمل الكيس الذي يضم الحذاء في صندوقه الكارتوني، قال أبي بصوت مرتفع:

ـ الحمد لله، فُرجت.

شكرت أبي مجددا واستأذنت ودخلت إلى حجرتي، عجزت عن النوم لفترة طويلة ثم رحت في نوم قلق متقطع وصحوت وأنا أحس بصداع رهيب، أعطتني أمي الباليرينا فوجدتها مطلية بالأبيض.

ـ أبوكِ كثر خيره دهنها بالليل بعد ما نمتِ.. عموما أنت ستستعملينها حصة واحدة في الأسبوع.

لم أتكلم.. ارتديت الباليرينا وظللت متوترة طوال النهار، كان شكل الباليرينا المصبوغة بائسا كأنها مخلوق مشوه، كأنها ترمز إلى فقرنا، في حصة الألعاب ارتديت الزي الرياضي وحاولت أن أندس في الزحام، بذلت مجهودا حتى أخفي قدميَّ بالباليرينا المصبوغة، حمدت الله أن واحدة من زميلاتي لم تلحظها لكن أبلة سعاد انقضت عليَّ كالقدر، صاحت:

ـ صالحة.. تعالي هنا.

توجهتُ نحوها فأشارت لي أن أقترب أكثر، تفحصَت الباليرينا ثم قالت:

ـ الباليرينا دي مصبوغة.

(٩)

في العاشرة صباحا يتوافد الخدم على النادي، تتصاعد جلبتهم: تحيات وصياح ودندنة وضحكات صاخبة، ينتابهم مرح جامح، ربما لأنهم يبدءون يوما جديدا أو لأنهم يكونون على راحتهم بلا رقيب ولا زبائن.. يصعدون إلى الفستيير فوق السطح، يخلعون ملابسهم ويرتدون ثياب التنظيف؛ جلابيب قديمة يرفعون أطرافها ويربطونها على وسطهم فتنكشف ملابسهم الداخلية، اللباس الطويل والصديرية، ينتشرون في كل اتجاه حاملين أدواتهم: مقشات ومماسح وزعافات وسوائل تنظيف متنوعة، يبدءون التنظيف من أعلى المبنى ثم ينزلون طابقا طابقا، يتحركون بنشاط في إيقاع جماعي منتظم كأنهم يؤدون رقصة نوبية، يرفع أحدهم صوته بالغناء أو يروي أحدهم نكتة بصوت عالٍ فيضجون بالضحك، وبالرغم من ذلك لا يتوقفون عن العمل: يجمعون أعقاب السجائر والسيجار في أكياس قمامة ويزيلون عشرات البقع من على المقاعد والموائد والأرض والحوائط، كل بقعة لها طريقة، البقع على السجاجيد تزول بسائل التنظيف، المفارش المتسخة تُجمع وتُرسل إلى المغسلة، بينما المفارش المحترقة بأعقاب السجائر يتم إلقاؤها في المهملات، أحيانا يجدون بقايا قيء من زبون أفرط في الشراب، يلقون عليها نشارة خشب كثيفة ثم يكنسونها، وبعد ذلك يغسلون مكانها بالماء الساخن والصابون والفنيك، يفتش الخدم بعناية في كل

مكان كأنهم فرقة متخصصة لكسح الألغام، كثيرا ما يعثرون على أشياء ثمينة نسيها السكارى: ولّاعة ذهبية أو فردة حلق من الماس.. وأحيانا محفظة بأكملها، يسلمونها فورا إلى مكتب المستر رايت مدير النادي، هذه الأمانة ليست أخلاقية تماما وإنما مبعثها الخوف.. كثيرون منهم لو استطاعوا أن يسرقوا ويفلتوا من العقاب لما ترددوا لحظة.

يستغرق تنظيف النادي ما يقرب من ساعتين، بعد ذلك يصعد الخدم إلى السطح جميعا: يستحمون واحدا تلو الآخر ثم يرتدون قفاطين الخدمة النظيفة المكوية ويستلمون مهام العمل،كل في موقعه: البار أو المطعم أو صالة القمار، يفتح النادي أبوابه في الواحدة ظهرا، تنتهي الوردية الأولى للخدم الساعة الثامنة مساء وتستمر الوردية الثانية حتى ينصرف آخر الزبائن قبيل الفجر، العمل في نادي السيارات شاق يعود منه الخدم مرهقين لكنهم برغم ذلك لا يعودون إلى بيوتهم مباشرة، لا بد أن يقضوا وقتا في مقهى الفردوس.. مزايا مقهى الفردوس عديدة: أنه قريب من النادي وفسيح يتسع لهم جميعا كما أنه مفتوح على مدى ٢٤ ساعة. إقبال الخدم عليه جعله يشتهر باسم «قهوة السفرجية»؛ هذه التسمية اعتبرها عبد الباسط صاحب المقهى مشينة، وبذل مجهودا كبيرا ليتخلص منها: كان يُحسن استقبال الزبائن العاديين من غير خدم النادي ويدعوهم أحيانا إلى مشروبات مجانية ليشجعهم على الحضور، طبع باسم مقهى الفردوس إمساكيات لرمضان ونتائج للعام الجديد وتهاني لعيدَيِ الأضحى والفطر ووزعها على سكان المنطقة، وأخيرا أمر بصنع لافتة كبيرة مضيئة، كَلَّفَتْه مبلغا كبيرا، مكتوب عليها «مقهى الفردوس» وعلقها فوق الباب.. على أن كل هذه الجهود ذهبت عبثا لأن تسمية «قهوة السفرجية» انتشرت واستقرت في أذهان الجميع حتى استسلم صاحب المقهى في النهاية وكف عن الاعتراض.. الجلوس إلى المقهى متعة عظيمة لا يستطيع الخدم

الاستغناء عنها، يشربون المشروبات الساخنة والباردة ويُدخنون النارجيلة ويلعبون الشطرنج والدومينو والورق.. لأول وهلة ينظر بعضهم إلى بعض في الملابس العادية فيحسون ببعض الاستغراب، كأنهم ممثلون خلعوا لتوهم ثياب التمثيل ليستأنفوا حياتهم العادية بعيدا عن خشبة المسرح، شيئا فشيئا يألفون حالتهم الجديدة وينطلقون فيحكون آخر الأخبار ويثرثرون ويغنون ويطلقون الضحكات العالية ويتناقشون بحماس زائد في موضوعات قد لا تستحق، بل إنهم على سبيل التسلية يفتعلون أحيانا مشادات استعراضية تنتهي كلها إلى الصلح، ثمة رغبة عميقة تلح عليهم ليؤكدوا أنهم، مثل بقية الناس، بمقدورهم أن يمارسوا حياة طبيعية بعيدا عن قفاطين الخدمة، يجلسون إلى الموائد ويأمرون القهوجي بإحضار الطلبات فيستمتعون بتحولهم من خدم إلى زبائن، الآن يتلقى شخص آخر منهم الأوامر وينفذها تماما كما يتلقون هم الأوامر من أعضاء النادي، بعض الخدم يتعاملون مع جرسونات المقهى باحترام ويتغاضون عن أخطائهم، وبعضهم يتعسفون مع كل مَن يخدمهم ويوبخونه بشدة إذا ارتكب أقل خطأ، أحيانا، بشكل غامض، يدب النفور بين بعض الخدم وجرسونات المقهى؛ نفور الطبيعة الواحدة، ذلك التوتر التلقائي الكاره الذي ينشأ بين امرأتين جميلتين أو نجمين سينمائيين تصادف وجودهما في نفس المكان.. بالرغم من اندماج الخدم في دور الزبائن فإن شيئا ما يظل يميزهم عن الرواد العاديين، شيء ما خافت كامن في مشيتهم وجلستهم وأصواتهم وضحكاتهم، طابع ما خفيض ضئيل كأنه خاتم الإذعان قد انطبع عليهم من أثر الخدمة فلا سبيل لمحوه أبدا مهما فعلوا.

في حوالي الثالثة بعد الظهر وصل بحر البارمان إلى المقهى، تقدم وهو يوزع تحياته على الجالسين حتى وصل إلى المائدة المنزوية في أقصى المقهى بجوار النافذة، هنا يجلس رؤساء الخدم، ركابي الطباخ

والمتر شاكر ويوسف طربوش مسئول القمار، نهضوا جميعا مُرحّبين فصافحهم بحر واحدا واحدا وجلس بجوارهم، أخبرهم بحر بما حدث بالأمس من الكوو، فكر ركابي الطباخ قليلا ثم قال:

ـ لماذا رفض الكوو أن يأخذ منك البوناس؟

أجاب بحر بهدوء:

ـ بالتأكيد عاوز زيادة.

وقعت الكلمة عليهم كالصاعقة، ساد صمت عميق ثم هتف ركابي:

ـ زيادة في البوناس؟ هو الكوو ناوي يأخذ قوت عيالنا؟

«الشيف ركابي» جاوز الخمسين؛ قصير وبدين، أصلع تماما باستثناء شعيرات قليلة متناثرة على مؤخرة رأسه الكبير.. له كرش ضخمة وحاجبان ثقيلان شعرهما غزير أشعث يكاد يخفي عينيه، مسطول دائما لأن الحشيش، في اعتقاده، يزيل التعب ويشحذ الحواس وينشط خياله فيبتكر أنواعا من الأطباق لم يفكر فيها أحد قبله، كما أنه عندما يضع الطعام على طرف لسانه ليضبط الملح والبهارات يتمكن بفضل الحشيش من تذوق أدق التفاصيل.. ركابي طباخ ماهر لكنه أناني؛ لا يبوح إلا بقواعد الطبخ العامة التي يعرفها الجميع، أما الوصفات المهمة، الأسرار التي تمنح الأطباق النكهة والمذاق فهو يخفيها تماما عن مساعديه، يجهز ركابي الخلطات المهمة في بيته ثم يحضرها في برطمانات مغلقة وإذا اضطر إلى إعداد خلطة مهمة في المطبخ فإنه يأمر مساعديه جميعا بالخروج لئلا يلتقط أحدهم سر الصنعة، المساعد الذي يتلكأ في الخروج يلكزه ركابي بقوة مستعملا قبضته المستديرة ذات الأصابع المنتفخة ويصيح:

ـ اخرج يا روح أمك.. أنا فَحَتّ في الصخر لغاية ما تعلمت.. عاوزني أعطيك الصنعة على الجاهز؟

لا يوجد في هذا العالم ما يثير خجل ركابي، شعاره الوقاحة الكاملة، يصيح ويزجر ويشتم ويشخر ويهز جسده البدين ويحرك أصابعه في إشارات بذيئة، كأنما يزهو بتخلصه نهائيا من الحياء، في وقاحة ركابي شيء ما حانق موتور، في بذاءته مرارة وتَشَفّ كأنه يستمتع عندما يصدم الآخرين بكلامه الفاحش أو كأنه يقول:

«لم تكن حياتي سهلة.. لم يعاملني أحد برقة ولم يراع أحد مشاعري.. لم ألق في حياتي إلا القسوة والإهانة، الآن، حان دوري لكي أعامل الناس بنفس الطريقة التي عاملوني بها».

شراسة ركابي جارحة لكنها هشة، يكفي أن يرد أحد عليه بعنف حتى يتراجع وينكمش، إنه وقح وجبان، لا يهجم إلا إذا أمن العقاب، وتكون أدنى مقاومة كفيلة بردعه، وهو في نفس الوقت خسيس لا يعرف كرم التسامح، إذا قدر على أعدائه يُنكل بهم بلا رحمة.

بعد أن ينتهي ركابي من عمله آخر الليل، يرسل بصينية معتبرة من الطعام هدية إلى بحر البارمان الذي سرعان ما يرد التحية بربع زجاجة ويسكي من البواقي.. يلفها ركابي بعناية في عدة طبقات من ورق الجرائد ثم يضعها في كيس يتأبطه ويقول لمساعديه بمرح:

ـ السلام عليكم، تصبحوا على خير، أنا رايح أركب السفينة.

السفينة هنا كناية عن زوجته، تَعوَّد ركابي أن يحكي لأصدقائه وزملائه أسرار حياته الزوجية واصفا بالتفصيل مرات الجماع والأوضاع الجنسية التي يحبذها، لكنه في نفس الوقت لا يذكر اسم زوجته أبدا ـ احتراما لها ـ فيرمز إليها بالسفينة أو الجماعة أو العيال.

أعلن ركابي عن رفضه الصريح لزيادة البوناس فتشجع المتر شاكر وقال بطريقته الثعبانية الناعمة:

ـ كيف يريدنا الكوو أن ندفع زيادة؟ حاجة غريبة فعلا.

«المتر شاكر» جاوز الستين بعامين، يُضرب به المثل في الخداع والمناورة، أستاذ في تأليف الأكاذيب، تخصصه الدقيق اصطياد أموال الزبائن.. يتفنن في احترامهم وتبجيلهم حتى تنهار مقاومتهم وينفحونه بقشيشا كبيرا، ما إن يهل عضو النادي من بعيد حتى يهرع نحوه المتر شاكر، ينحني ويلهج بعبارات التحية والتمجيد ويستفسر عن صحته ويسأل عن أولاده الذين يحفظ أسماءهم عن ظهر قلب، ينجح شاكر دائما في إقناع الزبون بأهميته في المكان وإذا كان الزبون يصطحب معه امرأة فإن شاكر بعد أن يقدم وصلة ترحيب مطولة ينحني على المرأة ويقول بصوت خفيض:

ـ عارفة يا ست هانم. أنا أخدم كل أعضاء النادي، دي شغلتي، إنما، ربنا يعلم، سعادة البك أحسن الأعضاء عندنا وأعز الناس عليَّ.

بعد ذلك هل يمكن لهذا الزبون إلا أن ينفحه بقشيشا كبيرا؟! إنَّ تملق المتر شاكر زائف ومكشوف، لكن له تأثير السحر على أعضاء النادي، يتمتع شاكر بشعبية كاسحة حتى أن أعضاء كثيرين قبل أن يحجزوا مائدة عشاء في النادي يتأكدون أولا من وجود المتر شاكر لأنه في رأيهم الضمان الأكيد لجودة الخدمة، المتر شاكر شريك عمل ورفيق سلاح للطباخ ركابي، لا يستغني أحدهما عن الآخر.. يلتقيان أكثر من مرة يوميا للتشاور وتبادل الأفكار، يتفاهمان ويعملان بتناغم وانسجام كأنهما يُجدفان في مركب واحد، أو يعزفان على آلتين مختلفتين لحنًا موسيقيا واحدا، يتقاسمان الإتاوات التي يفرضانها على محلات

الخضر والفاكهة والجزارة والدجاج مقابل شراء احتياجات النادي منهم، يستعملان نظاما دقيقا للتلاعب في فواتير المطعم وأحيانا إذا كان الجو رائقا، باتفاق خاص مع المحاسب مرقص، يخصصان ساعة أو اثنتين من عمل المطعم لحسابهما فيحققان أرباحا كبيرة، ركابي وشاكر لا يتورعان عن فعل أي شيء من أجل النقود، إنهما لِصَّان كبيران لكنهما مبدعان، أفكارهما خلَّاقة وحلولهما مبتكرة، لا تقف أمامهما مشكلة.. إذا كانت هناك أصناف من الطعام مركونة في المطبخ فإنهما يتخلصان منها بعملية اسمها «غسيل الثلاجات»: يعلن المتر شاكر عن بوفيه مفتوح للأعضاء ويستعمل ركابي كل فنه ليضع الأطعمة القديمة في أطباق جديدة شهية.. أما إذا كان هناك صنف من الطعام قد بدأ يفسد؛ الجمبري مثلا، فإن ركابي الطباخ يقوم بتقشيره ويصنع منه أطباقا بانيه ثم يخبر المتر شاكر الذي يهز رأسه متفهما وينتظر حتى يأتي أحد الزبائن ويسأله:

ـ شاكر.. ماذا تقترح عليَّ الليلة للعشاء؟

هذا السؤال لا يحقق فائدة عملية لكنه يضفي على الزبون أُبَّهة وأناقة، الزبون الذي يوجه هذا السؤال يريد أن يؤكد لنفسه ولِمَن حوله أنه شخصية مهمة، وأن المتر شاكر يدين له بالولاء لدرجة أنه سينصحه بأنواع الطعام الجيدة ويحذره من الرديئة.. كل ذلك يفهمه المتر شاكر؛ لذلك فهو ينحني على هذا النوع من الزبائن ويهمس بلهجة من يُدلي بسرٍّ خطير:

ـ يا سعادة البك، الجمبري البانيه ممتاز لكن يا خسارة.. الكمية قليلة.

هنا سيسأله الزبون بقلق مصطنع مترف:

ـ معقول الجمبري خلص؟

ـ لا يمكن يخلص قبل ما سيادتك تذوقه يا سعادة البك.

يبدو الامتنان على الزبون ويحس بأنه يتمتع بمكانة خاصة فيطلب الجمبري، وعندما يأتي الجرسونات بالأطباق يقدم المتر شاكر بنفسه طبق الجمبري البانيه ثم يهمس:

ـ «Bon appétit» بون ابيتيه يا بك، ربنا يسامحني، كذبت على الزبائن وقلت إن «الجمبري البانيه» خلص؛ أردت أن أحتفظ به لأفضل أعضاء النادي.

هكذا يضرب المتر شاكر عصفورين بحجر واحد: يتخلص من الجمبري الذي أوشك على الفساد ويُؤمِّن لنفسه بقشيشا جيدا، بجوار المتر شاكر جلس يوسف طربوش الذي أدرك أن عليه أن يتكلم فقال:

ـ صلوا على حضرة النبي الكريم.

ارتفعت أصواتهم بالصلاة والسلام على الرسول الكريم، استطرد يوسف قائلا:

ـ الزيادة في البوناس ظلم والظلم حرام لأن الله يأمرنا بالعدل.

«الحاج يوسف طربوش» في الخامسة والستين، عصبي لا يتوقف جسده النحيل عن الحركة والاهتزاز مما يمنع الطربوش من الاستقرار على رأسه، الأمر الذي أثار سخرية زملائه في أول عمله بالنادي فأطلقوا عليه لقب يوسف طربوش، عمل يوسف في صالة القمار منذ إنشائها وتدرج حتى أصبح أقدم الخدم فيها ثم تغيرت حياته تماما لما بدأ جلالة الملك يسهر في النادي، لاحظ جلالته أن وجود يوسف طربوش بجواره يجلب له الحظ السعيد في القمار، مرة بعد أخرى ترسخت الفكرة في ذهن مولانا لدرجة أنه كثيرا ما يصيح بالفرنسية وهو منهمك في اللعب:

ـ جو.. إياك أن تتحرك من جواري.

عندئذ ينحني يوسف طربوش في تبجيل وقلبه يكاد يقفز من السعادة.. في كل مرة كان الملك يكسب كان يزيح بعض الفيشات بالعصا الطويلة ويقول:

ـ «Ca c'est pour Joe» هذا من أجل جو.

يكاد طربوش أن يسجد احتراما للمليك المفدَّى ثم يتناول الفيشات ويظل قابضا عليها ولا يضعها في جيبه أبدا، حيث إن وَضْع يده في جيبه فعل قبيح لا يجوز أبدا أن يفعله أمام مولانا.. في اليوم التالي، يذهب يوسف طربوش إلى مرقص المحاسب ويستبدل بالفيشات أموالا حقيقية.. حتى في الحالات النادرة التي خسر فيها الملك، كان جلالته يتناول عصا المائدة ويُنحّي بعض الفيشات من شريكه الفائز ليمنحها ليوسف؛ وهكذا تدفقت الأموال عليه، ببطء أولا ثم انهمرت كالسيل فتغيرت حياته من النقيض إلى النقيض، أصبح يوسف طربوش ثريا، أبقى على أم العيال النوبية العجفاء المجهدة لكنه تزوج عليها أرملة بيضاء جميلة من المنصورة تصغره بربع قرن أعادت إليه شهيته للجنس الحلال، ثم شَيّد في بلدته بالنوبة بيتا كبيرا بحديقة واشترى عمارة من ثلاثة طوابق في عابدين صارت تُدِرّ عليه دخلا شهريا معتبرا، ابتسمت له الحياة وحققت له أكثر مما تمنى، الرضا السامي والرزق الوفير والصحة والأملاك.. ولكن متى اكتملت السعادة؟!

وقع يوسف طربوش في فخ الهواجس الدينية، وشيئا فشيئا باخت فرحته وسيطر عليه إحساس عميق بالذنب، إنه يرتكب معصية كبرى ستلقي به حتما في نار جهنم، الرزق الذي يعيش منه وينفق منه على زوجتيه وأولاده مال حرام بإجماع الفقهاء؛ هل يتقبل ربنا سبحانه وتعالى

صلاته وصيامه وهو يعيش من دخل القمار؟ إنه يتقدم في السن وقد يموت في أية لحظة، بلا تمهيد أو إنذار؛ كما يحدث لملايين البشر، يدخل فراشه وينام فلا يصحو، ماذا يصنع حينئذ وماذا يقول لربنا سبحانه وتعالى يوم العرض العظيم؟ دار يوسف طربوش على المشايخ الكبار وسألهم عن حالته فتلقى إجابات مختلفة: شيخ نصحه بأن يترك عمله في صالة القمار فورا ويتصدق بكل أمواله على أن يُبْقِي ما يكفيه فقط لإطعام أولاده حتى يجد عملا آخر حلالًا، شيخ آخر أفتى بضرورة ترك عمله في القمار على أن يحتفظ بمدخراته ويطهرها بأداء الزكاة، شيخ ثالث طمأنه قائلا: ما دمت لم تجد عملا آخر حلالًا يدر عليك نفس الدخل فلا بأس من عملك في القمار لأنك شرعا في حكم المضطر.. ضاق يوسف بتضارب آراء المشايخ وأحس بأنه ضائع وتعيس فذهب لأداء الحج، بكى طويلا أمام الكعبة ودعا الله أن يوفقه إلى الطريق الصحيح.. لما عاد من الحج أحس بسكينة عجيبة واهتدى إلى الحل، لم يترك العمل في صالة القمار ولم يتخلص من ثروته لكنه أقام مسجدا ودارا لرعاية الأيتام في بلدته، وبدأ في إعالة عدد كبير من الأسر الفقيرة.. في أول كل شهر يضع المال بأسمائهم في ظروف مغلقة ويتركها مع موظف الاستقبال في النادي.. هكذا تخلص من إحساسه بالذنب، إن الله يعلم أنه لم يختر عمله في القمار، كما أن سنه المتقدمة وصِحّته المعتلة لا تسمحان له بالبحث عن عمل آخر، ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، ولو أنه قبض روحه الآن فكل هؤلاء الفقراء الذين يعولهم سيشفعون له، بعد عودته من الحج عكف يوسف طربوش على قراءة كتب الدين، وبعد مفاوضات معقدة مع الكوو ومستر رايت انتزع موافقتهما على تخصيص ركن من السطح بجوار الفستيير كمصلى للخدم (في غير أوقات العمل)، بفضل تديُّنه اكتسب يوسف

طربوش مكانة بين الخدم وإن كانوا لا يثقون به تماما لأنه في النهاية أحد الرؤساء الذين يدعمون الكوو ضدهم، كما أن التناقض بين تدينه البالغ وعمله في صالة القمار كان يهز مصداقيته إلى حد كبير.. ما إن أعلن الحاج يوسف طربوش اعتراضه على زيادة البوناس حتى انطلقت موجة جديدة من الاعتراضات. قال المتر شاكر:

ـ ده خراب بيوت، ربنا لا يرضيه هذا الظلم.

انفعل ركابي الطباخ وأشار بإصبعيه في حركة بذيئة ثم أطلق من حنجرته شخرة عالية أضافت إلى جسده الضخم طابعا حيوانيا وصاح:

ـ يا إخوانا، شقانا ورزق عيالنا كيف نفرط فيه؟! عليَّ الحرام ما أنا دافع مليم زيادة للكوو.

كان بحر يستمع إليهم صامتا وهو يدخن الشيشة، وفجأة صاح ركابي في وجهه:

ـ ما لك يا بحر هادئ ولا على بالك، أنت مش خايف على رزقك؟

ابتسم بحر وقال:

ـ يا ركابي أنتم عمالين تزيدوا وتعيدوا وأنا مش بأحب كُتر الكلام.

صاح ركابي:

ـ طيب لما أنت معلم وفهّيم، قل لنا نعمل إيه.

ـ إما ترفضوا الزيادة وإما تدفعوا وتسكتوا.

صاحوا معترضين فاعتدل بحر على المقعد ووضع المبسم جانبا ثم تطلع إليهم وقال:

ـ يعني أنتم رافضين الزيادة؟

اختلطت أصواتهم لتؤكد الرفض، عندئذ نهض بحر وقال بنبرة عادية:

ـ طيب، أنا أروح للكوو وأقوله.

صاح ركابي:

ـ انتظر يا بحر، دقيقة واحدة.

تجاهله بحر واستدار ليخرج من المقهى فصاح الثلاثة يستبقونه، هرع ركابي خلفه وأمسك ذراعه ليمنعه من الانصراف، كان البارمان بحر يفهم زملاءه جيدا ويدرك أن غضبهم ليس سوى كلام.. تنفيس، فضفضة، لن ينعكس أبدا على تصرفهم، بل إنهم في أوج غضبهم كانوا يضبطون نبرتهم بحيث لا يسمعهم بقية الخدم في المقهى لئلا ينقل أحدهم للكوو ما يُقال فتكون الطامة الكبرى، هذه الشجاعة المزيفة كانت تستفز بحر وتدفعه إلى احتقارهم، ها هم على حقيقتهم، ركابي الطباخ والمتر شاكر ويوسف طربوش الذين هاجوا وماجوا حتى يُخيل لمن يراهم أنهم لو وجدوا الكوو أمامهم في تلك اللحظة لأوسعوه ضربا، ما إن هددهم بحر بإخبار الكوو حتى تحولوا إلى فئران مذعورة، كادوا يتوسلون إليه حتى لا يبلغ الكوو بما قالوه.. تطلع إليهم باحتقار وقال:

ـ إذا كنتم جدعان اذهبوا إلى الكوو.. وواجهوه.

لاذوا بالصمت وكرر بحر البارمان سؤاله:

ـ تقدروا؟

ـ ما نقدرش.

هكذا تمتم شاكر بانكسار.. عندئذ قال بحر:

ـ خلاص؛ يبقى تسكتوا وتروحوا تحبوا على يد الكوو وتدفعوا الزيادة.

في اليوم ذاته قبيل منتصف الليل، اصطف رؤساء الخدم الأربعة أمام مكتب الكوو الذي كان كعادته يُدخّن سيجاره الفاخر وفي يده أوراق يطالعها، تطلع إليهم متسائلا فتنحنح المتر شاكر وانحنى وقال:

ـ يا جناب الكوو.. جنابك صاحب الفضل علينا.. جبتنا من الصعيد وفتحت بيوتنا وجعلتنا بني آدمين.

تطلَّع إليه الكوو وقد بدأ تعبير وجهه المتسائل يتحول إلى ما يشبه الضجر، تقدم المتر شاكر خطوة إلى الأمام ثم استجمع شجاعته ووضع على المكتب مظروفا كبيرا تطل من فتحته الأوراق المالية، قال بصوت متهدج:

ـ فضلة خيرك يا جناب الكوو، إحنا زودنا البوناس، ربنا يخليك ويحفظك، مهما عملنا لا يمكن نقضّي جمايلك.

نفث الكوو من السيجار فصنع حول وجهه غمامة كثيفة ثم عاد بظهره في المقعد وتطلع أمامه في الفراغ وكأنهم غير موجودين.. كان بحر يتأمل ما يحدث في هدوء، أما زملاؤه الثلاثة فقد أفزعهم احتمال أن يرفض الكوو البوناس من جديد.. لو رفض هذه المرة سيغرقون في بحر الظلمات، يستحيل أن يدفعوا أكثر من ذلك، ربما ما يُغضِب الكوو سبب آخر غير البوناس.. أسوأ ما يمكن حدوثه أن يغضب الكوو بغير أن يعرفوا السبب.. انحنى المتر شاكر من جديد ودفع الظرف بيده على زجاج المكتب كأنما يرجو الكوو أن يقبله، مرت لحظة طويلة ثم أشاح الكوو بوجهه قليلا فيما يشبه القرف وأشار إليهم بيده أن يخرجوا، كان

معنى ذلك قبوله للبوناس.. خرجوا وهم يلهجون بالشكر، انتهت الأزمة على خير، هل ظلمهم الكوو عندما أجبرهم على زيادة البوناس؟ الكوو يتابع رؤساء الخدم بدقة، فيض من المعلومات يتدفق إليه يوميا من جواسيسه المنتشرين في كل مكان، بناء على ذلك يُجري حساباته ويُقدر السرقات التي يقومون بها ثم يفرض البوناس بطريقة تجعله دائما شريكا في الأرباح وليس مجرد جامع ضرائب، زيادة البوناس إذن محسوبة بدقة، والأهم من ذلك أنها لا تُرتب أي استثناءات أو امتيازات.. بعد كل بوناس يقبضه الكوو لا بد أن يشن حملات تفتيشية يوبخ خلالها رؤساء الخدم بشدة ويضرب مرءوسيهم لأقل هفوة، حتى يفهم الجميع أن دفع البوناس لا يعفي من الواجبات ولا يمنع المحاسبة.

هكذا حكم الكوو الخدم على مدى عشرين عاما: عين يقظة وقبضة فولاذية وسيطرة مطلقة.. لكن لكل شيء إذا ما تم نقصان، بدا الأمر كأنه انحناء بسيط يكاد لا يُلحظ في خط مشدود مستقيم، ذات صباح استدعى المستر رايت الكوو إلى مكتبه، استأذن الكوو في تأخير اللقاء لأنه لا يستطيع أن يغادر القصر قبل أن يُشرف على شئون مولانا الملك الذي يستيقظ بعد الظهر، ألح رايت على رؤية الكوو مما أثار قلقه فذهب إليه، حيَّاه رايت بطريقته العملية السريعة، أشعل غليونه ونفث سحابة كثيفة من الدخان المعطر ثم قال:

ـ اسمع، سيأتي إليك غدا ولد اسمه عبدون، خذه إلى المدرسة حتى يتعلم الخدمة وبعد ذلك يشتغل معنا في النادي.

كان ذلك أمرا، لم يكن هناك ما يُناقَش، انحنى الكوو وقال بالفرنسية:

ـ تحت أمرك.

صمت مستر رايت واستأنف القراءة إشارةً إلى انتهاء المقابلة، سأله الكوو إن كان يحتاج إلى أية خدمة أخرى فهز رايت رأسه بالنفي دون أن يرفعها من فوق الكتاب.. انصرف الكوو وهو مندهش.. جيمس رايت المدير الإنجليزي الذي يتعامل مع المصريين جميعا كأنهم ذباب مقزز، يتوسط بنفسه لتعيين سفرجي!! كلف الكوو عيونه المنتشرة بمتابعة هذه القصة وبعد ساعات قليلة جاءه الخبر؛ عبدون ابن بواب مدرسة الليسيه حيث تعمل أوديت فتال عشيقة رايت، ابتسم الكوو وهمس لنفسه ساخرا بالفرنسية:

ـ فتش عن المرأة.

في اليوم التالي جاء عبدون للقاء الكوو؛ شاب أسمر ممشوق القوام، طويل، مهذب، له عينان واسعتان عسليتان وابتسامة جميلة تكشف عن أسنان ناصعة متلألئة، كان وسيما لدرجة أن الكوو أحس بتوتر مساعده حميد وهو يقف بجواره إلى المكتب، تطلع الكوو إلى عبدون بوجه متجهم ونظرة باردة ثم قال:

ـ وساطة المستر رايت لا تُرد لكن العمل في نادي السيارات أُمنية آلاف البشر؛ اجتهد حتى نقبلك.

ـ سأبذل كل جهدي.

ـ ستدخل أولا إلى المدرسة لنرى مدى استعدادك للخدمة.

ابتسم عبدون وقال:

ـ بإذن الله أكون عند حسن ظنك.

بدا عبدون مهذبا لكنه مع ذلك ترك في نفس الكوو إحساسا غير

مريح، بعد ستين عاما عاشها في هذه الدنيا ومئات الخدم الذين تعامل معهم، من الصعب أن يخطئ الكوو في تقويم خادم، هذا الولد ذكي ويتصرف بأدب ويبدو نشيطا لكن لديه شيئا ما خارج السياق، وترًا نافرًا، نغمة نشاز، أحكم الكوو الرقابة على عبدون فاكتشف أنه منضبط إلى أقصى درجة لم يرتكب مخالفة واحدة، تعلم عبدون بسرعة واجتاز الاختبارات بنجاح بل إنه لم يقع حتى في أخطاء البداية المعتادة وبعد شهرين فقط صار يؤدي تحية التمني بطريقة بارعة ذكَّرت الكوو بشبابه، كل ذلك كان يفترض أن يجعل الكوو راضيا عن عبدون لكنه ظل متوجسا، وبعد تفكير قال لنفسه:

ـ أنا لا أرتاح لهذا الولد، ولن أشغل نفسي بالبحث عن الأسباب.

أراد الكوو أن يورط عبدون في مشكلات تؤدي إلى طرده فعيَّنه مساعد بارمان.. العمل في البار بالنسبة لخادم مبتدئ مخاطرة كبرى، أهم الشخصيات في مصر تتردد على البار، والغلطة الواحدة معهم مصيبة كما أن العمل مع السكارى أصلا صعب لأن الخمر تزيد من حدة انفعالاتهم وتجعلهم أقرب إلى الاستفزاز والغضب.. مرت أسابيع ولم يسمع الكوو أية مشكلة عن عبدون ولما سأل بحر البارمان أثنى على عبدون، اندهش الكوو لأن بحر مزهوّ بنفسه ونادرا ما يرضى عن مساعديه؛ لأن أداءهم دائما أقل من توقعاته، ظل وجود عبدون يزعج الكوو كأنه حصاة محشورة في حذائه، لا يستطيع إخراجها ولا يتحمل ضغطها على قدمه، قرر أن يشن هجوما استباقيا فذهب إلى المستر رايت ووقف أمامه متظاهرا بالتردد والحيرة، سأله رايت فأجاب الكوو بتلعثم كأنه يسعى إلى تجميل الحقيقة:

ـ مستر رايت.. أرجوك لا تغضب مني.

ـ ماذا تريد؟

ـ الولد عبدون يرتكب أخطاء كثيرة.

ـ شيئا فشيئا سيتعلم.

هكذا أجاب رايت بدون تفكير، تنهد الكوو وقال:

ـ حاولت كثيرا أن أعلمه لكنه للأسف لا يستجيب.

ـ ما هدفك من هذا الكلام؟

أصبح الكوو أمام المرمى فقرر أن يسدد، تمتم بصوت خافت:

ـ بصراحة الولد عبدون لا يصلح للخدمة، أستطيع أن أجد له عملا خارج النادي يكسب منه جيدا.

هز رايت رأسه وقال:

ـ عبدون سيظل معنا في النادي.

حاول الكوو أن يعترض لكن مستر رايت أضاف بلهجة حاسمة:

ـ لا أريد أن أسمع كلمة في هذا الموضوع.

تطلَّع الكوو إلى مستر رايت كأنه لا يصدق، ثم انحنى واستدار لينصرف.

(١٠)

بعض الأشياء تبدو طبيعية في الحياة إلى درجة يصعب معها أن نتخيل متى بدأت؛ هكذا الصداقة الوطيدة التي تجمع بين الشابين الرائعين: محمود ابن الحاج عبد العزيز همام، وفوزي ابن عم علي حمامة.. يا الله.. إن كل شيء في هذا العالَم يؤلف بينهما: السن؛ إذ يكبر محمود صديقه فوزي ببضعة أشهر فقط.. الجيرة؛ إذ يسكنان ذات البيت في شارع السد الجواني.. والدراسة: إذ إنهما تلميذان في الصف الثالث بمدرسة علي عبد اللطيف الإعدادية.. الأهم من كل ذلك أن نظرتهما للحياة متطابقة، فوزي ومحمود مقتنعان تماما بسخافة المواد الدراسية جميعا،كثيرا ما يُعبّران عن سخطهما فيقول فوزي لصديقه مستنكرا:

ـ تقدر تقول لي ما فائدة كل هذه المعلومات السقيمة التي يحشرونها بالعافية في عقولنا؟

عندئذ يرد محمود:

ـ أهي بلاوي عمّالة تتحدف على دماغنا.

يتزايد غضب فوزي فيسأل بانفعال:

ـ نفسي حد يقول لي فائدة التفاضل والتكامل.. إذا كانت هذه المعادلات المعقدة لا تساعدنا على الحساب فلماذا ندرسها من أساسه؟

هنا يتنهد محمود ويتخذ وجهه تعبير الصابر على المصيبة ويقول بصوت هادئ:

ـ التفاضل بالرغم من رذالته يعتبر رحمة بالنسبة للجغرافيا.. خرائط ومحاصيل وأمطار.. يا ساتر يا رب؛ نفسي أعرف لماذا يريدوننا أن نحفظ أنواع المحاصيل في جزيرة سومطرة؟ نحن نعيش في مصر ولن نذهب إلى سومطرة أبدا.

إن المدرسة في نظر الصديقين ليست إلا مكانا لتعذيب التلاميذ، لا أكثر ولا أقل.. من قال إن النجاح في الدراسة يؤدي بالضرورة إلى النجاح في الحياة؟ كثير من الأثرياء الناجحين في حياتهم لم يدخلوا المدرسة قط، وبالمقابل كثيرون أنفقوا سنوات طويلة في التعليم وبعد ذلك فشلوا في العثور على وظيفة.. بالإضافة إلى احتقارهما للتعليم، يتقاسم الصديقان أربع هوايات محببة: أولا التزويغ من المدرسة؛ وقد ابتكرا في ذلك حِيَلا متعددة بدءا من القفز من فوق السور وحتى رشوة عم شاذلي البَوَّاب بالسجائر حتى يفتح لهما الباب بعد الحصة الأولى. ثانيا: لعب كرة القدم في «المثلث»؛ وهي قطعة أرض فضاء مواجِهة لمطحن الرمالي في السيدة زينب. ثالثا: التعرف إلى البنات والخروج معهن واقتناص الأحضان والقُبُلات منهن. ورابعا: تنمية عضلات الجسم باستمرار للحصول على مظهر رياضي جذاب.

هذه الحياة الحقيقية الحلوة بعيدا عن غباوة المدرسة وكآبتها.. لا زال فوزي يتذكر بداية صداقته بمحمود، كان مزوغا من المدرسة كالعادة وذهب ليلعب الكرة في المثلث.. ألقى بكتبه على الرصيف وانهمك في تقسيمة سريعة بغرض التسخين قبل المباراة وفجأة ظهر محمود بلونه الأسود الأبنوسي وجسده الممشوق مفتول العضلات،

لعب الصديقان كرة القدم لأول مرة معا وإثر تمريرات محكمة من فوزي سجل محمود هدفين من أربعة أهداف نظيفة في مرمى الخصوم.. بعد المباراة، أثناء الاحتفال بالنصر، وقف الجميع يشربون كازوزة مثلجة على حساب الفريق المهزوم.. وبينما محمود يرشف باستمتاع من زجاجة السينالكو برتقال ويتطلع إليها بين الحين والحين بنظرة راضية شبه ممتنة وهو يتمنى في أعماقه ألا ينتهي مذاقها اللذيذ من فمه أبدا.. اقترب منه فوزي وحيَّاه ثم عرَّفه بنفسه، تصافحا بقوة وتبادلا نظرات متمهلة متفحصة كأنهما حيوانان يتشمم بعضهما بعضًا بغرض التعارف، ثم هتف فوزي بحماس:

ـ برافو يا كابتن محمود، عملت ماتش كبير، أنت مدفعجي، شوطتك سم.

ـ ربنا يخليك يا كابتن فوزي.. أشكرك.

اقترب فوزي أكثر من محمود وراح يتطلع إلى جسده الرياضي وقال:

ـ باين عليك شغال كمال أجسام تمام.

ـ على قدي.

مد فوزي يده وتحسس عضلات محمود المفتولة وقال بإعجاب:

ـ عضلة الشولدر عندك حلوة وعضلة التريبس متينة.

ـ اجتهدت واشتغلت عليهم كثير، ربنا يعلم.

ـ يا أخي أنا حاولت كثير في كمال الأجسام بدون نتيجة، كل مرة أتعب وأسيب التمرين.

اكتسب وجه محمود تعبيرا جادًّا مخلصا وعرض المساعدة على

فوزي.. في نفس اليوم، زار فوزي محمود لأول مرة في بيته وبعد أن سلم على أم سعيد والدته وقَبَّل يدها، أخذه محمود إلى حجرته في أقصى الشقة الفسيحة حيث أعطاه الدرس الأول في كيفية بناء العضلات بطريقة سليمة، أخرج محمود من تحت السرير أوزان دامبلز ٢ و٥ كيلو، وأدى بهم بعض التمارين طالبا من فوزي أن يعيدها وراءه، ثم هبط على الأرض وزحف تحت السرير حتى اختفى تماما ولم يلبث أن ظهر وهو يجر جسما غريبا لم ير فوزي مثله قط: عصا خشبية غليظة (من النوع الذي يستعمل في غلي الغسيل)، مثبت في طرفيها علبتان متماثلتان مكتوب عليهما «سمنة سلطان الأصلي».. ظهرت الدهشة على فوزي فأطلق محمود ضحكة خفيفة وقال:

ـ أصل الثقل الحديد غالي.. أنا عملت الثقل بنفسي ودائما أتمرن عليه.

ـ إزاي؟

ـ بسيطة.. تجيب عصا غسيل سميكة وطويلة وعلبتين سمنة فاضيتين وتملؤهما أسمنت طري وتسيبه ينشف.. يعملوا ثقل حلو قوي.. بص.

اتخذ محمود وضع الاستعداد، ضمخ يديه في بودرة التلك الموضوعة في إناء مستدير تحت السرير ثم وقف وقدماه متلاصقتان وظهره مستقيم وأخذ عدة أنفاس عميقة، وفي حركة مفاجئة: انحنى وأمسك بالاختراع من منتصفه، ظل منحنيا لحظات ليستجمع تركيزه ويشحذ إرادته ثم صاح عاليا: «يا قوة الله.. أنا محسوبك يا أم العواجز»، ورفع الثقل مرة واحدة (خطف) واحتفظ به مرفوعا في الهواء لحظات وقد اكفهر وجهه وتقلصت عضلات ذراعيه ورقبته بشدة.. صفق فوزي وصاح بحماس:

ـ يا حلاوتك يا معلم محمود يا جامد.

في نشوة النصر، ألقى محمود بالثقل على الأرض فأصدر ضجة كبرى جاءت بأم سعيدة على عجل تستطلع الأمر، وكانت هذه فرصة لكي يطلب منها محمود كوبين من الشاي بالنعناع مع ما تيسر من القراقيش والجبن القديمة.. تعهد محمود بتدريب فوزي مرتين على الأقل في الأسبوع على كمال الأجسام وسرعان ما ظهر أثر التمرين الصحيح المنتظم على فوزي فتضخمت ذراعاه واشتدت عضلات بطنه.. صار الصديقان لا يفترقان، يفعلان كل شيء معا.. يلتقيان في الصباح أمام باب المدرسة، يزوغان ويتوجهان إلى مقهى بعيد آمن، يحتسيان الشاي باللبن ويُدخنان المعسل ثم يفكران كيف يقضيان النهار: هل يذهبان إلى السينما لمشاهدة فيلم جديد أم يركبان الترام إلى حديقة الحيوان حيث يتعرفان على بنات المدارس، أم يكتفيان بلعب الكرة في المثلث؟ وقد ألح الصديقان على الأهل حتى يسمحوا لهما بالاستذكار معا، وافقت عائشة فورا لكن أم سعيد رفضت وقالت لمحمود:

ـ «يا ولدي الواحد يذاكر مع الشاطرين ويتعلم منهم.. أنت جايب فوزي الساقط تذاكر معه؟ أنتما الاثنان أخيب من بعض».

لكن محمود لم يستسلم، ظل يُلح على أمه حتى لانت وأذعنت، عندئذ بدأ الصديقان يستذكران معا كل مساء.. كانا يستعدان لجلسات المذاكرة كأنهما ذاهبان إلى حفل في الأوبرا.. حمام ساخن طويل وحلاقة الذقن بعناية ثم تنعيمها ورشها باللوسيون المرطب ثم بيريانتين على الشعر قبل تصفيفه وملابس أنيقة وعطور فواحة.. كل هذه الاستعدادات كانت تستغرق وقتا بطبيعة الحال، بعد ذلك يلتقي الصديقان فيرحب بعضهم ببعض بحرارة كأنهما يلتقيان بعد سفر طويل.. وأخيرا، يبدآن

في إعداد مسرح العمليات للمذاكرة.. يتأكدان أولا من نظافة الأرضية، يفحصانها بعناية ولو وجدا عليها ذرة تراب فإنهما يكنسان الحجرة كلها، بعد ذلك يرفعان الغطاء النظيف المكوي المبسوط على المكتب ويتفقدان الزجاج أسفله ليتأكدا أنه خالٍ من البقع.

قد يسأل سائل: ما الخطورة التي تسببها بعض ذرات التراب على أرض الحجرة أو بقعة صغيرة على زجاج المكتب إذا كان المفرش يغطيه بالكامل؟ ثم.. ما علاقة كل ذلك بالمذاكرة؟ الحق أن التغاضي عن هذه الأشياء الصغيرة لا يتفق مع مبدأ الصديقين في الحياة؛ ولذلك فهما قد ينفقان ساعة كاملة في تنظيف الحجرة والتأكد من أن كل شيء لامع ومصقول.. بعد ذلك يجلس أحدهما في مواجهة الآخر؛ يفتحان الكتب ويشرعان في الاستذكار بهمة ولكن بعد دقائق عادة ما يهتف محمود بزهق:

ـ يا ساتر.. القلم الرصاص سِنّه تخين.. بيشخبط.

هنا يتوقف فوزي فورا عن القراءة ويتناول القلم من صديقه ليتفقد حجم المشكلة، ثم يبتسم قائلا:

ـ ولا يهمك يا معلم.. أنا أضبط لك السِّن.

يبدأ فوزي في بري القلم، قد يظن بعض الناس أن بَرْي الأقلام الرصاص مسألة هينة أو عشوائية.. ما أبعد ذلك عن الحقيقة! إن بري القلم الرصاص والوصول بسِنّه إلى المقاس المطلوب عملية فنية دقيقة تحتاج مع التركيز والخبرة إلى التوفيق.. الدليل على ذلك أن فوزي حمامة بالرغم من خبرته العريضة في بري الأقلام، كثيرا ما يخطئ فيدير القلم في فتحة البراية أكثر مما يجب، حركة واحدة هينة زائدة ويقع

المحظور: تصدر عن القلم تكة خافتة تنبئ بانكسار السِّن ويبدأ فوزي في بري القلم من جديد بينما محمود يبري قلما آخر.. هكذا يجتهد الصديقان في بري الأقلام حتى يفلحا، أخيرا، في تكوين ذخيرة كافية من الأقلام المبرية المنضبطة.. بعد إنجاز هذه المهمة (التي تستغرق وقتا طويلا بالطبع) يستأنفان الاستذكار.. ولكن، سواء كانا موجودَيْن في بيت محمود أو فوزي، لا بد للمضيف من أن يسأل الضيف ماذا يحب أن يأكل أو يشرب، هكذا تقضي أصول الضيافة، عادة ما تكون الطلبات مركبة ومتخصصة: سندوتشات جبن بالطماطم مثلا في خبز ساخن محمص، أو طبق فول مدمس مهروس بالزبد مع التحبيشة أو طبق بيض مقلي عيون مع الفلفل والكمون، يعقب ذلك أكواب من الشاي بالنعناع أو السحلب اللذيذ أو الحلبة المعروفة عالميا بقيمتها الغذائية الممتازة، ينهض المضيف لإعداد الطعام بنفسه، ومن باب اللياقة يصحبه الضيف حتى يسليه وهو يعمل في المطبخ.. وهكذا دواليك.. بين بري الأقلام وتلميع الزجاج وإعداد الطعام والتهامه واقتراح بعض التمارين المبتكرة لتقوية عضلات الكتف والوركين، تمضي أمسيات الاستذكار بين الصديقين ولا عجب إذن أنهما، عندما ظهرت النتيجة، قد رسبا في الإعدادية للمرة الثانية على التوالي.. لم يحزن الصديقان كثيرا لرسوبهما (الذي كان في الحقيقة عادلا ومتوقَّعا) لكنهما انشغلا بالعواقب، فقد منع الأهل المصروف عنهما عدة أسابيع، لكنهما لحُسن الحظ كانا قد ادخرا مبلغا للطوارئ عاشا عليه حتى انقضت المحنة.. هذا الشتاء، بينما يعيد الصديقان الإعدادية للمرة الثالثة، بدآ في تنفيذ فكرة جديدة رائعة: يلتقيان في الصباح الباكر فيشربان على الريق كوبين كبيرين من السمن البلدي ثم يفطران بشراسة، يلتهمان عدة أطباق من الفول والبيض والكبدة المقلية لكي يحصلا على الطاقة اللازمة، بعد

ذلك ينزل الصديقان إلى الشارع، في عز البرد، وقد ارتدى كل واحد منهما قميصا نصف كم وفتح أزراره العلوية.. يتعمدان أن يمرا بثيابهما الخفيفة أمام مدرسة هدى شعراوي الثانوية للبنات.. إن منظرهما، بعضلاتهما المفتولة وقميصيهما المفتوحين وشعر صدرهما الغزير الأسود الكثيف كالأدغال (وهذه نعمة أخرى كبرى حباهما الله بها) يثير فضول البنات الملتحفات في البلوفرات من فرط البرد فيتقافزن ويصوصوون كالعصافير ثم يتساقطن عليهما كما الفراشات على مصدر الضوء.. تنفعل واحدة من التلميذات فتسأل بصوت مرتفع:

ـ يا خبر.. لابسين نصف كُم في عِز البرد.

عندئذ يلتفت إليها فوزي ويقول:

ـ عادي.

عندئذ تصيح البنت:

ـ عادي إزاي؟ الدنيا برد جدًّا.

هنا يعلق فوزي بهدوء وزهو كاملَيْن:

ـ الحمد لله، ربنا أعطانا صحة زيادة.

هذه الجولات الصباحية الاستعراضية أدت إلى تعارفهما إلى بنتين جميلتين: نوال وثريا؛ كان الخروج معهما من أجمل الأوقات، وقد استطاعا أن يقتنصا منهما قُبُلات دافئة رائعة أثناء الحفلة الصباحية في المقعد الخلفي أعلى قاعة سينما الشرق.. هكذا تمضي حياة الصديقين بانسجام كامل والحق أنهما يُثبتان صحة الفلسفة القديمة التي تؤكد أن سعادة الإنسان تنبع من داخله، إنهما يتمتعان بنوع راسخ نادر من راحة

البال، لا يعكر صفوهما أي شيء مهما بلغت خطورته في نظر الآخرين، إنهما مرتاحان دائما لأن أولوياتهما في الحياة مختلفة عن بقية الناس، إن عدم استجابة عضلة واحدة للتمرين أو تَخلُّف بنت عن موعدها مع أحدهما أمام السينما، أو هزيمة فريقهما في كرة القدم في المثلث، أو حتى ظهور بعض الفسافيس (جمع فسفوسة) على بشرة أحدهما.. كل هذه مشكلات جوهرية يأخذانها بجدية كاملة ويهتمان بها أكثر بكثير من اهتمامهما بنتائجهما في المدرسة.. هذا الأسبوع جاء فوزي (العقل المدبر للثنائي) وقال لصديقه:

ـ محمود.. فاكر رهان الكشري؟ كانا بين الحين والحين يتراهنان على مَن يأكل أكثر من أطباق الكشري.. يذهبان إلى مطعم الكشري في شارع الترام، هناك يتنافسان في الأكل، يلتهمان الطبق وراء الطبق حتى يستسلم أحدهما ويعلن أنه عاجز عن أكل المزيد.. عندئذ يتم إعلان الفائز ويتكفل الخاسر بدفع الحساب مع الرهان المالي المتفق عليه.. ابتسم محمود وقال:

ـ طبعا فاكر رهان الكشري.. آخر حلاوة.

ـ عارف الولد صدقي الزلباني؟

ـ طبعا عارفه.. كان الزلباني زميلهما في مدرسة علي عبد اللطيف الإعدادية، لكنه نجح والتحق بالإبراهيمية الثانوية.

استطرد فوزي:

ـ أنا اتفقت مع صدقي الزلباني، يوم الجمعة إن شاء الله بعد الصلاة.. نروح إحنا الثلاثة على مطعم الكشري ونتراهن مَن يأكل أكثر، الخسران يدفع الحساب كله وجنيه لكل واحد.. إيه رأيك.. فكرة حلوة؟

كان انهمار المعلومات بهذه السرعة مشكلة حقيقية بالنسبة لمحمود الذي يفهم ببطء، تجمدت على وجهه الأسود ابتسامة ودية صارت بلا معنى وتطلع مستفهما إلى فوزي الذي بدأ يشرح له الخطة على مهل: صدقي ابن محمد الزلباني صاحب مصنع الحلاوة الطحينية الشهير ولديه مال أكثر من الهم على القلب.. سوف يهزم الصديقان صدقي الزلباني في أكل الكشري مما يضمن لهما أكلة طيبة وجنيهًا كاملًا لكل واحد منهما، فهم محمود أخيرا وانفرجت أساريره وقال:

ـ عفارم عليك يا معلم فوزي.

جاء يوم الجمعة، فأدى المتراهنون الثلاثة الصلاة في مسجد السيدة زينب، ثم توجهوا بعد ذلك إلى مطعم الكشري الذي كان صاحبه الحاج صبحي ـ بناء على اتفاق مسبق مع فوزي ـ قد أعد لهم ركنا مخصوصا بعيدا عن أعين الزبائن، تردد صدقي الزلباني في اللحظة الأخيرة وهمس بصوت قلق:

ـ ما بلاش الرهان ونروح السينما أحسن.

رد فوزي بخشونة:

ـ هو كلام عيال؟ اتفقنا نتراهن يبقى لازم نتراهن.. ولا أنت خائف تخسر؟

قضت الجملة الأخيرة على تردد الزلباني واتخذ الفرسان الثلاثة مواقعهم حول المائدة، طلب فوزي من الجرسون أن يظل واقفا بجوارهم ليوافيهم بأطباق جديدة كلما فرغوا من القديمة، قال له بزهو قائد منتصر:

ـ اسمع يا أخ، المعلمين الثلاثة اللي قاعدين قدامك جبابرة،

وحوش في الأكل، كل ما يخلص دور الكشري انزل باللي بعده، فاهم؟ ما تعطلناش الله لا يسيئك.

ـ وجب يا فوزي أفندي.

هكذا قال الجرسون باحترام لكن فوزي ضحك ساخرا، وقال:

ـ ربنا يستر عليك، شكلك صحتك على قدك، والنبي أنا خايف تقع من طولك وأنت بتخدَّم علينا، يلَّا يا سيدي ناولني الكشري ناول.

ـ حضراتكم تحبوا أطباق الكشري حجم وسط أو حجم كبير؟

أطلق فوزي شخرة صغيرة علامة الاستهجان وقال:

ـ من إمتى المعلمين بياكلوا أطباق وسط؟ عيب عليك يا جدع.

اعتذر الجرسون عن خطئه الجسيم وهرع إلى المطبخ وسرعان ما عاد بثلاثة أطباق كشري حجم كبير، وضعها على المائدة فتم التهامها في دقائق معدودة وصاح فوزي:

ـ هات غيره.

جاء الدور الثاني من الأطباق وأعقبه الدور الثالث ثم الدور الرابع.. في الدور الخامس توقع فوزي أن يعلن صدقي الزلباني استسلامه أو على الأقل يبدو عليه بعض التعب، لكن الزلباني ظل في كامل لياقته وأتى على طبقه بنفس السرعة.. في الدور السادس أكمل فوزي طبقه بصعوبة ولمح على وجه محمود الإعياء لكنه تطلع إلى صدقي الزلباني فوجده يأكل بنهم فأدرك أن المباراة لن تكون نزهة.. ساد الصمت بين الفرسان الثلاثة وأراد فوزي أن يستغل الوقت لالتقاط أنفاسه فطلب دورق ماء من الجرسون، تعمد أن يشرب الماء على مهل حتى يستريح

قليلا لكن صدقي الزلباني تجرع كوب الماء دفعة واحدة وتجشأ بقوة ثم صاح في الجرسون:

ـ يا عم أنت نمت؟! نَزِّل الدور السابع بسرعة.

مع الملاعق الأولى من الجولة السابعة، بدا بوضوح أن فوزي ومحمود متعثران، أخذا يأكلان ببطء ويزدردان الكشري بصعوبة، أما صدقي فكان يأكل الكشري ملعقة تلو الأخرى بيُسر وتمكن كأنه سمكة تعوم في الماء.. ولما رأى فوزي ذلك اهتزت معنوياته وأحس بدوخة وضيق في التنفس، بالإضافة إلى انتفاخ بطنه بطريقة مؤلمة وبدأ يفكر:

«يا نهار أسود، الولد صدقي الزلباني طلع جامد.. لو خسرت الرهان تبقى مصيبة؛ ليس في جيبي إلا عشرة صاغ».

(١١)

كان صوت عائشة عاليا مدويا لدرجة جعلت شتائمها تتردد في الشارع كأنما تبث من إذاعة داخلية، التقطها بوضوح الجيران والمارة والزبائن الساهرون في المقهى المواجه للبيت.. هؤلاء جميعا استمتعوا بالمشاجرة، الوحيد الذي أحس بالحسرة سعيد همام، كان قد ارتدى قميصا أبيض وبنطلونا رصاصيًّا بعد أن حلق ذقنه وصفف شعره بعناية ورش حول رقبته وعلى يديه عطر لافندر، ثم وقف خلف باب الشقة يتنصت وقد بدا تعبير قلق مشفق بدلا من التعبير غير المكترث شبه المستهجن الذي يبدو عادة على وجهه، ليس سعيد حاد الذكاء مثل صالحة، ولا موهوبا مثل كامل، لكنه أيضا ليس بطيء الفهم مثل محمود، إنه يتمتع بذهن يقظ مُرتَّب لكنه فقير الخيال، يتخيل بصعوبة بالغة كل ما هو خارج عن نطاق الحواس، لا يفهم أي شيء في الحياة ما لم يترجمه إلى رقم، سعيد يرى العالم في وضح النهار بلا ظلال غامضة ولا أبعاد خفية، الحياة في نظر سعيد ليست سوى مسابقة كبرى من أجل الثراء، كل الشعارات والعنتريات مجرد أوهام تعطل الإنسان عن السباق وقد تورثه البؤس، مثلما حدث مع أبيه عبد العزيز همام الذي توهم أنه زعيم قبيلة وشيخ عرب فبدد ثروته الطائلة على أقاربه، ثم اكتشف بعد ذلك أنهم أوغاد ناكرو الجميل ليس لديهم أدنى استعداد لمساندته أو إنقاذه من الفقر، لو كان أبوه يحسب

الحياة بشكل عملي لكان تجنب المحنة التي يعيشونها الآن، سعيد ناقم في أعماقه على أبيه لسوء تصرفه.. ما يضاعف من غضبه على أبيه أنه، في خضم الضائقة التي يعانون منها، لا زال يستضيف الصعاليك من أهل دراو فوق السطح وينفق عليهم؛ كأنه لم يتعلم من كل ما حدث.. إن تبذير أبيه هو الذي حرمه من التعليم الجامعي.. صحيح أنه رسب مرتين ثم لم يحصل على مجموع يؤهله للدراسة الثانوية، ولكن.. لو كان أبوه ادخر ما ينفقه على أقاربه الجرابيع لأمكنه أن يدفع له مصروفات مدرسة ثانوية خاصة ولأصبح جامعيا مثل أخيه الأصغر، بالرغم من إحساسه بالظلم إلا أنه استوعب الدرس فصارت أهدافه محددة بدقة.. إذا كانت الحياة سباقا فلا بد أن يصل قبل غيره، إنه يسعى إلى تحقيق الأسباب حتى يحصل على النتائج، كل ما يفعله محسوب ومنضبط.. بدءا من موسى الحلاقة التي كلما استعملها سارع بتجفيفها وإدخالها في غطائها الورقي حتى يمنع عنها الصدأ ويستفيد منها لأطول فترة، إلى أحذيته التي لا ينام قبل أن يطمئن على دخولها في صناديقها كأنها أطفال يضعها في الفراش، إلى مدخراته التي لا يعرف بها مخلوق سواه.. إحساس المتسابق لا يفارق سعيدا ويجعله في حالة دائمة من حسابات الخسائر والأرباح، كثيرا ما يلتقي بشخص ما للمرة الأولى، وبعد التعارف والتحيات يسدد سعيد إليه نظرة متفحصة ثم يسأله:

ـ مرتبك كم؟

عادة ما يجيب الشخص تحت تأثير المفاجأة، عندئذ يعاجله سعيد بالسؤال الآخر:

ـ كم تدخر منه كل شهر؟

إن هذا السلوك، الذي يفتقر تماما إلى اللياقة، يمنحه متعة عظيمة لأنه

يقارن قدرته على التوفير بقدرة مُحَدِّثه، وبالتالي يتمكن من تقويم أدائه، كل شيء في حياة سعيد يخضع لحسابات دقيقة ما عدا علاقته بفايقة؛ إن تعلقه بها لا يقاوم، لا يعود ذلك إلى حب رومانسي وإنما إلى جاذبية جسدية تجعله يطاردها بإلحاح، بدون تفكير، كأنه فراشة تنجذب إلى مصدر الضوء، فايقة تتمتع بأنوثة طاغية.. وكأن أنوثة أمها عائشة ـ على فداحتها ـ كانت تحمل بعض الشوائب فانتقلت عصارتها الصافية إلى فايقة، إذا كانت الطبيعة قد منحت المرأة أنوثتها لكي تجتذب الرجل حتى يُكوِّنا أسرة ويعمرا الأرض فإن الأنوثة الكامنة في فايقة، بدون مبالغة، تكفي لعدة نساء، كل حركة أو لفتة منها تحمل موجات أثيرية مشحونة بالغواية، تلك الأنوثة الفوارة الحراقة كثيرا ما تتحول إلى عبء عليها، كأنها حمل تنوء به، أو كأنها نداء بلا مجيب، عندئذ تضطرب فايقة وتحس بالزهق والكآبة ولا يخفف عنها إلا حَمَّام ساخن مُنعش.. الحَمَّام بالنسبة إلى فايقة ليس مجرد غسلا لجسدها، إنه طقس احتفالي تحتفي فيه بجسدها تحت الماء الساخن، تهدهده وتفحصه، تتفقده جزءا جزءا وتراجع كل تفصيلة صغيرة: أظافرها التي تعكف يوميا على تشذيبها وتنعيمها وطليها بالمونوكير حتى تحولت إلى تحفة صغيرة بديعة، جلدها البض الناعم، شعرها الأسود الفاحم، وجهها الأبيض المشرب بالحمرة، إن جمال فايقة بالنسبة إليها ليس مجرد نعمة وإنما مشروع حياة، كما يهتم لاعب الكرة بلياقته وعازف الكمان بأصابعه والمغنية بصوتها فإن جسد فايقة يعني لها الرأسمال والتحقق والمستقبل الآمن، بالرغم من إمساك أبيها الشديد في النفقات استطاعت فايقة أن تتحايل لتصنع ذخيرة التجميل الخاصة بها، بقايا من أشياء أمها وأشياء اشترتها من تخفيضات وهدايا من هنا وهناك.. بالإضافة إلى مجلات تجميل قديمة اشترتها بثمن زهيد من عَوّاد بائع الكتب القديمة في شارع الترام.

من طباع فايقة الغريبة قدرتها الفائقة على التقمص؛ كأنها ممثلة موهوبة، إنها تندمج تماما في أي موقف، تتصنع شعورا ما وسرعان ما يتملكها فعلا، إذا تظاهرت بالحزن انهمرت دموعها، وإذا تظاهرت بالفرح تملكتها بهجة صادقة .. فايقة دائمة النقار مع أمها، ربما بسبب تشابههما في الطبع، أحيانا تحدث بينهما اشتباكات شرسة كأنهما حيوانان من نفس النوع يتنازعان على منطقة نفوذ، في نفس الوقت فإنهما تمتلكان قدرة مدهشة على الاتصال، تكفي نظرة واحدة من إحداهما لتفهم فيما تفكر الأخرى وماذا تريد أن تقول.

ظل سعيد واقفا خلف الباب يتطلع من العين السحرية وقد جف ريقه وتتابعت أنفاسه من فرط الانفعال. طبقا للاتفاق بينهما، بعد منتصف الليل بنصف الساعة ستحمل فايقة سلة الملابس الملونة المغسولة وتصعد فوق السطح، صعودها للسطح في تلك الساعة تصرُّف طبيعي من السهل الدفاع عنه، ستقول إن مناشر البيت امتلأت عن آخرها والملابس الملونة تفقد زهوتها بتأثير الشمس؛ فليس أمامها إذن إلا نشرها فوق السطح ليلا.. سعيد الليلة منحوس، قبيل موعده مع فايقة اندلعت مشاجرة عنيفة بين أبويها.. معنى ذلك أنه لن يرى فايقة.. أحس بالتعاسة تسحق قلبه.. لقد بدأ علاقته بها منذ ثلاثة أشهر فقط إلا أنها صارت ركنا أساسيا في حياته لا غنى عنه.. إنه أشبه الآن بطفل استمع لتوه إلى قرار بالحرمان من فسحته الأسبوعية، اللحظات التي يقضيها مع فائقة استراحته الوحيدة من توتره الدائم.. لا يتخيل حياته بدون أن يلتقي بها، في نهاية كل لقاء يتفقان على اللقاء القادم ويظل هو يفكر فيه.. يترقبه، مع تفاقم المشاجرة صار حرمانه مؤكدا.. لا يمكن أن تصعد إلى السطح بينما أبواها يتشاجران بهذه الضراوة.. « ماذا تنتظر يا سعيد؟ ادخل نام وعوضك على الله».

إن وقوفه خلف الباب بلا جدوى.. هل يدخل إلى حجرته وينام وينسى الموضوع برمته؟ لن يطاوعه قلبه ولن يواتيه النوم، ظل متسمرا في مكانه خلف الباب.. بعد قليل حدثت مفاجأة: خرج علي حمامة وصفق الباب واستمرت شتائم عائشة تلاحقه، ثم ساد صمت عميق فتجدد الأمل في قلب سعيد، هل نامت حبيبته؟ كيف تنام وسط هذا الصراخ والعويل؟ بعض الناس يستطيعون النوم مهما كانت الضوضاء حولهم، حتى لو كانت مستيقظة هل يمكن أن تطلع إلى السطح؟ ألا يفترض أن تظل بجوار أمها لتواسيها؟ ربما ظنت أنه انصرف.. ظلت الأفكار تطن في رأسه وهو واقف خلف الباب يضرب أخماسا في أسداس، يا الله.. ها هي المعجزة.. كاد قلبه أن يتوقف من الانفعال. استمع إلى باب شقة فايقة وهو يفتح، تطلع من العين السحرية، في ضوء المصباح المعلق فوق الباب الخافت، رآها.. فاتنة كالعادة؛ حاجباها مزججان، وخدها مشرب بحمرة البودرة الخفيفة، وأحمر شفاه على شفتيها الشهيتين، خرجت وأغلقت الباب برفق وبدأت في صعود الدرج، أغمض عينيه في نشوة وهو يستمع إلى وقع خطواتها، بعد لحظات مرت كالدهر، فتح الباب وانطلق.. قفز السلالم بسرعة حتى اجتاز باب السطح، كان الظلام حالكا لأنه لمح ظهرها وهي تعلق قطعة ملابس على الحبل.. هجم عليها بكل شوقه ليحضنها، دفعته بيدها، كان هذا التمنع الخفيف يثير شهوته أكثر.. كأنما جزء من متعته أن يتغلب عليها، دائما تقاوم ودائما يغلبها ويُطوّقها بقوة ويحس بدفء صدرها العامر بين يديه، عندئذ تهمس باستنكار مائع:

ـ سعيد أنت اتجننت.. يا خرابي.

تنطق «يا خرابي» بطريقة ناعمة تثيره بشدة فينقض عليها وينهال

عليها تقبيلا.. يظل يحتك بها حتى يحترق بالنشوة، ينطفئ بُركانه ويظل يحتضنها فترة، يتحدثان قليلا ويتبادلان قُبُلات خفيفة لذيذة حتى تشتعل شهوته من جديد فيبدآن دورة حب أخرى، الليلة بدت فايقة مختلفة.. غريبة، نافرة. دفعته بعيدا عنها؛ كانت مقاومتها على غير العادة صلبة وجادة، ابتعد قليلا واستغرق لحظات حتى يستجمع تركيزه.. وضع يده عليها وقال بصوت متحشرج:

ـ ما لك؟

تنهدت فايقة بحُرقة، ازداد جزع سعيد وكرر السؤال فأجابته بصوت خافت:

ـ أنا خائفة.

ـ خائفة ممن؟

ـ خائفة من ربنا لأن ما نفعله غلط وحرام.

ـ ربنا لن يعاقبنا لأن بيننا حب.

ـ هل ترضى لأختك صالحة أن تحب شابا فيفعل بها ما تفعله بي؟

لم يرد فصاحت بغضب:

ـ طبعا لا يمكن ترد.. ماذا تقول.. أنت تحافظ على عرض أختك لكنك تستبيح عرضي أنا.

مع هذه الجملة الأخيرة أجهشت بالبكاء وصار سعيد في حالة بائسة، لم يَدْرِ ماذا يصنع.. ابتعدت عنه وقالت:

ـ أنا نازلة.

ـ لأ.. أرجوكِ.

هكذا قال بتوسل ومد يده ليمسك بها لكنها دفعته بعنف وقالت:

ـ أنا لن أطلع السطح بعد ذلك يا سعيد.

ـ فايقة...أنا أحبكِ.

ـ إذا كنت تحبني احترمني.

ـ أنا أحترمكِ.

ـ اللي يحترم واحدة يقابلها في النور.

ـ يعنى إيه؟

ـ أنت فاهم.

ـ قلت لك حأتقدم لوالدك أول ما الظروف تسمح.

ـ خلاص، عن إذنك، أشوفك لما الظروف تسمح.

شاهدها سعيد وهي تُصلح من ثوبها وتعدل شعرها بيديها ثم تعود من حيث أتت، مشى خلفها بغير وعي وراح يتابعها بنظره وهي تنزل الدرج، كانت حركتها تحمل بُعدا حادًّا كأنها تتحدى بمشيتها شيئا ما أو تسجل موقفا، أحس سعيد بأنه يغوص في هوة بلا قرار.. بينما فايقة تهبط درجات السلم كان أبوها علي حمامة يصعد إلى السحاب.. بعد أن فرَّ علي حمامة من عائشة ظل يجوب شوارع السيدة زينب بلا هدف، متأبطا علبة الشبكة التي حرص على أن يأخذها معه.. ماذا يفعل الآن؟ إلى أين يذهب؟ قادته قدماه تلقائيا فصعد إلى قلعة الكبش وتوجه إلى غرزة الخلفاوي لأنها تسهر طوال الليل، فكر أنه يحتاج إلى بعض

الأنفاس ليمحو من رأسه كل هذا الضجيج والشجار.. يا الله، رأسه يكاد ينفجر.. دخل إلى الغرزة وألقى السلام على الموجودين فردوا بأصوات متفرقة خافتة، جلس علي حمامة في ركن بعيد وسرعان ما ظهر الولد سامبو الأسود بِسِنّـتَيْه الأماميتين المكسورتين وعينه الحولاء، وضع أمامه الجوزة وقد غَيَّر ماءها وبجوارها إناء الأحجار المترعة بمعسل المزاج الذي يحبه.. عاد حمامة بظهره مستندا إلى الحائط ومد قدميه كمن يسترخي بعد سفر طويل وأخرج من جيبه قطعة الحشيش وقال بصوت متعب:

ـ خذ يا ولد يا سامبو رُص لنا حجرين.. خلي الواحد ينسى الهم.

ـ سلامتك من الهم يا حاج علي.

ـ الولية تعباني يا سامبو.

ـ البيوت يا ما فيها يا حاج.

تناول علي حمامة البوصة ومن فرط همه وشوقه للحشيش شد نفسا طويلا أدى إلى طقطقة الفحم واشتعاله؛ الأمر الذي أطرب سامبو الأحول فترك البوصة ورفع يديه بحركة راقصة وأخذ يردد:

ـ صلاة على النبي.. صلاة على النبي.

أجمل ما في سامبو أنه لا يفرض الحوار على الزبائن، يحس متى يريده الزبون أن يتكلم ومتى يفضل الصمت، عندما لاحظ أن علي حمامة غارق في التفكير، ظل يخدمه بتفانٍ وصمت، شيئا فشيئا تسرب الحشيش إلى رأس علي حمامة وبدأت أفكاره تنجلي، استرجع ما جرى فأحس بدهشة، ما كل هذا الذي حدث وكيف تطور الأمر مع عائشة إلى هذا الحد؟ كيف تجرؤ على معاملته بهذه الطريقة؟ الحمد لله أنه حشاش؛

الحشيش يهدئ الأعصاب ويُعَلم الحكمة، لو كان سِكيرًا يعاقر الخمر لأفلتت أعصابه وذبحها بيده، والله تستأهل الذبح، ماذا تظنني هذه المرأة وأولادها؟ المحروس فوزي الخائب يريد بدلة جديدة، أهلا وسهلا، يا ألف نهار أبيض، يطلب بدلة وهو ساقط! عندما ينجح في الإعدادية ماذا سيطلب؟ سيارة كاديلاك؟

ابتسم حمامة ساخرا وتساءل بمرارة: هل يعتقدون أنني أطبع البنكنوت على مطبعة في الدكان؟ كل يوم هات.. هات، هل أصبح مالي مستباحا إلى هذه الدرجة؟ هل تريدين يا عائشة أنتِ وعيالك أن ترثوني حيا.. آه يا أولاد الكلب! دَخَّن حمامة عشرة أحجار مكثفة متلاحقة ثم وقف ليحاسب الخلفاوي صاحب الغرزة فدفع أقل من نصف الأجرة العادية، وهو يحصل على هذا التخفيض نتيجة لحسابات مقايضة معقدة تتداخل فيها مشتروات البقالة مع أحجار المعسل، عندما خرج علي حمامة من الغرزة أحس بأنه خفيف كعصفور، تَمَلَّكَه انسجام كامل كأنه جملة موسيقية تم عزفها على النحو الصحيح، أخذ يمشي الهوينا ويتمايل إلى الجانبين وهو يتأبط علبة الشبكة.. شيئا فشيئا، بدأ يرى الموضوع بطريقة مختلفة: عائشة زوجته وهو يعرفها جيدا؛ عنيدة مثل البغل وإذا غضبت تكون أشرس خلق الله، كما أنها تستطيع أن تلحق به أضرارا فادحة، لن ينسى يوم أن قَصَّت جلبابه السكروته الجديد بالمقص.. لا حول ولا قوة إلا بالله، ليس من الحكمة إذن أن يستمر في استفزاز عائشة، قُدرتها على الشر بلا مثيل والعند يورث الكفر.

ـ «خلاص، سأكون أحسن منها، المسامح كريم».

هكذا قال لنفسه.. سيكتفي بتوبيخها هذه المرة على أن تعرف خطأها ولا تعاود، انقلب الموقف تماما في رأسه وبدلا من الانتقام

من عائشة أخذ يفكر كيف يسترضيها، هذا التغير في مزاج علي حمامة لا يرجع إلى خوفه من عائشة ولا إلى تسامُحه معها، وإنما إلى شهوته الملحة التي كادت تؤلمه؛ كان الحشيش يثير خياله الجنسي بقوة ولم يكن يتصور الجنس مع امرأة غير زوجته، على مدى ربع قرن لم يعرف سواها في الفراش؛ ليس عن تعفف وإنما لأن عائشة تتعمد أن تستنفد طاقته بحيث لا يتبقى لديه ما يقدمه لامرأة أخرى.. كما أن حفاوتها بالجنس وإتقانها المدهش لفنونه كان يجدد شوقه إليها، عرج حمامة على حلواني الطاهرة حيث قضى نحو نصف ساعة ثم عاد إلى بيته وفتح بالمفتاح وكما توقع وجد النور مضاء في حجرة النوم.. حاول فتح الباب فوجده مغلقا من الداخل، نقر بأصابعه بطريقة تجمع الود إلى الشقاوة لكن عائشة لم ترد، كان واثقا أنها مستيقظة، اقترب من الباب وقال بصوت خافت:

ـ افتحي يا عائشة.

لم ترد، فقال بلهجة مرحة:

ـ عيوشة، افتحي يا حلوة، عيب، إحنا كبرنا على أمور العيال دي.

قالت عائشة:

ـ جبت المأذون معك؟

كان صوتها غاضبا ورخيما مغريا في نفس الوقت.. تساءل علي حمامة كأنه اندهش:

ـ مأذون؟! يعمل إيه المأذون؟

ـ يطلّقنا.

ـ يا ولية أنتِ عبيطة؟ معقول أطلقك بعد العمر دا كله.

ـ أنت مش عاوز تطلقني وأخذت شبكتك؟ خلاص يا سيدي، نتطلق وكل واحد يروح لحاله.

كان في صوتها استكانة أثارته بشدة.. قال بصوت متحشرج من فرط الرغبة:

ـ يا عيوشة ساعة شيطان وراحت، أهو كل واحد فينا بعبع له شوية واستريح.. أنتِ اتجننتِ يا ولية، آخد شبكتك بعد العِشْرة الحلوة كلها، دا أنا أجيب لك شبكة جديدة.. دا أنتِ تستاهلي ثقلك ذهب.

ـ يا سلام يا سيدي.. أيوه.. كُل بعقلي حلاوة.. أنا مش قدك يا علي يا حمامة.

نطقت الجملة الأخيرة بميوعة ألهبت رغبته فاندفع يقول:

ـ افتحي يا عيوشة يا حبيبتي، عيب عليكِ.. أنتِ ترضي لي الوقفة دي؟ بصي أنا جبت لك إيه.. ربع بسبوسة بالقشطة من حلواني الطاهرة، تأكليه وحدك بالهنا والشفا، أنا أكلت نصيبي الحمد لله.. وإن كان يا ستي على جاكيتة الولد فوزي، خلاص أشتريها يوم الجمعة إن شاء الله.

كان هذا ما يسمونه في فن التفاوض الدبلوماسي حلًّا وسطًا مع مكافأة؛ فقد تم إسقاط البذلة المطلوبة والاكتفاء بجاكيتة مقابل مكافأة ربع البسبوسة بالقشطة التي تعشقها عائشة، وكأن هذه الطلقة الأخيرة أصابت الهدف، سمع علي حمامة صوت تنهد ثم خُطوات أعقبتها طرقعة مزلاج الباب الذي لم يلبث أن انفرج ببطء.

صالحة

قالت أبلة سعاد:

ـ الباليرينا دي مصبوغة؟

تطلعتُ إليها في صمت، كنت أجاهد نفسي حتى لا أبكي، مرت لحظة طويلة ثم ارتفع صوت أبلة سعاد:

ـ ردي عليَّ.. الباليرينا دي مصبوغة ولا لأ؟

اختنقتُ بالدموع وخرج صوتي خافتا: «مصبوغة يا أبلة».

أشاحت أبلة سعاد بوجهها ولوَّحَت بيدها وقالت:

ـ خلاص، ارجعي الطابور.

في تلك اللحظة كرهتُ أبلة سعاد من صميم قلبي، كرهتها لأنها أصرَّت على هذا الموضوع التافه الذي تعلم أنه بلا قيمة.. كرهتها لأنها جعلتني أضغط على أبي وأحرجه وأجعله يحس بفقره وعجزه، وفي النهاية ها هي تتكرم وتعفو عني؛ لو أنها عاقبتني أو طردتني من حصتها لكان ذلك أفضل، لكنها أرادت أن تقوم بدور المُحسِنة الكريمة، انتزعت اعترافي بالفقر ثم قررت أن تعفو عني.. تركتني أبلة سعاد أرجع إلى مكاني في الطابور وأنا أجرجر قدميَّ في الباليرينا البائسة المصبوغة وأكاد أتعثر من الغضب والخجل.

منذ ذلك اليوم صار وجودي في المدرسة عليلا.. مجروحا، ملفقا على نحو ما، دفنت همومي في المذاكرة، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لمساعدة أبي كما قال كامل، أتفوق في الدراسة فأثبت لأبي أن تعبه من

أجلنا لم يذهب هباء، صرت أغلق حجرتي عليَّ وأقضي ساعات طويلة في المذاكرة.. كان في حماسي للدراسة طعم المرارة، كنت أنتقم على نحو ما، أجتهد في الدراسة لأثبت وجودي.. صحيح أنا فقيرة لدرجة يعجز فيها أبي عن دفع المصروفات أو شراء حذاء باليرينا.. إلا أنني أذكى وأفضل من زميلاتي جميعا، ظهرت نتيجة نصف العام وجاء ترتيبي الأولى على الفصل، في اللحظة التي أعطيت فيها الشهادة لأبي حتى يُوقّعها هزني انفعال قوي، كأنني ألهث بعد مشوار طويل قطعتُه ركضا، ابتسم أبي وتناول قَلَمًا وَوَقَّع الشهادة.. لم يتكلم، نهض وأمسك بي من كتفي وابتسم وقال:

ـ يا صالحة أنا فخور بكِ، أتمنى أن يمد الله في عمري حتى أراكِ أستاذة في الجامعة.

ـ لماذا اخترتَ هذه المهنة بالذات؟

ـ لا أعرف، أتخيلكِ دائما وأنت أستاذة تُلقين محاضرة على الطلبة.

تأثرت وقلت بحماس:

ـ ستراني أستاذة في الجامعة.. أعدكَ.

ظللت أعمل بلا هوادة حتى احتفظت بالمركز الأول في نهاية العام، في الإجازة الصيفية، لم أطلب من أبي نقودا أو نزهات كما كنت أفعل من قبل، اكتفيت بالجلوس في البيت، أساعد أمي وأنتظر كامل عند عودته ليلا فنتكلم طويلا؛ كامل أخي أكثر إنسان يفهمني في هذا العالم، كنت أحب أن أتكلم معه، كان يُحدثني في كل شيء: السياسة والفن والأدب.. كان يردد بانفعال:

ـ مصر بلد عظيمة يا صالحة، لكنها لم تأخذ فرصتها، الاحتلال

عار علينا جميعا، يجب أن نطرد الإنجليز ونبني دولة ديمقراطية حديثة وقوية.

كان يقرأ عليَّ أبياتًا من الشعر القديم والحديث، كنت أستمتع كثيرا وأنا أستمع إلى شرحه لأبيات الحب، كان يشرح معاني الشعر بفهم وحب وحماس، لن أنسى أبدا إحساسي عندما قرأ أبياتا من الشعر الأندلسي، تأثرت من بيت يقول:

إذا كان ذنبي أن حُبَّكِ سيدي ... فكل ليالي العاشقينَ ذنوبُ

أتــوبُ إلــى ربي وإني لمــرة ... يسامحنى ربي إليـكِ أتوبُ

هل يمكن أن يحب رجل امرأة إلى هذا الحد؟ بينما كامل يشرح البيت كنت أحلق في الخيال، لو أحبني رجل إلى هذه الدرجة سأهبه روحي وجسدي، سأعيش وأموت من أجله.. كنت سريعة التأثر، أعاني من جيشان المشاعر وتقلب المزاج، أحيانا أحس بمرح وسعادة لا أعرف سببها وغالبا ما تنتابني حالات من الكآبة فأغلق على نفسي باب حجرتي وأستسلم للبكاء، ثم بدأت الأحلام تطاردني، صرت أحلم كل ليلة.. غالبا ما كنت أصحو وقد نسيت الحلم، يتبخر تماما من ذاكرتي ولا يتبقى منه سوى إحساس حزين غامض.. ثم بدأتُ أرى حلما معينا باستمرار.. نفس الحلم كان يتكرر مرتين أو ثلاث كل أسبوع، كان ذلك أمرا غريبا؛ أن يحلم إنسان بنفس الحلم، بدون أي تغيير، الأغرب أنني على عكس الأحلام الأخرى، كنت أتذكر تفاصيل ذلك الحلم، أستعيده في ذهني بوضوح مدهش، يبدأ الحلم وكأنني أسير بين صفين من الأشجار في حديقة رائعة، أينما أُوجِّه نظري أرى زهورا جميلة متفتحة، ألوانها رائعة، رائحة الفل تملأ المكان وأنا أحس براحة وبهجة كأنني تخلصت من همومي جميعا إلى الأبد.. فجأة يظهر أبي، يخرج من ممر جانبي وهو

يرتدي جلبابا أبيض نظيفا، ويبدو وجهه مستريحا ناضرا كأنه عاد إلى شبابه الأول، يبتسم فتبدو أسنانه ناصعة، يمد يده نحوي ويقول:

ـ تعالي معي يا صالحة.

أحس بطمأنينة تغمرني، وأمسك بيده فأجدها دافئة، يجذبني خلفه عبر الممر، أضحك وأتمنى أن أظل معه إلى الأبد، يتوقف أبي في مكان ما بين شجرتين يسمح بنفاذ الضوء، يبتسم ويقول:

ـ انظري إليَّ.

عندئذ ألاحظ أن أذنه اليسرى غير موجودة، أصرخ من الفزع لكنه يهمس بصوت هادئ:

ـ لا تقلقي يا صالحة، أنا بخير.

أشير بأصبعي إلى أذنه المقطوعة وأحاول أن أتكلم، أحاول إخبار أبي بأن أذنه اختفت لكنني أكتشف أن صوتي لا يخرج من حنجرتي، يحتضنني أبي ويقترب لِيُقَـبِّل رأسي، وفي اللحظة التي أحس فيها بشفتيه تلامسان جبيني.. أستيقظ.

(١٢)

تحامل فوزي على نفسه وأكمل بالكاد طبق الكشري السابع بينما جحظت عينا محمود وتدلى رأسه الكبير إلى الأمام وراح يزفر بقوة كأنه ثور مُنهك، تعب الصديقان فوزي ومحمود من فرط الأكل ولا شك أنهما في أعماقهما ندما على فكرة الرهان من أساسها، لكن صدقي الزلباني اللعين طلب الدور الثامن من أطباق الكشري وبدأ يأكل فلم يعد أمام فوزي ومحمود أية فرصة للتراجع أو الراحة، بدآ في دفع المزيد من الكشري في معدتيهما الممتلئتين عن آخرهما.. انتهى الزلباني من طبقه وبدا عليه الانشراح وهو يرى منافسيه يزدردان الكشري بصعوبة بالغة، فجأة، ألقى محمود بالملعقة في الطبق فأصدرت رنة عالية ثم أحنَى رأسه الكبير ووضع يديه على بطنه وقال بصوت مرتفع:

ـ آي يا بطني ياني.. بطني واجعاني قوي.

لم يكن فوزي في حالة أفضل وإن اختلفت الأعراض، كان يعاني من صعوبة في التنفس ودوخة وعرق غزير يغطي جبهته، تطلع إليهما صدقي الزلباني وضحك وصاح:

ـ «هارد لك» يا محمود أنت وفوزي؛ أنا كسبت.

ـ من قال لك؟

هكذا قال محمود وهو لا زال ممسكا ببطنه، فنظر إليه الزلباني بما يشبه العطف وقال:

ـ طيب يا محمود، ندخل على الطبق التاسع.

ـ مش قادر.

هكذا صاح محمود ثم شهق بينما ظل فوزي صامتا فتأكدت خسارته، ضحك صدقي الزلباني وقال:

ـ أنتم الاثنان عليكم الحساب وكل واحد فيكم يدفع لي جنيه.

هكذا قال الزلباني بلهجة المنتصر، ساد الصمت ثم تنحنح فوزي وقال بلهجة ودية:

ـ معلوم، إحنا لازم ندفع.. لكن للأسف ما عملناش حسابنا.

ـ يعنى إيه؟

هكذا سأل الزلباني بتحفز فقال فوزي بلهجة متوسلة:

ـ من فضلك يا زلباني ادفع الحساب وباكر بإذن الله نرجع لك اللي دفعته ونجيب الرهان.

ـ لما أنت ومحمود مفلسين بتتراهنوا ليه؟

ـ تكلم باحترام.

ـ أنا أتكلم براحتي.

ـ تحب أعلمك الأدب؟

كان فوزي يسعى إلى تحويل الأمر إلى مشاجرة لأنه كان واثقا أنه وصديقه محمود، بالرغم من إرهاقهما البالغ وإحساسهما الثقيل

بالتخمة، يستطيعان أن يضربا صدقي الزلباني.. عندئذ سيتحول هذا الموقف العسير إلى مجرد مشاجرة ستنتهي عاجلا أو آجلا إلى الصلح، على أن الأمر تعقد لأن الجرسون استمع إلى حوارهم عن دفع الحساب وأسرع بنقل الخبر إلى المعلم صبحي صاحب المطعم الذي هرع إليهم لاهثا وقال بصوت مرتفع:

ـ الحساب يا أفندية، عليكم ٢٤ طبق كشري حجم كبير.

ظل محمود صامتا بينما ابتسم فوزي وقال:

ـ من عينينا يا معلم صبحي، حسابك ندفعه حالا وعليه بوسة.

ـ البوسة خليها لك يا عين أمك.. أنا عاوز الحساب.

هكذا دمدم الحاج صبحي وقد بدا متحفزا، ضحك فوزي وقال وهو يصطنع المرح:

ـ اوعى تقلق، الحساب مدفوع بإذن الله، بأقولك يا معلم.. أنت طبعا تعرف الأخ صدقي الزلباني؟

راح الحاج صبحي يجيل نظره بينهم وقد اكفهرَّ وجهه وبدا غير مستعد للحديث في أي موضوع غير الحساب، أشار فوزي نحو صدقي وقال:

ـ يا حاج صبحي، أحب أعرفك بصاحبنا صدقي ابن الحاج محمد الزلباني صاحب مصنع الزلباني المشهور للحلاوة الطحينية، أكيد سمعت عنه.

زمجر الحاج صبحي قائلا:

ـ اسمع يا بن الناس، أنا لا أعرف زلباني ولا تلباني، أنا عاوز حساب ٢٤ طبق كشري حجم كبير.

ابتسم فوزي وقال بما يشبه التوسل:

ـ حلمك علينا يا معلم، أخونا الزلباني يدفع لك حالا.

كان الزلباني قد قام من مكانه وقال بصوت مرتفع ليُسمع الحاضرين جميعا:

ـ اسمع يا حاج صبحي.. قال ها الله ها الله على الجد!

رد الحاج صبحي بصوت محشرج:

ـ والجد ها الله ها الله عليه.

ـ أنا اتفقت معك على حاجة؟

ـ لأ.

ـ خلاص يا حاج، حسابك مع اللي اتفق معك، السلام عليكم.

ألقى الزلباني بهذه القنبلة وقام لينصرف، نادى عليه فوزي بصوت يائس:

ـ اسمع يا زلباني.. تعالَ أقولك.

لكن الزلباني تجاهله وخرج من القاعة، اقترب الحاج صبحي من فوزي وصاح:

ـ معلوم، أنت اتفقت وأنت لازم تدفع الحساب.

ـ يا معلم أنا أدفع لك الحساب، اطمئن من الناحية دي، لكن أنا طالب منك مهلة لمدة ٢٤ ساعة.

ـ المهلة دي عند أمك!

كانت هذه إشارة فأحاط بالمائدة فورا خمسة رجال ضخام من عمال المحل، كانوا مدربين على التصرف في مثل هذه المواقف، بدوا وكأنهم يؤدون عرضا مسرحيا أجروا عشرات البروفات عليه من قبل، أمسك المعلم صبحي بفوزي من ياقة القميص وأخذ يشدها فيؤرجح رأسه معها ويصيح:

ـ يا تدفع الحساب يا إما حأخليك تندم على اليوم اللي أبوك شاف فيه أمك.

في محاولة أخيرة، وقفة قبل المنحدر كما يقال، طلب فوزي من الحاج صبحي أن يبعث معه صبيانه إلى دكان أبيه علي حمامة في شارع السد، وسوف يحصل على حسابه كاملا، بانت على وجه الحاج صبحي أمارات التفكير ثم ـ بغير أن يتغير وجهه المتجهم قيد أنملة ـ أشار إلى العمال فشكلوا الموكب الذي خرج من المطعم، محمود وفوزي يحيط بهما العمال وقد وضعوا أيديهم عليهما خوفا من أن يركضا هربا في أية لحظة، نظرًا للقوة الجسدية الهائلة للمعتقلين كان كل واحد منهما ممسوكا بثلاثة عمال، استوقف المارة الموكب أكثر من مرة ليسألوا بفضول مغطى بانزعاج كاذب:

ـ خير يا إخوانا.. فيه إيه؟

عندئذ كان العمال يروون ما حدث بالتفصيل.. بعض المارة كانوا يضحكون والبعض الآخر كانوا يُسدون النصح للشابين؛ رجل خمسيني نحيف يرتدي قبقابا في قدميه وجلبابا أزرق قديمًا باهتًا مهترئًا من عند الكتف، استمع وهو عابس إلى الحكاية ثم تطلع إلى المقبوض عليهما بتوجس وصاح:

ـ أما عيال نصابين ووسخين صحيح.

ثم فجأة، وجَّه صفعة قوية طنت على وجه فوزي الذي رد عليه وهو مقيد بوابل من الشتائم المقذعة، وحاول محمود أن يفلت من قبضة العمال ليضربه، لكن العمال شددوا القبضة عليهما وجرجروهما حتى وصلوا في النهاية إلى دكان علي حمامة.. كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرا وقد جلس الحاج علي حمامة في مكانه الخالد خلف مكتبه العتيق، دخل الجمع من الباب فساد الصمت وأفسح الزبائن لهم الطريق، وقفوا جميعا أمام علي حمامة الذي بربش بقوة ليرى ما يحدث أمامه وصاح بصوت مشروخ:

ـ خبر إيه يا ولد يا فوزي؟

كان فوزي في وضع لا يسمح له بالكلام فأطرق صامتا وكأنه يعلن مقدما الندم على ذنبه، بينما شدد العمال قبضاتهم عليه، تطوع أحد العمال برواية ما حدث بصوت واضح مرتفع ليسمع الحاضرين جميعا، أنصت عم علي حمامة للحكاية ولم يَبْدُ عليه أي انفعال إضافي، ظل وجهه غارقا في السكون الكامل الذي يتعامل به مع العالم.. نهض ببطء من خلف المكتب وتوجه نحو الجمع بخطوة بطيئة عادية تماما كأنه ذاهب إلى دورة المياه.. اقترب من ابنه فوزي حتى صار في مواجهته ووجّه له صفعة قوية طنت في الهواء ثم راح يزأر في غضب:

ـ مش كفاية إنك ساقط وخايب.. كمان تغرَّمني فلوس وأنا قاعد في حالي لا على البال ولا على الخاطر.. آه يا بن الكلب.

حدث هرج ومرج وصياح وشد وجذب وتدخَّل الزبائن للتهدئة

والصلح، لكن علي حمامة، بعد أن صفع فوزي ومحمود أكثر من مرة، استدار إلى عمال محل الكشري وقال:

ـ هم طفحوا كم طبق؟

ـ ٢٤ طبق حجم كبير.

بربش عم علي حمامة بشدة وبدا كأنه لا يفهم وسأل من جديد:

ـ بتقول كم طبق؟

ـ ٢٤ طبق حجم كبير.

مد علي حمامة ذراعيه في الفضاء كأنه على وشك الرقص وحرك أصابع يديه في حركة بذيئة وصرخ بأعلى صوته:

ـ ليه إن شاء الله؟ إن كان المتكلم مجنون يبقى المستمع عاقل؛ ٣ عيال يأكلوا ٢٤ طبق.. تيجي إزاى دي؟!

حاول العمال أن يشرحوا لعلي حمامة موضوع الرهان لكنه أبى أن يفهم أو يستمع وأعلن بوضوح أنه لا يمكن أن يصدق أبدا أنهم أكلوا كل هذه الأطباق.. بعد مفاوضات شاقة تعثرت وتوقفت أكثر من مرة وتدخل الزبائن لاستئنافها، أعلن علي حمامة أنه سيدفع ثمن عشرة أطباق فقط لا غير، ثار العمال ورفضوا العرض فما كان من علي حمامة إلا أن عاد بهدوء إلى مكتبه وتشرنق في صمته، تركهم يصيحون ويطالبون ويجأرون بالشكوى وفي النهاية قال بهدوء:

ـ يا إما تأخذوا حساب عشرة أطباق يا إما تأخذوا العيلين على القسم خلي الحكومة تربيهم.

ثم أشار بيده وقال:

ـ يلّا يا جدع أنت وهو خذوا جنب خلونا نشوف أكل عيشنا.

على مدى نصف ساعة تجاهل علي حمامة مشكلة الكشري تماما، أمر صبيّه فاستأنف البيع في المحل كأن شيئا لم يكن، عاد حمامة إلى الجلوس خلف مكتبه وتعمد أن يتصرف بطريقة عادية ويبدي ملاحظات مفصلة على البيع ليؤكد أنه نسي المشكلة تماما وأنه لا يعبأ بما يحدث، حققت هذه الطريقة هدفها فوجد عمال محل الكشري أنفسهم في ورطة، بدأت أعصابهم تنهار وهرع أحدهم لاستطلاع رأي الحاج صبحي صاحب المطعم في العرض المقدم من حمامة وسرعان ما عاد بالموافقة، أخبروا علي حمامة أنهم قَبِلوا الحساب على أساس عشرة أطباق فقط والعوض على الله، هنا انتقل علي حمامة إلى الخطوة التالية من خطته فأعلن أنه في الوقت الحاضر يفتقر إلى السيولة المالية، ولكن لأنه رجل أمين ويعامل ربنا قبل بني آدم فإنه سيعطيهم حقهم بضاعة، بدأت جولة أخرى أشد من الأولى في الشد والجذب والجدل والصياح وفي النهاية خرج العمال من المحل مُحمّلين بثلاثة برطمانات عسل صغيرة ولفائف متنوعة من الجبن والزيتون والبسطرمة والخيار المخلل.

(١٣)

كان إلحاق عبد العزيز همام بعمل إضافي في النادي مهمة صعبة.. لم يكن لديه أدنى خبرة بالخدمة ولا يُعقل أن يلتحق بمدرسة الخدمة وقد جاوز الخمسين، بالإضافة إلى أن الكوو، من ناحية المبدأ، كان يتجنب قبول أي خادم بناء على توصية لأن الخادم الموصى عليه يكون ولاؤه مزدوجا ويحس بالحماية الزائدة؛ مما يسبب مشاكل، كل ذلك كان كومانوس يعرفه فجرب طريقا جديدا.. ذهب إلى مستر رايت الذي كان بالرغم من غطرسته يخصه بمعاملة طيبة لأنه في النهاية يوناني وليس مصريا، شرح كومانوس لمستر رايت الظروف الصعبة لعبد العزيز وكيف أن مرتبه لا يفي باحتياجات أسرته، ظهرت على وجه رايت ابتسامة خفيفة فيها مزيج من السخرية والحنان كأنه يستمع إلى طفل يردد حماقات، ثم قال بهدوء:

ـ نادي السيارات لا يمكن أن يساعد كل مَن يعاني ضائقة مالية لأننا لسنا جمعية خيرية.

ـ عبد العزيز رجل أمين ونشيط.

ـ الفضل يعود إليك.

ـ كيف؟

ـ المصري لا يعمل أبدا إلا طلبا للثواب أو خوفا من العقاب، الرغبة الذاتية في الإتقان لا وجود لها في العقلية المصرية، عندما يُحْسِن المصري أداء عمله يكون الفضل لمديره الأوربي الذي عرف كيف يروضه.

ـ مستر رايت.. هل تعتبرني صديقا لك؟

ـ طبعا.

ـ أليس من الواجب أن يسدي المرء خدمات صغيرة لأصدقائه بين الحين والحين؟

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ أريد أن يعمل عبد العزيز مساعدا لسليمان البواب.

ـ دعنى أفكر في الأمر.

ـ سليمان البواب جاوز السبعين وهو يحتاج إلى مساعد.. المطلوب أن تسمح لعبد العزيز بأن يقف على باب النادي مع سليمان، لن يصرف له النادي مرتبا إضافيا لأنه سيعتمد على بقشيش الأعضاء.

فكر رايت لحظات ثم نفث دفعة دخان كثيفة من غليونه وقال:

ـ أنا موافق بشرط.

ـ ما هو؟

ـ لا أريد أن أسمع عن هذا الشخص مرة أخرى.. لو تسبب في أية مشكلة سأطرده من النادي ولن تأتي عندئذ لتدافع عنه.

ـ أعدك بذلك.

هز رايت رأسه موافقا ونهض كومانوس وشكره بحرارة ثم صافحه واستدار خارجا، لكنه وقبل أن يفتح الباب التفت إليه قائلا:

ـ هل يجب عليَّ أن أخبر الكوو؟

رمقه مستر رايت بنظرة مستنكرة وقال:

ـ عندما يوافق مدير نادي السيارات، لا أظنك تحتاج إلى موافقة رئيس الخدم.

كانت هذه بالضبط الإجابة التي أرادها كومانوس؛ معنى ذلك أن مستر رايت سيتولى إخبار الكوو الذي لن يجرؤ على الاعتراض، سَعِدَ كومانوس بنجاح مهمته وعاد ليبشر عبد العزيز الذي شكره بحرارة، في اليوم التالي خرج عبد العزيز لأول مرة ليقف على بوابة النادي كان يعرف سليمان البوّاب لأنه من قرية كوم أمبو المجاورة لبلدته دراو في الصعيد، بالرغم من الود الذي يربط بينهما إلا أن عبد العزيز كان يعرف بخبرته أن أكل العيش عادة ما يفرض قواعد جديدة حتى بين الأشقاء. أحسن سليمان استقباله وبدا سعيدا بوجوده، وفي نهاية اليوم تأكد لعبد العزيز أن العمل على البوابة لا يحتاج لمهارة.. كانت مهمة سليمان رمزية تماما؛ بروتوكولية بالتعبير الدبلوماسي؛ يجلس على الدكة في الشارع بجوار باب النادي وما إن تلوح سيارة أحد الأعضاء من بعيد حتى يقفز من مكانه ويهرع نحوها.. يفتح الباب وينحني أمام البك ويقول بكل ما يمكنه من تبجيل:

ـ «شرفت يا سعادة البك».

عندئذ ينزل البك من سيارته وهو في حالة من الخيلاء تجعله لا ينظر مباشرة إلى سليمان، يبدو البك دائما مشغول الفكر مترفعا عما يحدث

حوله، لكنه مع ذلك يمد يده بالبقشيش إلى سليمان الذي ينحني ليلهج بالشكر والدعاء ويظل يقفز خلف البك حتى يوصله إلى المصعد، هكذا يحتفي سليمان بأعضاء النادي عند توافدهم في بداية السهرة، وفي نهايتها لا بد أن يودعهم.. يقف في مدخل النادي وما إن يخرج البك من المصعد حتى يهرع نحوه منحنيا ويهرول أمامه ثم يفتح له باب السيارة ويتلقى بقشيشا يكون في العادة مضاعَفًا لأن الزبائن عندئذ تتملكهم أريحية الخمر، أما الذين أفرطوا في الشراب فإن سليمان يرعاهم وإذا هاجوا يسيطر عليهم بطريقة حازمة ومهذبة ولا يتركهم حتى يوصلهم بأمان إلى سياراتهم، وهو يفعل كل ذلك بغير أن يتجاوز حدوده.. مهما فقد البك المخمور وعيه وصاح وشتم وارتكب حماقات، حتى لو ترنح فسنده سليمان بيديه، حتى لو حمله سليمان على كتفه كالطفل.. لا بد أن يفعل كل ذلك باحترام عميق حتى يظل البك السكران محتفظا بكرامته فلا يستيقظ في اليوم التالي ويستشعر الإهانة فيُنكِّل به، قضى عبد العزيز عدة أيام في مراقبة سليمان وهو يعمل ثم انتهز الفرصة وهما جالسان على الدكة معا وقال بهدوء:

ـ أنا هأكلم كومانوس يشوف لي شغلة تانية.

ـ ليه يا عبد العزيز؟ حد زعلك؟

هكذا صاح سليمان بانزعاج، لكن عبد العزيز ابتسم بتسامُح وقال:

ـ العفو، أنت ما قصرت يا سليمان، لكن الشغلة على قدك، أنا ما ليش مكان هنا على البوابة.

رفض سليمان بشدة وأصر أنه يحتاج إلى مساعدة عبد العزيز، وأكد له أن البقشيش لن ينقص بل سيتضاعف لأن الرزق على الله.

بعد أَخْذ ورد ونِقَاش اتفقا على طريقة العمل؛ عندما يهرع سليمان إلى استقبال أحد الأعضاء يتبعه عبد العزيز ويقف خلفه بقليل ويحاكي ما يفعله، ينحني أمام البك ويتمتم بكلمات الترحيب ذاتها، نفذ عبد العزيز الخطة لبضعة أيام لكن أحدا من الأعضاء لم يلتفت إليه إطلاقا، كانوا يتعاملون مع سليمان ويتجاهلون عبد العزيز تماما كأنه غير موجود، استغرب عبد العزيز لكن سليمان أكد أن ذلك طبيعي في البداية لأن الأعضاء لا يعرفونه، استمر تجاهل الأعضاء لعبد العزيز أسبوعا كاملا مما جعل سليمان يقترح عليه تبادل الأماكن، صار عبد العزيز يهرع إلى السيارة ويفتح الباب وينحني مُرحبا بالبك بينما يقف سليمان في الخلفية، الغريب أن معظم الأعضاء استمروا في تجاهل عبد العزيز، كانوا يتحاشون النظر إليه وهو منحنٍ أمامهم ثم يتخطونه إلى سليمان الذي يقف خلفه ويمنحونه البقشيش، ما الذي جعل أعضاء النادي يتجاهلون عبد العزيز؟

غالبا لأنهم لا يرتاحون إلى شكله.. ربما بسبب قامته الكبيرة ونظراته القوية المستقيمة، ربما لأنه لا يعطي الانطباع بأنه خادم، لأنه لم يكن يرسم على وجهه ذلك التعبير المذعِن المتوسِّل الذي يصطاد به الخدم البقشيش، عندما ينحني عبد العزيز أمام الزبائن يبدو وكأنه يؤدي دورا تمثيليا، كأنه يتظاهر بالإذعان بينما هو ند للزبون الذي ينحني أمامه.. فشلت الفكرة وامتنع عبد العزيز عن استقبال الأعضاء بنفسه وعاد إلى مكانه خلف سليمان.. في نهاية الأسبوع فاجأه سليمان وأعطاه جنيهين، رفض عبد العزيز.. لكن سليمان دسَّ المال في جيبه عنوة وصاح:

ـ عليَّ الطلاق لازم تأخذ حقك.

ـ حقي كيف؟ أنا لا أعمل شيئا.

ضحك سليمان وقال:

ـ ولا أنا أعمل شيئا.. نحن نجري ونفتح الأبواب ونغلقها.

اعترض عبد العزيز.. لكن سليمان قال بلهجة حاسمة:

ـ ده رزق عيالك يا عبد العزيز.. أنت الثلث وأنا الثلثين.

صار عبد العزيز ينتهي من العمل في المخزن ثم يذهب ليجلس بجوار سليمان، يتحدث ويشرب الشاي، وأثناء استقبال الأعضاء يقف خلفه ثم آخر الأسبوع يأخذ رزقه؛كان مكسبه لا بأس به، وكان سليمان يحسن معاملته، لم يكن لدى عبد العزيز ما يشكو منه.. لكن شيئا في أعماقه ظل يوخزه.. شيء مؤلم يلح دائما عليه فيسعى للهروب منه بالثرثرة مع سليمان والضحك المبالغ فيه أحيانا، ثمة حقيقة كانت تملأ نفسه بالأسى؛ أنه يُهان، يفقد كرامته. كلما انحدر وتصور أنه بلغ نهاية المدى اكتشف أن عليه أن ينحدر أكثر.. لقد ترك دراو بعد أن فقد كل ما يملك وجاء إلى القاهرة، وقبل أن يعمل في المخزن ظل يُقنع نفسه بأن العمل مهما كان بسيطا يُشرِّف صاحبه، لكنه الآن يتحول إلى خادم، هل يستطيع أن يصف ما يفعله بطريقة مختلفة؟ إنه خادم؛ يفتح الأبواب وينحني ويقف في الشارع ليتسول البقشيش من السادة كأنه شحاذ يتسول الصدقة.. يا لها من نهاية للوجيه ابن العز سليل الهمامية، لقد قضى أعواما يجود بصدقاته على المحتاجين الذين يصطفون في انتظاره عندما يخرج من بيته في دراو، ها هو الآن يعبر إلى الضفة الأخرى، ينتقل إلى صف المحتاجين ويتسول البقشيش، كان يعزي نفسه بأنه لن يحتمل هذا الوضع طويلا، بعد شهور سيتخرج ابنه سعيد في مدرسة الصنائع وبعد عامين فقط سيحصل ابنه كامل على ليسانس الحقوق، عندئذ سيكون بإمكانه أن يعتمد على ولديه ويكتفي بعمله في المخزن، وربما

يتقاعد باحترام، استمر عبد العزيز في العمل على البوابة ثلاثة أسابيع قابل خلالها الكوو عدة مرات، كان الأمر يتم دائما على نفس النحو: ما إن تلوح سيارة الكوو الكاديلاك السوداء من بعيد حتى ينتبه سليمان ويقفز من مكانه، يهرع بأقصى ما يستطيعه من سرعة ليفتح الباب، بينما يقف خلفه عبد العزيز.. ينزل الكوو بتمهل ملكي فيتجاهل عبد العزيز ويطالع سليمان بنظرة عابرة ساهمة وتصدر عنه إيماءة خفيفة تعتبر بمثابة تحية، مرة كان مزاجه رائقا فقال شيئا لسليمان وهو ينزل من السيارة، تمتم بجملة لم يسمعها أحد بوضوح، قد تكون «مساء الخير» أو «كيفك يا سليمان؟». عندئذ انتابت سليمان سعادة غامرة، الكوو لا يتحدث مع الخدم في غير إصدار الأوامر والتوبيخ، أي كلمة يتفوه بها غير ذلك تعتبر إشارة خير، لم يكن ظهور الكوو يصيب عبد العزيز بالرعب كما يحدث مع بقية الخدم، كان عبد العزيز ينحني للكوو باحترام ولكن بثبات،كان يقول لنفسه: «لماذا أخاف منه؟ أنا لم أفعل ما يستوجب غضبه».

كان عبد العزيز في أعماقه يُحس بأنه لا ينتمي إلى نادي السيارات، لقد اضطر إلى العمل هنا مؤقتا، إنه أشبه بمسافر يركب عربة في قطار، مهما كان الركاب مزعجين يجب أن يتحملهم لأنه في لحظة ما سينزل في محطته ويفارقهم إلى الأبد، أضف إلى ذلك أن وساطة كومانوس توفر له حماية مؤكدة؛ لأن الكوو على الرغم من جبروته وقسوته تنكسر إرادته فورا أمام الأجانب.

هذا الإحساس بالثقة وانعدام الرهبة هل لاحظه الكوو على عبد العزيز؟ هل شعر الكوو بأن عبد العزيز يحييه باحترام خالٍ من الخضوع؟ هل رأى في وجهه تعبيرا ما يعكس اعتزازه بكرامته؟ هل غضب الكوو لأن كومانوس ألحق عبد العزيز بالبوابة عن طريق مستر

رايت بدون الرجوع إليه فأضمرها في نفسه؟ هل كان الكوو معتكر المزاج في تلك الليلة؟

كل هذه الأسئلة ستظل بلا إجابة.. وقعت الواقعة وتركت مائة طريقة لتفسيرها..كان ذلك في منتصف الليل، وصلت سيارة الكوو فأحدثت الهرج والمرج المعتاد، هرع نحوه سليمان ومن خلفه عبد العزيز.. عندما انفتح باب السيارة أحس عبد العزيز على نحو غامض بأن الهواء صار ثقيلا، خيل إليه أن إيقاع الحياة المعتاد قد انقطع وبدأ إيقاع آخر غامض ومقبض.. نزل الكوو من سيارته لكنه بدلا من أن يعبر سليمان وعبد العزيز بنظرة سريعة ويدخل إلى النادي كما يفعل كل مرة، توقف عن السير وتطلع إليهما وبجواره حميد بجسده السمين الرجراج، ساد صمت متوتر.. راح الكوو يتفحص عبد العزيز بنظره وكأنه يرى مخلوقا غريبا لأول مرة ثم أشار إلى عبد العزيز وصاح باستنكار:

ـ من الولد ده؟

كان السؤال مفاجئا، نافرا، قاطعا كنصل، يحطم القواعد بضربة واحدة ويعود بكل شيء إلى نقطة الصفر.. كان الكوو يعرف عبد العزيز جيدا وقد رآه من قبل مرارا، فلماذا ينكره الآن، ولماذا هذا الصوت الغاضب وتلك النبرة الاستنكارية؟ أحس عبد العزيز بصداع وبرودة في كفيه وبدأ يتنفس بصعوبة، ارتبك سليمان ولاذ بالصمت، عندئذ صرخ الكوو بصوت كالرعد:

ـ من الولد ده؟ انطق يا سليمان.

انتاب الرعب سليمان وخرج صوته متقطعا مرتعشا:

ـ يا جناب الكوو، ده خَدَّامك عبد العزيز همام شغال مساعد مخزن

مع مسيو كومانوس، يجيء لمساعدتي على البوابة حتى يسترزق لأنه غلبان وصاحب عيال.

ظل الكوو يتفحص عبد العزيز كأنه لم يسمع ما قاله سليمان، بدا وقد تزايد غضبه ربما لأن عبد العزيز لم يرتعد خوفا ولم يهرع نحوه ليقدم فروض الطاعة أو ربما لأن سليمان بدا متعاطفا مع عبد العزيز، وفي عُرف الكوو أن التعاطف تضامُن والتضامن خطوة نحو التمرد.. زفر الكوو بقوة فالتقط حميد الإشارة فورا مثل كلب صيد مدرب، دنا حميد من عبد العزيز حتى أصبح يواجهه تماما ثم اتسعت عيناه بنظرة متحفزة كارهة وقال بصوته الرفيع الثعباني:

ـ معك مفتاح المخزن يا جدع أنت؟

أجفل عبد العزيز لأن حميد يعرف اسمه جيدا كما أنه أحس بغصة لأن واحدا في سن أبنائه يكلمه بهذه الطريقة، لم يرد عبد العزيز، استطرد حميد ممعنا في الإهانة:

ـ أنت أطرش؟ أنا بأسألك معك مفتاح المخزن؟

ـ نعم.

هكذا قال عبد العزيز وهو يجهد ليسيطر على مشاعره، تفحصه حميد من جديد بنظرة مستهجنة وقال:

ـ اجري هات لسيدك الكوو علبة سيجار هابانا.

لم ينطق عبد العزيز، استدار بسرعة متوجها إلى المخزن.. كان يعرف مكان السيجار وأراد أن يحضره ليهرب من الموقف، أحس بأن الإهانات ستزداد لو ظل واقفا.. قبل أن يخطو خطوة واحدة صاح حميد بصوت عالٍ:

ـ تعرف السيجار الهابانا ولا أنت حمار؟

هنا، قال عبد العزيز بصوت مرتفع:

ـ أنا مش حمار، أنا بني آدم مثلك.

زفر حميد وبدا كأنه استراح، كأنه أحرز هدفا، صاح وهو يقترب من عبد العزيز:

ـ أنت حمار وقليل الأدب، أنا حأعرف أربيك.

كامل

عرفت ما حدث في ذلك اليوم بالتفصيل.

استدعى حميد لبيب التليفونيست وإدريس السفرجي، أمسك الاثنان بأبي وقَيَّدا حركته ثم تقدم حميد وراح يصفعه.

صاح أبي:

ـ ليس من حقك.. ليس من حقك.

أكد لي شهود الواقعة أن حميد صفع أبي بقوة عدة مرات حتى نزف من أنفه، بعد أن انصرف الكوو وحميد اجتمع الزملاء حول أبي، أجلسوه على مقعد وأحضروا فوطة مبللة راحوا يمسحون بها الدم من وجهه، راح إدريس ولبيب يواسيان أبي، كانا يشعران بالذنب لأنهما اشتركا في تقييده، قال إدريس بصوت خافت:

ـ ولا يهمك يا عم عبد العزيز.. كلنا حدث لنا مثلك، ياما الكوو ضربنا.

هز أبي رأسه ولم يرد، احتضنه إدريس وهمس:

ـ والنبي إياك تزعل مني؛ أنا عبد المأمور.

قال لبيب بصوت عالٍ:

ـ الكوو ساعات يبقى شديد علينا، إنما قلبه أبيض وبيخاف علينا كأنه أبونا.

كانت هذه الجملة من باب الاحتياط؛ لو نَقل أحد للكوو مواساتهم لأبي سيكون بمقدور لبيب أن يدافع عن نفسه.. لم يتكلم أبي كثيرا، غمغم ببضع كلمات بما يعني أنه غير غاضب من زملائه، صافحهم مُودِّعا وبدا كأنه يتعجل العودة إلى البيت.. بناء على رواية أمي، عاد أبي حوالي الثانية صباحا.. غَيَّر ملابسه وتوضأ وصلى ثم جلس ليتناول العشاء، لاحظت أمي أن وجهه مكفهر، سألته فقال إنه متعب ويريد أن ينام، دخلت أمي إلى المطبخ وأعدت له كوبا من الليمون بالنعناع، ولما عادت إلى الصالة وجدته جالسا إلى المائدة وأمامه صينية العشاء كما هي لم تُمس، كان رأسه منزاحًا إلى الخلف قليلا.. اقتربتْ منه، هزته بيدها ونادته فأصدر حشرجة خافتة، كانت عيناه نصف مفتوحتين، صرخت أمي واندفعت تستغيث بالجيران، جاءت أبلة عائشة فورا وبللت قطنة بالنشادر ووضعتها أمام أنفه ثم صنعت كوب ماء بسكر وراحت تسكبه في فمه، بعد حوالي نصف ساعة وصلت عربة الإسعاف، كشف الطبيب على أبي بعناية ثم أعلن أنه فارق الحياة، مات أبي وهو لم يتجاوز عامه الواحد والخمسين، سقط فجأة، قاتل بشرف وشجاعة حتى تلقى ضربة قاصمة لم يحتملها، ظللت لفترة لا أصدق، اعتبرت موت أبي خبرا مختلقا سخيفا سرعان ما سيتبين كذبه، كان في موته بهذه الطريقة نوع من العبث.. من الغدر، مخالفة صارخة للقواعد، إلغاء مفاجئ للاتفاق

من جانب واحد، ليس من العدل أن تبني حياتك كلها على وجود شخص ثم تفاجَأ باختفائه بلا إنذار ولا سبب.. لم أبكِ أبي إلا بعد شهور من وفاته، كان حزني أكبر من قدرتي على التعبير، كنت مأخوذا، كأنني مسحور.. الصدمات القوية التي تنقَضّ فجأة على رءوسنا كالصواعق، تحتاج إلى وقت حتى نستوعبها.. قد تستغرق سنوات حتى تدرك معنى موت أبيك، أن يموت أبوك معناه أنك أصبحت في العراء، مكشوفا، وحيدا، ضئيلا، بلا سند، هدفا سهلا متاحا لكل الضربات، ستشعر بأن القدر يحيط بك تماما، يُظللك كطائر الرخ الخرافي، ستدرك أن ما حدث لأبيك ليس بعيدا عن أحد، ما أغرب أن ترى أباك في الصباح وتتحدث وتضحك معه ثم تعود في المساء فتجده جثة وتواريه التراب في اليوم التالي، سيدهشك أن أباك؛ ذلك الكائن الراسخ الذي شَكَّل دائما عمود حياتك قد تحول فجأة إلى ذكرى وها أنت تتحدث عنه فتضيف جملة «الله يرحمه».

في جنازة أبي انتابني برود غريب، كأنني أراقب ما يحدث من خلف حاجز زجاجي سميك، حرصت على أن أنزل مع جثمان أبي إلى القبر، كأنني أتحدى ما يحدث، كأنني أمضي بالحدث إلى نهايته، كأنني أضغط بقوة على الجرح حتى أحس بذروة الألم.. احتوتني ظلمة القبر فأحسست بالدهشة، استغربت.. رُحت أتأمل تلك الحفرة المظلمة الرطبة، هنا المحطة الأخيرة، نهاية الخط.. كل هذا الصراع العنيف الضاري الذي نخوضه مآلُه في النهاية هذه الحفرة.. هنا يستوي كل شيء، السعادة والشقاء.. الفقر والغِنَى.. الجمال والقُبح، إن قدرتنا على الحياة مرتبطة بنسياننا للموت، لو استحضرنا الموت بعمق، لو فكرنا أن الموت احتمال دائم من الوارد وقوعه في أية لحظة.. لما استطعنا أن نعيش يوما واحدا.

بموت أبي انطوت صفحة من حياة أسرتنا لتبدأ صفحة جديدة.. باستثناء سعيد الذي يدور دائما في مداره الخاص تغيرنا جميعا، انكسرنا، صرنا يتامى. هل اليُتْم فقدان الأب والأم أم أنه إحساس أم ملامح أم سلوك.. أم أنه كل ذلك؟

خلال الأيام الأولى بعد الوفاة كانت أمي تبكي أبي بلا انقطاع، تُوجه حديثها إلى أبي كأنها تراه:

ـ لماذا تركتنا وحدنا يا عبده؟

كانت تُعاتبه كأنها غاضبة منه، كأنه قرر أن يموت، شيئا فشيئا استنفدت أمي دموعها وصراخها ثم همدت، تغيرت هيئتها، جفت.. اخشوشنت.. تصلبت.. نضب ماؤها.. تحولت من زوجة إلى أرملة.. تلك اللمحات البراقة الناعمة التي كانت تفلت منها في ساعات الرضا فتعلن عن أنوثتها، اختفت إلى غير رجعة وتركت مكانها صرامة مشوبة بمرارة، اكتسب وجهها الأسمر الجميل تعبيرا حانقا متحفزا كأنها خدعت بقسوة ولن تسمح بتكرار ذلك أبدا، عدت من الجامعة ذات مساء فبادرتني قائلة:

ـ جهز نفسك غدا؛ سنذهب معا إلى نادي السيارات لنحصل على حقوق المرحوم.

في اليوم التالي ذهبت مع أمي إلى مكتب مستر جيمس رايت مدير نادي السيارات، أثار مَرْآنا مشاعر حزن صادقة من العاملين في النادي، صافحتهم واحدا واحدا، كان أبي قد عرفني إليهم أثناء زياراتي للنادي. جاءوا جميعا لتعزيتنا؛ البوابون.. السفرجية.. الخواجة كومانوس.. المتر شاكر.. يوسف طربوش حتى ركابي الطباخ، هرع إلينا بزيه الأبيض

وغطاء رأسه الكبير، صافح أمي واحتضنني بتأثر، في ترحيبهم وتعازيهم كان هناك شيء ما معلق في الهواء، جملة محذوفة لا يقولونها أبدا لكنها تبدو في وجوههم.. أشجعهم كان بحر البارمان الذي قال وهو يشد على يدي:

ـ الله يرحم أباك، خسارتنا فيه كبيرة، كان رجلا بمعنى الكلمة.. الله يجازي مَن ظَلَمه.

تلقانا مستر رايت في مكتبه بود محسوب، انحنى وصافح أمي معزيا ثم أشار إلينا بالجلوس.. كان يتكلم ببطء ويضغط على مخارج الحروف ليجعل لغته العربية الركيكة مفهومة، أحسست منذ اللحظة الأولى أن حضوره بارد، بعيد، يكاد يكون ذهنيا، بلا أحاسيس. أدركت أنه قد وضع إطارا محددا صارما للقائه معنا.. جلست في المقعد البعيد بينما جلست أمي أمامه وبادرته بنبرة جادة مقتضبة:

ـ جئنا إليك لتدلنا كيف نحصل على حقوق المرحوم المالية.

وكأنه كان ينتظر السؤال، أجاب فورا:

ـ من حقكم مكافأة نهاية الخدمة.. سوف أبعث بها إليكِ في البيت خلال يومين على الأكثر.

زمّت أمي شفتيها وتطلعت إلى وجه مستر رايت بانتباه كأنما تستشف الغرض من الجملة الأخيرة ثم سألت:

ـ وماذا عن معاش المرحوم؟

ـ للأسف.. لا يوجد معاش.

هكذا رد رايت وهو يسدد إلينا بعينيه الزرقاوين نظرة ثابتة كأنه مستعد لأي رد فعل، سألَته أمي:

ـ لقد عمل المرحوم في النادي أكثر من خمس سنوات، كيف تتركون أولاده بدون معاش؟!

ـ سوف نعطيكم مكافأة.

ـ المكافأة مهما كانت قيمتها ستنفد بعد أيام أو شهور، من حقنا أن نأخذ المعاش.

أعجبني أن أمي لم تتوسل ولم تتسول، جاءت تطالب بحقها مرفوعة الرأس، احتقن وجه رايت وقال بلهجة مَن أوشك صبره على النفاد:

ـ كنت أحب أن أساعدك لكني مقيد بلائحة نادي السيارات التي لا تنص على أي معاش.

ـ هذه لائحة ظالمة.

ـ ربما تكون لائحة ظالمة لكننا لا نستطيع مخالفتها.

ابتسمَت أمي ساخرة وقالت:

ـ هل نزلت اللائحة من السماء؟

تطلع إليها رايت بضيق، أشار بإصبعه وقال محذرا:

ـ من فضلك.

لم تأبه أمي لتحذيره وعلا صوتها غاضبا:

ـ عندما تموت أنت ألن يدفع النادي معاشا لأولادك؟!

كان السؤال مفاجئا لرايت لكنه سرعان ما استوعبه، بدا على وجهه تعبير قاسٍ وقال بصفاقة:

ـ نعم سيكون هناك معاش لأسرتي عندما أموت، أما أنتم فليس لكم معاش، من حقكم فقط مكافأة نهاية الخدمة.

ـ لماذا؟

ـ لأن نادي السيارات لا يدفع معاشا للمصريين.. هناك معاش للأوربيين فقط.

ـ أليس المصريون بشرا مثل الأوربيين؟ ألا يحتاج أولادهم إلى مصروفات مثل أولاد الخواجات.

ـ قد يكون ما تقولينه صحيحا، لكن الأوربيين هم الذين اخترعوا السيارات، وهم الذين أدخلوها إلى مصر، وهم الذين علموا المصريين كيف يستعملونها، الأوربيون هم الذين أنشئوا نادي السيارات وهم الذين يديرونه، بينما يقتصر دور المصريين على الخدمة والحراسة.. لا يمكن إذن أن يتساوى الأوربيون والمصريون في الحقوق.

مرت لحظة صمت وأحسست أنني أمقت مستر رايت من كل قلبي، نهضَت أمي من مكانها وقالت بصوت منفعل:

ـ سوف أحصل على معاش زوجي وسوف ترى بنفسك.

ـ أتمنى لكِ حظا سعيدا.

ـ سنحصل على حقوقنا في المحكمة يا خواجة.

في هذه اللحظة بدا ما يحدث كثيرا على رايت فصاح فجأة:

ـ هل تهددينني؟

ـ أنا لا أهدد، أنا فقط أخبرك بما سوف أفعله.

خرجت أمي غاضبة وأنا خلفها، في مدخل النادي كان في انتظارنا بعض العاملين، حكت أمي لهم ما حدث فأظهروا جميعا تعاطفهم، قال بعضهم إن إدارة نادي السيارات تَعتبر دائما المصريين أقل من الأجانب، لاحظت أنهم، بالرغم من تضامنهم الصادق معنا، كانوا يُعبرون عن أفكارهم بحذر حتى إن بعضهم كان يُخفض صوته وينظر حوله بقلق وهو يتكلم، بالرغم من غضبي الشديد على مستر رايت إلا أنني كنت مفتونا بأمي، عاودني نفس الإحساس الذي كان ينتابني وأنا طفل صغير عندما أذهب معها إلى السوق فأفزع من الضجيج والزحام وأتعلق بطرف ثوبها، أحتمي بها حتى أطمئن.. رأيت لأول مرة أمي الأخرى؛ المرأة الصعيدية التي تخبئ تحت حنانها الغامر كائنا صخريا مستعدا للقتال ببسالة إلى النهاية مهما تكن العواقب، في الأيام التي أعقبت لقاءنا برايت مارستْ أمي حياتها بطريقة عادية لكن وجهها كان يعكس أنها مشغولة بفكرة ما لا تفارقها، كأنها تُرتب في ذهنها خطتها، خطوة خطوة بعناية.. بعد أيام، أخذتني إلى محام من أقاربها ليتولى رفع الدعوى ضد نادي السيارات، فاتتني محاضرات صباحية عديدة وأنا أدور معها في مكاتب حكومية لتحصل على أوراق ومستندات خاصة بالقضية، لسبب ما كنت واثقا أن أمي سوف تنتصر، بعد نحو شهر من لقائنا بالمستر رايت فوجئتْ أمي باتصال من الخواجة كومانوس، قال إنه يريد مقابلتها لأمر مهم، حددت له موعدا في اليوم التالي الساعة الخامسة، انتظرناه جميعا، أنا وسعيد وأمي وصالحة، حتى محمود ارتدى أفضل ما لديه من ثيابه وانتظر معنا في حجرة الجلوس.. في الموعد المحدد بالضبط، رن الجرس وفتحت الباب فوجدت مسيو كومانوس أمامي.

(١٤)

في سنوات قليلة، تحول مَلك مصر من شاب مستقيم مجتهد يعلق عليه مواطنوه آمالا عريضة في نهضة بلادهم، إلى شخص مستهتر كسول مستسلم لشهواته، ينام الفجر ويصحو العصر ويقضي الليل بطوله في لعب القمار في نادي السيارات أو العربدة في ملهى الأوبرج حيث يدعو إلى المائدة الملكية مجموعة من الراقصات والمغنيات ويختار منهن مَن يصطحبها إلى القصر لتبيت معه، تمَلَّك الملك هوس جنسي جعله يخصص قاعة كاملة في قبو قصر عابدين لمشاهدة الأفلام الإباحية المستوردة خصيصا من أجله، انخرط جلالته بكل عنفوانه في علاقات نسائية عديدة متنوعة كأن ظمأه يتجدد ولا يرتوي أبدا، عرف الملك كل الأنواع: بنات من الطبقة الراقية وزوجات مسئولين كبار وراقصات وممثلات، هذه النزوات الملكية المحمومة المنفلتة، كثيرا ما أدت إلى فضائح مجلجلة وأحيانا إلى أزمات دبلوماسية (كما حدث في أعقاب فضيحة جلالته مع زوجة الملحق العسكري الفرنسي).. كان ضباط الحرس الملكي يتخذون احتياطات مشددة لمنع تصوير الملك في أوضاع لا تليق بجلالته، كثيرا ما قبضوا على المصورين المتسللين وحطموا كاميراتهم وفتشوهم، بل وضربوهم أحيانا حتى يُخرجوا ما خبئوه من أفلام، على الرغم من ذلك فإن سلوك الملك المشين فاحت رائحته داخل مصر وخارجها؛ بالأخص بعد أن طلبت جلالة الملكة الطلاق وحصلت عليه مما أكد للمصريين أن كل ما يتردد عن

انحرافات ملكهم صحيح.. وقد وجدت الصحافة العالمية في الفضائح الملكية مادة ثمينة لتسلية القراء الذين يسعدهم أن يتابعوا مغامرات سلطان شرقي عربيد تعيد إليهم روح ألف ليلة وليلة الغرائبية الساحرة.

السؤال الذي تردد وحاولت تقارير السفراء الغربيين الإجابة عنه: كيف ولماذا انهزم الملك الشاب بهذه السرعة أمام شهواته؟

هناك أكثر من إجابة محتملة: ربما يكون السبب أن الملك تولى الحكم وهو صغير السن بلا تجربة، كما أنه لم يُكمل تعليمه وقد وجد من أفراد حاشيته مَن يشجعه على الانحراف ليضمن السيطرة عليه، ربما انغمس الملك في شهواته لينسى الصدمة التي زلزلت كيانه عندما رأى أمه بعد موت أبيه تترك العنان لنزواتها وتنتقل بسرعة من عشيق لآخر؛ حتى إنه ضبطها ذات ليلة بنفسه في فراش رئيس الديوان الملكي، ربما يكون تهافته على النساء تعويضا للنقص: إذ تعرض جلالته من سنوات لحادثة مروعة عندما ارتطمت سيارته الملكية بسيارة نقل عسكرية بريطانية.. ظل الملك آنذاك فاقدًا الوعي يومين كاملين يتأرجح بين الحياة والموت، ثم أُجريت له ثلاث عمليات على يد جراح بريطاني شهير تم استدعاؤه من لندن فاستطاع أن ينقذ حياته بأعجوبة، يقولون إن تلك الحادثة تركت أثرا على أداء الملك في الحب فصار دائما يبلغ الذروة قبل أن ترتوي شريكته، ربما جعله هذا النقص أميل إلى مصاحبة الجميلات في الأماكن العامة ليثبت لنفسه وللناس أن فحولته لم تتأثر.

مهما يكن السبب فإن النتيجة واحدة، صار الملك فاسدا عربيدا وتغيرت حاشيته المقربة، انسحب معظم الرجال المحترمين والتف حوله مجموعة من الباشوات المُستعِدّين لفعل كل ما يريده مهما يكن منافيا للشرف، هؤلاء كانوا يتعمدون الخسارة لصالحه في البوكر ثم

يكسبون بالطبع أضعاف ما خسروه في صورة امتيازات يمنحها لهم الملك وتُدر عليهم الملايين، أما في عالم النساء فكانت غزوات الملك عادة ما تتردد مقرونة باسم شخص واحد:

كارلو بوتشيللي؛ إيطالي في منتصف الخمسينيات من عمره، من مواليد شبرا، درس الميكانيكا في معهد «دون بوسكو» والتحق بالخدمة في قصر عابدين كميكانيكي سيارات، بحكم عمله كان بوتشيللي يرافق المواكب الملكية تحسبا لتعطل أي واحدة من السيارات الملكية، التقى بوتشيللي بالملك صدفة عندما تعطلت سيارته البويك ذات مرة بينما هو في طريقه لرحلة صيد في الفيوم، كان لقاء بوتشيللي بالملك نقطة فارقة، لحظة تحول، لا يعرف أحد ماذا دار بينهما، لكن الميكانيكي البسيط تحول خلال أسابيع إلى أحد المقربين إلى مولانا، وبعد سنوات معدودة أصبح ثريا يمتلك أطيانا وشركات وأنعم الملك عليه بلقب بك، طلق بوتشيللي الميكانيكا إلى غير رجعة وأصبح معروفا بمهنته الأخرى: قَوّاد الملك.

الحقيقة أن لفظ قواد هنا غير دقيق ولا منصف.. لم يكن بوتشيللي مبتذلا أو دنيئا أو مبتزا مثل القوادين الذين نراهم في بيوت الدعارة والملاهي الليلية، كان بوتشيللي بمعنى ما فنانا، ذواقة، خبيرا حقيقيا بالمرأة، اختصاصي في أنواع الجمال وفنون الفراش، بنظرة واحدة خبيرة، متفحصة ثاقبة، كان بمقدوره دائما أن يلتقط المحظية المناسبة للملك، كان يعرف بالضبط ماذا يريد الملك من النساء، ثمة إحساس غامض لكنه مؤكد، إلهام ما، هو ما يدفع بوتشيللي إلى اصطحاب امرأة معينة إلى مخدع الملك، ينتقيها هي بالتحديد ويترك نساء ربما يَكُنَّ أجمل منها، يدرك بوتشيللي أن الذائقة الملكية ليست ثابتة لكنها تتغير وفقا لسن المرأة ووسطها الاجتماعي، في سن العشرين، مثلا، يفضل

الملك القامة الباريسية الرشيقة الضامرة، يجب أن تبدو المرأة وكأنها غلام أمرد أو طفلة على أعتاب الأنوثة، لا صدر ناهد ولا مؤخرة بارزة، يجب ألا يبدو في زينتها أو ملابسها أو كلامها أو حركاتها أي شيء يدل على مكر أو خبرة، سوف تكسب المرأة العشرينية قلب الملك بقدر ما تبدو ساذجة ونقية، المرأة من هذا النوع كان بوتشيللي قبل لقائها بالملك ينصحها بأن تكون على طبيعتها ويحذرها من الحذلقة أو اصطناع خبرة لا تملكها، كان يهمس في أذنها بابتسامة ثعبانية ونبرة قارحة:

ـ سيبي نفسك لمولانا، جلالته عارف إنك صغيرة بلا خبرة وهو سيتعامل معك بكرم وصبر.

كانت متعة الملك هنا تتحقق بإفساد البراءة، كان شعوره بأنه يهتك حياء فتاة بريئة ويدنس جسدها يضاعف من شهوته ويحقق له لذة عارمة.

بالنسبة للمرأة الثلاثينية أو الأربعينية كان مزاج الملك على النقيض تماما: في تلك السن يستهويه جمال البحر المتوسط، المرأة الفارعة الممتلئة ذات الصدر البارز والمؤخرة البضة الريانة. عندما تكون المحظية من هذا النوع، قبل أن تنال شرف لقاء مولانا في الفراش، كان بوتشيللي ينصحها بأن تظهر خبراتها وفنونها جميعا، يغمز بعينه ويبتسم ويهمس:

ـ يا بختك، مولانا الملك المعظم اختارك ليَمُنّ عليكِ بلقائه، الليلة ستحسدك نساء الأرض جميعا، ستنعمين بلذة لم تعرفيها من قبل، ستُذهلين من قدرة مولانا الصلبة كالصخر، المتدفقة كالنهر، ستكتشفين أنك على كثرة الرجال الذين نمت معهم لم تعرفي الحب الحقيقي.

هكذا كان بوتشيللي يوحي للمرأة حتى تفهم المطلوب: أن تعلن بين

أحضان الملك انبهارها بفحولته التي لم ترها من قبل ولم تتخيل حتى أنها موجودة، هذا الانبهار من المرأة المجربة هو الذي يصنع سعادة مولانا في تلك الحالة أن قدرته على إرضاء شريكته الخبيرة بالرجال معناه أنه أكثر فحولة من كل عشاقها السابقين.. صنف ثالث من الغواية كان بوتشيللي يبرع في إعداده وتقديمه: المرأة الشعبية ذات المذاق الحريف اللذيذ.. كان يلتقط راقصات مغمورات من الملاهي الليلية ويشرف بنفسه على إعدادهن، يرسل إليهن خبيرة التجميل لتقضي معهن يوما كاملا قبل اللقاء، يجب أن تكون المرأة في أوج النظافة وفي أحسن شكل بدون أن تفقد طابعها الشعبي.. قبل اللقاء كان بوتشيللي يتأمل المرأة ويقول ضاحكا:

ـ مولانا ابن بلد، من حين لآخر، يزهق من الإسكالوب بانيه والسيمون فوميه ويشتاق للمسقعة والفول المدمس، لكن الطبق الذي يأكل فيه مولانا يجب أن يكون نظيفا.

بالإضافة إلى كل هذه الأنواع كان بوتشيللي من حين لآخر يقدم إلى مولانا زهرة برية؛ امرأة جمالها طاغ لكنه نافر، خارج عن أي نسق، لا تنتمي غوايتها إلى نمط معتاد وإنما تكتسب قوتها من تفردها.. قد تكون ممتلئة أو نحيفة، صغيرة في السن أو متوسطة العمر.. لكنها دائما تحمل شيئا ما متفردا وجذابا، كان بوتشيللي أشبه بجامع تُحف، مقتنٍ للوحات الفنية وفي نفس الوقت صانع نجوم وأستاذ في فنون الغواية.. كيف يقنع بوتشيللي النساء بدخول المخدع الملكي؟ الحق أنه لم يكن يبذل مجهودا كبيرا، بالعكس، كان يعاني من تزاحم الراغبات في الحب الملكي؛ نساء كثيرات من أكبر الأسر الأرستقراطية كن يتنافسن على لقب محظية الملك، السبب بالقطع لا يكمن في جاذبية الملك، بالإضافة إلى

مشكلته الجنسية المزمنة كان جلالته كسولا لا يؤدي أي نوع من الرياضة ونهما مولعا بالتهام الحلويات مما راكم الشحوم على جسده حتى جاوز وزنه مائة وعشرين كيلو جراما، لم يكن جذابا ولا رشيقا ولا قادرا على إرضاء شريكته في الفراش فلماذا تتنافس النساء عليه إذن؟ لأنه ببساطة ملك مصر والسودان، بيده مفاتيح السعادة جميعا، بعد ليلة حب صاخبة أمتعته الخليلة فيها ماذا يحدث إذا صارحته ـ عرضا ـ أنها حلمت دوما بامتلاك قطعة أرض خصبة أو مزرعة؟ هل يمكن لمولانا الملك عندئذ أن يرد رغبتها؟ حتى البنات الصغيرات اللاتي كان الملك يستمتع بإفسادهن، كان آباؤهن، بعد أيام أو أسابيع، يحصلون على الإنعام السامي: البهوية أو الباشوية أو قطعة أرض أو أسهم في شركة كبرى.. الغريب أن علاقة الملك بأي فتاة إذا ذاعت واشتهرت لم تكن تلوث سمعتها، بل كانت على العكس تزيد من فرصتها في الحصول على زوج جيد.. حتى المرأة المتزوجة التي يضاجعها الملك لم تكن تخجل من علاقتها بجلالته، بل على العكس كانت تلمح بزهو أمام معارفها حتى يفهموا جميعا أن الملك لا يستريح إلا في أحضانها، كانت علاقة الملك بأية امرأة ترفعها إلى منزلة أعلى؛ لأن تلك التي اختارها مولانا لمخدعه من وسط مئات النساء لا بد أنها تمتلك من المميزات ما يؤهلها لهذا الشرف، وبالتالي فإن أي رجل إذا ما اقترن بها أولا سيتمتع بهذه المميزات الرفيعة، وثانيا سوف ينعم بشرف مشاركة مولانا في جسد واحد.

كان بوتشيللي جادا ودءوبا، يُحب عمله ويؤديه بمتعة ومزاج رائق: يطوف بالمجتمعات الراقية يتفقد النساء ثم ينظم كل شهر حفلة محدودة في مكان بعيد تتوفر فيه الخصوصية الكاملة، يدعو إليها المرشحات للحب الملكي ليعرضهن على المليك المُفدَّى.. في لحظة ما، أثناء الحفل، يفاجئ الملك المدعوين بالحضور فيقدمون لجلالته فروض

الطاعة، وسرعان ما تتنافس النساء المرشحات للعشق في لفت نظر الملك إلى مفاتنهن بطريقة تبدو تلقائية، كأن يمشين أمام مولانا لقضاء غرض ما أو يتهامسن ويضحكن وكأنهن لا يلاحظن أن الملك يراقبهن، كن جميعا يدركن أن نظرة واحدة من الملك قد تغير مسار حياة أسرهن إلى الأبد.. يظل العرض مستمرا حتى يحسم مولانا أمره ويختار صاحبة النصيب.. عندئذ ينحني بوتشيللي أمام صاحبة الحظ ويُقبِّل يدها ثم يصطحبها بتبجيل وكأنها قد تُوجت ملكة لتوها، بقدر ما يبدو عليها الزهو وهي تتلقى مداعبات الملك فإن بقية النساء يفشلن عادة في إخفاء إحساسهن المؤلم بالحسد وخيبة الأمل.

هذا هو كارلو بوتشيللي، كان وجود اسمه على بطاقة الدعوة لأي حفل مؤشرا على الغرض من إقامته، كما أن ظهوره في أي مكان لم يكن له سوى تفسير واحد: أن امرأة جديدة في طريقها إلى الفراش الملكي، ذلك الصباح توقفت سيارة شيفروليه بيضاء أمام نادي السيارات ونزل منها كارلو بوتشيللي بتؤدة وقد بدا عليه أنه يعرف طريقه؛ إذ اتجه مباشرة إلى مكتب جيمس رايت، كان ذلك حدثا مثيرا جعل الخدم طوال النهار يتهامسون بانفعال:

ـ لماذا جاء بوتشيللي إلى نادي السيارات.. ماذا يريد؟

(١٥)

لما عرف الخدم بموت عبد العزيز أحسوا بحزن بالغ، أغضبتهم الطريقة التي مات بها: لو أنه نام ولم يصحُ أو أصابه مرض قاتل أو تعرض لحادث سيارة لكانوا تقبلوا موته كقدر لا مفر منه، لكنه مات من الإهانة.. لم يتحمل إهدار كرامته على الملأ فانقهر ومات، راح الخدم يتهامسون فيما بينهم باستنكار:

ـ على آخر الزمن.. حميد اللوطي اللقيط ابن الراقصة يصفع الحاج عبد العزيز سليل الهمامية أسياد الصعيد.

ظلوا، مرة بعد أخرى، يستعيدون تفاصيل موت عبد العزيز كأنهم لا يريدون أن ينسوها، كأنهم، على نحو ما، يتعمدون إيلام أنفسهم، كأن الصفعات التي انهالت على وجه عبد العزيز وضعتهم في مواجهة الحقيقة.. إنهم كثيرا ما يندمجون في تفاصيل حياتهم فتغيب عن أذهانهم صورتها الكلية، كثيرا ما يلهثون خلف الأحداث المتلاحقة فلا يشعرون بمرور الزمن، إن موت عبد العزيز بهذه الطريقة المفاجئة المهينة قد وضعهم أمام الحقيقة: أنهم جميعا في مهب الريح، مُعرضون في أية لحظة للانتهاك على أهون سبب، إنهم خدم، مجرد أدوات تُستعمل لتحقيق الغرض منها، وفي النهاية يتم إلقاؤها في القمامة.. تحولت فجيعة الخدم في عبد العزيز إلى رغبة مخلصة في أداء الواجب نحو أسرته، أوفدوا الحاج يوسف طربوش إلى مستر رايت مدير النادي،

طلب منه أن يسمح لهم بحضور الجنازة والعزاء، أجاب مستر رايت بدون تفكير:

ـ اذهبوا حيث تريدون في غير مواعيد العمل.

رفض المدير أن يمنحهم أي استثناء، ذهب العاملون في الوردية الليلية إلى الجنازة والعاملون في وردية النهار إلى سرادق العزاء، كثيرون منهم زاروا بيت المرحوم ليطمئنوا بأنفسهم على أولاده ويعرضوا عليهم المساعدة، كانت أم سعيد تشكرهم وتقول بلهجة ممتنة حازمة:

ـ كثر خيركم، مستورين والحمد لله.

بعد أسبوعين من وفاة عبد العزيز وقع حدث مهم: كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ومقهى الفردوس مزدحما بالخدم، وفي الركن البعيد، كالعادة، جلس الرؤساء الأربعة: ركابي الطباخ والمتر شاكر ويوسف طربوش والبارمان بحر.. كانت هناك الضجة المعتادة: وشيش الكلام وكركرة الشيشة وصياح وضحكات وأصوات خبط فيش الطاولة ونداءات الجرسونات، فجأة نهض عبدون مساعد البارمان من مقعده وتقدم ببطء حتى وصل إلى وسط المقهى، كان أنيقا كعادته يرتدي قميصا أبيض مكويًّا بعناية وبنطلونا أسود وحذاء لامعا أسود فرنيه، تطلع عبدون إلى الخدم الجالسين ثم صفق بيديه مرات متوالية حتى تهدأ الجلبة، انتظر حتى صمتوا ثم قال:

ـ يا جماعة عاوز أقول كلمة.

تطلّعوا إليه باهتمام فاستطرد قائلا:

ـ اللي حصل للمرحوم عبد العزيز ممكن يحصل لأي واحد فينا، عبد العزيز مات مقتولًا، الكوو قتله.

ظل الجالسون يحدقون في عبدون كأنهم لا يفهمون.. زفر عبدون كأنما يسيطر على انفعاله، ثم قال بصوت عالٍ ونبرة متحدية:

ـ هي دي الحقيقة.. الكوو قتل عبد العزيز.

لاذ بعض الحاضرين بالصمت وهب بعضهم واقفين معترضين، لوحوا بأيديهم وطقطقوا بأفواههم ليسجلوا رفضهم الصريح، كانوا منفعلين ومشتتين لا يستوعبون تماما ما يحدث.. إن ما يقوله عبدون قد قالوه كثيرا من قبل لكن سرا، كانوا يتأكدون أنهم مع زملاء موثوق بهم ويلتفتون حولهم ليتأكدوا أن أحدا لا يسمعهم، ثم يلعنون ظلم الكوو همسا.. لم يتخيلوا قط أن ما يهمسون به بأصوات خافتة مرتعشة من الممكن أن يناقش هكذا علنا.. يا نهار أغبر.. عبدون يهاجم الكوو أمام الجميع؟ ماذا جرى للدنيا؟! بدا ما يفعله عبدون أسطوريا على نحو ما، كأنه حلم أو معجزة.. تملك الخدم خوف غريزي كذلك الذي ينتابنا عندما نتطلع من مكان شاهق فترعبنا فكرة السقوط، فكروا أن الخبر سينتشر بسرعة البرق، إن كل كلمة أو حركة أو حتى إيماءة منهم الآن ستنقل بحذافيرها إلى الكوو وسيحاسبهم عليها، سيعرف الكوو بما قاله عبدون وسيُنكل بهم جميعا، سيعاقبهم بشدة لأنهم سمحوا لعبدون بأن ينطق بهذا الكلام، عليهم أن يتبرءوا علنا من كلام عبدون ويمنعوه بأي طريقة من الاسترسال، فجأة خطر لهم هاجس: أن يكون عبدون جاسوسا للكوو وقد كلفه بأن يؤدي هذا المشهد حتى يختبر ولاءهم.. عندئذ وصل انفعالهم إلى ذروته، تحول إحساسهم بالقلق إلى ذعر، ضرب الحاج يوسف طربوش كفا بكف وقال مستنكرا بصوت عالٍ ليُسمِع الجميع:

ـ يا عبدون يا ولدي كلامك غلط ويعمل فتنة، أستغفر الله العظيم..

الأعمار بيد الله والمرحوم عبد العزيز عمره انتهى في اللحظة التي مات فيها.

ـ الكوو هو المسئول عن موته.

هنا صاح المتر شاكر:

ـ إذا كان سيدنا الكوو ضرب عبد العزيز يبقى يستأهل الضرب.

بدا عبدون في تلك اللحظة وكأنه مدفوع بمس شيطاني، تطلع إلى المتر شاكر وقال بثبات:

ـ لماذا يضربنا الكوو أساسا؟

ارتفعت أصوات احتجاج من الحاضرين وصاح أحدهم:

ـ الكوو زي أبونا.

أطرق عبدون قليلا ثم تطلع إليهم وقال:

ـ حتى لو كان الكوو زي أبونا.. نحن لا نَضرب عيالنا أبدا إذا كبروا، لغاية إمتى الكوو حيفضل يضربنا كأننا حيوانات؟ أنتم في الأربعين والخمسين من العمر كيف تقبلون بالضرب؟ ماذا يكون شعور أي واحد فيكم لو شافته امرأته وعياله وهو بينضرب؟

ساد صمت عميق قطعه صوت ركابي الأجش:

ـ يا عبدون أنت عاوز إيه بالضبط؟

ـ عاوز الكوو يبطل يضربنا.

ـ ومَن تكون أنت حتى تقول للكوو ما يفعله؟

ـ أنا بني آدم يا عم ركابي.

ـ أنت ولد قليل الأدب.

ـ لما أحافظ على كرامتي أبقى قليل الأدب؟!

ـ كرامتك في أكل عيشك يا فالح.

تَطلَّع عبدون بغضب إلى ركابي وكاد يرد عليه لكن المتر شاكر سأله بهدوء:

ـ يعني يا عبدون لما واحد فيكم يغلط المفروض الكوو يطبطب عليه؟

رد عبدون قائلا:

ـ المفروض يعاقبنا بالجزاءات بدون إهانة ولا ضرب زي ما بيعمل مع الموظفين في القصور الملكية.

ـ يا بني إيش جابنا إحنا للموظفين؟ دول متعلمين وواخدين شهادات.

قاطعه عبدون بحدة:

ـ حتى لو كنا مش متعلمين، إحنا بشر ولنا كرامة.

انتبه الخدم إلى خطورة الموقف فاندفعوا يعترضون وصاح كرارة السفرجي:

ـ جناب الكوو يعرف مصلحتنا أكثر منا.

قال عبدون بصوت عالٍ:

ـ يا جماعة أنتم راضيين إنكم تنضربوا زي البهائم؟

حرك يوسف طربوش أصابعه بعصبية على حبات مسبحته الطويلة ثم صاح:

ـ سيدنا الكوو ولي نعمتنا ولولاه كان زماننا في الصعيد قاعدين وراء الجاموسة.

قال عبدون:

ـ لم نكن أبدا وراء الجاموسة يا حاج يوسف، كنا ناس محترمين في بلادنا، ما نكسبه هنا ليس حسنة من أحد، ده أجرنا على عمل نشقى فيه طوال الليل والنهار، ما حدش له جميل علينا ومن حقنا نتعامل زي البني آدمين.

امتقع وجه يوسف طربوش وتمتم مستغفرا، اضطرب الواقفون وبدوا كأنهم على وشك تأييد ما يقوله عبدون لكنهم يبذلون جهدا ليمنعوا أنفسهم، صاح الشيف ركابي:

ـ اخرس، قطع لسانك يا وسخ قبل ما تنطق بكلمة سوء على سيدك الكوو.

كان جسده الهائل يرتج من الغضب، اقترب بخطوة واسعة من عبدون وكاد يضربه لكن الواقفين اجتمعوا عليه وجذبوه بعيدا، لم يعد بمقدور الواقفين السيطرة على انفعالهم.. راحوا يتكلمون جميعا وتداخلت الأصوات حتى لم يعد أحد قادرا على تمييز ما يقال، كانوا يسجلون استنكارهم بعبارات مختلفة، البارمان بحر لم ينطق بكلمة، ظل جالسا يدخن الشيشة بهدوء ويراقب ما يحدث.. اقترب ركابي منه حتى صار في مواجهته ثم شخر وصاح:

ـ قاعد ساكت ليه يا بحر؟ ما تلم الولد عبدون بتاعك.. ولا أنت عاجبك الكلام؟

ـ خليك في حالك يا ركابي.

ـ أقطع دراعي يا بحر لو ما كنت أنت اللي ملقنه الكلام اللي بيقوله.

تطلّع إليه بحر باستخفاف ثم قال:

ـ أنا لو عاوز أقول حاجة أقولها بنفسي.

ثم جذب نفسا عميقا من الشيشة جعل الماء داخلها يكركر بعنف، تزايد غضب ركابي وصاح:

ـ طيب يا بحر، أنا حأقول لسيدنا الكوو وهو يربيك.

ـ براحتك.

ـ أنت بتتحدى سيدنا الكوو؟

ـ أعلى ما في خيلك اركبه.

هكذا قال بحر بهدوء وسحب نفسا جديدا من الشيشة.. تلفت ركابي حوله واحمر وجهه وبدا كالثور الهائج وصاح:

ـ أنا ماشي من هنا، لا يمكن أقعد أسمع هذا الكلام الفارغ.

كان هذا حلًّا مثاليا.. كان الخدم مأخوذين من تصاعد الأحداث بهذه السرعة ومتوجسين من العواقب؛ ولذلك ما إن خرج ركابي من المقهى حتى تبعه يوسف طربوش والمتر شاكر، ثم أسرع الخدم خلفهم، هرعوا خارجين إلى الشارع كأنهم يفرون من حريق أو زلزال.. في النهاية لم يبق إلا جرسونات المقهى وزبائن قليلون عاديون من خارج النادي، سحب عبدون كرسيا وجلس بجوار بحر البارمان الذي قال بهدوء:

ـ ما تلومش عليهم، ظروفهم صعبة.

رد عبدون قائلا:

ـ يا عم بحر، نفسي أفهم كيف يضربهم الكوو ثم يشكرونه!

فكر بحر قليلا ثم قال:

ـ الكوو مفتري ونابه أزرق ورزق العمال في يده.

سأله عبدون على استحياء:

ـ الكوو ضربك قبل كده يا عم بحر؟

ابتسم بحر بأسى وقال:

ـ طبعا انضربت وأنا صغير أول ما جئت النادي، لما كبرت وبقيت بارمان بطَّل يضربني، أنا وشاكر وطربوش وركابي الكوو ما بيضربناش أبدا لأنه بيقبض منا.

ـ طيب ما الكوو يقبض منا نصف البقشيش؟

ـ الكوو بيقول إنه بيصرف على المدرسة.

ـ يا عم بحر أنت عارف إنه كذاب، المدرسة بيصرف عليها القصر والكوو بيأخذ البقشيش لنفسه.

ابتسم بحر وتطلع إليه بإعجاب ثم قال:

ـ ما شاء الله عليك يا عبدون.. أنت ذكي وشجاع، لكن للأسف مجهودك بلا فائدة، مستحيل تغير تفكير العمال لأن عقليتهم تعودت على النظام الموجود.. على فكرة كل كلمة قلتها زمانها وصلت للكوو.. ربنا يستر عليك.

صالحة

كأن ملاك الموت يحلق فوق بيتنا، تملكتني حالة غريبة من الخوف على أمي، كنت أرتعد عندما أتصور أنني سأفقدها فجأة كما فقدت أبي،

كنت أستيقظ بالليل لأطمئن عليها، أقترب منها في الظلام وهي نائمة، أمر بإصبعي أمام أنفها حتى أحس بأنفاسها وأتأكد من أنها لا زالت على قيد الحياة.. لم أعد أفارقها إلا لكي أذهب إلى المدرسة، حتى عندما أجلس للمذاكرة كنت أصر على أن تبقى بجانبي، كنت أحس أنها تحتاج إليَّ كما أحتاج إليها.. كانت أمي تخوض معركة صعبة من أجل الحصول على معاش أبي، يوم أن اتصل بها كومانوس ليطلب لقاءها، كنت بجوارها ومعنا أخي كامل، بعد أن أغلقت السماعة بدا عليها القلق وسألتنا:

ـ ماذا تظنان الهدف من زيارة كومانوس؟

ربت كامل على كتف أمي وقال:

ـ أكيد خير، كومانوس رجل طيب.

ـ لكنه قدم واجب العزاء، ماذا يريد الآن؟

ـ ربما جاء ليطمئن علينا.

تنهدت أمي وقالت بصوت خافت:

ـ ربنا يستر، لدينا كفايتنا من المشاكل.

في اليوم التالي، عندما وصل المسيو كومانوس كنا جميعا في انتظاره، أنا وأمي وكامل وسعيد ومحمود، صافحنا واحدا واحدا بحرارة.. كان يرتدي بدلة أنيقة لونها رصاصي ورباط عنق أزرق على قميص أبيض، منذ اللحظة الأولى ارتحت إليه.. شيء ما في وجهه ينم عن أنه طيب وأمين، أحببت ابتسامته وطريقته الركيكة في نطق الحروف العربية.. اصطحبته أمي وأجلَسَتْه في صدارة حجرة المسافرين بينما ذهبت أنا

إلى المطبخ لأعد فنجان القهوة المضبوط الذي طلبه وقدمته مع كوب ماء مثلج على الصينية الفضية الفاخرة التي تستعملها أمي مع الضيوف.. طبقا لاتفاقنا المسبق انسحبت مع محمود لنترك مسيو كومانوس مع الكبار، بدا أخي محمود كعادته غير مبالٍ بما يحدث وعاد إلى حجرته، أما أنا فلم أستطع أن أقاوم فضولي، أغلقتُ الأنوار في حجرة السفرة ثم واربتُ الباب وجلستُ خلفه بحيث أسمع وأرى بغير أن يلحظني أحد، بدأ كومانوس الحديث فقال:

ـ جئت لأطمئن عليكم.

ـ كتر خيرك.

هكذا قالت أمي بحرارة واستطرد كومانوس:

ـ المرحوم عبد العزيز كان مثل أخي، أرجوك يا أم سعيد، لو احتجت أي شيء أنا تحت أمرك.

ـ ربنا يخليك يا خواجة.

ساد الصمت من جديد، تنحنح كومانوس وقال:

ـ لقد عرفت ما حدث مع مستر رايت، شيء مؤسف حقا.

بدا تعبير متحفز على وجه أمي، أسندت ظهرها إلى المقعد وقالت بنبرة حازمة:

ـ هل يعقل أن يعمل المرحوم في النادي خمس سنوات ثم يموت فلا يصرفون المعاش لأولاده؟! في أي شرع وأي قانون؟

ـ عندك حق، لائحة النادي ظالمة.

ردت أمي بصوت مرتفع:

ـ لائحة النادي لا تلزمني يا خواجة، حقنا سنأخذه في المحكمة بإذن الله.

ـ يا ست أم سعيد، المحاكم حِبَالها طويلة.

ـ لن نترك حقنا أبدا.

ـ المحامون مصاريفهم لا تنتهي.

ـ نحن قادرون عليها والحمد لله.

ـ جئت لأعرض عليكِ حلا آخر.

تطلعتْ إليه أمي صامتة.. رشف كومانوس من فنجان القهوة ثم قال:

ـ لقد بذلت مجهودا مع مستر رايت حتى أقنعته بأن يوظف اثنين من أولادك في النادي بدلا من المرحوم.. واحد يعمل معي في المخزن، والآخر يعمل في التوصيل؛ المرتب الذي سيحصلان عليه يعتبر كأنه معاش المرحوم.

لاذت أمي بالصمت وأضاف كومانوس بصوت خافت:

ـ أليس هذا الحل أحسن من المحاكم ووجع الدماغ؟

ـ ربنا يسهل.

هكذا تمتمت أمي وقد بدا عليها التفكير، ابتسم كومانوس وقال بلهجة معتذرة:

ـ طبعا مستر رايت وافق بشرط أنكم لا ترفعون قضية على النادي.

ـ مفهوم.

ـ يعني أنت موافقة؟

ـ إن شاء الله خير، كل ما أحتاجه يومين اثنين أحضر حالي وأتصل بك.

ـ اتفقنا.

ـ أشكرك يا مسيو كومانوس لأنك فكرت في مساعدتنا.. لن ننسى لك هذا الفضل أبدا.

قال كومانوس بلهجة ودية وجادة:

ـ هذا أقل شيء أصنعه للمرحوم عبد العزيز، المهم يا أم سعيد تردي عليَّ بسرعة.. مستر رايت اقتنع بصعوبة وأخاف يغير رأيه.. تحدثوا في موضوعات عابرة لمدة ربع ساعة ثم استأذن كومانوس للانصراف، ودّعوه حتى الباب ثم عادوا إلى حجرة الجلوس، جلست أمي على المقعد بجوار النافذة بينما جلس سعيد وكامل متجاورَيْن على الأريكة، في تلك اللحظة، خرجت إليهم من حجرة السفرة، قالت أمي:

ـ تعالي يا صالحة عاوزاكِ.

ما إن جلستُ بجوارها حتى قالت بحماس:

ـ الخواجة كومانوس عرض علينا فكرة جديدة.

ـ سمعت كل شيء.

سألني كامل:

ـ ما رأيك؟

ـ طبعا فرصة العمل في النادي أفضل من رفع قضية غير مضمونة.

بدا على أمي أنها ارتاحت لموافقتي، تنهدت وقالت:

ـ الحمد لله، ربنا عالم بحالنا.

ساد الصمت من جديد، أحسست أن أمي تتحسس طريقها في منطقة شائكة، كأنما ذلك الهدوء المتوتر مقدمة لعاصفة تقترب بسرعة.. التفتت أمي نحو كامل وسعيد وقالت بابتسامة متوترة:

ـ مافيش وقت نضيعه، لازم نتفق الليلة حتى أرد على كومانوس غدا.

تطلعا إليها في صمت فاستطردت موضحة:

ـ محمود سوف يعمل في التوصيل.. مَن منكما سيعمل مع كومانوس في المخزن؟

قال سعيد:

ـ لن أعمل في نادي السيارات.

ردت أمي بنبرة ساخرة:

ـ لماذا يا سعيد بك؟

ـ أنتظر نتيجة الدبلوم وسأبحث عن عمل مناسب.

ـ وهل تنتظرك الوظيفة على الباب؟

ـ ربنا يسهل.

ـ البلد مليئة بأصحاب الشهادات العاطلين.

ـ أفضل أن أظل عاطلا على أن أعمل في المخزن.

ـ ما له المخزن؟

ـ أريد أن أعمل في تخصصي، أنا فني سجاد.

ـ كالعادة.. أنت لا تفكر إلا في نفسك.

ـ ليس عيبا أن أفكر في نفسي.

ـ لكن من العيب ألا تفكر فينا، عار عليك أن تجلس أمامي وترفض الفرصة الوحيدة لإنقاذنا من محنتنا، ألم تفكر أن أمك وإخوتك يحتاجون إلى كل قرش؟! ألم تفكر أن العمل الذي ترفضه الآن قد تحمَّلَه أبوك سنوات من أجلنا؟!

ـ أبي رحمه الله تحمَّل هذا الشقاء لأنه كان يحس بالذنب بعد أن بدد ثروتنا على أقاربه.

ـ قَطْع لسانك.. إياك أن تتكلم بهذه الطريقة عن المرحوم.

هكذا صاحت أمي وقد اتسعت عيناها من الغضب، لكن سعيد نظر إليها متحديا وقال:

ـ اسمعي.. أنا فاهمك.

صاح كامل بلهجة محذرة:

ـ يا سعيد كلم أمك بأدب.

تجاهله سعيد واستمر يصيح في وجه أمي:

ـ أنت تريدين أن تُلقي بي في المخزن حتى يتفرغ المحروس كامل لدروسه في الجامعة، هو يبقى محامي وأنا أشتغل خدام.. لأ.. كان زمان وجَبَر، كفاية ضيعتوا عليَّ الجامعة.

ـ أنت اللي ضيعتها على نفسك.. حد قال لك تجيب مجموع ضعيف.

ـ خلاص.. أنا خائب وفاشل.. سيبوني في حالي، كلها كم يوم وأشتغل وأصرف على نفسي، سأترك لكم البيت حتى تستريحوا مني، الدور والباقي على حبيب قلبك؛ الأستاذ كامل المحامي.. خليه يشتغل ويتعب مرة واحدة في حياته.

ـ يا خسارة تربيتي يا سعيد.

هكذا قالت أمي بصوت متهدج، لكن سعيد لم يتأثر، خرج غاضبا من الحجرة وأغلق الباب بعنف.

ظللنا أنا وكامل صامتَيْـن.. فجأة أجهشت أمي بالبكاء، اندفعت نحوها ورحت أُقبل رأسها ويديها.. قال كامل:

ـ ولا يهمك يا أمي، أنا سأعمل في المخزن.

ردت أمي بصوت خافت:

ـ ستخسر دراستك.

ربت كامل على كتفها وقال:

ـ بإذن الله لن أخسرها.

(١٦)

تخلى جيمس رايت عن غطرسته المعتادة وبدا بشوشا، تطلع مبتسما إلى كارلو بوتشيللي الجالس أمامه، قدم له سيجارا من العلبة الفاخرة المطعمة بالصدف وقال بلهجة ودية:

ـ مستر بوتشيللي أنا سعيد بزيارتك.

ـ أنا الذي يسعدني دائما أن أراك.

كانت هيئة بوتشيللي تعكس ذلك التهذيب الروتيني البارد الذي نتعامل به مع من هم أقل منا شأنا، صحيح أن جيمس رايت إنجليزي ويدير نادي السيارات، لكن بوتشيللي الإيطالي مقرب إلى الملك؛ الأمر الذي يضعه في مكانة أعلى، قال رايت وقد بدا على وجهه الاهتمام:

ـ طمئني.. كيف هي صحة جلالة الملك؟

ـ صحة مولانا جيدة.. لكنه يعمل أكثر مما يجب.

بدا على وجه رايت الإشفاق وقال بنبرة أسى:

ـ مصر بلد معقد ومشاكله بلا نهاية، كم أخاف على جلالة الملك من كل ذلك الإرهاق.

رمقه بوتشيللي بنظرة ساخرة كأنما يقول: «يا لك من منافق!». على أن مستر رايت استمر قائلا:

ـ جلالته يجب أن يرتاح.

ـ أحاول جاهدا أن أقنع جلالته بأن يأخذ إجازة ولو قصيرة، لكنه يقول دائما مصالح الوطن لا يمكن تأجيلها.

ـ المصريون ناكرو الجميل، لن يقدروا أبدا ما يبذله جلالته من جهد.

ـ أتفق معك، لو كنت مكان مولانا الملك لاستمتعت بحياتي، لكن الإحساس بالواجب يتحكم في كل تصرفات جلالته، ثمة رنة كاذبة فارغة كانت تتردد في كلامهما ثم ساد الصمت فجأة، كأنهما استنفدا المقدمات وحان وقت الحديث في الموضوع، جذب بوتشيللي نَفَسا من السيجار ونفث سحابة من الدخان وقال:

ـ مستر رايت، أظنك تعلم كم يحرص مولانا على التقرب من كل طوائف الشعب!

ـ طبعا.

ـ جلالة الملك يحب دائما أن يكون قريبا من الشباب.

ـ هذا يضاعف من احترامي لجلالته.

ـ إذا سنحت لك فرصة لإرضاء جلالة الملك.. هل تتردد؟

ـ أنا تحت أمر جلالته.

ابتسم بوتشيللي وقال:

ـ هذه بداية جيدة.

تطلع إليه مستر رايت باهتمام وقال بوتشيللي وهو يدير قبعته بين يديه:

ـ يحدث أحيانا أن يطلب مني مولانا الملك أن أُنظم حفلا صغيرا حتى يلتقي فيه بشبان وشابات من الطبقة الراقية في مصر.. لا تنس أن جلالته ليس عجوزا مثلي ومثلك؛ إنه شاب لم يجاوز الثلاثين.

هز مستر رايت رأسه وتطلع متسائلا إلى بوتشيللي الذي استطرد بصوت خافت:

ـ يوم الاثنين القادم سأقيم حفلة صغيرة.. المدعوون جميعا شبان وشابات من الطبقة الراقية.. يسعدني أن أوجه الدعوة إلى ابنتك الآنسة ميتسي.

ـ هل تعرف ميتسي؟

ـ رأيتها في نادي الجزيرة فلفتت نظري وفكرت أن أقدمها إلى مولانا الملك.

ـ هذا شرف عظيم.

ـ اسألها أولا إن كانت توافق على صداقة الملك.

ـ ستوافق طبعا.

ـ أنا سعيد لأنك متفهم ومتعاون.

ـ أنا الذي أدين لك بالفضل مستر بوتشيللي.. هل لديك تعليمات محددة بخصوص الحفل.. أرجو أن تقدر أن ميتسي صغيرة ولم تتعرف إلى ملوك من قبل.

نطق رايت الجملة الأخيرة بلهجة معتذرة فأشاح بوتشيللي بيده وقال:

ـ لا تقلق، مولانا لا يطيق الرسميات وهو يحب أن يكون ضيوفه على طبيعتهم تماما.

ابتسم مستر رايت وهز رأسه بحماس.. نهض بوتشيللي ووضع قبعته على رأسه وتبعه رايت ليودعه، عندما وصلا إلى الباب، قبل أن يخطو بوتشيللي إلى الخارج استدار فجأة حتى صار في مواجهة جيمس رايت ثم نظر إليه مباشرة في عينيه وقال:

ـ سوف أبعث إليك بالدعوة غدا، لو حالف الحظ ابنتك ستكون فرصة العمر، ستدخلان أنت وهي إلى الجنة.

في لحظة ما يتعمد بوتشيللي أن يكون صريحا لدرجة الوقاحة، هذه الطريقة المثلى للتعامل مع أهل المرشحات للحب الملكي، يجب ألا يعطيهم الفرصة لخداع أنفسهم، الأوهام مضرة وعواقبها وخيمة، يجب أن يعرفوا ويعترفوا أنهم يدفعون بناتهم أو زوجاتهم إلى فراش الملك.

ذلك المساء لما جلس رايت يشرب في بار النادي استرجع ما قاله بوتشيللي فانتابه انفعال قوي، الموضوع جد إذن.. يتعلق مباشرة بجلالة ملك مصر والسودان، لم تكن علاقة جيمس رايت بالملك تتعدى الرسميات، كان الملك يأتي إلى النادي ليلعب الورق ليلا عندما يكون رايت قد انصرف من مكتبه، في الحفلات الملكية الرسمية كان لا بد لمستر رايت أن يكون في شرف انتظار جلالة الملك باعتباره مديرا للنادي، على مدى عشرين عاما كانت هذه حدود علاقته بالملك وأبيه الملك السابق.. بضع كلمات وابتسامات وانحناءات مرتين أو ثلاث خلال السنة.. الآن حانت الفرصة، كما قال بوتشيللي هذه الحفلة قد تكون نقطة تحول، علمته الحياة أن الفرصة تأتي مرة واحدة، تلوح بسرعة خاطفة كالبرق ثم تختفي.. إما أن تقتنصها وإما تفقدها إلى الأبد، لو

حظيت ميتسي بصداقة الملك فإن حياته ستتغير، في بلد متخلف مثل مصر إذا كانت ابنتك صديقة الملك فالأبواب كلها مفتوحة أمامك.

كان جيمس رايت قد سمع كثيرا عن ثروات صنعها أصحابها لمجرد أنهم يتمتعون بالعطف السامي لا أكثر ولا أقل، يجب أن يسعى لعقد صداقة بين الملك وميتسي، سيفعل ذلك من أجل ابنته، إنه لا يريد شيئا لنفسه، لقد جاوز الستين، كم عاما تبقى له في هذه الدنيا؟! سترث ميتسي كل ثروته لأنها ابنته الوحيدة، صداقتها بالملك لن تفيد سواها.. كانت كلمة صداقة تتردد في ذهنه ببراءة، كان يفسر ما يحدث بطريقة ظاهرية، يقول لنفسه: الملك الشاب يبحث عن أصدقاء من سنه، يحب أن يصاحب شبانا وشابات ليثق فيهم ويكون على راحته معهم بعيدا عن الرسميات، هذا كل ما في الأمر.

بعد ثلاث كئوس من البلاك ليبل، فاض قلبه بالحماس وطافت بذهنه خيالات متفائلة مرحة، توجه إلى بيته فوصل قبل موعد العشاء بساعة، كانت زوجته فيكتوريا وحدها، تقرأ كتابا بجوار المدفأة، أطلق الشراب لسانه فبادرها قائلا بحماس:

ـ فيكتوريا.. كيف حالك؟

ردت بغير أن ترفع رأسها عن الكتاب.

ـ أنا بخير.. شكرا.

ـ أين ميتسي؟

ـ في السينما مع أصدقائها.

ـ هل يمكن أن تنحي الكتاب قليلا؟ لديَّ أنباء مثيرة.

حكى لها بسرعة ما حدث، أنصتت إليه بوجه عابس قلق ثم قالت بهدوء:

ـ هل تعلم أن بوتشيللي قواد؟

ـ معلوماتي أنه ميكانيكي في القصر الملكي.

ـ إنه ميكانيكي لكنه في نفس الوقت قواد الملك.

ـ أوه يا عزيزتي.. هذه شائعات يروجها حزب الوفد من أجل تشويه صورة الملك.

ـ ليست شائعات بل حقيقة، أنا أعرف نساء اصطحبهن بوتشيللي إلى مخدع الملك.

ـ المرأة التي تقيم علاقة مع الملك لا يمكن أن تزعم أن أحدا خدعها.

ـ أنا لم أقل إنهن خدعن.

ـ علام تعترضين إذن؟

ـ ألا تتفق معي أن القواد شخص حقير؟

ـ لقد تمت دعوة ابنتك ميتسي إلى حفل ملكي.. هل يضايقك ذلك؟ عندما يطلب بوتشيللي القواد تقديم ابنتك إلى الملك فهناك طريقة واحدة لفهم الأمر.

هكذا صاحت فيكتوريا وهي تتطلع إليه بغضب، نهض مستر رايت من مكانه وجلس بجوارها على الأريكة ثم أحاطها بذراعه وراح يهمس كأنه يبسط موضوعا معقدا لطفلة صغيرة:

ـ حبيبتي، اهدئي وفكِّري قليلا.. ألا تعتبرين الملك شابا جديرا

بصداقة ميتسي؟ إنه يكبرها بأعوام قليلة.. هل يزعجك أن تتعرف ابنتك إلى شاب مهذب هو في نفس الوقت ملك مصر والسودان.

ردت فيكتوريا بنبرة جافة:

ـ بالطبع لا يزعجني أن تتخذ بنفسها الصديق الذي تختاره، أما أن نقدمها إلى قواد الملك ليتخذها عشيقة فهذا شيء آخر.

ـ ابنتك بلغت سن الرشد وهي وحدها التي تقرر علاقتها بأي شخص، وفي كل الأحوال سنحترم قرارها.

كان صوته يحمل شيئا ما فارغا هشا لكنه كان يعرف كيف يؤثر عليها، كان يستعمل الإلحاح، يظل يكرر المعنى ذاته بعبارات مختلفة، لا يكل ولا يمل، طريقة مضمونة، لم تكن فيكتوريا تقوى على الاستمرار في الجدل لفترة طويلة.. ظل مستر رايت يلح عليها حتى تنهدت أخيرا وقالت:

ـ جيمس، أرجوك.. اتركني في سلام.

ـ لن أتركك قبل أن توافقي.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أريدك أن تبلغي ميتسي بدعوة الملك.

ـ سأفعل.

ـ اشرحي لها أبعاد الموقف، يجب أن تفهم أنها قد تعيش حياتها كلها بغير أن تتاح لها فرصة رؤية ملك حقيقي على الطبيعة.

هزت فيكتوريا رأسها وزمت شفتيها بضجر ثم عادت تقرأ بهدوء، نهض مستر رايت من مكانه وسألها:

ـ هل أعتمد عليكِ؟

لم ترد هذه المرة ولم تتوقف عن القراءة، أدرك رايت أنه نجح فأحس براحة وانصرف إلى حجرته، لقد كلف زوجته بإخبار ميتسي لأنه يتفادى التعامل معها، لم يعد يتكلم مع ميتسي إلا مضطرا، فسدت علاقته بابنته والغريب أنه لا يعرف سببا محددا لذلك.. لماذا تبدلت ميتسي؟

صارت تعامله بجفاء وترد عليه بوقاحة وعندئذ يرد لها الصاع صاعين، تكررت المشاجرات بينهما حتى صار يتجنب الدخول في أي نقاش معها، كل ما تفعله خطأ في خطأ، إنها غريبة الأطوار وهو لا يفهمها، تبدو أحيانا وكأنها قد أصابها مس، كلما ارتكبت حماقة جديدة ازدادت شراسة كأنها تبدأ بالهجوم لتدافع عن نفسها.. تمعن في استفزازه حتى يثور عليها.. كثيرا ما يتأملها ويتساءل: هذه الفتاة الفظة الوقحة.. هل هي نفسها ابنته ميتسي الرقيقة التي كان يحملها وهي صغيرة بين ذراعيه ويداعبها ويغرقها بالقُبُلات؟! ماذا فعل حتى تسيء معاملته إلى هذه الدرجة؟ بالرغم من كونها فتاة مغرورة وحمقاء إلا أنه لم يتدخل في حياتها قط، بعد أن أنفق على تعليمها وتم قبولها في مدرسة لندن للاقتصاد، اكتشفت فجأة أنها تحب الدراما وقررت أن تعيش في مصر، ومع ذلك تقبل قرارها الغريب وهو يدفع لها مصروفات الدراسة في الجامعة الأمريكية بالرغم من اقتناعه بأنها تضيع وقتها.. لماذا تدرس الدراما في مصر؟ هل تأمل في الحصول على أدوار في السينما المصرية؟ ألم يكن من الأجدى لها أن تتعلم الدراما في لندن؟ ماذا يعجبها في هذا البلد المتخلف؟ إنه مضطر للبقاء في مصر لأن مرتبه كبير ووظيفته مريحة لا يستطيع أن يجد مثلها في لندن، أما ميتسي فقد اختارت أن تعيش وسط هؤلاء الهمج لتدرس

التمثيل في بلد لا تعرف لغته! يا إلهي، لا يمكن أن يتخيل تفكيرا أحمق من ذلك، حتى لو كان لديها ذلك الولع بالشرق، إذا كانت تحب الجمال والأهرام والبخور والرجال ذوي الجلابيب والنساء ذوات الملاءات اللف.. كان بإمكانها أن تدرس في لندن وتأتي إلى مصر أثناء الإجازات، هل ميتسي مجرد حمقاء أم مضطربة نفسيا؟! في النهاية هذه حياتها تعيشها كما تشاء لكن لماذا تسيء معاملته؟ إنه يتحمل نفقاتها ومصروفات الدراسة ولا يريد منها شيئا إلا أن تتعامل معه بأدب ولطف! هل هذا كثير؟ سيظل على أية حال يتجنبها، لن يتعامل معها إلا في حالة الضرورة.. في اليوم التالي جلس مع ميتسي وزوجته على مائدة العشاء، ابتسم وقال:

ـ هل اختارت ميتسي الثوب الذي سترتديه في الحفل الملكي؟

ظلت ميتسي صامتة واستطرد مستر رايت بلهجة جادة:

ـ يجب أن نستعد من الآن، ميتسي ستكون ضيفة الملك، يجب أن ترتدي أفضل ما لديها.

قالت زوجته:

ـ لا تقلق، لديها فساتين أنيقة كثيرة.

تطلع رايت إلى ميتسي وقال:

ـ اشتري فستانا جديدا خصيصا لهذه المناسبة، أنا سأدفع ثمنه، أنتِ لا تقابلين مَلِكا كل يوم.

هنا نظرت إليه ميتسي بتحفز وقالت:

ـ مَن قال لكَ إنني سأقابل الملك؟

زمَّ شفتيه وتجاهل طريقتها المستفزة وسألها بهدوء:

ـ ألم تخبرك أمك بدعوة الملك؟

ـ أخبرتني.

ابتسم رايت وقال بعصبية:

ـ ستوافقين بالطبع.

ـ لم أقرر بعد.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ عندما أتلقى أية دعوة فأنا قد أقبلها أو أرفضها.

ـ هل ترفضين دعوة الملك إلى العشاء؟

ـ من حقي أن أرفضها لو أردت.

ـ هل تمزحين؟

ـ بل أنا جادة تماما.

ألقى مستر رايت الملعقة في الصحن فأصدرت صليلا وقال بصوت غاضب:

ـ إذا رفضت سترتكبين أكبر حماقة في حياتك.

ـ أنا حرة.

ـ هذا جنون.

كانت فيكتوريا تراقب بقلق الحوار المتصاعد بين زوجها وابنتها، قالت لتهدئ الجو:

ـ ميتسي، طبعا من حقك أن تقرري إذا كنت ستذهبين أم لا، أبوك ينصحك لا أكثر ولا أقل.

قالت ميتسي بتهكم:

ـ وأنا أشكره على النصيحة.

هنا تضرج وجه مستر رايت وصاح:

ـ لا أقبل أن تسخري مني، إذا رفضت دعوة الملك فأنت إما حمقاء وإما مضطربة نفسيا، لن أسمح لكِ بإيذاء نفسك.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ ستعرفين في حينها.

ساد الصمت وجففت ميتسي جانبَيْ فمها بالفوطة ثم نهضت ودفعت المقعد فأصدر صريرا تردد في أنحاء الحجرة.. تقدمت خطوتين حتى أصبحت في مواجهة أبيها وقالت:

ـ حسنا.. أنا أرفض الدعوة، لن أذهب إلى الحفل، أحب أن أرى ما سوف تفعله.

(١٧)

لما عاد الخدم من المقهى انهمكوا في العمل كأنهم يتبرءون من كلام عبدون، كأنهم يؤكدون لمن يراهم أن ولاءهم للكوو لا زال كاملا وراسخا، كانوا واثقين أن الكوو قد علم بما حدث وأنه سوف يستدعيهم ويسألهم:

ـ كيف تسمحون للولد عبدون بالتطاول عليَّ؟!

أعدوا الإجابات المنجية.. استعادوها في أذهانهم مرارا حتى حفظوها، سيقولون:

ـ يا جناب الكوو ده ولد سافل، مجنون.

ـ إحنا رفضنا كلامه وعلمناه الأدب.

ـ أنت سيدنا وأبونا ونحن أبناؤك وخدمك.

كانوا يتوقعون هبوط الكوو عليهم في أية لحظة، مرت الساعات بطيئة محملة بالهواجس ونذر الشر، ظل انفعالهم متأججا محبوسا يبحث عن مخرج.. عندما يخفت إيقاع العمل ويتأكدون أن أحدا لا يراقبهم كانوا ينتحون جانبا ليحكوا الواقعة من جديد، كأنهم يختبرونها، يتأكدون من حدوثها.. كانوا يبدءون بالهجوم على عبدون ويتهمونه بالجنون والوقاحة ثم بعد ذلك يعيدون ما قاله همسا وهم يتظاهرون

بالاستنكار، بحر البارمان وبضعة خدم التزموا الصمت بينما تبارى الباقون في لعن عبدون والسخرية منه، حتى هؤلاء الساخرون كانت مشاعرهم مشوشة مضطربة.. هل كانوا في أعماقهم يرفضون ما قاله عبدون؟ الإجابة نعم ولا.. كان غضبهم المذعور على عبدون يخفي إعجابا ما، لكن إعجابهم كان مطمورا تحت طبقات كثيفة من الخوف جعلتهم يلعنونه علانية ليتبرءوا من ذنبه، إنهم بالطبع يتمنون لو امتنع الكوو عن ضربهم لكنهم واثقون أن أمنيتهم لن تتحقق، إنهم يائسون تماما من تحقق العدل، إن ما يقوله عبدون حقيقي لكن ما قيمة الحقيقة؟ متى غيرت الحقيقة أي شيء في حياتهم؟ كم مرة كذبوا خوفا من الكوو أو من أجل إرضاء سادتهم؟ كم مرة تظاهروا بتصديق أشياء يعلمون أنها كاذبة؟ كم مرة ضحكوا أو أظهروا الأسف وهم مرغمون؟ كم مرة شهدوا زُورا خوفا من العقاب أو طمعا في البقشيش؟ فليتكلم عبدون كما شاء، لن يتغير شيء في نادي السيارات، إذا كان عبدون حالما أو عبيطا فإنهم عقلاء عمليون يعرفون جيدا حدود إمكاناتهم.. راحوا يرددون بتهكم:

ـ كلام عبدون ينفع في السينما.

ـ كرامة إيه ونيلة إيه؟!

ـ كرامتنا في أكل عيشنا.

قال كرارة السفرجي بلهجة مَن يعرف بواطن الأمور:

ـ أنتم عاوزين الحق؟ الضرب لازم لنا.. لو الكوو منع الضرب النادي يبوظ.. إحنا للأسف صنف نمرود، نخاف ما نختشي، الواحد فينا لو ما يخاف من الضرب تلاقيه يكسل ويبلطج ويبجح في رئيسه.

أطرقوا وهز بعضهم رءوسهم كأنهم يوافقون على رأي كرارة فيهم، كانوا يتمنون أن يعجل الكوو بعقاب عبدون، أن يسحقه، كانوا يتوقون إلى رؤية عبدون وهو يتلقى الصفعات وضربات العصا ويصرخ ويستغيث ويتوسل للكوو لكي يعفو عنه، عندئذ سيحسون بالراحة، سيطمئنون، سيتأكد لهم من جديد أن إذعانهم للكوو هو التصرف الصحيح وعين العقل، سيكون بوسعهم أن يهزوا رءوسهم ويمصمصوا شفاههم إشفاقا ثم يقولون بأسى:

ـ مسكين عبدون، شفتم نهاية التهور؟

انقضى اليوم الأول بغير أن يحدث شيء، وفي صباح اليوم التالي، قبيل الظهر، توقفت السيارة الكاديلاك السوداء أمام النادي واندفع الكوو خارجا منها، كل الذين لقوه في تلك اللحظة أكدوا أنهم لم يروه غاضبا بهذا الشكل قط، كان وجهه الأسود مربدا وشفتاه الغليظتان مزمومتين، وعيناه محتقنتين كأنه مخمور، اجتاز الكوو مدخل النادي بخطوة واسعة عجلى، كان يتطلع حوله بقلق كأنما يبحث عن شيء ما، كأنما جاء لينجز أمرا عاجلا لا يقبل التأجيل.. راح حميد يقفز خلف الكوو لاهثا ككلب صيد مثابر، بينما ابتعد الخدم وتنحوا عن الطريق.. لم يجرؤ أحد منهم على إلقاء التحية على الكوو.. كانوا يدركون أنهم يشهدون حدثا فريدا في تاريخ النادي سيحتفظون به في ذاكرتهم ويحكونه للأجيال القادمة، خدم قليلون أشفقوا على عبدون من مصيره الحالك بينما غالبيتهم تابعوا ظهور الكوو الغاضب وهم يحسون بشماتة، تلق وعدك يا عبدون، سوف تأخذ الآن درس العمر حتى لا تتطاول مرة أخرى على أسيادك، ها هو الكوو الجبار يتجلى ليدلل مرة أخرى على سيادته المطلقة، سيسحق مَن تطاول عليه ويضع كل شخص في مكانه الصحيح.

عندما دخل الكوو إلى مكتب مستر رايت تزاحم الخدم في الأروقة المحيطة وتعلقت أنظارهم بالباب وكأنهم أطفال منفعلون ينتظرون عرضا في السيرك أو كأنهم جمهور المصارعة يتطلعون إلى الحلبة وينتظرون بدء القتال على أحرّ من الجمر، راحوا يتهامسون وقد تملكتهم رهبة لذيذة:

ـ اليوم نهاية عبدون.. سيمزقه الكوو من الضرب، سيطرده من النادي.

ـ سيسجنه كما فعل مع إسحاق الذي سرق الكوتشينة الملكية.

بعد نصف ساعة خرج الكوو من مكتب مستر رايت بنفس الخطوة السريعة الحازمة التي جاء بها، توقف فجأة في مدخل النادي والتفت خلفه على غير توقع فلمح بعض الخدم يتلصصون عليه، صاح فيهم بصوت كالرعد:

ـ واقفين ليه؟ غوروا من هنا.

تقافز الخدم كدجاجات مفزوعة، انقشعوا، وحدهما المتر شاكر والحاج يوسف طربوش ظلا واقفين، اقتربا من الكوو ثم انحنيا، تطلع إليهم وقال:

ـ عاوزين إيه؟

رد الحاج يوسف طربوش بصوت متهدج:

ـ يا جناب الكوو العظيم، أنت أبونا وصاحب الفضل علينا.

تقدم المتر شاكر خطوة، وقال بنبرة متوسلة:

ـ نرجوك يا جناب الكوو أن تعاقب الولد عبدون بشدة.

هز يوسف طربوش رأسه متضامنا وقال بحماس:

ـ الكلام السافل اللي قاله عبدون لا يمكن السكوت عليه.

ساد الصمت وتعلقت أنظارهما بوجه الكوو الذي، على غير توقع، لوى شفتيه باشمئزاز وأشاح بيده وصاح:

ـ شوف شغلك أنت وهو.

قال شاكر بارتباك:

ـ يا جناب الكوو...

قاطعه الكوو بصوت غاضب:

ـ سمعت أنا قلت إيه؟ يلا مع السلامة.

اضطربا وانحنيا مرة أخرى وانصرفا على عجل، انطلق الكوو خارجا بخطوته السريعة وحميد يتبعه ثم ركب السيارة وقال للسائق بصوت مقتضب:

ـ ارجع على عابدين.

كامل

في اليوم الأول اصطحبني كومانوس إلى مكتب مستر رايت الذي بدا وكأنه يراني لأول مرة، كأننا لم نلتقِ من قبل، قال بلهجة رسمية:

ـ يسعدنا أن تعمل معنا، حظ سعيد.

تمتمت ببضع كلمات لأشكره، خرجنا من مكتبه وتوجهنا إلى مكتب الكوو في قصر عابدين، في الطريق قال لي كومانوس:

ـ كامل، هناك حقيقة يجب أن تعرفها؛ الكوو هو رئيس العاملين في نادي السيارات والقصور الملكية جميعا.. أعرف أنك لن تنسى ما حدث بين الكوو وأبيك رحمه الله، أقدر مشاعرك لكني أنصحك ألا تنظر إلى الخلف أبدا، تذكر دائما أنك تعمل هنا لكي تكمل تعليمك وتنفق على إخوتك، اعتبر الماضي صفحة وانطوت.. إياك أن تتحدث عن الكوو بما لا يحبه لأن له جواسيس في كل مكان ينقلون له دبة النملة؛ الكوو يده طائلة وعقابه شديد.

هززت رأسي موافقا، لم يستغرق لقائي بالكوو دقيقة واحدة.. قدمني كومانوس قائلا:

ـ كامل همام الذي حدثتك عنه، ابن المرحوم عبد العزيز.

تطلع الكوو إليَّ، هز رأسه وتمتم بعبارة لم أسمعها ثم التفت إلى كومانوس وراح يحدثه كأنني غير موجود، أحسست بالإهانة وخطرت لي فكرة جنونية؛ أن أهجم على الكوو وأصفعه كما أمر بصفع أبي ثم أركض هاربا ولا أعود إلى النادي بعد ذلك.. اجتاحت الفكرة ذهني كالصاعقة وأثارتني لدرجة أنني بدأت أعرق وأتنفس بصوت مسموع، أغمضت عينيَ وسيطرت على نفسي بصعوبة حتى خرجنا من مكتب الكوو، في الطريق إلى النادي أخذ كومانوس يشرح لي مهام العمل بالتفصيل.

منذ اليوم الأول بذلت كل جهدي.. كنت أنقل احتياجات المطعم والبار طوال النهار ثم أجلس بعد ذلك لتدوين الصادرات والواردات، كيف أصف شعوري وأنا أعمل في المخزن؟ كيف تشعر عندما ترتدي جلباب أبيك بعد وفاته؟! عندما تجلس على المقعد الذي كان يُفضل الجلوس عليه.. عندما تضع طاقيته على رأسك وتمسك بمسبحته

وتصلي على السجادة التي كان يسجد عليها.. ستنتابك عندئذ مشاعر مختلطة، فيها حنين إلى أبيك، فيها رضا لأدائك الواجب نحوه، فيها اعتزاز.. امتداد، إحساس بأنك تستأنف وجود أبيك على نحو ما، كأنك تستعيد صوته ورائحته، كأنك أصبحت هو.. في أوقات الفراغ، كنت أستأذن كومانوس ثم أخرج الكتب والمحاضرات وأستذكر دروسي.. أول الشهر سلمت لأمي المرتب بالكامل، بكت واحتضنتني ثم انطلقت في دعاء طويل حار وظلت تلح عليَّ حتى قَبِلْت جزءا من المرتب لمصروفاتي، مع الأيام بدأت آلف وجودي في المخزن.. تأقلمت مع حياتي الجديدة.. كدت أحبها.. على أن مشهد أبي وحميد يصفعه كان يتراءى أحيانا لي فيصيبنى بالقهر، كنت أحس بالذنب لأنني لم أنتقم لأبي ممن أهانوه.. عاودتني الفكرة الجنونية: أن أذهب إلى مكتب الكوو حيث يعمل حميد فأضربهما وليكن ما يكون بعد ذلك، كانت رغبتي عارمة لكنني كنت أدرك أنني لن أنفذها، لم يكن أمامي إلا أن أجتهد في العمل والدراسة حتى أتخرج، طالما حلم أبي بأن يراني محاميا، واجبي أن أحقق حلمه.. شيء آخر كان يضايقني، أنني انقطعت عن اجتماعات لجنة الوفد.. ذات صباح استأذنت من كومانوس وذهبت للقاء حسن مؤمن.. جلسنا معا في الكافيتريا وحكيت له كل ما حدث ثم قلت:

ـ آسف يا حسن.. لن أستطيع أن أحضر الاجتماعات أو أشارك في أية مهمة، على الأقل في الفترة المقبلة.

استمع حسن إليَّ بانتباه كعادته ثم قال بهدوء:

ـ أنت الآن موظف في نادي السيارات؟

ـ نعم.

ـ ولا يهمك، ستعمل معنا من هناك.

ـ هل توجد لجنة للوفد في نادي السيارات؟

ـ نحن نعمل الآن في إطار أكبر من الوفد، لقد شكلنا جبهة وطنية من كل الاتجاهات.

ـ أين تجتمعون؟

ابتسم وقال بهدوء:

ـ ستعرف كل شيء في وقته، المهم أن تكون هناك وسيلة اتصال بك.

اتفقنا على وسيلة الاتصال؛ يتصل بي على تليفون علي حمامة البقال ويترك اسما مستعارا «يكن» وسأعاود الاتصال به، وقفت أودعه فاحتضنني بقوة وقال:

ـ يا كامل أنا معجب بوطنيتك ورجولتك.

كان حسن مؤمن مؤثرا، قادرا على إثارة حماستي في أي وقت، استعدت في ذهني ما قاله، كيف أؤدي مهاما في نادي السيارات؟! الأعضاء هنا كلهم من الأجانب والأتراك وكبار الإقطاعيين، لا أعتقد أن أحدا منهم يهتم باستقلال مصر، العكس صحيح، إن مصالح هذه الطبقة مرتبطة باستمرار الاحتلال البريطاني، مرت أسابيع، استغرقني العمل في النادي ونسيت ما قاله حسن مؤمن.. ذات صباح، كنت وحدي في المخزن، جالسا إلى مكتبي الصغير، فوجئت بعم سليمان البواب يهرع إليَّ.. بدا متوترا، اقترب مني وقال:

ـ الْحق يا كامل، سمو الأمير شامل قادم إليك.

ـ مَن؟

ـ سمو الأمير شامل؛ ابن عم مولانا الملك.

لم أكن سمعت عن الأمير شامل، انتفضت واقفا وأصلحت من هندامي: أحكمت وضع رباط العنق وثبتُّ الطربوش بيدي، دخل بعض الخدم مسرعين إلى المخزن، كانوا منفعلين للغاية، راحوا يجوبون المكان بلا هدف، كانت تلك طريقتهم لإظهار الاحترام لسمو الأمير الذي لم يلبث أن ظهر على باب المخزن، كان رجلا في نحو الخمسين، في غاية الأناقة، تسبقه رائحة عطر لطيف ونفَّاذ، أبيض البشرة، وسيم، شعره الكستنائي مصفف للوراء.. ثمة انطباع مريح يتركه في النفس لأول وهلة.. انحنيت أمامه وقلت:

ـ شرفتنا يا سمو الأمير.

قال بعربية سليمة:

ـ مسيو كومانوس موجود؟

ـ على وصول يا سمو الأمير.

ـ ما اسمك؟

ـ كامل.

ـ اسمع يا كامل، سأقيم حفلا في النادي الأسبوع القادم وأريد أن أعرف أنواع النبيذ التي ستقدمونها لضيوفي.

ـ تحت أمرك.

لحُسن الحظ كنت أعرف مكان قائمة النبيذ فهرعت وأحضرتها، مددت يدي بالقائمة وانحنيت مرة أخرى، طالعها بسرعة وقال:

ـ لا بأس، كلها أنواع جيدة.

بدا الأمير لطيفا ومتواضعا، لدهشتي راح يتحدث معي، سألني عن أسرتي ودراستي، قلت إنني أعمل مكان أبي المتوفَّى وأدرس الحقوق، أدهشني إلمامه بالمواد التي أدرسها.. قلت بحماس:

ـ سمو الأمير يبهرني بمعلوماته القانونية الرفيعة.

ضحك وقال:

ـ لقد درست القانون في السوربون، كان ذلك من سنوات طويلة، الحديث معك فرصة لكي أختبر ذاكرتي.

كنت مأخوذا، أكاد لا أصدق ما يحدث، ابن عم الملك يقف أمامي ويتحدث معي كأننا صديقان.

مد يده وتفحص الكتب الموضوعة على المكتب، وجد ديوان الشوقيات، تطلع إليَّ بنظرة مستفهمة، قلت له على استحياء إنني أحب الأدب، سألني:

ـ هل تكتفي بالقراءة أم تكتب؟

ـ لي محاولات في الشعر.

ضحك الأمير وصاح بالفرنسية:

ـ يا إلهي.. لدينا شاعر في المخزن.

ضحكت لملاحظته.. ربت على كتفي وقال بود:

ـ أنت شاب ذكي وموهوب، أتوقع لك مستقبلًا كبيرًا.

مد يده وأخرج جنيها ذهبيا مستديرا وقال:

ـ خذ.. هذه هدية صغيرة.

رددت فورا:

ـ شكرا جزيلا يا سمو الأمير، لكنني والحمد لله غير محتاج إلى مساعدة.

ـ اسمع، لو كنت أنجبت لكان لديَّ الآن ولد في مثل سنك، أنا في مقام المرحوم أبيك.. لا تخجل مني.. خذ.

ظل مادا يده بالجنيه الذهبي لكنني قلت بلهجة نهائية:

ـ أشكر سموك على هذا العطف، أرجوك أن تعفيني.

اتسعت ابتسامة الأمير وبدا كأنه لم يفاجَأ تماما بالرفض، أعاد الجنيه إلى جيبه واستدار لينصرف لكنه توقف فجأة كأنما تذكر شيئا، ابتسم من جديد وقال:

ـ هل أنت موجود هنا كل يوم؟

ـ ما عدا الأربعاء؛ عطلتي الأسبوعية.

ـ متى تنتهي من عملك؟

ـ الساعة السادسة.

ـ حسنا، يوم الخميس الساعة السادسة سأبعث إليك بسائقي ليحضرك إلى القصر، هل لديك مانع من زيارتي؟

ـ شرف عظيم لي، تحت أمرك.

هكذا قلت وأنا أنحني بشدة، أوصلناه أنا وعم سليمان إلى الخارج، مشينا خلفه حتى ركب سيارته البويك السوداء، ظللنا نرقبه حتى غابت السيارة عن نظرنا.. فوجئت بعم سليمان يجذبني بعنف من طرف كُمّي، قال بخشونة لم أعهدها فيه:

ـ تعال، عاوزك.

تبعته إلى داخل المخزن، كان يمشي بصعوبة لكنه بدا منفعلا، ولما صِرنا وحدنا تحول وجهه إلى الغضب الصريح وصاح:

ـ هل جُننت يا كامل؟ كيف تُحرج سمو الأمير إلى هذه الدرجة.

ـ أنا لم أحرجه.

ـ لقد رفضت هبته.

ـ أنا اعتذرت بأدب.

ـ من حُسن حظك أنك فعلت ذلك مع الأمير شامل.

ـ لماذا؟

ـ لأنه أطيب أمراء الأسرة المالكة، ألم تلاحظ أنه جاء بنفسه ليتفقد النبيذ؟ كان يستطيع أن يأمر بإحضارنا جميعا أمامه لو أراد، لكنه متواضع ومتسامح، لو أنك رفضت هبة غيره من الأمراء لأمر بطردك فورا.

ـ لست متسولا يا عم سليمان.

ـ يا بني افهم، الأمير أعجب بك وأحب أن يهبك شيئا.. لا يجوز أبدا أن ترفض.

ـ بل يجوز.

ـ من تظن نفسك يا كامل؟ لو تصرفت بهذه الطريقة في نادي السيارات ستجلب على نفسك مصائب بلا حصر.. نحن جميعا خدم الأمراء.. هل تفهم؟

هممت أن أقول لعم سليمان إنني طالب في الحقوق ولست خادما،

حتى لو اضطررت للعمل في المخزن مؤقتا فإن ذلك لا يجعلني خادما، خطر لي أن ردي سيجرحه فلُذت بالصمت، انتشرت الحكاية في النادي، لامني معظم الخدم على رفضي لهبة الأمير، حاولت في البداية أن أشرح لهم موقفي، كانوا جميعا متشبثين بفكرة أنني أخطأت، بعضهم قال مستنكرا:

ـ يا بني حرام تسد باب رزقك بيدك، هل أنت أغنى من الأمراء؟!

أدركت أن المناقشة معهم غير مجدية، تظاهرت بالموافقة ولُذت بالصمت.. سمعت منهم آراء متضاربة عن الأمير شامل، بعض الخدم اعتبروه رجلا عظيما وأثنوا على شجاعته وتواضعه وعطفه على الفقراء، والبعض الآخر قالوا إنه زير نساء مخبول، كافر ليس له ملة؛ تزوج مرة واحدة من امرأة إيطالية ثم طلقها بغير أن ينجب منها، بعد ذلك اندفع في علاقات نسائية لا تنتهي، صار يغير عشيقاته مثلما يغير رابطات العنق، عرفت منهم أيضا أن علاقة الأمير شامل بمولانا الملك سيئة.. الملك لا يحب اعتزازه الزائد بنفسه ويكره أفكاره المتحررة واختلاطه الزائد بالعامة ويعتبره شيوعيا، كما أنه غالبا يغار منه. الأمير شامل فنان عالمي موهوب يقيم معارض للتصوير الفوتوغرافي في أوربا كما أنه تلقى تعليما راقيا في السوربون، بينما الملك جاهل لم يحصل على شهادة جامعية ولم يُعرف عنه أي اهتمام بالفن، حكى الخدم واقعتين تسببتا في تدهور العلاقة بين الملك والأمير شامل، مرة كان الملك جالسا مع الأمير ومنحه سيجارا فوضعه الأمير في فمه وانحنى كأنه ينتظر من الملك أن يشعله له، كانت الحركة تلقائية غير مقصودة وسرعان ما انتبه الأمير لخطئه فهبَّ واقفا وقدم اعتذاره، لكن الملك غضب للغاية والتفت إلى الحاضرين وظل يتحدث معهم متجاهلا الأمير تماما مما

أجبره على الاستئذان والانصراف، الواقعة الأخرى أن الأسرة الملكية كلها كانت مدعوة لمأدبة غداء في قصر المنتزه وقد قفز الأمير شامل إلى حَمَّام السباحة قبل أن يأذن الملك بذلك، كانت هذه مخالفة جسيمة للبروتوكول، نبه المسئولون الأمير فخرج من حَمَّام السباحة وأفهموه بعد ذلك، بأكثر الطرق وضوحا ودبلوماسية، أن وجوده لم يعد يسعد مولانا الملك فانصرف ولم يتلق بعد ذلك أية دعوات ملكية إطلاقا.

هذه الحكاية جعلتني أزداد احتراما للأمير، فكرت أن هذا الرجل الذي لا يخاف من الملك نفسه تعامل معي بلطف واحترام بينما أنا بالنسبة إليه شيء لا يُذكر، تساءلت: ما السبب الذي يريدني الأمير من أجله؟ بدا لى غريبا أن يدعوني إلى بيته وهو يكاد لا يعرفني، كنت عازما على الذهاب إليه بالطبع لكنني تمنيت ألا تنتهي زيارتي للأمير بمفاجأة سيئة تبدد الانطباع الرائع الذي تركه في نفسي، يوم الخميس، في الموعد المحدد، قبل أن أخرج من المخزن إلى الشارع لأنتظر سيارة الأمير قال لي كومانوس:

ـ خذ حذرك، في صحبة الأمراء كل شيء محسوب عليك.. فكر مرتين قبل أن تنطق بكلمة.

أما عم سليمان فقد أوصلني إلى السيارة وهمس في أذني:

ـ اسمع يا كامل، أنت الآن أمام فرصة قد تأتي مرة واحدة في حياتك، إياك أن تتصرف بحماقة مثلما فعلت أول مرة.

وصلت إلى قصر الأمير شامل على ضفاف النيل في جاردن سيتي، دارت السيارة مرتين ثم توقفت أمام البوابة، فكرت كيف يعيش فرد واحد في هذه القلعة بينما يتكدس آلاف المصريين في جحور خانقة..

كان القصر فخما وأنيقا، الأسقف شاهقة والقاعات فسيحة والأعمدة الرخامية تبعث على الرهبة، أحسست أن ما يحدث غير حقيقي، خطر لي أنني أُمثّل دورا في فيلم ما، فتح لي الباب خادم أسمر ثم استقبلني في البهو رجل أنيق يرتدي بدلة بيضاء وقفازين بنفس اللون ورباط عنق أزرق، انحنى وقال مُرحّبا:

ـ شرفت يا أستاذ كامل، تفضل، سمو الأمير ينتظرك في الاستديو.

تبعته واجتزنا البهو للنهاية ثم عرجنا إلى اليمين وفتح بابا كبيرا دخلت عبره إلى استديو تصوير كبير، كانت الإضاءة خافتة، رأيت عشرات الصور الفوتوغرافية معلقة على الجدران وعدة كاميرات منصوبة في اتجاهات مختلفة، كان الأمير في هيئة لم أتوقعها، يرتدي فانلة قطنية زرقاء برقبة وبنطلونا أسود، بدا وجهه متعبا وذقنه غير حليقة.. ابتسم وقال بصوت ودود:

ـ أهلا يا كامل، أعتذر لأني مستغرق في العمل ومنظري لا يَسُر.. لن أستطيع مصافحتك حرصا على نظافة ثيابك.

ضحك عاليا وبسط يديه أمامي فلاحظت أنه يرتدي قفازات مطاطية ملطخة بالأحماض.. قال:

ـ إذا أحببت أن تتفرج على الصور فتفضل.

كل ما يفعله هذا الرجل ينم عن أناقة، لو أنه عاد إلى مائدة العمل قبل أن أبدأ الفرجة لكان هذا غير لائق، انتظر حتى ذهبت لرؤية أول صورة ثم عاد إلى مقعده واستأنف العمل، كان يقص حواف الصور الخارجة من التحميض بمقص مثبت على طرف المكتب، يجتهد في ضبط وضع الصورة ثم يهوي بالمقص فيزيل الجزء الزائد، بدأت أتفرج

على الصور المعلقة على الحائط.. لاحظت أن معظم اللوحات لوجوه نساء.. فلاحات ومصريات شعبيات ونساء أجنبيات بقبعات، استغرقتني وجوههن، كانت دائما تحمل تعبيرا فريدا، قويا، وقفت أتأمل صورة امرأة شعبية ترتدي ملاءة لف وتضع منديلا بأوية على شعرها، انتبهت على ضحكة الأمير، كان واقفا خلفي، سألني بود:

ـ هل تعجبك هذه المرأة؟

التفتُّ نحوه فلاحظت أنه خلع القفاز، قلت:

ـ تعجبني الصورة.

ـ لماذا تعجبك؟

ـ فيها أصالة؛ نوع من الغواية المصرية الخالصة، هل رأيت سموك أعمال فنان اسمه محمود سعيد؟

ـ محمود سعيد صديقي، كثيرا ما أزوره في الإسكندرية، أين رأيت أعماله؟

ـ في معرض بالمركز الثقافي الفرنسي الصيف الماضي.

ـ ما الذي ذكَّرك بأعمال سعيد؟

ـ أعتقد أن سموك تعبر بالكاميرا عما يعبر عنه محمود سعيد بالريشة.

ضحك الأمير وقال:

ـ هذا رأي رائع أتمنى أن يتبناه النقاد جميعا، أمر جيد أن تتابع الفن التشكيلي.

ـ أحاول أن أتعلم.

بان الجد على وجه الأمير وقال:

ـ أنا أيضا أتعلم بواسطة التصوير، تعرف.. أنا أصور الوجوه حتى أفهمها، الصورة وسيلة رائعة لتسجيل الحياة.. الكاميرا توقف الزمن عند لحظة معينة.. مئات التعبيرات التي تعبر وجوهنا خلال اليوم تزول، تتلاشى فلا نستطيع استرجاعها أبدا، الكاميرا وحدها تستطيع تسجيلها فتحتفظ بها إلى الأبد.

ـ ألاحظ أن كل البورتريهات لنساء.

ـ المرأة جوهر، أصل، المرأة هي الحياة.

هكذا قال الأمير بحرارة، لاحظت لأول مرة زجاجة ويسكي وكأسًا على مائدة صغيرة بجوارالمكتب.. أدركت أن حماسه مشوب بتأثير الخمر.. أشار إليَّ أن أنتظر وقال:

ـ سأريك الآن شيئا أرجو أن يعجبك.

ذهب وأحضر صورتين متماثلتين في الحجم، لاحظت أنهما لنفس المرأة؛ سيدة جميلة في نحو الأربعين، شعرها أسود طويل وترتدي جاكيتًا من الجلد، وضع الصورتين متجاورتين على المكتب ثم ضحك وقال:

ـ يا كامل أنت شاعر، لا بد أن تفهم هذا المعنى، هاتان الصورتان التقطتهما لنفس المرأة، الفرق بينهما ساعتان.. هل ترى فرقا في شكل وجه المرأة بين الصورة الأولى والثانية، خذ وقتك قبل أن تجيب.

كانت المرأة تظهر بنفس الوضع ونفس الابتسامة في الصورتين.. قلت: التفاصيل واحدة في اللوحتين.

ـ لا أقصد التفاصيل.. ركز قليلا، ألا تلاحظ أن تعبير وجه المرأة مختلف في الصورة الأولى عن الثانية؟

ظللت أحدق في الصورتين، استطرد الأمير بصوت جاد:

ـ إذا افترضنا أن حالة المرأة النفسية مختلفة في الصورتين.. في أي صورة تبدو المرأة أكثر سعادة؟

أشرت إلى إحدى اللوحات فقال بصوت عالٍ:

ـ برافو.. صح.. هل تعلم لماذا تبدو المرأة هنا أكثر سعادة؟

ـ لا أعرف.

ـ إذن.. تعالَ معي.

هكذا صاح بمرح وأشار إليَّ أن أتبعه.. خرج إلى الشرفة وأنا خلفه.. كانت النباتات والزهور في كل مكان. اقترب من إناء للزهور وقال:

ـ هذه الوردة عطشى، انظر إليها جيدا، احتفظ بشكلها في ذهنك.

رحت أتأمل الوردة بينما انطلق الأمير مبتعدا بخطوة سريعة ثم عاد وهو يحمل رشاش مياه من النوع الذي يستعمل في ري الزرع، خطر لي أن سلوكه غريب، لماذا يتغير مزاجه فجأة من النقيض للنقيض؟ هل يمكن أن يكون مضطربا نفسيا، هل هو مخبول؟ استبعدت الخاطر فورا وظللت أتابعه وهو يسقي الوردة، ابتسم وقال:

ـ أريدك الآن أن تتأمل الوردة بعد أن رويتها، ألا تلاحظ أنها تشبعت، لانت، استراحت؟

هززت رأسي موافقا فقال:

ـ إذا عدت إلى الصورتين ستجد نفس الفرق، لقد صورت هذه المرأة قبل الحب وبعده، التقطت لها صورة فور وصولها إلى الاستديو، ثم مارست معها الحب وصورتها.

أحسست بحرج، بان على وجهه تعبير طفولي عابث وصاح:

- لا بد أن أؤكد هنا أنني عاشق جبار.

قهقه عاليا فلم أتمالك نفسي من الضحك.. قضيت معه ساعتين، أكلنا وشرب هو زجاجة كاملة من النبيذ، فرغنا من الطعام وانتقلنا إلى الشرفة، تحدثنا في كل شيء: الفن والحب والشعر، حكيت له عن أسرتي وأحلامي، قال فجأة بتأثر:

- عارف يا كامل.. أنا أصلا غير مصري، أبي تركي وأمي إسبانية، أنا مولود في مدينة إيطالية اسمها سان ريمو، جئت إلى مصر وعمري عامان، مع ذلك فأنا أُحس بأنني مصري مثلك تماما.. كثيرا ما أتساءل: ما الذي يجعلني أحب مصر إلى هذا الحد؟ صدقني لا توجد إجابة محددة، في أوربا كل شيء أفضل من مصر؛ الشوارع هناك أنظف، كل شيء هناك أنيق لامع مصقول، لكن تظل جاذبية مصر قاهرة، أجمل شيء في مصر روحها والروح غير قابلة للتعريف.

قلت بأسى:

- مصر التي نحبها محتلة ومهانة.

- كل هذا عارض، زائل، هذا بلد صنع حضارة العالم على مدى آلاف السنين.. سوف تنتصر مصر وتستعيد استقلالها.

- كيف نهزم الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس؟

- التاريخ يُعلّمنا أن أقوى الإمبراطوريات هزمتها شعوب عزلاء.

- أحيانا أحس بأن هذا كلام نظري.

- لا يا كامل هذه حقيقة، إرادة الشعب لا تقهر.. بفضل ما تفعله أنت

وزملاؤك سيكتشف الإنجليز قريبا أن احتلالهم لمصر صارت له تكلفة لن يتحملوها.. عندئذ سوف يتحقق الجلاء.

أصابتني هذه الجملة الأخيرة بصدمة.. من أين يعلم الأمير بما أفعله، ساد صمت عميق قطعه الأمير قائلا:

ـ أحب أن تزورني من وقت لآخر.

ـ شرف كبير يا سمو الأمير.

كانت هذه إشارة منه لانتهاء وقت الزيارة.. نهضت واستأذنت في الانصراف، صافحني الأمير على باب الاستديو ثم ابتسم وقال:

ـ اسمع يا كامل، منذ الآن اعتبرني صديقك.

ـ صداقة سموك تشرفني.

في اللحظة التي استدرت فيها لأخرج من الباب، قال فجأة:

ـ نسيت أقول لك، هناك فتاة إنجليزية تحتاج إلى دروس تقوية في اللغة العربية، هل لديك وقت لمساعدتها؟

ـ أنا لم أعط دروسا من قبل.

ـ لكنك شاعر ولغتك العربية جيدة، وهي لن تحتاج أكثر من بضع ساعات في الأسبوع.

سكت، وضع يده على كتفي وقال وهو لا زال يبتسم:

ـ هل توافق؟

ـ تحت أمرك يا سمو الأمير.

ـ عفارم، غدا في التاسعة صباحا اذهب إلى المستر رايت، التلميذة التي ستُدرس لها هي ابنته ميتسي، لقد اتفقت معه على كل شيء.

(١٨)

في لحظة خروج جثمان عبد العزيز همام بكت زوجته أم سعيد وابنته صالحة بحرارة، أما جارتهما عائشة؛ زوجة علي حمامة، فقد أطلقت صرخات حادة ملتاعة دوت في أنحاء البيت وتناهت إلى سمع المارة في الشارع ثم اندفعت وألقت بجسدها على النعش ولما أبعدها المشيعون أخذت تلطم خديها بعنف حتى احتضنتها النسوة بقوة ليمنعنها من إيذاء نفسها، إلى هذا الحد وأكثر، تضامنت عائشة مع أهل الفقيد: فتحت شقتها لاستقبال المعزين الذين تدفقوا بالعشرات من القاهرة والصعيد.. طوال فترة الحداد لم تترك عائشة أسرة المرحوم عبد العزيز يوما واحدا، كانت تطبخ الطعام كل يوم في بيتها وتبعث به مع ابنتها فايقة بعد أن توصيها بمساعدة أم سعيد في كل ما تحتاج إليه وفعلا كانت فايقة تقوم بمهام البيت جميعا: تغسل الغسيل وتنشره وتكنس وتمسح الأرض، تغسل القلل جيدا ثم تملؤها بالماء المخلوط بالماورد وتعيد رصها في الصينية على حافة النافذة، تحمل الوسائد والملاءات والأغطية لتفردها في ضوء الشمس ثم تعيد ترتيبها على الأَسِرّة، حتى الدجاجات التي كانت أم سعيد تربيها فوق السطح تعهدت فايقة بإطعامها وتنظيف العشة كل جمعة، هذا التضامن الرائع الذي أبدته عائشة مع أسرة الفقيد هل كان مُبرّءا من الغرض؟

الإجابة فعلا صعبة لأن عائشة معروفة في الشارع بشهامتها وهي لا

تتأخر أبدا عن مساعدة كل من يحتاج إليها، من ناحية أخرى فإن وقوف عائشة بهذه الصلابة بجوار أم سعيد في محنتها قد دفع بالأحداث في اتجاه إجباري لا مفر منه.. كانت فايقة تقضي معظم النهار في بيت المرحوم وقد التزمت تماما بمظاهر الحداد: ثوب أسود بسيط خالٍ من أية بهرجة لكنه في نفس الوقت ضيق يبرز منحنيات جسدها الفاتنة وقصير ينتهي تحت الركبة مباشرة فيكشف عن بياض ساقيها الشاهق (خصوصا إذا جلست).. امتنعت فايقة عن استعمال مساحيق التجميل المعتادة واكتفت بأقل القليل: كحلت جفنيها ووضعت مسحة من البودرة على خديها مع طبقة خفيفة من أحمر الشفاة القرمزي على شفتيها المكتنزتين الشهيتين، لكن وجهها مع ذلك ازداد تألقه، بدلا من طلاء الأظافر الأحمر الفاقع وضعت فايقة طلاء هادئا يكاد يكون شفافا، لكن أصابع يديها وقدميها مع ذلك ظلت أقرب إلى تحفة فنية بديعة التكوين منها إلى أطراف آدمية تستعمل في أغراضنا الدنيوية المبتذلة، الخلاصة.. أن كل مظاهر الحداد لم تخف جمال فايقة أو تقلل من تأثيره لكنها على العكس، أظهرت جمالها في سياق مختلف ضاعف من فتنتها، بدت فايقة في ملابس الحداد وكأنها تؤدي عرضا مسرحيا يختلط فيه الأسى بالجمال والحزن بالغواية، عرض مثير يشاهده متفرج واحد هو سعيد همام الذي كان يرجع الظهر من مدرسة الصنائع فيجد فايقة تحمل صينية الأكل وتعد المائدة بنفسها، عندئذ، مهما قاوم، لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من التطلع إلى صدرها الرجراج الذي طالما منحه متعة لن ينساها أبدا، يأكل سعيد بشهية ويدخل لينام وعندما يصحو من قيلولته يجد فايقة في المطبخ تغسل الصحون أو يلمحها وهي متدلية من النافذة تنشر الغسيل، عندئذ.. رغما عنه، يلتهب خياله بتصورات فاحشة لذيذة.. في البداية كان سعيد يتذكر أباه الميت فيستشعر الحرج ويؤنبه ضميره ويجتهد حتى يغض نظره عن جسد فايقة،

لكن رياح الرغبة العاتية ظلت تهاجمه بضراوة حتى اقتلعت حرجه تماما وتملكه الهيجان حتى كاد جسده يؤلمه.. إن مجرد وجود فايقة في بيته كان يثيره، ما إن يراها وهي تروح وتجيء أمامه حتى يربد وجهه وتغيم عيناه من فرط الشهوة ويتوق للانقضاض عليها من الخلف.. عندما تتكلم كانت نغمة صوتها الرائقة الرنانة اللعوب تلهب أعصابه وتمنعه من استيعاب معنى الكلام، حتى وهي تترحم على أبيه كانت شفتاها الشهيتان تنفرجان وتتلامسان برفق فتُذكرانه بقُبلاتهما الحارة.. لم يكن سعيد قد لمس فايقة منذ أن غضبت وتركته فوق السطح، حاول مرارا وتكرارا أن يلتقي بها بعد ذلك لكنها رفضت بعناد، ذات يوم سنحت الفرصة وانفرد بها في المطبخ فهمس وهو يلهث من أثر الانفعال والرغبة معا:

ـ فايقة، أنا طالع السطح، تعالي.. عاوزك ضروري.

رمقته بنظرة باردة كالرصاص وقالت:

ـ نطلع السطح نعمل إيه يا سعيد؟ إحنا في إيه ولا إيه.. عيب عليك.

كان توبيخها قاسيا، لكن شيئا ما في صوتها كان مواربا فمنحه بعض الأمل، ألح عليها من جديد فتلقى رفضا ثانيا أقل صلابة من الأول، عندئذ اندفع يرجوها بحرارة فاستنكرت وانزعجت واحتارت وترددت، وفي النهاية قبلت على مضض كأنها مرغمة؛ صعدت وراءه إلى السطح لكنها وقفت بعيدا ولما اقترب منها انتفضت وصاحت:

ـ خليك بعيد من فضلك.

كأنه لم يسمع، كأنه منوم أو ممسوس، اقترب منها أكثر فضربته بيديها في صدره واتسعت عيناها المكحولتان الرائعتان وقالت محذرة:

ـ لو لمستني أصرخ وأعملك فضيحة.

عندئذ غطت وجهه غمامة من الأسى وسألها بصوت متقطع يثير الشفقة:

ـ لماذا تقسين عليَّ يا فايقة؟

ـ أنا أعمل الصح.

ـ أنا أحبك.

تأودت فايقة ومصمصت شفتيها وحركت حاجبها الأيسر ثم شهقت وقالت:

ـ أحبك.. الكلمة دي أصرفها من أي بنك إن شاء الله؟

طريقتها اللعوب أججت شهوته فهمس بصوت محشرج:

ـ خليني أحضنك مرة واحدة.

ـ بعينك.

ـ عشان خاطري.

ـ اسمع يا بن الناس، أنا غلطت معك وتبت، إذا كنت فاكر إني أرخّص نفسي تاني تبقى غلطان.

ـ فايقة!

ـ الرجل المحترم يدخل البيت من بابه.

كانت هذه الجملة خلاصة الموقف، قالتها فايقة ثم استدارت لتنصرف.. لكن سعيد هرع وراءها وقال:

ـ دقيقة واحدة، عاوز أتكلم معكِ.

هزت فايقة كتفيها باستهانة وقالت:

ـ الكلام خلص يا سعيد.

راح يتطلع إليها وهي تبتعد. إن منظر فايقة وهي تنزل السلم يعتبر، بدون مبالغة، لوحة جميلة حية تتضافر فيها عناصر الصوت والصورة والإيقاع، إن وقع خطواتها المنتظم بالشبشب (من نوع زنوبة أبو وردة) يتردد على هيئة صوتين متعاقبين يتكرران بتناغم كأنهما من عزف طبال محترف، عندما تمد فايقة قدمها اليمنى وتتكئ عليها لتنقل القدم اليسرى إلى الأمام، في تلك اللحظة الفارقة بالذات، يهتز جسدها في ثلاثة اتجاهات مختلفة: يتقدم ردفاها الثقيلان إلى الأمام فيكاد الاحتكاك الخافت بينهما أن يمزق الهواء ويترجرج ثدياها الناضجان الرابضان في مكمنهما فيعلنان عن حضورهما الطاغي، أما مؤخرتها الهائلة الطرية المكينة فتهتز بلا توقف مثل بندول ضخم يذهب يمينا ثم يجيء يسارا بنفس القوة والمسافة، الحق أن مؤخرة فايقة، الفريدة من نوعها شكلا ومضمونا، تحتاج إلى كتيب صغير من أجل سبر أغوارها والتعريف بخصائصها.. إن هذه المؤخرة البضة الرجراجة، المفعمة بالحيوية، في حركتها التي لا تهدأ وخلال عشرات الأوضاع الفاتنة المبهجة التي تتخذها، كثيرا ما تبدو وكأنها تمتلك حياة خاصة مستقلة عن صاحبتها.. ظل جسد فايقة الفائر وكأنه بركان هائج يقذف بحمم الغواية الملتهبة على رأس سعيد حتى تآكلت مقاومته وانهارت أعصابه وبات يقضي الليالي الطويلة مسهدا، غارقا في أفكاره بينما رغبات عنيفة تجيش وتتصارع في نفسه كأمواج المحيط، وأخيرا فاض به الكيل فذهب إلى أمه ذات مساء.. كانت جالسة على الأريكة تسبح على مسبحتها

الخضراء الكهرمان بعدما أدت صلاة العصر، دخل سعيد إلى الحجرة مندفعا، حيًّا أمه بسرعة وجلس بجوارها وقال:

ـ يا أمي، عاوز أكلمك في موضوع.

بدا منفعلا متلهفا يتعجل الحديث كأنه ينوء بحمل ثقيل يتوق إلى التخلص منه.. ابتسمت أمه وقالت:

ـ خير يا ولدي؟

ـ عاوز أتقدم لفايقة بنت علي حمامة.

ـ تتقدم يعني إيه؟

ـ يعني أخطبها وأتزوجها.

شهقت أم سعيد وألقت بالمسبحة جانبا ثم صاحت:

ـ يا نهارك أسود، أنت اتجننت، أبوك لسه دافنينه وعاوز تتجوز؟

حاول سعيد أن يهدئها لكن غضبها تصاعد وبدأت تصرخ:

ـ اختشي على دمك يا ناقص يا عايب.

هرع كامل وصالحة على صراخ أمهما لاستطلاع الأمر، لكن سعيد نهر صالحة وأرغمها على العودة إلى حجرتها بينما استمع كامل إلى الحكاية من أمه ثم تطلع إلى أخيه وقال:

ـ لا أصدق أنك تفكر بالزواج في الظروف التي نمر بها، ألا يمكن أن تنتظر عاما واحدا؟

صاح سعيد غاضبا:

ـ اسكت يا كامل مالكش دعوة.

ـ كيف ماليش دعوة.. عيب عليك وعيب على أهل فايقة.. كيف يوافق عم علي حمامة على تزويجك من ابنته ونحن لا زلنا في فترة الحداد على أبينا.

انتبه سعيد إلى خطورة المعنى فبذل جهدا ليكظم غيظه وقال:

ـ أهل فايقة لا يعرفون أي شيء عن الموضوع.

هنا صاحت أمه:

ـ لا يا شيخ، أنت عبيط ولا بتستعبط؟

لاذ سعيد بالصمت حتى أخرجت أمه كل ما في صدرها ولم تعد بها طاقة للصياح فتحولت إلى النحيب الهادئ.. عندئذ قال وهو يتطلع إلى كامل:

ـ يا أمي عاوز أكلمك لوحدك.

ـ أخوك ليس غريبا.

هكذا تمتمت أم سعيد ووجهها مبلل بالدموع لكن كامل نهض وقال:

ـ أنا خارج يا أمي.

تابعه سعيد بنظره حتى خرج وأغلق الباب خلفه ثم قام إلى أمه فَقَبَّل رأسها ويديها وجلس بجوارها ثم شرع في إلقاء مرافعته التي أعدها سلفا: قال إنه يفضل الموت وأمه راضية عنه على الحياة وهي غاضبة عليه، أقسم لها إنه لن يفعل أي شيء لا ترضى عنه وإنه سيكون دائما ابنها البار الذي يجلس دائما تحت قدميها ينتظر بركتها، لكنه والله العظيم لا يفهم ما الذي أغضبها.. إنه لم يجرم ولم يخالف القانون والشرع، إنه يريد أن يتزوج، الزواج في حد ذاته ليس عيبا ولا حراما،

قريبا سيبلغ الثالثة والعشرين، أليست هذه سن مناسبة للزواج؟! أشرف الخلق المصطفى (هنا تمتمت أم سعيد ﷺ) ألم يقل في حديثه الصحيح: «مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج»! التعجيل بالزواج إذن مستحب في الإسلام ونحن والحمد لله مسلمون، ثم إنه سيتخرج بعد أيام في مدرسة الصنائع ويحصل على الدبلوم وقد اتفق على عمل سيتسلمه في طنطا بإذن الله وبالتالي فهو قادر على فتح بيت ولن يكلفهم مليما واحدا.. هل تقبل أمه الحبيبة أن يعيش وحده في بلد غريب وحيدا بلا زوجة ترعاه؟! ثم مهلا مهلا.. مَن هي التي سيتزوجها.. هل سيدخل عليهم لا سمح الله بامرأة غريبة لا يعرفونها؟!

إنها فايقة ابنة عائشة وعلي حمامة؛ الجيران المحبون الذين أصبحوا كأنهم أهل، فايقة يا أمي التي حزنت على المرحوم مثلنا تماما نحن أولاده، فايقة التي لم تتركك يا أمي يوما واحدا.. التي خدمتك كأنها ابنتك، هل تستحق بعد كل الذي فعلته معنا إلا كل خير؟ ثم يا أمي أنتِ صعيدية تربيتِ على الجد والصح، ولا تقبلين الحال المايل، هل يصح أن تدخل فايقة وتخرج من بيتنا وهي شرعا محرمة علينا أنا وكامل ومحمود؟ ألا يكون شكلنا جميعا أفضل لو عقدت عليها على سُنة الله ورسوله لنقطع ألسنة السوء وما أكثرها في الشارع كما تعلمين؟ أين المشكلة يا أمي إذن؟

كانت أم سعيد جالسة وقد ربعت ساقيها على الأريكة وكفت عن البكاء، أطرقت صامتة فتشجع سعيد واستطرد بحماس:

ـ أنا أعرف أين المشكلة يا أمي.. أنت تعتبرين زواجي قبل مرور عام على موت أبي عيبا كبيرا لأنه يتعارض مع الحداد، الزواج في حد ذاته يا أمي ليس علامة على الفرح، الاحتفال بالزواج هو الفرح.. أنا

سأتزوج فايقة بدون احتفال.. لن أرضى ولن ترضى فايقة ولا أهلها أن نخدش حدادنا على المرحوم أبدا، سأتزوج في صمت يا أمي، لا فرح ولا زغاريد ولا زفة ولا رقاصة.. حاشى لله أن أفعل شيئا من ذلك.. كل ما أريده يا أمي قراءة الفاتحة الآن وبعد أسبوع أو اثنين نكتب الكتاب وندخل في الشقة التي سأستأجرها في طنطا.

ظل سعيد يلعب على هذه الأوتار حتى لانت أمه أخيرا، في اليوم التالي، ساعة الضحى، فوجئت عائشة بزيارة من أم سعيد. بعد القُبلات والأحضان والقهوة والأحاديث العابرة تطلعت أم سعيد بنظرة جادة إلى عائشة وسألتها:

ـ قولي لي يا أختي.. هي بنتك فايقة حد اتكلم عليها؟

ـ البنت لسة صغيرة يا أم سعيد.

ـ خير إن شاء الله.. أنا عاوزة فايقة لابني سعيد.

قبل أن تستوعب عائشة المفاجأة، استطردت أم سعيد بسرعة كأنما تصحح جملتها:

ـ لكن عندي شرط، على رأي المثل اللي أوله شرط آخره نور.

ـ شرط؟!

هكذا تساءلت عائشة وهي تتطلع بفضول حذر إلى أم سعيد التي أسندت ظهرها إلى المقعد وقالت:

ـ إذا كان فيه نصيب سعيد يأخذ فايقة يبقى لازم تعرفي ظروفنا، حُزننا على المرحوم عبد العزيز عمره ما ينتهي ولا بعد مائة سنة، لكن الأصول عندنا أن الحداد سنة، أي فرحة في أيام الحداد تبقى عندنا في الصعيد فضيحة وجرسة.

فوجئت عائشة ولعلها أرادت أن تعطي نفسها مهلة تفكير فتنهدت وقالت:

ـ الله يرحمك يا حاج عبد العزيز يا زين الرجال.

على أن هذه المجاملة لم تؤثر في أم سعيد بل استفزتها على نحو ما فقالت:

ـ إذا كان فيه نصيب يبقى ما فيش فرح، ما فيش زغاريد ولا معازيم ولا حتى فستان أبيض.

كانت أم سعيد واثقة من أن عائشة سترفض هذه الشروط.. كل أم في الدنيا تريد أن تفرح بابنتها يوم العرس فكيف تقبل عائشة بأن تزف ابنتها الوحيدة بلا مراسم ولا احتفال، تطلعت أم سعيد إلى عائشة بنظرة مترقبة لا تخلو من تحدٍّ وقالت:

ـ قلتِ إيه؟

مسحت عائشة وجهها بكفيها (وهذه حركة تلازمها عندما تنفعل)، ثم تطلعت إلى أم سعيد الجالسة وقالت وهي تضغط الحروف:

ـ صلي على اللي يشفع لك يأم سعيد.

ـ اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد.

ـ زيدي النبي صلاة.

ـ اللهم صلِّ وسلم عليه.

ـ بصي يا أم سعيد، أقول لكِ كلمتين وحطيهم حلقة في ودنك.

(١٩)

كان جيمس رايت جالسا في مكتبه يراجع ميزانية النادي، استغرق تماما في قراءة الأرقام من الدفتر الكبير المفتوح أمامه، وفجأة انتبه على صوت خليل الفراش وهو يقول:

ـ الكوو في الخارج يطلب مقابلة سيادتك.

تطلع إليه رايت مستنكرا وقال:

ـ لماذا لم يطلب موعدا؟

ـ يقول إن الأمر لا يقبل التأجيل.

فكر مستر رايت قليلا ثم أشار بيده فهرع خليل إلى الخارج وسرعان ما كان الكوو واقفا بقامته الطويلة في منتصف الحجرة، بدا عابسا متحفزا، قال بصوت متهدج:

ـ آسف لأني جئت بدون موعد، لكن الأمر عاجل.

ـ هل نشبت حرب عالمية جديدة؟

تجاهل الكوو ما يحمله السؤال من تهكم واستطرد بنفس الاندفاع:

ـ مستر رايت، لن أمشي من هنا قبل أن تتخذ قرارا يعيد النظام.

ـ هل أتيت لتخبرني بما يجب أن أفعله؟!

انحنى الكوو وقال بلهجة ضارعة:

ـ آسف، لكن ما حدث فعلا خطير.

ـ هلا تكلمت بحق المسيح.

ـ عبدون يحرض الخدم ضد إدارة النادي.

ـ من أين عرفت؟

ـ لديَّ عيون في كل مكان.

تنحنح مستر رايت وانهمك في تسليك غليونه ثم حشر الدخان في فوهته وأشعله كأنما يعطي نفسه فرصة للتفكير، أخيرا قال بهدوء:

ـ أنت تختلق كل يوم مشاكل جديدة حتى أطرد عبدون من النادي، يجب أن تفهم أنني لن أطرده.

قال الكوو بلهجة متوسلة:

ـ مستر رايت، عبدون قال كلاما لا يمكن قبوله.

ـ ماذا قال؟

ـ قال إننا نحن الذين قتلنا عبد العزيز همام لأننا صفعناه فلم يحتمل الإهانة.. قال إننا نعامل الخدم مثل الكلاب ودعا الخدم إلى مقابلتي ليطلبوا مني إلغاء عقوبة الضرب.

ـ وهل قابلك أحد؟

ـ لن يجرؤ أحد منهم على التفوه بهذا الكلام أمامي.

ـ أين المشكلة إذن؟

نظر إليه الكوو باستنكار ثم تمالك نفسه وقال:

ـ لا بد من عقاب عبدون على ما قاله.

ـ لن أعاقب أحدا على ما يهمس به لزملائه.

ـ أستطيع أن أستدعي الآن عشرة شهود على ما قاله.

ـ عبدون أيضا سيحضر شهود نفي؛ وعندئذ سنترك عملنا ونتفرغ للتحقيق في الوشايات، لا أعتقد أن ذلك يفيد أحدا.

ـ إذا لم نعاقب عبدون فورا سوف يتمرد الخدم ضدنا.

تنهد رايت وبدا نافد الصبر ثم تطلع إلى الكوو وقال:

ـ اسمع.. أنت رئيس الخدم، يُفترض أنك أعلى من هذه الصغائر، لا تلتفت إلى الكلام الذي يتردد وراء ظهرك، إذا قال أحد أمامك شيئا لا يعجبك عاقبه بشدة، أما الهمس الذي يتردد بين الخدم فليس من شأنك.

ـ ما يقال الآن من خلفي سيقال غدا أمامي.

ـ أنت تبالغ.

ـ مستر رايت.. لقد قضيت حياتي كلها في التعامل مع الخدم فأنا أعرفهم جيدا؛ الخدم لا يعملون بكفاءة إلا إذا خافوا، وهم لا يخافون إلا إذا أحسوا بأنهم في أية لحظة قد يتعرضون إلى العقاب بسبب أو حتى بغير سبب.. إذا تمتع أي خادم بالثقة في نفسه وفي قدراته، إذا اطمأن إلى عدالة ما، إذا شعر بأن له حقوقا فسوف يتمرد فورا، إن العدل يفسد الخدم لأن مَن تعود على الظلم لا يستطيع أن يفهم العدل، إذا احترمت الخادم سوف يسيء إليك، الاحترام صعب على فهم الخادم

فهو يعتبره نوعا من الضعف، مهما يشكو الخادم من قسوة سيده فإنه يتفهم أسبابها ويحترمها.

نفث مستر رايت سحابة كثيفة من الدخان وقال:

ـ اطمئن، لن يحدث تمرد، أريدك فقط أن تتابع الأمر وتبلغني أولا بأول.

كاد الكوو يعترض لكن مستر رايت عاد إلى قراءة الدفتر المفتوح أمامه، كان ذلك إشارة على انتهاء المقابلة، وفقا للتقاليد انحنى الكوو وسأل:

ـ أي خدمة يا سيدي؟

ـ لا.

انصرف الكوو وظل رايت يطالع الأوراق أمامه، بعد دقائق أحس بأنه لم يعد يميز الحروف التي يراها، كان ذهنه مشغولا لدرجة أعجزته عن القراءة، قام من مكانه وأمر خليل ألا يسمح لأحد بإزعاجه ثم أغلق الباب من الداخل، لا يشرب مستر رايت مطلقا أثناء العمل باستثناء كأس واحدة من النبيذ مع الغداء، وهو يحتفظ من أجل الضيوف في مكتبه بزجاجة ويسكي لم يستعمل منها خلال عام كامل إلا بضع كئوس، على أنه في تلك اللحظة أحس بأنه بحاجة ملحة إلى الشراب، مع أول رشفة من الويسكي انهمرت هواجسه.. يا إلهي.. ما الذي أطلق كل هذه العفاريت من القمقم؟ لماذا يبدو الأمر وكأن لعنة ما أصابته؟ لماذا يسير كل شيء عكس ما يريد؟ ها هي ابنته ترفض دعوة الملك، كم فتاة في هذا العالم يخطر لها أن ترفض دعوة ملك للعشاء؟ تصرفات ميتسي الكريهة بلا نهاية، لقد رفضت الدعوة الملكية لمجرد استفزازه لا أكثر ولا أقل.. لا شك في ذلك.. لو أنه طلب منها أن ترفض الدعوة لكانت

أصرت على الذهاب، أهم شيء عندها أن تتحداه، قمة سعادتها في التنغيص عليه.. ماذا فعل حتى تكرهه ابنته إلى هذا الحد؟ ثم لماذا يستمر عرض المصائب بلا توقف؟ ماذا يحدث في النادي.. هذا العبدون مجرد خادم.. حشرة لا يُلتفت إليها في الظروف العادية، لقد ألحقه بالعمل إرضاء لأوديت، ها هو الآن يحض زملاءه على التمرد، لقد تحول من خادم إلى زعيم يتحدث عن الكرامة، ابتسم مستر رايت ساخرا ثم استرجع حواره مع الكوو فانتابته كآبة.. الكوو على حق، ما قاله عبدون سوف يفسد الخدم، ولو أنه قال أقل من ذلك في الظروف العادية لَطَرده فورا، رشف مستر رايت من الكأس وتساءل:

ـ لماذا اعترضت على رأي الكوو؟ لماذا قلت عكس ما أعتقد؟ هل صرت أخالف ضميري وأردد أكاذيب حتى لا أغضب أوديت؟ كيف انزلقت إلى هذا الدرك؟ هل تحولت إلى أفاق عجوز يكذب حتى ترضى عنه عشيقته؟

صب لنفسه كأسا أخرى ثم جلس على المقعد ومد قدميه وشرب جرعة كبيرة وأحس بحرارة تصعد إلى رأسه.. كيف أخضعته أوديت إلى هذه الدرجة؟ كيف صار يخشى من إغضابها مهما يكن السبب؟ كيف صار يعيش يومه وهو ينتظر لقاءها؟ إن حياته العادية، ساعات عمله وساعات لقائه بأسرته وحتى جلساته في النادي، تحولت إلى مجرد أوقات انتظار، كأن لقاءه بأوديت هو الحياة الحقيقية، وكل ما عدا ذلك زائف وباهت وممل.. كيف سيطرت أوديت على مشاعره لهذه الدرجة؟ يا للعار! هل جعلته شهوته يفقد شرفه؟ هكذا فكر رايت وبعد أن فرغ من الكأس الثالثة قال لنفسه: إنني عجوز قد أموت في أية لحظة، يجب أن أحافظ على شرفي.

إذا كانت علاقتي بأوديت خطأ فإن ما فعلته مع الكوو سقطة شنيعة، خيانتي لزوجتي لا تضر سواها أما أن أكذب وأخالف ضميري من أجل شهوتي فهذا هو السقوط الأخلاقي الكامل.. شيئا فشيئا ضاعف تأثير الخمر من سخطه، غادر نادي السيارات إلى نادي الجزيرة حيث تناول الغداء ثم احتسى كأسا أخرى فلم يتمالك نفسه، اتصل بأوديت تليفونيا وسألها إن كان من الممكن أن يراها فورا، جاءه صوتها عبر الهاتف مترقبا حذرا، كأنها كانت تتوقع مكالمته، اتفقا على اللقاء بعد ساعة في الشقة، شرب كأسا جديدة ثم دفع الحساب ومشى في شوارع الزمالك حتى حان الموعد فصعد إلى الشقة، ما إن فتح الباب بمفتاحه حتى وجدها أمامه فاحتضنها، ضحكت أوديت، مدت قدمها إلى الخلف ودفعت بها الباب المفتوح فأغلقته، غابا في قبلة حارّة طويلة.. يا لهذا الوهج الذي ينبعث من جسدها، أحس بالدم يندفع بعنف إلى نصفه الأسفل فاحتضنها بشدة وانهال بالقُبلات على وجهها وعنقها.. لكنها أبعدته برفق وقالت برقة:

ـ ما هو الموضوع الذي تريدني من أجله؟

ـ سأخبركِ فيما بعد.

ـ أريد أن أعرف الآن.

ابتعد عنها وصنع كأسين على مهل وهو يفكر كيف يبدأ الحديث، قدم لها كأسا ثم أخذ كأسه وجلس على المقعد المقابل للباب وقال:

ـ تعلمين كم أحبكِ.

هزت رأسها وابتسمت، واستطرد قائلا:

ـ لقد طلبتِ مني تشغيل عبدون في نادي السيارات، ولقد فعلت ذلك من أجلكِ.

رشفت أوديت من كأسها وأشعلت سيجارة وقالت:

ـ سيظل جميلك يطوق عنقي إلى الأبد، سوف أهبك روحي لأنك قَبِلت تعيين عبدون في منصب مساعد بارمان.

ـ لقد تسبب عبدون في مشكلة.

ـ ما الجريمة التي ارتكبها.. هل قتل أحدا في ناديكم العظيم؟

ـ إنه يُحرض الخدم ضدنا.

ـ يا للجرم الشنيع، لماذا لا تلقي به إلى الأسود الجائعة كما كان الإمبراطور الروماني يفعل بمن يغضب عليهم.

ـ كفي عن السخرية أرجوكِ.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

تردد مستر رايت قليلا ثم قال بصوت خافت:

ـ أوديت، يجب تنقلي لعبدون أن ما قاله غير مقبول.

ـ ماذا قال؟

ـ إنه يطالب بمنع عقوبة الضرب.

تطلعت إليه أوديت وصاحت:

ـ ضرب؟! هل تضرب مرءوسيك في العمل.

ـ أنا لا أضربهم.

ـ مَن يضربهم إذن؟

ـ رئيس الخدم هو الذي يضربهم إذا أخطئوا.

ـ لكنك تعتبر ذلك أمرا مقبولا!

ـ أوه.. كفي عن هذا اللغو.

ـ حتى إذا لم تشترك بنفسك في هذه الجريمة فأنت مسئول عنها.

ـ هذه ليست جريمة.

ـ إذا ضربت أحد مرءوسيك في بريطانيا سوف تُحاكَم وتُسجن.

زفر مستر رايت وقال بزهق:

ـ لسنا في بريطانيا، أوديت.. مشكلتك أنكِ تعيشين بين السحب، أنت غير قادرة على رؤية الواقع وهذا أمر مؤسف، قلت لكِ من قبل إن المصريين مختلفون عن الغربيين.

ـ هل تعتقد أن الخادم البريطاني يستحق أن نعامله باحترام بينما الخادم المصري يجب أن يُضرب؟

ظل مستر رايت صامتا، تجرع ما تبقى من الكأس دفعة واحدة واحمر وجهه بينما انفعلت أوديت وصاحت:

ـ أجبني.

ـ ماذا تريدين؟

ـ هل ترى أن البشر لا يتساوون في الحقوق؟

ـ الناس جميعا يتساوون في الحقوق لكن مفهومهم عن هذه الحقوق مختلف.

ـ لا تتلاعب بالألفاظ.. كن شجاعا وقل رأيك بصراحة، لا تخف.

ـ أنا لا أخاف منك.

ـ حسنا، قل ما تعتقده، هل المصريون في رأيك قابلون لتحمل الإهانة أكثر من البريطانيين؟

ـ نعم.. هذا رأيي.

هكذا صاح رايت فجأة وقد احتقن وجهه ثم استدار نحو النافذة وأعطاها ظهره وصاح بصوت عالٍ:

ـ لقد سئمت من محاضراتكِ، ماذا تريدين أن تعرفي؟ ليس لديَّ ما أخفيه، اسمعي رأيي وافهميه مرة واحدة إلى الأبد؛ المصريون أغبياء وكسالى وكذابون.. إذا كان رأيي لا يعجبكِ فهذا شأنك، أنا مدير نادي السيارات والخادم الذي عينته من أجلك يثير المشاكل بين زملائه.. قولي له أن يغلق فمه وألا يحشر أنفه في شئون الآخرين، قولي له إن القواعد في نادي السيارات لن تتغير أبدا، من يخطئ من الخدم سوف يُصفع ويضرب بشدة.

كان رايت يتكلم بانفعال، انطلقت الكلمات بسرعة وهو ينظر عبر النافذة، ولما التفت إلى أوديت لم يجدها على مقعدها، كانت قد نهضت والتقطت حقيبة يدها وتوجهت نحو الباب.. قفز رايت من مكانه وأمسك بذراعها لكنها جذبتها بعيدا وقالت:

ـ اتركني.

ـ أوديت، اسمعيني.

ـ لا يمكن أن أستمر في علاقة مع شخص عنصري مثلك، أنا لا أفهم كيف قبلتُ بهذه العلاقة من الأساس.. اطرد عبدون أو اضربه، افعل ما شئت فهذا لا يهمني، لكنك لن تراني بعد الآن.

حاول أن يمسك بها لكنها تملصت بقوة، اندفعت خارجة وصفقت الباب خلفها، عاد رايت إلى مقعده وجلس ببطء.. أحس بدوار، لقد شرب اليوم كثيرا، كما أن الأحداث تتابعت بسرعة فلم يعد بمقدوره أن يلاحقها، ها هي أوديت قد غضبت وهجرته لمجرد أنه اعترض على تصرفات عبدون.. مَن يكون هذا العبدون حتى يؤثر في علاقته بأوديت؟ لماذا كل هذا الحماس من أجل خادم؟ خطرت له فكرة مزعجة طالما تهرب منها.. لماذا تهتم أوديت بعبدون إلى هذا الحد؟ ما نوع العلاقة بينهما؟ هل يضاجعها هذا الزنجي؟ هل يُرضي أوديت في الفراش بدرجة لا يتوقع معها أن تحتاج لعشيق آخر كما أنها تكبر عبدون بسنوات؟

لم يستطع مستر رايت أن يطرد الهواجس تماما، بدت له علاقة أوديت بعبدون مستبعدة، لكنه تعلم من خبرته في الحياة أنه في علاقة الرجل بالمرأة لا شيء مؤكد ولا مستحيل.. من أدراه؟ إن عبدون في النهاية شاب وسيم وبعض النساء يثيرهن الرجل الأقل منهن، يشتهين الخادم والسائق والسفرجي.. تماما كما يشتهي بعض الرجال الخادمات والطباخات، أغمض عينيه وعاد بظهره في المقعد، كان يحس بمرارة.. لماذا انصرفت أوديت وتركته وحيدا؟ كان يتوق إلى مضاجعتها ولو مرة واحدة.. إن مشاعره نحوها قوية لكنها مختلطة، إنه يحبها ويرفض ما تفعله، يعشقها ويكره ضعفه أمامها، أحيانا يندم لأنه لم يلتقِ بها وهو أصغر سنا ليتزوجها ويقضي حياته معها، وأحيانا يتمنى لو أنه لم يلتقِ بها إطلاقا، تذكر الحوار الأخير بينهما وراح يتساءل:

لماذا تسخر أوديت مني؟ لماذا تحدثني بتعالٍ؟ هل تظنني فاقدا للكرامة؟! إنها واثقة أنني لن أستغني عنها أبدا مهما قالت ومهما فعلت، إذا كانت تجرجر عشاقها من أنوفهم فيجب أن تفهم أنني مختلف.

تزايد غضب مستر رايت بتأثير الشراب وقال لنفسه:

ـ حان الوقت لكي أتصرف كرجل، إذا كانت أوديت لا تريدني فلن أتوسل إليها حتى تستمر معي، لن أموت إذا هجرتني. اللعنة على كل ذلك.

إنه لم يرتكب خطأ في حقها، هي التي غضبت بدون سبب، إذا توقعت أن يطاردها ويستعطفها كما فعل من قبل فهي واهمة، عاهد نفسه على ألا يتصل بها مرة أخرى.. عاد إلى بيته وهو يحس براحة للقرار الذي اتخذه، في اليوم التالي مارس عمله كالمعتاد، حاول أن يركز تفكيره في العمل لكن أوديت راحت تقفز إلى مخيلته، رآها في مائة مشهد وسمع صوتها وهي تتكلم وأحس بحرارة جسدها وهو يذوب في أحضانه، قال لنفسه:

ـ من الطبيعي أن أستغرق وقتا حتى أنساها.

في المساء، وهو يحتسي الويسكي في بار النادي راح يفكر بطريقة مختلفة: هل كان الخلاف مع أوديت يستحق كل ما حدث؟ ألم يبالغ في غضبه؟ وحتى لو كان موقفه صحيحا، حتى لو قرر أن يقطع علاقته بها، أليس من الخطأ أن يختفي هكذا فجأة؟ أليس رد فعله طفوليا على نحو ما؟ لماذا لا يتصل بها ليوضح موقفه؟ لماذا لا يعلن أمامها أنه سيهجرها كما هجرته، لماذا لا يفاجئها بصلابته وتماسكه؟ لماذا لا يناقشها ويظهر خطأها؟ لو تحدث معها قليلا سيجعلها تندم على ما فعلته.. ستدرك كم تسرعت وأخطأت.. قرر أن يتصل بها ليس لأنها أوحشته وليس ليطلب لقاءها إنما فقط ليطلعها على قراره، سوف يلقنها درسا لن تنساه، سوف يصفع غرورها ببضع كلمات ويسفه ما فعلته ثم

يغلق السماعة ويتركها إلى الأبد.. قام إلى التليفون وطلب الرقم وما إن سمع صوتها حتى قال:

ـ أوديت.

ـ ماذا تريد؟

ـ لقد فكرت في كلامك، أعتقد أنك على حق، علاقتنا يجب أن تنتهي.

ـ أوكيه.

هكذا ردت بهدوء ثم أغلقت الخط، ظل مأخوذا، كان يتوقع منها أن تتكلم قليلا، أن تناقشه أو تغضب أو حتى تتشاجر، عندئذ كان سيلومها على فعلتها ويستمع إلى وجهة نظرها ويناقشها، لكنها لم تعطه فرصة، ظل مشوش التفكير، بعد ما شرب كأسا أخرى نهض من مكانه وذهب إلى التليفون واتصل بها من جديد، هذه المرة لم ترد.. ازداد اضطرابه واندفع يعاود الاتصال مرة بعد أخرى، كان يضع السماعة على أذنه حتى ينقطع الصفير ثم يضغط الزر ويطلب من جديد، عاد إلى مكانه على البار وشرب كأسا أخرى ثم طلب الحساب وبذل مجهودا حتى لا يترنح، كان قد أفرط في الشراب، قاد سيارته وخرج من النادي وبعد نصف ساعة كان واقفا أمام شقتها، دق الجرس عدة مرات، أخيرا انفتح الباب وظهرت أوديت، تقدم وتراجعت هي أمامه حتى دخل وأغلق الباب وراءه، عندئذ وجد نفسه يقول بنبرة غريبة كأنها تصدر من شخص آخر:

ـ أوديت، أنا أعتذر عن الخطأ الذي ارتكبته بالأمس، سامحيني أرجوكِ، لا تتركيني، أنا أحبكِ.

(٢٠)

صحيح أن محمود همام يفهم بصعوبة ولا يحسن التعبير عن أفكاره لكنه في النهاية يحس بمشاعر عادية مثل بقية الناس، عندما توفي أبوه أصابته صدمة، ظل يبكي كالأطفال وهو يودعه إلى القبر، تذكر بحسرة كيف كان يعامله بحنان بالغ وكيف صبر على فشله المتكرر في الدراسة وخيبته المزمنة، حتى المرتين التي فاض فيهما الكيل بالأب من بلادته وقام بصفعه، تبخرتا تماما من ذهن محمود ولم يعد يتذكر إلا وجه أبيه وهو يتطلع إليه بمزيج من العطف وخيبة الأمل، أحس محمود أنه فقد سنده الأكبر في الحياة، وأنه ضائع، كان حزنه على أبيه صادقا وعميقا، لكنه في نفس الوقت انتهز الفرصة وانقطع عن الذهاب إلى المدرسة، في البداية اعتبرت أمه انقطاعه نتيجة طبيعية لحزنه على أبيه، لكنها بعد أسبوعين كاملين لم يذهب خلالهما إلى المدرسة مرة واحدة، قَبَّلته على جبينه وهي تقدم له الإفطار في الفراش ثم تطلعت إليه بنظرة مشفقة وقالت:

ـ يا ولدي الموت علينا حق، المفروض ترجع المدرسة وتجتهد وتحقق رغبة المرحوم، كان نفسه يشوفك ناجح في الإعدادية.

تنهد محمود وأطرق في حزن ثم صاح باستنكار:

ـ مدرسة إيه يا أمي؟ إحنا في إيه ولا في إيه؟ أنا نفسيتي تعبانة جدا.

ظلت أمه تلح عليه حتى يعود إلى الدراسة، وفي النهاية قال لها ليغلق النقاش:

ـ طيب، خليها بظروفها.

بعد ذلك صار محمود، إرضاء لأمه وتفاديا لإلحاحها، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع على الأكثر، ينزل في موعد المدرسة ثم يزوغ كعادته فيذهب إلى المقهى أو يلعب كرة في المثلث حتى ينتهي اليوم فيحمل كتبه ويرجع إلى البيت، شيئا فشيئا لم تعد أمه تلومه على غيابه عن المدرسة، استسلمت، لقد تسببت وفاة زوجها المفاجئة في أزمة طاحنة لم تترك لها فائضا للاهتمام بمحمود الذي كانت تعلم أن انقطاعه عن الدراسة أمر حتمي لكنه مؤجل، إن لم يحدث اليوم سيحدث غدا، ربما فكرت أن المصاريف التي تبددها بلا جدوى على تعليم محمود الكسلان ستفيدها في الإنفاق على ما هو أجدى، لم تعد أم سعيد تكلم محمود في موضوع الدراسة إطلاقا، حدث بين الابن والأم نوع من التعايش السلمي، التواطؤ، التقبل المتبادل الصامت لأمر مفهوم ضمنا، عندما جاء كومانوس يطلب اثنين من أبناء المرحوم للعمل معه في نادي السيارات تحمس محمود واستبشر خيرا لأن عمله في نادي السيارات سيُغلق ملف الدراسة إلى الأبد (لا يُعقل أن يطلب أحد منه الذهاب إلى المدرسة بعد أن أصبح موظفا محترما!)، قبل أن يتسلم محمود العمل استمع إلى نصائح أمه وأخيه كامل بانتباه وقد بدا على وجهه الأسود ما يشبه الرضا.. قال كامل:

ـ يا محمود.. الشغل مختلف عن المدرسة؛ في الشغل ما فيش تزويغ، لو زوغت من الشغل مرة واحدة يطردوك فورا.

وقالت أمه:

ـ يا ولدي، أنت داخل في الشغل على ناس يعرفوك لأول مرة، خليك

ظريف ومؤدب، إذا حد قالك كلمة غلط امسك نفسك، ربنا أعطاك قوة ولو ضربت حد ممكن تموته وتبقى مصيبة، ربنا يحميك يا بني.

لم يكن يحتاج إلى هذه النصائح لأنه قرر أن يبذل كل مجهوده في العمل، منذ اليوم الأول أحس محمود براحة عظيمة كأنما ولد من جديد، أخيرا بدأ ينعم بالحياة التي طالما تمناها: يستيقظ من نومه ساعة الظهر فتحضر له أمه الإفطار في الفراش. يتحدثان في أمور عابرة حتى ينتهي من الأكل، بعد ذلك يشرب كوبين من الشاي؛ واحد باللبن وواحد بالنعناع، يعقبهما بفنجانين من القهوة المضبوطة المغلية.. بعد أن يستوثق محمود تماما من صفاء ذهنه وروقان مزاجه (وليس قبل ذلك أبدا).. ينهض من فراشه ليبدأ دورته اليومية التي، مهما كانت الظروف، لا بد له أن يتمها كاملة غير منقوصة قبل أن ينزل لمواجهة العالم: يستحم فيغسل جسده جزءا جزءا بعناية وإخلاص ثم يحلق ذقنه أكثر من مرة حتى تصير ناعمة كالحرير ويجتهد في تصفيف شعره الأكرت (باستعمال البريانتين الإنجليزي ماركة سمارت) ليحافظ على شكل الكاريه الذي يقسم رأسه إلى ثلث وثلثين بينهما فرق عريض على الجانب الأيمن، بعد ذلك يرتدي أكثر ثيابه أناقة ويبخ على جسده عدة زخات من زجاجة العطر أولد سابيس ثم يُقبِّل رأس أمه ويديها ويخرج، ما إن يصل إلى نادي السيارات حتى يصعد إلى الفستيير فوق السطح حيث يخلع ثيابه مرة أخرى ويعلقها بعناية بالغة على المشجب ثم يرتدي اليونيفورم: بنطلون أسود ضيق يبرز ساقيه القويتين، وعلى جانبه خطان عريضان باللون الأحمر مثل زي الفرسان، وجاكيتة مطرزة بالقصب ضيقة تبرز جسده الفارع وصدره الفسيح وعضلاته المفتولة وعلى رأسه طربوش أحمر أنيق، يخرج من باب النادي بهذا الزي ويمشي في شارع قصر النيل بخطوة واسعة استعراضية حتى يصل إلى الجراج الموجود في

شارع ضيق خلف النادي من ناحية ميدان الإسماعيلية. هناك، يجلس محمود بزيه المزركش بجوار عم مصطفى السائق العجوز، يظل الاثنان رابضَيْن، في حالة استعداد، يتجاذبان أطراف الحديث ويشربان أقداح الشاي الواحد تلو الآخر حتى يرن جرس التليفون في الجراج ويخبرهم التليفونيست بأمر توصيل إلى أحد أعضاء النادي، عندئذ، ينطلق محمود فورا ويأخذ الطلب من ركابي الطباخ بينما يتولى عم مصطفى إخراج السيارة السيتروين البيك الأب من الجراج ويأخذ محمود بجواره وينطلقان إلى عنوان الزبون، منذ اليوم الأول بدأ عم مصطفى السائق يلقنه أسرار العمل.. قال:

ـ يا محمود، طريقة تقديمك الطلب أهم من الطلب نفسه.

ـ مش فاهم!

ـ وأنت بتقدم الطلب لازم تبتسم وتوطي صوتك وتنحني قدام الزبون وأنت مسبل عينيك.

ـ ليه دا كله؟

ـ يا بني اسمع الكلام، أهم شيء عند أعضاء النادي أن يحسوا بأنهم مهمون جدا، البريستيج عندهم أهم من الأكل والشرب، كلما أعطيتهم برستيج أعطوك بقشيش.

كانت مشاوير التوصيل كلها إلى بيوت أعضاء النادي، في جاردن سيتي أو الزمالك أو المعادي وأحيانا في مصر الجديدة، كانوا عادة يطلبون عشاء أو جاتوه أو تورتات من التي يبرع الشيف ركابي في صنعها، في أحيان كثيرة يكونون في جلسة شراب وتنفد الخمر فيطلبون من النادي زجاجة ويسكي مع مزات ساخنة وباردة، يوما بعد يوم،

ببطء، أخذ محمود يتعلم قواعد العمل.. يأخذ الطلب ويصعد إلى شقة الزبون.. يدق جرس الباب ويبتعد خطوتين إلى الخلف، يفتح السفرجي أو الخادمة فيطلب محمود منهما رؤية البيه أو الهانم.. ما إن يظهر أحدهما حتى يتقدم محمود نحوه بخطوة رياضية فسيحة ثم ينحني باحترام ويقول بصوت عميق ونبرة تبجيل:

ـ مساء الخير ياسعادة البك.. نادي السيارات.

وفي حالة الأجانب كان يقول جملة فرنسية واحدة عرجاء تعلمها من عم مصطفى بعد جهد جهيد:

ـ بونسوار مسيو، أوتوموبيل كلوب.

يتسلم السفرجي منه الطلب بينما يوقع الزبون على الفاتورة وقد يدفع قيمتها نقدا، في معظم الأحوال كان محمود يتقاضى بقشيشا مجزيا، ورقة نقدية يناولها له البك أو الهانم بإصبعين وقد بدا عليهما الرضا.. كان وجهه الشاب النضر وبشرته السوداء الأبنوسية، أسنانه الناصعة التي تتلألأ عندما يبتسم، جسده العملاق الممشوق وعضلاته البارزة، ثيابه المزركشة المطرزة التي تجعله أشبه بمصارع ثيران أو فارس من سلاح الخيالة في عرض عسكري، انحناءاته المتكررة المهيبة الجديرة بالبلاط الملكي.. كل ذلك كان يثير إعجاب الزبائن ويضاعف من إحساسهم بالأهمية فيجزلون له العطاء، كان يقتسم البقشيش مع عم مصطفى ثم يقتسم نصيبه مع أمه ودائما يتبقى له ما يكفي للإنفاق على نزهاته مع صديقه فوزي.. بات محمود يعمل ويكسب ويساعد في مصروفات البيت وصار يتحرك برصانة ويدلي بآرائه في شتى الموضوعات بثقة، بل إنه صار يتعمد قبل أن ينزل من البيت أن يسأل أمه إن كانت تحتاج إلى أي شيء.. لقد أصبح رجلا مسئولا عن أسرته حتى عندما يستيقظ

متأخرا في الصباح وتحضر له أمه الإفطار في فراشه كان يحس بأنه صاحب حق في هذا التدليل، غير أن عمل محمود في نادي السيارات قد فتح عينيه على حقيقة أخرى: أن هناك عالما آخر مختلفا عن شارع السد الجواني والمثلث ومطحن الرمالي ومدرسة علي عبد اللطيف الإعدادية، عالم فخم ملون مفعم بالبهجة لم يتخيل وجوده قط.. اكتشف أن هناك مُتعا أكبر بكثير من الكرة والتزويغ والقُبلات المختلسة مع صديقاته التلميذات في ظلام السينما، أن أعضاء النادي يعيشون في شقق أقرب إلى القصور ويرتدون ثيابا أنيقة مثل نجوم السينما، بدأ محمود يتساءل: كيف يمكن لبعض الناس أن يكونوا أغنياء بهذا الشكل؟ من أين وكيف يأتون بكل هذا المال؟

ـ هؤلاء أغنياء أولاد أغنياء يا محمود، لا يعرفون الشقاء الذي نعرفه، مشكلتهم الوحيدة في الدنيا كيف ينفقون ويستمتعون.. هكذا قال عم مصطفى بلهجة وسطى بين السخرية والمرارة.

مع الأيام، أصبح لمحمود مجموعة من الزبائن يعرفونه ويعرفهم، هؤلاء يطلبون من النادي كثيرا: ثروت بك الجريدلي الذي لا ينقطع أبدا عن إقامة سهرات لأصدقائه؛ يلعبون البوكر وعادة ما تنفد منهم الخمر فيطلبون زجاجة ويسكي ومزات من النادي. مسيو بابازيان؛ العجوز الأرمني صاحب محلات الساعات الشهيرة في ميدان العتبة؛ وهو أرمل عجوز يعيش وحده في شارع الديوان بجاردن سيتي وعادة ما يطلب العشاء من النادي، أحمد فضالي المخرج السينمائي المعروف؛ زير النساء، الذي يصطحب عشيقاته إلى الجرسونييرة الخاصة به في شارع الشواربي، عادة ما يطلب عشاء لفردين وزجاجة من النبيذ الفرنسي الفاخر، يفتح الباب بنفسه لأنه يكون قد صرف الخدم، يرتدي دائما

روبا حريريا على جسده العاري ويتسلم الطلب بينما عشيقته تنتظره بالداخل، ألطف الزبائن جميعا كانت مدام خشاب؛ سيدة إنجليزية قصيرة وممتلئة، جاوزت الستين قطعا، تصبغ شعرها بالأسود وتترك خصلة كبيرة بيضاء عند مقدمة الرأس، تزوجت من صاحب أطيان مصري اسمه سامي خشاب ولم تُنجب منه، ولما مات عاشت وحدها في شقتها الفسيحة بالزمالك، منذ اللحظة الأولى ارتاح محمود إليها، أحب وجهها الأمومي وابتسامتها الدائمة اللطيفة ولغتها العربية الركيكة، كلما أحضر لها تورتة الفواكه التي تعشقها كانت تحييه بحرارة وتتبادل معه الحديث بود وهو واقف أمام الباب، كانت مدام خشاب تسأله عن أخبار أسرته فيخبرها أولا بأول، تنصت باهتمام وفي النهاية تتنهد ثم تمنحه بقشيشا كبيرا وتقول:

ـ برافو يا محمود، أنت رجل، خلِّ بالك من أمك وإخوتك.

عندما أخبرها بأن أخته صالحة نجحت في امتحان نصف السنة هنأته بحرارة ونفحته البقشيش المعتاد وفوقه جنيها كاملا لأخته صالحة حلاوة النجاح، فرحت صالحة بالجنيه لكنها اندهشت لأن مدام خشاب لا تعرفها، لكن محمود حدثها عن طيبة هذه السيدة التي بالرغم من كونها إنجليزية فإنها تحب مصر والمصريين، كما أنها كريمة وسخيَّة مثل أولاد البلد، بعد ذلك بأيام ذهب محمود ليوصل تورتة الفواكه كالعادة إلى مدام خشاب، أخذت منه الطلب وتحدثا ومنحته البقشيش وشكرها كالمعتاد، قبل أن يستدير لينصرف هتفت كأنها تذكرت شيئا:

ـ لحظة واحدة.

دخلت إلى الشقة، غابت دقائق ثم عادت تجر حقيبة ثقيلة على الأرض وقالت:

ـ محمود أنت زي ابني.. صح؟

هز محمود رأسه فاستطردت:

ـ دول قمصان وبنطلونات وجاكيتات شيك جدا، كلهم على مقاسك، خذهم، أرجوك ما تكسفنيش.

كان الموقف مفاجئا خاطفا، أكبر من قدرة محمود البطيئة على الاستيعاب، لكن نظرة مدام خشاب الأمومية وابتسامتها الحانية قضيتا على تردده فانحنى وحمل الحقيبة بيد واحدة وشكرها بحرارة، فتح له عم مصطفى مؤخرة السيارة فوضع الحقيبة فيها، ولما عاد إلى البيت وجد أمه ساهرة كعادتها تنتظره.. لما رأت معه الحقيبة اندهشت وسألته عنها.. ابتسم محمود وقال:

ـ أنا جعان، آكل الأول وأحكي لك.

أثناء العشاء التهم كمية كبيرة من البيض بالبسطرمة، وفي النهاية راح يمسح البواقي من على الطبق بلقمة كبيرة، ثم انتقل إلى الحلو: سندوتشان كبيران من الخبز الفينو محشوان بالقشطة وعسل النحل، قام ليغسل يديه ثم عاد وجلس بجوار أمه وبدأ يرشف من كوب الشاي ويحكي لها عن طيبة مدام خشاب وحبها له، ثم أخبرها بموضوع الحقيبة، لم تعلق أمه فتشجع محمود ونهض وفتح الحقيبة وبدأ يستعرض الملابس فوجدها أنيقة فعلا؛ قمصان وبنطلونات وثلاث بدل كلها على مقاسه، كانت أمه تتابع ما يفعله بنظرة ساهمة وقد بدت غير منتبهة، لكنه عندما أمسك بقميص أزرق بياقة بيضاء وفرده أمامها قائلا:

ـ شايفة القميص الحلو ده.

هنا فقط.. فجأة.. صرخت أم سعيد بصوت متقطع كأنها تولول:

ـ منك لله يا محمود.

ألقى محمود بالقميص واندفع نحوها قائلا:

ـ ما لك يا أمي؟

ـ خلِّتنا شحاذين على آخر زمن.

ـ شحاذين إيه؟ دي مدام خشاب ست طيبة جدا.

ـ ست طيبة تقوم تأخذ منها هدوم قديمة.

ـ يا أمي هذه ملابس أحسن من الجديدة، لن يعرف أحد أبدا أنها ملبوسة.

ـ حتى لو ما حد عرف، كيف تقبل على نفسك الشحاذة؟

ـ يا أمي، أنا لا أفهم سبب غضبك.

ـ لن تفهم أبدا لأنك غبي، أغبى خلق الله، أنت حمار حصاوي.

أفلتت الكلمة منها، ساد صمت عميق وأطرق محمود وهو جالس بجوارها كأنه كلب مذنب عاقبه صاحبه لتوه، مدت أم سعيد يدها واحتضنته بقوة ثم همست.

ـ يا ولدي، أنا آسفة، لا تغضب مني.

هز رأسه وتمتم:

ـ ولا يهمك.

زادت وداعته من إحساسها بالذنب فقبَّلته على جبينه وقالت كأنها تهدهده:

ـ يا ولدي نحن من أسرة كبيرة، أسياد، أولاد عز، كانت عندنا ثروة راحت وبقينا فقراء، نشقى ونشتغل لكن لا نمد يدنا لأحد أبدا، ليس لدينا إلا كرامتنا، لا يمكن أن نفرط فيها، إياك يا محمود أن تقبل حسنة من أحد أبدا.

تشجع محمود وقال ببراءة طفل يريد أن يعرف:

ـ أليست هذه الحقيبة مثل البقشيش الذي آخذه من الزبائن؟

ـ لا يا ولدي، البقشيش غير الحسنة، البقشيش تقدير على عملك، أما الحسنة نعطيها للشحاذين.

ساد الصمت من جديد، ثم نهضت أم سعيد ووقفت أمامه وقالت:

ـ يا محمود أنت بتحبني؟

ـ طبعا يا أمي.

ـ إذا كنت بتحبني لازم ترجّع الحاجات دي للست الخوجاية.

ظل محمود يحدق فيها وبدا أنه لم يستوعب، قالت أمه:

ـ وحياة المرحوم أبوك تسمع الكلام وتريح بالي.

في اليوم التالي، اتفق محمود مع عم مصطفى، وبعد أن أوصلا الطلب الأول بدلا من العودة إلى النادي مباشرة عرج به عم مصطفى على بيته في شارع السد حيث أحضر الحقيبة ووضعها في السيارة ثم انطلقا إلى بيت مدام خشاب في الزمالك، وضع محمود الحقيبة على الأرض بجواره أمام الباب ودق الجرس، بعد قليل ظهرت مدام خشاب في روب حريري، بانت الدهشة على وجهها لكنها سرعان ما ابتسمت وقالت:

ـ خير يا محمود؟

رد محمود فورا:

ـ مدام خشاب شكرا على الهدية لكني لا أستطيع أن آخذها.

ـ إيه السبب؟

ـ السبب أن أمي غضبت.

ـ ولماذا غضبت أمك؟

ـ أمي تقول إننا لسنا شحاذين حتى نأخذ منكِ حسنة.

ـ أوه.

هكذا صاحت وتمتمت بكلمات إنجليزية لم يفهمها ثم انحنت وجرَّت الحقيبة إلى الداخل وأغلقت الباب بدون أن توجه إليه كلمة، أدرك محمود أنها غضبت فأحس بضيق، كاد أن يندم لأنه أعاد الحقيبة لكنه لما استحضر وجه أمه الحنون الحزين تأكد أنه لم يكن لديه اختيار، في اليوم التالي بدأ إحساسه بالذنب يثقل عليه، يجب أن يتكلم مع مدام خشاب.. أن يشرح لها ما حدث، أن يعتذر إليها ويرجوها ألا تغضب منه، سيقول إنه يحبها ويعرف أنها تحبه مثل ابنها لكنه اضطر رغما عنه إلى تنفيذ رغبة أمه وأعاد الحقيبة.. مرت أيام ومحمود ينتظر أن تطلب مدام خشاب حلوياتها المفضلة من النادي حتى يشرح لها الموقف، لكنها على مدى أسبوع كامل لم تتصل لتطلب شيئا، حكى محمود ما حدث لمصطفى العجوز الذي هز رأسه وهو ممسك بعجلة القيادة وقال:

ـ معلوم، مدام خشاب حقها تغضب، حَنّت عليك وأنت كسفتها.

ـ ما باليد حيلة يا عم مصطفى.

ـ تصدق بالله، أمك برضه عندها حق، أنتم الهمامية أسياد الصعيد كيف تأخذون حسنة؟!

ـ يا عم مصطفى حيرتني، أنت مع مين؟

هز عم مصطفى رأسه وفكر قليلا ثم قال:

ـ اسمع يا محمود، أنت عاوز تصالح مدام خشاب؟

ـ طبعا.

ـ خلاص، روح اشتري صحبة ورد جميلة وقدمها لها.

بانت الحيرة على وجه محمود ودمدم قائلا:

ـ ورد إيه وفل إيه يا عم مصطفى؟ إحنا في إيه ولا إيه!

ـ اسمع كلامي يا محمود.. الخواجات يحبون الورد جدا، أجمل حاجة تجيبها لأي خواجاية صحبة ورد.

كان محمود يثق في عم مصطفى كما أنه لم يكن في حالة ذهنية تسمح له بتحليل الفكرة، انتظر حتى الثلاثاء يوم عطلته وحوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كان يقف أمام باب شقة مدام خشاب وقد ارتدى طقم الخروج الفاخر الذي اشتراه من محل شالون: بنطلون أسود وقميص أبيض وجاكيت رصاصي من القطيفة وهو يحمل في يده باقة من الورد القرنفل الأبيض والأحمر، دق الجرس، مرت دقيقتان بغير أن ينفتح الباب، ضغط الجرس مرة أخرى لكن المكان ظل غارقا في الصمت، بعد قليل تأكد لمحمود أن مدام خشاب غير موجودة أو أنها لا تريد أن تفتح، استدار لينصرف لكنه سمع وقع خطوات تقترب، أحكم قبضته اليسرى على باقة الورد ورسم ابتسامة عريضة على وجهه وتقدم

حتى صار في مواجهة الباب، كان يحس برهبة لكنه أيضا كان مستعدا لكل الاحتمالات.

كامل

عجزت عن النوم، كنت منفعلا لأقصى درجة.. لماذا اكتسبَتْ حياتي إيقاعا متصاعدا على هذا النحو؟!

لماذا أتحول فجأة من حال إلى حال؟ كأنني مدفوع رغما عني في طريق محدد.. كأنني أقطع خطوات معدة سلفا لتقودني إلى نهاية محتومة، كل ما حدث بدا لي غامضا؛ أن أعمل في النادي وألتقي بالأمير.. هل جاء الأمير شامل إلى المخزن بالصدفة؟ أليس من الغريب أن يأتي ليتفقد النبيذ بنفسه؟ ألم يكن بإمكانه أن يطلب قائمة النبيذ فترسَل إليه فورا؟ لماذا دعاني إلى الغداء في قصره؟ هل يهمه أمري إلى هذه الدرجة؟ من أكون حتى يسعى ابن عم الملك إلى صداقتي؟ لماذا توسط حتى أعطي درسا لابنة مستر رايت؟ لماذا يريد أن يساعدني؟ الأغرب من كل ذلك.. كيف عرف الأمير بدوري في المقاومة؟ لقد قال لي بالحرف:

ـ بفضل ما تفعله أنت وزملاؤك سوف يتحقق الجلاء.

هل كانت جملة عابرة بريئة قالها عفو الخاطر أم أنه يعرف كل شيء؟

أسئلة كثيرة والإجابة دائما «ربما».. ربما يكون ما حدث تلقائيا، وربما يكون مدبرا بعناية، ظللت مستلقيا في الفراش أفكر وأدخن، ولما

ارتفع أذان الفجر كنت منهكا فسقطت في نعاس ثقيل لمدة ساعتين ثم استيقظت.. كان موعدي مع مستر رايت في التاسعة صباحا، حاولت أن أبدو في مظهر لائق.. لمّعت حذائي حتى أصبح مصقولا كمرآة، كويت القميص والبذلة بنفسي، مسحت الطربوش بالفرشاة أكثر من مرة.. وصلت قبل الموعد بدقائق، حيّاني عم خليل الفراش ثم ابتسم وهمس:

ـ ربنا يعينك يا كامل، الخواجة رايت أرذل خلق الله.

في التاسعة تماما كنت أدق الباب، جاءني صوت مستر رايت حازما:

ـ ادخل.

لا يبتسم مستر رايت إلا نادرا، يطالعك دائما بوجه عابس ونظرة جادة متفحصة.. قال بالإنجليزية:

ـ كيف حالك؟

ـ جيد.. شكرا يا سيدي.

أشار إليَّ بالجلوس ثم أشعل غليونه ونفث سحابة معطرة وقال:

ـ سمو الأمير شامل رشحك لتعطي ابنتي درسا في اللغة العربية.

ـ بكل سرور يا سيدي.

ـ ابنتي ميتسي تلقت تعليمها الأساسي في لندن ثم قررت لسبب لا أفهمه أن تعيش في مصر، وهي الآن تدرس الدراما في الجامعة الأمريكية.. لديها معرفة بسيطة باللغة العربية، لكنها تحتاج إلى دروس حتى تتكلم وتكتب.

ـ اطمئن، ستتكلم وتكتب العربية بطلاقة.

هكذا قلت بمرح، تطلع إليَّ مستر رايت بنظرة باردة كأنما يرسل إليَّ إشارة أنني تجاوزت حدودي، قال بلهجة رسمية:

ـ لقد اخترت يومَي الثلاثاء والجمعة لأن ميتسي ليس لديها محاضرات صباحية في هذين اليومين، ستبدأ معها من اليوم.

هززت رأسي موافقا، نظر في ساعته ونفث سحابة جديدة من الدخان المعطر صنعت غيمة حول وجهه ثم قال:

ـ عشت في مصر عشرين عاما، ومع ذلك كثيرا ما يبدو لي سلوك المصريين غريبا، لا أفهم مثلا: لماذا يتمسك المصريون باستعمال لغة معقدة وميتة مثل العربية الفصحى؟

قلت بدون تفكير:

ـ لأن اللغة العربية تحمل تاريخنا وتُوحّد بين الشعوب العربية كما أنها لغة القرآن.

ـ يا لها من أوهام!

لم أرد، كان الحوار يتجه إلى منحى لم أتوقعه، ابتسم مستر رايت وسأل بلهجة مستفزة:

ـ لماذا لا تكتبون بالعامية التي تتكلمون بها؟

ـ العامية ليست لغة.. إنها لهجة دارجة للحديث.. هذا الوضع ليس قاصرا علينا.. شعوب كثيرة لديها لغة مكتوبة ولهجة دارجة للحديث، الفرنسيون والأمريكيون لديهم مثلنا لهجات دارجة مختلفة عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

هز مستر رايت رأسه ليبين أنه غير مقتنع ثم أضاف:

ـ لن يتقدم المصريون أبدا ما داموا يتمسكون بالعربية الفصحى العقيمة.

أجبته بدون تفكير:

ـ الفصحى ليست عقيمة، بل هي من أغنى اللغات الحية، كما أن اللغة ليست السبب في تأخر مصر، مصر متأخرة لأنها محتلة.

بدت في عينيه الزرقاوين نظرة مستهجنة ثم قال:

ـ لولا ما تسميه أنت احتلال لكانت بلادك لا زالت في العصور الوسطى.

ـ نحن لم نطلب مساعدة من أحد، كما أني لا أعتقد أن بريطانيا تحتل مصر من أجل أغراض خيرية.

تطلع إلَيَّ باستخفاف وقال:

ـ هل تعتقد أن المصريين قادرون على حكم أنفسهم؟

ـ لقد حكم المصريون العالم منذ قرون طويلة.

ـ طبعا.. ليس أمامكم إلا أن تتباهوا بالتاريخ؛ لأن الحاضر لا يبعث على الفخر.

ـ تدهور الحياة في مصر مسئول عنه الاحتلال الذي ينهب مواردها بانتظام.

ـ يجب على المصريين أولا أن يتعلموا كيف يفكرون ويعملون بطريقة صحيحة قبل أن يطالبوا بالاستقلال.

هذا الرجل كريه وغريب؛ نفس الوقاحة التي تعامل بها أول مرة معنا أنا وأمي، ما مناسبة هذا الكلام؟ إذا كان يحتقر المصريين إلى هذا الحد فلماذا يعيش في بلادهم؟ إنه حتى لم يصافحني، لم يوجه إليَّ كلمة شكر.. حتى لو كان الدرس مدفوع الأجر أليس من قواعد التهذيب أن يشكرني؟ أحسست بغيظ.. خطر لي أن أدافع عن نفسي، سأقول له رأيي في شخصيته وليذهب النادي إلى الجحيم، بذلت مجهودا كبيرا حتى لا أقدم على تصرف أندم عليه، فجأة خطر لي أن ما يفعله ليس تلقائيا، إنه يريد تحقيق غرض معين، ربما يريد أن ينتقم مني لأن أمي وبّخته عندما قابلناه أول مرة.. ربما لا يريدني أن أدرس لابنته من الأساس، ربما فرضني الأمير عليه فهو يستفزني بهذه المناقشة حتى أتورط في الإساءة إليه عندئذ لن يلومه الأمير إذا طردني، قررت ألا أستجيب للاستفزاز، قمت من مكاني وقلت بهدوء:

ـ مستر رايت، متى أبدأ الدرس؟

ـ عندما تستعد ميتسي.

ـ ومتى تكون الآنسة ميتسي مستعدة؟

قال بلهجته المتغطرسة:

ـ انتظر في الخارج، سوف يأخذك خليل إليها بعد قليل.

خرجت وانتظرت في الخارج نحو ربع ساعة ثم جاء عم خليل ليصطحبني.. استقللنا المصعد إلى الدور الأخير، توجهنا إلى حجرة صغيرة بجوار صالة القمار، حاولت أن أسيطر على مشاعري حتى أتخلص من التأثير السيئ للقائي مع رايت، قلت لنفسي: لو أن الآنسة ميتسي ورثت عن أبيها غروره ووقاحته فلن أعطيها دروسا حتى لو

ألقت على رأسي بأكياس الذهب.. فتح خليل الباب فانفرج ببطء.. كانت الآنسة ميتسي جالسة خلف مائدة صغيرة مستديرة بجوار النافذة، اقتربت منها وقلت بالإنجليزية:

- صباح الخير.

قامت وصافحتني بود ثم ابتسمت وقالت:

- هاللو، اسمي ميتسي رايت، أشكرك لأنك قَبِلت أن تساعدني في تعلم العربية.

(٢١)

مر أسبوع كامل بغير أن يتلقى عبدون أي عقاب، ظل يروح ويجيء ويتكلم ويضحك ويمارس عمله بطريقة عادية، عندئذ راح الخدم يرددون بعصبية:

ـ اصبروا، الكوو سيسحقه كصرصار.

ـ سيجعله عبرة لمن يعتبر.

على أن أسبوعا آخر مر ولم يحدث شيء لعبدون، عندئذ أحسوا بارتباك وحيرة.. بدءوا يرون الأمر من زاوية مختلفة: إذا كان عبدون قادرا على أن ينتقد الكوو علنا ويستمر في عمله أسبوعين بغير أن يلحق به أذى فهو بالقطع ليس مجنونا ولا طائشا كما تصوروا.. إنه يعرف جيدا ما يفعله.. هناك شيء غامض: لماذا لا يعاقب الكوو مَن تطاول عليه؟ لقد جاء الكوو إلى النادي وبدا من غضبه أنه عرف بفعلة عبدون، وبرغم ذلك لم يمسه بسوء، ماذا جرى للدنيا؟ لو أن أحدا أخبرهم بذلك من قبل لما صدقوه.. هل أصاب الكوو ضعف مفاجئ أم أن عبدون يتمتع بحماية شخص ما أقوى من الكوو؟ ثمة تفسير وحيد قد يريحهم؛ أن يكون عبدون مدسوسا من الكوو.. محتمل جدا.. إن مؤامرات الكوو لا تنتهي، ها هي آخر حيله الجهنمية؛ أن يدس بينهم مَن يتطاول عليه ويتركه بلا عقاب حتى يختبر ولاءهم، في المقهى تبنى كرارة السفرجي هذه الفكرة وقال لزملائه:

ـ احترسوا؛ الولد عبدون جاسوس، إوعوا يجرجركم في الكلام لَتروحوا في ستين داهية.

رد بعض الجالسين:

ـ معلوم.

ـ طبعا فاهمين يا كرارة.

أشار بحر البارمان بإصبعه علامة النفي، كان جالسا كعادته يدخن الشيشة، أخرج دفعة كثيفة من الدخان ثم قال:

ـ يا جماعة شغّلوا مخكم.. هو الكوو محتاج يبعث عبدون؟ ما هو عارف عنا كل حاجة.. ده عنده جواسيس ينقلوا له دبة النملة.

سأله كرارة بضيق:

ـ يعني رأيك مَن وراء عبدون؟

ـ ما فيش حد وراه.

ـ كيف؟

ـ الولد بيتصرف من دماغه.

ـ مستحيل.

انضم سماحي المرمطون إلى بحر وقال:

ـ يا جماعة عبدون يدافع عن الحق، إحنا مستغربين لأننا تعودنا نسكت على حقوقنا.

علت أصوات معترضة:

ـ حتى أنت يا سماحي دماغك باظت.

ـ بلاش الكلام ده يا سماحي لتروح في داهية.

ـ الولد عبدون جاسوس وبكره تشوفوا.

في الأسبوع الثالث امتنعوا عن مناقشة موضوع عبدون، عندما يلتقون كانوا يتظاهرون بالاهتمام بأشياء أخرى يتكلمون ويتبادلون الدعابات ويضحكون لكن شيئا ما في داخلهم تغير، باستثناء بحر وسماحي وبضعة متعاطفين، أحس الخدم بكراهية لعبدون، أنه يدفعهم إلى المجهول، يتحداهم، إذا كان يتطاول على الكوو ويفلت من العقاب فما ضرورة إذعانهم للكوو، ولماذا تحملوا جبروته سنوات طويلة؟ إن حياتهم قد تأسست على حقيقة واحدة: أن الكوو قوة طاغية لا قِبَل لهم بها، لو اهتز إيمانهم بذلك سيتغير كل شيء، إن صورة الكوو الجبار الراسخة في أذهانهم بقدر ما ترعبهم تطمئنهم، الكوو يقسو عليهم ويظلمهم لكنه أيضا يحافظ على قواعد حياتهم، يحميهم ويمنحهم الإحساس بالأمن، أثناء الأزمات يلوذون بالكوو كما يتعلق الطفل بأمه في الزحام، يستقوون به، يطمئنون إلى أنه سيضع الأمور في نصابها، كأن الكوو رجل وهم زوجاته المطيعات، إذا ألم بهم خطر أو وقعوا في مشكلة كانوا يرددون بثقة وزهو:

ـ الكوو لن يرضيه ما حدث، الكوو عمره ما يعجبه الحال المائل، سترون بأنفسكم ما سيفعله.

ما يقلقهم الآن أن القواعد تتغير، لم تعد الأسباب تؤدي إلى النتائج، ثمة أشياء غامضة تحدث خلف الأبواب المغلقة، إن الكوو يعرف ولا يعاقب عبدون على تطاوله.. ها هما بحر وسماحي وربما آخرون يجاهرون بتأييدهم لعبدون، فماذا سيفعل الكوو بهم؟

لو تركهم أيضا بدون عقاب ستكون مهزلة وإذا عاقبهم وترك عبدون سيكون ذلك غير منطقي؛ فلا يعقل أن يعاقب الفرع ويترك الأصل.

كأنما انتقلت هواجس الخدم إلى الكوو فرد عليها بحملات شرسة متلاحقة، صار يفتش على النادي كل يوم، يتفحص المكان بعينين لامعتين تضيئان وسط وجهه الأسود فيبدو كحيوان مفترس جائع يبحث عن فريسة، لم يعد يتحقق من الخطأ أو يبحث عن دليل الإهمال، صار الكوو يتذرع بأي شيء حتى يعاقبهم، مجرد نظرة لا تعجبه أو بطء في الاستجابة للأمر، يومئ الكوو إلى حميد فينقض على الضحية ويصفعه بقوة ويركله بقدمه، كان الخدم عادة يتلقون العقاب كأنه قدر لا مفر منه، يتحملون الضربات في صمت أو يتوسلون إلى الكوو ليعفو عنهم، الآن بدأت ظاهرة غريبة؛ صار الخادم المعاقَب عندما يضربه حميد تصدر عنه علامة اعتراض، يدمدم بكلمة أو يحرك يده كأنما يتظلم، هذا الاحتجاج الهين، الذي يكاد لا يُلحظ، كان يحمل رسالة ضمنية، جملة تتكرر ولا ينطق بها أحد؛ كأن الخادم المعاقَب يقول للكوو:

ـ أنت تضربني على أهون سبب، بينما عبدون هاجمك أمامنا جميعا ولم تفعل له شيئا.

هذه الرسالة كانت تصل إلى الكوو فيربد وجهه الأسود ويجز أسنانه ويأمر بتشديد الضرب، هذه الروح الموتورة المتربصة انتقلت من الكوو إلى ثلاثة من رؤساء الخدم: ركابي الطباخ والمتر شاكر ويوسف طربوش.. بدءوا بدورهم يطبقون سياسة صارمة عنيفة؛ صاروا متحفزين، مشحونين بالغضب، يتمنون لو أن أحدا من مرءوسيهم ارتكب أقل هفوة حتى يوبخوه ويشتموه ويخصموا من بقشيشه، صار يوسف طربوش يتربص بالعمال في صالة القمار فإذا أخطأ أحدهم توجه إليه وقال بهدوء:

ـ مخصوم منك يومين، أنا حأعرف أربيكم.

المتر شاكر صار ينكل بمرءوسيه لأقل هفوة، ينطق بالعقاب ثم يمضي بعيدا ويتجاهل توسل السفرجي المذنب.. أما الشيف ركابي فكان إذا عاقب أحد العاملين في المطبخ يتطلع إلى بقية العاملين ويصنع بإصبعه حركة بذيئة ثم يشخر ويصيح:

ـ والله يا ولاد الكلب كل يوم من ده، مش أنتم عاملين رجالة وماشيين ورا عبدون، اشربوا.

استمرت حملات التفتيش اليومية وتزايد البطش العشوائي بالخدم فسادت بينهم حالة من الكآبة.. أصبحوا يعملون وهم واجمون متوجسون يتوقعون التنكيل في أية لحظة.. انتهت إلى الأبد حالة المرح التي كانت تنتابهم في الصباح وهم ينظفون النادي.. إحساس ثقيل جثم على صدورهم وجعلهم يدركون أنهم مقدمون على أيام سوداء، في وسط هذا الاضطراب الشامل فاجأهم كرارة السفرجي بفعلته: تحين لحظة دخول عبدون من باب النادي واندفع نحوه وهو يصيح:

ـ من بعث بك لتثير المشاكل وتهيج الناس على بعضها.

صفعه كرارة لكن الصفعة أخطأت وجهه وأصابت كتفه، لم يهرب عبدون بل تقدم نحو كرارة وأمسك به من صديرية القفطان ثم شدها بقوة فتمزقت من عند فتحة الرقبة وانكشف صدره، استغل عبدون المفاجأة وسدد لكمة قوية إلى أنف كرارة جعلته يتأوه، نظر كرارة إلى سترته التي تمزقت ثم وضع يده على أنفه فوجدها تنزف، عندئذ زمجر كحيوان متوحش يستعد للقتال وصاح بأعلى صوته:

ـ وحياة أمك لأقلعك اللباس يا بن المومس.

اندفع نحو عبدون الذي توقع حركته فقفز إلى الخلف ثم سدد له لكمة أخرى في نفس الموضع الأول جعلته يطلق صرخة ثم ركله عبدون فسقط على الأرض، بات من الواضح أن عبدون سيفتك بكرارة، لكن ثلاثة زملاء تدخلوا؛ سليمان البواب ومرعي عامل المصعد ومعهم لبيب التليفونيست الذي خرج من حجرة التليفون على الضجة.. ألقى الرجال الثلاثة بأجسادهم بين المتصارعَيْن وبذلوا مجهودا مضنيا حتى نجحوا في الفصل بينهما، لم ينقطع كرارة عن إرسال شتائمه المقذعة بينما استدار عبدون بهدوء وصعد الدرج إلى الفستيير ليغير ملابسه ويبدأ العمل، في اليوم التالي ألح أولاد الحلال ليعقدوا مصالحة.. قالوا لعبدون:

ـ صحيح كرارة ضربك بالقلم لكن أنت قطعت سترته وضربته.

ـ البادئ أظلم.

ـ عيب يا عبدون.. كرارة أكبر منك في السن، تعالَ معنا نصفي النفوس.

انساق عبدون لهم وذهب معهم إلى المطعم حيث كان كرارة منهمكا في وضع أدوات الطعام على الموائد.. تقدموا نحوه وقال أحدهم:

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام ورحمة الله.

هكذا دمدم وقد أدرك فورا الغرض من زيارتهم، بدءوا في محاولات الصلح:

ـ يا كرارة عبدون أخوك الصغير والظفر عمره ما يطلع من اللحم.

ـ ساعة شيطان يا كرارة وراحت لحالها.

ـ أنتم الاثنين غلطتم.

ـ يلَّا يا عبدون مد يدك لعمك كرارة.

دفعوا عبدون حتى اقترب من كرارة ثم مد يده ليصافحه فارتفعت أصوات الحاضرين يحثونهما، تطلع كرارة إلى عبدون وهو يتنفس بصوت مسموع كأنه يحاول السيطرة على غضبه ثم صافحه، سادت حالة من الارتياح بين الحضور وتعالت أصوات مرحة.. بدت ابتسامة كرارة صفراء وباهتة وكأنه غير مقتنع بالصلح، استدار واستأنف رص الشِّوَك والسكاكين والملاعق على المائدة، كانت هذه علامة على رغبته في إنهاء اللقاء، اكتفى الخدم بهذا القدر، اصطحبوا عبدون إلى خارج المطعم وهم يشعرون أنهم أنجزوا مهمتهم الخيرية، على أن ما حدث بين كرارة وعبدون كان بمثابة رسالة للجميع:

أن الاعتداء على عبدون ليس مجانيا لأنه قادر على إيذاء مَن يهاجمه، هذا المعنى غيَّر من لهجة الحديث مع عبدون، صاروا يعترضون عليه دونما تهكم أو استخفاف، في عصر اليوم التالي التقوا به في المقهى وبدءوا بالأسئلة الاستنكارية المعتادة:

ـ يا عبدون أنت فاكر نفسك هتصلح الكون؟

ـ عاجبك الخَصْم والضرب اللي نازل يرف على دماغنا؟

تطلع إليهم عبدون بهدوء وقال:

ـ الغلط عليكم، بدل ما تطلبوا حقكم خفتم وسكتم والنتيجة إن الكوو افترى زيادة.

قال أحدهم:

ـ أنت شمتان فينا يا عبدون؟

ـ والله العظيم ما شمتان، أنا قلبى عليكم، لو كنتم طلبتم حقكم من الكوو عمره ما كان يعمل فيكم أكثر من اللي عمله.

ـ عاوزنا نعمل رأسنا برأس الكوو؟

ـ إحنا بني آدمين زيه.

ـ خليك عايش في الأوهام.

استمر الحوار على هذا النحو، وفي النهاية سكتوا جميعا، لم تعد لديهم طاقة ولا رغبة في مناقشته، كانوا يقضون الوقت على المقهى في محاولة لاصطناع المرح ثم يعودون ليمارسوا العمل بدأب، كأنهم يتوارون في نظامهم المعتاد، كأنما يختبئون في إذعانهم، يقاومون القلق بالانهماك في العمل، قرروا أن يصبروا على أمل أن تنقضي المحنة وتعود الحالة إلى طبيعتها، على أن حملات الكوو العنيفة لم تتوقف بل زادت شراسة، ولأن المصائب لا تأتي فرادى فبينما هم منهمكون في التنظيف ذات صباح فوجئوا بلبيب التليفونيست يهرع إليهم وهو يصيح:

ـ الحقوا يا جماعة.. عبد الملاك تعبان جدا.

(٢٢)

أقيم الحفل في استراحة الفيوم حيث تعوَّد الملك أن يبيت أثناء رحلاته لصيد البط، المبنى أنيق أبيض ومنعزل تماما، يتكون من طابقين أمامهما فناء يتوسطه حَمَّام سباحة تضيئه ليلا مصابيح تحت الماء فيبدو منظره جميلا.. حول حَمَّام السباحة نُصبت مائدتان تفصلهما مسافة تكفل الخصوصية فلا يمكن للجالسين على مائدة الاستماع إلى ما يقال على الأخرى.. حول المائدة الأولى جلست الأميرة العجوز ماهيتاب وزوجها الأمير شوكت والأمير شكيب وزوجته، وحول المائدة الأخرى جلس كارلو بوتشيللي وسط ثلاث نساء؛ بنت بيضاء أجنبية في نحو العشرين، وامرأة سمراء ممتلئة جاوزت الثلاثين، وفي وسطهما جلست ميتسي رايت وقد ارتدت فستان سهرة أسود يكشف عن صدرها واستدارة كتفيها الرائعة وقد تركت شعرها الكستنائي منسدلا على كتفها.. كان بوتشيللي يتحدث إلى النساء الثلاث وفي نفس الوقت يتفحصهن بنظرة عملية جادة يشوبها قلق.. كان يراجع التفاصيل ليتأكد أن كل واحدة من المرشحات للحب تبدو بالضبط في الصورة التي رسمها لها، بين الحين والآخر، ينهض بوتشيللي ويأخذ الواحدة منهن لينتحي بها جانبا، يرجع خطوة إلى الخلف ويتطلع إليها كأنما يتفحص لوحة فنية ثم يهمس لها بملحوظته: «خفّي الروج آجو قليلا»، أو «عيدي على الكحل»، أو «اعدلي كتف الفستان». بعد ذلك

يتركها تذهب إلى الحَمَّام لتنفذ تعليماته ويعود هو إلى المائدة.. ألقى بوتشيللي بملحوظاته على الفتاتين ثم جاء دور ميتسي، فوجئت به يجذبها من يدها قائلا بالإنجليزية:

ـ أريد أن أتحدث معكِ.

نهضت خلفه وقد بدا عليها التحفز، لم تكن لتتحمل أن يعطيها بوتشيللي نصائح في زينتها كما فعل مع الأخريات، لو تحدَّث عن أحمر الشفاة أو الكحل ستُلقنه درسا لن ينساه، لعله أحس بتوترها فغير من خطته.. تطلع إليها مبتسما بود وقال:

ـ أنتِ جميلة جدا.

ـ أشكرك.

ـ هذه الليلة قد تكون فاصلة في حياتك، أنا أعتمد على حُسن تقديركِ.

ـ في أي شيء؟

ـ تذكري أنكِ لا تقابلين الملوك كل أسبوع.

ـ ماذا تريدني أن أفعل بالضبط؟

قال بوتشيللي بصوت ناعم:

ـ مولانا يعشق الجمال، وهو إذا طلب لا بد أن يحصل على ما يريد.

تطلعَتْ إليه بما يشبه الغضب فاستطرد قائلا:

ـ سترين أن جلالته شاب لطيف ومرح كما أنه متواضع للغاية.

أشاحت ميتسي بوجهها واستدارت عائدة إلى مقعدها، لم يشعر بوتشيللي باستياء من حدة ميتسي، كان يعلم أنها ستلبي نداء الملك إذا

اشتهاها، لو كانت سترفض لما لبت الدعوة من أساسها، لقد جاءت وهي تعرف تماما ما يريده الملك منها، كل هذه الردود الحادة العدوانية ليست سوى محاولات لإخفاء خجلها من الموقف لا أكثر ولا أقل، ما أعجب المرأة.. هكذا قال بوتشيللي وهو يتأمل من جديد النساء الثلاث الجالسات أمامه.. لو أن أحدا قال لأي واحدة منهن الآن إنها جاءت لتبيع جسدها لثارت عليه ثورة عارمة، إن لديهن قدرة عجيبة على إخفاء الحقيقة وخداع النفس، بالرغم من خبرته الطويلة بهن (أو ربما بسبب هذه الخبرة)، لم يكن بوتشيللي يحمل احتراما كبيرا للنساء، يُشاع في القصر أنه أحب في شبابه فتاة يونانية من الإسكندرية ثم اكتشف أنها تخونه مع أحد أصدقائه ففقد ثقته بالنساء إلى الأبد. حتى لو كانت هذه الحكاية مختلقة فالمؤكد أن بوتشيللي، مثل كل القوادين، بعد عشرات النساء اللاتي اتفق معهن على تقديم أجسادهن، بعد أن رأى أكثر النساء مدعاة للاحترام والتوقير وهي تدخل إلى مخدع الملك، لم يعد بإمكانه أن يقتنع بأن أي امرأة تتمتع بالفضيلة، هذه المخلوقات الرقيقة الفاتنة يحملن جميعا قشرة زائفة؛ إنهن أميل إلى الكذب وعلى أتم استعداد لفعل أي شيء من أجل الثروة.. أي امرأة قابلة للبيع، لا توجد امرأة بلا ثمن.. أي امرأة قابلة للغواية، الأمر يتوقف على استعمال الطريقة الصحيحة في اللحظة المناسبة.. قلة ثقة بوتشيللي (أو انعدامها في الواقع) في النساء جعلته يرفض الزواج حتى جاوز الخمسين وهو أعزب، عندما يسكر مع أصدقائه يُلحون عليه ليتزوج، عندئذ يضحك ويقول:

ـ ولماذا أتزوج؟ أنا أعيش دائما مع عشيقة، الزواج معناه أن أُركّب قرونا يوما ما.

تتعالى أصوات أصحابه المعترضة فيبتسم ويقول بهدوء مشوب بأسى:

ـ أن تخونك زوجتك ليس حدثا إنما الحدث ألا تخونك.

تستمر الاعتراضات فيلوح بوتشيللي بيده ويقول لأصحابه بصوت مرتفع:

ـ أيها السادة، دافعوا عن الصورة الرومانسية للمرأة كما تريدون، لا يوجد مَن يعرف المرأة خيرا مني، المرأة مخلوق رائع لكنها بلا شرف، هذه حقيقة مؤسفة لا جدوى من تجاهلها، أنتم أشبه بزبائن ينتظرون العشاء في مطعم، أما أنا فأعمل في المطبخ وأعرف جيدا كيف يتم إعداد الأطباق التي تبدو لكم شهية.

في انتظار الملك جلس بوتشيللي على مائدته مع نسائه الثلاث، أما مائدة الأمراء فكانت خارج السياق، بلا دور محدد. الجالسون عليها يعلمون أنهم مجرد ديكور للمشهد الأساسي، سيكون من غير اللائق أن يأتي مَلِك مصر والسودان لينتقي عشيقة من الفتيات المعروضات عليه وكأنه في بيت سرّي.. من هنا يحرص بوتشيللي على دعوة هؤلاء الأمراء ليبدو الأمر طبيعيا.. كانوا يؤدون دورهم وهم يحسون بزهو لأنهم محل ثقة جلالة الملك لدرجة أنه يختارهم ليشهدوا لحظاته الخاصة. كانوا يحتفظون بأنفسهم بعيدا عن مجرى الأحداث، يندمجون في الطعام والشراب، يتبادلون الحوار بالفرنسية وتختلط الضحكات الخشنة ونوبات السعال بضحكات نسائية ناعمة تبث غواية أثيرية، بين الحين والآخر يسترقون النظر إلى مائدة الملك ليعرفوا هل يستمرون في تجاهل ما يحدث خلف ظهورهم أم أن اللحظة الحاسمة قد حانت وعليهم أن يستأذنوا مولانا الملك في الانصراف، جاوزت الساعة الواحدة صباحا

والملك لم يظهر بعد، ظلت ميتسي صامتة بينما اندمجت زميلتاها في الحديث مع بوتشيللي، كانوا يتكلمون ويضحكون برنة فارغة مصطنعة وهم يتطلعون إلى البوابة، كانوا قلقين من تأخر الملك لكنهم لا يجرءون على السؤال، جلست ميتسي بينهم لكنها انعزلت في عالمها الخاص، اصطنعت ابتسامة محايدة بينما عيناها تعكسان نظرة غائبة.. لم تكن مستاءة ولا قلقة ولم تكن تحس برهبة.. كانت فقط مندهشة، كانت تراقب المشهد من الخارج كأنها تتفرج على مسرحية، مرة أخرى تشعر أنها لا تفهم نفسها، مرة أخرى تتصرف بشكل غامض، ثمة قوة قاهرة تدفعها إلى فعل أشياء غريبة، لماذا أتت؟ لقد جاءت لتعرض نفسها على الملك، جاءت تنتظر الإذن بمضاجعة جلالته، هذه الحقيقة، إنها الآن تسقط بإرادتها، من الصعب أن تلعب دور الضحية، لا يمكن أن تزعم أن أباها أرغمها، أبوها لا يستطيع أن يفرض عليها شيئا.

لقد أعلنت أنها لن تذهب إلى الحفل، استمتعت باستفزاز أبيها وتشاجرت معه كعادتها، هذه المرة غضب أبوها بشدة، عندما تمر بجواره كانت تحس بحرارة ما وكأن حنقه عليها تحول إلى وهج يكاد يلسعها، تجنبته تماما حتى أنها لم تعد تتناول العشاء مع أبويها، صارت تكتفي بسندوتشات تأكلها في حجرتها، قبل الحفل بثلاثة أيام ذهبت إلى أبيها في حجرة مكتبه، نقرت الباب فأذن لها، ما إن رآها حتى ظهر على وجهه تعبير متوجس، عاد بظهره في المقعد وبدا عليه التحفز، قالت بهدوء:

ـ هل اعتذرت لمستر بوتشيللي؟

ـ هذا ليس من شأنك.

هكذا قال مستر رايت بلهجة متحدية، كان يتوقع ردا وقحا منها لكنها ابتسمت ببراءة وقالت:

ـ حسنا، إذا لم تكن اعتذرت فلا تفعل.. لقد غيرت رأيي.. سأذهب إلى الحفلة.

تحول الحنق على وجهه إلى دهشة ثم شيئا فشيئا إلى بهجة وما يشبه الامتنان، ابتسم وقال بنبرة مترددة كأنه يخشى من تراجعها:

ـ أخيرا اتخذتِ القرار الصحيح.. كنت أثق في أنكِ أعقل من أن تضيعي هذه الفرصة.

ردت بلهجة عملية تماما:

ـ سوف أنزل هذا المساء لأشتري الفستان الجديد كما نصحتَني.

لم تنتظر الرد، استدارت وانصرفت إلى حجرتها، كأنما تمعن في إدهاشه، كأنها تجد متعة في مفاجأته بما لا يتوقعه، أبوها يعجز دائما عن فهم تصرفاتها لكنها أيضا لا تفهمها.

تحس دائما بنزعة للتمرد على كل ما هو ثابت.. تمقت ما هو مستقر.. يستفزها ما هو متفق عليه ومفروغ منه، تسعى إلى كسر القواعد فتندفع دائما عكس الاتجاه.. تجد لذة في إرباك الذين يثقون في أنفسهم وفي قراراتهم الحكيمة؛ هذا الجموح قديم؛ كان ينتابها وهي تلميذة صغيرة، عندما يسود الصمت في الفصل، في اللحظة التي يبدو المدرس فيها واثقا من سيطرته على التلاميذ المهذبين الصامتين المذعنين لإرادته، عندئذ تصير الغواية فوق احتمالها، تستبد بها رغبة عارمة في إفساد المشهد، تضحك فجأة أو تنادي زميلة لها بصوت عالٍ.. كم مرة تسبب نزقها في عقابها.. كم مرة وقفت طوال الحصة ووجهها في الحائط، وكم مرة كان عليها أن تكتب مائة مرة جملة: «يجب أن أكون مؤدبة في الفصل».. عقاب المدرسين لم يردعها، صاحَبَتها اندفاعاتها المفاجئة العاصفة حتى سن

الشباب واكتسبت بُعدا أعمق.. كانت، في تحديها الدائم للقواعد، تبحث عن شيء ما حقيقي تم إخفاؤه.. في مواجهة كل الأصول المتعارف عليها والابتسامات الزائفة والإيماءات الوقورة والكلام المنمق هناك دائما حقيقة خفية تستمتع ميتسي بإعلانها فجأة فتسقط الأقنعة ويرتبك الجميع.. إنها تبحث عن الصدق؛ لهذا تحب مصر، إنها تفضل الجلوس على مقهى صغير في القاهرة على تناول العشاء في نادي كارلتون في لندن، هنا بشر حقيقيون وحياة فقيرة لكنها طبيعية، وهناك حياة مترفة أنيقة لكنها مصطنعة.. هذه الطبيعة الجامحة المتقلبة ساعدت ميتسي في التمثيل.. عندما تؤدي دورا على المسرح لا تحس أبدا أنها تمثل، يزول وعيها بنفسها وتندمج، «تندمج» تعبير مخفف، إنها في الواقع تتحول، تصبح هي الشخصية، قال لها أحد المخرجين مرة أثناء البروفات:

ـ ميتسي، أنتِ ممثلة من نوع خاص، من الصعب أن أوجهك لأنك تعتمدين على الإحساس الداخلي، سوف أشرح لكِ الشخصية بغير أن أفرض عليكِ طريقة الأداء، افهمي الشخصية ثم ادخلي إليها بطريقتك.

إنها تعيش وكأنها تؤدي دورا على المسرح.. تبحث في داخلها عن تلك الهزة، تترقب تلك النشوة وما إن تعتريها حتى تستسلم، كأنها تترك جسدها لموجة بحر عاتية تفعل به ما تشاء، لماذا قبلت دعوة الملك؟ لأن التجربة مثيرة أو لأن إعجاب الملك بها سيُرضي غرورها كأنثى، كل هذا وارد لكن الباعث الأقوى غالبا يرتبط بعلاقتها بأبويها، أمها باردة بخيلة في مشاعرها منعزلة غارقة في كُتبها قليلة الكلام لا تهتم بما يحدث حولها حتى تبدو أحيانا وكأنها متبلدة، لكن ميتسي برغم ذلك تحبها لأنها صادقة لا تكذب أبدا وتسمي الأشياء بمسمياتها، أبوها

على العكس: كاذب ومنافق، من المؤسف أن يكون ذلك رأيها في أبيها لكنه فعلا يمثل كل ما تكرهه في الحياة: التعالي والغطرسة والاستماتة من أجل كسب المال بأي طريقة ثم تغطية كل ذلك بالكلام الزائف عن القيم، إنها لا تطيقه لأنها تفهمه، إنه يدفع بها إلى فراش الملك من أجل مصلحته بينما يقنعها بأنه يريدها أن تتعرف إلى الملك بغرض الصداقة البريئة، أبوها ينعم في مصر برفاهية كاملة، ومع ذلك لا ينقطع عن الشكوى، يتأفف كل يوم من وجوده في مصر وهو يعلم أنه لو ترك مصر فلن يحصل أبدا على نصف المرتب الذي يتقاضاه من نادي السيارات، إنه يحصل على مرتبه الكبير لأنه إنجليزي وليس لأنه مدير النادي، ربما جاءت الليلة لتواجه أبيها بأكاذيبه، أرادت أن تضعه أمام المرآة، تريدني أن أتحول إلى محظية للملك وتدّعي أنه نوع بريء من التعارف؟ حسنا يا مستر رايت، سوف أضاجع الملك لأكشفك أمام نفسك.. بل إنني سأكون سهلة، سوف أفتح ساقاي بمجرد أن أرى جلالة الملك، أعلم أن ذلك يُسعدك كثيرا أيها الأب المحترم.

فكرت أن الملك سيضاجعها بعد قليل، ماذا سيفعل معها؟ هل يُقبلها أولا؟ هل يطلب منها أن تخلع ثيابها أمامه؟ هنا تذكرت توماس؛ طالب الهندسة أحمر الشعر الذي لا ينقطع عن الضحك، أول مَن تعلمت معه الحب في لندن. كان حبا حقيقيا استمر عامين كاملين ثم انتهى فجأة، هل يكون للحب عمر؟ فترة محددة يكون فيها الحب قويا ثم يزوي وينطفئ كشمعة في نهايتها، انتبهت ميتسي من أفكارها فوجدت بوتشيللي مستغرقا في الضحك والفتاتان تتظاهران بمجاراته، كم تكره هذا القواد، إنه مقزز.. كأنه حشرة كبيرة تنز سائلا كريها، بعد أن صافحته ظلت لفترة تحس بأن شيئا قد علق بيديها لدرجة أنها غسلتهما في الحَمَّام، كانت وهي جالسة أمام بوتشيللي تقاوم نزواتها بصعوبة، كم

تتوق إلى حركة مفاجئة تلقي بالحقيقة في وجوه الحاضرين، كم تتمنى أن تواجه بوتشيللي بأنه قواد أو أن تلتفت إلى هؤلاء الأمراء على المائدة الأخرى وتكشف المفارقة بين غطرستهم وحقيقة دورهم.. أحاديثهم المصطنعة وضحكاتهم الزائفة تكاد تصيبها بالغثيان، إنهم هنا للتغطية على عربدة مولانا لا أكثر ولا أقل، إنهم قوادون مثل بوتشيللي.. جاوزت الساعة الثانية ولم يظهر جلالة الملك.. اضطرت الفتاتان إلى الذهاب إلى الحَمَّام وإصلاح المكياج مرتين، تطلعت إليهما ميتسي وقالت لنفسها: يا لبؤسكما أيتها العاهرتان الصغيرتان.. خاب سعيكما، كم من الوقت أنفقتما في التزين، الملك لن يأتي ولسوف تعودان خائبتين.. فجأة قالت الفتاة الجالسة إلى يمينها:

ـ مستر بوتشيللي.. مولانا الملك لم يأت حتى الآن!

تفحصها بوتشيللي بنظرة مستاءة باردة ثم قال:

ـ مولانا الملك غير مقيد بمواعيد.. تستطيعين أن تنصرفي إذا أردتِ.

ردت الفتاة وقد بدا عليها الجزع:

ـ آسفة.. لم أقصد، سوف أنتظر جلالته طبعا.

ضحك بوتشيللي ساخرا:

ـ موضوع بقائك أو انصرافك ليس بهذه الأهمية، لا أظن مولانا الملك سوف يحزن إذا لم يراكِ الليلة.

قالت الفتاة بتزلف:

ـ طبعا، مسيو بوتشيللي، أنا فقط متشوقة جدا لرؤية جلالة الملك لا أكثر ولا أقل.

أشاح بوتشيللي بوجهه عنها كأنما يعاقبها على وقاحتها ووجّه الحديث إلى الفتاة الأخرى. لما جاوزت الساعة الثانية والنصف تزايد قلقهم، الأمراء وبوتشيللي يعرفون الملك جيدا، إذا جلس إلى مائدة القمار ينسى الدنيا.. إذا كان خسرانا في البوكر فسوف يستمر في اللعب حتى الصباح ليعوض خسارته وسيتجاهل أي ارتباط مهما بلغت أهميته.. عندما دقت الساعة الثالثة تأكد لبوتشيللي أن الملك لن يأتي.. لم يكن بإمكان المدعوين أن ينصرفوا بغير أن يسمح لهم الملك، قرر بوتشيللي أن يتصل بجلالته في نادي السيارات ويطلب الإذن بانصراف المدعوين، قبل أن ينهض بوتشيللي لينفذ فكرته.. فجأة.. حدث هرج ومرج وركض الخدم في كل اتجاه ثم هرع الكوو قادما من داخل الاستراحة ووقف أمام حَمَّام السباحة بقامته الطويلة وبدلته المذهبة.. تطلع خلفه أكثر من مرة كأنما ينتظر إشارة ما ثم انحنى وصاح بصوت مهيب:

ـ مولانا المعظم ملك مصر والسودان.

انتفض الحاضرون من مقاعدهم وهرعوا يستقبلون مولانا الملك: كان يرتدي بدلة سهرة سوداء مع بابيون كبير أحمر وقميص أبيض، البدلة على أناقتها بدت غريبة على جو السهرة وكانت مجعدة قليلا من الظهر.. كان ذلك عيبا معروفا عن الملك.. كثيرا ما يصر على ارتداء بدلة غير ملائمة للمناسبة التي يحضرها كما أن بدانته وطريقته في الجلوس وحركته الدائمة على المقعد؛ كل ذلك يؤدي دائما إلى تجعد ملابسه.

تقدم المدعوون واحدا بعد الآخر نحو الملك، انحنوا وقدموا التحية.. تطلع جلالته إلى بوتشيللي والفتيات حوله ثم ضحك وقال بالفرنسية:

ـ كارلو.. يا لباقة الورد التي جلبتها معك.

كان ذلك مجازا ملكيا كريما أثر في نفس بوتشيللي فانحنى وقال بانفعال:

ـ أنا خادم مولانا.

قدم بوتشيللي النساء الثلاث إلى الملك واحدة تلو الأخرى، بدأ بالمرأة السمراء إنجي ابنة النبيل حسن شركس، ثم الراقصة الفرنسية شنتال التي تؤدي عروضها في ملهى الأوبرج، جاء دور ميتسي فتطلع بوتشيللي إلى الملك بنظرة ذات مغزى وابتسم باعتزاز كأنما يشير إلى قوة هذه المرشحة.

ـ أقدم إلى جلالتك، الآنسة ميتسي.. ابنة مستر جيمس رايت مدير نادي السيارات.

ابتسم الملك وقال:

ـ مسرور لرؤيتكِ، أنا أعرف أباكِ.. رجل طيب.

تمتمت ميتسي بالشكر واستطرد الملك قائلا:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ إنني أدرس الدراما في الجامعة الأمريكية.

بدا الاهتمام على وجه الملك وعندما جلسوا إلى المائدة بدا جلالته مهتما بميتسي، انهمك في الحديث معها ولم يلتفت إطلاقا إلى الفتاتين اللتين كانتا تبذلان مجهودا كبيرا لتداريا الغيرة التي تأكلهما، بعد قليل صار من الواضح أن الاختيار الملكي قد وقع على ميتسي، بدأ المدعوون من المائدة الأخرى يستأذنون تباعا في الانصراف من الملك الذي كان يهز رأسه ويسمح لهم، أخيرا، نهض بوتشيللي وقد بان على وجهه رضا مَن أدى عمله على أكمل وجه، انحنى وقال:

ـ أستأذن جلالتك في الانصراف.. لديَّ مهمة إيصال هاتين الحسناوتين.

ضحك الملك وقال:

ـ يا لها من مهمة ممتعة.

انصرف الجميع ولم يبق في القاعة إلا الملك وميتسي.

كان الخدم يقفون على بُعد محدد بدقة بحيث يهرعون لتلبية طلبات مولانا بمجرد أن يلتفت إليهم وفي نفس الوقت لا يمكنهم الاستماع إلى حديث مولانا مع ضيفته.. ظلت ميتسي تتابع حديث الملك بابتسامة مجاملة وقد سيطر عليها إحساس غريب، لم تكن متأكدة تماما مما يحدث، هل تكتشف في لحظة أنها تحلم؟ إن صورتها الذهنية المسبقة عن الملك تحطمت تماما، هل هذا ملك حقا؟ هذا الرجل البدين اللزج الجالس أمامها الآن كم يبدو عاديا ومبتذلا! طلب الملك زجاجة نبيذ ثم أشار إلى ميتسي فتذوقت وهزت رأسها للجرسون الذي صب لها كأسا، لاحظت أنه لم يصب في كأس الملك، قالت بصوت بدا غريبا في أذنها:

ـ جلالة الملك لا يشرب.

ـ في الواقع أنا لا أحب طعم الخمر.

تجرعت رشفة من النبيذ، كانت تحتاج إلى الشراب حتى تتحمل الموقف، ابتسم الملك وقال:

ـ هل تعرفين لماذا نتذوق النبيذ قبل أن نبدأ الشراب؟

ـ لا أعرف.

ضحك الملك وقال بلهجة العليم ببواطن الأمور:

ـ هذه العادة لها قصة؛ كان ملك فرنسا مريضا وقد منعه الطبيب من تناول النبيذ.. قام هذا الملك بدعوة النبلاء ورجال البلاط وظل طوال الليل يقترح عليهم الأنخاب فيشربون ولا يشرب هو.. كان النبيذ فاسدا لكنهم كانوا مضطرين إلى شربه، لم يكن أحد ليجرؤ على إخبار ملك فرنسا بأن النبيذ الذي يقدم في قصره فاسد، في اليوم التالي سقط المدعوون جميعا مرضى بسبب النبيذ الفاسد.. فلما علم الملك بذلك أرسى هذا التقليد للمرة الأولى: أن يتذوق صاحب الدعوة النبيذ قبل المدعوين حتى يتأكد من جودته.

ضحكت ميتسي وقالت:

ـ معلومة جديدة ورائعة يا جلالة الملك.

قال الملك في زهو:

ـ قرأتها في كتاب تاريخ.

ـ جلالتك تقرأ كثيرا؟

ـ كل يوم أربع ساعات على الأقل.

كانت تعرف أنه يكذب لكنها رفعت حاجبيها الجميلين وقالت:

ـ شيء عظيم.

لماذا تتزلف إلى الملك؟ مرة أخرى تعجز عن فهم تصرفاتها، كم تكره ابتسامتها ونبرة صوتها، لماذا هذا التملق؟ إنها تنحدر بسرعة إلى القاع، ابتسم الملك وقال:

ـ منذ الليلة سنبدأ صداقتنا.

ـ صداقة جلالتك شرف لي ولأي إنسان.

هز الملك رأسه وبدا كأنما يفكر بعمق ثم قال:

ـ عارفة؟ أنا لا أحسب الصداقة بالوقت وإنما بالإحساس، لقد عرفت في حياتي أشخاصا لأعوام طويلة لكني لم أشعر قط أنهم أصدقائي، وعلى العكس أحيانا أقابل إنسانا للمرة الأولى فأحس كأنني أعرفه منذ زمن طويل، كم أرتاح للحديث معك، في الواقع، أنا أعاني من وحدة شديدة.

قالت ميتسي لنفسها: يا لها من حيلة قديمة بائسة لاستدرار العطف، لكنها استمرت في التمثيل فرسمت على وجهها ابتسامة حزينة وتطلعت بعطف إلى الملك وقالت:

ـ كيف تحس جلالتك بالوحدة بينما يحيط بك المحبون من كل جانب؟

تنهد الملك وقال بصوت خافت:

ـ قد يكون الإنسان محاطا بالبشر لكنه يحس بوحدة لأنه يفكر بطريقة لا يفهمها الآخرون.

فكرت ميتسي أن الملك التافه يريد أن يبدو بمظهر المفكر الكبير، تكلم عن حياته الصعبة الجدباء والعمل الذي لا يترك له وقتا للراحة، قالت هي:

ـ أنا أقدر مسئوليات جلالتك، لكن يجب أن تجد فرصة للترويح عن نفسك.

ـ كيف أرتاح وأنا أتحمل مسئولية مصر؛ أهم بلد في الشرق؟

يا لك من أفاق، مَن الذي يسهر في نادي السيارات كل ليلة ويلعب

القمار حتى الصباح؟ مَن الذي يطارد النساء بلا هوادة؟ لماذا جئت أيها الملك المحترم؟ هل ما تفعله الآن ضمن مهامك الوطنية؟! ظلت تهز رأسها وكأنها مقتنعة بما يقول، سكت الملك فجأة وسألها:

ـ لماذا توقفتِ عن الشراب؟

ـ أنا أشرب على مهل.

ـ استمري في الشرب، أحب أن أرى حافة الكأس وهي تلامس شفتيكِ.

أشار الملك إلى السفرجي الذي هرع وانحنى ليصب النبيذ في كأسها الفارغة.. رشفت من الكأس وتطلعت إلى الملك الذي بدا على وشك أن يقول شيئا لكنها فجأة أحست بيده الضخمة تعتصر يدها، تتابعت أنفاسها وأحست أنها ستفقد الوعي، رفع يدها وقَبَّلها فهمست:

ـ أشكرك يا جلالة الملك.

تناول الكأس من فوق المائدة وقال:

ـ أنا عادة لا أشرب لكنني سأشرب الليلة من أجلكِ.

ظلت صامتة، اقترب منها أكثر لدرجة أنها أحست بأنفاسه على وجهها ثم همس بصوت مضطرم بالرغبة:

ـ سأشرب من كأسكِ.. سأضع شفتيَّ مكان شفتيكِ حتى أعرف كل أسرارك.

ابتسمت ميتسي ببراءة كاملة وقالت:

ـ هذا هو الشرف الوحيد الذي أتمنى ألا أحصل عليه.

ـ ماذا تعنين؟

هكذا قال الملك بانزعاج.. ظلت ميتسي على ابتسامتها واستطردت بنبرة رجاء:

ـ أرجو ألا تشرب من كأسي يا جلالة الملك.

ـ لماذا؟

سكتت ميتسي وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسها وقالت:

ـ أنا مريضة، أعاني من التهاب مزمن في الحنجرة، الطبيب يؤكد أنه مرض نادر ومُعدٍ سينتقل إلى كل مَن يقترب مني أو يستعمل أشياء استعملتها.

ظل الملك يحملق فيها وقد زالت ابتسامته واتسعت حدقتاه وبدا كأنما لم يستوعب بعد، ابتعدت ميتسي قليلا وقالت بلهجة معتذرة:

ـ أقدم اعتذاري، كل ما في الأمر أنني أخاف على جلالتك من العدوى.

(٢٣)

قالت عائشة:

ـ شوفي يا أم سعيد، إذا كنت عاوزة فايقة لابنك سعيد ـ اسم النبي حارسه ـ فأنا أجهزها له وأجيبها له لغاية عنده.

دمدمت أم سعيد شاكرة لكن عائشة انطلقت بحماس:

ـ معلوم، والله العظيم لو لفينا الدنيا لا يمكن نلاقي أحسن منكم.. نَسَب يشرّف.. اعتبري سعيد تزوج فايقة.

بان القلق على وجه أم سعيد وقالت في محاولة أخيرة:

ـ أعيد عليكِ يا عائشة، اللي أوله شرط آخره نور، ما فيش حفلة ولا فرح ولا زغاريد.

تنهدت عائشة وقالت بود:

ـ يا أم سعيد، فايقة بنتك، اللي يرضيك إحنا موافقين عليه، على بركة الله.

انغلقت الدائرة حول أم سعيد وأسقط في يدها، لم تكن تتوقع أن توافق عائشة على الشروط القاسية التي وضعتها للزواج، لم يعد هناك ما يقال، نهضت أم سعيد لتنصرف فاحتضنتها عائشة وقَبَّلتها مُهنئة وودعتها إلى الباب، فكرت أم سعيد أن ما يحدث مخطط بارع وضعته عائشة

الداهية وابنتها اللعوب ووقع فيه ابنها سعيد كالبغل وجرها وراءه، لقد رتبت عائشة ونفذت خطوة خطوة ببراعة، تقف معها بشهامة بعد وفاة عبد العزيز فتطوق عنقها بالجميل ثم تبعث بابنتها القارحة لتغوي البغل سعيد وتجعله يتشبث بها، وفي النهاية: ها هي عائشة توافق على كل شروطها لتتم الزيجة، يا لها من امرأة وعرة مياهها عميقة، انتهى الأمر تماما كما أرادت، في الخميس التالي تمت قراءة الفاتحة وتلبيس الدبل وقد تساهل أهل العروس إلى أقصى حد في موضوع المهر وأكدوا أن المسائل المالية آخر شيء يشغلهم؛ لأن كل ما يهمهم سعادة ابنتهم، لم تمنح عائشة أم سعيد فرصة لكي تختلف معها على أن حادثة مقلقة وقعت؛ كانت عائشة تزور أم سعيد فأخبرتها بطريقة عابرة أن سعيد قرر أن يدخل معها جمعية بجزء من مرتبه الذي سيقبضه عندما يستلم عمله في طنطا.. اكفهر وجه أم سعيد ولم تعلق لكنها لما انفردت بسعيد في البيت لم تتمالك نفسها فصاحت في وجهه:

ـ أنت ناوي تدخل جمعية مع عائشة؟

تطلع إليها سعيد كأن الأمر عادي وهز رأسه قائلا:

ـ إن شاء الله، أول ما أستلم الشغل وأقبض.

اندفعت أمه نحوه بغضب ولولا أنه صار أطول منها لكانت صفعته.. صاحت بصوت محشرج:

ـ يا رجل حس على دمك، يعني أنت شايفنا محتاجين، بدل ما تفكر تساعدنا تقوم تدخل جمعية من أول مرتب وتكنز على قلبك.

ابتسم سعيد بهدوء وقال:

ـ حصل خير.

كانت هذه طريقته، يفعل ما يريده ثم يتعامل مع ردود الفعل ببرود كامل، كأنه بعد أن يطمئن إلى تحقيق هدفه لا يجد سببا للانفعال، كما يحدث كل مرة، غضبت أمه وصاحت وبكت ثم هدأت وانتهى الأمر، مضى كل شيء كما كان مخططا، جرت الاستعدادات للزواج في أضيق الحدود وبعد أسبوعين، في اليوم المحدد، ذهبوا جميعا بعد صلاة الجمعة إلى مسجد السيدة زينب، طبقا للاتفاق اقتصرت الدعوة على المقربين، لم تكن هناك أية مظاهر للاحتفال، جاءت أم سعيد وعائشة وصالحة بسواد الحِداد بينما ارتدت العروس فستانا أزرق جميلا مشغولة حوافه بالترتر وخارج النجف، محمود وفوزي وكامل والعريس سعيد ارتدوا جميعا بِدَلا جديدة، أما والد العروس، عم علي حمامة، فقد تألق في معطف جديد بُنّي من الصوف الإنجليزي الأصلي وتحته جلباب سكروته لونه سكري مقلم بخطوط بُنّية، كانت سحنة علي حمامة الكابية الكئيبة متنافرة مع مظهره الأنيق فبدا في ذلك اليوم كأنه متنكر أو كأنه ممثل على المسرح بمجرد أن ينتهي دوره سيخلع ملابس التمثيل الفاخرة ويعود إلى ثيابه المهترئة المعتادة، أما المأذون فكان رجلا بدينا، وجهه مكتنزًا ومستديرًا تماما كأنما تم رسمه ببرجل ثم تم نفخه بطريقة ما.. مد علي حمامة يده ووضعها في يد سعيد وفوقها منديل أبيض ثم ردد خلف المأذون:

ـ زوجتك ابنتي.. البكر الرشيد فايقة على سُنّة الله ورسوله، وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وعلى الصداق المسمى بيننا.

بدلا من الزغاريد التي تلعلع عادة في تلك اللحظة، ساد الصمت وهمس الحاضرون مباركين على استحياء وأجهشت أم سعيد بالبكاء، منذ أن دخلت إلى المسجد وهي تبذل مجهودا مضنيا للسيطرة على

مشاعرها لكنها في لحظة عقد القَرَان انهارت، مَن كان يتصور أن عبد العزيز؛ ابن عمها وحبيبها وزوجها، يموت في سن الخمسين فلا يتمكن من حضور زواج ابنه الأكبر، كم كان سيفرح لو كان معها الآن.. هل كان ذلك كثيرا عليها؟ هل كان نظام الدنيا سيختل لو عاش عبد العزيز بضعة أعوام إضافية ليشهد زواج أولاده ويرى أحفاده؟ أستغفر الله العظيم يا رب، هكذا ظلت أم سعيد تردد وقد انهمرت دموعها، بكت صالحة تأثرا بدموع أمها ولم تلبث عائشة أن بكت بدورها (صدقا أو مجاملة)، فأخرجت منديلا أبيض ومسحت دموعها، سعى الرجال الحاضرون جميعا لتهدئة النساء الباكيات ثم انتهت الإجراءات وخرجوا جميعا من القاعة، كان مشهد أهل العروسين وهم خارجون من عقد القَرَان في صمت بلا زغرودة واحدة ولا أية إشارة على الفرح، غريبا وفريدا من نوعه.. أما فايقة فلم يظهر على وجهها ذلك التعبير الحالم المحلق الذاهل عن التفاصيل التي تبدو عادة على وجوه العرائس، كان وجهها يوم العرس يحمل تعبيرا متماسكا محددا ينم عن الإنجاز.. الانتصار..كانت راضية وفخورة كأنها تلميذة بذلت مجهودا كبيرا في الاستذكار وهي تصعد الآن لتتسلم جائزة تفوقها في الامتحان، لقد خاضت فايقة معركة طويلة صعبة لتحصل على زوجها الذي يقف بجوارها الآن، هاجمت ودافعت وناورت وكرت وفرت، شاغلت سعيد حتى تعلق بها ثم استجابت له ومنحته اللذة وبعد ذلك انقلبت وتمنعت عليه حتى طوّعته لإرادتها، كم كانت تشفق عليه وهو يقف أمامها يكاد يبكي من فرط الرغبة، يتوسل إليها لكي تمنحه جسدها، كانت، في تلك اللحظة، أشبه بأم مُحبة حازمة، تعاقب طفلها فتتألم في أعماقها من أجله لكنها تستمر في تنفيذ العقاب لأنه في صالحه، ما أكثر ما فعلته حتى تتزوج من سعيد، لقد ضحّت بلا تردد بكل ما تحلم به

البنات: ثوب الزفاف الأبيض والفرح والكوشة، كانت تدرك بغريزتها، وبناء على نصيحة أمها، أن أي تأجيل للزواج قد يضيع الفرصة إلى الأبد، ستظل كلمات أمها تتردد في أذنها كحكمة قديمة:

ـ البنت الواعية تطاطي لما تلاقي الريح شديدة، اسمعي كلام حماتك، إياكِ تزعليها لغاية ما نكتب الكتاب.

تم عقد القَرَان ثم قضى العروسان أسبوعا في أوتيل الأنجلو في شارع سليمان باشا، وقد تبرع بتكاليف الإقامة والد العروس عم علي حمامة في سابقة فريدة سوف تُسَجّل في تاريخه، وسيظل يباهي بها الخلق ويمن بها على زوجته عائشة كلما تشاجر معها.. بعد انقضاء أسبوع العسل عاد العروسان ليقيما منفصلَيْن في بيتَيْ أسرتيهما، ثم سافر سعيد إلى طنطا ليتسلم عمله مُدرسًا في المدرسة الصناعية واستأجر شقة حجرتين وصالة في شارع الجيش ثم عاد واصطحب عروسه لتستقر معه.. عندما أطلق القطار صفارته الطويلة وبدأ يتحرك حاملا الزوجين إلى طنطا، في تلك اللحظة فقط.. بدأت الحياة الحقيقية لسعيد همام، سيشعر بعد ذلك بأن السنوات التي عاشها لم تكن سوى مقدمة لحياته مع فايقة، تألقت زوجته لدرجة أدهشته، منذ الأيام الأولى، أثبتت تفوقها كحبيبة وصديقة وزوجة وربة بيت.. اكتشف أنها طباخة لا تُبارى، كانت تقضي في المطبخ ساعات طويلة بلا كلل ولا ملل وإذا تذوقت صنفا جديدا أو حتى سمعت عنه لا يهدأ لها بال حتى تحصل على وصفته وتظل تجربه حتى تتقنه تماما، بالإضافة إلى مهارتها في الطبخ، استطاعت فايقة أن تُحسن استغلال المرتب المتواضع الذي كان زوجها يسلمه إليها أول كل شهر بعد أن يقتطع قسط الجمعية، شيئا فشيئا لبّت احتياجات البيت جميعا: اشترت راديو فيليبس وماكينة خياطة سنجر بالتقسيط، ولما

قبضت الجمعية اشترت طاقما أنيقا لحجرة المسافرين، ثم ادخرت أيضا مبلغا صغيرا للطوارئ، وقد أصرت على توفير مُرَتب الخادمة فكانت تغسل وتكنس وتمسح بنفسها (ثم تدعك يديها بعد ذلك مرارا بالليمون والكريم المرطب حتى تحتفظ بنعومتهما). لقد جعلت فايقة من شقتها الصغيرة مكانا ظليلا مرتبا هادئا تفوح منه رائحة النظافة.. على أن مهاراتها المنزلية المتميزة لم تؤثر إطلاقا على توهجها كامرأة، بعدما حررها الزواج من إحساسها بالذنب اكتشف سعيد كم هي موهوبة في الفراش، كانت فايقة تملك مقومات العشق جميعا: الجمال والرشاقة والعناية الفائقة بجسدها والشهوة العارمة وذكاء الإحساس والحرص على إمتاع زوجها بكل وسيلة وبلا أدنى حرج، لولا أنه يعلم يقينا أنه الرجل الأول في حياتها لساوره الشك في أن لها ماضيًا تعلمت خلاله فنون الغرام، تذكر جملة عابرة أفلتت منها في لحظة صفاء، قالت له إن أمها عائشة شرحت لها أسرار العلاقة الجنسية كاملة لأن معظم الخلافات الزوجية ـ في رأي أمها ـ يمكن أن تُحل نهائيا في الفراش إذا تسلحت الزوجة بالمهارة الكافية.. أشبعت فايقة أشواق زوجها الجنسية وحققت له خيالاته الجامحة الفاحشة إلى حد أنه لم يعد يحس بانجذاب إلى أية امرأة يقابلها في الشارع أو العمل، على أن هذه اللذة الطاغية لم تكن مجانية فقد استعملت فايقة، ببراعة فطرية، دورة متقنة من الإرضاء والتمنع والغموض والدلال وربطت ممارسة الجنس بالثواب والعقاب حتى تمكنت في النهاية من السيطرة الكاملة على زوجها سعيد.. حتى أصبح غضبها، بغض النظر عن سببه، شرا مستطيرا يعمل سعيد على تجنبه بأي ثمن، إن العلاقة الجسدية المتألقة بين الزوجين قد أدت بهما شيئا فشيئا إلى انسجام تام، كأنهما لاعبان يمرران الكرة بينهما فيُحرزان أهدافا رائعة، أو كأنهما ثنائي فني يؤديان أغنية بالتبادل فيضاعفان من

روعتها، صار بإمكان فايقة أن تخمّن حالة زوجها النفسية فورا من نظرة واحدة، من تعبيرات وجهه أو نبرة صوته أو مشيته أو حتى طريقته في الجلوس، وقلما كانت تخطئ، ذات يوم اشتكى لها من قسوة مدير المدرسة التي يعمل فيها ثم عقب بلهجة قلقة:

ـ عارفة يا فايقة؟ مستقبلي كله في يد هذا المدير.. تقرير سري واحد منه يطلَّعني السماء أو يجيبني الأرض. تطلعت إليه فايقة باهتمام وفكرت قليلا ثم اقترحت عليه دعوة المدير وزوجته إلى العشاء وطلبت منه أن يسأل المدير ماذا يحب أن يأكل، بان التردد على سعيد وقال:

ـ جناب المدير على سن ورمح.. كيف أسأله عن الأكل؟

ابتسمت فايقة بعطف وكأنها أم تتفهم سذاجة طفلها.. وضعت كفيها حول وجهه ثم اقتربت وطبعت على شفتيه قُبْلة متمهلة بعثت الحرارة في جسده ثم قالت:

ـ اسمع الكلام يا حبيبي.

في اليوم التالي عاد سعيد وعلى وجهه فرح مشوب بشيء من الدهشة وقال بحماس:

ـ تصوري أن جناب المدير قَبِل دعوتنا، هييجي مع زوجته يوم الجمعة.

ـ سألته عن الأكل اللي في نفسه؟

لم يتمالك سعيد نفسه فضحك وقال:

ـ قال لي إن أكلته المفضلة حَمَام بالفريك.

دقت ساعة العمل إذن: استعانت فايقة بزوجة البوّاب وانهمكا في إعادة ترتيب الأثاث وتنظيف الشقة حتى صارت كأفضل ما يكون، ثم أخرجت مبلغا من المدخرات وعسكرت في المطبخ يومين كاملين حتى أعدت وليمة فاخرة بحق، برعت فايقة في تسوية الحَمَام وحشوِه بالفريك لدرجة أن المدير، بالرغم من نظرات زوجته المحذرة اللائمة، قد التهم وحده أربع حمامات كاملة، بل إنه أثناء المضغ كان من فرط تلذذه يصدر تنهدات وآهات أقل ما يقال عنها إنها غير وقورة ولا تتناسب بالمرة مع منصبه التربوي كمدير مدرسة طنطا الصناعية، حققت الوليمة نجاحا مبهرا وسرعان ما وطدت فايقة علاقتها بزوجة المدير حتى أصبحت صاحبتها الروح بالروح وموضع سرها، ثم انتهزت فرصة نجاح ابنة المدير في الشهادة الابتدائية وأهدتها «ما شاء الله» ذهبية كبيرة عيار ٢١.. كان من الطبيعي بعد ذلك أن يحصل سعيد على تقدير ممتاز في التقارير السرية جميعا مع توصية صريحة من المدير بمنحه ترقية استثنائية نظرا لكفاءته وتميزه.

من الإنصاف هنا أن نعترف بأفضال فايقة على زوجها ولعلها أيضا فرصة لنعيد النظر في الصورة الشائعة عن الزوجة المسيطرة.. إن سيطرة المرأة على زوجها ليست دائما شرا محضا، بالعكس، كثيرا ما تنجح الزوجة المسيطرة في تحصين الأسرة وتأمين مستقبل الأولاد، من الأزواج مَن يحتاج إلى زوجة قوية الشكيمة تماما كما يحتاج الطفل العابث إلى أم حازمة، من الأزواج من يفسد إذا لم تسيطر عليه زوجته، من الأزواج من إذا تمتع بالاستقلال انفلت عياره وطاش لبُّه وانحرف وتسبب في إيذاء نفسه وأسرته، لقد كانت سيطرة فايقة على زوجها دائما تصب في مصلحته، أشبعت غريزته الجامحة وقدمت له المتعة الحلال وضبطت حياته كالساعة وعمَّرت بيته واكتسبت رضا رئيسه في

العمل الذي منحه علاوة ورشَّحه لترقية استثنائية.. حتى علاقة سعيد بأهله رسمت فايقة حدودها بعناية وحزم حتى تريح وتستريح.. في أول زيارة لبيت الأسرة بعد الزواج، سأل سعيد أمه بنبرة احتفالية حماسية إن كانت تحتاج إلى نقود فأجابته بأنها والحمد لله مستورة، ثم شكرته ودعت له بالستر والصحة، كان صوت أمه خافتا ونبرتها هشة لأنها تكذب، كانت أحوج ما يكون إلى مساعدته لكنها استحت أن تطلب منه أمام زوجته ولو أن سعيد ألح عليها، لو أنه كرر سؤاله مرة واحدة لكانت أخبرته بحقيقة أنهم يحتاجون إلى مساعدته لكنه اكتفى بإجابتها الظاهرة وغيَّر مجرى الحديث إلى موضوع آخر، انتهى الأمر عند هذا الحد وأثناء رحلة العودة إلى طنطا لاحظ سعيد أن فايقة تجلس بجواره في القطار وقد بدت متعكرة المزاج، راحت تتنهد وتنفخ في ضيق وترد على كلامه باقتضاب وتشيح بوجهها وتتطلع من نافذة القطار كأنها لم تعد تطيق النظر إليه، أحس سعيد بقلق وسألها بلهفة:

ـ ما لك يا «فوفا»؟

كان هذا اسم التدليل الذي يستعمله في الأزمات ليستدر عطفها، لكن «فوفا» لم ترد عليه وإنما تنهدت بحسرة ولمعت في عينيها الدموع وسارعت بإخراج منديلها لتكفكفها، عندئذ تحول قلق سعيد إلى جزع ووضع ذراعه على كتفها لكنها نفرت بعيدا، همس بحرارة:

ـ فوفا.. حبيبتي.. والنبي تقولي لي ما لك؟

تركته فايقة حتى كرر السؤال وفجأة تغير وجهها فرمقته بنظرة نارية وقالت بصوت يرتجف بالغضب:

ـ أنت عاوز تصرف مرتبك كله على أمك وإخوتك؟

فوجئ سعيد ورد بصوت مرتبك:

ـ لا طبعا.. من قال؟

ـ أنت عرضت تدفع لأمك أي شيء تحتاجه.

ـ أنا سألت أمي من باب الواجب.

صاحت فايقة:

ـ على رأي المثل.. اللي يعوزه البيت يحرم على الجامع؛ أمك الحمد لله عندها رجلين؛ أخوك محمود وأخوك كامل، أنا ماليش غيرك.

ـ يا حبيبتي أنا سألتها إن كانت عاوزة حاجة، مجرد سؤال.

ـ يا فرحتي بك يا أبو قلب حنين.

هكذا قالت متهكمة وتأودت ثم أعطته ظهرها وعادت تنظر من نافذة القطار، كانت حركتها غاضبة لكنها في نفس الوقت لينة لا تخلو من دلال فاتن، طوال الطريق اجتهد سعيد في التسرية عن زوجته، داعبها وحكى لها طرائف، ضحكت فايقة قليلا، استجابت له نصف استجابة، ظل شيء ما في وجهها الجميل عابسا ليذكره بفعلته، تلك الليلة عندما أوى الزوجان إلى فراشهما أخذت فايقة حَمَّامها الليلي الساخن وخرجت ببشرتها المتوردة وشعرها الأسود المنسدل وقد تبعثرت خصلاته على جبينها، كان قميص نومها الأحمر مفتوحا تماما عند الصدر وقصيرا لدرجة تكشف فخذيها تماما، وقفت تتزين أمام المرآة فران صمت مثقل بالرغبة في أنحاء الحجرة وتملكت الشهوة سعيد حتى غامت عيناه فلم يعد يميز ما يراه، وأحس بقلبه يكاد يتوقف من فرط الانفعال، لم يمهل زوجته حتى تستكمل زينتها، انقض عليها من الخلف واحتضنها فأحس بنعومة

ثدييها بين يديه ثم انهال عليها بقُبُلاته، ذابت فايقة وتأوهت وتمنعت قليلا ثم استسلمت له وهو يدفعها نحو الفراش لكنها في اللحظة الأخيرة، قبل أن تستلقي أمامه، نهضت من جديد كأنها تذكرت شيئا وتملصت منه بحزم، كان سعيد في تلك اللحظة يلهث بصوت مسموع من فرط الشهوة وكأنه ثور هائج يخور.. حافظت فايقة على المسافة التي صنعتها بين جسديهما ثم اقتربت برأسها وهمست في أذنه:

ـ سعيد حبيبي، أنا مراتك حبيبتك، كل قرش إحنا أولى به.

كان سعيد عاجزا عن الكلام من فرط الهيجان، همست فايقة من جديد لتبرز المعنى وتوثق الاتفاق:

ـ توعدني إنك ما تصرفش مليم بره البيت؟

هز سعيد رأسه بقوة ليؤكد تعهده؛ عندئذ، انفتح باب القلعة، سلمت فايقة له جسدها يصنع به ما يشاء واجتهدت في إرضائه، تألقت وتوهجت وحلقت به عاليا حتى وصلا إلى الذروة مرتين متتاليتين.. بعد ذلك لم يعرض سعيد على أمه أية مساعدة مطلقا، لم تكتفِ فايقة بهذا الإنجاز المهم بل إنها وضعت نظاما دقيقا لزيارة أهل زوجها: في البداية حرصت على زيارتهم مع سعيد كل أسبوع، ثم شيئا فشيئا قللت فايقة من الزيارات واستبدلت بها مكالمات تليفونية للاطمئنان.. وأخيرا لم تعد زيارة الزوجين لأهل سعيد تقليدا ملزما في حد ذاته وإنما إجراء استثنائي يحدث دائما لمناسبة ما أو لسبب محدد، بعد هذه الانتصارات المتوالية شرعت فايقة مثل أي قائد عسكري بارع في تطوير الهجوم، كانت توعز إلى سعيد لكي يخبر أمه بزيارتهما قبلها بأيام، السبب المعلن طبعا أنه لا يليق بالزوجين أن يهبطا بدون تمهيد على أم سعيد فيسببان ربكة أو إزعاجا، أما الهدف الحقيقي فكان انتهاز فرصة الزيارة لكي تأخذ فايقة

وزوجها مساعدات عينية تعدها لهما أم سعيد عندما تعلم بقدومهما مسبقا، كانت فايقة أثناء الزيارة تشكو من صعوبة المعيشة في طنطا وارتفاع تكلفة الحياة وقلة المرتب، تظل تعيد وتزيد في هذا الموضوع حتى تمنحها أم سعيد في نهاية الزيارة صندوقا من الورق المقوَّى يحتوي على ما تيسر من مؤونة: سمن بلدي وسكر ودقيق ولحم ودجاج، ترفض فايقة طبعا في البداية لكن أم سعيد تلح وتقسم عليها، عندئذ تنصاع فايقة على مضض وتعطي الصندوق لزوجها ليحمله ثم تشكر أم سعيد بطريقة عادية، بدون مبالغة، لئلا تظن أن ما تفعله معها كرم زائد أو استثنائي، لم تكن أم سعيد بالطبع غافلة عن مناورات فايقة ولا خططها بل كانت في أعماقها تكاد تعجب ببراعتها وتتساءل كيف تعلمت هذه البنت الصغيرة كل هذه الحِيَل والألاعيب؟! كانت أم سعيد تدرك أن سعيد أناني لا يمكن لها أن تعتمد عليه، لكنها كانت، شأن الأمهات جميعا، على أتم استعداد للتغاضي عن تقصير ابنها حتى تحتفظ بمودته وتحظى برؤيته ولو كل حين.

بعد شهور من الزواج أخبر سعيد أمه بأن زوجته حامل، عندئذ انتابت أم سعيد حالة من الفرح الجامح وفكرت في أن فايقة تحمل في بطنها الآن أول حفيد لها وللمرحوم عبد العزيز، نسيت أم سعيد مكائد فايقة وسخافاتها وانتابتها حالة غامرة من الحنان نحو حفيدها القادم وراحت تتصل تليفونيا عدة مرات في الأسبوع لتطمئن على حمل فايقة ونصحتها بألا تتحرك بعنف وألا تحمل شيئا ثقيلا لأن الحمل الأول يكون دائما هشا وغير مستقر على الأخص في الشهور الأولى، لكنها فوجئت بمكالمة من سعيد يخبرها بأنه سيزورها مع زوجته يوم الجمعة.. رحبت الأم بالطبع لكنها أضافت في قلق:

ـ كيف تركب فايقة القطار وهي حامل؟ خطر عليها.

على أن سعيد أكد لأمه أن الموضوع مهم ولا يقبل التأجيل وهو يحب أن تحضر زوجته اللقاء، انتهت المكالمة فاستغربت أم سعيد وتساءلت: ما سر هذه الزيارة؟ ألم يحذر الطبيب فايقة من كثرة الحركة؟ ماذا يدفع فايقة إلى مخالفة أوامر الطبيب ولماذا تتحمل رجرجة القطار من طنطا إلى القاهرة وبالعكس، ثم ما هو الموضوع المهم ولماذا يستلزم وجود فايقة؟ تناقشت أم سعيد طويلا مع صالحة في هذا الأمر فلم تصلا إلى تفسير مقنع، وفي يوم الجمعة جاء سعيد وزوجته كعادتهما قبيل الظهر.. ذهب سعيد فأدى صلاة الجمعة في جامع السيدة زينب وعاد فاجتمعت الأسرة كلها حول المائدة، تناولوا بطة محشية بالبصل أعدتها الأم خصيصا وبعد الغداء شربوا ثلاثة أدوار متعاقبة من الشاي، توضأ سعيد ونزل إلى الجامع مرة أخرى ليؤدي صلاة العصر وعندما عاد جذب أمه من يدها إلى حجرة الجلوس وأغلق الباب عليهما وشيئا فشيئا احتدت المناقشة بينهما حتى سُمعت أصداؤها في أنحاء البيت، هرع كامل إلى حجرة الجلوس بينما اقتربت فايقة من حجرة الجلوس بخطوة متمهلة كأنها تعرف ما يحدث وتتابعه عن قرب.

(٢٤)

انفتح الباب وظهرت مدام خشاب، ما إن رأت محمود حتى بدا على وجهها تعبير جامد وقالت بلهجة متحفزة:

ـ خير يا محمود، عاوز حاجة؟

بُهت محمود وارتبك ثم استجمع نفسه وقال بصوت متلعثم:

ـ أنا آسف يا مدام.

أشاحت بوجهها وقالت ببرود:

ـ آسف على إيه؟

اندفع محمود قائلا بحرارة:

ـ آسف لأني أغضبتك، والله العظيم أمي غصبتني لأجل أرجّع هديتك، من فضلِك تسامحيني.

كادت مدام خشاب أن تقول شيئا لكنها سكتت، هنا تقدم محمود خطوة ومد يده بباقة الورد ناحيتها وقال بلهجة متوسلة:

ـ أنا جبت الورد ده لحضرتك عشان أصالحك.

مرت لحظة من الصمت واستطرد محمود بصوت متوسل:

ـ خذي الورد من يدي.. وحياة سيدنا النبي ما تكسفيني يا مدام.

بعد تردد، تناولت مدام خشاب الباقة وابتسمت وقالت:

ـ شكرا يا محمود.

ـ حضرتك مش زعلانة مني؟

لم ترد، ألح محمود قائلا:

ـ حضرتك قلتي لي مرة إن قلبك أبيض وتحبي تسامحي الناس.

كانت لهجته صادقة ومؤثرة، أخذت مدام خشاب تتفحص باقة الورد بنظرها.. قربتها من أنفها وشمتها ثم قالت بصوت خافت:

ـ الورد جميل فعلا.. أنا بأحب القرنفل.

ابتسم محمود فبانت أسنانه الناصعة وأطرق صامتا كأنما يريد أن يقول هذا أقل واجب، ثم سأل مرة أخرى:

ـ خلاص سامحتيني؟

هزت رأسها وتطلعت إليه بحنان وقالت:

ـ يا محمود أنا أعتبرك ابني، عمري ما أزعل منك، أنت لما رجّعت لي الهدية حزنت لأني كان نفسي أكون مفيدة بالنسبة لك.

ـ شكرا يا مدام.

اتسعت ابتسامة مدام خشاب ثم دفعت الباب بيدها وتراجعت خطوة وقالت:

ـ تفضل يا محمود، ادخل.

ـ شكرا.

ـ مش معقول تقف على الباب، لازم تشرب حاجة.

انساق محمود ودخل خلفها، في تلك اللحظة ألحّت على ذهنه أفكار ثلاث: أولا أن عم مصطفى محق لأن الورد يؤثر بشدة في نفسية الأجانب بدليل تغير مزاج مدام خشاب بمجرد رؤيتها لباقة القرنفل، وثانيا أنه في يوم عطلته وبالتالي لا يهمه لو تأخر قليلا، والثالثة أنه يجب أن يكون حريصا حتى لا تغضب منه مدام خشاب مرة أخرى.. تصارعت الأفكار الثلاث بشدة في رأس محمود مما أدى إلى تعطل ذهنه فاستسلم لمدام خشاب التي أمسكت بيده وأجلسته على المقعد في الصالة ثم أخرجت الورد من الباقة ونسّقته بعناية في إناء مملوء إلى نصفه بالماء ووضعته على المائدة الملاصقة للنافذة، نظرت مرة أخرى إلى الورد بإعجاب ثم جلست على الأريكة، عندئذ لمح محمود لأول مرة على المائدة زجاجة ويسكي وكأسا وإناء فيه ثلج ففهم أنها تشرب، مدت يدها وتناولت الكأس ثم ضحكت فجأة وقالت:

ـ إزيك محمود؟

ـ الحمد لله.

ظل يرقبها وهي تشرب ما تبقى في الكأس مرة واحدة ثم تنحني لتصنع كأسا جديدة، وضع محمود يديه على ركبتيه وأطرق وهو لا يعرف ماذا يقول حتى قالت له مدام خشاب بود:

ـ أعمل لك كأس ويسكي؟

ـ لا شكرا.

ـ كأس واحد.

ـ يا مدام أنا مسلم، الخمرة عندنا حرام.

ضحكت مدام خشاب ورشفت من كأسها وقالت:

ـ أنت بتصلي؟

ـ للأسف مش منتظم في الصلاة، ساعات أنسى وساعات أكسل.

بان عليها التفكير وبدا كأنما تبحث عن الكلمات المناسبة، سألته:

ـ عندك كم سنة يا محمود؟

ـ ماشي في الـ ١٩.

ـ طيب قل لي.. أنت دلوقت تفهم أكثر ولا لما كان عندك عشر سنين؟

ـ دلوقت طبعا.

ـ عظيم.. يبقى الإنسان لما يكبر في السن يفهم الدنيا أكثر؟

ـ معلوم.

ـ طيب، ربنا اللي هو خلق الدنيا كلها والناس كلهم.. لازم يكون بيفهم أكثر منا كلنا.

ـ طبعا.

ـ لو ربنا بيفهم أكثر منا كلنا يبقى لازم يسامحنا.

ـ يسامحنا مهما عملنا حاجات غلط؟

هكذا سألها محمود ببراءة، ضحكت مدام خشاب وقالت:

ـ ربنا لازم يعاقبنا على الذنوب الكبيرة، ربنا يعاقبنا إذا أذينا الناس، إذا كذبنا وسرقنا وقتلنا.. أما اذا شربنا كأس ولا اتنين ينسّونا الغم، لا يمكن ربنا يعاقبنا لأن دي حاجة صغيرة.

كان ذلك المنطق معقدا بالنسبة لمحمود فهز رأسه وقد تجمدت الابتسامة على وجهه، سألته مدام خشاب مرة أخرى:

ـ قلت إيه؟ أعمل لك كأس؟

ـ لا شكرا.

ـ خلاص براحتك، أجيب لك شوكولاتة ساقعة؟

تردد قليلا ثم قال بصوت خافت:

ـ أكون متشكر.

ـ كم ملعقة سكر؟

ـ أربع ملاعق.

ضحكت مدام خشاب ونظرت إليه كأنما ترى طرافته لأول مرة، هزت رأسها واحتست ما تبقى من كأسها مرة واحدة ثم نهضت وتوجهت إلى المطبخ، راح محمود يتأمل الشقة، إلى اليسار في الصالة رأى مذياعا خشبيا كبيرا وحوضا مضاء من الداخل تسبح فيه أسماك ملونة جميلة، ومن الناحية المقابِلة رأى حجرة سفرة وشرفة تطل على كورنيش الزمالك، على الحائط كانت هناك صورة لمدام خشاب وهي في ثوب العروس بجوارها وقف العريس سامي خشاب؛ وهو شاب وسيم، ثم صورة كبيرة له (وقد تقدم في السن وابيض شعره) معلقة في صدارة الصالة وعلى جانبها شريط أسود، بعد دقائق عادت مدام خشاب ووضعت كوب الشوكولاتة أمامه ثم عادت إلى جلستها البعيدة وصنعت لنفسها كأسا جديدة.

ـ عارف يا محمود.. والدتك لما رفضت الهدية كان عندها حق

وما عندهاش حق.. عندها حق لأن الإنسان لازم يبقى عنده كرامة، وما عندهاش حق لأني بأحبك زي ابني.

بدا الضيق على وجه محمود لأنها عادت للحديث عن المشكلة بعدما ظن أنها انتهت، كانت مدام خشاب في حالة من الشجن من تأثير الخمر، عادت بظهرها في المقعد الوثير ومدت قدميها ثم رشفت من الكأس وقالت بصوت خافت:

ـ أنا عاوزة الناس تحبني.

ظل محمود صامتا فتطلعت إليه وقالت:

ـ أنا محتاجة للناس يا محمود، فاهم قصدي؟ أنا ربنا ما أعطانيش ولاد، كان نفسي يبقى عندي ولد أو بنت.. كمان الرجل الوحيد اللي حبيته.. الرجل اللي سبت إنجلترا عشانه وجئت مصر، مات وسابني وحدي.

كان الحديث بهذا الإيقاع المتدفق يربك محمود لأنه يحتاج إلى وقت للاستيعاب، بدت له مدام خشاب في تلك اللحظة، على نحو ما، أشبه بأعضاء النادي السكارى الذين يقوم عم سليمان البواب بتوصيلهم إلى سياراتهم آخر الليل، قالت:

ـ عارف يا محمود إيه أسوأ حاجة في الدنيا؟

لم يكن بمقدوره الإجابة، كان في تلك اللحظة مشغولا بارتشاف آخر ما تبقى من الشوكولاتة في قعر الكوب، كان مذاقها رائعا، استطردت مدام خشاب:

ـ أسوأ حاجة في الدنيا إنك تبقى وحدك.. شوف.. أنا عندي كل

حاجة: شقة حلوة في الزمالك وشقة في الإسكندرية على البحر.. عندي مال كثير لكني وحدي، فاهم؟ وحدي خالص.

ـ حضرتك ماعندكيش أصحاب؟

ـ عندي لكن دائما أحس إني محتاجة لهم أكثر ما هم محتاجين لي، كل واحدة من صاحباتي عندها أولادها وأحفادها، لكن أنا وحدي.

تأثر محمود من لهجتها لكنه لم يعلق، همست مدام خشاب كأنها تحدث نفسها:

ـ عارف يا محمود.. ساعات أخاف أموت وأنا وحدي في الشقة وما حدش يعرف.

ـ بعد الشر عنك يا مدام.

ـ لو حسيت في أي يوم إني تعبانة لازم أقول للبوّاب عشان لو حصل لي حاجة بالليل يطلب الدكتور، تخيل يا محمود إنك تبقى وحدك لدرجة أن البوّاب هو اللي ممكن يسعفك، شيء حزين.

قال محمود بتأثر:

ـ ربنا يعطيك الصحة.

تنهدت مدام خشاب وقالت:

ـ أنا تعبانة يا محمود، عندي مشاكل كثيرة.. الشُّرب بيريحني، بعد ما أشرب كأسين أقدر أنام وما أفكرش في حاجة.

انتهى محمود من كوب الشوكولاتة ومسح فمه بالمنديل الذي تحرص أمه على وضعه دائما في جيبه الأيمن، شرب رشفة من الماء المثلج فأحس بانتعاش لذيذ في فمه ثم قال:

ـ أشكرك يا مدام.. الشوكولاتة لذيذة جدا.

ـ تحب أعمل لك واحدة ثانية؟

تردد لحظة ثم ابتسم وقال:

ـ يبقى كتر خير حضرتك.

نهضت مدام خشاب إلى المطبخ وبعد دقائق كان محمود يشرب من كوب الشوكولاتة الثاني بتلذذ.. سألته:

ـ وأنت مبسوط بشغلك في نادي السيارات؟

ـ الحمد لله.

ـ يعني مرتبك يكفيك؟

ـ أنا أعطيه لأمي.

ـ كله؟

ـ هي بتسيب لي قرشين أصرفهم على نفسي.

ـ برافو، أنت رجل شهم، لو كان عندي ابن كنت أحب إنه يطلع زيك.

كان محمود ينهي آخر رشفة من الكوب الثاني.. قالت مدام خشاب:

ـ واضح إنك تحب الشوكولاتة.

ـ أحبها جدا.

نهضت وتوجهت إلى البوفيه المجاور لمائدة الطعام، انحنت وفتحت أحد الأدراج ثم عادت ومدت يدها إلى محمود وقالت بصوت حانٍ:

ـ خذ يامحمود، دي شوكولاتة سويسري بيضاء.

ـ هو فيه شوكولاتة بيضاء؟

ضحكت وقالت:

ـ طبعا، جربها، يا رب تعجبك.

تناول محمود الشوكولاتة برفق وعناية كأنها جوهرة ووضعها في جيبه ثم نهض وقال:

ـ أنا ماشي.. متشكر جدا يا مدام.

ـ أحب أنك تزورني دائما.

ـ إن شاء الله.

سبقته إلى الباب وأحس ببهجة لأن كل شيء مضى كما أحب.. لم تعد غاضبة منه وقد استعاد صداقتها كما كان يتوق إلى اللحظة التي يفض فيها غلاف الشوكولاتة البيضاء ليجرب طعمها، وقفت تودعه وقالت:

ـ محمود، ممكن أطلب منك حاجة.

ـ تحت أمرك.

ـ بعد كده ما تقوليش مدام خشاب.

ـ أقول لحضرتك إيه؟

ـ ولا تقول لي حضرتك.. أنا اسمي روزا.. قل روزا.

ردد وراءها ببطء:

ـ روزا.

ضحكت وقالت:

ـ سلم لي على ماما كثير.. أوكيه؟ قل لها روزا بتحبني زيك بالضبط.

هز محمود رأسه واقتربت روزا منه لتُقبله، كانت قد قبَّلته على خده مرتين أو ثلاث في السابق، وكان يعرف عطرها الهادئ الذي يشمه الآن مختلطا برائحة الكحول، كانت رائحتها قد انطبعت في ذهنه بشكل أمومي، تماما مثل رائحة الصابون المعطر والملابس النظيفة التي يشمها عندما يحتضن أمه، وقف محمود ساكنا حتى تنتهي روزا من تقبيله على وجنتيه.. على أنها فجأة، مدت ذراعيها واحتضنته وسرعان ما أحس بأنفاسها الحارة تلفح وجهه.

(٢٥)

بدا الارتباك على جلالة الملك وتطلع إلى ميتسي وسألها بقلق:

ـ هل أنت مريضة فعلا؟

أجابت ميتسي بهدوء:

ـ لقد أجمع ثلاثة أطباء على نفس التشخيص.

ـ أليس لهذا المرض علاج؟

ـ أنا آخذ علاجا وأتحسن ببطء، لكن الأطباء أكدوا أن الميكروب الذي أحمله في حنجرتي سيظل معديا لفترة طويلة.

تطلع إليها الملك بنظرة مستنكرة كأنه يريد أن يقول: «لماذا لم تخبريني من البداية بهذه المصيبة؟».

ساد الصمت فترة ثم نهض جلالة الملك فنهضت ميتسي، مد الملك يده وصافحها بأطراف أصابعه كأنما العدوى ستصيبه من يدها، قبل أن ينصرف أوصى الكوو فطلب لها سيارة عادت بها إلى البيت، ما إن وصلت إلى حجرتها حتى خلعت ثيابها وتسللت إلى الحَمَّام، كانت منتشية من أثر النبيذ وعندما غمرت المياه الساخنة جسدها العاري أغمضت عينيها واحتوتها بهجة صافية، أحست برضا عن نفسها، ها هي تصنع لحظة الحقيقة، هذه متعتها الكبرى: أن تكشف الأكاذيب

وتفضح التواطؤ.. لقد سَخِرت من ملك مصر والسودان، عاملته بما يستحق، لَبَّت دعوته وتركته يغازلها حتى صارت على بُعد خطوات من فراشه، كان جلالته يتلمظ ليفترسها، كاد جلالته ينخر كالثور من فرط الهيجان، كانت تندفع بسرعة نحو النهاية.. فجأة، انجلت صفحة ذهنها كالمرآة الناصعة وهبط عليها إلهام رائع، كذبت بتلقائية وبراعة وكأنها تُمثل دورا في مسرحية، تذكرت وجه الملك المرتبك فلم تتمالك نفسها وضحكت بصوت مسموع بينما المياه الساخنة تغمرها.

«أيها الملك المعظم كنت أود أن أحظى بشرف مضاجعة جلالتك، لكني خفت أن أعديك بالفطريات التي تنتشر على حنجرتي.. ماذا دهاك يا مولاي؟ لماذا ترتجف؟ ألم تكن تريدني منذ لحظة، ألم تبدو كالوحش الكاسر؟ لماذا وضعت ذيلك بين فخذيك وهربت، لماذا ركضت فزعا كأنك طفل يطارده عفريت؟».

خرجت ميتسي من الحمام في حالة رائعة من الاسترخاء، نامت بعمق وفي الصباح استيقظت وذهبت إلى الجامعة واندمجت في أحداث النهار، اعتبرت أن حكايتها مع الملك انتهت عند هذا الحد، في المساء على مائدة العشاء ظل أبوها صامتا، لم ينطق بكلمة، عندما انصرفت إلى حجرتها.. فوجئت بأبيها يتبعها عبر الردهة، توقفت والتفتت إليه فقال:

ـ ميتسي، تعالي معي إلى حجرة المكتب، يجب أن نتكلم.

ـ ألا يمكن أن نؤجل ذلك إلى الغد؟

ـ أريدك الآن.

هكذا قال مستر رايت بنبرة حازمة ثم انتحى جانبا ليفسح لها، مشت ميتسي أمامه وفتحت باب الحجرة، كان النور مضاء، تقدمت وغاصت

بجسدها في المقعد الجلدي، جلس مستر رايت وارتكز بكوعيه على المكتب ثم تطلع إليها وقال:

ـ ماذا فعلتِ مع الملك؟

ـ أظنك عرفت.

ـ أريد أن أسمع منكِ.

اعتدلَت ميتسي في جلستها وقالت:

ـ أراد الملك أن يضاجعني فقلت له إنني أعاني من مرض معدٍ.

ـ هل كنتِ مضطرة إلى الكذب؟

ـ لم تكن هناك طريقة أخرى.

ـ لكنك ذهبت إلى الملك بإرادتك.

ـ ذهبت حتى أُدخل السعادة على قلبك.

ـ كفي عن هذا الهراء، هل أنت حمقاء أم مجنونة؟

ـ إذا كانت هذه حصة إهانات فأنا لا أحتاجها.

تنفس مستر رايت بقوة كأنما يحاول السيطرة على مشاعره ثم قال:

ـ كالعادة أنت لا تفكرين في عواقب أفعالك، لقد وضعتينا جميعا في ورطة، هل تعلمين أن بوتشيللي اتصل ليطمئن على صحتك؟ الملك ليس غبيا، ولو اكتشف أنك كذبت سندفع ثمنا غاليا أنا وأنت، هل تعلمين أنه غازل سيدات من قبل وألح عليهن فاضطررن إلى الفرار خارج مصر مع أزواجهن.

ـ هل كونه ملكا يمنحه الحق في أن يفعل ما يشاء؟

ـ ألم تسمعي عن الاستبداد الشرقي؟ هذا ليس مَلِكًا دستوريا على الطراز الغربي، إنه سلطان تركي يملك الأرض ومَن عليها ويسحق كل مَن يعترض على إرادته.

ـ لكنك إنجليزي، لا يستطيع الملك أن يؤذيك.

ـ يستطيع أن يجعل إقامتي في مصر مستحيلة.

كان القلق البادي عليه يستفزها فقالت:

ـ ماذا تقترح لتهدئة الوضع، هل أنام مع الملك؟

ـ لم أعد أحتمل وقاحتكِ.

ـ إذا كانت الطريقة الوحيدة لإرضاء جلالته هي أن أنام معه.. أليس من الحكمة أن أفعل ذلك؟

ـ اسكتي.

هكذا صاح مستر رايت بغضب ثم سحب نفسا من الغليون ونفثه في سحابة من الدخان وقال:

ـ ميتسي، ما حدث قد حدث، علينا الآن أن نفكر بهدوء ونتصرف بحكمة، أقترح عليكِ أن تطلبي لقاء بوتشيللي.

قاطعَتْه ميتسي بحدة:

ـ لن أذهب إلى هذا القواد مرة أخرى.

ـ أستطيع أن أدبر لكما لقاء في مكتبي، أريدك فقط أن تفسري له حكاية المرض وتؤكدي أن حالتك الصحية تتحسن.

ـ لست مدينة بتفسيرات لأي شخص.

ـ أنت التي أوقعتينا في هذه الورطة، يجب أن تفعلي شيئا لإخراجنا منها.

ـ كفى، لا أريد الحديث في هذا الموضوع.

استدارت ومشت بخطوة سريعة نحو الباب، هرع خلفها وأمسك بيدها لكنها انتزعتها بقوة وقالت:

ـ لو كنت مكانك لخجلت من نفسي.

رفع يده وهوى على وجهها بصفعة فصرخَتْ، ومد يده ليمسك بها لكنها اندفعت بسرعة إلى الخارج وأغلقَت الباب بعنف.

(٢٦)

كان لعبد الملاك السفرجي شكل مميز: قامته ضئيلة وجسده نحيف وصلعته فسيحة جرداء وشاربه صغير للغاية كأنه مجرد نقطة تحت أنفه، كان شخصية محببة فولكلورية لا ينقطع زملاؤه عن مداعبته والدخول معه في مناوشات لفظية مرحة، الدعابات مع عبد الملاك تتطرق إلى موضوعات شتى بما فيها دينه المسيحي، ما إن يهل قادما من بعيد حتى يصيح أحد زملائه ضاحكا:

ـ مجِّد سيدك يا ولد.

يضحك عبد الملاك ويقول:

ـ المجد لله في الأعالي.

ـ ادعي لنا يا مقدس.

ـ أدعي ربنا يأخذكم.

يضحكون جميعا ويعقب عبد الملاك وهو يسترد طابع الجد:

ـ لعلمكم أنا مسلم.

ـ كيف أنت مسلم يا عبد الملاك؟

يرد عبد الملاك بلهجة متعالمة:

ـ أنتم عيال جهلة، أنا القبطي أشرح لك دينكم.. يا بني أنت وهو الإسلام يعني أنك تسلم وجهك لله، تعتمد عليه في كل شيء، بالطريقة دي أكون مسلم حتى وأنا قبطي.

يصيح الحاضرون:

ـ الله أكبر.

ـ إيه الحلاوة دي.

يستمر الحوار المرح:

ـ عبد الملاك.. إيه رأيك تعلن إسلامك وتتجوز بنت حلوة على مراتك؟

ـ ما أقدرش مراتي تموتني.

ـ بقى لك قد إيه متجوز يا عبد الملاك.

ـ عشرين سنة.

ـ عشرين سنة مع امرأة واحدة.. ما زهقتش؟

ـ زهقت طبعا.

ـ بتعمل إيه؟

ـ بأتصرف.

هذه الحوارات الساخرة كانت تحمل طابعا احتفاليا وتخلف حالة من البهجة والتسامح، إذ تتردد بعدها عبارات التوافق من نوع:

«الدين للديان، ربنا رب قلوب.. الدين المعاملة».

كان الخدم يحبون عبد الملاك ويتأثرون كثيرا بحماسته وبراءته وإخلاصه لأصدقائه.. كانوا يرددون في غيابه:

ـ عندك عبد الملاك أهوه.. مش قبطي؟ لكن والله العظيم أجدع من مسلمين كثيرين.

لو أنهم عرفوا بمرضه ذلك الصباح لما تأخروا عن مساعدته، لكنه بدا في حالة طبيعية تماما.. تحدث مع زملائه وداعبهم كالمعتاد.. لم يَشْكُ من شيء، نفّذ المهام التي كلفه بها الشيف ركابي ثم استأذن منه وذهب إلى دورة المياه، بعد قليل عاد وغسل يديه بالماء الساخن والصابون (طبقا لتعليمات الكوو الصارمة) وجلس ليستأنف تقشير البطاطس على أنه بعد ربع ساعة نهض واستأذن مرة أخرى للذهاب إلى دورة المياه، عندئذ شخر الشيف ركابي وقال:

ـ جرى إيه يا روح أمك أنت كنت في دورة المياه من خمس دقائق.. أنت بتعمل إيه هناك بالضبط؟

ضحك الحاضرون لكن عبد الملاك لم يضحك، بدا مرهقا شاحبا وقال بصوت خافت:

ـ يا ريس ركابي اعذرني، عندي عسر هضم جامد.

ـ طيب.. تفضل روح.. لما نشوف آخرتها.

هكذا قال ركابي وهو مشغول بتفحص الإناء الموضوع على النار، هذه المرة هرع عبد الملاك إلى دورة المياه بخطوات متعجلة وعندما عاد بعد دقائق لاحظ زملاؤه العرق الغزير على وجهه الشاحب، وبدا وكأنه يمشي على قدميه بصعوبة حتى إنه ترنح أكثر من مرة، تحلق الخدم حول عبد الملاك ورددوا بقلق:

ـ ما لك يا عبد الملاك؟

ـ ألف سلامة عليك.

تطلع عبد الملاك إلى زملائه ممتنًّا وارتسمت على وجهه ابتسامة مجهدة ورفع يده كأنما يريد أن يطمئنهم، وهمَّ بالكلام لكنه ما إن فتح فمه حتى اندفع من جوفه سائل أبيض، تراجع زملاؤه فزعين وصاح أحدهم:

ـ يا ساتر يارب.

كان عبد الملاك يتقيأ بطريقة غريبة لم يروها من قبل، ركع على الأرض وانحنى وتقلصت عضلات وجهه، راح يفرغ ما في جوفه على دفعات متلاحقة كأن يدا صلبة غير مرئية تعتصر أحشاءه، بعد أن فرغ ظل يلهث ولم يستطع النهوض، أمسكوا به ورفعوه من ذراعيه لكنه سقط فجأة على الأرض وبدأت أطرافه ترتعد، اجتاحته نوبة من التشنج وراح يئن بصوت ضعيف متقطع، انتقل الخبر بسرعة البرق إلى مستر رايت مدير النادي الذي لم يجد في مرض أحد الخدم ما يستدعي خروجه من مكتبه، فكر لحظة ثم قال بلهجة حاسمة لخليل الفرَّاش:

ـ قل لمصطفى السواق يوصله لبيته، أهم شيء تنظفوا مطرحه.. سأحضر وأشوف المطبخ بنفسي.

وفعلا، بعد نصف ساعة خرج مستر رايت وذهب إلى المطبخ بنفسه وتأكد من تنظيف موقع الحادثة ثم أمر بإحضار سائل معطر من المخزن تم رشه بكثافة، ولما فاحت رائحة العطر في المطبخ كان الأمر قد انتهى بالنسبة إلى مستر رايت.. خادم مرض وتقيأ فنُقل إلى بيته، مسألة عادية لا تستحق الاهتمام، وصل الخبر إلى مكتب الكوو في عابدين فأوصى

حميدا بزيارة عبد الملاك في المساء ليطمئن عليه.. عاد عبد الملاك إلى بيته في شبرا وهو يجرجر قدميه ويستند إلى ذراع زميله كيلاني السفرجي الذي اصطحبه في السيارة مع عم مصطفى السائق، أعانه الاثنان على صعود السلم إلى شقته في الدور الثالث وبذلا مجهودا لتهدئة زوجة عبد الملاك التي ارتاعت لما رأته في حالة متدهورة، أجلسوه على أول مقعد في الصالة، هرعت الزوجة إلى المطبخ لتعد كوبا من الليمون الساخن ولما عادت بعد دقائق صرخت ووقع الكوب من يدها فانكسر وسال الليمون على الأرض.. كان جسد عبد الملاك ينتفض بشدة وخرجت رغاوى من فمه وشهق عدة مرات ثم صعد منه السر الإلهي، ارتفع عويل الزوجة وأجهش كيلاني وعم مصطفى بالبكاء كطفلين، ولما وصل الخبر إلى النادي ساد حزن عميق بين الخدم وردد بعضهم بحسرة:

ـ عبد الملاك إنسان مسالم وطيب، لم يزعج أحدا في حياته ولا في مماته.

ذهب زملاؤه إلى القداس الذي أقيم على روحه، كانوا مأخوذين من وجودهم في الكنيسة وهم مسلمون وقد ارتبكوا لجهلهم بالطقوس، لا يعرفون بالضبط متى يقومون ومتى يجلسون أثناء القداس لكنهم مع ذلك كانوا متأثرين بشدة، حتى إن كثيرين منهم أجهشوا بالبكاء.. بالإضافة إلى حزنهم لاختفاء صديقهم عبد الملاك من حياتهم.. كانوا يحسون بالرعب من الموت الذي انقض عليهم للمرة الثانية كصاعقة، ها هو زميل آخر يموت فجأة بعد المرحوم عبد العزيز همام، صدمهم موت عبد الملاك المفاجئ الخاطف كما أن ما حدث بعد موته لم يعطهم فرصة لممارسة أحزانهم، كانوا يحتاجون إلى وقت ليستوعبوا موت عبد

الملاك، كانوا سيحسون بالراحة عندما يهزون رءوسهم ويمصمصون شفاههم ويتنهدون ويتحدثون باستفاضة عن مآثر الفقيد ويحكي كل واحد منهم ذكرياته الجميلة معه بإعزاز وأسى، وفي النهاية يتبادلون عبارات الحكمة والتعزية:

«إنا لله وإنا إليه راجعون..كل ابن آدم ميت.. الإنسان مجرد ظل على الأرض.. كلنا ميتون لكن قل مَن يعتبر».

لم يمهلهم القدر، بعد يومين اثنين فقط، قبل أن يفيقوا من الصدمة فوجئوا بمرعي عامل المصعد يروح ويجيء على دورة المياه وبعد قليل (تماما كما حدث لعبد الملاك)، رأوه يترنح ويتقيأ ثم يسقط فاقدًا الوعي على الأرض، هرعوا إليه، حملوه وأرقدوه على أريكة وطلبوا سيارة الإسعاف التي جاءت بعد دقائق ونقلته إلى مستشفى القصر العيني لكنه مات فور وصوله، عندما وصل خبر موته إلى النادي أصيب الخدم بهلع هستيري، ألقوا بأدوات التنظيف وراحوا يصرخون ويهرولون، يروحون ويجيئون في كل اتجاه كأنهم فئران مذعورة حُبست في مصيدة، كانوا مذهولين، قبل أن يستوعبوا موت عبد الملاك ها هو عم مرعي يموت أمام أعينهم بنفس الطريقة.. ماذا حدث؟ هل هي لعنة أصابت نادي السيارات؟ هل عشش ملك الموت في النادي وقرر أن يخطف أرواحهم واحدا بعد الآخر؟

عندما بلغ النبأ مستر رايت أخذ الأمر هذه المرة بجدية تامة، أجرى اتصالاته وبعد نحو ساعة توقفت أمام باب النادي سيارة عسكرية نزل منها ثلاثة ضباط بريطانيين وضابطة يرتدون جميعا الملابس العسكرية، وتبين بعد ذلك أنهم ثلاثة أطباء وممرضة، كان معهم حقيبتان كبيرتان سارع الخدم بحملهما. أمام مستر رايت والكوو الذي جاء على عجل،

أقام الأطباء في صالة القمار ما يشبه عيادة ميدانية ونظموا الخدم في طابور طويل أمام الباب، وقف الخدم صامتين مطرقين وقد جعلهم ذهولهم من تتابع الأحداث غير قادرين على التعليق أو التفاعل، كان الأطباء يُدخلونهم واحدا واحدا، يكشفون على كل خادم بعناية ثم يُسلمونه كيسا بلاستيكيا ويطلبون منه إحضار عيّنة براز في اليوم التالي، بدا الجو كئيبا مشئوما وكأن اللعنة قد حلت على المكان بكل من فيه، بعض الخدم أرادوا أن يقدموا العيّنة في نفس اليوم، كأنهم بذلك يبرءون ساحتهم أو يتعجلون نهاية الكابوس، تدافعوا إلى دورة المياه الوحيدة المسموح لهم باستعمالها فوق السطح، كان منظرهم غريبا وهم يدخلون واحدا واحدا إلى دورة المياه ثم يخرج كل واحد فيهم وقد حمل كيسا بلاستيكيا مليئا ببرازه، بعضهم كان يتأخر بالداخل فترتفع صيحات المنتظرين تستعجله، لم يستثن الأطباء أحدا من الفحص، بعد أن كشفوا على الخدم والموظفين جميعا طلبوا بلباقة وحزم الكشف على الكوو ومستر رايت، في النهاية تركوا الممرضة تتلقى العينات الجاهزة وتكتب بياناتها بينما أكدوا على مَن لم يقدم العينة ضرورة إحضارها في الصباح، في تلك الأثناء ذهب أقدم الأطباء مع مستر رايت إلى مكتبه.. لم تكن الظروف تسمح بالثرثرة، قطب مستر رايت حاجبيه وقال:

ـ دكتور افرنجهام أشكرك على المجهود الذي تقوم به.

ـ لا داعي للشكر فأنا أقوم بعملي.

ـ هلا شرحت لي ما يحدث في هذا المكان؟

أطرق دكتور افرنجهام لحظة ثم رفع رأسه وقال بهدوء:

ـ للأسف، لست متفائلا.

ـ لماذا؟

ـ هناك احتمال كبير أن يكون العامل المتوفى اليوم وربما العامل الذي مات من يومين أيضا.. كانا يعانيان من الكوليرا، لدينا معلومات مؤكدة بأن حالات شبيهة قد حدثت في القاهرة والإسكندرية.

ـ لم أسمع بذلك من قبل.

ـ وزارة الصحة لا تريد أن تعلن عن حالات الكوليرا حتى لا ينتشر الهلع، كان أملنا أن تكون حالات فردية لكن للأسف كل يوم نكتشف حالات جديدة، أظن الحكومة ستذيع بيانا غدا بشأن الوباء.

قطب مستر رايت حاجبيه وقال:

ـ وباء؟ مستحيل، لدينا إجراءات كاملة للنظافة في النادي، إنني أُشرف على كل شيء بنفسي.

ـ إجراءات النظافة لا تمنع المرض، إنها فقط تقلل من انتشار العدوى.

أشعل مستر رايت غليونه ونفث سحابة كثيفة من الدخان ثم قال بصوت أجش:

ـ دكتور افرنجهام، هل أنت متأكد؟

ـ بالطبع لا بد أن نُجري التحاليل أولا، ولكن بعد ثلاثين عاما من ممارسة الطب أستطيع أن أتوقع النتائج.

ـ لن أصدق ما تقوله إلا عندما أقرأ النتائج بنفسي.

ـ أنت حر تصدق ما تشاء.

ساد الصمت ثم زفر مستر رايت وقال بصوت خافت:

ـ آسف، أرجو أن تقدر موقفي، ستكون هناك آثار سيئة على نادي السيارات.

ـ أتفهم قلقك لكن واجبنا أن نواجه الحقيقة، إذا ثبت أن العامل مات من الكوليرا (وهذا شبه مؤكد للأسف) معنى ذلك أن كل لحظة تمر تحمل خطر الموت لأي شخص في النادي لأن العدوى في هذه الأحوال تكون سريعة.

ـ وعندئذ ماذا سنفعل؟

هز الطبيب رأسه ونظر إلى مستر رايت وقال:

ـ لن يكون لدينا اختيار. سيتحتم علينا إغلاق النادي.

كامل

ابتسمت ميتسي وقالت بالإنجليزية:

ـ أحب أن أعرفك بنفسي.

قلت بسرعة:

ـ لقد حدثني مستر رايت عنك.

ـ أبي لا يعرفني.

هكذا قالت وقد بدا على وجهها الضيق، أحسست بحرج فقلت:

ـ إذن عرفيني بنفسك.

ـ اسمي ميتسي، أدرس الدراما في الجامعة الأمريكية، درست قواعد

العربية مع مدرس خاص هنا في القاهرة لكني لم أحب طريقته، كان يُدرس بطريقة نظرية، أنا أحب أن أتعلم العربية سواء الفصحى أم العامية بشكل يمكنني من التعامل مع الناس.

ـ لماذا تهتمين بدراسة العربية؟

ـ أريد أن أفهم المصريين، لا يمكن أن أفهمهم إلا إذا تكلمت لغتهم.. الآن حان دورك، حدثني عن نفسك.

ـ اسمي كامل، أعمل هنا في النادي وأدرس الحقوق في جامعة فؤاد الأول، كما أنني أكتب الشعر.

اتسعت عيناها الزرقاوان وصاحت:

ـ أوه، أنت شاعر، رائع، أحب أن أقرأ أشعارك.

ـ يسعدني ذلك يا ميس ميتسي.

ـ لماذا تناديني ميس ميتسي؟ أفضل أن نتعامل بلا ألقاب.

بدأت أناديها باسمها مجردا، كنت أحب طريقتها في نطق اسمي، تمد الألف بطريقة مضحكة تقول كاآمل. أثناء الدرس، انطبعت صورتها المدهشة في ذهني: قوامها الرشيق وقامتها الطويلة، شعرها الكستنائي الناعم المصفف على ذيل حصان، بشرتها الناصعة وعيناها الزرقاوان، شفتاها الرقيقتان ونغازتاها الرائعتان، جبينها الناصع العريض وأصابع يديها النحيلة الدقيقة بشكل مؤثر، تلك الزاوية التي تصعد بها الشفة العليا حتى تلتقي بأنفها الدقيق، كانت جميلة لكن فتنتها الأقوى تنبعث من الروح، كان لديها شيء ما تلقائي، فطري، مفعم بحيوية رائعة، شيء ما يجعل كل ما تفعله فريدا، غير متوقع، صادم لكنه طريف ومحبب.. كأنها أميرة متمردة، هربت من القصر لتعيش مع الصعاليك.

كنا نلتقي مرتين كل أسبوع، في كل حصة نقرأ موضوعا من الصحف ثم أشرح لها نصا أدبيا جديدا، نتناقش حول معانيه ثم أكلفها بواجب للحصة التالية.. اخترت نصوصا قوية تفتح الباب للتفكير والنقاش، قرأنا معا مقالات للحكيم والمازني ومشاهد مسرحية لتوفيق الحكيم، عندما درست لها قصيدة حافظ إبراهيم «مصر تتحدث عن نفسها» تطرقنا إلى الفخر في الشعر العربي ولماذا لا يوجد عند الشعراء الغربيين.. كنت أطلب منها أن تكتب الواجب بالفصحى وتناقشني بالعامية، عندما تعجز عن التعبير بالعربية كنت أطلب منها أن تكتب ما تقوله بالإنجليزية ثم أترجمه بالعربية لتتعلم كلمات جديدة.. قد أكون مُدرسا ناجحا لكن المؤكد أن ميتسي تتمتع بذكاء حاد يجعلها تستوعب بسرعة وسهولة.. بعد شهرين فقط، أحرزت تقدما مدهشا، صارت تكتب العربية الفصحى ببعض الأخطاء وتتكلم العامية بنطق ثقيل لكنه مفهوم.. كنت أنتظر موعد الدرس بلهفة، كان لقاؤها يثير فيَّ مشاعر متضاربة: بهجة وإعجابًا وقلقًا غامضًا، خضنا نقاشات ممتعة حول موضوعات متعددة، قالت مرة:

- عندما أرى ما يفعله بكم الاحتلال أحس بالخجل من كوني إنجليزية.

- لستِ مسئولة عن سياسة الحكومة البريطانية.

- بل مسئولة، أنتَ لستَ مسئولا عن ملك مصر المستبد لأنك لم تختره، أما نحن البريطانيين فننتخب حكومات ترى أن المجد يتحقق باحتلال البلاد الأخرى ونَهْبِها.. شيء مخجل حقا.

كان الفرق شاسعا بينها وبين أبيها المتغطرس، كنت ألمح الضيق على وجهها الجميل كلما جاء ذكر أبيها، كلما تحدثنا كنت أحس أنها تتجنب منطقة ما لا تريدنا أن نتطرق إليها.. ذات مرة ذهبت لإعطائها الدرس كالمعتاد، كان النادي يفتح أبوابه لأول مرة بعد ثلاثة أيام من

الإغلاق بسبب الكوليرا، أحضرتْ ميتسي فصوصا من الليمون وعصرت منها على كوب الماء.. قالت بنبرة جادة:

ـ أنصحك بتطهير الماء، الكوليرا منتشرة، أظن أنهم عقّموا نادي السيارات لكن إجراءات التعقيم لا تمنع العدوى تماما.

تناولت الليمونة من يدها وقلت وأنا أعصرها على الماء:

ـ لقد فقدنا اثنين من العاملين في النادي في أقل من أسبوع.

ـ أوه.. هذا مؤسف.

ـ المأساة لم تقتصر على الموت، الأسوأ هو تشريد أسرة المتوفى، نادي السيارات لا يدفع معاشا للعاملين المصريين، المعاش يُصرف للأجانب فقط.

ـ أوه.. أنا لا أصدق.

ـ إدارة النادي تعتبر المصريين كائنات أقل من الأجانب.

نطقت الجملة الأخيرة بمرارة، فكرت أن أباها مدير النادي وأنني يجب أن أحترس في كلامي.

قالت بصوت منخفض:

ـ أبلغ أُسر المتوفين تعازيَّ.

ـ سأبلغهم.. أشكرك.

بدأت الحصة، درسنا «يا جارة الوادي» لأحمد شوقي، كنت أدرس لها القصائد المغناة وكانت تنفعل بالمعاني.. في كل مرة كانت تكتب اسم القصيدة في ورقة صغيرة ثم تشتري الأسطوانة قبل أن تعود إلى

البيت.. عندما انتهت الحصة لم تنهض ميتسي لتودّعني كعادتها، بدا على وجهها التردد وقالت:

ـ كامل، أشكرك على المجهود الذي بذلته معي.

توجست من كلامها؛ «لماذا تشكرني الآن؟ هل قررتْ أن توقف الدروس؟ هل ارتكبتُ خطأً ما أو قلت شيئا أغضبها؟».

لم أكن قلقا على الأجر الذي أتقاضاه، كنت أخشى أن أفقد صحبتها.. تماسكت وأعددت نفسي للصدمة، قررت أن أرفع عنها الحرج، ابتسمتُ بصعوبة وقلت:

ـ هل تعتقدين أن ما حققتيه في اللغة العربية يكفيكِ؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ ربما تريدين أن تكملي الدراسة بدون مساعدتي.

ـ بالطبع لا زلت أحتاج إلى دروسك.

أحسست براحة حاولت أن أخفيها وقلت:

ـ ماذا تريدين إذن؟

ـ أريد أن أقترب أكثر من المصريين.

ـ سيحتاج ذلك إلى بعض الوقت حتى تتقني العربية.

ـ اللغة وسيلة مهمة للمعرفة لكنها ليست كل شيء.

ابتسمتْ ميتسي وبدا على وجهها تعبير عابث كأنها طفل على وشك أن يُقْدِم على لعبة خطرة وشيقة، قالت ببطء:

ـ أريد أن أزور المناطق الشعبية في القاهرة حتى أعرف المصريين الحقيقيين.

ـ كيف ستتحدثين مع الناس وأنتِ لا تعرفينهم؟

تطلعت إليَّ فيما يشبه اللوم وكأنها لم تتوقع هذا الرد، قلت بسرعة:

ـ لا بد أن أفهم ماذا تريدين بالضبط حتى أستطيع أن أساعدكِ.

زمت شفتيها وبان عليها التفكير ثم قالت ببطء كأنما تنتقي الكلمات المناسبة:

ـ أنا أسعى إلى الحقيقة يا كامل، لا أريد أن أتفرج من الخارج.. لا أريد أن أكون مجرد فتاة إنجليزية تسكن في الزمالك وتستمتع بشمس مصر، لا أريد أن أقضي وقتي في نادي الجزيرة وأكتب خطابات إلى أصدقائي في لندن أؤكد فيها أن الجو رائع، كل هذا مستعار، منتحل، لم آتِ إلى مصر من أجل ذلك، أريد أن أعيش حياة حقيقية مع ناس حقيقيين.. لهذا فكرت أن أذهب إلى المناطق الشعبية، هل تفهمني؟

ـ أفهمكِ.

ـ هل تصحبني؟

ـ طبعا.

ـ كامل، أنت طالب في كلية الحقوق وفي نفس الوقت تعمل في نادي السيارات بالإضافة إلى الوقت الذي تستقطعه من أجل إعطائي الدرس، ليس لديك وقت كاف.

ـ سأجد دائما وقتا لصحبتكِ.

كنت أكذب، الخروج معها ممتع لكنه يلقي عليَّ عبئا جديدا، لم يكن لديَّ وقت، كنت أقاتل بمعنى الكلمة.. أستذكر دروسي حتى ساعة متأخرة، وأحيانا أقضي الليل كله في المذاكرة، وفي الصباح آخذ حَمَّاما

وأذهب إلى العمل بدون نوم، لا أعرف حتى الآن كيف تحمل جسدي كل هذا الإرهاق.. كنت أجتهد في عملي، وكان مسيو كومانوس الطيب يسمح لي بالاستذكار في المخزن ويعفيني من الحضور قبل الامتحانات.

اتفقت مع ميتسي على أن نقوم بجولاتنا يوم الأربعاء؛ عطلتي الأسبوعية، كانت الجولة الأولى في حي الحسين، التقينا في الميدان عقب صلاة العصر، طُفت معها في الميدان والشوارع المجاورة، قلت لها:

- الآن سأريكِ أبواب قاهرة المعز.

تأملتْ ميتسي البوابات بشغف طفولي، سألتني:

- هل كانت هذه الأبواب تغلق كل ليلة بعد أن ينام سكان القاهرة؟

- طبعا.

- ماذا كان يحدث إذا تأخر أحد السكان ووصل إلى القاهرة بعد أن أغلقت أبوابها؟

- لا أعرف، أظن الحراس هم الذين يقررون، قد يسمحون له وقد يمنعونه من الدخول.

ضحكت ميتسي وصفقت بيديها كطفلة، وقالت:

- رائع، كنت أحلم دائما بأن أحيا في مدينة تغلق أبوابها بالليل، تخيل أن أحضر بعد أن تكون المدينة مغلقة فأظل منتظرة على باب المدينة حتى الصباح، وما إن يفتح الحراس الباب حتى أنفذ من طرف الباب وكأنني قطة.

توقفت ميتسي فجأة عن السير ثم أصدرت مواء، ضحكنا بشدة، كانت تفاجئني دائما بتصرفات طريفة وفاتنة، بعد انتهاء الجولة جلسنا

في مقهى الفيشاوي، طلبت لها كوبا من الشاي الأخضر، ما إن رشفت منه حتى قربته من أنفها وأغمضت عينيها وبدأت تستنشق بخار الشاي، كانت ترتدي تاييرًا أزرق بياقة بيضاء في غاية الأناقة.. عادت بظهرها في الأريكة الخشبية العتيقة وتطلعت إليَّ وقالت:

ـ هل تصحبني كل أسبوع في نزهة مثل هذه؟

ـ طبعا.

رمقتني بنظرة مترددة عابثة ثم قالت:

ـ ما رأيك.. المرة القادمة سآتي معك وقد ارتديت منديلا على شعري وجلبابًا وملاءة لف وشبشبًا؟

قلت بدون تفكير:

ـ ستكونين أجمل امرأة شعبية في مصر.

ابتسمت ولم تعلق، أحسست بخجل من اندفاعي فقلت:

ـ أنا آسف.

ـ آسف على ماذا؟

ـ على الجملة التي قلتها الآن.

أطلقتْ ضحكة عالية وقالت بالإنجليزية:

ـ يالسذاجتك أيها الشاعر، يبدو أن معرفتك بالأدب أكبر بكثير من معرفتك بالمرأة، لا توجد امرأة على وجه الأرض تغضب من إطراء الرجال.

كنا ندخل إلى مدار جديد مختلف، التي تجلس أمامي الآن، التي تغمض عينيها وتستنشق بخار الشاي، امرأة أخرى لم أرها من قبل،

ثمة إحساس خاص ينتقل منها إليَّ، كأنني عرفتها في زمن قديم، كأنها تنتمي إليَّ، تخصني على نحو ما، نظرت ميتسي إليَّ وكأنها حدست ما أفكر فيه، قالت بالإنجليزية:

ـ أنا أرتاح للحديث معك.

ـ لماذا تواصلين الحديث بالإنجليزية؟

ـ ممكن تنسى إنك مدرس؟

ـ أنا مدرس فعلا.

نظرت إليَّ وكأنها تقول «لا تتغابى».. قضينا أكثر من ساعتين في الحسين ثم عُدنا في تاكسي، صممت على أن أوصلها إلى الزمالك أولا ثم أعود بالتاكسي إلى بيتي في السيدة زينب.. سألتني بصوت خافت:

ـ لماذا تمارس عليَّ حماية شرقية؟

ـ هل ضايقتك؟

ابتسمتْ وقالت بحماس:

ـ بالعكس، أنا أحلم بأن أكون جارية لسلطان شرقي، أعيش مع ثلاثمائة جارية أخرى، كل واحدة منا ترقص أمام السلطان وتتمنى أن يقضي معها الليل.

حركت ذراعيها كأنها ترقص، ضحكت وقلت وأنا أتطلع في المرآة إلى وجه السائق المندهش:

ـ أنتِ فعلا ممثلة عظيمة.

ـ لماذا؟

ـ لأنك قادرة في أي لحظة على تقمص أية شخصية تتخيلينها.

قبل أن تنزل من السيارة اقتربتْ مني حتى أحسست بأنفاسها على وجهي، همستْ:

ـ سأعترف لك بسر، لقد فكرت في التجول معك في أحياء القاهرة ليس فقط من أجل الاختلاط بالمصريين؛ وإنما أيضا لأني أريد أن أتكلم معك أكثر.

ارتبكتُ، أحسست للحظة أنني لو مددت ذراعيَّ واحتضنتها لكان ذلك تصرفا طبيعيا، صافحتها مودعا ثم طلبت من السائق أن يتوجه إلى شارع السد، جلست للمذاكرة لكني رحت أفكر في ميتسي، استرجعت ما حدث بيننا.. أحسست أنني أدخل حقلا ملغوما.. لقد نجحتْ تجربتي مع ميتسي لأنني سيطرت على نفسي، حرصت دائما على مسافة بيننا لا أتخطاها.. كنت أتحدث وأضحك معها لكنني سرعان ما أعود إلى الجد، كلما اندمجت معها كنت أتراجع وأعود إلى علاقتنا الرسمية.

إذا كنت في مكان مظلم وخرجت مرة واحدة في ضوء الشمس، فستظل لحظات عاجزا عن الرؤية، هذا ما حدث لي مع ميتسي، كان وجودها المبهر فوق احتمالي، كانت فتنتها الطاغية تدفعني إلى الهروب، لو أنها أقل جمالا لربما خطر لي أن أغازلها، ولكن كيف يجرؤ الصعلوك على الاقتراب من موكب الأميرة، حتى لو أفسح له الحراس الطريق سيظل دائما مترددا.. ستكون هناك مسافة تفصله عن الأميرة لن يستطيع أن يجتازها أبدا، بعد نزهة الحسين بدأت أنزلق إلى منطقة جديدة خطرة ليس فيها وسط، إما أن تنجح العلاقة وإما أن تنقطع، إما أن أدخل مع ميتسي في علاقة عاطفية وإما أن أفقدها إلى الأبد، هل أنا مستعد لهذه المغامرة؟ هكذا تساءلت ولم أتوصل لإجابة لكن، في أعماقي، كنت

أدرك أن كل حساباتي بلا طائل، مجرد تمارين ذهنية بلا تأثير عملي.. ستجذبني ميتسي إلى مياهها العميقة شئت أم أبيت، وهي وحدها التي ستحدد إيقاع علاقتنا وعمقها ومصيرها.. في الدرس التالي تعمدت أن أعاملها بطريقة رسمية، قد يكون تبسُّطها معي حالة طارئة، وها أنا أمنحها فرصة للتراجع، بدا على وجهها تعبير طفولي ماكر وصاحت فجأة:

ـ كف عن ذلك يا كامل.

ـ لا أفهم.

ـ هل نحن صديقان؟

ـ طبعا.

ـ إذن لماذا تلك الابتسامة المصطنعة ونبرة الصوت المملة التي تستعملها معي.

اقتربت فجأة حتى لمستْ ذراعها ذراعي، ابتعدت عنها فضحكت وقالت:

ـ هل تخاف مني؟

كنت مرتبكا للغاية ويبدو أنها أشفقت عليَّ فاستأنفت الحديث بطريقة عادية، اتفقنا على أن تكون زيارة الأربعاء التالي إلى السيدة زينب، ابتسمَتْ وقالت:

ـ أعرف أنك تسكن هناك، هل تدعوني إلى فنجان شاي عندكم؟

ـ أهلا وسهلا.

ـ سأرى والدتك وسأشكوك إليها.

عندما تضحك تبدو نغازتان على جانبي وجهها فيصير جمالها فوق الاحتمال، كنت أدرك أن معركة حامية تنتظرني في البيت، ما إن أخبرت أمي بزيارة ميتسي حتى اكفهر وجهها وقالت:

ـ أليست هذه ابنة الخواجة رايت؟

ـ نعم.. لكنها مختلفة عن أبيها.

ـ ماذا تريد منا؟

ـ دعوتها للتعرف إليكِ.

ـ لا أريد أن أعرفها.

ـ يا أمي ميتسي إنسانة رقيقة وتحب مصر جدا.

يبدو أن حماسي زاد من قلق أمي فقالت بحدة:

ـ اسمع يا كامل، إحنا اللي فينا مكفينا، مش ناقصين بنت الخواجة رايت وبلاويها.

جربت طريقة أخرى.. انحنيت على أمي وقَبَّلت رأسها ثم قلت بنبرة حماسية:

ـ يا أمي أنت ربّتينا على الكرم، دائما بتشرفيني أمام ضيوفي، عمرك ما خذلتيني، ميتسي ضيفتى وأنا دعوتها إلى بيتي.

ظلت أمي صامتة فتنهدت بأسى وقلت بطريقة تمثيلية:

ـ عموما خلاص، لا يمكن أضغط عليك، انسي الموضوع.

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى يا دار ما دخلك شر.. ميتسي كانت عاوزة تتعرف عليكِ وأنت رافضة.. أنا أقول لها أمي سافرت فجأة.. أعتذر بأي حجة.

أطرقت وكأنني حزين، بعد لحظات، كما توقعت، سألتني أمي بلهجة شبه معتذرة:

- هي عاوزة تزورنا متى؟

- الأربعاء الصبح.

- خلاص، أنتظرها إن شاء الله، ما دمت وعدتها عيب ترجع في كلامك.

بعد ذلك بدأتْ أمي تطرح أسئلة عملية، هل تتحدث ميتسي بالعربية؟ هل الأفضل أن ندعوها إلى الغداء أم نكتفي بشاي مع أطعمة خفيفة؟

احتضنت أمي وقبَّلت يديها، كنت أعرف دائما كيف أستغل طيبتها، وكان ضميري أحيانا يؤنبني لكنني كنت دائما أضحك عندما أتذكر ألاعيبي معها.

في الساعة العاشرة صباح الأربعاء، وفقا للموعد.. انتظرت ميتسي أمام مسجد السيدة ثم صحبتها في جولة في الحي، أخذتها إلى مطحن الرمالي وشارع الترام، راحت تتفرج على الباعة المتجولين وتطلب مني شرحا لنداءاتهم على بضائعهم.. بعد ذلك اصطحبتها إلى بيتنا، كان مشهد ميتسي وهي تصعد درجات السلم إلى شقتنا موحيا، سمو الأميرة القادمة من الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، جاءت إلى شارع السد لتتفقد رعاياها وهي تضع قدميها على سُلمنا الخشبي العتيق الذي يُصدر صريرا مع كل خطوة، خطر لي أن أصارحها بهذا الخيال لكنني فكرت أنها قد لا تحبه، وصلنا إلى الباب ونقرت بأصابعي.. كما توقعت كانت أمي وحدها، صالحة في المدرسة ومحمود ما زال نائما، بدت أمي في أفضل أحوالها، ارتدت فستانا أسود أنيقا وطرحة جديدة.

ـ أهلا وسهلا، شرفتينا.

هكذا قالت أمي وهي تصافح ميتسي ثم احتضنَتها بحرارة وصَحِبَتها إلى حجرة الجلوس، لم أبذل مجهودا في مد أواصر الود بين أمي وميتسي، انطلقتا في الحديث بشكل تلقائي وسرعان ما بدأتا تضحكان معا.. قدمت لها أمي سلسلة من المشروبات والمأكولات، بعد ذلك دعتها لتناول الغداء لكن ميتسي اعتذرت واستأذنت لتنصرف.. ما إن خرجنا إلى الشارع حتى قالت:

ـ أمك رائعة.

ـ شكرا.

ـ وجهها جميل فعلا، ملامحها تحمل نوعا من الكبرياء، كما أنها لطيفة وكريمة.

ـ ستكون شهادتي مجروحة لأنني ابنها، أعتقد أنها فعلا شخصية عظيمة.

كنا قد وصلنا إلى الميدان، نظرت حولي بحثا عن سيارة أجرة لكنها ابتسمت وقالت فجأة:

ـ لا أريد أن أنصرف الآن، هل يمكن أن نجلس قليلا في أي مكان؟

ـ طبعا.

دعوتها إلى مقهى الأوبرج، كان خاليا في تلك الساعة من النهار، جلسنا إلى مائدة منزوية في آخر المقهى.. أسرع إلينا جرسون، بدا سعيدا بوجود ميتسي، وردد مزهوا الكلمات الإنجليزية القليلة التي يعرفها.. قالت له ميتسي:

ـ أنا أتكلم عربي كويس.

ـ ما شاء الله.

هكذا ردد الجرسون وهو مندهش، طلبنا شايًا بالنعناع.

نظرت إليها وهي تحرك شفتيها لترشف الشاي الساخن، لم يكن لديَّ ما أقوله.

أطرقتْ ميتسي وقالت بصوت خافت كأنها تُحدث نفسها:

ـ تعبت من نفسي، أنا شخصية غريبة.

ـ أنتِ مختلفة والاختلاف معنى إيجابي.. المهم كيف تديرين اختلافكِ مع الآخرين بطريقة لا تقطع اتصالكِ بهم.

ـ أنا عاجزة عن التواؤم مع المحيطين بي.

ـ أليس لكِ أصدقاء؟

ـ لديَّ أصدقاء لكنهم لا يفهمونني.

ـ ربما تحتاجين إلى تكوين صداقات جديدة.

تنهدت ميتسي وغامت عيناها الزرقاوان وبدت كأنها لم تعد تراني، قالت بصوت خافت:

ـ علاقتي بأبي متوترة جدا.

ـ هذا أمر لا يدهشني؛ أنتِ وأبوكِ على طرفَي نقيض لدرجة تجعلني أتساءل: كيف أنجب شخص مثل مستر رايت فتاة لطيفة مثلكِ!

نطقتُ الجملة الأخيرة بدون تفكير، أحسست بحرج فقلت:

ـ أنا آسف.

ـ عندك حق.

هكذا قالت بصوت خافت ثم صمتت كأنما ترتب أفكارها وقالت:

ـ أنا أعيش في كابوس.

ـ ماذا حدث؟

ـ الحكاية طويلة.. لا أريد أن أزعجك.

ـ أرجوكِ، أريد أن أسمعكِ.

حكت ما حدث بالتفصيل، استمعت إليها بغير أن أنطق بكلمة، في النهاية سألتني بقلق:

ـ ما رأيك!

انتابني انفعال مفاجئ، قلت:

ـ أحتاج إلى بعض الوقت لأستوعب هذه الحكاية الغريبة، يؤسفني سلوك ملك مصر.

ابتسمَت بحزن وقالت:

ـ أما أنا فيؤسفني سلوك أبي.

ـ يجب أن نتقبل أهلنا كما هم.

ـ لم أسعَ إلى تغيير أبي لكنه ببساطة يسمم حياتي.

ـ أنا أيضا أخي سعيد لا يُحتمل لكنني أحاول أن أتعايش معه.

ـ ربما أستطيع أن أتعايش مع أبي لو ابتعدت عنه، المشكلة أنني لا أعمل وهو الذي يدفع مصروفاتي كلها.. أنا مضطرة إلى البقاء في بيته.

ـ هل بحثتِ عن عمل؟

ـ بحثت ولم أجد لكنني الآن سأعاود البحث.

ـ كيف أستطيع أن أساعدكِ؟

ابتسمتْ ميتسي وتطلعت إليَّ بامتنان وقالت برقة:

ـ إذا أردت أن تساعدني ابق بجواري.

مدت يدها ووضعتها على يدي، أحسست برغبة قاهرة في أن أحتضنها لكنني تمالكت نفسي، سحبت يدي برفق ثم قلت:

ـ هل تحبين أن نذهب إلى مكان آخر.

عادت فجأة إلى المرح وقالت:

ـ يا لك من رجل مهذب.

ـ لماذا؟

ـ أنت تريد أن تنصرف، انظر كيف عبّرت عن ذلك بأناقة، لقد سألتني إن كنت أريد أن أذهب إلى مكان آخر.

ضحكت لأن ما قالته حقيقي، كانت لديَّ دروس متأخرة يجب أن أنتهي منها، أوصلتها بسيارة أجرة وعدت إلى البيت، أخذت حَمَّاما ساخنا وارتديت البيجاما وجلست إلى المكتب وفتحت الكتاب أمامي لكنني وجدتني أفكر في ميتسي، بدأت أستعيد ما قالته.. انتابتني أحاسيس عنيفة ورحت أحلق في الخيال، رأيت نفسي أخوض صراعا شرسا حتى أنقذ ميتسي من قبضة أبيها الوغد. جيمس رايت وغد وقواد، هذه الحقيقة التي لم أقلها لميتسي، لا يمكن تبرير ما فعله، القيم الإنجليزية مختلفة عن عاداتنا الشرقية، عادة ما تسمح الأسرة الإنجليزية لابنتها

بإقامة علاقة مع صديق قبل الزواج.. كل هذا صحيح، لكن ما يفعله رايت مختلف، إنه يدفع بابنته إلى فِـرَاش الملك من أجل مصلحته، لا يمكن أن يكون لديه باعث آخر، إذا صارت ابنته عشيقة الملك فسوف يحصل على امتيازات كثيرة ويصنع ثروة، بقدر حقارته فإن ابنته ميتسي تصرفت بشجاعة ونبل، إنها رائعة حقا، كلما تذكرت ما فعلته مع الملك أضحك، يا لها من ممثلة موهوبة، استطاعت أن تحيل الدراما إلى مهزلة، حاولت أن أركز في المذاكرة وفي نحو الثالثة صباحا، غلبني التعب فنمت بعمق، ذهبت في الصباح إلى النادي وقضيت يوم العمل المعتاد، حوالي السادسة مساء، كان مسيو كومانوس قد انصرف من المخزن وأنا أستعد للإغلاق عندما رن جرس التليفون، جاءني صوت لبيب التليفونيست منفعلا:

ـ كامل.. سمو الأمير شامل يطلبك، سأحوَّلك حالا.

حيَّاني الأمير باقتضاب وقبل أن أرحب به اندفع يقول:

ـ اسمع يا كامل، عاوزك في موضوع ضروري، أرجو أن تنفذ ما أطلبه بدون مناقشة.

ـ تحت أمرك.

ـ غدا، سأنتظرك الساعة السابعة صباحا في القصر.

ـ السابعة صباحا؟

ـ نعم، السابعة صباحا بالضبط، إياك تتأخر.. سأنتظرك أمام الباب الجانبي للقصر، من ناحية شارع عائشة التيمورية.

ـ هل يمكن أن أعرف الغرض من هذا الموعد؟

ـ سأشرح لك كل شيء عندما أراك.. سلام.

أنهى الأمير المكالمة، عدت إلى المخزن فأغلقته وخرجت إلى الشارع، قررت أن أمشي المسافة من نادي السيارات إلى بيتنا، كنت أحتاج إلى استيعاب الأحداث المتلاحقة.. بعد الحكاية الغريبة بين ميتسي والملك، ها هو الأمير شامل يفاجئني بواحدة من عجائبه.. بالرغم من شخصية الأمير الساحرة إلا أنني أصبحت أقرب من أي وقت مضى لفكرة أنه مخبول، ماذا يريد أن يفعل بي في السابعة صباحا؟ لماذا ينتظرني أمام الباب الخلفي؟ لماذا لم يدعُني إلى الدخول من الباب الرئيسي؟ التفسير الوحيد أنه لا يريد أن يراني أحد وأنا أدخل إلى القصر، لا يمكن أن يكون غرض هذه الزيارة طبيعيا، عاودتني فكرة أن يكون الأمير مضطربا نفسيا ثم خطر لي احتمال أسوأ: أن يكون الأمير شاذا جنسيا، ليس في شكله وحركاته ما ينم على ذلك لكني سمعت أن بعض الشواذ يتمتعون بمظهر طبيعي تماما.. الغريب أن له سُمعته كزير نساء، ربما يكون مهووسا بالجنس أو ربما تكون ميوله الجنسية مزدوجة، ربما يعشق النساء والرجال معا، تزايد قلقي وبدأ يتحول إلى فزع، أحسست أنني محاصر، بدا لي شذوذ الأمير احتمالا قائما وقريبا.. ألهذا يحرص على لقائي مبكرا ويريدني أن أدخل من الباب الخلفي؟ هل يصطحبني إلى حجرة منعزلة ليراودني عن نفسي؟ إذا حدث ذلك ستكون مصيبة.. انهمرت على ذهني مشاهد مزعجة، رأيت الأمير يهاجمني وأنا أحاول أن أفلت منه، ظلت هذه الهواجس تطاردني.. أحيانا أستبعدها وأحيانا أجدها ممكنة، كان لا بد أن أذهب في الموعد، أولا لأنني وعدت الأمير، وثانيا لأنه صاحب فضل عليَّ، يكفي أنه توسط ليجد لي عملا.. صحوت في السادسة صباحا، أخذت حماما وارتديت ملابسي، قلت لأمي إنني سأحضر درسا مبكرا في الجامعة قبل أن أتوجه إلى عملي..

أخذت سيارة أجرة من الميدان.. عندما وصلنا إلى جاردن سيتي نزلت على الكورنيش حتى لا يعلم السائق وجهتي، مشيت على قدمي إلى قصر الأمير، هنا حدثت مشكلة لم أتوقعها، تُهْت في شوارع جاردن سيتي الحلزونية المتشابهة، مررت بجوار جندي حراسة، ألقيت عليه السلام فرد عليَّ بطريقة عادية، كدت أسأله عن القصر لكنني تذكرت أن الأمير حريص على كتمان أمر الزيارة فقلت:

ـ من فضلك، تعرف شارع عائشة التيمورية؟

تفحصني الجندي بنظرة مستريبة ثم وصف لي الطريق، أخيرا، لمحت القصر، هرعت نحوه فوجدت الأمير واقفا أمام الباب الجانبي.. صافحته وأنا ألهث، كانت الساعة قد جاوزت السابعة والربع.. تطلع إليَّ الأمير بنظرة لائمة فقلت بسرعة:

ـ آسف على التأخير يا سمو الأمير لكني ضللت الطريق.

ضحك وقال بالفرنسية:

ـ بداية غير مُشجّعة، تعالَ.

أشار بيده إليَّ فتبعته، مشى بحذاء السور الخارجي للقصر، دخل من باب حديدي صغير إلى الحديقة ونزل بضع درجات ثم أخرج مفتاحا وفتح الباب، دخلت خلفه ولدهشتي أغلق الباب بالمفتاح من الداخل.. كان المكان عبارة عن شقة صغيرة تحت الأرض لا شك أنها كانت مخصصة لإقامة السائق أو بعض الخدم، تقدم الأمير وأنا خلفه، اجتزنا الصالة الصغيرة ثم عبرنا ردهة ضيقة طويلة مظلمة، في النهاية دخلنا إلى حجرة واسعة مضاءة، عندئذ رأيت مشهدا أغرب من كل ما توقعته!

صالحة

منذ أن وعيت على الدنيا لا أذكر أن أخي سعيد كان لطيفا معي، لا أذكر أنه داعبني وأنا طفلة أو اشترى لي لعبة أو اصطحبني للنزهة، كان مصدرا دائما للقلق والنكد، أنا أحب أخي سعيد لكني بصراحة أكره وجوده في البيت وأتجنب لقاءه.. أدخل إلى حجرتي وأغلقها عليَّ.. عندما تزوج من فايقة ورحلا إلى طنطا أحسست براحة، انتهت المشاكل واستمتعنا لأول مرة بحياة أسرية هادئة. في أول زيارة له بعد الزواج، عرض سعيد على أمي مساعدة مالية فرفضَتْ، في اليوم التالي سألتها ونحن نحتسي الشاي:

ـ لماذا رفضتِ أن تأخذي نقودا من سعيد؟

ارتبكت أمي قليلا وقالت وهي تتحاشى النظر إليَّ:

ـ أخوكِ سعيد الآن مسئول عن أسرة، ربنا يعينه.

ـ سعيد لا يعول إلا زوجته، الواجب أن يساعد في البيت بجزء من مرتبه مثل أخي كامل وأخي محمود.

ـ هو عرض أن يساعدني وأنا رفضت.

ـ لو أراد مساعدتنا فعلا لما سألكِ.

ـ حرام عليك سوء الظن.

ـ أنتِ قلتِ بنفسك إن سعيد أناني، لماذا تدافعين عنه الآن؟

ابتسمت أمي بحزن وقالت:

- عندما تتزوجين وتنجبين ستعرفين؛ الأم تحب أولادها بلا شروط، مهما أخطئوا في حقها تظل تحبهم.

شيء ما في نبرتها كان مؤثرا لدرجة أني سكت، رشَفَتْ أمي من كوب الشاي وقالت بهدوء:

- ربنا يهديه ويسعده.

كانت فايقة زوجة سعيد مزعجة مثله، مجرد وجودها في بيتنا كان يصيبني بتوتر، لا أحبها وأعرف أنها لا تحبني ولا تحب أمي، فايقة لا تحب إلا نفسها، الشهامة التي أظهرتها بعد موت أبي كانت بغرض اصطياد العريس لا أكثر ولا أقل، عندما تحقق الغرض وتزوجت من سعيد ظهرت على حقيقتها، صارت تعتبرني وأمي منافستين لها في حب زوجها، قبل كل زيارة لسعيد وفايقة، كنت أبذل مجهودا كبيرا مع أمي من أجل إعداد وليمة لائقة، لكن فايقة بوقاحتها المعهودة كانت دائما تُبدي ملاحظات سلبية على الطبيخ، كان غرضها أن تُظهر لزوجها أنها تطبخ أحسن من أمه أو ربما تريد استفزازنا حتى نتشاجر فتبدو عندئذ في دور الضحية، كانت أمي تستمع إلى ملاحظات فايقة وهي تبتسم بحرج، أما أنا فكنت أكظم غيظي بصعوبة، ذات مرة عندما قالت فايقة إن البامية ناقصة ملح رددت عليها:

- إذا كان طبيخنا لا يعجبك، ما تيجي تقفي معنا في المطبخ وتورينا شطارتك.

تراجعت فايقة فورا، خبطت على صدرها وشهقت وقالت:

- يا خرابي.. لا عِشت ولا كنت.. قطع لساني قبل ما أعدِّل على نيتة ولا عليكِ.

حتى وهي تعتذر تتكلم بميوعة؛ تتثنى وتتقصع بدون مناسبة، فايقة مثل أمها وجهها مكشوف، لا تعرف الخجل أبدا.. تداعب زوجها أمام الجميع ولا تعمل حسابا لأحد، أثناء حديثها معنا، كانت تتعمد أن تُلمح إلى علاقتها الخاصة بسعيد، كأنها تكيدنا، كأنها تريد أن تقول لأمي إن ابنك الذي أنفقتِ العمر في تربيته لم يعد يخصك وإنما هو ملكي وحدي أسيطر عليه كالخاتم في أصبعي، ذات مرة كنا نجلس أنا وأمي معها في الشرفة فإذا بها تقول فجأة برقاعة:

ـ يا خالتي عاوزة أشتكي لك.

ـ خير؟

تحسست فايقة شعرها وتأودت وقالت:

ـ ابنك سعيد لا يريد أن يعتقني، نفسي أعمل شعري مرة واحدة مش عارفة، أنا مضطرة أستحم كل يوم مرتين، كل ما أقول له سيبني أستريح يا سعيد يقول لي عشان خاطري، بصراحة بيصعب عليَّ وبأطاوعه.

أطلقت فايقة ضحكة خليعة، ساد صمت محرج وسرعان ما قالت أمي بغضب:

ـ يا بنتي هذه الأمور بينك وبين زوجك لا يصح الكلام فيها أمام أي إنسان حتى لو كان من أهلك، صالحة.. قومي اعملي لنا شاي.

أرادت أمي أن تجنبني الاستماع إلى الفحش، قمت إلى المطبخ وأنا أحس بالحنق على فايقة، ما كل هذه الخلاعة؟ ماذا تركت للساقطات؟ على أي حال ليس هذا غريبا، ماذا نتوقع من ابنة عائشة؟ كنت أحس أن فايقة ترسل إليَّ بتصرفاتها رسالة معينة، هي تكبرني بعام واحد لكننا مختلفتان، بينما ربتها أمها من أجل الزواج شجعني أبي على إتمام

الدراسة، كنت أحس بأنها تَغير من تفوقي وتريد أن تثبت أنها سعيدة في زواجها وأن الحصول على زوج أهم بكثير من التعليم، كأنها تريد أن تقول:

«أنتِ تبذلين مجهودك في المذاكرة لكن ذلك لن يفيدكِ بشيء، أنا حصلت على زوج يحبني وبيت وأسرة.. أنا أفضل منكِ».

كانت زيارة فايقة وسعيد دائما مناسَبة للاستفزاز والإزعاج، زيارتهما في ذلك اليوم بالتحديد كانت مريبة، اتصل سعيد بأمي وأخبرها أنه قادم لزيارتنا مع زوجته. استغربنا إصرار فايقة على زيارتنا وهي حامل في الشهور الأولى.. إذا كان سعيد يريد رؤيتنا فلماذا لم يأتِ وحده؟ بعد أن أكلا الملوخية بالأرانب التي أعدتها أمي بناء على طلبهما، اختلى سعيد بأمي في حجرة الجلوس وسرعان ما سمعتُ صوت أمي يرتفع ولم يلبث أخي كامل أن انضم إليهما وأخذ يصيح هو الآخر، جلَسَتْ فايقة خارج الحجرة وأطرقت وراحت تنصت، كنت معتادة على هذه المشاجرات وكان لديَّ امتحان في اليوم التالي وأحتاج إلى التركيز فأغلقت على نفسي حجرتي وانهمكت في المذاكرة حتى أحسست بالتعب فتوضأت وصليت العشاء وأويت إلى فراشي، رأيت أمي في الصباح، بدت منهكة ومتوترة، لم أسألها عما حدث حتى أحتفظ بذهني صافيا للامتحان، عندما عدت من المدرسة أخبرت أمي بأني قد حصلت على الدرجة النهائية، احتضنتني وقبّلتني ثم أجلستني بجوارها، لاحظت أنها مرتبكة، ابتسمَت وقالت:

ـ سعيد أخوكِ جايب لك عريس.

ـ عريس؟

بدا وَقْع الكلمة غريبا على أذني، سألتها بلا وعي:

ـ من؟

ـ تاجر جِمال من كوم أمبو اسمه عبد البر، عمره أربعون عاما، غني جدا، تزوج من قبل واكتشف أن زوجته عاقر فطلقها.

لم أجد ما أقوله، كانت المفاجأة أقوى من استيعابي، تنهدت أمي وقالت بصوت خافت:

ـ ما رأيكِ؟

ـ ما رأي أخي كامل؟

ـ كامل مُصرّ على أنك تكملي تعليمك.

ـ يبقى نسمع كلامه.

ـ يجب أن نفكر جيدا يا صالحة، أسوأ شيء أن نتسرع في موضوع كهذا.

تلك الليلة استلقيت في فراشي وأغمضت عينيَّ في انتظار النوم لكنه لم يأت، فكرت فيما قالته أمي وانتابتني مشاعر مختلطة.. كنت أعرف أنني جميلة، كنت أحس بزهو عندما أتطلع إلى جسدي العاري في الحَمَّام، كنت أراه مثاليا في استداراته وليونته، شعري الناعم الأسود وعيناي الخضراوان اللتان ورثتهما عن جدتي، بالرغم من إعجابي بجمالي لم أفكر قط في الزواج، لم يطرأ على ذهني، كان الزواج بالنسبة إليَّ فكرة باهتة بعيدة، تحدث دائما للآخرين، بالطبع كنت أتمنى أن يكون لي بيت وزوج وأولاد مثل البنات جميعا لكني حلمت دائما بأشياء أخرى قبل الزواج، تخيلت حياتي دائما كخط مستقيم أتقدم عبره وأجتاز العقبة تلو الأخرى حتى أصل في النهاية إلى التدريس في الجامعة وأحقق لأبي أمنيته، كانت كلماته تتردد دائما في أذني:

ـ يا صالحة ربنا عوضنا بكِ أنتِ وكامل عن محمود وسعيد الخائبين، شدي حيلك، عاوزك دائما الأولى.

الآن أجد نفسي مدفوعة إلى طريق مختلف، تتردد في أذني كلمة «عريس».. «عريس صالحة». للمرة الأولى، أحس بأنني أنثى مرغوبة بطريقة جدية ومحترمة، إحساس مختلف عن النفور الذي ينتابني عندما يتطلع الرجال إلى جسدي بشهوة؛ بالرغم من ثيابي المحتشمة، كنت أحس أحيانا في الشارع أن بعض الرجال يخترقون جسدي بنظراتهم، عندئذ أشعر بالإهانة، الآن ترضيني فكرة العريس بغض النظر عن الزواج نفسه.. أن يتقدم رجل ليطلب يدي معناه أنه اختارني من بين البنات جميعا، وأنه مستعد لإنفاق مئات الجنيهات حتى أكون زوجته وأم أولاده، هذا المعنى في حد ذاته يسعدني، ظهور عريس أثار خيالي إلى أقصى درجة، أخرجت مجموعة من المجلات كنت استعرتها من كامل، المصور والاستديو ودنيا الفن، بسطتها على السرير، رُحت أطالع صور الممثلات وأتخيل أنني أنيقة وجميلة مثلهن.. أرتدي فستانًا سبور بنصف كُم أو تاييرًا من الحرير الأبيض مع قبعة سوداء أنيقة ينزل منها فوال على وجهي، أتخيل نفسي في كل الأزياء ثم أرى في الخيال شابًّا وسيما (يشبه أنور وجدي أو فريد الأطرش) يقترب مني.. ينحني ويُقَبل يدي ثم يطلبني للرقص، يلفت رقصنا انتباه الموجودين جميعا لدرجة أن الراقصين ينتحون جانبا ويشكلون حلقة متسعة حولنا، في نهاية الليلة سوف يطلب الشاب يدي لأعيش معه في بيت صغير بحديقة، يُستحسن أن يكون فوق تل مرتفع حتى لا يزعجنا أحد.. غرقت تماما في أحلام اليقظة، حتى ولو رفضت الزواج من عبد البر سأظل ممتنة له لأنه قدرني واحترمني وأرادني زوجة وأمًّا لأولاده على سُنة الله ورسوله، ارتفع أذان الفجر وأنا مستلقية في فراشي، سمعت خُطوات أمي إلى

الحَمَّام وصوتها وهي تتوضأ ثم همسها وهي تصلي، بعد قليل جاءت إلى حجرتي، نظرت إليَّ بقلق وقالت:

ـ أنت صاحية؟

ـ ما عرفتش أنام.

جلسَتْ بجواري على الفراش وتطلعت إليَّ ثم تنهدت وقالت:

ـ فكرتِ في موضوع عبد البر؟ أخوكِ سعيد بيلح عليَّ وأنا فعلا محتارة.

رددت بانفعال:

ـ يا أمي لازم نسمع كلام كامل لأنه قلبه علينا، لكن سعيد ما يهمه إلا نفسه.

بدت أمي كأنما تريد أن تعترض لكنها آثرت السكوت، نهضت وقالت:

ـ طيب، حاولي تنامي ولو ساعة قبل موعد المدرسة.

بعد أن خرجت خطر لي سؤال مقلق: لماذا يصطحب سعيد زوجته الحامل ويأتيان من طنطا خصيصا من أجل التوسط للعريس؟ لماذا يضغط على أمي ويتعجلها حتى توافق؟ هل أصبح فجأة مهتما بمستقبلي؟ لعله يلح على تزويجي حتى أترك الدراسة، إنه لن يتحمل أن تكون أخته الصغرى جامعية وهو لم يحصل إلا على الدبلوم، عندما قابلت أخي كامل نظر إليَّ وقال بثقة:

ـ صالحة، أسوأ حاجة تعمليها أنك تتركي الدراسة من أجل الزواج، لازم تكملي تعليمك.

هززت رأسي فابتسم وقال:

ـ أنا واثق أنكِ ستفكرين بطريقة صحيحة.

يوم الجمعة التالي جاء سعيد وفايقة من جديد، هذه المرة بدا سعيد واجما عابسا كأنه جاء ليستأنف الشجار.. بينما بدت فايقة، على العكس، في غاية اللطف والعذوبة مما ضاعف من شكوكي، بعد الغداء خرج سعيد في مشوار وترك فايقة مع أمي، جلستا في الشرفة وحدهما نحو ساعة لم تنقطعا خلالها عن الحديث بصوت هامس، في المساء عاد سعيد وزوجته إلى طنطا وجاءت أمي إلى حجرتي، جلست بجواري واحتضنتني وقالت:

ـ تحبي تسمعي خبر حلو؟

ـ طبعا.

ـ عريسك عبد البر سيشارك أخوك سعيد في مصنع نسيج.. عبد البر سيموِّل المصنع وسعيد سيديره مقابل نصف الأرباح.

ـ يبقى سعيد جاب لي العريس عشان يشاركه في المصنع، كالعادة لا يهمه إلا مصلحته.

ـ لو ما كان سعيد متأكد إن عبد البر إنسان ممتاز ما كان شاركه في المصنع.

ـ صاحب المال يقدر يلاقي عشرة زي سعيد، لكن سعيد صعب يلاقي حد يفتح له مصنع.

ـ تتكلمين عن أخيكِ وكأنكِ تكرهينه.

ـ أكره تصرفاته.

ـ المهم.. فكرتِ في موضوع العريس؟

ـ لازم أكمل تعليمي.

ـ يا صالحة أنت بنت، مهما تعلمتِ مصيرك الزواج وعبد البر عريس محترم يقدر يوفر لك حياة مريحة.

ـ يظهر أن فايقة عرفت تقنعك.

بان الاضطراب على وجه أمي وقالت بتأثر:

ـ يا ليتها أقنعتني، أنا تعبت من التفكير، خايفة أوافق أظلمك.. وخايفة أرفض وأندم.

ـ أنا لن أندم.

سكتت أمي وكأنها لا تريد مجادلتي ثم قالت:

ـ على أي حال أنا اتفقت مع سعيد إننا ندعو عبد البر على الغداء يوم الجمعة القادم، نقعد معه ونتعرف عليه قبل ما نقرر.

(٢٧)

عندما عاد محمود إلى البيت بدا في حالة غير طبيعية، حيًّا أمه وقَبَّل يدها فسألته:

ـ أحضر لك العشاء؟

ـ شكرا.. تعشيت مع أصحابي.. تصبحي على خير.

أحس وهو يعبر الردهة بأنه في حالة غريبة تشبه حالته وهو طفل عندما اصطحبه أبوه إلى السينما لأول مرة، حالة من الدهشة العارمة، انبهار بعالم سحري مفعم بالحركة والألوان لم يكن يتخيل وجوده، احتواه صمت الحجرة فخلع حذاءه وثيابه وارتدى البيجاما ثم ألقى بنفسه على الفراش.. تطلع إلى السقف وفكر أن ما حدث مذهل، آخر شيء كان يتوقعه. يا الله، هل حدث ذلك فعلا أم أنه يحلم؟

كانت مدام خشاب (التي يناديها الآن روزا) تتصرف بطريقة طبيعية كأنها أمه، قَبَّلته مودعة على وجنتيه كما فعلت مرارا من قبل، لكنها فجأة التصقت به وقَبَّلته في فمه.. لم يكن محمود منعدم التجربة، فقد تعود أن يُقبّل صديقاته في ظلام سينما الشرق، لكن قُبلة روزا كانت مختلفة، اعتصرت شفتيه ولسانه وظلت تتلوى بين ذراعيه حتى انتقلت حرارة جسدها إليه، ثم أغلقت باب الشقة بيدها وراحت تدفعه إلى الداخل،

حاول أن يتشبث بمكانه لكنها مدت يدها وراحت تتحسس أسفل خصره وتداعبه بحساسية ومهارة فاتقدت رغبته بشكل لم يعرفه من قبل، لم تمنحه فرصة للرفض، سحبته إلى حجرة النوم، دفعته برفق حتى استلقى فوق الفراش ثم راحت تقبله بنهم وتتحسس ذراعيه وكتفيه وتمسد صدره المغطى بالشعر الكثيف، راحت تهمس بصوت مضطرم لاهث:

ـ أنت جميل يا محمود.. جميل قوي.

في لحظة ما غامت عينا محمود ولم يعد يميز ما يراه، قادته روزا عبر طرق اللذة برفق وحنان، كأنها تجذبه لتسبح به في مياه عميقة تعرفها هي جيدا بينما يدخلها هو للمرة الأولى، كانت تهمس في أذنه بما يجب أن يفعله وتساعده على التنفيذ.. بلغت نشوتها بضع مرات قبل أن يلحق بها، ظلا راقدين عاريين تماما، غارقين في ذلك الصمت العميق المشحون، تلك اللحظة الكونية الراسخة الغامضة التي تعقب الحب، كان محمود مأخوذا كأنه مسحور، لم يكن واثقا أن ما فعله حقيقي، كيف تحولت مدام خشاب من سيدة جليلة يعاملها مثل أمه إلى امرأة عارية تثير شهوته مثل النساء اللاتي يراهُن في الصور الجنسية التي كان يتبادلها سرا مع زملائه في المدرسة؟! كان أيضا مبهورا بالطريق الذي عبره معها، هذه اللذة الفوارة الحارقة التي تكتسح الحواس جميعا لا تقارن بتلك اللذة المضطربة المبتسرة التي كان يختلسها مع البنات في ظلام السينما، ظلت روزا مستلقية بجواره وقد أغمضت عينيها، بعد لحظات تطلعت إليه بعينيها الزرقاوين كأنها ممتنة، بدا وجهها متألقا متوردا وهمست:

ـ ممكن أحضنك؟

ـ تفضلي.

تزحزحت حتى التصقت به وألقت برأسها على صدره، راح محمود يتفحص جسدها العاري وعندئذ لاحظ ذبول الوردة، كانت ثنيات رقبتها كثيرة وكثيفة، وكان ثدياها الكبيران متهدلين، والنمش ينتشر على جلدها المترهل.. كأنما أدركت روزا ما يجول بذهنه فسألته وكأنها تستعطفه:

ـ شايفني جميلة؟

ـ طبعا.

طبعت روزا قُبلة على رقبته ثم ابتسمت في حزن وقالت وهي تتطلع إلى السقف:

ـ لا يا محمود، أنا كنت جميلة زمان، دلوقت كبرت في السن، أنت شاب وممكن تعرف ستات كثيرة أحلى مني.

ظل محمود غارقا في صمته وبدأ يحس بكآبة، وفكر أنه يريد الانصراف لكن روزا تحولت فجأة إلى المرح فنهضت وأمسكت بيده وقالت بنبرة لعوب:

ـ تعال نأخذ حَمَّام.

ـ اتفضلي خذي حَمَّام الأول.

ضحكت وقالت:

ـ لا، تعالَ معي، نفسي نأخذ حَمَّام مع بعض.

سحبته بمرح إلى الحَمَّام وفتحت الماء الساخن وراحت تغسل جسده بيدها وتربت على عضلاته وتضحك وتقول:

ـ أنت حصاني الرائع.

ثم ناولته إسفنجة وردية كبيرة، قالت:

ـ محمود ادعك ظهري من فضلك.

ما كاد يبدأ في دعك ظهرها حتى استدارت بعنف كأنها لم تعد تحتمل الشبق الذي يزلزلها، احتضنته وراحت تُقَبّل بطنه بطريقة نهمة محمومة، ثم صعدت بقُبلاتها إلى صدره، وأخيرا اعتصرت شفتيه من جديد بينما يدها تعبث بين فخذيه، اندفعا من جديد إلى الفراش وقطرات الماء تتساقط من جسديهما.. هذه المرة أخذت روزا وقتها، أثناء الجولة الأولى تجرعت اللذة دفعة واحدة لتشبع ظمأها، بمقدورها الآن أن تتذوق على مهل حتى تنفذ إليها التفاصيل الممتعة بالكامل، انخرطا في موجة حب ممتدة عالية صاخبة، ألقت بهما بعد قليل على الشاطئ وهما منهكان، بعد ذلك استأذن محمود وأخذ حَمَّاما جديدا وارتدى ثيابه وأحس وهو يودعها على الباب أن كل شيء بينهما قد تغير، إحساسه وهي تحتضنه، نبرة صوتها، حتى عطرها الذي كان في السابق يبعث فيه دفئا أموميا.. كاد الآن أن يثير شهوته.

ظل محمود مستلقيا على فراشه يفكر فيما حدث مع روزا حتى غلبه النوم، وفي اليوم التالي ذهب إلى النادي ومارس عمله كالمعتاد، لكنه ظل يجتر الحكاية بحنين وشغف ثم ألحت عليه أسئلة كثيرة: هل يمكن أن يكتشف أن ما فعله مع روزا كان حلما.. مجرد تهيؤات؟

هل كانت روزا تشتهيه من البداية أم أنها اهتاجت فجأة؟ إنها جاوزت الستين فمتى تفقد المرأة رغبتها في الجنس؟ هذه الشهوة المضطرمة هل هي تحدث للنساء الأجانب فقط أم أن النساء جميعا يشتهين الرجل بقوة مهما تقدمت بهن السن؟ هل تكون أمه مثل روزا؟ هل تخفي أمه خلف مظهرها الحازم الوقور رغبة متأججة للجنس؟ أحس بالضيق

لأنه لا يحب أن يتخيل أمه في وضع غير لائق.. لكنه سرعان ما سخر من تفكيره وقال:

ـ طبيعي أن أمي فعلت مع أبي ما أفعله مع روزا، وإلا فكيف جئت إلى الدنيا أنا وإخوتي؟!

اندفع محمود إلى عالمه الجديد، كانت روزا تجهد لإرضائه في الفراش وقد علمته من أسرار الحب ما جعله بعد أسابيع قليلة خبيرا حقيقيا.. تكرر لقاؤهما مرة بعد الأخرى حتى صار تقليدا له طقوس يحبها، كانت روزا تبدأ بإطعامه، تحضر له في كل مرة وجبة شهية مختلفة؛ كباب وكفتة من عند أبو شقرة، سندوتشات فراخ ومخ من نيوكورسال.. فتة بالكوارع من حاتي الجيش.. عندما أبدى دهشته من معرفتها الشاملة بالأكل المصري هزت روزا رأسها وضحكت فبدت كأم طيبة وقالت:

ـ يا محمود أنا عشت في مصر أكثر من إنجلترا.

علَّمته شرب النبيذ، ما إن يجتاز لذعته الأولى حتى يحس بانشراح ودبيب لذيذ في رأسه، مرة بعد أخرى، صارت زيارته لروزا تمضي طِبقا لبرنامج لا يتغير: يأكل محمود بشهية ويشرب زجاجة كاملة من النبيذ وعندما يفرغ يذهب إلى الحَمَّام ليغسل فمه بالفرشاة والمعجون ويستحم ثم يعود مرتديا الروب الكشمير الذي اشترته له روزا على جسده العاري، يجلس بجوارها صامتا، رابضا، مترقبا كأنه جالس في المحطة ينتظر وصول القطار، عندئذ تتململ روزا في جلستها، تضطرم وتتأود وتتحدث بحرارة في موضوعات عابرة.. تسأله عن أسرته أو تشكو له من كسل البواب وكذبه، كأنها تريد أن تجعل علاقتهما طبيعية، كأنهما متزوجان أو عاشقان، لا تقتصر علاقتهما على الجنس

وإنما ينشغلان بتفاصيل الحياة اليومية، يظل محمود جالسا بجوارها يرد عليها باقتضاب بدون أن يلتفت إليها وفي لحظة ما، تقترب منه فجأة فيحس بأنفاسها الحارة المتلاحقة أو تمد يدها لتمسح بها على شعره الأكرت وشفتيه الغليظتين، عندئذ يلتقط محمود الإشارة ويبدأ العرض، يقبض عليها بذراعيه القويتين.. يسيطر عليها، يشكمها، كأنها طفل لعب بما يكفي على الأرض ويجب الآن حمله إلى فراشه، يبدأ بقُبلة طويلة ثم يداعبها على مهل، يتحسس جسدها جزءا جزءا حتى ينفتح وعندئذ يقتحمه بعنف بلا هوادة، كأنه يريد أن يؤلمها أو يعاقبها، يخترق محمود روزا بلا حنان ولا عواطف، بلا تنميق ولا رقة مصطنعة ولا عبارات مغلفة بمشاعر كاذبة، يتعامل مع جسدها بما يشبه الوقاحة.. بجلافة، بعنف متزايد.. كأنه يتشاجر في الشارع أو يخوض مباراة في المصارعة، كأن جسد روزا قد تحول بين ذراعيه إلى خصم.. يتحسس نقاط ضعفه ثم يقهره ويُخضعه، وفي النهاية يلقي به على الأرض بلا حول ولا قوة..كان أداء محمود العنيف في الجنس يثير روزا إلى أقصى درجة، كأنه يخاطب غريزة كامنة في أعماقها طالما دارتها بالمشاعر والكلمات المتأنقة الرقيقة، كأنه يعيدها إلى ماضٍ سحيق، إلى حيوات سابقة عاشتها، إلى أزمنة سحيقة بدائية لم يكن الرجل والمرأة خلالها يخجلان من شهوتهما وإنما يستجيبان لها ببساطة، بلا رهبة ولا إحساس بالذنب، تماما مثلما يأكلان إذا أحسا بالجوع، سبب آخر لتفوق محمود في الفراش: أنه بطبيعته بطيء التفكير يستوعب ما يحدث حوله بصعوبة، عندما يضاجع روزا كان ذهنه يستغرق وقتا حتى يترجم حركات جسده إلى مشهد متكامل مفهوم، ينهمك في مداعبة روزا بغير أن يدرك الصورة الكلية لما يفعله فتتأخر لحظة بلوغه الذروة، يتحول جسده الصلب إلى ما يشبه المطرقة التي تهوي على روزا بإيقاع منتظم عنيف يبدو كأنه سيستمر

إلى الأبد، تصرخ روزا من حرقة اللذة وتتسع عيناها كأنها لا تصدق بينما تجتاح جسدها عواصف عاتية متوالية.. وأخيرا، يصل محمود إلى الذروة بعد أن تكون روزا سبقته إليها مرارا، عندئذ تبدو روزا وكأنها تحتفل، وكأنها تؤدي طقوس العيد، تقترب من محمود بوجهها المنتعش المبتسم الممتن، تُقَبّل وجهه ورقبته وصدره ويديه فتبدو كقطة تتمسح بصاحبها، كان محمود عاشقا أسطوريا لدرجة جعلت روزا تسترجع، بمزيج من الأسى والعطف، ذكرياتها مع عشاقها السابقين جميعا (بما فيهم زوجها الراحل) ثم تواجه نفسها بالحقيقة: إنها لم تعرف قط طيلة حياتها لذة كتلك التي يغدقها محمود عليها.

صارت لياليه الصاخبة مع روزا ركنا بهيجا في حياته لا يتصور الاستغناء عنه.. صار يتوق إلى لقائها كالمدمن، إذا مرت عدة أيام بغير أن يزورها كان يحس برغبة عارمة تجتاح جسده كأنها تقلص عضلي، سيظل محمود مدينا لروزا بلحظات من البهجة الخالصة، كانت تشبع شهوته الفائرة المضطرمة وتجعله ينام بهدوء فلا تهاجمه الأحلام الجنسية.. منحته الحياة المريحة: الأكل الشهي والنبيذ الفاخر والفراش الناعم الوثير، كان يحس بزهو وهو يضاجع روزا لأنه يمارس رجولته كاملة للمرة الأولى.. ومع سيدة إنجليزية تعلقت به وهو مصري أسود.. كانت مشاعره نحوها قوية ومتضاربة، عندما مرضت مرة ورقدت في الفراش ظل يزورها يوميا لمدة أسبوع ليطمئن عليها، كان يحبها بلا شك.. ليس بالمعنى المألوف للحب بين الرجل والمرأة لكنه عن طريق علاقتهما الجسدية نفذ إلى أعماقها، اكتشفها وعرفها وألفها وصار يحس نحوها بود هادئ كالذي ينشأ بين زميلين في العمل، وهو في غير لحظات الجنس يعاملها بود واحترام ويحب صحبتها، أحيانا تبدو مضاجعته لها كأنها خدمة يؤديها لصديقة عزيزة، كأنه يزورها ليساعدها في ترتيب

المنزل أو يحمل عنها قطعة أثاث ثقيلة، مجهود عضلي يبذله من أجل راحتها، يمنحها السعادة ثم يعود إلى مقعد الصديق المخلص.. أحيانا بعد أن يفرغ من الحب كان يحس بكآبة تتراكم حتى تجثم على قلبه كأنها سحب ثقيلة في يوم ممطر، عندئذ تنتابه رغبة ملحة في الانصراف وتتحول روزا في عينيه فجأة إلى عجوز متصابية مترهلة وقبيحة أغوته ودفعته إلى الزنا وهو في سن أبنائها، يشعر فجأة بأنه يكرهها ويتمنى لو أنه لم يعرفها، قد يدفعه هذا النفور المفاجئ إلى معاملتها بقسوة، لكنه سرعان ما يندم ويعتذر ولا ينصرف إلا بعد ما يتأكد أنها سامحته، كانت نوبات النفور هذه تنشأ من إحساسه بالذنب، لم يكن محمود متدينا ملتزما، باستثناء صلاة الجمعة التي يحرص عليها، كان يترك الصلوات بدافع الكسل أو النسيان، أحيانا يعتصره الندم ويتساءل بحزن:

ـ كيف أقف بين يدَيِ الله وأنا أرتكب هذا الذنب العظيم؟!

ذات مرة ثقل عليه الإحساس بالذنب وأراد أن يفضفض قليلا فذهب إلى صديقه الحميم فوزي (الوحيد الذي يعرف أسراره كلها)، أخبرته أبلة عائشة أن فوزي فوق السطح.. صعد محمود فوجد فوزي جالسا في الظلام وقد ارتدى جلبابا أبيض وأمامه مائدة صغيرة يلف عليها سجائر الحشيش، رحب به ودعاه للجلوس ثم قدم له سيجارة ملفوفة، اعتذر محمود لكن فوزي ألح عليه فأخذ السيجارة من يده وأشعلها فتوهجت وفاحت منها رائحة الحشيش النفاذة.. ضحك فوزي وقال:

ـ يا بني الحشيش ده علاج.. ربنا يديم علينا نعمته.

جذب فوزي نَفَسا من سيجارته المنتفخة وكتمه حتى يصل التأثير كاملا إلى رأسه، ثم سعل ونظر إلى محمود بعينين محتقنتين وقال:

ـ ما لك يا جدع؟

كانا جالسَيْن بجوار سور السطح وأمامهما يمتد شارع الترام بضجيجه وزحامه، فتح محمود فمه ليتكلم لكن وجهه الأسود تقلص فجأة وقال بصوت مرتعش وهو على وشك البكاء:

ـ يا فوزي أنا أزني مع روزا، ذنبي كبير وخايف ربنا يعاقبني.

مصمص فوزي شفتيه وهز رأسه وقال:

ـ تصدق يا محمود إنك عبيط.

ـ ليه؟

وضع فوزي يده على كتف محمود وقال بطريقة مَن يشرح لطفل:

ـ يا محمود حد يرفس النعمة برجله؟ روزا ست إنجليزية تحبك وتراعيك، مش أحسن من البنات المعفنة اللي بنصرف عليهم الشيء الفلاني.

ـ علاقتي بروزا حرام يا فوزي.

ـ وأنت يعني شيخ الإسلام؟ ما كنت عمال تبوس البنات.

ـ ذنب البوس غير ذنب الزنا.. عم دراوي شيخ الجامع قال في خطبة الجمعة إن الزنا من الكبائر.

فكَّر فوزي قليلا ثم قال:

ـ خلاص يا سيدي، تزوج روزا.

ـ أتزوج واحدة في سن أمي؟

ـ تزوجها عرفي شفوي.

تطلَّع إليه محمود متسائلا فتنهد فوزي وقال بهدوء:

ـ يا محمود افهم، هو كان فيه زمان مأذون وأوراق؟ طبعا لأ.. الناس زمان كانوا يتزوجون بكلمة وشاهدَيْن، من غير أوراق، خلاص يبقى تتزوج زي زمان.. أروح معك ونجيب واحد ثالث صاحبنا رجولة من المثلث، أنت تقول لها أنا زوجتكِ نفسي، وهي تقول لك زوجتكَ نفسي، واحنا نقول شهدنا على الزواج.. بالطريقة دي يبقى اللي بتعمله حلال في حلال.

هز محمود رأسه وقال بنبرة قاطعة:

ـ لا يمكن أعمل كده.

ـ يعني لا عاجبك زنا ولا عاجبك زواج؟

ـ أنا أول مرة أسمع عن زواج من غير ورق وكتابة، دا يبقى زواج أي كلام.

جذب فوزي نَفَسا عميقا من سيجارة الحشيش وسعل بشدة ثم قال:

ـ خلاص بلاش، تحب تسمع فكرة ثانية؟

ـ تفضل.

ـ اسمع يا سيدي، أيام زمان مش المسلمين كانوا يحاربون أوربا والجيش المنتصر يأخذ نسوان الجيش المغلوب جواري، بعد كل حرب كان يبقى فيه جواري على الناحيتين، جواري مسلمات عند الفرنجة، وجواري فرنجة عند المسلمين، الكلام ده خذناه في دروس التاريخ.. فاكر؟

ـ عمري ما ذاكرت تاريخ.

ـ يا محمود فكر، لو كنت عشت زمان ودخلت حرب وأخذت واحدة ست من جيش الأعداء كان من حقك إنها تبقى جارية لك وتنام معها من غير زواج وتبقى حلال عليك.

ـ طيب وأنا مالي بالحكاية دي؟

ـ اعتبر يا سيدي إنك عشت من خمس ولا ست قرون واعتبر إنك حاربت جيش الفرنجة وانتصرت عليهم وأخذت روزا جارية لك، يبقى من حقك شرعا تنام معها.

ـ أولا أنا عايش النهاردة مش من خمس قرون، ثانيا أنا ما حاربتش الفرنجة، ثالثا أنا مش عاوز جواري.. وحتى لو كنت عاوز جواري لا يمكن أبدا آخذ جارية عندها ستين سنة، ثم جواري إيه وفرنجة إيه؟ يا فوزي أنت مسطول وبتقول كلام فارغ.

رد فوزي بهدوء وهو يلف سيجارة جديدة:

ـ أنا فعلا مسطول، لكن كلامي موزون جدا، اسمع يا محمود، مهما كنت متضايق إياك تسيب روزا، الصنارة غمزت لازم تشدها وتطلَّع الكنز.

ـ أنت بتقول فوازير؟

ـ أنت اللي مخك تخين.

ـ بلاش قلة أدب.

اقترب منه فوزي وقال بصوت خافت كأنه يذيع سرا خطيرا:

ـ عندي أفكار تجيب لك السعد.. حأقولها لك بشرط إنك تنفذ كلامي من غير مناقشة.

صالحة

صباح الجمعة، أرسل إلينا عبد البر مع عُمّاله هدايا تكفي عدة أُسر: لحوم وفاكهة وحلويات. أدى سعيد مع عبد البر صلاة الجمعة في السيدة زينب ثم جاءا إلى البيت، كنت في حجرتي مستسلمة للمسات الأخيرة التي تضعها أبلة عائشة على وجهي، كانت قد ضيقت الفستان الأزرق الجديد من عند الخصر حتى يُظهر استدارة جسدي، وطَلَت أظافر يدي وقدمي بمونوكير أحمر ساطع، وأشرفت على ماكياج وجهي، وصففت شعري على هيئة حلقات صغيرة وتركت خصلة صغيرة تتدلى على جبيني.. تطلعتُ إلى نفسي في المرآة فأحسست بزهو، أطلقَتْ أبلة عائشة ضحكة عالية:

ـ اسم النبي حارسك يا صالحة، والنبي العريس حيتجنن عليكِ.

توجهنا إلى حجرة الجلوس في موكب: أبلة عائشة وأمي وأنا وسطهما ومحمود الذي كان ينتظرنا في الردهة انضم إلينا.

وضعت أبلة عائشة أصابعها أمام فمها ثم رفعت رأسها وأطلقت زغرودة مُجلجلة، لكن نظرة صارمة من أمي أسكتتها، كنت ألهث من فرط الانفعال وكدت أفقد توازني أكثر من مرة بسبب الحذاء ذي الكعب العالي، ستنطبع لحظةُ دخولي إلى الحجرة في ذهني إلى الأبد، كان الضوء ساطعا والشمس تغمر الحجرة عبر النافذة، رأيت عبد البر جالسا بين كامل وسعيد، هب واقفا ليصافحنا.. لا زلت أذكر شعوري في تلك اللحظة؛ تحولت الرهبة إلى دهشة، كنت قد تخيلت عبد البر على صورة معينة، تاجر جِمال بدين يرتدي جلبابا وعمامة، يتحدث

بصوت عالٍ ويبصق على الأرض ويضع في سيالته حافظة نقود ضخمة منتفخة بالأوراق المالية.

هكذا توقعته لكني وجدت رجلا وجيها مهذبا لطيفا يرتدي بدلة أنيقة زرقاء وقميصًا أبيض ورابطة عنق حمراء.. كان أسمر ووسيما، تناول عبد البر الغداء معنا وانصرف قبيل العشاء، جلسنا نتناقش، ترك عبد البر انطباعا جيدا لدينا جميعا حتى أخي كامل (المعارض الأول لزواجي) أثنى عليه على مضض.. لو كان مظهر عبد البر سيئا أو سلوكه بذيئا لكان من السهل رفضه، لكن زيارته الناجحة إلى بيتنا زادت الموقف تعقيدا وأحالت الجدل حوله إلى حرب، عائشة وفايقة وسعيد يضغطون من أجل انتزاع موافقتي على الزواج، وأمي تقف على الحياد، بينما يصر كامل أخي على الرفض ويردد بحماس:

ـ المرحوم أبوكم كان يحلم باليوم الذي يرى فيه صالحة أستاذة في الجامعة.

يرد سعيد قائلا:

ـ لو كان أبوك حيا ورأى عبد البر لكان أول المعجبين به.

ـ مَن قال لك؟

ـ هل تنكر أن عبد البر شخصية ممتازة؟

ـ الاعتراض ليس على شخص عبد البر، الاعتراض على مبدأ الزواج الآن، صالحة متفوقة ومجتهدة، حرام تسيب المدرسة وتقعد في البيت.

ـ يا سيدي بعد الزواج تبقى تكمل تعليمها، بنات كثيرات تزوجن وحصلن على البكالوريا من منازلهن.

ـ إذا تزوجت صالحة فلن يكون لديها وقت للمذاكرة.

ـ في هذه الحالة تكون هي اللي بليدة وما لهاش في التعليم.

هكذا قال سعيد متهكما، نظرت إليه ولم أعلق، وددت لو أقول له إنني متفوقة وإنه هو البليد الذي لم يدخل الجامعة لضعف مجموعه.

تطلع كامل إليَّ وقال:

ـ صالحة.. لا يعجبني أن نتناقش حول مستقبلك وأنت ساكتة.

قلت:

ـ الموضوع يحتاج إلى تفكير.

قال سعيد ساخرا:

ـ علام هذا التدلل.. فاكرة نفسك السفيرة عزيزة؟

قاطعته أمي بغضب:

ـ إن ما كانت بنت الهمامية تتدلل.. مَن يتدلل؟

ـ عبد البر يقدر يتزوج مائة واحدة أفضل من صالحة.

ـ والله لو لف الدنيا ما يلاقي زيها.

ـ رزق الهبل على المجانين.

ـ لمّ لسانك يا سعيد.

توقعت أن يبدأ سعيد مشاجرة جديدة، لكنه نهض لينصرف وقال بصوت عالٍ:

ـ عاوزين ترفسوا النعمة أنتم أحرار.. حاسيبلكم يومين اثنين وبعد كده أنا هاعتذر لعبد البر، خلي صالحة هانم قاعدة لكم لغاية ما تبور.

انصرف وصفق الباب خلفه، تركت كلماته تأثيرا كئيبا.

لم أفهم شيئا من دروس اليوم التالي، عندما عدت من المدرسة، جلست أتناول الغداء مع أمي، لم يعد كامل ومحمود يتناولان الغداء معنا منذ أن عملا في نادي السيارات.. وجدتني أقول فجأة:

ـ يا أمي أنا سأتزوج عبد البر.

سكتت أمي قليلا وكأنها تستوعب المفاجأة ثم تكلمت، نصحتني بأن أفكر جيدا لأن الزواج ليس لعبة، أكدت لها موافقتي فتطلعت إليَّ لحظة ثم قامت من مقعدها واحتضنتني، أحسست بدموعها تبلل وجهي، تعلقت بها وقَبّلت جبينها. في المساء جاء كامل إلى حجرتي، ابتسم بصعوبة وهنأني بصوت خافت:

ـ مبروك يا صالحة.

ـ أنت غير راضي يا كامل؟

ـ ربنا يتمم بخير.

ـ أنا عارفة إنك عاوز مصلحتي، أطمئنك، سأكمل الدراسة بعد الزواج.

ـ بالتوفيق إن شاء الله.

انصرف بسرعة، كأنه يتجنب الكلام، كأنه خسر المعركة فلا يريد أن يتحدث عنها، في اليوم التالي أعلن سعيد موافقتنا الرسمية على الزواج، لماذا وافقت على عبد البر؟ لم يُكرهني أحد على شيء.. لم أقرر التضحية بنفسي من أجل مستقبل أسرتي كما يحدث في الأفلام، لو كنت رفضت الزواج لما استطاع أحد أن يُجبرني عليه.. لماذا وافقت إذن؟ ربما أحسست بأن أمي تريدني أن أوافق وإن لم تصرح برغبتها، ربما لأنني كنت أثق بقدرتي على إكمال الدراسة بعد الزواج، ربما لأن عبد البر

كان فعلا شخصية جذابة، ربما لأنني أحببت التجربة في حد ذاتها، أن أكون عروسا.. ربما لهذه الأسباب كلها، كان عبد البر سعيدا بالزواج فقرر أن يكافئ الجميع، أغرقنا بهداياه الثمينة، أنا وأمي ومحمود.. حتى كامل الذي عارض الزواج أهداه عبد البر ساعة سويسرية أنيقة، حتى أبلة عائشة وفايقة وعم علي حمامة نالهم من الطيب نصيب، كان عبد البر ينفق ببذخ وكنت مبهورة بكرمه، اتفقنا على عقد القِرَان والزفاف بعد انقضاء الذكرى الأولى لأبي رحمه الله، استأجر عبد البر شقة فسيحة في ميدان السيدة حتى أكون قريبة من أمي ورفض بإصرار أن ندفع مليما في الجهاز.. اشترى لي أثاثا فخما: مطبخ كامل حديث، أنتريه جميل، صالون وحجرة سفرة وحجرة نوم أنيقة، مرت الأيام بسرعة وحان الموعد، بكيت بحرارة وأنا أودع زميلاتي ومُدرساتي في مدرسة السنية.. كانت مشاعري مضطربة ومتناقضة، كانت فكرة الزواج تقلقني بقدر ما تسعدني.. أحيانا أفكر أنني سأخرج من بيت أهلي فتنتابني الهواجس وينقبض قلبي خوفا من المستقبل وأحيانا أخرى أحس ببهجة وتفاؤل لأنني أبدأ حياة جديدة، سيكون لي بيت مستقل أنا سيدته وسأنجب أطفالا وأمنحهم أفضل تربية وأفضل تعليم.. ماذا تريد أي بنت أكثر من ذلك؟ حاولت أن أتصور ما سيحدث بيننا ليلة الزفاف، لم أكن أعرف عن العلاقة الزوجية إلا ما تناثر إلى أذني من همسات البنات في المدرسة، ماذا يفعل الرجل مع زوجته؟ هل هذه العلاقة تكون مؤلمة، وهل تحتاج إليها المرأة مثل الرجل؟ كل هذه الأسئلة لم أعرف إجابتها حتى شرحَتْها لي أبلة عائشة، حتى الآن لا أتمالك نفسي من الضحك عندما أتذكر ما حدث؛ كانت أبلة عائشة تُعد جسدي للزفاف، على مدى أسبوع ظلت تدخل معي يوميا إلى الحَمَّام لتنفذ خطتها خطوة خطوة.. كانت أمي تراقبها بمزيج من الفضول والخجل وهي تعمل

يديها في جسدي العاري، عندما تتلفظ أبلة عائشة بألفاظ فاحشة كانت أمي ترتبك وتتعلل بأي شيء لتخرج من الحَمَّام.. قبل الدخلة بيومين دخلت بي أبلة عائشة إلى الحَمَّام وساعدتني على خلع ملابسي حتى صرت عارية، فجأة، مدت يدها بين فخذي فارتبكت ودفعت يدها، عندئذ ضحكت وقالت:

ـ يا بت ما تكسفيش، أنت باين عليك خام زي أمك، أنا خليت أحلى منطقة للآخر.

أجلستني وبدأت تنزع الشعر ببراعة وهي تدندن بأغنية فاضحة، دخلت علينا أمي وراحت تراقب ما نفعله بوجه جاد.. تحاشت النظر إليَّ وسألت عائشة كأنها تؤدي مهمة رسمية:

ـ عاوزة حاجة يا عائشة؟

أطلقت أبلة عائشة ضحكة خليعة وقالت:

ـ بنتك جسمها بقى زي الملبن، يا بختك يا عريس.

لم تعلق أمي، جلستْ أمامي بوقار لا يناسب ما تفعله عائشة، كنت أدرك أنها تداري خجلها بتلك الصرامة.

قالت عائشة بلهجة مرح:

ـ يا أم سعيد، واجب نعمل توعية للبنت قبل الدخلة.

ـ توعية كيف؟

خبطت عائشة صدرها بيدها وقالت:

ـ يا نهار أبيض يأم سعيد، معقولة نسيب البنت على عماها؟! مش لازم تعرف تعمل إيه مع زوجها ليلة الدخلة.

تطلعت أمي إلى أبلة عائشة وهزت رأسها كأنها فهمت، ثم اقتربت مني وتنحنحت وقالت:

ـ اسمعي يا صالحة.. هناك أشياء تحدث بين الزوجين لا بد أن تعرفيها، لا حياء في الدين ولا حياء في العلم.

كان جسدي يلسعني من يد أبلة عائشة التي تنزع الشعر بقطعة الحلاوة، كنت مثل أمي أتظاهر باللامبالاة لأخفي خجلي، استطردَتْ أمي وهي تتفادى النظر إلى عيني:

ـ حكمة ربنا أنه خلق المرأة حتى يسكن الرجل إليها.. العلاقة بين الزوجين أصلها المودة وأصلها الرحمة.

أطلقت أبلة عائشة ضحكة عالية وقالت:

ـ الله يخيبك يأم سعيد، أنت فاكرة نفسك في خطبة الجمعة.. بنت يا صالحة، سيبك من أمك، اسمعي مني أنا، أنا أشرح لك اللي تعمليه مع عريسك خطوة خطوة.

بدت أمي وكأنها ارتاحت لإعفائها من مهمة ثقيلة، خرجت وتركتنا، كانت عائشة قد انتهت من مهمتها ولامست بيدها جسدي في أكثر من موضع لتتأكد من نعومته ثم ارْبَدّ وجهها وقالت:

ـ عارفة يا صالحة السبب في تسمية ليلة الدخلة؟

لم أرد، فضحكت وقالت:

ـ الناس أسمتها ليلة الدخلة لأن الرجل يُدخل شيئا في الست.

حتى الآن أضحك كلما تذكرت شرح أبلة عائشة.. إنها امرأة فاقدة للحياء بمعنى الكلمة.. بعد أن انتهت عائشة من الشرح المفصل، قالت:

ـ نصيحة مني يا صالحة حطيها حلقة في ودنك.. اوعي تتكسفي من زوجك، البسي له قمصان النوم العريانة، ارقصي له، اعملي له جارية في السرير.. الرجل مهما كان طول بعرض وسبع البرمبة لازم يضعف أمام الجنس، الموضوع ده لو تعرفي تعمليه صح عبد البر يبقى في إيدك طوع زي الخاتم.

خطر لي أن سيطرة فايقة على أخي سعيد لم تأت مصادفة.. الغريب أنني بالرغم من خجلي الشديد لم أكن مستاءة من أبلة عائشة.. كانت تشرح الحياة الحقيقية التي لا أعرفها لأنها تحدث دائما خلف الأبواب المغلقة، هكذا يفعل كل رجل مع زوجته، حتى أبي رحمه الله كان يفعل ذلك مع أمي، مع اقتراب موعد الزفاف انتابتني مشاعر مضطرمة؛ مزيج من الرهبة والفضول، كأنني طفلة تستعد لركوب مرجيحة مثيرة وخطيرة.. أقيم الفرح فوق السطح وجاء المدعوون من الشارع ومن الصعيد، رحت أراقب المشهد بإحساس محايد، كأنني أتفرج من خلف زجاج سميك.. الزحام والطعام والزغاريد ودقات الدفوف والتهاني والقُبُلات.. كل التفاصيل والأصوات كانت تأتيني من بعيد كأنني منومة أو كأن ما يحدث حولي ليس حقيقيا.. قرر عبد البر أن نقضي شهر العسل في الإسكندرية لأنني قلت له إنني أحبها منذ زرتها مع أبي وأنا طفلة، وصلنا إلى الإسكندرية قبيل الفجر، نزلنا في فندق على البحر في محطة الرمل.. كنت لا أزال بثوب الزفاف الأبيض، استقبلني الخدم بحفاوة بالرغم من آثار النوم على وجوههم، كدت وأنا أرد تحياتهم يُغشى عليَّ من الخجل، لم أتحمل فكرة أنهم يعرفون ما سنفعله أنا وعبد البر بمجرد أن نغلق علينا باب حجرتنا، برغم كلماتهم المهذبة وتهانيهم الحارة لمحت في نظراتهم شيئا ما قبيحا وقحا كأنهم يرونني عارية.. كانت حجرتنا فسيحة ولها شرفة تطل على البحر، طبقا لتعليمات أبلة عائشة

كان يتحتم عليَّ أن آخذ حَمَّاما وأرتدي قميص النوم الأسود القصير الذي يكشف فخذيَّ وصدري بالكامل، نفَّذت خطة عائشة لكنني، بالرغم من محاولاتي لمغالبة الخجل، لم أقو على الخروج بقميص النوم أمام عبد البر، وضعت على جسدي الروب الحريري الطويل، كان عبد البر جالسا أمام المكتب، ابتسم وقال:

ـ مبروك يا عروسة.

ـ الله يبارك فيك.

هكذا همست وجلست على حافة السرير، كنت ألهث من فرط الانفعال، أحسست أن أطرافي تجمدت ولم أعد قادرة على الحركة.. تبخرتْ كل دروس أبلة عائشة فجأة من ذهني، وقف عبد البر وتقدم نحوي، لعلي أثرت شفقته لأنه قال فجأة:

ـ أنتِ مكسوفة؟

لم أرد، فضحك وقال:

ـ طيب أنا داخل الحَمَّام وراجع لك بسرعة.

هززت رأسي وابتسمت، لاحظت أنه يغلق قبضته اليسرى وكأنها تضم شيئا لا أراه.. ظللت غارقة في ارتباكي حتى سمعت صوت باب الحَمَّام يُفتح ثم تردد صوته ضاحكا:

ـ جاهزة يا عروسة؟

لم أرد، سمعته يتحرك خلفي فلم أقو على الالتفات، تملكني الرعب، كنت أسمع دقات قلبي القوية المتلاحقة، فجأة أحسست بعبد البر يلتصق بجسدي.

(٢٨)

أظهر التحليل أن مرعي مات من الكوليرا، العينات المأخوذة من العاملين جاءت نتيجتها سلبية ما عدا ثلاثة تبين أنهم يحملون الميكروب: مساعد مطبخ واثنان من السفرجية. تم نقل المصابين فورا إلى المستشفى ليتلقوا العلاج كما تم وضع أفراد أسرتهم جميعا في الحَجْر الصحي، أغلق نادي السيارات أبوابه لمدة ثلاثة أيام تم خلالها تعقيمه بالكامل بواسطة الإدارة الطبية للجيش البريطاني، عندما أعيد فتح النادي اتُّخِذَت احتياطات لم يسبق لها مثيل:

تم توزيع الصابون المطهر على الخدم وصارت قفاطينهم تتغير يوميا وتأتي مكوية من قصر عابدين.. أغطية الموائد والفوط وكل ما يمكنه أن ينقل العدوى يتم تعقيمه في غلاية كبيرة تم تركيبها فوق السطح، يُغلى الماء جيدا قبل أن يُستعمل في الطبخ ويُعصر عليه الليمون قبل الشرب، في المطعم تم استبعاد المأكولات البحرية التي تؤكل باردة جميعا مثل الجمبري والكابوريا، الخضراوات صارت تُنقع في محلول البرمنجانات لمدة ساعة كاملة ثم تُغسل بالماء المغلي وتُقدم إلى الأعضاء وهي دافئة، حتى قوالب الثلج التي تُوضع في كئوس الويسكي صارت تُصنع من الماء المغلي، نفذ الخدم إجراءات الوقاية بحزم على أنفسهم.. كان مشهد عبد الملاك ومن بعده مرعي وهما يحتضران لا يفارق أذهانهم، كانوا جميعا يعيشون حالة من الانكسار والتوجس، أحسوا بأن الموت

يحوم في أرجاء النادي وقد ينقض على أي واحد فيهم في أية لحظة.. مَن الضحية القادمة؟ هل يُعقل أن تنتهي الحياة هكذا في لمحة؟ ضربة مباغتة، طعنة نافذة ينتهي بها كل شيء فجأة: اللحظات الطيبة والحزينة، التعب والفرح، ينقطع الصوت والنفس ويتحول الإنسان إلى جثمان بارد يتحقق إكرامه بسرعة دفنه، كان الخدم مأخوذين، مذهولين، ألم يكن عبد الملاك يداعبهم ويقهقه قبل موته بيوم واحد؟ ألم يكن مرعي يحتفل بزواج ابنته قبل موته ببضعة أسابيع؟ ألم يَبْدُ تلك الليلة في أتم صحة؟ بعد أن انتهى الزفاف ألحوا عليه واصطحبوه إلى شقة العزاب وظل يدخن الحشيش معهم حتى الصباح، هل كان أحد فيهم يتخيل أن عم مرعي الذي ملأ الدنيا صخبا وضحكا في تلك الليلة سوف يختفي من على وجه الأرض بعد أيام قليلة.. استغرق الخدم في هواجسهم، أحسوا بأنهم مرشحون للمرض والموت في أية لحظة، ولقد ترجم لهم كامل همام ما قاله الطبيب الإنجليزي:

ـ يجب اتباع إجراءات الوقاية بكل دقة، مع ذلك فإن ميكروب الكوليرا سيظل خطرا قائما، إذا أحس أحدكم بأية أعراض غير طبيعية يجب أن يبلغ عنها فورا حتى نستطيع إنقاذه.

إحساسهم باقتراب الموت غير من عاداتهم اليومية، كثيرون منهم بدءوا ينتظمون في الصلاة ويقضون فترات طويلة في الاستغفار وطلب الرحمة، بعضهم حاول أن يقضي على التوتر بالخمر والحشيش، بعد انتهاء وردية الليل بدلا من الذهاب إلى مقهى الفردوس صاروا يجتمعون في شقة العزاب ليسكروا ويدخنوا الحشيش على الجوزة ثم يتأملوا ما حدث، على أن محاولاتهم الملحة لنسيان المحنة كانت تنتهي غالبا على عكس ما يريدون، بعد موجات من الضحك الصاخب الفارغ كانوا

شيئا فشيئا يغرقون في الحزن، يتملكهم شعور بخيبة الأمل، بالعبث، بالغدر، إنهم يعيشون بالكاد، يعانون من ظلم الكوو وسرقاته وضرب حميد المهين، ويدخرون قروشهم القليلة لأُسرهم، يتحملون كل هذا البؤس على أمل ما غامض في أعماقهم لا يفارقهم ولا يصرحون به أبدا، يحلمون بأن تتحسن حياتهم فجأة، تحدث طفرة غير متوقعة تزيل عنهم البؤس بضربة واحدة وتنقلهم إلى حياة مريحة، بلمسة ربانية رحيمة يتوب عليهم الله من كل هذا الشقاء، هل هذا كثير عليهم؟ هل يوجد ما يستعصي على قدرة الله؟ ألم يكن يوسف طربوش بائسا مثلهم ثم أكرمه ربنا فجعل الملك يتفاءل بوجوده وهو يلعب القمار وسرعان ما تدفق عليه المال وأصبح ثريا؟ أوَليس ربنا سبحانه وتعالى يقول للشيء كن فيكون؟ أوَليس الله يرزق من يشاء بغير حساب؟

ذلك الأمل الغامض كان من ضمن أسباب معارضتهم لما يقوله عبدون، كانوا يؤمنون بأن الحكمة تقتضي منهم أن ينحنوا أمام الريح العاتية، أن يتحملوا الإهانات ويتعايشوا مع الظلم ويحلموا بالخلاص، ذلك أفضل من الدخول في معارك بلا جدوى مع الكوو ستؤدي حتما إلى سحقهم، العقل يقتضي منهم أن يصبروا حتى يجيء الفرج بإذن الله، مع الأيام استبعدوا أن يكون عبدون مدسوسا من الكوو، اعتبروه مجرد صبي ساذج وخائب، قلة من الخدم بدءوا يؤيدون عبدون علنا، غالبية الخدم استمروا في الاعتراض عليه، عندما يتحمس ويحدثهم عن الكرامة والحقوق كانوا يفندون حججه وأحيانا كانوا يتجاهلونه، يلوذون بالصمت ويتأملونه بابتسامة عطف كتلك التي نراقب بها طفلا يقلد الكبار، على أن مناوشاتهم اليومية مع عبدون توارت إلى الخلفية عندما تلاحقت الأحداث المؤسفة: موت الزميلين وظهور الكوليرا وإغلاق النادي وإجراءات الوقاية، كل يوم صار يحمل لهم تطورا جديدا مقلقا،

ها هم يجدون أنفسهم في مشكلة جديدة: بعد اكتمال التعقيم واتخاذ كافة الاحتياطات الصحية أعيد فتح النادي لكنه ظل مع ذلك خاويا بلا رواد، كان مولانا الملك حريصا على صحته لدرجة الوسوسة وقد امتنع تماما عن السهر في النادي خوفا من العدوى وتبعه في ذلك الأمراء وكبار الباشوات ومعظم الأعضاء.. لأول مرة صار النادي يغلق أبوابه في الواحدة صباحا، قلة الزبائن أدت إلى انقطاع البقشيش الذي هو دخل الخدم الحقيقي.. مرتباتهم قليلة ولولا البقشيش لمات أولادهم من الجوع.. مرت أيام كساد صعبة ثم فكر مستر رايت في حل لهذه الأزمة فطلب من الدكتور افرنجهام؛ كبير الأطباء في الجيش البريطاني.. شهادة موقعة منه ومختومة بأن نادي السيارات صار مكانا آمنا من الناحية الصحية وخاليا من ميكروب الكوليرا.. تردد الدكتور افرنجهام وشرح للمستر رايت أنه من الناحية العلمية لا يمكن التأكيد أن مكانا ما خالٍ تماما من الميكروب، بعد مناقشة طويلة توصلا إلى حل وسط؛ أن يؤكد افرنجهام في الشهادة أن إجراءات التعقيم في النادي يتم إجراؤها بأعلى درجة من الكفاءة، قام مستر رايت بطبع عشرات النسخ من الشهادة وأمر بوضعها في مظاريف بعث بها إلى كل أعضاء النادي، عندئذ فقط بدأ الأعضاء يعودون شيئا فشيئا، في كل مرة يظهر في النادي عضو بعد انقطاع، كان المتر شاكر (بناء على تعليمات مستر رايت) يشرح له إجراءات التعقيم بالتفصيل، يذهب به إلى المطبخ ليرى بنفسه الاحتياطات ويصعد به إلى السطح ليرى جهاز التعقيم العملاق، في النهاية يجلسه إلى المائدة ويقول وهو يبتسم بثقة:

ـ اطمئن تماما يا سعادة البك، أطباء الجيش البريطاني هم الذين يُشرفون على التعقيم، كما تعلم سيادتك، الأطباء الإنجليز هم الأكفأ في العالم.

بعد شهر من توزيع الشهادة الطبية، عاد معظم الزبائن، وأخيرا شرَّف جلالة الملك نادي السيارات بزيارته الأولى بعد الإغلاق، تلك الليلة بدا العاملون في نادي السيارات سعداء وكأنهم يحتفلون بالعيد.. بدا الملك في تلك الليلة رائق المزاج، داعب الجالسين معه أكثر، وحكى له طرائف تباروا في الضحك عليها وما إن رأى يوسف طربوش حتى قال له بالفرنسية:

ـ جو، ابق بجانبي، أحتاج الليلة إلى الحظ.

انحنى طربوش بشدة وتمتم:

ـ تحت أمركم يا مولانا.

هكذا عادت الحياة في النادي إلى سابق عهدها، وبدأ الخدم يحصلون على البقشيش وسادت بينهم حالة من التفاؤل الحذر، هل تعود حياتهم إلى سابق عهدها أم أن عليهم تحمل المزيد من الوقائع المؤسفة؟ ذات صباح جاءت إلى نادي السيارات أرملة المرحوم عبد الملاك مع طفليها ميشيل وريموند، ولد وبنت جميلين كملاكين.. كان مشهدهما مع أمهما مؤثرا، اجتمع حولهم الخدم، رحبوا بهم بحماس ممتزج بالأسى، جاءت الأرملة بطفليها لتطلب مساعدة مالية من مدير النادي مستر رايت الذي كان حاسما من البداية فرفض لقاءها وأبلغها على لسان خليل الفرّاش رسالة محددة:

ـ ليس لديَّ ما أناقشه معكِ فقد حصلتِ على مكافأة نهاية الخدمة.

أنصتت أرملة عبد الملاك بهدوء ثم قالت:

ـ أنت سألته عن المعاش يا عم خليل؟

أطرق خليل وتمتم قائلا:

ـ قلت له يا أم ميشيل وقال لي إن ما فيش معاش للمصريين.

ـ يا عم خليل المكافأة تقضينا شهر ولا شهرين، بعد كده أجيب مصاريف ولادي من أين، ربنا يخليك كلم الخواجة تاني يا إما تسيبني أقابله.

كانت لهجتها حارة متوسلة لدرجة تأثر معها عم خليل وأقدم على خطوة متهورة.. دخل مرة أخرى إلى مكتب مستر رايت وأعاد عليه مطلب الأرملة.. عندئذ رفع مستر رايت حاجبيه وتفحصه بنظرة مستنكرة كأنما يقول: «كيف تجرؤ؟!».

لم ينطق مستر رايت بكلمة، استأنف قراءة الجريدة وأشار إلى خليل بإصبعه ليخرج، عاد خليل مطرقا إلى أم ميشيل التي أدركت من هيئته خيبة مسعاه فراحت تبكي وتشكو مما دفع العاملين إلى جمع ما تيسر من مال وتسليمه إلى عم سليمان البواب (أكبرهم سنا) الذي دس المبلغ في يد الأرملة وقال لها:

ـ المرحوم عبد الملاك أخونا وحبيبنا، أهله وأولاده في عينينا، أرجوك يا ست أم ميشيل لو احتجت حاجة اتصلي في التليفون وإحنا نجيبهالك لحد عندك.

إحساس الأرملة بالامتنان هيج أحزانها فأجهشت ببكاء حار وهي تتمتم بكلمات الشكر، ثم سحبت طفليها وانصرفت، بعد يومين تكرر ذات المشهد مع أرملة المرحوم مرعي عامل المصعد التي جربت حظها مع الكوو، ذهبت إلى مكتبه في قصر عابدين لتطلب مساعدته لكن الكوو أكد لها أن لائحة النادي لا تسمح بالمعاش، لم تنكسر أرملة مرعي ولم تتوسل بل غضبت وبدأت في الصياح:

ـ يعنى إيه ما فيش معاش؟ نأكل ونشرب من أين؟ هو يبقى موت وخراب بيوت.

كانت سيدة صعيدية حادة الطبع وقد تزوجها المرحوم مرعي وهو كبير بعد وفاة زوجته الأولى وأنجب منها ثلاثة عيال لا زالوا في المدارس، إحساسها بالظلم جعلها تندفع في الغضب، لم تكن تدرك أن صياحها في حضرة الكوو يعتبر جريمة كبرى، تطلع إليها الكوو وجحظت عيناه كأنه لا يصدق ثم تنحنح وأشار إليها بيده وقال بصوت أجش:

ـ اخرجي.

لم تتحرك أرملة مرعي من مكانها وصاحت في وجهه:

ـ أنت بتطردني؟! هو أنا بأشحذ منك؟ أنا عاوزة حق عيالي.

هنا نظر الكوو إلى حميد الذي التقط الإشارة وانقض على أرملة مرعي، قبض على ذراعها وجرها بعنف خارج المكتب ثم استدعى اثنين من خدم القصر ساعداه في السيطرة عليها، ظلوا يدفعونها أمامهم وهي تصيح:

ـ حرام عليكم يا كفرة، نعيش من أين؟ نشحذ في الشوارع؟

راحت تقاومهم وتحاول التملص من أيديهم القابضة عليها، ضربها حميد بقبضته على ظهرها وصاح وهو يلهث:

ـ يا ولية أنت إحنا ساكتين عليك إكراما للمرحوم مرعي، لو ما خرجتيش معنا والله العظيم أطلب لك الحرس يقبضوا عليكِ ويرموكِ في السجن.

انتبهت السيدة لأول مرة إلى خطورة الموقف فتحولت من الصياح

إلى التوسل الباكي، عندئذ اطمأن حميد لانكسارها فابتعد قليلا وأشار بيده إلى الخدم لكى يخرجوها إلى الشارع ثم استدار ببطء عائدا إلى مكتب الكوو.

ذاع الخبر بين الخدم فتملكهم الإحباط وأحسوا بحسرة.. كيف تُطرد أرملة زميلهم بالقوة؟ كيف يضربها حميد ويهددها بالسجن لمجرد أنها طالبت بمعاش تنفق منه على أولادها؟ لقد حدث نفس الأمر مع أسرة المرحوم عبد الملاك.. أولاد المرحوم عبد العزيز همّام أيضا كادوا يتسولون لولا أن كومانوس الطيب نجح في إلحاق كامل وأخيه محمود بالعمل في النادي.. فكر الخدم في أن ما حدث لأسر هؤلاء الزملاء المتوفين سوف يحدث يوما ما لأسرهم.. عندما يموتون أو يمرضون ويعجزون عن العمل سوف يتسول أولادهم في الشوارع وإذا جاءوا إلى النادي يطلبون المساعدة فسيرفض مستر رايت مقابلتهم وسوف يضربهم حميد ويطردهم، صار الخدم يتحينون أي فرصة ليتبادلوا الهمسات الحانقة:

ـ كم سيتكلف نادي السيارات لو منح معاشات لعائلات المتوفين؟

ـ ولا حاجة، دي تعتبر ملاليم بالنسبة لميزانية النادي.

ـ يعني يضيعوا كل ليلة مئات الجنيهات في القمار ويبخلوا على الغلابة بحقهم؟

ـ حلال ده ولا حرام؟

ظل إحساسهم بالمرارة يتفاقم ويتراكم، لم يعد باستطاعتهم السكوت فقرروا أن يفعلوا شيئا، أن يتكلموا مع أحد الرؤساء، بعد تفكير ومشاورات قرروا الذهاب إلى المتر شاكر لأنه بالرغم من لؤمه

مهذب وليس بذيئا مثل ركابي الطباخ، عم شاكر يستمع ويتكلم بالعقل وعلاقته طيبة بالإدارة وبالأعضاء جميعا.. بعد التحية والسؤال عن الصحة دخلوا مباشرة في الموضوع وقالوا له:

ـ يرضيك يا عم شاكر ما جرى لعيال المرحوم عبد الملاك والمرحوم مرعي.

سكت المتر شاكر وتطلع إليهم بحذر، عندئذ ارتفعت أصواتهم واختلطت:

ـ لازم يا عم شاكر يبقى عندنا معاش.

ـ كيف نشتغل في النادي سنين وبعدين لما نموت عيالنا تتشرد؟

تركهم شاكر حتى فرغوا من الاحتجاج ثم تنهد وسألهم بهدوء:

ـ كيف أقدر أساعدكم؟

ـ تروح تقابل مستر رايت وتقول له.

ـ حيقول لي لائحة النادي لا تسمح.

ـ يا سيدي يغيروا اللائحة، هي اللائحة قرآن؟

فكر شاكر قليلا ثم قال:

ـ نصيحتي تنسوا الموضوع، مستر رايت مستحيل يغير اللائحة.

ـ ظلم.. حرام.. منهم لله.

ـ اعقلوا، لو الكوو وصله كلامكم حتبقى واقعتكم سودا.

حاول الخدم أن يستطردوا في الحديث لكن المتر شاكر قال بحزم:

ـ خلاص، أنا قلت اللي عندي.

انصرف من أمامهم، ظلوا واقفين يتشاورون ثم ذهبوا لمقابلة الحاج يوسف طربوش، كان قد انتهى لتوه من صلاة العصر، صافحهم واحدا واحدا بيد مبللة من أثر الوضوء، أعادوا عليه ما قالوه للمتر شاكر، مصمص يوسف طربوش شفتيه وهز رأسه وقال بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

ـ والله لو كان الأمر بيدي كنت عملت لكم معاش لكن ما باليد حيلة.

بانت عليهم خيبة الأمل فقال الحاج طربوش بنبرة مواسية:

ـ خلاص.. ابقوا شيلوا قرشين كل شهر.

ارتفعت أصواتهم معترضة:

ـ من أين يا عم طربوش؟

ـ هو إحنا لاقيين نأكل.

تطلع إليهم طربوش بنظرة غاضبة وقال:

ـ أنتم باين عليكم نسيتم نفسكم، أنتم في نعمة، احمدوا ربنا واخزوا الشيطان.

لم يجادلوا عم طربوش، تركوه وعادوا إلى زملائهم ليخبروهم بنتيجة مساعيهم.. أحسوا جميعا بقلة الحيلة، زاد إحساسهم بالمرارة وتحول إلى سخط ظل يتراكم حتى حدثت مفاجأة سليمان البواب، سليمان أكبر العاملين سنا، جاوز السبعين وسقطت أسنانه جميعا وهو يمشي بصعوبة بسبب آلام المفاصل، بالرغم من ذلك فقد أقدم على تصرف غير مسبوق في تاريخ نادي السيارات.

جاء الكوو إلى النادي في زيارة تفتيشية ساعة العصر، نزل من

سيارته كعادته واتجه إلى باب النادي بينما حميد يهرول في أثره، تقدم منه سليمان وانحنى مُرحّبا لكنه في اللحظة التي مر فيها الكوو بجواره أمسك فجأة بكُمّ سترته الموشاة بالقصب، جذب الكوو يده بعنف وتطلع مستنكرا إلى سليمان الذي صاح بصوت متهدج:

ـ يا جناب الكوو.. عيال عبد الملاك وعيال مرعي واقعين في عرضك.

دمدم الكوو غاضبا:

ـ كيف واقعين في عرضي؟

ـ محتاجين معاش من النادي.

ـ ما عندناش معاشات.

ـ يعيشوا منين يا جناب الكوو؟!

ـ أنت ما لك وما لهم يا سليمان؟! ما تخليك في حالك.

هنا انفعل سليمان وقال:

ـ كيف ما لي وما لهم، دول أهلنا.

كان هذا أكثر مما يحتمل الكوو فأومأ إلى حميد الذي كان رابضا بجواره يتلمظ فصاح في السفرجية الواقفين في المدخل:

ـ امسكوه.

هذه الصيحة عادة ما تؤدي إلى تقييد الخادم المذنب فورا لكن السفرجية هذه المرة ظلوا في أماكنهم، لم يتحركوا، وكأنهم يرفضون تنفيذ الأمر، عم سليمان كبيرهم ومقامه محفوظ كما أنه صاحب مرض ويمشي بصعوبة.. لا يمكن أن يضربه حميد مثلما يفعل معهم، اقترب أحد السفرجية نحو حميد مبتسما باستعطاف، أراد أن يستسمحه ويطلب

العفو لعم سليمان لكنه قبل أن ينطق ارتجف حميد غضبا فاهتزت ثنيات جسده المكتنز وصاح بصوت كالرعد:

ـ أنا قلت امسكوه.. سمعتم؟

لم يعد هناك مفر، تقدم اثنان من السفرجية وأمسكا بعم سليمان من ذراعيه، لمعت عينا حميد واقترب منه وبدأ في صفعه، كان سليمان مستسلما وساكنا وبدا من نظرته كأنه مذهول، دوت الصفعات على وجه العجوز وحاول الخدم إخفاء تأثرهم، أشاحوا بوجوههم وكادوا يكتمون أنفاسهم لئلا تصدر منهم صيحة تنم عن استنكار أو تعاطف، انتظروا حتى انتهى العقاب وانطلق الكوو وحميد خلفه إلى داخل النادي، عندئذ هرعوا نحو عم سليمان الذي كان واقفا في مكانه وعلى وجهه ابتسامة حزينة.. قبَّلوا رأسه وراحوا يُطيبون خاطره:

ـ ولا يهمك يا عم سليمان.

ـ الكوو مفتري منه لله.

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل.

جرجر عم سليمان قدميه وجلس إلى الدكة، تقبل مواساتهم بنظرة ممتنة، غائبة إلى حد ما، بدا عندئذ كأنه لم يستوعب تماما ما حدث، كأنه لا يصدق أن يتم توثيقه وضربه في مثل سنه، ذلك التعبير المأخوذ الذاهل ظل على وجهه طوال اليوم حتى أنهى عمله وانصرف إلى البيت، في اليوم التالي، بعد صلاة المغرب عندما دخل عبدون إلى المقهى وجده مزدحما ولمح عم سليمان على المائدة المجاورة للنافذة، كان بعض الخدم قد صحبوه إلى المقهى في محاولة للترويح عنه قبل أن يتسلم ورديته، اقترب عبدون من عم سليمان ثم صاح بغضب:

ـ قطع اليد اللي تمتد عليك.

أطرق عم سليمان وتمتم بكلمات شكر لعبدون الذي أجال نظره بين الجالسين وقال:

ـ مَن فيكم عليه الدور بعد عم سليمان؟

تململوا بضيق وتعاقبت ردودهم:

ـ اسكت يا عبدون، والنبي مش ناقصينك.

ـ أنت عاوز جنازة تشبع فيها لطم.

قال عبدون:

ـ المرحوم عبد العزيز الكوو ضربه فانقهر ومات، وعيال المرحوم عبد الملاك والمرحوم مرعي مش لاقيين يأكلوا، وآخرتها عم سليمان الرجل الكبير ينضرب زي العيال، كل ده وأنتم ساكتين، خايفين من إيه؟ إيه اللي ممكن يحصل لكم أسوأ من كده؟

ساد الصمت لحظات ثم استطرد عبدون قائلا:

ـ طول ما أنتم مرعوبين من الكوو هتعيشوا في الذل.

ـ يا عبدون إحنا مش ساكتين، رحنا قابلنا المتر شاكر وعم طربوش وطلبنا منهم يكلموا الكوو في موضوع المعاش، لكنهم رفضوا.

ابتسم عبدون وقال:

ـ طبعا يرفضوا.. شاكر وطربوش وركابي شركاء الكوو في النهيبة، مستحيل يقفوا معنا ضده.. أنتم نسيتم نظام النادي.. الكبار يقسموا البوناس مع الكوو، هو سايبهم يسرقوا وهم بيدفعوا له.

كان الخدم يدركون في أعماقهم أن عبدون يقول الحقيقة.. كادوا يسألونه ما العمل إذن لكنهم تذكروا أن أفكاره دائما محفوفة بالخطر وقد تؤدي إلى مصائب إضافية، لاذوا بالصمت، أطرق عبدون لحظات ثم تطلع إليهم وقال:

ـ اسمعوا.. حقنا لازم نأخذه، أنا رايح أقابل الكوو.

ـ تقابله؟

ـ أيوه حأقابله وأطلب منه إنه يمنع الضرب.. أقول له إننا لا حيوانات ولا عيال عشان يضربنا.

نظروا إليه كأنهم لا يصدقون وصاح أحدهم:

ـ أنت مجنون رسمي.

قال آخر:

ـ إذا كان الكوو ضرب عم سليمان على كلمة قالها.. لما تروح أنت تتحداه تفتكر يعمل فيك إيه؟

ابتسم عبدون وقال بهدوء:

ـ يعمل اللي يعمله، أنا قررت خلاص، الكوو مسافر الصعيد وراجع بعد يومين، أول ما يرجع أقابله.

سرت همهمات منفعلة وقال أحدهم:

ـ حد رايح معاك؟

فأجاب عبدون بصوت عالٍ:

ـ لو حد عاوز ييجي معايا أهلا وسهلا، لو ما حدش جاء أنا حأقابل الكوو وحدي.

كامل

كانت الغرفة ضيقة ومعبأة بدخان السجائر، وثمة مصباح منخفض يتدلى من سلك مثبت في السقف.. حول المائدة الكبيرة المغطاة بأوراق متناثرة جلس بضعة أشخاص فوجئت بأن حسن مؤمن بينهم، وقفت مذهولا، لم أنطق بكلمة، قام حسن مؤمن من خلف المائدة واحتضنني مُرَحبا.. قال الأمير شامل:

ـ أنا عارف إن حسن مؤمن صاحبك، تعالَ أعرفك ببقية المجموعة.

وقفوا جميعا لمصافحتي، عرفني الأمير إلى سيدة جميلة؛ جسدها ضئيل وشعرها مقصوص اسمها أوديت، ثم عبدون عامل البار الذي كنت أعرفه من النادي وإن كنا لم نتحدث من قبل، بعد ذلك كان هناك رجل ضخم أصلع له كرش جاوز الخمسين قدَّمه الأمير قائلا بزهو:

ـ عم عطيه عبد العزيز.. أهم قائد نقابي في مصر.

صافحته باحترام، لاحظت أن قبضة يده قوية بالنسبة لسنه المتقدمة، أضاف الأمير بنبرة زهو:

ـ عطيه هو الذي نظم إضراب المحلة الأخير.

بدا على عطية الامتنان وهمس بكلمات لم أسمعها، كان هناك رجل آخر نحيف أشيب تماما أشبه بموظف متقاعد، قدمه إليَّ الأمير قائلا:

ـ الأستاذ عوني.

أشار إليهم الأمير فجلسوا وجلست في المقعد الخالي حول المائدة.. ابتسم الأمير وقال:

ـ أولا يجب أن أشرح لك مَن نحن وماذا نفعل.

تطلعت إليه صامتا فأطرق لحظة كأنما يبحث عن العبارات المناسبة ثم قال:

ـ نحن مجموعة عمل مشتركة من الوفديين والشيوعيين، أوديت وعبدون وعم عطية من الحزب الشيوعي المصري، الأستاذ عوني وحسن مؤمن من الوفد، أنا مستقل وزميلهم في المجموعة.

تطلعَتْ أوديت نحوي وقالت بمرح:

ـ سمو الأمير متواضع ويتحاشى الحديث عن نفسه، في الواقع إنه مسئول المجموعة.

ابتسم الأمير وقال:

ـ الوفد حزب الوطنية المصرية لكنه خلال السنوات الأخيرة تحكّم فيه مجموعة من الإقطاعيين فوجهوا سياساته إلى مهادنة القصر والإنجليز وتجاهلوا حقوق الجماهير مقابل المحافظة على مكاسبهم الطبقية، من هنا نشأت الطليعة الوفدية؛ وهي تَعتبر نفسها تمثل الاتجاه الحقيقي للوفد ضد الاستغلال والإقطاع، بعد تفكير ومشاورات قررت الطليعة الوفدية تكوين خلايا مشتركة مع الشيوعيين، توحدنا جميعا على مطلب واحد هو جلاء الاحتلال البريطاني واستقلال مصر، بعد أن يتحقق الاستقلال سوف نختلف طبعا في تصورنا للدولة التي نريد بناءها، نحن نعمل الآن من أجل هدفين: أولا أن نفضح فساد الملك وخيانته، وثانيا أن نرفع تكلفة الاحتلال إلى درجة تدفع بريطانيا إلى الجلاء عن مصر.

ساد الصمت ثم قال الأمير:

ـ هل توافق على الانضمام إلينا يا كامل؟ من باب الأمانة، يجب أن تعرف أن الاشتراك في هذا التنظيم جريمة في القانون المصري عقوبتها قد تصل إلى السجن المؤبد.

ـ يا سمو الأمير، يشرفني أن أنضم إليكم.

هكذا قلت بانفعال، تطلع إليَّ الأمير بنظرة متفحصة كأنما يتأكد من موقفي.

قال حسن مؤمن:

ـ كامل من أشجع مَن عرفتهم، قام بتوزيع منشورات أمام أعين البوليس، وطني بجد وقلبه ميت.

ابتسم الأمير وقال:

ـ عارف، أنا جبت معلومات كاملة عنه.

قلت وقد سرت إلى روح المرح:

ـ أرجو أن تكون المعلومات صحيحة!

تطلع الأمير نحوي وقال بجدية:

ـ قبل أن ينضم فرد جديد إلى المجموعة يتم عمل تحريات جدية عنه خوفا من أن يكون مدسوسا من الأمن.. بالنسبة إليك لم تكن هناك مشكلة لأن حسن مؤمن زكّاك، لكني تعمدت أن أتعرف إليك وأتحدث معك حتى أختبر شخصيتك وقد نجحت بامتياز.

قلت بسرعة:

ـ أشكرك يا سمو الأمير.

قال حسن مؤمن:

ـ نحن جميعا نشكر سمو الأمير على جهده في خدمة القضية الوطنية.

ابتسم الأمير ولوَّح بيده وكأنه يقول إن ذلك شيء لا يذكر، قال عم عطية:

ـ بينما نجد الأمراء من الأسرة المالكة يرتمون في أحضان الاحتلال ويتحولون إلى خدم للإنجليز، لا شك أن الأمير شامل يقدم نموذجا وطنيا رائعا.

أطلق الأمير ضحكة وقال:

ـ لا.. أرجوكم، الموضوع بالطريقة دي هينقلب حفلة تكريم، من فضلكم نبدأ الاجتماع، إحنا ورانا شغل كثير.

ارتدى الأمير نظارته ثم بسط الأوراق أمامه وبدأ يقرأ، خُيل إليَّ في تلك اللحظة أنني أرى الوجه الحقيقي للأمير، كأن كل تعبيرات وجهه من قبل كانت منتحلة، ها هو الأمير شامل إذن، هذه النظرة الجادة وهذا التعبير اليقظ الحازم.. استعرض الأمير بلهجة شبه رسمية ما تم إنجازه من مهام، تحدث عن منشورات وإضرابات وبيان لا بد من صياغته بسبب التعديل الوزاري، وجدت صعوبة في متابعة ما يقوله الأمير، كنت لا زلت مأخوذا من المفاجأة، دائما يتأخر رد فعلي، أحتاج إلى وقت حتى أستجيب لما يحدث حولي، لا أعرف إن كان ذلك طبيعيا أم يعكس قصورا في تفكيري، سرحت بذهني بعيدا عن الحوار الدائر، رحت أتساءل: كيف تكونت هذه المجموعة؟ كيف التقى حسن مؤمن بالأمير شامل؟

تذكرت ما قاله لي حسن في لقائنا الأخير: «نحن نعمل الآن مع جبهة واسعة».. فكرت أيضا أن الجملة التي قالها الأمير عن اشتراكي

في المقاومة لم تكن صدفة، كان يعلم كل شيء من البداية.. انتبهت على صوت السيدة أوديت المبحوح من أثر التدخين وهي تقول:

ـ الزميل عبدون.. أريدك أن تستعرض الوضع في نادي السيارات.

بدا على وجه عبدون تعبير منضبط ومال نحو المائدة وقال كأنه يلقي بتقرير رسمي:

ـ الملك يسهر دائما في النادي.. لا يتخلف ليلة واحدة، لقد أدمن القمار بمعنى الكلمة، هذا الأسبوع كسب مبلغا كبيرا من فؤاد باشا هنداوي.. يقولون إن هنداوي يتعمد الخسارة أمام الملك مقابل حصوله على منصب في الوزارة القادمة.

قالت أوديت:

ـ هل سمعت عن تغيير وزاري؟

ـ العاملون في صالة القمار سمعوا الملك يقول لهنداوي باشا: استعد ببدلة التشريفة.

بدا الاهتمام على الأمير وقال:

ـ معنى ذلك أنه سيعينه في الحكومة القادمة، كما توقعت فإن الحكومة الحالية أيامها معدودة.

قال عم عطية:

ـ يجب أن نذكر ذلك في البيان الذي نعده.

قالت أوديت:

ـ ستكون الحكومة الجديدة مثل القديمة، كلها حكومات أقلية عميلة

للإنجليز.. صراعنا ليس مع الحكومة وإنما مع الملك الفاسد المتواطئ مع الاحتلال ضد الشعب.

عقب الأمير قائلا:

ـ هذا صحيح، يجب أن نشير في البيان إلى أن التغيير الوزاري لن يحل الأزمة.

قال حسن مؤمن:

ـ سأصوغ البيان وأعرضه عليكم في الاجتماع القادم.

هز الأمير رأسه موافقا ونظر في الأوراق لكن عبدون قال:

ـ اسمحوا لي، لديَّ موضوع أريد أن أعرضه.

قال الأمير:

ـ أرجو أن تختصر، لا زال أمامنا جدول أعمال طويل.

قال عبدون:

ـ سوف ألتقي بالكوو لكي أطلب منه منع الضرب كوسيلة للعقاب.

قالت أوديت:

ـ هل تعتقد أن الكوو سيستجيب لك؟

ـ لا أتوقع.

ـ لماذا تقابله إذن؟

ـ أريد أن أكسر حاجز الخوف وأثبت لزملائي أن الاعتراض على الكوو ممكن.

قال عم عطية:

ـ فعلا يا عبدون، أهم شيء كسر حاجز الخوف.

ضحك الأمير وقال:

ـ سيتلقى الكوو أكبر صدمة في حياته، لا يمكن له أبدا أن يتصور أن أحدا من مرءوسيه يمكنه الاعتراض عليه.

تطلع عبدون نحوي وقال:

ـ المرحوم والدك يا كامل أول من تعامل بشجاعة مع الكوو.

أحسست بحرج لأنه ذكر أبي، هززت رأسي وابتسمت كأنني أشكره، التفت عبدون نحو الأمير وقال:

ـ سأذهب للقاء الكوو غدا في منتصف الليل.

ـ بعد أن تخرج من عنده اتصل بي حتى أطمئن عليك.

قاطعته أوديت قائلة:

ـ عفوا، عندي رأي مختلف، ساد الصمت وتطلع إليها الجالسون باهتمام.. أسندت أوديت نظارتها الطبية بإصبعها وجذبت نَفَسا من السيجارة وقالت:

ـ يجب أن نحدد الهدف من كل خطوة نقدم عليها.. سأسترجع معكم هدفنا من البداية.. اتفقنا أن ولع الملك بالقمار جعل من نادي السيارات المكان الذي تُحكم منه مصر، اتفقنا على فضح انحرافات الملك وتواطئه مع الإنجليز، قلنا إن الثورة يجب أن تؤدي إلى تغيير كامل، لا بد من هدم القديم بالكامل حتى نستطيع بناء مصر التي نريدها.. لقد أدخلنا عبدون إلى نادي السيارات حتى يمدنا بالمعلومات.. أنتم

تعرفون أننا نعد لعملية مهمة داخل النادي، ليس من مصلحتنا أن ندخل في معارك فرعية.

قال الأمير:

ـ هل تعترضين على ما يفعله عبدون؟

قالت أوديت:

ـ نعم أعترض.

قال عبدون:

ـ أنا أُشجع العمال على المطالبة بحقوقهم، أين الخطأ في ذلك؟

ابتسمت أوديت وكأنها تشفق عليه من سذاجته وقالت:

ـ ماذا نريد من العاملين في نادي السيارات؟ كل ما نريده منهم أن يكونوا قنوات لإمدادنا بأخبار الملك والسرايا والحكومة.

تطلع عبدون إليها بما يشبه الاستنكار وقال بحماس:

ـ يجب أن يقتنع العاملون في النادي بأنهم عمال محترمون لهم حقوق وليسوا مجرد خدم لمولانا.

ـ المبدأ صحيح لكنك تخطئ في التوقيت.

ـ لا أرى تعارضا بين عمليتنا وتوعية زملائي، قد أجند عناصر منهم قريبا.

ـ قلت لك من قبل إن التجنيد سلاح ذو حدين إذا لم نُحسِن استعماله ينقلب ضدنا.

ـ الزميلة أوديت، أنا فعلا لا أفهمكِ، لماذا ترحبين بتجنيد عناصر

من العمال في المصانع وفي نفس الوقت ترفضين تجنيد أحد من نادي السيارات؟

أجابت أوديت بدون تفكير:

ـ لأن من نجندهم في المصانع عمال وليسوا خدما.. هناك فرق بين الخادم والعامل، العامل إذا امتلك الوعي الصحيح سيكون ثوريا حقيقيا، الخادم عادة ما يكون قد تعرض لتشوهات تجعله غير قابل للتغيير.

ـ ما تقولينه لا ينطبق على زملائي في النادي.

ـ حتى لو كانوا يصلحون للتجنيد فإن الوقت غير ملائم، يجب أن ننجز مهمتنا أثناء الاحتفال برأس السنة، أمامنا أسبوعان فقط، مهمتنا لن تنجح ما لم يكن العاملون في النادي في حالتهم الطبيعية، من الخطأ أن تدفع بهم إلى مواجهة مع الكوو.

ـ المواجهة مع الكوو حتمية.

هنا انفعلت أوديت وقالت:

ـ ليس الآن، مقابلتك للكوو سينتج عنها عقاب جماعي للخدم، إن ما تفعله سيؤدي إلى فشل العملية التي خططنا لها على مدى أسابيع، لقد تدخلت عند جيمس رايت من قبل لأمنع طردك من النادي، لن أستطيع أن أفعل ذلك دائما.

ـ لا تدافعي عني بعد ذلك.

هنا صاحت أوديت بصوت منفعل:

ـ لماذا تستفزني؟ كلامي واضح: مهمتك في نادي السيارات جمع المعلومات لا أكثر ولا أقل.. ما تفعله الآن خطأ لأنك تضع زملاءك تحت ضغط لن يتحملوه، عندئذ سننكشف جميعا.

تطلَّع عبدون إلى الأمير وقال:

ـ ما رأيك؟

ـ أوديت عندها حق.. مقابلة الكوو ستؤدي إلى تصعيد قد يؤثر فعلا على مهمتنا.

سكت الأمير لحظة ثم التفت إلى أوديت وقال:

ـ من ناحية أخرى لو تراجع عبدون عن مقابلة الكوو قد يخسر ثقة زملائه إلى الأبد.

قالت أوديت:

ـ الحل؟

ران الصمت وبدا الأمير وكأنه يَزِن الاعتبارات المختلفة ثم قال:

ـ ليس لدينا اختيار، اذهب يا عبدون وقابل الكوو لكن بصفتي مسئولا عن هذه المجموعة فأنا أرجو ألا يتكرر هذا التصرف، ليس من حقك اتخاذ قرارات بدون الرجوع إلينا.

التفت الأمير نحوي وقال بمرح:

ـ أول اجتماع تحضره تتفرج على مشاجرة! ماذا تقول عنا الآن؟

ـ كل خير.

هكذا قلت وأنا أبتسم، ورد الأمير قائلا:

ـ الاختلاف في الرأي أمر طبيعي يساعدنا على اتخاذ القرار الصحيح.

استغرقوا بعد ذلك في مناقشة موضوعات مختلفة.. بدا الأمير هو القائد وصاحب الكلمة النهائية تليه في الأهمية أوديت التي بدا أنها تتمتع بشخصية قوية تؤثر في الجميع، بعد حوالي ساعة قال لي الأمير:

- قبل أن أنهي الاجتماع.. أريدك في الاجتماع القادم أن تقدم لنا تحليلا للوضع السياسي في صفحتين أو ثلاث على الأكثر، التحليل يجب أن يعكس رؤيتك لما يحدث وتوقعاتك للوزارة الجديدة، سنقرأ التقرير ونناقشه معا.

هززت رأسي موافقا، قمت وصافحت كل الحاضرين، بدءوا يخرجون واحدا واحدا من باب الشقة، قال حسن مؤمن:

- انتظر، سأصحبك.

خرجت معه.. كانت الساعة حوالي التاسعة والشمس ساطعة وثمة رياح شتوية باردة ومنعشة.. قال حسن:

- ما رأيك في المجموعة؟

- أنا سعيد بوجودي معكم.

تطلع إليَّ حسن وقال:

- بعد أيام سنقوم بمهمة ستكون حديث مصر كلها.

- هل أستطيع أن أعرفها؟

- القواعد التنظيمية تمنعني من إطلاعك على العملية.

- أنا الآن عضو في التنظيم مثلك.

- لكنك لن تشترك في المهمة، وبالتالي ليس من حقك الاطلاع على تفاصيلها.

يبدو أن وجهي عكس نوعا من خيبة الأمل، قال حسن كأنه يواسيني:

- الأمير يحبك ويثق بك وأكيد سيشركك قريبا في إحدى المهام.

وصلنا إلى محطة الترام وكان لا بد أن نفترق، احتضنني حسن بحرارة وقال:

ـ شد حيلك يا بطل، أراك يوم الجمعة في الاجتماع القادم.

استوقفتُ سيارة أجرة وأسرعت إلى نادي السيارات، وصلت متأخرا نحو نصف ساعة عن موعد الدرس، هرعت إلى الطابق الأعلى حيث أعطي الدرس لميتسي، لم أجدها في الحجرة، أدركت أنها غضبت لتأخري وانصرفت.. أحسست بإحباط.. لقد تأخرت رغما عني، ألم يكن بمقدور ميتسي أن تنتظرني لتسمع مني سبب التأخير.. خرجت أبحث عن خليل الفرَّاش وما إن رأيته حتى بادرته قائلا:

ـ يا عم خليل كان عندي ظرف وتأخرت قليلا عن موعد الدرس فوجدت الآنسة ميتسي انصرفت.

ـ الآنسة ميتسي لم تأت أصلا.

ـ متأكد؟

ـ طبعا.

ـ غريبة.. إنها دائما تحرص على موعد الدرس.

ـ إن شاء الله يكون المانع خيرا.

ساد الصمت فجأة ثم رن الجرس فهرع خليل إلى مكتب مستر رايت، جلست وأشعلت سيجارة ورحت أفكر: لماذا غابت ميتسي عن الدرس؟ لا يمكن أن أكون السبب، لم أفعل ما يغضبها إطلاقا.. بعد قليل انفتح الباب وظهر عم خليل، حيَّاني وقال بصوت قلق:

ـ مستر رايت يريد رؤيتك.

- لماذا؟

- لا أعرف، قال لي إنه عاوز يشوفك حالا.

سبقني عم خليل بخطوتين ومشيت خلفه، وقبل أن يطرق الباب مال نحوي وهمس:

- الخواجة من الصبح شكله ناوي على شر.. حاول تسايسه يا كامل لأنه مؤذي ونابه أزرق.

(٢٩)

عندما نزل محمود من فوق السطح أحس براحة.. كان بمقدور فوزي دائما أن يبدد قلقه ويغير تفكيره من النقيض إلى النقيض، مهما تظاهر بمعارضة فوزي كان في النهاية دائما يقتنع برأيه.. كان محمود يؤمن بأن فوزي يعرف أكثر منه بكثير وأنه نادرا ما يخطئ، منذ اليوم التالي بدأ محمود في تنفيذ خطة فوزي بحذافيرها.. ذهب لزيارة روزا وقضى معها عدة ساعات قدم خلالها أقوى ما لديه في الفراش حتى دوّت صرخاتها في حجرة النوم، بعد ذلك تركها مسترخية في الفراش وأخذ حَمَّاما ساخنا ثم ارتدى ملابسه وجلس في الصالة، لحقت به روزا وقد ارتدت روبها الحريري على جسدها العاري.. أحاطته بذراعيها وطبعت على وجهه قُبُلات سريعة متلاحقة ثم همست بقلق:

ـ ممكن تبيت معي الليلة؟

ـ آسف يا روزا، عندي موضوع لازم أخلصه.

احتضنته بقوة كأنها تريد أن تشبع من جسده قبل أن ينصرف.

ظل محمود ساكنا، كان يركز تفكيره لينفذ الخطة، التقمت شفتيه لتبدأ قُبلة طويلة لكنه دفعها برفق وابتعد عنها قليلا وأشعل سيجارة وقد بدا على وجهه الهم، سألته بلهفة:

ـ ما لك يا محمود؟

ـ عندي مشكلة؟

ـ قلها لي.

ـ وأنت ناقصة مشاكلي؟

ـ أرجوك أعطني فرصة أساعدك.

كان صوتها متهدجا بخليط من الإشفاق والرغبة.. قال محمود بدون أن ينظر إليها كأنه يخشى أن ترى في عينيه أنه يردد ما حفظه من فوزي:

ـ أنت عارفة إني بأشتغل وأصرف على أسرتي ومحتاج لكل قرش، بالإضافة إلى شغلي في النادي كنت ماسك الحسابات في محل بقالة كان بيجيب لي مبلغ إضافي، للأسف البقال مات من يومين والورثة ناويين يقفلوا المحل.

ابتسمت روزا وقالت:

ـ هو ده السبب إنك حامل الهم؟

أطرق محمود ولم يرد، فوضعت روزا يدها على خده وهمست بحنان:

ـ كنت بتقبض كم من المحل؟

ـ جنيه كل أسبوع.

نهضت ودخلت حجرتها ثم عادت ووضعت ورقة نقدية في جيب القميص وهمست:

ـ كل أسبوع أعطيك جنيه يا حبيبي، ولا تزعل نفسك.

كان المفترض طبقا للخطة أن يتظاهر محمود بالتردد ويمانع في أخذ المبلغ، لكن سرعة استجابة روزا لطلبه وفرحته بالجنيه في جيبه وإحساسه بالامتنان لها، كل ذلك جعله يحتضنها بحرارة، همست في أذنه:

ـ خلاص حتبات معي؟

هنا تذكر تعليمات فوزي فقال وهو يبعدها برفق:

ـ الليلة مش حقدر.

تنهدت روزا وصحبته إلى الباب وقبل أن يخرج أمسكت بوجهه بين يديها وقالت:

ـ أرجوك لو احتجت أي حاجة قل لي.

ـ شكرا يا روزا.

طبعت قُبلة سريعة على شفتيه وقالت:

ـ أنا بأحبك يا محمود، يا ترى بتحبني قد ما بأحبك؟

ابتسم وهز رأسه ثم تملص منها برفق وخرج. صارت روزا تعطيه جنيها كل خميس، في أول الشهر، عندما مدت أمه يدها لتعطيه الجزء المخصص له من المرتب رفض محمود بحزم وقال:

ـ يا أمي أنا الحمد لله بقيت آخذ بقشيش مكفيني وزيادة، خلي المرتب كله للبيت.

دعت له أمه بحرارة.. الجنيهات الأربعة التي يحصل عليها من روزا كل شهر كانت تكفي للإنفاق على الفُسح التي يقوم بها مع فوزي.. صارت علاقته بروزا منتظمة ومستقرة، يوما بعد يوم كانت تزداد تعلقا

به حتى أصبحت تتصل به في نادي السيارات لتطمئن عليه وتستمع إلى صوته، كان يستمتع بصحبة روزا، بعد أن يضاجعها كان يحكي لها عن حياته فتنصت باهتمام ثم تعقب على كلامه وتنصحه، كان محمود يقول لنفسه: «روزا لديها خبرة كبيرة في الدنيا وهي تحبني وتريد لي الخير.. يجب أن أستفيد من رأيها».

كان محمود يعتبر روزا إنسانة طيبة كريمة وصديقة عزيزة مخلصة، كان يحبها على نحو ما ولكن ليس كما تريد، كان يحس بضيق عندما تضغط عليه لكي يمارس عواطف لا يحس بها.. كانت تغرقه بكلمات الحب وتلح عليه حتى يقول لها أحبك، كان يتهرب وفي النهاية يستسلم لإلحاحها فيبدو عندئذ كأنه طفل ينطق كلمة صعبة لأول مرة، فكر كثيرا في أن يصارحها بأنه بالرغم من علاقتهما لا يحبها كعشيقة وإنما كصديقة فقط، كاد يقول ذلك أكثر من مرة لكنه في اللحظة الأخيرة دائما يشفق عليها فيتراجع.

خلال جلستهما المعتادة فوق السطح قال محمود لصديقه فوزي:

ـ عندي مشكلة، روزا بتحبني وعاوزاني أحبها.

ـ ما تحبها يا أخي.

هكذا قال فوزي وهو يجذب نَفَسا من سيجارته المنتفخة، تنهد محمود وقال:

ـ مش قادر أتعامل معها بالطريقة دي، أنا فعلا أحبها لأنها إنسانة طيبة وكريمة لكن مش قادر أحبها زي ما هي عايزة، فاهمني؟

أطلق فوزي ضحكة ساخرة وقال:

ـ والنبي أنت خائب، حب إيه يا عبيط؟ هي النسوان تحب حاجة

غير مزاجها، جرب مرة تروح وما تعملش معها حاجة وشوف إيه اللي يحصل لك.

هذا التسفيه من جانب فوزي لهواجس محمود كان يبددها ويمنحه الإحساس بالراحة كأن الحوار بين الصديقين بمثابة جلسات اعتراف يتطهر محمود خلالها ليستأنف حياته، استمرت علاقته بروزا ثلاثة أشهر قبض محمود خلالها ١٢ جنيها أنفقها بالكامل على نزهاته مع فوزي، انتظمت حياة محمود بشكل رائع بعد أن تخلص من إرهاب المدرسة ومارس الجنس المنتظم وتوفر له ما يكفيه للفُسح.. ذات ليلة حكى محمود لروزا ما يحدث في نادي السيارات بين عبدون والكوو.. بدا الجد على وجهها وقالت:

ـ اسمع يا محمود، أنت وراءك أسرة ومسئوليات، مالكش دعوة بالموضوع ده.

قال محمود:

ـ ما هو برضه غلط إن الكوو يضربنا زي العيال، صحيح هو عمره ما ضربني، لكن بصراحة لا يمكن أستحمل إنه يضربني قدام الناس.

ـ هو مش بيضرب إلا المهملين.. يعني طول ما أنت تشتغل مضبوط عمره ما يضربك.

بانت الحيرة على وجه محمود فابتسمت روزا وقالت:

ـ وحياتي عندك ما تدخلش نفسك في مشاكل.

ـ حاضر.

ـ توعدني؟

ـ أوعدك.

كان حنانها الأمومي جارفا وصادقا كما كانت شهوتها جامحة وفاحشة، هذا الانقسام في سلوكها كان يحير محمود لدرجة تصور معها أحيانا أن روزا امرأتان، شكلهما واحد لكن سلوكهما متناقض، العشيقة والأم؛ واحدة لا يهمها إلا إشباع شهوتها وأخرى تعامله بحنان صادق ومؤثر، ذات ليلة ذهب بطلب عشاء إلى زبونة ألمانية من أعضاء النادي اسمها مدام داجمار، بدا وقع اسمها غريبا على سمع محمود وقد أعطاه عم مصطفى نبذة عنها، جاءت داجمار من ثلاثين عاما مع زوجها الألماني إلى مصر وأنشآ مكتبة ماكس الشهيرة في شارع سليمان باشا، مات زوجها منذ عامين وفضّل الولد والبنت أن يعيشا في ألمانيا بينما ظلت السيدة داجمار تدير شئون المكتبة وتعيش وحدها في شقتها بجاردن سيتي، ضغط محمود على الجرس ووقف ينتظر بالطلب أمام الباب الذي سرعان ما انفتح وظهرت مدام داجمار، كان شعرها الناعم أبيض تماما مقصوصًا على طريقة ألاجرسون، وجسدها النحيل الضامر يحمل طابعا عسكريا ما، كانت ترتدي نظارة طبية لها إطارات معدنية مستديرة أعطتها مظهر الجدة أو ناظرة المدرسة. تقدم محمود خطوتين وانحنى ثم قال جملته المعتادة:

ـ بونسوار مدام.. أوتوموبيل كلوب.

تفحصته بنظرها ثم قالت بلهجة جادة:

ـ ممكن توصل الطلب للمطبخ؟

تراجعَتْ وفتحَتْ الباب ودخل محمود مطرقا ووقف في الصالة فقالت مدام داجمار:

ـ المطبخ من هنا.. تعال ورائي.

تبعها واجتاز الصالة إلى المطبخ ووضع اللفة على المائدة الرخامية

ثم أدخل يده في جيب الجاكت وأخرج الفاتورة.. دفعت السيدة الحساب وتركت له نصف جنيه بقشيشًا، وضع النقود في جيبه وشكرها بصوت خفيض.. أحس فجأة بارتباك، كان الموقف غريبا على نحو ما، هو وهذه السيدة الألمانية واقفان وحدهما في المطبخ، لماذا طلبت منه الدخول مع أن لفة الطعام خفيفة بمقدورها أن تحملها بنفسها؟ ابتسم محمود وهز رأسه يحييها ثم استدار ليخرج من المطبخ لكن السيدة داجمار نادته قائلة:

ـ دقيقة واحدة.

توقف محمود واقتربت منه مدام داجمار ثم ناولته جنيها كاملا وقالت وهي تبتسم:

ـ خذ.

تراجع محمود وقال:

ـ لا يا هانم، ده كتير، حضرتك سبتي لي بقشيش.

مدت يدها ودست الجنيه في جيب سترته العلوي.. شكرها بحرارة لكنها فجأة اقتربت منه وهمست بصوت مضطرم:

ـ أنا عاوزاك.

صار الموقف صعبا، تمتم محمود قائلا بصوت محشرج:

ـ تحت أمرك يا ست هانم.

مدت يديها وراحت تتحسس كتفيه العريضتين واربد وجهها فجأة ثم قالت بنبرة جادة بدت غير ملائمة للموقف:

ـ عاوزاك تزورني زي ما بتزور روزا خشاب.

بُهت محمود وألجمت المفاجأة لسانه، تطلَّع إليها بانزعاج وعلى صفحة ذهنه سؤال كُتب بأحرف كبيرة: « كيف عرفَتْ بعلاقته مع روزا؟».. ابتسمت داجمار وقالت بعصبية:

ـ قلت إيه؟

كان في جيبه جنيه كامل يَعِدُه بمسرات ومباهج، في نفس الوقت كانت السيدة أبعد ما يكون عن إثارة شهوته، إنها تملك جسد جندي عجوز، ضامرًا وجافًّا تماما، لا مؤخرة طرية ولا صدر ناهض، كاد أن يرفض لكنه أحس بخوف من عواقب غضبها، في النهاية هو ليس سوى عامل توصيل في نادي السيارات وهي سيدة غنية وأجنبية بمقدورها أن تؤذيه بسهولة، قال محمود بصوت خافت:

ـ تحت أمرك يا مدام.

ابتسمَتْ وقالت بود:

ـ خليك قاعد نتعشى مع بعض.

ـ ما قدرش، عندي شغل.

تكدَّر وجهها فيما يشبه الغضب وقالت:

ـ خلَّص شغلك وتعالَ.

ـ بأخلص متأخر.

ـ أنتظرك.

ـ ممكن بكره؟

ـ أوكيه، بكره تخلص شغلك وتيجي لي.

ما إن خرج محمود من الشقة حتى تنفس الصعداء، كان يريد أن يخلو

إلى نفسه ويفكر في هذه الحكاية التي هبطت على رأسه فجأة.. ظل يعمل بذهن غائب، ولما عاد إلى بيته استرجع ما حدث وتعب من التفكير ثم استغرق في نوم عميق وفي اليوم التالي قبل أن يذهب إلى عمله في النادي مر على فوزي في البيت.. فتحت له أبلة عائشة وقالت:

ـ جئت في وقتك.. الساعة بقت واحدة وصاحبك مش عاوز يصحا.

دخل محمود وابتسم لما رأى فوزي نائما بالبيجاما وهو يصدر شخيرا منتظما، أيقظه وانتظر حتى دخل إلى الحَمَّام وعاد وقد لف فوطة حول رقبته والماء يتساقط من شعره، شربا الشاي معا وراح فوزي يلتهم بتلذذ عدة سندوتشات فول بالبيض مع قِطَع الخيار المخلل، بينما محمود يحكي له ما حدث مع داجمار.. في النهاية أشعل فوزي سيجارة وقال:

ـ هي دي عاوزة تفكير يا معلم محمود، لازم تروح لها طبعا.

ـ بس دي عجوزة وناشفة وشكلها صعب قوي.

ـ يا بني ده شغل، كله بثمنه، لكن المرة دي يا معلم لازم نأخذ قرشين حلوين.

في اليوم التالي بعد أن انتهى محمود من عمله في الثانية صباحا، خلع زِي العمل وارتدى ملابسه ثم اتصل بأمه من النادي وقال لها إنه سيبيت عند أحد أصدقائه، خرج إلى الشارع وحيًّا عم سليمان ثم استقل تاكسيا إلى بيت داجمار، دخل من البوابة وما إن داس على زر المصعد حتى وجد البواب واقفا أمامه وعلى وجهه آثار النوم، تطلع إليه باستنكار وقال بنبرة حادة:

ـ طالع لمين؟

ـ طالع لمدام داجمار في الدور الثالث.

ـ إيه المناسبة؟

ـ هي اتفقت معي أزورها بعد ما أخلص شغل.

تحولت نظرة البواب إلى مزيج من الريبة والاحتقار، فتح باب المصعد وقال لمحمود:

ـ تعالَ معي.

كان السكون شاملا حتى إن أزيز المصعد تردد صداه بقوة.

تحول وجه البواب إلى الاحترام وهو يدق جرس الباب، فتحت داجمار الشراعة فبادرها البواب بالتحية وقال:

ـ آسف للإزعاج يا مدام، الأخ ده يريد مقابلة سيادتك.

تهللت أساريرها وصاحت:

ـ أيوه، تفضل يا محمود.

نظر محمود شذرا إلى البواب الذي انحنى وانصرف، كانت داجمار قد ارتدت روبا أحمر ووضعت مكياجا ثقيلا على وجهها جعلها أشبه بدُمية أطفال، ما إن خطا محمود إلى داخل الشقة حتى أغلقت الباب ثم شدت الترباس واحتضنته بقوة، راحت تُقَبّله على رقبته وصدره وتمسح وجهها في صدره وهي تلهث، كان هيجانها عارما.. ارتبك محمود ثم أبعدها عنه برفق وقال:

ـ ممكن آكل من فضلك؟ أنا جعان.

(٣٠)

«عبدون رايح يقابل الكوو».

راح الخدم يتناقلون الخبر بانفعال، إن ما يحدث يفوق الخيال، عبدون مساعد البارمان سيواجه الكوو ويطالبه بأن يمتنع عن ضربهم، الكوو لا يُراجَع في إرادته، الكوو يأمر بضربهم منذ أن جاءوا إلى النادي ولم يجرءوا يوما على التفكير في الاعتراض، إنهم يرتعدون إذا مر الكوو بجوارهم ويحمدون ربنا إذا انصرف بسلام، كيف يصدقون أن يأتي أحدهم ليعارض الكوو ويطلب منه منع الضرب.. هل سيحدث ذلك فعلا؟ ماذا سيكون مصير عبدون؟ سيكون رد فعل الكوو رهيبا، مهما كانت الأسباب التي جعلت الكوو يتجاهل كلام عبدون في السابق فإنه هذه المرة سيسحقه، سيصعقه صعقا، في أوقات الراحة كانوا يتحلقون حول عبدون ويتأملونه كأنه كائن غريب وطريف ثم يسألونه:

ـ أنت فعلا ناوي تقابل الكوو؟

يتجاهل عبدون لهجة السخرية ويقول بجدية:

ـ أيوه، رايح أقابل الكوو وهأطلب منه يبطل يضربنا.

عندئذ تنهمر التعليقات:

ـ أنت فاهم نفسك زعيم الأمة؟

ـ لازم نودعك لأننا مش هنشوفك تاني أبدا.

ـ يا عبدون من خاف سلم، ربنا قال ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

يرد عبدون بهدوء:

ـ ربنا طلب منا أن نقاوم الظلم وندافع عن الحق.

تكرر هذا الجدل وظل عبدون ثابتا على موقفه، في النهاية كان الخدم ينصرفون من حوله.. كان تحدي الكوو بهذا الشكل يصيبهم بالذعر، إذا قطم الكوو رقبته هذه المرة فهو يستأهل، أخشى ما يخشونه أن يمتد غضب الكوو إليهم، إذا وقعت الواقعة سيكون عليهم تبرير موقفهم، أعدوا في أذهانهم الجُمَل التي سيقولونها:

ـ يا جناب الكوو إحنا مالناش دعوة بالولد عبدون ده مجنون وسافل، ما تأخذناش بذنبه، أنت أبونا وإحنا أولادك وخدامينك.

بعد أيام عاد الكوو من الصعيد، صار الخدم يترقبون لقاءه بعبدون بين لحظة وأخرى، على أن جعبة الغرائب لم تفرغ؛ فقد تسرب إليهم خبر جديد:

«عبدون لن يذهب وحده إلى لقاء الكوو، سوف يذهب معه بحر البارمان وسماحي المرمطون».

ردد بعض الخدم ساخرين:

ـ كان عندنا مجنون بقوا ثلاثة.

خدم كثيرون أحسوا بالخطر، إنهم يدركون الآن أن ما يفعله عبدون فتنة مهلكة تنتقل كالعدوى من شخص إلى آخر، إن عبدون يكتسب أنصارا، اليوم بحر وسماحي يقرران الذهاب معه إلى الكوو فمن سينضم إليهم غدا؟! ذهب كرارة السفرجي مع اثنين من زملائه إلى البارمان بحر في أول الوردية.. كان البار خاليا من الزبائن ما عدا مائدة بعيدة

جلس إليها رجل وامرأة يحتسيان البيرة.. صافح كرارة بحر ثم دخل إلى الموضوع مباشرة:

ـ يا بحر أنت رجل كبير وعاقل، كيف تمشي ورا عبدون، أنت رئيسه المفروض تعقّله.

دمدم الزميلان بكلمات مؤيدة لكرارة، استمع بحر إليهم وهو يغلق عينا ويفتح أخرى ليتفحص الكئوس الفارغة ثم يضعهما واحدة وراء الأخرى على رف البار، في النهاية قال بهدوء:

ـ أنا رايح مع عبدون، لا يمكن أسيبه يقابل الكوو وحده.

صاح كرارة بانفعال:

ـ خبر إيه يا بحر، أنت نسيت نفسك؟ عاوز تعمل رأسك برأس سيدك الكوو.

ـ وأنت ما لك يا كرارة؟

ـ إلا ما لي؟ أنت والولد عبدون ناويين تجيبوا لنا مصيبة، لو رحتم تحديتم الكوو حيعاقبنا كلنا.

ابتسم بحر وقال ساخرا:

ـ خلاص يا كرارة، روح بوس إيدين الكوو لأجل يرضى عنك.

دمدموا مستائين، اقترب كرارة ووضع يده على كتف بحر وكاد أن يقول شيئا لكن بحر أنزل يده وقال بلهجة حازمة:

ـ يا جماعة أنتم نصحتوني وأنا أشكركم على النصيحة، عن إذنكم، لازم أشتغل.

تركهم وانسحب خلف البار ليستأنف عمله، يئس الزملاء من إقناع بحر فذهبوا يحاولون مع سماحي المرمطون، استأذنوا الشيف ركابي ثم أشاروا إلى سماحي فخرج إليهم، كانت عيناه دامعتين من أثر تخريط البصل فمسحهما بكُمه وقال:

ـ خير يا جدعان؟

ترددوا قليلا ثم اندفع كرارة قائلا:

ـ يا سماحي إحنا جايين نحذرك.. إوعى تعوم على عوم عبدون وتتحدى سيدك الكوو.. أنت بالذات هتروح في ستين داهية، أنت طلعت ولا نزلت مرمطون مطبخ ومتزوج وعندك عيال.

كان الكلام حقيقيا ومؤثرا.. تقلص وجه سماحي وبدا قلقا وتمتم:

ـ ربنا يحفظنا.

تطلَّعوا إليه مستفهمين فقال سماحي وهو يتحاشى النظر إليهم:

ـ يعني عاجبكم إن عم سليمان ينضرب وهو في السن دي.

ـ هو اللي جابه لنفسه.

ـ عم سليمان طلب معاش للأرامل واليتامى، هي دي جريمة؟

ـ خليك ماشي ورا عبدون لغاية ما يضيعك.

ـ عبدون يطالب بحقوقنا، كثر خيره.

ـ كثر خيره على إيه.. الله يخرب بيته.

بدا واضحا أن الجدل لن يفضي إلى شيء، تنهد سماحي وقال:

ـ أنا أعطيت عبدون كلمة.

هنا فقد كرارة أعصابه وصاح:

ـ ربنا يأخذكم يا أخي، اسمع يا سماحي، لما تروح تقابل الكوو ابقى تكلم عن نفسك، إحنا ما لناش دعوة بكم.

هز سماحي رأسه وبدت على وجهه ابتسامة وديعة ثم انسحب بهدوء إلى داخل المطبخ.. ظل الخدم طوال النهار متوجسين.. راحوا يدمدمون ويتبادلون همسات غاضبة، وما إن تحين فرصة حتى يناقشوا الحدث من جديد، يكررون ما يقولونه ويعيدون العبارات ذاتها حتى صارت بلا تأثير، انتصف الليل وبينما مولانا الملك يلعب البوكر كعادته مع بعض الباشوات غيَّر بحر وسماحي وعبدون ملابسهم واستقلوا سيارة أجرة من أمام النادي توجهت بهم إلى مكتب الكوو في قصر عابدين، أثناء الطريق لاذوا بالصمت، كانوا يدركون خطورة ما هم مقدمون عليه ويشعرون أنهم لو فتحوا باب المناقشة فقد تنهار عزيمتهم. وصلوا إلى قصر عابدين وحيوا رجال الحراسة ثم دخلوا إلى مكتب الكوو.. كان الكوو يعلم قطعا بموضوع الزيارة بواسطة جواسيسه المنتشرين في كل مكان.. تطلع إليهم حميد بهدوء كأنما كان يتوقع حضورهم، لم يرمقهم بنظرة مستنكرة ولا وبّخهم لأنهم جاءوا بدون موعد كما يفعل عادة بل سألهم بنبرة عادية:

ـ خير؟

تنحنح عبدون وقال:

ـ جئنا لمقابلة الكوو لأمر مهم.

ابتسم حميد ودخل إلى مكتب الكوو ثم عاد بعد دقائق وقال بنبرة محايدة شبه ودية:

ـ سيدكم الكوو يريدكم.

دخلوا خلف حميد وهم مأخوذون تماما كأن ما يحدث غير حقيقي، كأنهم في حلم، كأنهم يعبرون دهليزا مسحورا لا يعرفون إلى أين ينتهي بهم، كأنهم يندفعون بأقصى سرعة نحو النهاية، نحو مصير محتوم، لم يعد بوسعهم الآن التوقف أو التراجع، وجدوا الكوو جالسا إلى مكتبه، بدا في تلك اللحظة جليلا ومهيبا، سرى إليهم خوف مفاجئ فاضطربوا ولاذوا بالصمت حتى قال الكوو بصوته الأجش:

ـ حميد قال لي إنكم عاوزيني؟

لم يرد أحد منهم فصاح الكوو بنبرة منذرة:

ـ خير.. انطقوا.

تغلب عبدون على إحساسه بالرهبة واندفع قائلا بصوت متهدج:

ـ يا جناب الكوو، لقد جئنا لنطلب منك حقنا ونحن واثقون أنك لن تخذلنا.

كانت لهجته مستقيمة، لا توسل فيها، تكاد تكون ندية.. بدا الاهتمام على وجه الكوو وقال:

ـ عاوزين إيه؟

ـ جئنا لنطلب منك أن تمنع الضرب عنا.

ابتسم الكوو وقال:

ـ أنا آمر بضرب من يخطئ منكم فقط.

ـ يا جناب الكوو، من حقك بالطبع أن تعاقب المخطئ، نحن نقبل أي عقاب آخر غير الضرب.

ابتسم الكوو فجأة (وبدا لهم ذلك غريبا وباعثا على القلق) ثم تطلع نحو بحر وقال:

ـ أنت موافق على الكلام ده يا بحر؟

هز بحر رأسه وقال:

ـ الضرب يهين كرامتنا يا جناب الكوو.

وعقّب عبدون قائلا بصوت عالٍ:

ـ يا جناب الكوو كل العاملين يتمنون لو أنك ألغيت عقوبة الضرب.

أطرق الكوو صامتا وبدا كأنه يفكر ثم نهض من مكانه وتقدم بخطوة بطيئة نحوهم، ولما صار في مواجهتهم ابتسم وقال:

ـ خلاص، أنا موافق.

نزلت عليهم المفاجأة كالصاعقة فلاذوا بالصمت، هز الكوو رأسه وابتسم وقال:

ـ من اليوم لن يضرب أي واحد فيكم، اللي يغلط فيكم نوقع عليه خصم أو عقوبة إدارية.. زيكم زي الموظفين في القصر.

ابتسم بحر البارمان وقال:

ـ شكرا جزيلا يا جناب الكوو.

تمتم سماحي بكلمات غير مفهومة، أما عبدون فقد اقترب من الكوو وقال:

ـ يا جناب الكوو، أؤكد لك أنك اتخذت القرار السليم، لن تندم أبدا.

كان هذا الأسلوب الندي في مخاطبة الكوو بالرغم من مضمونه

الإيجابي يعتبر في حد ذاته تطاولا يستوجب العقاب في الأحوال العادية، لكن الكوو استكمالا لسلوكه الفريد المفاجئ وغير المفهوم، تطلع إليهم بنظرة وديعة ثم قال:

ـ كل ما يهمني أن تعملوا وأنتم مرتاحين نفسيا.

تعالت أصواتهم وهم يشكرونه بحرارة، بدت على وجه الكوو ابتسامة عريضة وبانت أسنانه الناصعة ثم قال بمرح وهو يشير نحو الباب:

ـ يلَّا.. تفضلوا ارجعوا على شغلكم.

كامل

كان وجه مستر رايت مكفهرا ينذر بالمتاعب، ألقيت عليه التحية فتطلع إليَّ ببرود ولم يرد، قررت ألا أسمح له بإهانتي هذه المرة.

بغير أن يدعوني جلست من تلقاء نفسي في المقعد المواجه لمكتبه، تجاهلت نظرته المستنكرة وقلت:

ـ عم خليل قال إنك تريدني.

قال مستر رايت وهو يملأ غليونه بالدخان:

ـ أريد أن أسألك عن ميتسي.

ـ لقد أحرزت تقدما كبيرا في اللغة العربية.

نفث مستر رايت سحابة كثيفة من الدخان وقال:

ـ سمعت أنك تخرج معها.

ـ صحيح.

ـ لماذا تخرج مع ابنتي؟

ـ لأن ذلك سيساعدها على إتقان اللغة العربية.

ابتسم بعصبية وقال:

ـ ميتسي ممثلة موهوبة وهي، مثل معظم الفنانين، تعاني من نزوات ورغبات غريبة تندفع إليها بكل طاقتها ثم تكتشف في النهاية أنها أخطأت وتندم.

ـ ماذا تقصد؟

ـ مهمتك أن تُعلم ميتسي اللغة العربية وليس أن تأخذها إلى النزهة.

ـ أنا أتعامل مع ميتسي باعتبارها شخصا بالغا.

صاح بصوت غاضب:

ـ يجب أن تفهم أنك مجرد مدرس لميتسي، تعطيها دروسا وتأخذ أجرك.

ـ هكذا بدأ الأمر، لكن ميتسي بالنسبة إليَّ الآن صديقة عزيزة.

كنت أتعمد استفزازه.. اغتصب ابتسامة صفراء وقال:

ـ أوه.. حقا.

أطرق واستند بكوعيه على المكتب ومد رأسه إلى الأمام كأنما يستعد للهجوم، قال باستخفاف:

ـ أنت نوبي يا كامل، أليس كذلك؟

ـ أنا صعيدي.

- ما الفرق؟

- الصعايدة ينحدرون من القبائل العربية التي جاءت إلى مصر مع الفتح، أما النوبيون فهم جماعة مختلفة عرقيا ولهم لغة خاصة بهم.

أشاح بيده كأنه لا يهتم وقال:

- سأعتبرك نوبيا على أية حال.. هل سمعت عن رحالة ألماني اسمه كارل هاجينبج؟

- لا.

- كارل هاجينبج أكبر تاجر حيوانات في أوربا خلال القرن التاسع عشر، كان يرسل الصيادين إلى الغابات في أنحاء العالم ليصطادوا الحيوانات ثم يقوم ببيعها إلى حدائق الحيوان.

لم أعلق، أطلق ضحكة خافتة وقال:

- قد لا يكون موضوع هاجينبج شيقا بالنسبة لك، أؤكد لك أنه سيثير اهتمامك عندما تسمع بقية الحكاية.

ظللت صامتا، استطرد قائلا:

- ذات مرة أراد كارل هاجينبج أن يجدد في أدائه، بدأ يصطاد مع الحيوانات بعض السكان البدائيين ثم يعرضهم داخل أقفاص.. نجحت الفكرة تماما وتلقفتها حدائق الحيوانات في العالم.. هل تتصور أن مئات الألوف من الزائرين الغربيين؛ رجالا ونساء وأطفالا كانوا يستمتعون بالفرجة على الإفريقيين وهم محبوسون في الأقفاص.

قلت بصوت عالٍ:

- هذا شيء بشع وغير إنساني.

- ربما تراه كذلك لكن ملايين من أبناء حضارتنا الغربية لا يوافقون على رأيك.

- هل تسمح مبادئ الحضارة أن يتم اصطياد البشر ووضعهم في أقفاص؟

- هذا السؤال يَفترض أن البشر جميعا متساوون في درجة التطور.

- أظن هذه بديهية.

- ليست بديهية إطلاقا، هل تريد أن تقنعني بأن عبقريا مثل شكسبير أو جراهام بل.. يتماثل في القدرات العقلية مع الهندي أو الإفريقي الذي لا زال يعيش في مرحلة ما قبل الحضارة؟

قمت من مقعدي واقتربت منه وقلت وأنا أحاول السيطرة على انفعالي:

- مستر رايت.. يجب أن أفتح المخزن الآن.. هل تسمح لي بالانصراف؟

- لن تنصرف قبل أن أخبرك بالصلة التي تربطك بمستر هاجينبج.

- قلت لك إنني لم أسمع به من قبل.

تجاهلني وفتح درج المكتب ثم أخرج صورة فوتوغرافية قديمة مد يده بها نحوي وقال:

- من ضمن مقتنيات هاجينبج البشرية كانت هناك عائلة نوبية، ألا يثير هذا اهتمامك؟ لقد أرسل هاجينبج صياديه إلى النوبة فتمكنوا من اقتناص أسرة نوبية بأكملها من ثلاثة أجيال، وضعوهم كلهم في قفص واشترت حديقة برلين حق عرضهم، ثم طافوا في قفصهم بكل حدائق الحيوان الأوربية.. لقد وجدت صورة لهذه الأسرة.. انظر جيدا سترى

هنا في القفص، الجد ثم الابن وزوجته التي تحمل طفلا رضيعا، للأسف يبدو أن الجدة ماتت أثناء صيدها.

أشحت بوجهي حتى لا أرى الصورة وقلت وأنا ألهث من فرط الغضب:

ـ هذه الصورة لا تهمني.

ظل باسطا يده بالصورة وقال بنبرة ساخرة:

ـ أوه، تصورت أنك ستهتم برؤية بعض أجدادك النوبيين.

ـ مستر رايت، أنت تريد إهانتي.

ـ لا أرى أين الإهانة.

ـ أنت تقول إن أجدادي كانوا مثل الحيوانات.

ـ من حقك أن تفسر كلامي بالطريقة التي تعجبك، أنا لم أخترع شيئا، هذه حقيقة تاريخية، لقد تم اصطياد النوبيين ووضعهم في أقفاص وتم عرضهم على الجمهور في معظم حدائق الحيوان الأوربية.

ـ أنا أرفض هذا الكلام، هل تسمع، أرفضه تماما.

لم أنتظر رده، قمت من مكاني وخرجت مسرعا، وبينما أستدير لأغلق الباب لمحته وهو يطالع الأوراق أمامه، كان يبتسم برضا وكأنه أنجز ما يريد، كان تعبير التشفّي على وجهه أكبر من احتمالي، توجهت إلى المخزن.. جلست أنتظر حتى جاء مسيو كومانوس، كذبت عليه، قلت إن أمي مريضة ويجب أن أكون معها.. سمح لي بالانصراف ورجاني أن أتصل به في المساء لأطمئنه على صحة أمي.. ظللت أجوب شوارع وسط البلد بلا هدف، أعماني الغضب حتى ارتطمت بالمارة أكثر من

مرة.. كان إحساسي بالإهانة يسحقني، لا بد أن أفعل شيئا لرد كرامتي التي أهدرت، سأعود إلى هذا الوغد العنصري وأضربه أمام الجميع وليكن ما يكون، سأفضحه أمام العاملين في النادي، هذا القواد الذي يقول ببجاحة إن أجدادي حيوانات، هو نفسه يقدم ابنته إلى الملك ليضاجعها، هل هذا مفهومك للشرف يا ابن الحضارة الغربية؟ إذا كنا حيوانات فعلى الأقل نحن لا نقود على بناتنا.. توقفت عن السير، لم أعد أحتمل، عُدت إلى النادي، توجهت مباشرة إلى مكتب مستر رايت، يبدو أن هيئتي أقلقت عم خليل الفرَّاش لأنه انتفض من مقعده وتوجه نحوي، سألني بانزعاج:

ـ خير يا كامل؟

ـ عاوز أقابل مستر رايت.

ـ أنت مش قابلته؟

قلت بصوت عالٍ كأنما أريد أن يصل صوتي إليه:

ـ بيني وبين مستر رايت حساب لازم أصفيه.

انتفض عم خليل وأمسك بيدي وراح يهمس:

ـ تعالَ معي، أرجوك.

جذبني عم خليل حتى خرجنا إلى الشارع وبعدنا قليلا عن باب النادي، عندئذ تطلع إليَّ وقال:

ـ إياك تعمل مشاكل مع مستر رايت.

ـ هو اللي عاملني بطريقة مهينة.

ـ قلة الأدب ليست جديدة على جيمس رايت، هو بيحتقر المصريين

كلهم لكن ربنا أعطانا عقل نفكر به، أنت شاب مجتهد ومكافح، حرام عليك تهد كل اللي بنيته، لو دخلت وواجهت مستر رايت نفسيتك يمكن تستريح لكنك حتنطرد أنت وأخوك محمود من الشغل.

فكرت لأول مرة في أن أمي تعتمد على مرتبنا أنا ومحمود، تذكرت وجهها المأزوم في أعقاب وفاة أبي، استرجعت ملامحها الراضية وهي تتسلم مني مرتب الشهر.. استطرد عم خليل:

- يا كامل اعمل زيي، اسمع من هنا وفوت من هنا، الإهانة مهما ضايقتك مسيرك تنساها، المهم تحافظ على أكل عيشك.

لم أكن مقتنعا بمنطقه لكنني أدركت أنه لا جدوى من النقاش فابتسمت وصافحته وقلت:

- أشكرك يا عم خليل.

تطلع إليَّ متسائلا كأنما يريد أن يتأكد من قراري، قلت وأنا أصطنع المرح:

- اطمئن، أنا حأعمل بالنصيحة.

عُدت إلى البيت وجلست إلى مكتبي.. حاولت أن أسيطر على غضبي وأستأنف حياتي بشكل طبيعي لكن هدوئي كان ظاهريا، فوق السطح، كنت في أعماقي أتألم من الإهانة التي لحقت بي وبأهلي، في اليوم التالي حضرت اجتماع التنظيم، كان جدول الأعمال مزدحما، تناقشنا حول الأحداث، شرح لي الزملاء موقف العمال الوطنيين والحرب ضد النقابات المستقلة التي يشترك فيها القصر والإنجليز وأحزاب الأقلية الرأسمالية والإخوان المسلمون المعروفون بانتهازيتهم.. في النهاية ابتسم الأمير وقال:

ـ قبل أن أنهي الاجتماع، أريد أن أخبركم أنني قررت أن أوكل المهمة إلى عبدون وكامل، بالأمس شرحت لعبدون ما سيفعله، اليوم لازم أقعد معك يا كامل.

بعد الاجتماع انصرف الزملاء وبقيت مع الأمير الذي جلس أمامي.

فجأة وجدتني أقول بصوت مرتفع:

ـ يا سمو الأمير هناك واقعة حدثت مع جيمس رايت أحب أن تعرفها.

بدا الانزعاج على وجه الأمير، حكيت له ما فعله رايت معي بالتفصيل، أحسست بالمهانة من جديد وأنا أعيد ما قاله رايت عن أجدادي النوبيين.. استمع إلَيَّ الأمير وهو صامت ثم عقّب قائلا بهدوء:

ـ جيمس رايت يعتبرك السبب في مشكلته.

ـ وما هي مشكلته؟

ـ مشكلته أن ميتسي رفضت صداقة الملك وهو يعتقد أنك السبب.

ـ غير صحيح، لقد تصرفَتْ ميتسي من نفسها.

ـ أنا أصدقك لكنه لن يصدقك.

ـ حتى لو كنت السبب فيما فعلَتْه ميتسي هل يعطيه هذا الحق في إهانتي؟

ـ لا طبعا، ولكن لا تنس أن جيمس رايت يعتبر صداقة ابنته لشخص إفريقي إساءة له ولأسرته، سيحتاج العالَم وقتا حتى يتخلص من الأفكار العنصرية، العنصري شخص جاهل ينتابه الفزع من المختلفين عنه في الشكل.

ـ لقد أهانني يا سمو الأمير.

ـ أتفهّم غضبك يا كامل، لكنه استعمل طريقة خبيثة فلم يشتمك مباشرة، سيدافع عن نفسه قائلا إنه ذكر حكاية تاريخية معروفة وأنت الذي أخذتها على محمل سيئ.

ـ مستر رايت ليس صديقي وليس من المألوف أن يحكي لي حواديت، ثم إصراره على التأكيد بأن أجدادي كانوا يوضعون في أقفاص الحيوانات لا يمكن فهمه إلا على أنه إهانة متعمدة.

بدا التعاطف على وجه الأمير وابتسم وقال:

ـ سأتصل به غدا وأوبّخه، على الأقل حتى لا يتمادى.

شكرت الأمير وفجأة أحسست بانفعال قوي حتى إنني بذلت مجهودا لأمنع نفسي من البكاء.. أحس بي الأمير فنهض وابتعد عني، راح يرتب أدوات الرسم ثم عاد بعد قليل ونظر إليَّ كأنه يتأكد أنني سيطرت على شعوري.. قال لي بلهجة ودية:

ـ يجب أن تتعلم كيف تحيل الغضب الخاص إلى همٍّ عام، أنت غاضب الآن من إهانات رايت.. من أعطى جيمس رايت الحق في إهانتك؟ لقد أهانك لأنه إنجليزي يعيش في بلد تحتله بريطانيا وبالتالي يكون بمقدوره أن يهين المصريين بدون أن يخشى أية مساءلة.

ظللت صامتا واستطرد الأمير بحماس:

ـ لديك طريقتان لكي تفهم ما فعله رايت، إما أن تعتبر الأمر شخصيا بحتا وإما أن تعتبر هذه الإساءة نتيجة مباشرة لاحتلال مصر.

قلت بانفعال:

ـ لا يمكن أن أسكت على الإهانة حتى يتحقق الجلاء.

رفع الأمير يده وكأنه يحتج وقال بنبرة لائمة:

ـ كامل، أرجوك، لا تعيدنا إلى نقطة الصفر، قلت لك إنني سأوبخه، أنا أتكلم الآن عن المهمة التي ستنفذها، أريدك أن تفكر فيها باعتبارها الطريقة الصحيحة لرد إهانة رايت.

رددت فورا:

ـ أنا مستعد لتنفيذ كل ما تكلفني به.

ابتسم الأمير وقال:

ـ عفارم عليك.

نهض وتوجه إلى خزانة خشبية في آخر القاعة أخذ منها علبة زرقاء، جلس بجواري وفتح العلبة ثم أخرج كرة زجاجية في حجم البرتقالة وناولني إياها.. قلبتها في يدي ورحت أتفحصها، قال الأمير بصوت جاد:

ـ سأشرح لك بالضبط ما سوف تفعله.

صالحة

التصق بي عبد البر أكثر وأكثر، راح يشد قميص النوم من على جسدي، فهمت ما يريده، خلعت القميص وأنا أكاد أموت من الخجل، دفعني حتى استلقيت على ظهري ثم نام فوقي.. كنت ألهث من فرط

الانفعال، استمعت إلى دقات قلبي المتلاحقة، احتضنني وأدخل لسانه في فمي.. أحسست بأنفاسه مختلطة برائحة الدخان، شعرت بإعياء بالغ، كدت أفقد الوعي.. بعد قليل نهض عبد البر وجلس في الفراش ثم تطلع إليَّ مبتسما وقال:

ـ مبروك يا عروسة.

قام إلى الحَمَّام ثم عاد بعد قليل واستلقى بجواري وقَبَّلني على خدي وهمس: تصبحي على خير، ظللت أحدق في الظلام حتى استمعت إلى أنفاسه المنتظمة وأدركت أنه نام، قمت إلى الحَمَّام وعدت واستلقيت بجواره.. كانت أعصابي متوترة وتفكيري مشتتا، بذلت مجهودا حتى استجمعت نفسي.

كنت مأخوذة بما حدث.. كان إحساسي بجسد عبد البر وهو فوقي ومنظره وهو ينام بجواري ورائحة الدخان التي تنبعث من فمه، كل ذلك كان يجعلني أشعر بالدهشة والخجل.. كرر عبد البر ما فعله معي كل ليلة طوال الأسبوع الذي قضيناه في الإسكندرية ثم عُدنا إلى القاهرة، وفي اليوم التالي جاءت أمي وأبلة عائشة لزيارتي، ما إن فتحتُ الباب ورأيتهما حتى احتضنتهما بشوق، أجهشتْ أمي بالبكاء وقالت:

ـ مش مصدقة إني أزورك في بيتك يا صالحة، الله يرحمك يا عبد العزيز، كان نفسي تشوف بنتك عروسة.

احتضنتها وقَبَّلتها ورحت أواسيها حتى هدأت، أمي وأبلة عائشة أحضرتا لي طعاما يكفي لأسبوع كامل.. بطة محشوة بالبصل وحمام محشو بالفريك وثلاث فرخات جاهزات على التحمير بخلاف حلة كبيرة من الأرز المعمر، بعد قليل خرج عبد البر من حجرتنا ورحّب

بأمي وأبلة عائشة ثم جلس معنا في الصالون، بدا ودودا ومهذبا كعادته، قمت لأصنع الشاي فلحقت بي أمي ومن خلفها أبلة عائشة في المطبخ، كانت أمي مرتبكة لكن عائشة ضحكت وقالت:

ـ إحنا جايين نطمئن عليكِ.. كله تمام؟

ـ الحمد لله.

هكذا قلت وأنا أضع البرَّاد على البوتاجاز، اقتربَتْ مني عائشة وقالت بصوت خافت:

ـ يعني الموضوع حصل؟

لم أرد، كنت أذوب خجلا، أشفقَتْ أمي عليَّ فجذبت عائشة من يدها وقالت:

ـ خلاص يا ولية، البنت مكسوفة.

ابتعدَتْ عائشة قليلا ثم رمقتني بنظرة متفحصة وقالت:

ـ يعني أنت مبسوطة؟

ـ مبسوطة.

ـ يا ألف نهار أبيض.

ضحكتُ رغما عني فاحتضنتني وهمست بحنان:

ـ عاوزاني أساعدك في حاجة.

أحسست في تلك اللحظة أنني أحب أبلة عائشة، مهما كانت عيوبها فهي (على خلاف ابنتها فايقة) تتمتع بشهامة حقيقية، يوما بعد يوم بدأت آلف حياتي الجديدة، كان إحساسي بأنني سيدة بيتي يسعدني، بيتي مملكتي أنظمها كما أريد، كنت أستيقظ في الضحى فأستحم وأتزين

وأعد لزوجي الإفطار.. عبد البر يحتاج إلى عدد ساعات نوم أطول مني، لا يستيقظ قبل الظهر مهما تكن الظروف.. يأكل إفطارا ساخنا؛ فول مدمس وطعمية وبيض أومليت، ثم يأخذ حَمَّاما وينزل إلى عمله فلا أراه بعد ذلك إلا بعد منتصف الليل.. عندما يعود إلى البيت يجدني في كامل زينتي وقد أعددت له ما كان يفترض أنه الغداء.. احتجت إلى بعض الوقت حتى أتعود على تغيير نظامي اليومي، كنت معتادة على النوم مبكرا، كثيرا ما اضطررت إلى شرب فنجان كبير من القهوة حتى لا أنام وأنا أنتظر زوجي، لم تتغير طباع عبد البر بعد الزواج، ظل كريما وطيبا كما كان أيام الخطوبة، كانت حياتي مع عبد البر مُرْضية، لم يكن لديَّ ما أشكو منه، مضت الأيام متشابهة هادئة تكاد تكون سعيدة، شيء واحد عكر الصفو، شيء خجلت من التفكير فيه، تجاهلته وحاولت نسيانه لكنه ظل يؤرقني، يوخزني بطرف مدبب، لقائي الليلي مع عبد البر كان يتكرر بنفس الطريقة؛ يجلس عبد البر على حافة الفراش وهو عار تماما ثم يطلب مني أن أخلع قميص النوم أمامه، حاولت في البداية أن أعترض لكنه تطلع إليَّ بنظرة قوية وقال:

ـ اسمعي كلام زوجك، اقلعي.

كنت أذعن لأمره وأنا أتحاشى النظر إليه، يظل يتفحص جسدي العاري وأنا أكاد أموت من الخجل، بعد قليل يبدأ في تقبيلي ثم يطرحني على ظهري ويحتضنني بقوة ويظل يتحرك فوقي حتى أحس ببلله على جسدي، عندئذ ينهض إلى الحَمَّام ويعود، يطبع قُبْلة سريعة على خدي ويعطيني ظهره ويروح في نوم عميق، كنت دائما أنتظر حتى ينام وأدخل إلى الحَمَّام، بينما أنا تحت الدش الساخن كنت أسترجع ما فعلناه معا فأحس بمهانة غريبة.. كأنني تعرضت لاعتداء ما، كثيرا ما كنت أبكي

بصوت خافت حتى لا يسمعني عبد البر، لم أكن أدرك سبب بكائي، هل لأنه يجبرني على خلع ملابسي؟ هل لأنه يرتمي فوقي بعنف وهو صامت تماما؟ ألا يفترض أن يقول لي أحبك أو حتى ينطق بكلمة رقيقة؟ كنت واثقة أن ما نفعله في الفراش غير طبيعي.. لم يحدث بيننا شيء مما شرحَتْه لي أبلة عائشة.. لاحظت أن عبد البر يصحو في الصباح متوترا، يتفادى النظر إليَّ ويكلمني باقتضاب ثم نتناول الإفطار معا ونتكلم فيعود شيئا فشيئا إلى طبيعته.. مع الأيام تكشفت الحقيقة: إنني قطعا أعاني من عيب ما.. المؤكد أنني عاجزة عن إرضاء زوجي في الفراش، لا شك أنه يتحملني على مضض، لا يريد أن يحرجني، سيطر عليَّ الإحساس بالذنب وحاولت أن أتودد أكثر لعبد البر، أتفنن في إعداد الطعام، أتظاهر بالمرح وأحاول أن أدفعه للضحك بأية طريقة، كأنني أريد أن أعوضه عن العيب الذي اكتشفه فيَّ، أثناء النهار كنت أنجح في النسيان لكن الليل يأتي دائما ليذكرني بالمحنة، بعد عدة أسابيع لم أعد أتحمل.. كان لا بد أن أفعل شيئا.. استأذنت من عبد البر لكي أزور أمي.. اجتاحتني مشاعر قوية وأنا أصعد درجات السلم، اكتشفت كم أفتقد بيتنا.. تراءت لي كل الذكريات الجميلة، بدلا من أن أدخل شقتنا طرقت باب أبلة عائشة، استقبلتني بحفاوة، احتضنتني وقَبَّلتني ثم أجلستني بجوارها على الأريكة، أحست بحالتي فتطلعت إليَّ وسألتني بقلق:

ـ ما لك يا روح قلبي؟

لم أتحمل حنانها وصعبت عليَّ نفسي فبكيت، أخذتني أبلة عائشة في حضنها وراحت تهدئني، نهضَتْ وعملت لي كوبا من الليمون، لما سألتني من جديد أجبت بصوت خافت:

ـ عندي مشكلة مع عبد البر.

ـ خير، كفى الله الشر؟

حكيت لها ما يحدث بيننا في الفراش، اتسعت عيناها في انزعاج.. سألتني عن التفاصيل الدقيقة، أجبت وأنا مطرقة، لم أقو على النظر إليها، في النهاية تنهدت أبلة عائشة وقالت:

ـ يا حبيبتي يا بنتي.

ـ إيه المشكلة يا أبلة؟

ـ زوجك عبد البر ضعيف.

ـ ضعيف؟

ـ معلوم.. فيه رجال يكون عندهم رهبة من ليلة الزفاف، يفشلوا أول مرة من الخوف لكن بعد يوم أو يومين يبقوا طبيعيين، إنما عبد البر بقى له أكثر من شهرين، يبقى ضعيف.

ـ طيب ما يمكن أكون أنا السبب.

خبطت أبلة عائشة على صدرها وشهقت وقالت:

ـ فشر.. أنت زي القمر يا صالحة، يا حبيبتي أنت فرسة بيضاء وهو تعبان مش عارف يركبك.

انزعجت من بذاءة التشبيه لكني في نفس الوقت أحسست براحة لأن أبلة عائشة برّأتني، إذن أنا غير مسئولة عن هذه المشكلة وليس هناك ما يعيبني كامرأة، أعادت عليَّ أبلة عائشة الطريقة الصحيحة للعلاقة الزوجية ثم تنهدت وقالت:

ـ عموما، لازم نعطي لزوجك فرصة، احتمال يتحسن، وأنت من ناحيتك ساعديه.

ـ أساعده كيف؟

ضحكت عائشة بخلاعة ولمعت عيناها واقتربت مني وراحت تهمس بنصائح فاضحة، الغريب أنني أنصت إليها، لم أحس بحرج؛ ربما لأني تعودت على طريقتها أو ربما لأنني قررت مساعدة عبد البر بكل طريقة حتى يجتاز مشكلته، اتفقت مع أبلة عائشة على أن نخفي الأمر عن أمي، لو أخبرناها سنزعجها بلا فائدة.. خرجت من عند عائشة وذهبت إلى أمي.. حاولت أن أبدو طبيعية تماما، عدت إلى بيتي بروح مختلفة، انتابني الحماس، كأنني عرفت واجبي وأتوق لأدائه أو كأنني استذكرت دروسي جيدا وأترقب الامتحان، عزمت على مساعدة زوجي كما علمتني أبلة عائشة، سأقاوم خجلي، سأفعل كل شيء من أجل إنجاح علاقتنا الزوجية، كما قالت أبلة عائشة: «في السرير بين الزوجين لا يوجد عيب ولا حرام».. مرت ليلتان بغير أن يطلبني عبد البر، في الليلة الثالثة، كالمعتاد، طلب مني أن أتعرى، خلعت ملابسي أمامه، احتضنني وجعلني أتمدد على السرير ونام فوقي وبدأ يُقَبّلني، قررت أن أتحرك بسرعة قبل أن نصل إلى النهاية المعتادة، بدأت في تنفيذ الخطة.. تزحزحت من تحته قليلا ودفعته برفق فنزل على جنبه ثم مددت يدي ورحت أتحسس نصفه الأسفل، أغمضت عيني ورحت أستعيد نصائح أبلة عائشة وأنفذها بيدي، فجأة، دفعني عبد البر بعنف حتى كدت أسقط على الأرض، انتفض مبتعدا عني وصاح بصوت غاضب:

ـ أنتِ بتعملي إيه؟

رددت بدون تفكير:

ـ بأحاول أساعدك.

قفز من الفراش ووقف في مواجهتي.. تقلصت عضلات وجهه كأنه

يعاني من ألم ما، لم أره من قبل غاضبا مثلما رأيته في تلك اللحظة، ظل يجوب الحجرة من أقصاها لأقصاها وهو عار ثم عاد وجلس أمامي على حافة السرير وقال وهو يلهث من الانفعال:

- أنا لا أصدق.

لم أرد، صاح في وجهي:

- صالحة، كيف تعملي شغل الموامس ده؟ هي دي تربيتك وأخلاقك؟

كنت قد غطيت جسدي العاري بالملاءة، ظللت صامتة، لم أرد.. كنت خائفة، بدا لي أن حياتي تتعقد أكثر وأكثر، ندمت بشدة على ما فعلته، لماذا أخبرت أبلة عائشة ولماذا نفذت نصيحتها بدون تفكير.. سألني عبد البر بصوت خافت:

- انطقي.. كيف تعلمتِ الحركات دي؟

- أبلة عائشة قالت لي عليها.

- مال عائشة وما لنا؟

- أنا سألتها.

- وتسأليها ليه؟

- كنت حاسة إن فيه مشكلة بيننا، قلت أبلة عائشة عندها خبرة، حكيت لها وهي نصحتني أساعدك.

نهض عبد البر من جديد وارتدى جلبابه على عجل ثم جلس إلى المقعد المواجه للنافذة.. ارتديت ثيابي ثم عُدت وجلست على الفراش، حتى تلك اللحظة كان لديَّ أمل في تدارك الموقف، سأعتذر له، سأؤكد له أنني عرفت خطئي ولن أكرره أبدا، قلت بصوت خافت:

- آسفة يا عبد البر ما كانش قصدي.

لم يرد، كان جالسا بظهره فلم يكن بإمكاني أن أرى تعبيرات وجهه، رأيته ينحني على المائدة، كان يعمل شيئا بيديه لم أتبينه.. ناديته، لم يلتفت إليَّ، قمت من مكاني وتقدمت ببطء حتى وقفت خلفه، استغرقت وقتا حتى يستوعب ذهني ما أراه، كان المشهد غريبا، رأيت على المائدة موس حلاقة مقطوع نصفين ومسحوقا أبيض ناعما مرصوصا على شكل خطوط، كان عبد البر منحنيا وهو يضع في أنفه ورقة ملفوفة مثل قمع رفيع، أحسست بهلع وصحت:

- أنت بتعمل إيه؟

لم يلتفت إليَّ، كأنه لم يسمعني، استنشق المسحوق مرتين ثم أسند ظهره إلى المقعد، ظل صامتا مغمض العينين يتنفس بصوت مسموع، نهض من مكانه ببطء واستدار نحوي، كانت عيناه محتقنتين ووجهه شاحبًا، لاحظت أنه يلهث ورأيت حبات العرق على وجهه، فجأة، أمسك بشعري وجذب رأسي بقوة، صرخت من الألم، صاح بصوت عالٍ:

- كيف تقولي لعائشة على أسرارنا؟

- أنا آسفة.

راح يصيح وهو يهز رأسي بعنف:

- عاوزه تفضحيني يا بنت الكلب.

- سامحني يا عبده.. آخر مرة.

كان شعري يؤلمني لكن ألمي النفسي كان أكبر، كنت مستعدة لتقبيل يده كي يعفو عني، رحت أتوسل إليه:

- خلاص يا عبده، والله العظيم آخر مرة.

- اخرسي.

لطمني بقبضته على وجهي، أحسست بدوخة وغثيان ولم أعد أرى بوضوح، خطر لي أن أهرب، ضربني مرة أخرى وركلني في بطني، أحسست بألم رهيب لكنني لم أصرخ، دفعني بيديه فوقعت على الفراش، ألقى بجسده عليَّ، ومد يديه بين فخذي وراح يباعد بينهما.. برغم المفاجأة والرعب إلا أنني شددت عضلات ساقي وضممتهما بقوة.. همس وهو يلهث:

- افتحي.

- حرام عليك.

راح يضغط بيديه عند أعلى فخذيّ ليباعدهما، فهمت أنه يريد أن يفض بكارتي بيده، قررت أن أقاوم.. كأنني ركزت كل طاقة جسدي في عضلات فخذيّ، كانت قوة عبد البر هائلة، كادت عضلاتي تتمزق من الألم ثم بدأت ساقاي تخونانى، أحسست بإنهاك وأدركت أنه سيتغلب عليَّ، أظلمت الدنيا في عيني وشعرت بجسدي يخذلني، فجأة، خطرت لي فكرة كأنها إلهام، عضضته في أعلى ذراعه، أكاد لا أصدق ما فعلته، رحت أعضه بقوة حتى أحسست بلحم ذراعه يكاد يتمزق بين أسناني، صرخ ثم ارتخت قبضته فقفزت هاربة.. تلقيت ضربة قوية على ظهري وأنا أركض، قبل أن أخرج من الحجرة دفعت المقعد بيدي فانقلب على الأرض وجذبت بيدي باب الحجرة فانغلق خلفي، تعطل عبد البر عن مطاردتي لحظات كانت كافية لأن أصل إلى باب الشقة، انطلقت أركض بكل قوتي حتى وصلت إلى الشارع.. كانت الساعة الثانية صباحا.. تطلع إليَّ المارة القليلون بفضول، أدركت أن عبد البر انقطع عن مطاردتي،

وبرغم ذلك، من فرط الرعب، ظللت أعدو حتى وصلت إلى بيتنا، تذكرت أنني نسيت المفتاح، ضغطت الجرس بشكل متواصل، فتحت لي أمي بوجه منزعج، ارتميت في حضنها فقالت:

- يا ساتر يا رب، فيه إيه يا صالحة؟! اللهم اجعله خير.

(٣١)

شرب محمود زجاجة كاملة من النبيذ الأحمر والتهم نصف دجاجة مشوية، عندما فرغ ابتسمت داجمار وسألَتْه:

ـ شبعت يا محمود؟

سكت محمود ثم هز رأسه نافيا بحرج، قامت داجمار وعادت بنصف دجاجة آخر التهمه في دقائق معدودة، ظلت داجمار صامتة وفهم محمود أنه قد وصل إلى الحد الأقصى للطعام، نهض واجتاز الردهة إلى الحَمَّام فوجده أنيقا متسعا يغلب عليه اللون الفيروزي الجميل.. غسل وجهه ويديه وعاد إلى الصالة، كانت داجمار ترتدي قميص نوم فاضحا كشف عن جسدها الناشف الضامر وجلدها المتهدل المغطى بنمش الشيخوخة وبالإضافة إلى ثديين رمزيين يثيران الرثاء، تزحزحت على الأريكة لتلتصق به لكنه أشار بيده كأنما يوقفها وقال:

ـ من فضلك، عندك ويسكي؟

بان الانزعاج على وجهها وسألت:

ـ تحب أعمل لك كأس.

ـ هاتي الزجاجة أحسن.

كادت تعترض هذه المرة لكن فكرة ما عبرت وجهها جعلتها

تنهض وتعود بزجاجة ريد لابل وإناء مليء بمكعبات الثلج، تنحنحت وقالت:

ـ عارف يا محمود، غلط الواحد يشرب ويسكي كثير.

هز محمود رأسه متفهما لكنه صب لنفسه كأسا كبيرة بدون ثلج تجرعها بسرعة، أغمض عينيه وهو يحس باللذوعة تكاد تحرق حنجرته.. ثم ابتسم وقال:

ـ آسف يا مدام، من فضلك اصبري عليَّ شوية.

لم ترد داجمار، ظلت تتطلع إليه وقد بدت في ماكياجها الثقيل كأنها ممثلة عجوز بائسة في مسرح متجول، صب محمود لنفسه كأسا كبيرة ثانيا وشربها بنفس الطريقة ثم عاد بظهره في المقعد وتنفس بعمق، عندئذ عاودت داجمار المحاولة وتزحزحت لتلتصق به، لكنه مد يده بجسارة ومنع تقدمها، دمدمت داجمار بكلمات ألمانية لم يفهمها وأشاحت بوجهها وقد بدا عليها الضيق، ظل محمود جالسا وقد مد قدميه وغاص في الأريكة، مرت دقائق من الصمت، أحس بالحرارة تتصاعد إلى رأسه وزفر بقوة وتأكد في تلك اللحظة أنه قادر على إنجاز المهمة، التفت إلى داجمار وفتح ذراعيه فألقت بنفسها في حضنه، في الظروف العادية يستحيل أن تثير داجمار شهوته، لكن الخمر حملته على جناحها الأحمر الصاخب وحلقت به فوق السحاب فلم يعد يميز التفاصيل.. أحاط داجمار بذراعيه القويتين ثم بدأ في تقبيلها ببطء كما عَلَّمته روزا، كان وهو يلمس بشفتيه الغليظتين جسدها لا يفكر في أي شيء، استمر في التقبيل على مهل منتقلا من مكان إلى آخر حتى أحس بجسدها يتقلص ثم ينتفض من فرط الشبق، بدأت داجمار تشهق بصوت مسموع.. عندئذ رفعها محمود بين ذراعيه وحملها على كتفه، كانت خفيفة كاللعبة،

دخل بها إلى حجرة النوم وألقى بها على الفراش فندت عنها صيحة، خلع محمود ثيابه بسرعة حتى صار عاريا تماما ثم انقض عليها.. كان أداء محمود الجنسي مع داجمار عمليا تماما، خطوات محددة متتابعة كأنه يؤدي رقصة أو تمرينا رياضيا، حتى ذلك الإحساس بالألفة، تلك المودة التي يحس بها مع روزا غابت تماما مع داجمار، ما الذي يمكن أن يجمعه بهذه الألمانية العجوز العجفاء الكئيبة، إن ما يجمعهما الآن على رأي فوزي علاقة عمل لا أكثر ولا أقل، تعامل محمود مع جسد داجمار كأنه يستعمل ماكينة، يعرف قواعد تشغيلها ويدير مفاتيحها بطريقة صحيحة وفعالة.. اخترق محمود داجمار بعنف وراحت هي تصرخ بشدة وتصيح بكلمات ألمانية بينما وجهها المضطرم تتناوب عليه تعبيرات متضاربة من الفرح والدهشة وعدم التصديق والقنوط والنهم الوحشي لامتصاص لذة خارقة لم تتوفر لها من سنوات، حلقت السيدة داجمار في سماوات اللذة عدة مرات ثم همدت وأغمضت عينيها وبينما هي غارقة في الإغماءة التي تعقب الحب نهض محمود إلى الحَمَّام، وقف تحت المياه الساخنة ودعك جسده بعناية كأنما يريد أن يزيل آثار ما حدث، ارتدى ثيابه وعاد إلى الصالة فوجدها هناك تنتظره وقد ارتدت روبا حريريا أزرق، وبدا وجهها ناعما منتعشا، احتضنته وهمست:

ـ محمود.. لازم تزورني دائما.

ـ أنا عاوز فلوس.

نطق الجملة بسهولة أدهشته، كانت تلك نصيحة فوزي وقد قضى النهار مترددا في تنفيذها لكنه فجأة قالها وسرعان ما أحس بحرج وضيق، تطلعت إليه داجمار بابتسامة ممتنة كأنها تقول: «بعد كل ما فعلته معي أنت تستحق».. دخلت إلى الحجرة وعادت بجنيه وضعه محمود في

جيبه وشكرها بصوت خافت، تبعته إلى باب الخروج وطبعت قُبْلة على خده وقالت بنبرة عملية:

ـ تقدر تيجي إمتى؟

ـ يوم السبت.

كان ذلك اليوم الذي تلتقي به روزا بصديقاتها في الترف كلوب.. تكررت زياراته لداجمار، لم يكن يستطيع أن يلمسها قبل أن يسكر إلى درجة تنمحي فيها التفاصيل وتغيم الرؤية، بعد أن يفرغ كان يسأل نفسه كيف استطاع أن يضاجع هذه العجوز العجفاء، لكنه مرة بعد أخرى اعتادها كما يعتاد الإنسان أي شيء، بناء على نصيحة فوزي كان يبيع الحب أربعة أيام فقط كل أسبوع؛ ليلتان مع داجمار وليلتان مع روزا، وبقية الأيام كان ينتهي من عمله ويعود إلى البيت ليأكل ويستغرق في نوم عميق إذا كان متعبا أو يسهر مع فوزي على السطح يدخنان الحشيش.

على عكس الصداقة التي تجمعه بروزا كانت علاقة محمود بداجمار عملية تماما، منفعة متبادلة، بيع وشراء، المتعة مقابل المال، كانت داجمار تعامله كأنه إخصائي مساج أو مدرب تنس، تطلب منه ما تريده مباشرة بلا حرج، كأنها تقول: أنت تأخذ حقك كاملا وبالمقابل يجب أن تقدم خدمة مميزة. أثناء المضاجعة كانت تطلب منه أشياء معينة بنبرة هامسة لكنها قاطعة، كأنها تأمره، بعد أن يفرغ وينهض إلى الحَمَّام كثيرا ما كانت تستدعيه، تقول بنبرة عادية:

ـ خذ حَمَّام وارجع.. أنا عاوزاك مرة كمان.

كان تعاملها المباشر يعفيه من اصطناع العواطف، لكنه في نفس الوقت يهينه على نحو ما، كما أنه في غير أوقات المضاجعة كان ينفر

منها.. كان يُقَبّل داجمار ويعبث في كل أنحاء جسدها ويحملها بين ذراعيه ويطرحها على الفراش ويخترقها بلا هوادة، لكنه ما إن يفرغ من الجنس ويأخذ حَمَّاما ويرتدي ثيابه حتى تتحول بالنسبة إليه إلى سيدة غريبة يعاملها بحرج وتكلف.. كان يتساءل: لماذا يعتبر روزا قريبة منه ولا يخجل منها؟ بينما في كل مرة يطلب من داجمار شيئا يرتبك ويعتذر؟ عندما يطلب الطعام مثلا كان يقول:

ـ مدام داجمار، آسف لإزعاجك لكني جعان.

عندئذ تهز داجمار رأسها متفهمة وتبدو أشبه بصاحب عمل قرر أن يمنح مرءوسه مكافأة يستحقها، تدخل إلى المطبخ ثم تعود بصينية الطعام، كانت كميات الأكل عند داجمار أقل بكثير منها عند روزا التي تُغدق على محمود أصنافا عديدة من الأكل الساخن الشهي، داجمار كانت تقدم عشاء محسوبا بدقة: نصف دجاجة مع طبق صغير من الأرز أو قطعة محدودة من مكرونه الفرن (يلتهمها محمود على قضمتين)، كانت داجمار ممسكة، تحسب كل شيء بدقة، تقدم أكلا قليلا وإذا أراد محمود المزيد كان عليه أن يطلب، لا ترفض داجمار أبدا لكنها عندما تقوم لتحضر الطلب الإضافي يبدو على وجهها تعبير عابس قريب من الضيق، لاحظ محمود بالتجربة أنها بعد الغرام تكون ألطف وأكثر استعدادًا للعطاء، صار يتحمل عبوسها وكلماتها المقتضبة ودمدماتها بالألمانية حتى يضاجعها، وفي لحظات الصفاء التي تعقب الحب كان يطلب ما يريده منها، انتظم محمود في جدول الغرام وظل يعطي مُرتبه من النادي بالكامل إلى أمه ويقتسم مع فوزي ما يكسبه من روزا وداجمار، كان يؤمن أنه مال حرام لو أنفقه على أمه وإخوته ستصيبهم اللعنة، عندما أفصح عن هواجسه لفوزي قال ببساطة:

ـ خلاص لو المال ده حرام نصرفه على الحشيش والنسوان، يبقى الحرام راح في الحرام.

ارتاح محمود لهذا التفسير، عندما ينسى هواجسه الدينية كانت حياته تبدو مقبولة بل مستقرة وسعيدة كما أن غزواته الجنسية قد غيرت من نظرته إلى النساء، لم يعد جمالهن يبعث فيه الرهبة، كأنه لما هتك أسرار المرأة فقدت غموضها الفاتن، كأنه قام بتشريح الوردة فلم يعد يرى جمالها وإنما مكوناتها، إنه الآن يتأمل المرأة كما يتفحص السائق السيارة ليكتشف مزاياها وعيوبها وهو واثق أنه، مهما اختلف النوع والطراز، سيظل قادرا على قيادتها، كأنما اجتاز محمود الزخارف ونفذ إلى الجوهر، مهما كانت المرأة جميلة أو أنيقة أو مترفعة أو حتى مغرورة، ما إن يراها محمود حتى يتخيل كيف ستنتهي في الفراش، يرى نفسه وهو يداعب مناطقها الحميمة حتى تنفتح الوردة ويسيل عسلها فيخترقها بقوة حتى تجن من اللذة.. بالرغم من تهذيبه، صار محمود يعامل النساء جميعا (باستثناء أمه وأخته وروزا) بنوع مستتر من الاستهانة، بات يتحدث معهن باستخفاف ما ويتابع أحاديثهن بنظرة مستريبة قريبة من التهكم كأنه يستمع إلى طفل يهرف بحماقات، كأنه يقول للمرأة التي أمامه: «لا تتظاهري بالانشغال بهذا الموضوع أو ذاك، لا تصطنعي أمامي الدلال والغموض، لن تخدعيني فأنا أعرف كيف أنك في لحظة ما ستتركين كل شيء وتتهافتين على اللذة مثل بقية النساء».

كانت ليلة أمس عطلة من الحب، انتهى محمود من العمل في الثانية صباحا ومر على صديقه فوزي السهران فوق السطح، راحا يشربان الشاي بالنعناع اللذيذ بينما انهمك فوزي في إعداد سيجارتي حشيش، أعطى واحدة لمحمود وأشعل واحدة.. دخن محمود السيجارة ثم استند بيده على سور السطح وقال بصوت خافت كأنما يُحدث نفسه:

ـ تصدق إن النسوان غلابة.

ـ اشمعنى؟

ـ أنا اكتشفت أن الست بتهيج زي الرجل تمام، لو ما عملتش جنس أعصابها تتعب.

هز فوزي رأسه وقال بلهجة العارف ببواطن الأمور:

ـ طبعا يا بني الست لو ما شبعتش في السرير تعمل مائة مشكلة.. طول ما هي بنت بنوت تعرف تمسك نفسها إنما أول ما تذوق الجنس مستحيل تنساه.

ـ يعني المفروض روزا وداجمار يعملوا لي تمثال.

أطلق فوزي ضحكة عالية وقال وهو يناوله سيجارة أخرى:

ـ الله أكبر، دماغك عليت يا معلم محمود وابتديت تفهم.

دخن محمود السيجارة الثانية وبدا أن تأثير الحشيش قد ثقل عليه فأطرق صامتا، تطلع فوزي إلى محمود وقال:

ـ أنت عارف إن العيد الكبير بعد أسبوع، يلّا ورينا شطارتك.

ـ كيف؟

ـ ده عيد كبير يعني موسم، لازم روزا وداجمار كل واحدة تجيب لك هدية.

ـ مستحيل أطلب هدايا من أي حد.

قال فوزي بلهجة حنون كأنما يحايل طفلا:

ـ يا محمود يا حبيبي.. ما حدش قالك تطلب هدايا، أنت تلمح للواحدة من بعيد وهي لازم تحس على دمها وتجيب لك هدية.

ـ طيب ولو ما جابتش هدية؟

ـ تلمح تاني بطريقة أوضح، تقول مثلا: أنا محتاج جاكيت جلد ونفسي أجيبه قبل العيد.

ـ مستحيل أقول الكلام ده.

ـ طول عمرك فقري.

راح فوزي يسخر من محمود الذي تبادل معه شتائم مداعبة، وفي النهاية انتقلا إلى موضوعات أخرى وانصرف محمود قبيل أذان الفجر، وكالعادة في اليوم التالي وجد نفسه ينفذ فكرة فوزي مع روزا ثم مع داجمار.. استجابت روزا فورا، قَبَّلته على خده ودخلت إلى حجرتها وعادت وناولته جنيهين وقالت:

ـ خذ يا محمود العيدية.

داجمار على العكس، تطلعت إليه بنظرة باردة مستريبة وقالت:

ـ أنت عاوز حاجة؟

كانت قدرته على الوقاحة تتلاشى عادة بعد الجملة الأولى، تمتم بخجل:

ـ لا شكرا.

ثم ودعها وانصرف، في الزيارة التالية قابلته داجمار بنفس النظرة المنضبطة الجادة ثم منحته قميصا أبيض جديدا كهدية، علق فوزي قائلا وهو يتفحص القميص:

ـ القميص ده رخيص، داجمار دي بخيلة على عكس روزا النزيهة.

تدفق المال على الصديقين وظهرت عليهما آثار الرخاء: بِدَل جديدة أنيقة فاخرة وعلب سجائر لاكي سترايك وولاعات رونسون ونظارات شمس بيرسول، صارا لا يحملان هَمًّا لمصروفات الفُسح ولم يعودا مضطرين إلى التسكع أمام مدارس البنات ليصطادا بنتين ثم يصطحبانهما إلى المقاعد الأخيرة للسينما ليختلسا منهما بعض القُبَل.. انتقلا من لهو التلاميذ إلى مُتع الرجال، راحا يترددان على بيت سري في العتبة اكتشفه فوزي وساوم القوادة باستماتة حتى وصل إلى سعر ربع جنيه للفتاة، كان فوزي كل مرة يتبادل حديثا وديا مع القوادة البدينة ويلقي إليها بنصف الجنيه ثم يدخلان إلى الصالة الفسيحة ليختار كل واحد فيهما الفتاة التي تعجبه، كان فوزي يجرب كل مرة فتاة جديدة على عكس محمود الذي كان معجبا بفتاة واحدة اسمها نوال من الإسكندرية، كانت نحيلة جميلة شعرها ناعم منسدل على كتفيها، وعيناها سوداون حزينتان، عندما يدخل محمود معها إلى الحجرة تخلع الروب الأحمر وتستلقي عارية فيتأملها قليلا ثم يقترب منها ويهمس:

ـ إزيك يا نوال، وحشتيني.

في كل مرة يضاجعها، مستعملا خبرته النارية وقدرته الفائقةكان يحس نحوها بشعور مختلف عن ذلك الذي ينتابه مع عشيقتيه، بعد أن يفرغ كان يحتضنها ويحس بأنفاسها الدافئة على وجهه، كانت هي تتحسس ظهره وكتفيه العريضين وتُقَبّله برقة على رقبته، مرة سألها:

ـ أنتِ بنت حلال يا نوال، مَن رماكِ الرمية دي؟

ـ قسمتي.

هكذا همست باقتضاب فأحس أنها لا تفضل الحديث في هذا

الموضوع، بعد عدة لقاءات لمحمود مع نوال وجد فوزي من واجبه أن يتدخل فقال لصديقه وهما يتسامران فوق السطح:

ـ أنا ملاحظ إنك تعلقت بالبنت نوال.

دمدم محمود قائلا:

ـ بنت طيبة.

ـ طيبة ولا مجرمة.. أنت بتدفع عشان مزاجك، لازم تجرب بنت والتانية لغاية لما تزهق منهم كلهم نروح لبيت تاني.

أطرق محمود وكأنه مذنب وقال فوزي بلهجة أبوية:

ـ إوعى يا محمود رِجلك تقع مع البنت نوال وتحبها، تبقى مصيبة، دي مومس بتنام مع طوب الأرض.

تقلص وجه محمود وبدا كأنه تألم من الوصف، وفي الأسبوع التالي دعاه فوزي إلى بيت سرّي جديد في العباسية، بان التردد على محمود لكن فوزي قال بنبرة حاسمة:

ـ يا محمود ما يفل الحديد إلا الحديد، لا يمكن تنسى نوال إلا لو عرفت واحدة أحلى منها.

مهما حدث للصديقين ومهما تعاقبت عليهما الأحداث سيظل محمود ممتنا لصديقه فوزي الذي يحبه ويخاف عليه ويحميه من الشر قبل وقوعه، مع تدفق الأموال اقترح فوزي على محمود أن يبدأ في ادخار مبلغ شهري حتى يجتمع لهما ثمن لمبريتا (دراجة بخارية إيطالية).. سأله محمود ببراءة:

ـ نعمل إيه باللمبريتا؟

ـ نتفسح بها طبعا.

ـ من فينا اللي حيركبها؟

ـ أنت تقضي مشاويرك باللمبريتا وبعدين تسيبها لي، ولما نخرج مع بعض واحد يسوقها والثاني يمسك في ظهره.

ـ ينفع نركبها إحنا الاثنين مع بعض؟

تنهد فوزي وقال ليثبت الفكرة:

ـ طبعا ينفع، يا سلام يا محمود وأنت طاير على اللمبريتا، دنيا ثانية يا معلم.

بدأ الصديقان في الادخار، وبعد شهرين فقط استطاعا أن يوفرا المقدم، ذهبا إلى محل الدراجات البخارية في شارع فؤاد وأقنع فوزي محمود بالتوقيع على كمبيالات بالأقساط على مدى عام.. نصف جنيه كل شهر، بعد ذلك تم تسجيل اللمبريتا باسم فوزي، خرج الصديقان من إدارة المرور وقد اكتسبت اللمبريتا رقما معلقا في مؤخرتها على لوحة بيضاء، كان محمود يحس بالسعادة عندما يجلس خلف فوزي فوق اللمبريتا، أما المتعة الكبرى لمحمود فكانت حين يقود اللمبريتا بنفسه فيندفع الهواء بقوة على وجهه وصدره.. كان يحس عندئذ أنه ارتقى إلى مجال أعلى.. أنه دخل إلى عالم مترف أنيق لم يكن يتخيل وجوده، كانت فترة وردية من حياة محمود لكن الأحداث سرعان ما اندفعت في اتجاه غير متوقع، تلك الليلة، ذهب محمود إلى روزا حسب الموعد، ومنذ اللحظة الأولى، أحس بشيء غير طبيعي، لم تهلل روزا مُرحّبة ولم تحتضنه وتُقَبّله كالمعتاد، لكنها وقفت بعيدا وبدت على وجهها ابتسامة غريبة ثم قالت بنبرة جادة:

ـ اقعد عاوزاك في موضوع.

ارتبك محمود وجلس على الأريكة، قالت روزا:

ـ أنت بتحبني يا محمود؟

في العادة كان يضيق بهذا السؤال ويماطل في الإجابة، لكنه في تلك اللحظة هز رأسه وتمتم مؤكدا:

ـ طبعا.

فجأة، تقلص وجه روزا وصرخت:

ـ أنت كذاب يا محمود.

بُهت محمود واستطردت روزا بصوت عالٍ:

ـ إزاي تكون بتحبني وأنت بتخوني؟

ـ ما حصلش.

هكذا هتف محمود ثم زم شفتيه الغليظتين وقطب جبينه وبدا كأنه طفل متهم يسعى لإثبات براءته، نهضت روزا وتقدمت خطوات حتى صارت في مواجهته وقالت:

ـ أنت عملت علاقة مع داجمار.. أنا عرفت كل حاجة.

عندما نطقت اسم داجمار فقدت سيطرتها على مشاعرها فأمسكت محمود بيديها من القميص وراحت تشده وتصيح:

ـ إذا كنت تحبها لماذا تأتي إليَّ.. انطق؟

استغرق محمود لحظات حتى استوعب ما يحدث ثم تملكه الغضب فدفع يديها بقوة جعلتها تترنح، نهض واقفا وتفحص موقع يديها على

القميص ليرى مدى الضرر الذي لحق به، تلك اللحظة سيطرت عليه فكرة واحدة؛ أنه محمود همام على سن ورمح، بطل كمال أجسام ومعروف في حي السيدة زينب كله بشجاعته وشهامته، كيف تزعق فيه هذه المرأة وتمد يدها عليه.. كادت روزا تقول شيئا لكن محمود صاح بصوت أجش:

ـ بصي يا روزا.. أنتِ مالكيش زعيق عليَّ، ما ينفعش تشديني من القميص، فاهمة ولا لأ؟

ـ أنت خنتني يا محمود.

هكذا قالت بصوت محشرج كأنما تستدر عطفه على نحو ما لكنه قال بنبرة تحدٍّ:

ـ أنا حر أعمل ما بدا لي.

تطلعت إليه وبدأت تبكي بدون صوت، نهض محمود وتوجّه إلى باب الشقة وعندما وضع يده على المقبض جاءه صوتها مضطرما:

ـ محمود، استنى من فضلك.

لم يلتفت إليها، خرج وأغلق الباب خلفه بعنف.

(٣٢)

تناقل الخدم الخبر بانفعال، كانت همساتهم مُحملة بالشك والحيرة وفرحة مكتومة لا يريدون الإفصاح عنها حتى يتأكدوا.. هرعوا إلى أعضاء الوفد: عبدون وسماحي وبحر البارمان، سألوهم:

ـ الكوو منع الضرب فعلا؟

ردوا قائلين:

ـ الكوو وعدنا أنه لن يُضرب أحد من اليوم، لو حد غلط يعاقبه بالخصم.

ظل الخدم مشدوهين لحظات ثم انهمرت الأسئلة:

ـ كيف وافق الكوو بهذه البساطة؟ ماذا قلتم للكوو بالضبط وماذا قال لكم؟

لم يكن عبدون وزميلاه يملكون إجابات شافية بل إن دهشتهم من استجابة الكوو الفورية لم تكن أقل من دهشة زملائهم، لم يستغرق حوارهم مع الكوو إلا بضع دقائق.. اضطربوا وتلعثموا ثم تغلبوا على خوفهم وطلبوا منه أن يمنع الضرب ففاجأهم ووافق.. لم يكن لديهم الكثير ليحكوه لزملائهم الذين راحوا مرة بعد أخرى يستنطقونهم ليعرفوا تفاصيل إضافية ولكن عبثا، ظل ما حدث خبرا مقتضبا من

بضع كلمات، عندئذ بدأ بعض الخدم يختلقون تفاصيل من خيالهم ويرددونها بحماس:

ـ الكوو قال لعبدون أنتم كلكم أولادي وطالما الضرب بيضايقكم، خلاص، أنا أمنع الضرب.

كانت صورة الكوو الرقيقة التي اختلقها بعض الخدم لتُفسر ما حدث تبعث فيهم الثقة، ترد لهم الاعتبار، أحسوا لأول مرة بأنهم ليسوا أدوات خدمة في يد الكوو يستعملهم ويرميهم وقتما شاء، بل هم موظفون محترمون في النادي، عليهم واجبات ولهم حقوق، ليس بمقدور أحد أن يضربهم أو يهينهم، إذا أخطئوا فهناك تحقيق وعقوبات إدارية.

غالبية الخدم لم تقبل هذا التفسير ولم تصدق حكاية الكوو الطيب، هؤلاء بالرغم من إحساسهم بالارتياح لمنع الضرب إلا أن الهواجس تملكتهم فأفسدت فرحتهم، خمسة أو ستة أشخاص بين الخدم تعاطفوا مع عبدون وزميليه من البداية فلما نجح الوفد في مهمته تشجعوا وأعلنوا تأييدهم.. في المقهى كان الجدل لا ينقطع بين المؤيدين والمشككين.. يقول أحدهم:

ـ لا يمكن أصدق إن الكوو بقى طيب فجأة.

يرد آخر:

ـ هو إحنا مش بشر ولنا كرامة؟!

ـ يعني الكوو اكتشف كرامتنا بالأمس فقط؟!

ـ الغلطة غلطتنا، إحنا اللي سكتنا له وقبلنا الإهانة، لما طالبنا بحقوقنا اضطر يستجيب.

ـ يعني الكوو بيخاف مننا؟!

ـ الكوو محتاج لنا كما نحتاج له، ولو توحدنا لا يمكن يقدر علينا.

ـ هذه أوهام عبدون، الكوو يقدر علينا وعلى أهلنا.

ـ أنت جبان تعودت على الضعف.

ـ ها الله ها الله.. كلكم بقيتم أبطال؟! عبدون غسل دماغكم.

ـ عبدون جاب حقنا.

ـ هو عمل معجزة؟ أي واحد فينا يقدر يشتكي للكوو.

ـ ولماذا لم تشتكوا من قبل؟! لماذا تحملتم الضرب سنوات ولم تفتحوا أفواهكم بكلمة؟

ـ عبدون ده معتوه ونحس وجلَّاب مصائب، بكره تشوفوا.

هكذا يتبادل الخدم كلمات حادة واتهامات، ويكادون يشتبكون بالأيدي لولا تدخل العقلاء، هذه المناوشات، على ضراوتها، اكتسبت يوما بعد يوم طابعا فلكلوريا على نحو ما، تحولت إلى مبارزات كلامية يعلم كل من يخوضها أنها لن تفضي إلى نتيجة.. أما رؤساء الخدم فقد انزعجوا بشدة، الشيف ركابي لما أخبره سماحي، أطلق شخرة طويلة وقال:

ـ الكوو يبطل يضربكم؟ حلوة دي، أنت مسطول يا ولد يا سماحي؟

رد سماحي بصوت قوي:

ـ أنا مش مسطول يا عم ركابي، مش عاوز تصدق ما تصدقش.

كانت هذه الطريقة في الحديث مع الشيف ركابي في حد ذاتها تستأهل العقاب لكن الشيف ركابي سيطر على غضبه واتجه إلى

الحوض، غسل يديه ووجهه بالماء الساخن ثم أعطى تعليمات لمساعديه وانطلق بسرعة إلى المطعم الذي كان خاليا لم يزل من الزبائن، هناك وجد المتر شاكر جالسا يحتسي الشاي.. حياه بسرعة وجلس بجواره وحكى له ما حدث، لم يصدق المتر شاكر في البداية ولما تأكد ذهبا معا إلى يوسف طربوش الذي ما إن عرف حتى استغفر الله وهز رأسه أسفا ثم تساءل مستنكرا:

ـ كيف الكوو يسمع كلام عيل زي عبدون؟ دي مهزلة والله.

انتظر الرؤساء الثلاثة حتى انتصف الليل ثم توجهوا إلى مكتب الكوو، لقيهم حميد بوجه عابس وعاملهم برفق وتفهُّم كأنه يعلم الغرض من زيارتهم ويؤيدهم في صمت.. دخلوا على الكوو فوجدوه هادئا يدخن سيجاره.. بادره المتر شاكر قائلا:

ـ يا جناب الكوو أنت تعلم مدى حبنا وإخلاصنا لك.

قال الكوو بعصبية:

ـ ادخل في الموضوع، ما عنديش وقت.

ارتبكوا لحظة ثم اندفع يوسف طربوش قائلا:

ـ سمعنا حكاية غريبة وجئنا نتأكد من سيادتك.

ـ ما سمعتموه صحيح، أنا ألغيت عقوبة الضرب.

هكذا رد الكوو وهو ينظر إليهم متحفزا، دمدموا معترضين، قال ركابي بنبرة خشنة:

ـ لو سيادتك منعت الضرب يبقى عليه العوض في الشغل.

وأيده المتر شاكر قائلا:

ـ العمال لا يمكن يشتغلوا جد إلا إذا انضربوا.

أما الحاج يوسف طربوش فقد أطرق قليلا ثم قال وهو يحرك بأصابعه حبات المسبحة:

ـ يا جناب الكوو مع احترامي، العمال لا يفهمون العقوبات الإدارية ولو ما انضربوش حيبلطجوا ويتنمردوا ومش حنعرف نسيطر عليهم.

انفعل ركابي فجأة وقال:

ـ يا جناب الكوو، بالطريقة دي العمال راح يهملوا في شغلهم وسيادتك ترجع تحاسبنا إحنا.

لاذوا بالصمت فجأة، كأنهم أدركوا أنهم جاوزوا حدودهم، نفث الكوو ثم نفث دفعة كبيرة من الدخان وقال:

ـ خلاص، المقابلة انتهت، ارجعوا على شغلكم.

تململوا قليلا لكن نظرة الكوو القوية المتحدية دفعتهم إلى الانصراف، عادوا من قصر عابدين إلى نادي السيارات وقد انتابهم إحباط سرعان ما تحول إلى حنق صريح على الكوو، لقد خذلهم، جردهم من قوتهم وتركهم في العراء، كيف يستطيعون بعد ذلك أن يسيطروا على مرءوسيهم؟! لم يعد هناك رادع، لم يعد هناك نظام ولا أصول، لقد ضاعت هيبتهم كرؤساء، سيتجرأ عليهم العمال ويهملون في أداء عملهم ويتطاولون إذا لامهم أحد، في الأيام التالية لما تأكد الرؤساء من إصرار الكوو على منع الضرب، كان لا بد لهم أن يغيروا من طريقتهم، المتر شاكر توقف عن توبيخ السفرجية وركابي قلل من شتائمه المعتادة لمساعديه، أما يوسف طربوش فلم يعد يتكلم مع أحد من العاملين في صالة القمار، صار الرؤساء الثلاثة يُلقون بتعليماتهم

بطريقة مقتضبة رسمية لا تترك فرصة للمناقشة أو التعقيب، صاروا يتفادون الاحتكاك بمرءوسيهم قدر الإمكان، كانوا يعلمون أن أية مواجهة معهم لن تنتهي في صالح الرؤساء، لو تطاول عامل عليهم لن يستطيعوا أن يعاقبوه بطريقة فعالة، إذا كان الكوو لن يأمر بضربهم فلا شيء سيردعهم، تجنب الرؤساء مواجهة الخدم لكنهم في نفس الوقت شددوا من مراقبتهم، تربصوا بهم، كانوا يتوقعون (ويتمنون في أعماقهم) أن تتوالى أخطاء جسيمة ويسود الإهمال والتسيب فيضطرب سير العمل في النادي، عندئذ سيذهبون إلى الكوو ويضعون أمامه الحالة المتدهورة ثم يقولون:

ـ ألم نقل لك يا جناب الكوو إن العمال سيفسدون إذا لم يعاقَبوا بالضرب؟ ها أنت ترى بنفسك.

على أن ما حدث خالف توقع الرؤساء فقد اجتهد الخدم في العمل، تحسن أداؤهم لدرجة أنه لم يعد لدى الرؤساء ما يقولونه.. صار الخدم يلتزمون بمواعيدهم وينفذون أدق الملاحظات بحذافيرها، تحسَّن أداء الخدم لدرجة أن الكوو في ثلاث زيارات تفتيشية لم يجد أدنى تقصير في أي مكان، كان النادي نظيفا تماما ومظهر الخدم على أفضل ما يكون، القفاطين مكوية والذقون محلوقة بعناية والأظافر مقصوصة.. كل شيء كان يؤدَّى على أكمل وجه حتى إن معظم الأعضاء لاحظوا تحسُّن الخدمة وبعضهم أشاد به.. حسن باشا كامل مثلا نفح المتر شاكر بقشيشا مجزيا وقال:

ـ أشكرك يا شاكر، الخدمة في النادي بقت ممتازة.

تقبل المتر شاكر البقشيش والثناء بوجه عابس ودمدم ببضع كلمات شكر.. كان الرؤساء الثلاثة منزعجين من تحسن الأداء لأنه يدحض

نظريتهم في أن الخدم لا يعملون إلا خوفا من الضرب، الواقع أن شيئا جوهريا في سلوك الخدم قد تغير، إنهم نشيطون مجتهدون مطيعون أكثر من أي وقت مضى، ينحنون بأدب وينفذون الأوامر بكفاءة لكنهم في نفس الوقت تخلصوا من الإذعان.. اختفت الابتسامة الذليلة المتوسلة من وجوههم وظهرت بدلا منها ابتسامة ودود مهذبة لكنها تنم عن ثقة، عن مسئولية واعتزاز، حتى في اللحظة التي يتناولون فيها البقشيش، بدلا من الشكر المتوسل الذي كانوا يمارسونه صاروا يشكرون الزبون بصوت واضح ونبرة محددة، كأنهم يقولون:

ـ أنت لا تنعم علينا ولا تعطينا حسنة وإنما تقدرنا على عملنا ونحن نشكرك.

استمرت هذه الحالة الجديدة لمدة شهر سيظل الخدم يذكرونه كتجربة فريدة في حياتهم انتهت فجأة كما بدأت، هل كان ما حدث أجمل من أن يستمر طويلا؟

ذات صباح كان الخدم قد انتهوا من تنظيف النادي واغتسلوا وارتدوا القفاطين وتوجه كل واحد فيهم إلى مكان عمله، فجأة ظهر المتر شاكر وهو يلهث، لم يستعمل المصعد وإنما قفز على درجات السلم وقد بدا عليه الجزع، مر على المطعم ثم البار ثم صالة القمار وراح يصيح في الخدم بنبرة منذرة:

ـ انزلوا حالا في الدور الأول.

ارتبكوا وانتابهم الجزع وارتفعت أصواتهم:

ـ خير يا متر شاكر؟

ـ كفى الله الشر، حصلت حاجة؟

زجرهم المتر شاكر بصوت غاضب:

ـ كلامي واضح، بأقولكم انزلوا كلكم في الدور الأول.. حالا.

صالحة

احتضنتني أمي ثم أغلقت الباب برفق وهمست ونحن نعبر الردهة:

ـ اهدي يا صالحة عشان خاطري.

ما إن دخلتُ إلى حجرة أمي حتى أحسست بالأمان، كم افتقدت تلك الرحابة، تلك الرائحة المعطرة التي تملأ الحجرة، توقفتُ عن البكاء وجلسَتْ أمي بجواري، قَبَّلتني وبدأت تتفقد الإصابات في جسدي، كانت هناك جروح في ساقي وقد تهتك جلد الفخذ في أكثر من موضع كما كان وجهي متورما حول الفم وعند الحاجبين من أثر الضرب، غابت أمي دقائق ثم عادت تحمل صينية عليها زجاجة ميكروكروم وقطن وصحن مليء بمكعبات الثلج، راحت تُطهر الجروح وتضع كمادات ثلج على وجهي ثم أعدت لي كوبا من الشاي، حكيت لها ما حدث وأنا أتحاشى النظر إليها: مشكلتي مع عبد البر بتفاصيلها، نصيحة أبلة عائشة وكيف نفذتها وكيف ضربني عبد البر، المسحوق الأبيض الذي شمه عبد البر ومحاولته العنيفة لفض بكارتي بيده، كل ذلك حكيته بالتفصيل.. استمعَتْ إليَّ أمي وبدا عليها الحزن ثم وضعت كفيها على رأسها وقالت:

- يا رب إحنا ناقصين؟ إحنا اللي فينا مكفينا، أستغفر الله العظيم.

خرجَتْ أمي وتركتني وحدي، كنت منهكة تماما، استندت بظهري إلى الأريكة، تتابعت الأحداث على صفحة ذهني وأحسست أنني أشاهدها من الخارج، كأنها حدثت لشخص آخر، مرت فترة من الوقت لم أحس بها ثم عادت أمي وظهر كامل خلفها وقد بدت على وجهه آثار النوم، أدركت أنها أخبرته، حياني بصوت خافت ثم جلس أمامي صامتا كأنه يبحث عن كلمات مناسبة، أشعل سيجارة وقال بصوت خافت:

- أنا كنت حاسس من الأول أن عبد البر ده وراه مصيبة.

ساد الصمت من جديد ثم قالت أمي بصوت محشرج:

- بصي يا بنتي، الست الأصيلة لازم تقف مع زوجها في وقت الأزمة، لو على تعب زوجك مقدور عليه إنما المخدرات مصيبة، الشمّام ده ما لوش أمان، بنت عم أبوكِ أسماء زوجها كان شمام وأبوكِ بنفسه اللي سعى لغاية لما طلقها.

هز كامل رأسه وقال:

- اللي يشم مخدرات ممكن يعمل أي حاجة وآخرته معروفة يا يتجنن يا يدخل السجن.

تمتمت أمي:

- يا وقعة سودا، يا رب استر علينا.

بعد عدة جُمل من هذا النوع، انقطع الكلام، كأن أمي وكامل لم يعد لديهما ما يقولانه أو كأنهما يفكران في الخطوة التالية.

نهض كامل وقد بدت على وجهه ابتسامة مرتبكة وحزينة، انحنى عليَّ وقَبَّل جبيني وقال:

ـ نامي يا صالحة والصباح رباح، ما تقلقيش، كل عقدة ولها حلَّال بإذن الله.

خرج وأغلق الباب، احتضنتني أمي وقالت:

ـ قومي خذي حَمَّام وأنا أحضر لك العشاء.

أخذت حَمَّاما ساخنا وأكلت بعد إلحاح من أمي، أحسست بدفء وراحة وغمرتني سَكينة.. بعد التوتر والخوف والمعارك المؤلمة التي خضتها ها أنا أخيرا في بيتنا، أنام في فراشي في أمان تام، أمي في الحجرة المجاورة وكامل ومحمود موجودان ويستطيعان حمايتي، نِمْت بعمق وفي اليوم التالي كان لديَّ متسع من الوقت، تحدثت طويلا مع أمي ونحن نحتسي أكواب الشاي، انهمكت في عمل المطبخ وكأنني أتجاهل كل ما حدث.. رحت أسأل أمي عن تفاصيل صغيرة في البيت، كأنني أعيش يوما عاديا في بيت أهلي قبل زواجي، كأن كل ما حدث كابوس استيقظت من النوم ونسيته.. استمتعت بذلك الشعور لكنني في أعماقي كنت أعرف أنه لا جدوى من الهرب، سيظل ما حدث مع عبد البر يلاحقني، سأظل امرأة فشلت في زواجها وعادت إلى بيت أبيها.. استأذن كامل من عمله وجاء للغداء معنا، حاول أن يكون مرحا، ظل يحكي لي أشياء طريفة حتى ضحكت من قلبي، سأظل طوال حياتي مدينة لهذا الأخ الرائع، بعد الغداء أحسست بتعب مفاجئ، فكرت أنني سأحتاج إلى أيام حتى أتخلص من آثار تجربتي المؤلمة، عدت إلى حجرتي ونمت بعمق ولما استيقظت سمعت صوت سعيد في الخارج، أدركت أن أمي اتصلت به فجاء من طنطا، بعد قليل، دخلت إلى حجرة الجلوس فوجدت سعيد جالسا مع أمي وكامل، لمحت على وجهه تعبيرا غير مريح، صافحني بسرعة وقال:

ـ يا صالحة أنا مش موافق على اللي عملتيه.

ردت أمي قائلة:

ـ يعني كنت عاوزها تعمل إيه؟

تجاهل سعيد أمي وقال لي بلهجة الناصح الحكيم:

ـ لازم تحافظي على بيتك.

ـ حضرتك عرفت عبد البر عمل إيه؟

هكذا سألته بصوت خافت. لم يرد، قالت أمي:

ـ يا سعيد، بنقول لك عبد البر طلع شَمّام.

رد سعيد بحدة:

ـ كيف عرفتم أنه شَمّام؟

ـ صالحة شافته بعينها.

ـ وهي بنتك تعرف إيه عن الشم؟

ـ لا إله إلا الله، هو إحنا حنتبلّى عليه؟ بنقول لك عبد البر طلع عاجز وشَمَّام وبيضرب أختك، عاوز إيه تاني؟

ـ حتى لو كان فيه العِبَر كلها، الست ما لهاش غير زوجها.

لم تتمالك أمي نفسها فلوحت في وجهه وصاحت بغضب:

ـ يعني في الآخر عاوز تطلَّع أختك غلطانة؟

ـ الغلط إننا نشجعها على اللي بتعمله.

تطلَّع سعيد إليَّ وابتسم بعصبية وقال:

ـ صالحة.. قومي البسي وأنا أرجعك بيتك.

قلت وكأني أستغيث:

ـ مستحيل أرجع.

نظر إليَّ بغضب وصاح:

ـ حترجعي بيتك غصبا عنك.

صاح كامل:

ـ مش من حقك تغصبها تعيش مع عبد البر.

عبد البر رجل محترم.

ـ المحترم طلع مدمن وضربها.

ـ من حقه شرعا يؤدب زوجته.

ـ لا أسمح لمخلوق بضرب أختي ولا يمكن أسيبها مع مدمن.

ـ والله ما أنت فالح إلا في الشعارات الفارغة.

ـ أنت ما يهمك غير مصلحتك.

هكذا قال كامل وهو ينظر بتحفز إلى سعيد الذي أطرق لحظات ثم بدأ عزفا مختلفا فقال بهدوء:

ـ يا كامل صالحة أختي وأنا أحبها كما تحبها، لا يمكن أرضى لها الأذى، أرجوك تقدر وضعي، عبد البر شريكي في المصنع والمفروض نوقع العقد على أول السنة، يعني بعد ستة أشهر.. لو خسرت عبد البر صعب ألاقي واحد ثاني يوافق يشاركني في مصنع، أنا لا أملك إلا مرتبي، المصنع فرصة عمري وخيره حيكون لنا كلنا.

قال كامل:

- يعني غرضك إيه؟

- نسايس عبد البر لغاية لما نوقع العقد وبعدين نعمل ما بدا لنا.

- مواقفك انتهازية كالعادة.

- احترم نفسك.

- عاوز ترمي صالحة مع رجل شَمَّام لغاية لما تقضي مصلحتك، أنت فعلا حقير.

- اخرس.

هكذا صاح سعيد ودفع كامل بيده فترنح قليلا ثم هجم عليه وأمسك به من كُم سترته، ألقيت بنفسي بينهما وراحت أمي تصرخ:

- كفاية.. حرام عليكم.

كامل

نحن جميعا مسئولون عما حدث لصالحة، سعيد جاب لها عبد البر وألح عليها حتى تتزوجه، أنا وأمي تقاعسنا عن حمايتها، صالحة تتأثر برأينا ولو كنت تمسكت برفض الزيجة لما تمت، لماذا استسلمت فجأة ووافقت على زواجها، ربما استفزتني موافقة صالحة فآثرت الانسحاب، ربما كنت منهكا في عملي ودراستي ومهامي التنظيمية لدرجة نفدت معها طاقتي، واجبي الآن أن أحصل لها على الطلاق، أكاد لا أصدق ما

يفعله سعيد.. كيف يرضى بأن يترك أخته مع زوج شَمَّام عاجز مجرم من أجل توقيع عقد المصنع؟! أنانية سعيد بلا حدودٍ.. عزمت على مقابلة عبد البر يوم الأربعاء؛ إجازتي الأسبوعية، لكنني لم أصبر، في اليوم التالي بعد ما أنهيت عملي في المخزن توجهت إلى مكتب عبد البر في ميدان التوفيقية، ارتبك لما رآني، رحّب بي بحرارة ثم تطلع إليَّ كأنه يستشف الغرض من الزيارة.. سألني بلهجة ودية:

ـ تشرب إيه؟

ـ شكرا.

أشار إليَّ الفراش وأمره أن يحضر شايا، لم أعترض، لم أكن أريد أن أبدد طاقة الغضب في مجاملات وترحيب، ابتسم عبد البر وقال:

ـ هل وصلتَ إلى مكتبي بسهولة؟

ـ العنوان ليس صعبا.

ـ استأجرت هذا المكتب منذ عشر سنوات، الحق أن مزاياه عديدة: الشقة واسعة ومريحة والجيران مهذبون كما أنه في وسط البلد، من السهل الوصول إليه.

لم أعلق، استطرد قائلا بنفس النبرة العادية:

ـ لا يمكن ألاقي مكان مثله الآن بهذا الإيجار البسيط.. تعرف كم أدفع في الشهر؟

ـ يا عبد البر ما تهربش من الموضوع.

ـ موضوع إيه؟

ـ أنت عارف.

ابتسم وقال بعصبية:

- إن كان قصدك مشكلة صالحة، ما ينفعش نتكلم هنا.. انتظرني نصف ساعة أخلص شغلي وأدعوك إلى الغداء حتى نتكلم براحتنا.

أدركت أنه يخشى الفضيحة فقلت بصوت مرتفع:

- لازم نتكلم حالا.

وضع الفرَّاش أمامي كوب الشاي وخرج، قام عبد البر من خلف المكتب وجلس على المقعد المقابل لي وقال بتحفز:

- أنت عاوز إيه يا كامل؟

- عاوزك تطلق صالحة.

- أنت عارف إنها هربت من بيتها؟

- هربت لأنك ضربتها.

- ضربتها لأنها عملت مصيبة.

- أي حد يضرب أختي أقطع له يده.

اتسعت حدقتاه كأنه فوجئ، بدا وكأنه يريد أن يقول شيئا لكنه آثر السكوت، أطرق قليلا ثم أشعل سيجارة ولاحظت أن يده تهتز.. قلت بهدوء:

- اسمع يا عبد البر.. زي ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.

- أنا خطبتها من أخوها الكبير مش منك.

- صالحة نَفْسها طالبة الطلاق.

ـ هي الكلمة عندكم للنسوان ولا الرجال؟

ـ الكلمة لصاحبة الشأن.

ـ وأنا مش ناوي أطلق.. إيه رأيك؟

ـ يعني تقبل أنك تعيش مع واحدة غصبا عنها.

ـ لو سمعنا كلام كل امرأة غضبانة كان زمان بيوت مصر كلها انخربت، النسوان مخها صغير وكل يوم برأي.

ـ أختي صالحة متعلمة أحسن منك.

كنت أستفزه عمدا.. راح يتنفس بصوت مسموع كأنما يحاول السيطرة على نفسه، قال بصوت خافت:

ـ كفاية يا كامل، تفضل الآن بالسلامة ونتكلم بعدين لما أعصابك تهدأ.

نهضت واقتربت منه وصِحْت:

ـ لازم تطلق صالحة حالا.

ـ وطي صوتك.

ـ أنا أتكلم زي ما أنا عاوز.

ـ يظهر أنك ناقص تربية زي أختك.

ـ إن كان فيه حد ناقص تربية يبقى أنت.

انتفض واقفا وأصدر صوتا محشرجا وطوح بيده ليصفعني لكنني أبعدت رأسي فطاشت الصفعة ثم أمسكت بذراعه ولويتها بشدة وصِحت:

ـ حأقطع لك يدك اللي ضربت بها أختي.

هرع إلينا العاملون في مكتبه وجذبوني بشدة حتى فرقوا بيننا، رحت أصيح بأعلى صوتي:

ـ أنا هأفضحك في كل مكان، أنت شَمَّام.

رد عليَّ بشتائم مقذعة لكنه بدا مرتبكا، أدركت أنه تأثر من اتهاماتي فصِحْت من جديد:

ـ كان لازم تتعالج من الشم قبل ما تتزوج بنات الناس.

تعالت صيحات الاستياء من العاملين لكني أحسست بأن اعتراضهم غير حقيقي، وكأن هجومي على عبد البر يجد قبولا عندهم على نحو ما.. دفعوني ببطء للخارج كأنما يمنحوني فرصة لكي أكمل إهاناتي له، كان واضحا أنهم لا يحبونه.. قلت:

ـ قدامك أسبوع واحد.. لو ما طلقتش صالحة حأبلغ البوليس عن المخدرات اللي بتشمها.

خرجت إلى الشارع وأنا أتخبط، كنت منفعلا للغاية لكني أحسست براحة لأني فضحت عبد البر أمام موظفيه، رددت له بعض الإهانة التي ألحقها بأختي.. وصلت إلى شارع سليمان باشا ثم اجتزت ممر استوريل حتى أصل إلى نادي السيارات، بدأت عملي في المخزن وأنا غائب الذهن، لاحظ كومانوس ذلك وسألني فأخبرته أنني متعب من المذاكرة، انتهيت من عملي في المساء وعدت إلى البيت، ما إن دخلت من الباب حتى رأيت صالحة، كانت كدمات وجهها قد تحولت إلى اللون الأزرق.. احتضنتني وتشبثت بعنقي كما كانت تفعل وهي صغيرة، تأثرت من حرارة مشاعرها، قلت لها:

ـ تعالي معي إلى حجرتي، عاوزك في كلمة.

نهضَتْ أمي وقالت:

ـ اقعد معها هنا، أنا رايحة المطبخ.

جلست بجوار صالحة وقلت لها:

ـ عاوزك تعتبري ما حصل مجرد تجربة سيئة وتنسيها.

ـ خايفة عبد البر يرفض يطلقني.

ـ راح يطلقك غصبا عنه.

ـ أنت قابلته؟

هززت رأسي فسألت بانزعاج:

ـ قال لك إيه؟

ـ ما تشغليش بالك.. إحنا اللي وقعناك في المشكلة دي واحنا اللي حنخلصك منها، أهم شيء بالنسبة إليَّ إنك ترجعي المدرسة.

ابتسمت بحزن وقالت:

ـ مستحيل، لا يمكن أواجه زميلاتي بأني فشلت في زواجي.

ـ هو أنتِ أجرمتِ! حكايتك عادية حصلت لبنات كثير.

تطلعت صالحة أمامها كأنها تزن الأمر ثم أجهشت بالبكاء فجأة، قَبَّلت رأسها ورُحت أهدئها، بعد قليل جلسنا إلى مائدة العشاء، أنا وأمي وصالحة.. حاولت أن أُسرّي عنهما، تكلمت في موضوعات مختلفة ورويت لهما حكايات مضحكة.. تلك الليلة لما عدت إلى حجرتي، حاولت الاستذكار فلم أستطع، استلقيت بثيابي على السرير ورُحت

أدخن، تزاحمت على رأسي الأفكار، كنت مُحمّلا بالهموم، تذكرت أبي.. كم أفتقده.. كم تحمَّل من أجلنا، ها أنا أتحمل المسئولية فتنهال على رأسي المصائب، الله يرحمك يا أبي، كم أخفيت عنا أحزانك، لم تَشْكُ ولا تذمرت مرة واحدة.. قمت وتوضأت ثم قرأت الفاتحة لأبي وصليت ركعتين، دعوت الله أن يرحمه ويُدخله الجنة، عندما عدت إلى فراشي أحسست براحة، الصلاة تمنحني سكينة حقيقية، تمنيت كثيرا أن أنتظم في الصلاة لكنني كثيرا ما أنشغل أو أتكاسل.. أحس بالذنب لتقصيري ثم أفكر أن ربنا سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى صلاتنا، نحن الذين نحتاج إلى الصلاة لنكون كائنات إنسانية أفضل، أنا أثق في عدل الله ورحمته، أؤمن أنه سيغفر لي تقصيري في العبادة، أنا أجتهد لأفعل أشياء مفيدة، أعمل لأعول أسرتي وأتعلم وأحاول أن أؤدي واجبي نحو وطني، عندما وصلت إلى هذه الفكرة ارتحت واستعدت حماسي للعمل وجلست إلى المكتب، كان يجب عليَّ أن أترجم مقالة في جريدة التايمز عن مصر وأسلمها في الصباح لحسن مؤمن، انتهيت من ترجمة المقالة في حوالي ساعتين، كان الكاتب يتحدث عن انحرافات الملك ويسهب في وصف لياليه الحمراء.. صنعت لنفسي كوبا من الشاي بالنعناع ثم بدأت أراجع دروسي.. أويت إلى فراشي في الثالثة صباحا.. كانت مأساة صالحة مسيطرة على تفكيري حتى كدت أنسى المهمة التي كلفني الأمير بتنفيذها، في الصباح وصلت إلى النادي قبل العاشرة، كنت أخفي الكرة الزجاجية في حقيبتي الجلدية السوداء.. كان منظر الحقيبة مألوفا في النادي لأني أحمل فيها كتبي كل يوم.. استرجعت تعليمات الأمير وركزت تفكيري حتى أنفذها بدقة، كان الخدم ينظفون المبنى من أعلى إلى أسفل، نظرت خلفي لأتأكد أن أحدا لا يراني، بدلا من أن أتجه إلى المخزن صعدت السلم إلى صالة القمار، دخلت وأغلقت

الباب خلفي، كنت أدرك أن أمامي دقائق معدودة لإنجاز المهمة، كان المكان معتما معبأ برائحة الدخان من الأمس، وجدت السلم الخشبي مسندا إلى الجدار تماما كما وصف لي الأمير، رفعت السلم، فُوجئت بثقله، لم يكن ممكنا أن أجرجره على الأرض لأنه سيُصدر صريرا قد يسمع في الخارج، حملت السلم بصعوبة إلى منتصف القاعة ثم أنزلته برفق تحت الثريا تماما، صعدت عليه بحرص حتى أصبحت الثريا في مستوى كتفي، تذكرت ما شرحه الأمير، كان هناك بروز معدني ما إن أدخلته في الكرة الزجاجية حتى استقر فيها وبدت كأنها قطعة من الثريا، مددت يدي وهززت الكرة الزجاجية حتى أتأكد من أنها ثابتة في مكانها، نزلت على السلم وحملته إلى مكانه، فجأة سمعت صياحا في الخارج، كانت الخطة أن يفتعل عبدون مشاجرة مع أحد زملائه فوق السطح، الغرض أن يشغلهم فلا ينزلون إلى الدور الثاني قبل أن أنتهي من مهمتي.. أعدت السلم إلى مكانه ثم فتحت الباب بحرص وخرجت، نزلت الدرج بهدوء، عندما وصلت إلى المدخل كنت متأكدا أن مهمتي نجحت، فجأة، وجدت لبيب التليفونيست في وجهي، ارتبكت ثم قلت له بطريقة جهدت لتبدو عفوية:

ـ هناك صياح وضوضاء فوق السطح، عاوز أطلع أشوف لكن أخاف أن يأتي مسيو كومانوس فيجد المخزن مغلقا.

ابتسم لبيب وقال:

ـ ولا يهمك، روح أنت افتح المخزن، أنا طالع أشوف الحكاية.

ـ ابقى طمئني وحياتك يا عم لبيب.

فتحت باب المخزن وأضأت النور ثم صنعت لنفسي كوبا من الشاي، مع أول رشفة قلت لنفسي: «لقد ارتكبت الجريمة الكاملة»..

كانت لحظات ملامستي للخطر تحقق لي متعة، لا زلت أتذكر بشغف مغامرتي وأنا أوزع المنشورات في السيدة زينب، كيف أفلت من الكمين وخدعت الجنود الإنجليز.. هذه المرة نفذت المهمة وأنا مشتت الذهن، لم أنم بما يكفي كما أنني حزين من أجل صالحة، من ستر ربنا أنني لم أرتكب خطأً يفضحني، صنعت لنفسي فنجانا من القهوة ودخنت سيجارة أخرى ثم جاء كومانوس فحييته وسألته عن المهام التي عليَّ أن أنجزها، فكرت أنني يجب أن أبدو طبيعيا أمام كومانوس لأنهم قطعًا سيطلبون شهادته عندما يكتشفون الأمر، نقلت بعض الأشياء إلى المطعم ثم استأذنته وجلست أستذكر دروسي، بعد قليل جلس كومانوس بجواري ثم ابتسم بود وقال:

ـ عامل إيه في المذاكرة يا كامل؟

ـ الحمد لله.. وحضرتك أخبارك إيه؟

خلع كومانوس نظارته ومسحها بمنديله كعادته عندما يستغرق في التفكير، ثم وضع نظارته وقال:

ـ والله يا كامل، أحوال النادي اليومين دول غريبة.

ـ خير؟

ـ العمال عاملين قلق، راحوا قابلوا الكوو وطلبوا منه يمنع عقوبة الضرب.

ـ عندهم حق.

ـ أنا عارف إنك حَسّاس للموضوع عشان اللي حصل لوالدك الحاج عبد العزيز الله يرحمه.

ـ بغض النظر عن المرحوم والدي، الضرب طريقة غير إنسانية.

ـ أنا مستغرب، العمال تحملوا الضرب عشرين سنة، إيه اللي جرى فجأة وخلاهم يعترضوا؟

ـ كل إنسان وله طاقة.

ـ الأغرب أن الكوو استجاب لهم ومنع الضرب فعلا.

ـ شيء طبيعي.

سكت كومانوس ثم تطلع إليَّ بقلق وقال:

ـ أنت لا تعرف الكوو، ده شرير ومفتري، لا يمكن يبقى فجأة طيب وابن حلال، ربنا يستر.. أنا حاسس أن نادي السيارات داخل على أيام سوداء.

(٣٣)

كلما استعاد محمود المشهد الأخير مع روزا أحس بمشاعر متناقضة، كان في أعماقه يعرف أنها تحبه ويعطف عليها لأنها تألمت من علاقته بداجمار لكنه أيضا كان غاضبا لأنها أهانته وشدته من القميص، حكى محمود ما حدث لفوزي الذي دخن سيجارة حشيش كاملة وهو ينصت لصديقه وبدا كأنه يزن الأمر بدقة، دفس عقب السيجارة في المطفأة الموضوعة على سور السطح ثم سعل وقال:

ـ مش من حق روزا تحاسبك لأنك عرفت واحدة غيرها، لو سكت لها حتتعبك في المستقبل.

هز محمود رأسه وقال:

ـ أنا قطعت علاقتي بروزا نهائي.

ابتسم فوزي وقال:

ـ ما تسبقش الأحداث.

ـ عاوزني أرجع لها بعد اللي عملته؟

غمز فوزي بعينه وقال:

ـ اصبر يا محمود، رب ضارة نافعة، ممكن مشكلتك مع روزا تبقى في صالحك.

ـ كيف؟

ـ أنا أشرح لك.

وضع فوزي الخطة ونفذها محمود بحذافيرها: امتنع عن رؤية روزا لمدة أسبوعين كاملين وأوصى لبيب التليفونيست فأخبر روزا أنه منقطع عن العمل وأنهم لا يعرفون السبب، اختفى محمود تماما، كلما طلبت روزا مأكولات من النادي كان محمود يعطي الطلب لعم مصطفى السائق ويقول:

ـ من فضلك طلع الطلب وأنا أنتظرك هنا، لو سألتك مدام خشاب عني قل لها إنه ساب الشغل.

كان عم مصطفى يبتسم بهدوء ويحمل الطلب إليها وفي المرة الأخيرة انتظر محمود في السيارة كالعادة بينما صعد عم مصطفى حاملا تورتة فواكه لروزا ثم نزل بعد قليل وجلس أمام عجلة القيادة وفجأة ضرب كفا بكف وقال وهو يدير المحرك:

ـ يا محمود أنت عملت إيه في مدام خشاب، الست ملهوفة عليك.. لما قلت لها إنك لسه غايب عن الشغل كانت هتتجنن.

سكت محمود بينما أطلق عم مصطفى ضحكة خافتة وانطلق بالسيارة، كان قد خمن علاقة محمود بروزا منذ زمن طويل لكنه لم يكن يحب أن يتكلم معه في هذا الشأن، كان عم مصطفى بطبيعته طيبا ورقيقا، لا يحب أن يحرج أحدا أو يتطفل على أحد مهما يكن قريبا منه، ذلك اليوم عندما جلسا في الجراج يحتسيان الشاي بدا على وجه العجوز أنه يريد أن يقول شيئا لكنه متردد.. تحدثا قليلا في موضوعات عابرة ثم وضع عم مصطفى يده على كتف محمود وقال:

ـ يا محمود أنت عارف إني بأحبك، أبوك الله يرحمه كان في مقام أخي، أنا مقدر طبعا أنك شاب والشباب له أحكام.

نظر إليه محمود متسائلا فأطرق عم مصطفى وبدا كأنما يختار كلماته ثم قال:

ـ حأنصحك مرة واحدة ولن أكررها، إيه رأيك يا محمود لو كانت سيارة ماشية من غير فرامل، يحصل لها إيه؟

ـ تعمل حادثة.

ـ حلو، أهو بني آدم كما السيارة لازم له فرامل، لو الإنسان ساب نفسه ينام مع الست دي ويرافق الست دي هتكون نهايته دمار، بصراحة أنا مش عاجباني حكايتك مع روزا، ربنا يتوب عليك ويهديك.

لاذ محمود بالصمت، كان يحب عم مصطفى ويحترمه ولم يكن يتوقع منه هذا الحديث، استطرد عم مصطفى قائلا:

ـ اسمع كلامي، عاوز تتزوج تزوج، إنما إياك تعيش في الحرام، الحرام أوله حلو وآخرته وحشة، ربنا قال: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾.. صدق الله العظيم.

هز محمود رأسه وتمتم موافقا وقد بدت على وجهه ابتسامة محرجة، اكتفى عم مصطفى بما قاله وانتقل لحديث آخر، تلك الليلة، فوق السطح، نقل محمود كلام عم مصطفى إلى صديقه فوزي الذي أغلق السيجارة الملفوفة بطرف لسانه وقال باستهانة:

ـ عم مصطفى رجل كبير قد أبونا، لازم يفكر بالطريقة دي، لو كان في سننا وعرف يرافق واحدة زي روزا كان رافقها طبعا.

ـ لكني فعلا عايش في الحرام.

ـ جرى إيه يا محمود؟ أنت كلمة توديك وكلمة تجيبك؟

هكذا شخط فوزي في محمود فلاذ بالصمت وبدا كطفل في ورطة.

اطمأن فوزي لسيطرته فابتسم وقال:

ـ أنت بتثق فيَّ يا محمود؟

ـ طبعا.

ـ خلاص يبقى تنفذ كلامي للآخر.

كانت الخطة تقضي بأن يستمر غياب محمود لأسبوع ثالث، في نهايته أوصى محمود التليفونيست لبيب بتحويل مكالمة روزا إذا اتصلت، بعد قليل جاءه صوتها متلهفا:

ـ محمود أنت بخير؟

ـ الحمد لله.

ـ عاوزة أشوفك ضروري.

ـ عندي شغل.

ـ طيب، خلص الشغل وتعالَ.

ـ حاضر.

قالها محمود بصوت بدا لسمعه كأنه لشخص آخر، في آخر الوردية أوصله عم مصطفى إلى بيته في شارع السد، دخل محمود من باب البيت ثم انتظر حتى سمع صوت السيارة يبتعد وخرج إلى شارع الترام واستقل تاكسيا إلى بيت روزا، لم يعد بمقدوره أن يواجه عم مصطفى بعلاقاته النسائية بعد الحوار الذي دار بينهما، كانت الساعة قد جاوزت

الثالثة صباحا، صعد محمود إلى الدور الرابع ووقف أمام باب الشقة ودق الجرس، فتحت روزا بسرعة كأنها كانت تنتظره خلف الباب، ما إن رأته حتى همست:

ـ محمود، أنت فين؟

جذبته إلى الداخل واحتضنته بحرارة، ابتعد عنها ووقف في منتصف الصالة، اقتربت منه وقالت بصوت متهدج:

ـ أهون عليك يا محمود تسيبني الفترة دي كلها؟

قال محمود بصوت غاضب:

ـ يا روزا أنت شتمتيني وشدتيني من القميص.

ـ أنا آسفة يا محمود، آسفة.

احتضنته من جديد وأغرقته بالقُبُلات، ترك محمود نفسه لاستقبالها الحار المحموم ثم شيئا فشيئا استيقظت شهوته فاحتواها بين ذراعيه القويتين ودخل بها إلى حجرة النوم، تلك الليلة اخترق جسدها بقوة كأنه يؤلمها عمدا، كأنه يعاقبها، كأنه يقول لها: هل تعلمتِ الدرس؟ هل أدركتِ خطأكِ؟ هل فهمتِ أنه لا يجب أن تتكلمي معي بهذه الطريقة؟ وكانت هي تصرخ عاليا من اللذة وكأنها طفل مذنب يتلقّى ضربات العصا على قدميه فيصرخ ويتوسل ويستنجد ويتعهد بألا يكرر خطأه أبدا.. هذا الحوار الجسدي الصاخب انهمر بينهما بلا كلمة واحدة فاحترقت باللذة مرات متعاقبة، كان جسدها خلالها ينتفض بارتعاشات قوية لم يرها من قبل، كان محمود قد أعد نفسه للمبيت، اتصل بأمه من النادي وقال لها إنه سيبيت عند صاحبه، نام في حضن روزا وفي الصباح استحم وارتدى ثيابه، لاحظ وهو يتناول الإفطار معها أن وجهها متورد

كأنما يشع برونق مبهج، تبادلا حديثا مرحا ولما حانت ساعة انصرافه إلى العمل، احتضنته ودفست وجهها في صدره، لما أبعدها برفق رأى الدموع على وجهها، أمسك بيدها وقال:

ـ روزا، ما لك؟

همست:

ـ خايفة تسيبني.

ظل صامتا فاستطردَتْ:

ـ محمود، أنا مش هأقدر أعيش وحدي مرة ثانية، قبل ما أعرفك كنت تعيسة، كنت أشرب وأنتظر الموت، ما عندكش فكرة أنت عملت ليَّا إيه، أنت أعطيت لحياتي معنى، أرجوك يا محمود ما تسيبنيش.

توالت لقاءاتهما ولم تعد روزا تشير إلى علاقته بداجمار بكلمة واحدة، نجحت خطة فوزي وأدركت روزا أن عليها أن تختار: إما أن يستمر معها ويصاحب مَن يشاء من النساء وإما أن يهجرها.

استعادت حياة محمود إيقاعها؛ ليلتان مع روزا وليلتان مع داجمار وثلاثة أيام بدون نساء.. استمتع مع صديقه فوزي بالحياة الوردية الناعمة؛ بنات ونزهات وجنس في البيت السري وحشيش من أجود الأنواع وثياب أنيقة فاخرة، الأموال تتدفق وهما يذهبان إلى كل مكان راكبين اللمبريتا الحمراء.. ذات ليلة أثناء جلستهما فوق السطح قال محمود فجأة:

ـ فيه ست جديدة عاوزاني أنام معها.

صفق فوزي وصاح:

ـ يا معلم يا جامد.. عرفتها من أين؟

ـ رحت أوصل لها طلب يوم الخميس قامت ماسكة فيَّ.

ـ يمكن روزا ولا داجمار وصفوك لها.

كانت في نبرة فوزي سخرية تجاهلها محمود وقال:

ـ مش عارف أعمل إيه

ـ خير وجالك لغاية عندك يا محمود.

ـ مش قادر.

ـ هي مصرية ولا أجنبية؟

ـ مصرية.

ـ غنية؟

ـ غنية جدا، من عائلة السرساوي.

ـ السرساوي بتوع الذهب؟

هز محمود رأسه فقال فوزي بحماس:

ـ الوزة دي مربربة يا معلم محمود، إياك تضيعها من يدك.

أشاح محمود بيده وقال:

ـ وزة إيه؟ دي عجوزة جدا.

ـ طيب ما أنت شغال مع اتنين نسوان عواجيز.

ـ دي أكبر منهم، سنها على الأقل سبعين سنة، أنا مستغرب إن واحدة في سنها لها شوق للجنس.

ـ يا بني دي لُقطة، كل ما كانت عجوزة تدفع أكثر.

ـ تغور بفلوسها.

تطلَّع فوزي مليا إلى محمود ثم سأله:

ـ يعني مصمم ترفس النعمة؟

ـ بأقولك مش حأقدر أنام معها.

ـ خلاص يا معلم محمود، بالإذن.. أنا أشيلها عنك.

(٣٤)

إذا أراد مستر رايت لقاء الكوو فإنه عادة ما يستدعيه بواسطة خليل الفرَّاش، هذه المرة اتصل بنفسه وقال للكوو:

ـ تعالَ حالا.

نطقها بلهجة مقتضبة ولم ينتظر الرد فأغلق السماعة.. أدرك الكوو أن الموضوع مهم فغادر مكتبه فورا إلى نادي السيارات ولما وصل وجد في المدخل مجموعة من الرجال يرتدون الملابس المدنية.. أخبره سليمان البواب بصوت خفيض أنهم مخبرون، اجتاز الكوو البوابة بخطوة سريعة وحميد يعدو في أثره، هرع الخدم نحو الكوو لكنه لم يلتفت إليهم، تطلعوا إليه بمزيج من الرهبة والترقب، كأنهم ينتظرون منه تفسيرا لما يحدث.. طرق الكوو الباب ودخل إلى مكتب مستر رايت فوجد عنده محمد علوي باشا رئيس الديوان الملكي وأنور بك مكي رئيس القلم السياسي، كان الكوو يعرف الرجلين جيدا؛ رئيس الديوان الملكي ورئيس القلم السياسي.. أهم مَنْصِبَيْن في الدولة، ليس فقط لأهمية الدور الذي يقومان به وإنما لقربهما من الملك، أنور بك مكي رئيس القلم السياسي يتحكم بمعنى الكلمة في كل تحركات الملك لأنه يقوم بوضع خطط التأمين التي ينفذها الحرس الملكي.. يستطيع أنور بك أن يلغي أو يعدل برنامج الزيارات الملكية وفقا لما يراه من اعتبارات الأمن، يكفي أن يقول بصوته الأجش:

ـ هذه الزيارة لا نستطيع تأمينها يا مولاي.. عندئذ يتم إلغاء الزيارة مهما تكن أهميتها.

انحنى الكوو وحيًّا الحاضرين بالفرنسية فجاءه الرد دمدمات فاترة.. أدرك الكوو أن شيئا جللا قد حدث، ظل واقفا يتطلع إلى الحاضرين وقد تجمدت على وجهه الأسود ابتسامة رسمية، التقط مستر رايت صورة فوتوغرافية من فوق المكتب وناولها للكوو قائلا:

ـ خذ.. اتفرج وقل لي رأيك.

نظر الكوو إلى الصورة فبدا على وجهه ما يشبه الفزع، ظهر مولانا الملك في الصورة وقد وضع على رأسه طرطورا أحمر طويلا تتدلى منه شراشيب ملونة بينما هو جالس إلى المائدة الخضراء يلعب البوكر وبجواره الراقصة الفرنسية شارلوت، أسفل الصورة كتب بالخط العريض:

«يسقط الملك المنحل الفاسد».

ظل الكوو يتأمل الصورة ويقلبها بين أصابعه، كان يحتاج إلى وقت ليستوعب المفاجأة، قال مستر رايت:

ـ هذه الصورة التُقطت لمولانا الملك هنا في نادي السيارات أثناء تشريفه لنا في حفل رأس السنة، آلاف النسخ توزع الآن على المارة في شوارع القاهرة.

جز الكوو على أسنانه وتقلصت عضلات وجهه ثم تطلع إلى مستر رايت وقال بصوت محشرج:

ـ هل عرفتم مَن يوزع هذه الصور؟

لوح مستر رايت بيده في وجه الكوو وصاح بصوت غاضب:

ـ ليس شأنك مَن يوزعها، المهم كيف التُقطت، أنت مسئول عن هذه الجريمة، لا يمكن لأحد أن يصور مولانا الملك بهذه الطريقة إلا باتفاق مع شخص داخل نادي السيارات.

قال الكوو بالفرنسية:

ـ مستر رايت، لعلك تذكر أنني قلت لك إن شيئا ما قد تغير في سلوك العمال وطالبتك بأن تتخذ إجراءات لإعادة النظام لكنك رفضت.

لم يكن مستر رايت يتوقع هذا الرد المحرج أمام المسئولين الكبيرين، فخبط بيده على المكتب وصاح:

ـ عندما يكون الإنسان مهملا في عمله من السهل أن يلقي بالذنب على الآخرين.

سكت الكوو وأعاد النظر إلى الصورة، كل شيء يؤكد أنها التُقطت في النادي، بل إن المصور حدد الزاوية بدقة حتى تظهر التفاصيل جميعا، قال الكوو بصوت خافت:

ـ أنا لا أتهرب من مسئوليتي، سأبحث في الأمر، وإذا كان أحد الخدم متورطا في هذه الجريمة لن أرحمه، كل ما أطلبه أن توافقني على أي عقاب أُوَقِّعه.

لم يرد مستر رايت على الكوو، كان يبذل مجهودا حتى يكظم غيظه فلا ينهال بالشتائم عليه أمام الضيفين الكبيرين، وضع مستر رايت الغليون في فمه ونفث دفعة كثيفة من الدخان ونظر إلى السقف لحظة ثم أشار بيده للكوو وقال:

ـ تستطيع الانصراف.

دمدم الكوو مستئذنا ثم استدار وخرج، قال أنور بك مكي:

ـ الموضوع خطير فعلا، ما حدث يشكل جريمتين: انتهاك لخصوصية جلالة الملك ومحاولة دنيئة للتشهير بجلالته.

كأنما أحس علوي باشا أن عليه أن يقول شيئا باعتباره رئيسا للديوان الملكي فصاح بصوت غاضب:

ـ هؤلاء المخربون السفلة ماذا يريدون بمصر، جلالة الملك يعكف على العمل طوال الليل والنهار حتى ينتشل المصريين من الجهل والفقر، هل يستكثرون عليه أن يتسلى قليلا، أليس جلالته إنسانا يحتاج إلى الراحة؟!

رد أنور بك مكي قائلا:

ـ اطمئن يا باشا، سيدفعون ثمن جرائمهم غاليا.

لوح علوي باشا بيده وقال بالفرنسية:

ـ «*Ils sont vraiment des salops*».. إنهم حقا أوغاد.

مد أنور بك مكي رأسه إلى الأمام وقال:

ـ مستر رايت.. أمامنا أسئلة عديدة يجب أن نجيب عنها: مَن قام بتصوير مولانا؟ وكيف أدخل الكاميرا إلى النادي؟ ولماذا لم يلاحظه الأعضاء أو الخدم الذين يعملون في الصالة؟ ثم.. هل لهذا المصور شركاء من العاملين في النادي؟

قال مستر رايت:

ـ كيف أستطيع أن أساعدكم؟

ـ أعطني كشفا بأسماء كل العاملين والأعضاء في نادي السيارات.

كانت لهجة أنور بك آمرة وإن اكتست بنبرة مهذبة.. هز مستر رايت رأسه وقال:

ـ سوف أعد لك الكشف وأرسله اليوم.

نظر أنور بك إلى علوي باشا كأنما يستحثه ونهض الاثنان لينصرفا، قبل أن يخرجا من الباب صافحهما مستر رايت وبدت على وجهه ابتسامة متوترة وقال:

ـ علوي باشا.. أرجو أن تبلغ جلالة الملك اعتذاري الشديد.

رد علوي باشا بحدة:

ـ جلالة الملك كان يعتبر نادي السيارات مكانا آمنا يستطيع أن يُروّح فيه عن نفسه ولكن للأسف تبين أن ناديكم مخترق من المخربين والشيوعيين.

ـ أعدك بشرفي ألا يتكرر ما حدث أبدا.

ابتسم علوي باشا ساخرا وقال:

ـ أخشى ألا تحصل على فرصة لتنفيذ وعدك، لا أظنك سترى مولانا الملك في نادي السيارات بعد اليوم، جلالة الملك لديه العديد من القصور والاستراحات الملكية التي توفر الخصوصية الكاملة.

ـ أتمنى من جلالة الملك أن يمنحنا فرصة أخرى.

كانت نبرة مستر رايت تحمل استعطافا، لكن علوي باشا نفث سحابة من دخان السيجار وقال بهدوء:

ـ سأكون صريحا معك، مَن يخسر ثقة مولانا لا يستردها بسهولة.

انصرف علوي باشا عائدا إلى قصر عابدين، أما أنور بك مكي رئيس

القلم السياسي فقد عمد إلى الانفراد بضباطه لعدة دقائق وأعطاهم تعليماته ثم استقل سيارته إلى مكتبه.. شرع الضباط فورا في تنفيذ التعليمات: تم استدعاء العاملين في وردية الليل من بيوتهم وانضموا إلى زملائهم.. وقف العاملون جميعا في الدور الأول، تجمعوا في الصالة التي تفضي إلى المكاتب الإدارية، كان المشهد يبعث على الرهبة، عشرات الخدم واقفون واجمين يتبادلون الهمسات بينما وقف على الباب مخبران فظَّان يُدخلان الواقفين واحدا واحدا إلى المكتب الإداري حيث جلس ضابطان يتوليان التحقيق.. أما الضابط الثالث (وكان أصغرهم سنا) فقد قاد مجموعة أخرى من المخبرين وبدءوا تفتيش المبنى من أعلى إلى أسفل، كان يدخل إلى كل حجرة فينطلق المخبرون أمامه ككلاب الصيد المدربة ليقلبوها رأسا على عقب ثم يعودون إليه فيشير إليهم ليتبعوه إلى مكان آخر.. فعلوا ذلك في حجرات السطح والمطعم والبار فلم يسفر التفتيش عن شيء، عندما وصلوا إلى صالة القمار.. بدأ المخبرون يفتشون بعناية أكثر بينما الضابط يتفحص كل مكان في الصالة بعين صقر، لم يسفر التفتيش عن شيء ووقف المخبرون في انتظار أوامر الضابط الذي كان مستغرقا في تفحص القاعة وفجأة أشار بيده إلى أعلى وقال للمخبر الواقف بجواره:

ـ بص فوق.

رفع المخبر رأسه وتطلع إلى أعلى، استطرد الضابط قائلا:

ـ روح هات سلم.

انطلق المخبر خارجا من الصالة وعاد بعد دقائق وخلفه خادمان يحملان سلما خشبيا طويلا نصباه تحت النجفة فتسلقه الضابط بسرعة وراح يتفحص أجزاء الثريا بنظره ثم نزل وانصرف مع مخبريه، بعد ساعة

جاء ضابطان إنجليزيان من سلاح المهندسين ومعهما آلة أشبه بالمكنسة الكهربائية تفقّدا بها كل مكان في النادي وهما يرقبان القراءة المسجلة على عدادها حتى عثروا أخيرا على الكاميرا في صالة القمار فانتزعوها من الثريا، تلك الليلة عقد أنور بك مكي اجتماعا مع كبار ضباطه وقد وضع الكرة الزجاجية أمامه على المكتب، وبعد أن استعرض الموقف قال بلهجة حازمة:

ـ ما حدث واضح لا يمكن قراءته إلا بطريقة واحدة، أولا هذه كاميرا حديثة جدا لا تتوفر للمصورين العاديين، ثانيا معنى وجودها في الثريا أن هناك من قام بتركيبها وهناك من قام بانتزاع الفيلم وتحميضه، كل شيء يدل على وجود عمل تخريبي منظم.

سكت لحظة ثم استطرد قائلا:

ـ أهم شيء الآن أن نتأكد أنهم لم يركبوا كاميرات في أماكن أخرى، يجب أن نبحث بعناية في كل القصور والاستراحات الملكية.

استغرق الاجتماع ساعة كاملة درسوا خلالها الواقعة من كافة الزوايا ثم وُضعت خطة مفصلة لكشف المخربين وإحباط مُخطّطهم وفي نهاية الاجتماع انصرف الضباط وفي ذهن كل واحد منهم المهمة المكلف بها.. ذلك اليوم كتب مستر رايت لوحة بالإنجليزية وضعها على الباب تعتذر عن عدم استقبال الأعضاء لوجود ماس كهربائي جارٍ إصلاحه وقدم لبيب التليفونيست نفس الاعتذار لكل من اتصل من الأعضاء ليحجز مائدة، تم إغلاق نادي السيارات طوال اليوم، انتهى التحقيق مع العاملين في الواحدة صباحا وغادر الضباط بينما ظل المخبرون منتشرين أمام النادي، منع الكوو العاملين من الانصراف بعد التحقيق وأمرهم بالصعود إلى السطح جميعا.. بدا المشهد فريدا: العاملون في الورديتين اصطفوا في

جانب من السطح وأمامهم الكوو يقف وحده على الجانب الآخر، كان منظر الخدم غريبا، نصفهم بقفاطين الخدمة ونصفهم بالثياب العادية، بدا عليهم الجزع وتجمعوا كأنهم يَحْتَمون بعضهم ببعض، كانوا يحسون أن ما يحدث غير حقيقي على نحو ما، كأنهم في كابوس.. صورة للملك وهو يلعب القمار ويرتدي الطرطور بجوار عشيقته تُلْتَقط بينهم بغير أن يشعروا ثم تُطبع ويتم توزيعها في الشوارع؛ إنها كارثة هبطت على رءوسهم من حيث لا يحتسبون، إنهم الآن وجها لوجه أمام الكوو، سيُنكّل بهم جميعا، بالرغم من هلعهم كانوا مستسلمين، لم يجرءوا على الاعتراض أو التوسل أو حتى التعليق، كأنهم مساقون إلى قدر لا مفر من مواجهته، مهما اعترضوا وتوسلوا لن يغير ذلك شيئا.. بالرغم من أنهم لم يرتكبوا الجرم إلا أنهم في أعماقهم كانوا متقبلين لفكرة العقاب، إنهم أبرياء صحيح لكن الجريمة مشينة ومخزية لدرجة أن أي عقاب سيقع عليهم مهما بلغت قسوته سيكون عادلا على نحو ما، وقف الكوو صامتا وراح يجيل نظره بينهم وقد اربد وجهه وراح يكز على أسنانه ثم عقد يديه خلف ظهره ومشى ذهابا ومجيئا بعرض السطح مرتين.. وأخيرا، توقف ورمق الخدم بنظرة نارية ثم أصدر صوتا أقرب إلى الزمجرة:

ـ مَن فيكم ركّب الكاميرا يا أولاد الزواني؟

صدرت عن الخدم دمدمات مختلطة غير مفهومة، كانوا لا شك يؤكدون أنهم غير مذنبين ولا يعرفون شيئا عن هذه الصورة. رفع الكوو يده وصاح:

ـ دي آخرتها يا كلاب؟ جبناكم من الصعيد، نظفناكم وفتحنا بيوتكم وعملناكم بني آدمين وفي الآخر تخونوا مولانا الملك!!

ارتفعت أصواتهم واضحة هذه المرة:

ـ إحنا مظلومين يا جناب الكوو.

ـ وحياة ربنا ما عملنا حاجة.

كان الكوو يلهث من فرط الغضب، سكت قليلا والتقط أنفاسه ثم صاح بصوت هادر:

ـ ولولوا كما النسوان، والله العظيم ما أرحمكم أبدا، لا يمكن أصدق أن تركيب الكاميرا تم بدون علمكم، أنتم خونة، الْجَلْد أقل عقاب تستحقونه، لكني قررت إلغاء عقوبة الضرب ولن أرجع عن قراري.

سكت الكوو فجأة وظهرت على وجهه ابتسامة صفراء عصبية كارهة، قال وهو ينطق الحروف ببطء كأنه يطعنهم:

ـ من اليوم لن تحصلوا على مليم واحد بقشيش.. أنصحكم تقللوا نفقاتكم لأنكم ستعيشون فقط على مرتباتكم.

استغرَقوا لحظات حتى استوعبوا الصدمة، ثم انطلقت أصواتهم تستعطفه بحرارة، لكن الكوو استدار وخرج من باب السطح كأنه لا يسمع، نزل الدرج بسرعة متوجها إلى سيارته بينما حميد يقفز في أثره.

صالحة

تشاجر سعيد معنا واشتبك مع كامل وكاد يضربه لولا تدخُّل أمي، ثم عاد آخر النهار إلى طنطا فاستعاد بيتنا الهدوء، في الصباح جاءت أبلة عائشة لزيارتنا، لما بدأت أمي تحكي قاطعتها عائشة قائلة:

ـ فايقة حكت لي كل شيء.

تنهدت أمي وقالت:

ـ وأنت رأيك إيه؟

مسحت أبلة عائشة بكفيها على وجهها ثم قالت:

ـ بصي يا صالحة، أنا عارفة إن سعيد وفايقة عاوزينك تقعدي مع عبد البر لغاية لما يكتبوا عقد المصنع.

ساد الصمت، مسحت أبلة عائشة بيدها على وجهها مرة أخرى وقالت:

ـ ربنا يعلم يا صالحة أنا أحبك زي فايقة بنتي، واللي أقبله على بنتي أقبله عليكِ، طبعا لازم تطلقي.

بدا الارتياح على وجه أمي وقالت بصوت خافت:

ـ ربنا يخليك يا عائشة، قلتِ الحق.

قالت عائشة:

ـ بنتي فايقة ماعجبهاش كلامي وعملت معي مشكلة في التليفون، طبعا هي قلبها على مصلحة زوجها، لكني أحب الحق، صالحة لا يمكن تقعد مع الرجل ده يوم واحد.

قالت أمي:

ـ أخوها كامل بيسعى لها في الطلاق وربنا يعوض عليها.

عادت أبلة عائشة لطبيعتها المرحة، مصمصت شفتيها وحركت حاجبيها وقالت:

ـ طبعا يعوض عليها، صالحة زي القمر، برنسيسة، وآهي صاغ سليم يا أختي، خاتمها لسه خلقة ربنا، ألف من يتمناها.

برغم الهم لم أتمالك نفسي من الضحك، خطر لي أن أبلة عائشة لا تستطيع الحديث في أي موضوع بدون إشارات جنسية، احتضنَتْ أمي أبلة عائشة بحرارة وهي تودعها على الباب، كان موقفها المساند لنا مؤثرا فعلا، لو شارك سعيد عبد البر في المصنع سيعود ذلك بالخير على ابنتها فايقة لكنها برغم ذلك تساند حقي في الطلاق، فكرت أن أبلة عائشة ـ بالرغم من بذاءاتها المستمرة ـ إنسانة أصيلة بمعنى الكلمة، كم رجلا يستطيع أن يساند الحق حتى لو أضر بمصالحه؟ بعد كلام أبلة عائشة أحسست براحة.. قلت لنفسي، لماذا لا أستذكر الرياضيات التي أعشقها.. أحسست ببهجة وأنا أستعيد القوانين وأحل المسائل بينما الموسيقى والأغاني تنبعث من الراديو بجواري، تعثرت قليلا في البداية ثم انطلقت، كانت الأرقام تحلق بي في خيال رائع، أتخيل الأرقام دائما وكأنها متناثرة في فضاء افتراضي، كأنها نجوم معلقة في سماء متخيلة وأنا أستمتع بجمعها وطرحها في ذهني، استغرقت تماما في حل المسائل لدرجة أنني لم أنتبه إلى باب الحجرة وهو يُفتح، فجأة أحسست بحركة، التفتُّ فوجدت كامل بجواري، ابتسم وقال:

ـ أنا مبسوط إنك رجعتِ تذاكري.

قلت:

ـ هي مش مذاكرة بالضبط، أنا أصلا بأحب الرياضيات ولما أحل المسائل نفسيتي بتستريح.

ضحك كامل وقال:

ـ أسرة همام كلها مواهب، على فكرة، أنا سألت لك على نظام البكالوريا منازل.

ـ مش فاهمة!

ـ وزارة المعارف عملت نظام يخليكِ تتقدمي للبكالوريا من البيت.. في الحالة دي نجيبلك مدرسين في البيت وتذاكري وتدخلي الامتحان.

قلت بدون تفكير:

ـ خايفة أسقط.

جلس كامل بجواري وأحاطني بذراعه وقال:

ـ حتنجحي بإذن الله، يوم السبت حأجيبلك الاستمارة تكتبيها.

انتابني إحساس جارف بالامتنان.. انحنى كامل وقَبَّلني على جبيني ثم انصرف وأغلق الباب بهدوء، فكّرت في كلام كامل، مستحيل أرجع مدرسة السنية، لن أتحمل نظرات العطف أو الشماتة من التلميذات والمُدَرِّسات، في نفس الوقت لن أتحمل معاناة أن أكون تلميذة جديدة في مدرسة أخرى، هناك احتمال ألا تقبلني المدارس النظامية أساسا، سمعت أن قانون وزارة المعارف يمنع قبول الطالبات المتزوجات أو المطلقات في المدارس.. ليس أمامي فعلا إلا ما اقترحه كامل، سيكون عليَّ أن أذاكر المنهج كله في البيت، تملكتني حماسة مفاجئة، انهمكت في حل مسائل الرياضة حتى أذن الفجر فصليت ونمت، استيقظت في اليوم التالي ساعة الظهر.. أخذت حَمَّاما وهرعت إلى المطبخ لأساعد أمي لكنها ألحت عليَّ حتى أفطر أولا، أعدَّتْ لي طبقا من الفول المهروس بالزيت والليمون، جلست في حجرة السفرة وأكلت بشهية،

سمعت جرس الباب وبعد قليل ظهرت أمي وقد بدا عليها الارتباك، اقتربت مني وهمست بانفعال:

ـ صالحة.. عبد البر هنا.

تطلعت إليها ولم أعلق، قالت مرة أخرى:

ـ عبد البر في الصالون وعاوز يشوفك.

ـ مش عاوزة أشوف خلقته.

ـ يا صالحة الرجل حضر بنفسه لغاية عندنا.

ـ أنتِ غيَّرتِ رأيك يا أمي؟

ـ يا بنتي أنا ما غيرتش رأيي لكن الرجل في بيتنا، الأصول تقابليه، ضروري نأخذه بالسياسة لغاية لما نخلص، لو رفضتِ تقابليه ممكن يعند معنا.

فكرت لأول مرة أنني قانونا لا زلت زوجة لعبد البر، من مصلحتي ألا أستفزه حتى يوافق على الطلاق، طلبت من أمي أن تُعد الشاي وتجلس معه حتى أرتدي ثيابي. ارتديت التايير الأبيض وصففت شعري بعناية وتركت خصلتين تتدليان على جبيني ووضعت طلاء شفاة قرمزيًّا وطبقة خفيفة من البودرة.. استغربت ما أفعله، إذا كنت لا أطيق عبد البر فلماذا أحرص على أن أكون أنيقة وجميلة أمامه؟! ربما حتى يدرك مدى خسارته عندما يفقدني، أو ربما لأثبت له أن حياتي لم تتأثر من غيابه، دخلت إلى حجرة الجلوس، كانت أمي جالسة في مواجهة عبد البر الذي كان يرتدي بدلة رمادية وقميصا أبيض بدون رباط عنق، نهض وابتسم وصافحني قائلا:

ـ أهلا يا صالحة.

رددت ببضع كلمات بصوت خافت وأشحت بوجهي.. نهضَتْ أمي وقالت:

ـ عن إذنكم، أنا داخلة المطبخ.

جلست في المقعد المجاور للباب كأنما أريد أن أطمئن أن بوسعي الانصراف في أي لحظة، تنحنح عبد البر وقال:

ـ يا صالحة عاوز أقول لك إني مش شَمَّام.

ـ ده موضوع يخصك.

ـ أول مرة في حياتي أشم كانت يوم ما شفتيني، واحد صاحبي أعطاني البودرة وقال لي لما أكون متضايق أو متوتر آخذها.. كانت أول وآخر مرة أشم بودرة.

انطلق يتكلم بسرعة وكأنه أعد كلامه سلفا:

ـ سامحيني لو كنت انفعلت عليكِ يا صالحة.

بدت كلمة انفعال قليلة على الضرب المبرح الذي تلقيته، لم أرد، كتمت غضبي بصعوبة، استطرد عبد البر بصوت خافت:

ـ كامل أخوكِ جاء مكتبي وتطاول عليَّ لكني سامحته عشان خاطرك.

ـ شيء طبيعي إن كامل يغضب.

ابتسم عبد البر وقال:

ـ أنا جئت لغاية بيتك واعتذرت.

قلت بصوت عالٍ:

ـ حتى لو قبلت اعتذارك ما ينفعش نعيش مع بعض.

ـ يا ستي البيوت يا ما بيحصل فيها.

ـ حياتنا مع بعض خلصت لغاية كده.

نهض عبد البر فجأة واقترب مني فقمت من المقعد وتراجعت خطوتين إلى الخلف، قال:

ـ يا صالحة حرام نخرب بيتنا بإيدنا.

ـ كل شيء نصيب.

ـ طيب، خذي مهلة للتفكير.

قال العبارة الأخيرة بصوت متهدج، كدت أشفق عليه لكنني قلت بسرعة لأحسم الأمر:

ـ أنا مصممة على الطلاق.

تغير وجهه فجأة وصاح:

ـ أنت فاكرة نفسك مين؟

صِحت:

ـ من فضلك ما تغلطش.

استرسل بصوت أعلى:

ـ أنا غلطان لأني جئت لكِ.. يظهر أنك ما تستاهليش أعاملك باحترام.

ـ خلّي بالك من كلامك.

هكذا قالت أمي، كانت تستمع إلى الحوار من خلف الباب فدخلت ووقفت بيننا وقد بدا عليها الغضب. رد عبد البر بلهجة مستفزة:

ـ طالما بنتك راكبة رأسها يبقى ما فيش طلاق.

ـ حتطلقها برضاك أو غصبٍ عنك.

ـ أنا حأرفع قضية وأجيبها في بيت الطاعة.

أشارت أمي إلى الباب وقالت:

ـ مش حأرد عليك لأنك في بيتي، تفضل مع السلامة.

كانت نبرة أمي حازمة لدرجة جعلته يخرج وهو يدمدم بكلمات غاضبة، سمعت خطواته تبتعد ثم صوت باب الشقة يُفتح ويُغلق.. ما إن عادت أمي حتى اجتاحني انفعال قوي. صِحت كأني أستنجد بها:

ـ عبد البر عاوز يذلني.

احتضنتني وقالت:

ـ ما عاش من يذلك، ربنا كبير ولازم ينصرك بإذن الله.

كامل

عندما استدعوني للتحقيق تملكني القلق، ألَّحت عليَّ هواجس سينمائية عن محققين يستطيعون الإيقاع بك فورا من تناقض أقوالك أو الارتباك البادي عليك أو ورقة وقعت منك أو خيط تعلق بثيابك أثناء ارتكابك للجريمة، كنت خائفا لأنني لا أُتْقِن الكذب، لو كذبت فإن أي شخص يراني سيدرك فورا أنني لا أقول الحقيقة، دخلت إلى حجرة التحقيق وأنا أغالب الرهبة، الضابط الذي يحقق معي في نحو

الأربعين يرتدي بدلة مدنية أنيقة للغاية، منذ اللحظة الأولى لم أسترح إليه، شيء ما في حركاته وابتسامته كان لزجا ومُصطنَعا.. كان يعاملني بتعالٍ، أسند ظهره إلى المقعد وتفحصني ببطء ثم قال:

ـ اسمك وعملك في نادي السيارات.

رددت بسرعة:

ـ اسمي كامل همام؛ طالب في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، وأعمل مساعد في المخزن مع مسيو جورج كومانوس.

أردت أن أؤكد أنني لست خادما وإنما موظف وطالب جامعي، أظن الرسالة وصلت لأنه اعتدل في جلسته وابتسم قائلا:

ـ آسفين للإزعاج يا كامل.. أنت كدارس للقانون ستفهمني، التعليمات عندي أن أحقق مع جميع العاملين في النادي، حتى مديرك مسيو كومانوس سأحقق معه.

سألني عن مواعيد عملي وطبيعته، أجبته، سألني إن كنت رأيت أي شيء غير طبيعي خلال الفترة الأخيرة.. بالرغم من ابتسامته الرسمية واللهجة المهذبة التي كان يغلف بها صوته إلا أنه بين الحين والآخر كان يفاجئني بنظرة متفحصة متشككة، نظرة محقق، طرح بضعة أسئلة أجبت عنها جميعا، حاولت أن أبدو هادئا وطبيعيا، أشعل سيجارة وابتسم بود وقال:

ـ تعرف أنني درست في كلية الشرطة نفس المقرر الذي تدرسه في الحقوق، أنت في أي سنة؟

ـ السنة الثانية.

ـ ما المواد التي تدرسها؟

ذكرت له المواد. راح يستمع إليَّ ثم قال فجأة:

ـ كيف يستطيع أي شخص أن يلتقط صورة لمولانا الملك بغير أن ينتبه أحد إليه.

ـ لا أعرف.

ـ أريد أن أستفيد من خيالك، لقد وجدنا الكاميرا والسؤال الآن من أدخلها إلى النادي وكيف؟

ـ لا أعرف.

ـ حاول أن تتخيل الطريقة المحتملة التي دخلت بها الكاميرا.

ـ الأعضاء والعاملون في النادي لا يخضعون للتفتيش عند دخولهم، يستطيع أي شخص إدخال الكاميرا إلى النادي.

ـ صحيح، لكن كيف تمكن من تثبيتها في صالة القمار؟

ـ ربما انتظر بعد انصراف العاملين وقام بتثبيتها في الثريا.

ـ كيف عرفت أنها كانت مثبتة في الثريا؟

هكذا سألني فجأة وهو يسدد نظرة قوية تكاد تكون عدوانية، ارتبكت لكني تمالكت نفسي وقلت باستهانة:

ـ كل العاملين يعرفون أنكم وجدتم الكاميرا معلقة في الثريا.

هز رأسه مبتسما، تطلعت إليه متحفزا، هل يظن أنه سيوقعني بهذه الألعاب؟! قال بلهجة ودية:

ـ مرة أخرى أرجو أن تعذرني لأني أنفذ تعليمات، ممكن أطلب منك خدمة؟

- تفضل.

كتب شيئا على ورقة صغيرة وقال وهو يمد يده بها:

- تفضل رقم تليفوني، لو عرفت أي معلومات تفيد التحقيق أبلغني فورًا.

تناولت الورقة وقلت:

- أنا أقضي اليوم كله في المخزن ولا أعرف كثيرا عما يحدث في النادي، على أي حال لو قدرت أساعدك لن أتأخر.

- أشكرك يا كامل.. تستطيع أن تنصرف.

قلت وأنا أنهض:

- ألاحظ أنك لم تسجل التحقيق، كنت أحب أن أوقع على أقوالي.

ابتسم ومد يده ليصافحني وقال:

- هذا ليس تحقيقا رسميا وإنما حوار أصدقاء، لا تقلق.

لمَّا استوعبت ما حدث تأكد انطباعي الكريه عنه: لماذا حاول الإيقاع بي؟ ولماذا قال لي في النهاية لا تقلق؟ هل يشك في أنني ركبت الكاميرا؟ لا شك أن هذا وارد في ذهنه، المحقق يجب أن يترك كل الاحتمالات مفتوحة، رُحت أُطَمْئِن نفسي بأن موقفي قوي، مستحيل أن يكشفني المحقق، صعودي إلى صالة القمار وتثبيت الكاميرا استغرق ربع ساعة وربما أقل، لم يرني مخلوق وأنا أصعد إلى صالة القمار وأنا أخرج منها.. لبيب التليفونيست رآني وأنا واقف في المدخل واقتنع أنني وصلت لتوي إلى النادي وأريد أن أعرف سبب الضجة المنبعثة من السطح.. بعد التقاط الصورة قام عبدون بنزع الفيلم من الكاميرا، وقد أكد لي أن

أحدا لم يره، لا يوجد دليل واحد ضدي، كل شيء في صفي، وبرغم ذلك تطاردني مخاوف، أكثر ما أخشاه أن يتم إلصاق التهمة بـأحد العاملين.. لو حدث ذلك ستكون ورطة.. لن يسمح لي ضميري بأن يؤذَى بريء بسببي، ومن ناحية أخرى لو اعترفت سأضيع ويضيع معي كل أعضاء التنظيم، لا بد أن أتماسك وأسيطر على هواجسي، ما حدث قد حدث وليس باستطاعتي تغييره، خرجت إلى الشارع وأنا غارق في التفكير، نظرت في الساعة فوجدتها الرابعة.. أمامي ساعة كاملة على موعدي مع الزملاء، دعاني حسن مؤمن إلى اجتماع طارئ وأوصاني بالحرص لأنني قد أكون مُرَاقَبًا.. قررت أن أمشي إلى قصر الأمير، المشي يهدئ أعصابي ويمنحني فرصة للتأمل، سلكت طريقا متعرجا يمر بشوارع ضيقة وكنت بين والحين أتوقف، أشعل سيجارة وأتطلع حولي لأتأكد أن أحدا لا يتبعني.. وصلت قبل الموعد بربع ساعة، لم أرغب في لقاء الأمير وحدي، كنت منهكا، لم تكن لديَّ رغبة ولا طاقة في الحوار.. ابتعدت عن القصر، مشيت حتى وصلت إلى شاطئ النيل وجلست على مقعد رخامي.. انهمرت الصور على ذهني واحدة تلو الأخرى، رأيتني وأنا أركب الكاميرا وأنا جالس مع ميتسي وأنا أتشاجر مع عبد البر، حاولت أن أجد تفسيرا لتوالي الأحداث بهذه السرعة.. وكأنني أعيش فيلما يقترب من نهايته، هل ما يحدث طبيعي والمشكلة عندي؟ هؤلاء المارة الذين يمشون بجواري هل تحفل حياتهم بأحداث مماثلة؟ لماذا لم أسقط في هذه الدوامة إلا بعد موت أبي؟ قبل الساعة الخامسة بدقائق دُرت حول القصر وعبرت باب الحديقة المفتوح ثم نزلت إلى الشقة التي نجتمع فيها، طرقت الباب ففتح لي الأمير، هز رأسه محييا وهمس:

ـ تفضل يا كامل.

وجدت الزملاء جميعا، حييتهم وجلست في المقعد البعيد بجوار النافذة، وضع الأمير نظارته الطبية الذهبية وقَلَّب في أوراق أمامه على المائدة ثم ابتسم وقال:

ـ أولا أهنئكم بنجاح العملية، لقد تم توزيع آلاف الصور في القاهرة، في الأسبوع القادم سننتهي من طبع كمية كبيرة من الصور لنوزعها في المحافظات، لقد استعملوا جهازا حديثا وكشفوا عن الكاميرا، لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئا، صورة الملك الفاضحة يتداولها الناس الآن في كل مكان.

سَرَت حالة من الانفعال بين الحاضرين وقال عم عطية بحماس:

ـ لقد وجّهنا ضربة مؤلمة إلى الملك الفاسد.

عقّبت أوديت بجدية:

ـ الأمر يتعدى فساد الملك كشخص إلى فساد نظام رأسمالي رجعي متواطئ مع الاحتلال.

دمدم الحاضرون موافقين بحماس، سأل الأمير:

ـ هل تابعتم ردود الفعل في الصحف؟

هز حسن مؤمن رأسه وقال بهدوء:

ـ هناك تعتيم تام على الفضيحة.

ابتسم الأمير وقال:

ـ كنت أظنهم أشجع من ذلك.

قال حسن:

- هناك صحف موالية للقصر وتتقاضى مصروفات سرية شهريا، وحتى الصحف المستقلة سيعتبر نشرها للصورة جريمة عيب في الذات الملكية.

قال عم عطية:

- نحن لا نحتاج إلى الصحافة، كفاية نوزع الصورة على الناس بأنفسنا.

تطلع الأمير نحوي وقال برقة:

- لا بد أن أشكر عبدون وكامل، لقد نَفَّذا العملية بدقة.

تمتم عبدون ممتنا وقلت بصوت خافت:

- أنا قمت بواجبي لا أكثر.

قال الأمير:

- سيكون رد فعل النظام عنيفا، الموضوع بالنسبة لرئيس القلم السياسي حياة أو موت، لو لم يعثر على الفاعل قد يفقد منصبه.

قالت أوديت:

- سيقومون بتكثيف المراقبة حتى يعثروا على خيط يدلهم علينا، علينا أن نأخذ حذرنا، أرجو أن نراجع إجراءات التأمين قبل أن ننصرف.

قال الأمير:

- يجب أن نتحاشى أي اتصالات بلا داع لأن الأمن قد يرصدها، موعدنا الثابت كل جمعة الساعة السابعة صباحا وسوف نخبركم في حالة تغييره.

التفت الأمير نحو عبدون وقال:

- كيف الحالة في نادي السيارات؟

تمهل عبدون قليلا كأنما يستجمع أفكاره ثم قال:

ـ الكوو يطبق على العاملين عقابا جماعيا.. منع عنهم البقشيش مما سيؤدي إلى تجويعهم بمعنى الكلمة، مرتب العامل في نادي السيارات لا يكفي احتياجات أسرته لمدة يومين.

تدخل عم عطية قائلا:

ـ وهل ستسكتون؟

ابتسم عبدون وقال:

ـ نحن ندرس الآن ما نستطيع عمله، لكن الموقف صعب، الكوو الآن في أقوى حالاته وقد أخذ من مدير النادي الإنجليزي تفويضا مطلقا ليوقّع على العاملين ما يشاء من عقاب.

قال عم عطية بحدة:

ـ يا بني هذا ليس عقابا، هذه جريمة، كيف يتم إجبار الناس على العمل بلا مقابل.

رد عبدون:

ـ البقشيش ليس أجرا رسميا كما أننا جميعا نعمل بدون عقود.

رشف الأمير من فنجان القهوة وقال:

ـ فكروا معي: عندما نوزع الصورة في المحافظات هل سيزداد الوضع سوءا بالنسبة للعاملين في النادي؟

ساد الصمت لحظات ثم قالت أوديت:

ـ بالعكس أعتقد أن توزيع الصورة في المحافظات سيؤكد أن العاملين في النادي ليسوا مسئولين عما حدث.

قال عبدون:

ـ سيظلون دائما مسئولين لأن الصورة تم التقاطها في النادي.

ردت أوديت:

ـ نعم ولكن توزيع الصورة في المحافظات معناه أن الموضوع أكبر من العاملين في النادي.

قال الأمير بلهجة جادة:

ـ كل ما أخشاه أن يَضْعف العاملون في النادي من شدة الضغط.

رد عبدون قائلا:

ـ حتى لو ضعفوا ليس لديهم معلومات، لم ير أحد الزميل كامل وهو يركب الكاميرا ولم يرني أحد وأنا أنتزع الفيلم.

هز الأمير رأسه ثم أخرج أوراقا من الحجم الكبير ووضعها على المائدة أمامه وقال:

ـ الآن يجب أن نراجع المهام بكل دقة، أي خلل في التنفيذ سيؤدي إلى سقوطنا جميعا.

أثارت هذه الجملة حالة من الرهبة بين الحاضرين فأنصتوا بانتباه وارتفع صوت الأمير من جديد:

ـ يجب أن يبدأ توزيع الصورة في نفس الساعة في كل المحافظات، لو تأخر الزملاء في أية محافظة سوف يتعرضون لخطر القبض عليهم.

قال حسن مؤمن بثقة:

ـ لقد أكدت ذلك على الزملاء جميعا.

ـ الأضمن أن تراجع معهم التعليمات من جديد.

سألت الأمير:

ـ متى يتم التوزيع؟

فكر الأمير وقال:

ـ من الناحية العملية أمامنا مهام عديدة: طباعة هذا العدد الكبير من الصور وتأمين المطابع وتحديد أماكن التوزيع في كل محافظة، كل ذلك يحتاج إلى وقت، لا يمكن أن ننفذ توزيع الصور قبل أسبوعين.

استغرق الاجتماع ساعتين وفي النهاية راجعَتْ معنا أوديت احتياطات التأمين، حييت الأمير والزملاء وانصرفت، عُدت بسرعة إلى البيت.. كان شارع السد مزدحما بالمارة كالعادة.. صعدت الدرج إلى بيتنا، ضغطت على الجرس ولم أستعمل مفتاحي، كنت أعرف أن أمي مستيقظة وكنت أحب أن أراها وهي تفتح الباب.. عندما أحتضنها وأُقَبّلها أحس باطمئنان، نفس شعوري عندما كنت أعود من المدرسة فأجدها واقفة خلف الباب وكأنها لم تفارق مكانها منذ ودّعتني في الصباح.. ألحت عليَّ أمي لأتعشى لكنني رفضت فأعدَّت لي سندوتشات وضعتها على مكتبي.. أخذت حَمَّاما وتوضأت ثم صليت العشاء وجلست أذاكر وأنا آكل، انهمكت تماما ولم أشعر بمرور الوقت.. فجأة هُيِّئ لي أنني أسمع صوتا قادما من الشارع، كانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا.. تجاهلت الصوت وركزت انتباهي في القراءة.. بعد لحظات تكرر الصوت بشكل أوضح، كان شخص ما يناديني باسمي، نهضت وهرعت إلى النافذة المفتوحة، تطلعت نحو مصدر الصوت، رأيت ميتسي تقف تحت نافذتي.. كانت ترتدي معطفا أزرق وخصلات شعرها مبعثرة على وجهها، وجدتني أصيح:

ـ ميتسي، ماذا حدث؟

لوّحت ميتسي بيدها وصاحت بصوت رنَّ في سكون الليل فبدا وقعُه غريبا:

ـ كامل.. ممكن تنزل؟ عاوزاك ضروري.

(٣٥)

استعد فوزي للسهرة، صفف شعره بعناية ودهنه بالفازلين وسكب نصف زجاجة العطر على جسده وارتدى فانلة رياضية أبرزت عضلات صدره وذراعيه فبدا كأنه عملاق أبيض يمشي بجوار عملاق آخر أسود هو محمود همام.. استقل الصديقان اللبمريتا، فوزي على مقعد القيادة ومحمود خلفه، حتى وصلا إلى شارع معمل السكر في جاردن سيتي.. كانت الساعة السابعة مساء والشارع هادئ يكاد يخلو من المارة، بدا فوزي ثابت الأعصاب تماما وكأنه ذاهب لزيارة عادية بعكس محمود الذي كان مضطربا مشتت الذهن، لقد تردد كثيرا في إنجاز هذه الزيارة ولولا إلحاح فوزي لما جاء، إنه خائف، هذه المرة مختلفة عن تجربته مع روزا أو داجمار.. لقد طلبت تفيدة هانم السرساوي من محمود صراحة أن ينام معها وقالت:

ـ سأدفع لك مثلما تدفع داجمار.

إنه لا يفهم كيف تعرف هؤلاء النسوة أخباره، لا شك أنهن يلتقين في مكان ما ويثرثرن بأسرارهن. عندما اتصل بتفيدة ليخبرها بحضوره الليلة رحبت بحرارة، قبل أن ينهي المكالمة قال لها إنه سيصحب معه فوزي، سكتت لحظة ثم قالت:

ـ أهلا به.. ييجي معك وبعدين يستأذن ويسيبنا.

ارتبك محمود وقال:

ـ فوزي صاحبي.. ونفسه يسهر مع حضرتك.

أجابته بسرعة:

ـ أهلا وسهلا، المهم نعمل موضوعنا أنا وأنت.

ارتبك محمود من صراحتها، يا لها من امرأة قارحة لا تعرف الخجل، كان قلقه يتزايد كلما اقترب من بيتها، عليه أن يقدم فوزي إلى امرأة لا يعرف ماذا سيكون رد فعلها، كلما حاول أن يتصور الموقف زاد اضطرابه وعجز عن التفكير. قبل أن يدخلا إلى العمارة توقف محمود فجأة وقال بنبرة متوسلة:

ـ فوزي، عشان خاطري بلاش المشوار ده، أنا قلبي مقبوض.

شخر فوزي مستنكرا وقال:

ـ هو لعب عيال! يلَّا يا جدع.

قطب محمود جبينه وأشاح بيده وقال:

ـ مش عارف إزاي حأقول لها إنك تنام معها بدل مني.

أمسك فوزي بمحمود من ذراعه الضخمة وجره إلى الأمام قائلا:

ـ ما تقلقش، أنا هأتصرف.

ـ يا فوزي الست عجوزة وشكلها صعب جدا، عاملة زي خيال المآتة.

ـ أنا قابل يا أخي، أنت ما لك!

استسلم محمود ومشى معه وما إن عبرا المدخل حتى استوقفهما

البوّاب، أُرْتِج على محمود، لكن فوزي تدارك الأمر فتنحنح وقال بثقة:

ـ إحنا طالعين عند تفيدة هانم السرساوي.

لمح فوزي الشك في عينَي البوَّاب فقال له باستهانة:

ـ ما لك واقف كده؟ سلامتك.. بأقولك عندنا موعد مع تفيدة هانم.

تطلع البواب إليهما لحظة ثم تراجع مُفسحا الطريق وقال:

ـ تفيدة هانم الدور الرابع شقة ١٧.

كاد محمود يقول إنه يعرف الشقة لكنه آثر السكوت، استقلا المصعد وعندما وقفا أمام الشقة تردد محمود لكن فوزي مد يده وضغط الجرس، بعد لحظات انفتح الباب وظهرت تفيدة السرساوي.. من الصعب وصفها بشكل وافٍ، كانت نحيلة للغاية، جسدها ضامر وجلدها متهدل مغطى بالتجاعيد ونمش الشيخوخة، عيناها الواسعتان المكحولتان وحاجباها الرفيعان المرسومان بدقة وملامحها الحادة وتقلصات شفتيها الرفيعتين المطليتين بأحمر قانٍ، كل ذلك كان يوحي بمزاج متقلب ناري، كان وجهها عابسا وبين الحين والحين تبدو عليه ابتسامة مستهزئة مختلطة بمرارة ما.. تبدو تفيدة دائما وكأنها مستريبة فيما يحدث أمامها، تتفحص من يُحدثها بتوجس وكأنها ستكتشف حالا كذبه وتآمره، كانت شخصية مزعجة لكل من يعرفها، شكاكة شرسة لا تكف عن الشجار واصطناع المشاكل، بالإضافة إلى ذلك فإنها تحمل طابعا عتيقا على نحو ما، كأنها مقلدة، غير حقيقية.. كأنها خرجت من آلة الزمن، عادت لتوها من الماضي، كأنها شخصية خرجت من فيلم أبيض وأسود، أو صورة تم انتزاعها من ألبوم قديم.

قال محمود:

ـ مساء الخير يا ست هانم.

ـ أهلا يا محمود.

هكذا قالت تفيدة هانم، ثم أشارت إلى فوزي وقالت بحدة:

ـ مين ده؟

رد محمود بسرعة:

ـ حضرتِك نسيتِ؟ ده صاحبي فوزي اللي كلمتك عنه.

هزت رأسها ورمقت فوزي بنظرة مستريبة، مرت لحظات ولم تَدْعُهما للدخول، ظل محمود واقفا في مكانه بينما تقدم فوزي نحوها بجسارة وقال:

ـ مساء الخير يا تفيدة هانم.. أنا طلبت من محمود يجيبني معه، لما سمعت إن سيادتك شخصية لطيفة وجميلة أحببت أتعرف عليك، بصراحة أنا تخيلتك ولما شفتك لقيتك أجمل من خيالي.

بدا وقع الكلام غريبا، راح فوزي يتطلع إلى تفيدة بوقاحة كاملة.. تلون وجه تفيده كقوس قزح، تغيرت تعبيرات وجهها، بدا عليها ما يشبه الانزعاج لكنها أجفلت وارتخت جفونها كأن فكرة ما طرأت على ذهنها ثم تراجعت خطوتين وقالت:

ـ تفضلوا.

دخل الصديقان إلى الصالة الفسيحة ذات السقف الشاهق، كانت مدام تفيدة تعيش وحدها في شقة من طراز العشرينيات مكونة من ست حجرات فسيحة وصالة وحَمَّامين.. جلسَتْ على الأريكة وظلت تتطلع

إليهما وهما جالسان على مقعدين متجاورَيْن.. بدا الموقف غامضا وغريبا وتساءل محمود كيف تستقبلهما في بيتها بغير أن تنطق بكلمة ترحيب واحدة، كان لا بد لأحد أن يبدأ الكلام فقال محمود بصوت خافت متلعثم:

ـ إزيك يا تفيدة هانم، إن شاء الله تكوني بخير.

لم ترد تفيدة، نظرت إلى محمود مليا كأنها تستشف نيته ثم حولت نظرها إلى فوزي فرأت لأول مرة في ضوء المصباح جسده الضخم الممشوق وعضلاته المفتولة، التقط فوزي الخيط فابتسم وقال:

ـ أنا اسمي فوزي وتحت أمرك يا ست هانم، أي حاجة عاوزاها من محمود أنا ممكن أعملها.

بدت تفيدة كالمأخوذة، راحت تحملق فيهما وكأن ما يحدث أغرب من استيعابها ثم لانت نظرتها الحادة وقالت:

ـ تحبّوا تشربوا حاجة؟

صاح فوزي:

ـ هاتِ لنا نبيذ أحمر.

نهضت ومشت نحو المطبخ، لكن فوزي لاحقها قائلا:

ـ طبعا مش ممكن نشرب نبيذ على بطن فاضية.

التفتت تفيدة نحوه فضحك وقال:

ـ هاتِ لنا أكلة حلوة، لازم ناكل تمام عشان يبقى عندنا طاقة.

وقاحة فوزي المتزايدة أربكت محمود فأطرق صامتا ووضع يديه

على ساقيه فبدا وكأنه يؤدي واجب العزاء، وقفت تفيدة هانم كأنها لا تعرف ماذا تفعل ثم استدارت وعبرت الردهة وغابت بالداخل.. تطلع محمود عبر الردهة ولما تأكد أن تفيدة وصلت إلى المطبخ وَجّه نظرة لائمة إلى صديقه وقال:

ـ يخرب بيتك يا فوزي حتودينا في داهية.

ضحك فوزي باستهانة وقال:

ـ ما لكش دعوة أنت، النسوان القارحة دي عاوزة معاملة جامدة من الأول.

ـ لكن أنت زودتها جدا.

ـ يا بني هي مش طلبت تنام معك؟

انفعل محمود وهمس بحدة:

ـ طلبت تنام معي مش معك أنت، وحتى لو طلبت الجنس لازم نعاملها باحترام، دي ست كبيرة في السن ومن بيت معروف وأنت بتعاملها كأنها مومس.

ـ ما هي فعلا مومس.

ـ خلّي بالك لو الست تفيدة غضبت علينا ممكن تجيب لنا مصيبة.

بان الضجر على وجه فوزي وقال:

ـ اسكت يا محمود بلا أفكار خائبة، أنا عارف أنا بأعمل إيه.

اضطرا إلى قطع الحوار لأن تفيدة ظهرت قادمة عبر الردهة، كانت تمشي ببطء وتدفع أمامها مائدة بعجلات رصت فوقها زجاجة نبيذ أحمر

مفتوحة وقد قلبت السدادة على فتحتها وثلاث كئوس طويلة وعدة أطباق صغيرة فيها مزات متنوعة؛ جبن أبيض وزيتون وخيار مملح ودجاجة مشوية مقسمة إلى أربعة أجزاء، بالإضافة إلى ثلاث شِوَك فضية وطبق من الخوص وضعت فيه قطعًا من الخبز وغطتها بفوطة بيضاء ناصعة، فقد محمود شهيته من التوتر فاكتفى بكأس واحدة وربع دجاجة، بينما أكل فوزي بشهية جامحة وشرب عدة كئوس من النبيذ وهو يتحدث مع تفيدة كأنه يعرفها من زمان، تكلما في موضوعات عابرة ثم سألها فوزي فجأة:

ـ محل السرساوي للذهب اللي في الصاغة ملكك؟

ـ المحل أصلا ملك والدي الله يرحمه وأنا ورثته مع إخوتي.

ـ عندك كم أخ؟

بدت تفيدة للحظة وكأنها على وشك الاعتراض لكنها ترددت ثم انصاعت وقالت:

ـ عندي أخ وأخت.

كادت تقول أصغر مني لكنها سكتت، انتهى فوزي من الأكل ونهض متثاقلا إلى الحَمَّام ثم عاد وتوجه نحو تفيدة، جلس بجوارها على الأريكة ووضع يده على كتفها وهمس بود:

ـ عارفة إنك جميلة جدا؟

بدت الكلمة غريبة على وجه تفيدة المنهك المجعد الملطخ بالماكياج، قالت بنبرة رسمية تستعملها لأول مرة:

ـ أشكرك على المجاملة.

أحس فوزي باستفزاز مفاجئ وقال لنفسه: «لا يا روح أمَّك،

ما تعمليش فيها خضرة الشريفة»، كانت الخمر قد ضاعفت من وقاحته فاقترب بوجهه ودس أنفه في رقبة تفيدة ومسح بيده أسفل ظهرها ثم قال بصوت متهدج:

ـ أنا مش بأجاملك، أنت جميلة فعلا، كلك أنوثة.

تأودت تفيدة فازداد فوزي التصاقا بها، دمدمت معترضة:

ـ لا.. من فضلك.

عندئذ تأكد لفوزي أنه على الطريق الصحيح، كان تمنُّعها زائفا، هشا ومكشوفا لدرجة أفصحت عن رغبتها، لم تنهض ولم تبتعد عنه بل إنها بالرغم من امتعاضها الظاهر بدت على وجهها انتعاشة ما، تمادى فوزي فالتصق بها أكثر ووضع يده تحت إبطها وراح يُقَبّل رقبتها وهو يهمس:

ـ يا جميل أنت.

نهرته تفيدة فيما يشبه الدلال:

ـ اعقل يا فوزي.. أنت اتجننت في دماغك؟

ـ مش قادر، أنتِ حلوة جدا يا تفيدة، قمر ١٤ يا إخواتي.

كان محمود يراقب المشهد وهو مذهول، لماذا يعامل فوزي السيدة بهذه الطريقة ولماذا تستجيب له؟ إنه لا يعرف السبب، في المرتين اللتين صاحب فيهما النساء الْمُسِنّات لم يبدأ في مغازلتهما بل حدث العكس، المرأة هي التي بدأت المغازلة، حتى تفيدة هانم عندما رآها لأول مرة هي التي بدأت، هذه المغازلات الوقحة التي يقوم بها فوزي ستظل دائما فوق طاقته، يجب أن يعترف أن فوزي أجرأ منه بكثير، بينما

محمود غارق في خواطره كان المشهد يتطور بسرعة، سابت العجوز نفسها وتنهدت وأطلقت ضحكة خافتة ثم فردت ساقيها أمامها فبدت عندئذ أشبه بحيوان في السيرك يستجيب لمداعبة مُدَرِّبه.. قَبَّل فوزي شفتيها بحرارة دفعتها إلى إطلاق صوت مكتوم طويل كأنها تزوم ثم راح يمتص أذنها بينما يعبث بيديه في مكان صدرها الضامر الممسوح.. لم يعد محمود يتحمل فهب واقفا وقال:

ـ أسيبك يا فوزي، مع السلامة يا مدام.

كان وقع صيغة الاحترام غريبا على فُحش المشهد.. نَحَّى فوزي تفيدة جانبا واستغرق لحظات حتى استجمع تركيزه ثم نهض وجذب محمود جانبا وهمس بحدة:

ـ إياك تمشي.

ـ أقعد أعمل إيه؟

ـ إحنا جينا سوا يبقى نمشي سوا.

ـ يا بني أنت شغال معها وأنا قعدتي ما لهاش لازمة، منظري مش حلو.

ـ بأقولك خليك معي.

كانت نبرة فوزي حاسمة فأطرق محمود وتقهقر، عندئذ عاد فوزي إلى تفيدة وجذبها من يدها فنهضت بسرعة وخفة كأنها كانت تنتظر الإشارة، تلقاها بين ذراعيه ثم تقدما عبر الردهة إلى حجرة النوم.

(٣٦)

استدعى مستر رايت الكوو إلى مكتبه وبادره قائلا:

ـ لقد فقدنا ثقة جلالة الملك، هذه أكبر خسارة لنادي السيارات منذ إنشائه.. إذا كان الملك نفسه قد انتُهِكت خصوصيته فإن أعضاء النادي سيمتنعون عن المجيء خوفا من أن تلتقط لهم صور تسيء إليهم.

بدا وجه مستر رايت محتقنا وكأنه يبذل جهدا للسيطرة على مشاعره، رد الكوو قائلا:

ـ أؤكد لك أنني سأتوصل إلى الخائن الذي وضع الكاميرا.

ـ اترك هذا الموضوع للبوليس السياسي، أنا أريدك في أمر آخر.

تطلع الكوو إلى مستر رايت الذي ملأ الغليون وأشعله ثم نفث سحابة من الدخان المعطر وقال:

ـ أريدك أن تقنع مولانا الملك بأن يعود إلى السهر في النادي.

هز الكوو رأسه بأسى وقال:

ـ هذه مهمة صعبة.

ـ لكنها ممكنة، أنا أعرف علاقتك بالملك.

ـ مولانا الملك لا زال متأثرا مما حدث.

ـ كل ما نريده أن يمنحنا فرصة أخرى.

ـ سأحاول.

قال مستر رايت بلهجة حازمة:

ـ اسمع، إذا أقنعت الملك بالعودة إلى النادي سأمنحك مكافأة كبيرة.

ذلك المساء فكر الكوو مليا وقرر أن يبذل كل ما بوسعه لتنفيذ المهمة.. بالطبع كان طامعا في المكافأة لكنه أيضا كان يحتاج إلى نوع من رد الاعتبار، لقد أحدثت الفضيحة شرخا في اعتزازه بنفسه وعمله، بعد عشرين عاما من السيطرة التامة على العاملين في القصور الملكية، أفلت الزمام وتسلل شخص بمعاونة الخدم إلى النادي ليلتقط صورة للملك وهو يرتدي الطرطور ويلعب القمار مع عشيقته ثم يوزع الصورة في مصر كلها، يا لها من فضيحة مدوية.. بقعة سوداء كبيرة لن تزول من تاريخه.. كلما فكر فيها تملَّكه الحنق على مستر رايت، هو السبب، لقد حذره منذ أن بدأ عبدون في تحريض الخدم ضد الإدارة لكن مستر رايت تجاهل التحذير مجاملة لعشيقته أوديت، لو أنه سمع كلامه وطرد عبدون لما حدث ما حدث، ثم ماذا يفعل البوليس السياسي بالضبط؟ بعد كل هذه التحقيقات وحملات التفتيش ماذا أنجزوا؟ إنهم حتى الآن لم يتوصلوا إلى الفاعل، لقد ذهب الكوو إلى أنور بك مكي رئيس القلم السياسي وأخبره أن عبدون هو الذي حرض الخدم على التمرد، استمع إليه مكي بك بابتسامة تعاطُف كأنه طفل ساذج ثم قال بثقة:

ـ أشكرك على تعاونك، اطمئن، كل ما قلته نحن نعرفه وندرسه بعناية.

وضع الكوو خطة لتنفيذ اتفاقه مع مستر رايت، كان بمقدوره دائما أن يقرأ مزاج الملك، بنظرة واحدة يدرك إذا كان جلالته مكتئبا أم غاضبا أم رائق المزاج.. ظل الكوو يترقب حتى سنحت الفرصة.. كان الملك قد خرج لتوه من الْحَمَّام وجلس يتناول الإفطار بشهية

واستمتاع، اقترب منه الكوو ووضع الجرائد الفرنسية على المائدة ثم تنهد وقَطّب جبينه وقال:

ـ يا مولانا، أنا حزين من أجل مستر جيمس رايت.

ـ ماذا يريد منا؟

هكذا سأل الملك مستنكرا فرد الكوو بتأثر:

ـ منذ أن حدثت تلك الواقعة المؤسفة في نادي السيارات.. يتصل بي كل يوم ليعبر عن أسفه.

ـ وماذا سيجدينا أسفه؟

أطرق الكوو وهز رأسه وقال:

ـ مولانا له الحق في أن يغضب مما حدث لكنني كخادم لجلالتك لم أر إنجليزيا مخلصا للعرش مثل مستر رايت.

كان تكوين الجملة بهذه الطريقة يُرضي الملك إلى أبعد حد.. بدا وجه جلالته مضطرما بانفعال متضارب ثم التهم قطعة من السجق الساخن وقال وهو يمسح طرف فمه بالفوطة:

ـ مهما قال رايت فإن ما حدث خيانة، لقد تم تصويري وانتهاك حياتي الخاصة.

تقلص وجه الكوو ودمدم غاضبا:

ـ لو أعلم مَن فعل ذلك لقتلته بيدي.

ـ لا تقلق، سوف يَقبض عليه البوليس السياسي قريبا.

هكذا قال الملك وهو يتظاهر بالاستهانة، ثم انحنى وأخذ رشفة

كبيرة من شراب الفاكهة المسكر (الكومبوت) الذي يعشقه، انتهز الكوو حالة التلذذ التي بدت على وجه مولانا وقال:

ـ مستر رايت بالتأكيد أخطأ، هو نفسه لا ينكر ذلك.. لكن يا مولانا.. ألم يخطئ ضباط البوليس السياسي والحرس الملكي أيضا، أليس من مهمتهم أن يُؤَمِّنوا مولانا الملك في أي لحظة.

ـ كلهم مقصرون.

ـ مستر رايت معترف بتقصيره لكنه يقول إن ضباط البوليس السياسي والحرس الملكي رجال أمن محترفون بينما هو في النهاية ليس إلا مدير مدني لا علاقة له بإجراءات التأمين والمراقبة.

بدا على الملك التفكير وهو يرشف مرة أخرى من الكومبوت، واستطرد الكوو هامسا:

ـ يا مولانا إن توزيع هذه الصورة المنحطة في كل مكان دليل على أن هناك مخططًا كبيرًا يستهدف العرش، يجب أن نتأكد أن المخربين لم يقوموا بتركيب كاميرات في القصور الملكية، أتمنى أن يقوم البوليس السياسي بواجبه قبل أن يلوم مدير نادي السيارات.

هز الملك رأسه موافقا واكتفى الكوو بهذا القدر وانتقل إلى حديث آخر، تجاهل الأمر تماما حتى سنحت له فرصة أخرى بعد أيام، كان الملك جالسا وحده في حجرة النوم الملكية عندما انحنى الكوو وقال بصوت خفيض كأنما يُفضي بسر:

ـ واجبي نحو العرش يفرض عليَّ أن أحكي لجلالتك واقعة حدثت بالأمس.

تطلع الملك إليه بمزيج من الفضول والدهشة، صمت الكوو لحظة ثم قال:

ـ أنا محرج يا مولانا لأني سأتكلم عن أحد أمراء أسرة محمد علي ولست سوى خادم لهم جميعا.

بدا الانزعاج على وجه الملك وقال:

ـ ماذا حدث؟

تململ الكوو وكأنه متردد وقال:

ـ سمو الأمير شامل يا مولانا.

ـ ما له؟ انطق.

ـ أعتذر مقدما عما سأقوله لكني عاهدت مولانا على الصدق.. سمو الأمير شامل لا يكف عن إطلاق الأكاذيب التي تسيء إلى العرش.

ـ ماذا قال؟

ـ لم أكن أحب يا مولانا أن أكرر هذا الكلام البذيء لكن الأمر لله، كان الأمير شامل بالأمس يتناول العشاء في نادي السيارات وقال لأصحابه إنه يعتبر حزب الوفد الممثل الشرعي الوحيد للأمة المصرية.

سكت الكوو من التأثر ثم استطرد بصوت متهدج:

ـ لقد تمادى سمو الأمير شامل وقال لضيوفه: إن شعبية النحاس أكبر من شعبية مولانا ملك مصر والسودان.

تطلع إليه الملك مستنكرا وسأل:

ـ أنت متأكد؟

ـ اتصل بي مستر رايت بنفسه هذا الصباح وحكى لي ما حدث وهو غاضب.

ـ وكيف عرف رايت؟

ـ سمو الأمير شامل أفرط في الشراب وقال هذا الكلام القبيح بصوت عالٍ فنقل الخدم ما قيل إلى مستر رايت.

اربد وجه الملك وظل صامتا واستطرد الكوو قائلا:

ـ كيف يتكلم سمو الأمير شامل عن جلالتك بهذه الطريقة في نادي السيارات الذي يشرف برئاسة جلالتكم الشرفية؟

قطب الملك جبينه ثم لوح بيده وقال:

ـ أنا لا أهتم بتخاريف شامل، الناس كلهم عارفين أنه شيوعي ومجنون.

ـ صدقت يا مولاي، مقام العرش الرفيع فوق هذه السخافات، مستر رايت باعتباره مديرا للنادي غاضب جدا وهو يطلب الإذن من جلالتك ليتخذ الإجراءات اللازمة ضد الأمير شامل.

ـ ماذا يريد أن يفعل؟

ـ حيث إن العيب في الذات الملكية جريمة في القانون المصري فإن مستر رايت لن يسمح للأمير شامل بتكرار ما فعله، لو قال سموه كلمة واحدة عن العرش سوف ينذره مستر رايت ثم يشطب عضويته من النادي.

انفرجت أسارير الملك فيما يشبه الرضا وقال:

ـ أبلغ جيمس رايت أن من حقه أن يتخذ ما يراه مناسبا من الإجراءات لحفظ النظام في النادي.

ساد الصمت لحظات ثم تنحنح الكوو وهمس:

ـ هل تسمح جلالتك لخادمك المطيع أن يقول رأيه؟

ـ تكلم.

ـ إن عداء سمو الأمير شامل للعرش مسألة معروفة لكن الذي جعله يتجرأ ويقول هذا الكلام في نادي السيارات أن جلالتك لم تعد تسهر في النادي، الأمير شامل لا يجرؤ على الظهور في النادي وجلالتك هناك.

اكتفى الكوو بهذا القدر وترك الفكرة تختمر على مهل في رأس الملك، بعد ذلك بأسبوع كان الملك جالسا في الشرفة يأكل الآيس كريم ساعة العصر عندما اقترب الكوو وانحنى وقال بصوت هامس:

ـ مولانا الملك لي رجاء.

تطلع إليه الملك متسائلا فقال:

ـ مستر جيمس رايت يتمنى من جلالتك أن تنعم عليه بمقابلة قصيرة، لمدة عشر دقائق.. لا أكثر.

وافق الملك على مقابلة مستر رايت، وطار الكوو بالخبر إلى مستر رايت الذي بدا على وجهه الارتياح وتمتم:

ـ أشكرك.

كان ذلك حدثا فريدا، أن يشكر مستر رايت رئيس الخدم بعبارة واضحة.. انحنى الكوو وقال:

ـ تحت أمرك.

في تمام الساعة الرابعة من عصر اليوم التالي مثل مستر رايت أمام مولانا الملك الذي ابتسم وقال بالإنجليزية:

ـ أهلا مستر رايت، كيف حالك؟

أشار الملك إلى مستر رايت فجلس وبدأ الحديث مباشرة:

ـ أتمنى أن يتسع صدر جلالتكم لما سوف أقوله.

هز الملك رأسه وتطلع إليه فقال:

ـ جلالة الملك، أتمنى أن تعفو عنا وتُشرّفنا بحضورك في نادي السيارات.

ـ لن أجلس في مكان مُخْتَرق من الشيوعيين.

ـ أعدك بشرفي يا مولانا أن ما حدث لن يتكرر أبدا.

صمت الملك وبدا التفكير على وجهه فتشجع مستر رايت وقال:

ـ يا مولانا لا أريد أن يحس المخربون أن جريمتهم قد جاءت بالنتيجة التي يريدونها، إن جلالة الملك أكبر وأعظم من أن يغير نظام حياته استجابة لهؤلاء الرعاع.

نطق مستر رايت كلمة رعاع باستهجان بالغ ترك تأثيره على الملك.. استطرد مستر رايت محاولا من جديد:

ـ إن الذي أنشأ النادي جلالة الملك الراحل والدكم العظيم، كما أن جلالتكم رئيس النادي الشرفي، نادي السيارات لا قيمة له إذا فقد عطفكم السامي، أرجو من جلالتكم أن تمنحونا فرصة لإصلاح الخطأ.

ابتسم الملك وقال:

ـ حسنا، سأفكر في هذا الأمر، مستر رايت سعدت بلقائك.

كانت هذه إشارة ملكية لإنهاء اللقاء، نهض مستر رايت ثم هز رأسه

مبتسما بامتنان ثم انصرف.. هل كان الملك في أعماقه راغبا في العودة إلى نادي السيارات؟ الإجابة نعم مؤكدة.. كان النادي بالنسبة إليه مكانا مسليا ورائعا ارتبط في ذهنه بأوقات جميلة، كان ذهابه إلى النادي يغير من نظام حياته ويحرره من البروتوكول الصارم، كان يسعد كطفل عندما يجلس في النادي متحررا من التقاليد الملكية وسط أصدقائه، يلتقي بالنساء الجميلات ويلعب البوكر ويأكل ما يريد، لم يكن الملك يتناول العشاء في المطعم لكن الأطباق لم تكن تنقطع عن مائدة القمار التي يجلس إليها.. سندوتشات من كل نوع كان ركابي يتألق في إعدادها: روزبيف وسوسيس وسكالوب بانيه أو لفائف باللحمة المفرومة والفراخ والجبن.. عندما يكون ورق اللعب جيدا والملك رابحا يبدو على جلالته الانشراح، يهم بقضم السندوتش بينما يمسك بأوراق اللعب في اليد الأخرى ويداعب الجالسين قائلا:

ـ يجب أن نقف دقيقة حدادا على اللورد سندوتش، لقد قدم هذا الرجل للإنسانية اختراعا عظيما.. هل تعرفون مَن هو اللورد سندوتش؟

عندئذ يؤكد الجالسون جميعا جهلهم بالاسم ليمنحوا الملك فرصة إظهار ثقافته، يستطرد الملك في زهو طفولي:

ـ اللورد إيرل سندوتش إنجليزي ولد عام ١٧١٨ وكان أول من اخترع السندوتش.

تكون هذه إشارة للحاضرين ليبدءوا فاصلا من المديح للملك والثناء على ثقافته الرفيعة ومواهبه المتعددة، بعد ذلك يجيء الحلو؛ أطباق متعاقبة من الأصناف المفضلة لجلالته: البسبوسة بالقشدة والكريم كراميل وكومبوت الفواكه، يلتهمها واحدا بعد الآخر وهو يلعب الورق، كل هذه المسرات افتقدها الملك، كان جلالته يتوق إلى السهر في

النادي لكنه كان يحتاج إلى غطاء معنوي لقراره وهذا بالضبط ما وفره الكوو لجلالته، يستطيع الملك الآن أن يقدم لمن يسأله تبريرات مقنعة، سيقول مثلا:

«إن توزيع الصورة بأعداد كبيرة دليل على أن المؤامرة ضد العرش كبيرة ومخطط لها بعناية، المشكلة ليست في نادي السيارات بالتحديد».

أو يقول: «جاءني مدير النادي مستر رايت وتوسل إليَّ لكي أعود إلى النادي، حقيقة تأثرت، هذا الإنجليزي مخلص للعرش أكثر من مصريين كثيرين»، ثم يضيف جلالته بحماس:

«نادي السيارات ملك العرش، لن أتركه أبدا ليسقط في أيدي المخربين والشيوعيين».

كانت هذه حيثيات القرار، عاد جلالة الملك إلى نادي السيارات في مشهد مهيب.. نزل العاملون جميعا واحتشدوا في المدخل يتقدمهم الكوو ومستر جيمس رايت الذي كان أنيقا للغاية: ارتدى بدلة لونها كحلي اتسق لونها مع القميص الأبيض الناصع ورباط العنق الأحمر، وقفوا ينتظرون على البوابة حوالي نصف ساعة حتى لاحت سيارة الملك البويك الحمراء وتهادت ثم توقفت أمام الباب.. تدافع الحرس والشماشرجية يجرون في كل اتجاه ونزل مولانا الملك، هرع نحوه مستر رايت وانحنى بشدة وقال بصوت مرتفع:

ـ من أعماق قلوبنا نشكرك يا مولانا.

هز الملك رأسه ولم يعلق، اكتفى جلالته بابتسامة مترفعة وراح يخطو بسرعة نحو المصعد، ارتبك الخدم لأنهم توقعوا أن تكون مراسم الاستقبال أطول، كان الملك يتوق إلى الجلوس إلى مائدة القمار التي

أوحشته، كما أن كلمات الشكر بقدر ما تسعده كانت تُذكّره بواقعة تصويره المؤلمة وهو يريد أن يتجاوز ما حدث وينساه تماما كأن لم يكن، عاد كل شيء إلى سيرته الأولى، اتخذ الملك موقعه المفضل على رأس المائدة الخضراء وسط المقربين إليه الذين انهمكوا في الحديث والشراب واللعب، أما الخدم فقد سرى بينهم حماس وتفاؤل، كانوا يحسون أن عودة مولانا الملك ستُنهي معاناتهم.. لا يمكن للكوو أن يستمر في عقابهم بينما جلالة الملك ذاته قد عفا عنهم، كانت عودة الملك بمثابة طاقة ضوء في نهاية نفق مظلم، اجتهد الخدم تلك الليلة وأدوا أفضل ما يعرفونه من فنون الخدمة، في الأيام التالية، انتظروا بين لحظة وأخرى أن يدعوهم الكوو ويبلغهم بإعادة البقشيش، كانوا يتوقون إلى تلك اللحظة لدرجة أن كثيرين منهم أعدوا كلمات الشكر الحماسية التي سيلقونها أمامه، مر أسبوع كامل والحال لم يتغير، راحوا يتساءلون: ماذا يريد الكوو؟ لماذا لا يرفع العقاب؟ إلى متى يعملون بلا مقابل؟ كانت أزمتهم تستحكم يوما بعد يوم، أصابهم إحباط وصاروا يؤدون العمل بلا حماس، يذهبون ويجيئون ويخدمون الزبائن وهم مشتتون، غارقون في الهموم.. الآن يدركون بوضوح أن الموضوع أكبر من عاصفة غضب ينحنون أمامها حتى تمضي، الكوو مُصِرٌّ على خراب بيوتهم، كأنه يحس بلذة شيطانية في إيذائهم، إنهم عاجزون عن الإنفاق على بيوتهم، من أين يدفعون مصاريف أولادهم وإيجار الشقق التي يسكنون فيها؟ ماذا حدث لنادي السيارات؟ هل أصابته اللعنة؟ لماذا تتوالى عليهم المصائب؟ إنهم يذهبون كل يوم إلى عملهم في النادي وهم يتوقعون مصيبة جديدة، لقد فقدوا إحساسهم بالأمن، كم يكرهون هذه الأيام السوداء ويحنُّون إلى حياتهم العادية قبل هذه الأحداث، صحيح كان الكوو يأمر بضربهم إذا أخطئوا لكنهم كانوا

ينعمون بالحماية، بالأمن، كانت هناك ثوابت، قواعد.. ظالمة صحيح لكنها أفضل من هذه الفوضى، كانت حياتهم تمضي وفقا لنسق معروف مستقر ثم فجأة.. ماذا حدث؟ تمرد عبدون وأصحابه وتطاولوا فانفتحت عليهم أبواب الجحيم، ماذا جنوا من تحدي الكوو؟ لقد منع عنهم الضرب لكنه منع البقشيش أيضا، كان بإمكانهم في السابق أن يتجنبوا عقوبة الضرب إذا أتقنوا عملهم، أما الآن فهم يعملون ويَشْقُون طوال الوردية بلا مقابل، كانوا في السابق يضعون البقشيش الذي يحصلون عليه في فتحة الصندوق الجوخ الأخضر الموجود في صالة القمار، الصندوق مغلق بقفل، ومساء الجمعة من كل أسبوع يفتح المتر شاكر الصندوق، يفرد الأوراق المالية المطوية ويرص النقود المعدنية على المائدة، يقوم بعد البقشيش أمامهم ويحتفظ بنصفه من أجل الكوو ويوزع عليهم النصف الآخر طبقا للأقدمية، كانوا يقفون أمام المتر شاكر وهو يعد البقشيش كأنهم أطفال منفعلون ينتظرون مكافأة مبهجة، كم كانوا يحبون مساء الجمعة وينتظرونه من أسبوع لأسبوع، إنها لحظة التقدير، بعد عمل شاق لمدة أسبوع يصلهم تقدير الزبائن في صورة نصيبهم من البقشيش، كل ذلك انتهى الآن، صاروا يضعون البقشيش في الصندوق الجوخ وهم يعلمون أنهم لن يأخذوا منه شيئا، يتطلعون إلى الأوراق المالية المطوية قبل أن يلقوا بها في فتحة الصندوق كأنما يلقون عليها النظرة الأخيرة.. صار الواحد منهم يعمل طوال الوردية ويتفانى في إرضاء الزبائن فيقدرون جهده ويمنحونه بقشيشًا وهم يظنون أنه سيأخذه لنفسه لكنه يسلمه في النهاية إلى المتر شاكر ولا يأخذ منه مليما، لم يعد المتر شاكر يعطيهم شيئا، صار يفرغ الصندوق ويحمل النقود كلها إلى الكوو مساء كل جمعة، كانت وجوه الخدم تعبر عن حسرة وغضب مكتوم عندما يرون المتر شاكر وهو يعد العملات

والأوراق المالية المطوية بعناية ثم يضعها كلها في ظرف كبير ويغلقه وينصرف، بعضهم لم يكن يتحمل المشهد فيدمدم بحسرة:

ـ حرام ولا حلال يا عم شاكر تأخذوا رزق عيالنا؟

ويرد آخر:

ـ يرضي ربنا إننا نشتغل بالمجان؟

يتجاهل المتر شاكر تعليقاتهم ويستمر في جمع النقود وعندما يستمرون في التذمر يصيح فيهم:

ـ كفاية لت وعجن، أنا عبد المأمور، عاوزين حاجة اتكلموا مع الكوو.

كان ذكر الكوو كافيا لإسكاتهم فورا، بالرغم من سخطهم عليه كانوا يتجنبون مواجهته، كان لا زال لديهم أمل في عفوه، يجب أن يسعوا إلى إرضاء الكوو وليس إغضابه، أي تحرك طائش أو كلمة غير محسوبة قد تجعل حل المشكلة مستحيلا، الحكمة تقتضيهم أن يرضخوا ويتحملوا، عندما يرى الكوو معاناتهم بالتأكيد سيرق قلبه، تحملوا هذه المعاناة شهرين كاملين، صبروا واستدانوا وأرجئوا دفع الفواتير المستحقة على بيوتهم ومع ذلك ظل الأمل يراودهم، أن تنتاب الكوو أريحية في لحظة ما فيصفح عنهم ويعود كل شيء لحاله، لا يملكون إلا هذا الأمل، معظمهم متزوجون ولديهم أولاد في المدارس وحتى العُزّاب يرسلون حوالات في أول كل شهر إلى أُسرهم في الصعيد، بدأ الأسبوع التاسع للمحنة وصاروا عاجزين فعلا عن الاستمرار بهذا الشكل، ساعة العصر اجتمعوا في المقهى، عمال وردية الليل جاءوا قبل أن يبدءوا عملهم وعمال وردية النهار جاءوا قبل انتهاء الوردية،

كان الحشد كبيرا، معظم الخدم حضروا لكن رؤساء الخدم غابوا، المتر شاكر كان جالسا يدخن الشيشة ولما وجدهم يتوافدون خمن الغرض من اجتماعهم فحاسب الجرسون وانصرف، البارمان بحر الوحيد من رؤساء الخدم الذي حضر، راح يدخن الشيشة بهدوء في الركن، جلسوا جميعا باستثناء كرارة السفرجي وآخرين معه ظلوا واقفين؛ ربما لأنهم لم يجدوا مقاعد أو لأنهم أرادوا أن يكونوا في وسط المشهد حتى يراهم ويسمعهم الجميع، صاح كرارة كأنما يفتتح العزف:

ـ وبعدين يا جماعة، حنعمل إيه في المصيبة دي؟

دمدموا متذمرين:

ـ عندنا نسوان وعيال في رقبتنا.

ـ نصرف على بيوتنا من أين.. نسرق ولا نشحذ؟

وصاح أحدهم مخاطبا سليمان العجوز:

ـ يا عم سليمان أنا ناوي أسيب الشغل.

ابتسم سليمان بحزن وقال:

ـ ما تقدرش.

صمتوا وقد انتابتهم رهبة مفاجئة، هز سليمان رأسه واستطرد قائلا:

ـ أي واحد يسيب الشغل من غير موافقة الكوو يروح في داهية، أنتم فاهمين المسألة سهلة؟ من عشرين سنة أول ما فتح النادي كان فيه سفرجي اسمه عنبر من الأقصر، عمل حاجة غلط قام الكوو ضربه، وقتها كان الكوو بيضربنا بيده، عنبر صعبت عليه نفسه، قعد طوال الليل سهران والصبح مشي من النادي، اختفى، عارفين الكوو عمل إيه؟ بلغ البوليس أن عنبر سرق فلوس، قبضوا عليه واتحاكم وخذ ثلاث سنين حبس.

أحسوا بهلع وهم يتخيلون أنفسهم وقد رماهم الكوو في السجن، يا لها من نهاية، آخر خدمة الغز علقة كما يقولون، قال كرارة السفرجي:

ـ يا جماعة لازم نلاقي حل.

رد عليه سماحي بضيق:

ـ عاوزنا نعمل إيه يا كرارة؟

ـ لازم نعرف مَن رَكّب الكاميرا.

ـ إذا كان البوليس بجلالة قدره ما عرفه إحنا اللي حنعرفه!!

كان عبدون جالسا في الركن، قام ومشى إلى وسط المقهى حتى صار في مواجهتهم وقال:

ـ يا جماعة افهموا، قطع البقشيش مالوش علاقة بِمَن رَكّب الكاميرا.

صاح كرارة وقد بدا على وجهه تعبير كاره:

ـ اطلع منها أنت يا عبدون.

تجاهله عبدون وقال بهدوء:

ـ الكوو كان سيمنع البقشيش في كل الأحوال، لو ما حصلتش فضيحة الملك كان حيلاقي سبب تاني.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني هو وافق على منع الضرب وفي نفس الوقت قرر ينتقم منا كلنا.

صاح كرارة وهو يدنو من عبدون متحفزا:

ـ كفاية كلام مسموم، حصلت فضيحة لمولانا الملك وطبيعي أن الكوو بيعاقبنا، بدل من نتحدى الكوو المفروض نتأسف له.

قال عبدون:

ـ نتأسف على إيه؟ إحنا ما لنا؟ البوليس السياسي هو اللي مسئول عن تأمين الملك، ثم إن الملك نفسه رجع يسهر في النادي وبقى يعاملنا عادي، يعني الكوو غضبان على سمعة الملك أكثر من الملك نفسه.

تململ الحاضرون وتهامسوا في حيرة. استطرد عبدون قائلاً:

ـ يا جماعة ما بيننا وبين الكوو معركة وإحنا أصحاب الحق، الكوو عاوزنا نفضل تحت رحمته، إحنا بنطلب معاملة محترمة، نعمل شغلنا ونأخذ حقوقنا ولو غلطنا نتحاسب من غير إهانة.

كانوا مشتتين تماما وبدا على وجوههم الأسى، قال سليمان العجوز:

ـ عاوزنا نعمل إيه يا عبدون؟

قال عبدون:

ـ نتمسك بكرامتنا.

وكأنهم كانوا ينتظرون كلمته لينفجروا.

ـ كرامة إيه ونيلة إيه!

ـ كفاية شعارات، عاوزين نربي عيالنا.

تعالت أصواتهم وتداخلت واتضح عندئذ أنهم ليسوا جميعا على نفس الرأي، أغلبهم كانوا حانقين على عبدون وبعضهم؛ سماحي وبحر وآخرون، دافعوا بحماس عن عبدون الذي ظل صامتا بينما الجدل حوله يشتد:

ـ عبدون على حق.

ـ عبدون سبب كل المصائب.

ـ هل ذنبه أنه دافع عن حقوقكم.

ـ بأي حق يتحدث باسمنا؟

ـ تقولون الآن ذلك، ألم تشكروه عندما منع الكوو الضرب؟

ـ شكرناه من باب الذوق لا أكثر ولا أقل، وآهي المصيبة وقعت على دماغنا.

قال كرارة السفرجي:

ـ اسمع يا عبدون، إيه رأيك تروح تعتذر للكوو؟

تعالت أصوات استحسان.

ـ فكرة ممتازة.

ـ فعلا، لو عبدون اعتذر للكوو أكيد حيسامحنا.

قال عبدون بلهجة حازمة:

ـ أنا لم أخطئ حتى أعتذر.

ـ لازم تعتذر.

هكذا صاح كرارة وارتفعت أصوات مؤيدة متداخلة كلها، تطلع عبدون إليهم وقال:

ـ أنا لن أعتذر ولن أسمح لأحد بأن يضربني ولا الكوو ولا حميد ولا أي حد، بدل ما تذلوا أنفسكم أكثر وتقبلوا أن الكوو يضربكم زي البهائم، كونوا رجالا واطلبوا حقوقكم ورءوسكم مرفوعة.

فجأة اندفع كرارة نحوه وصاح:

ـ يا أخي أنت طلعت لنا من أين؟ خربت بيوتنا الله يخرب بيتك.

هرع الواقفون ليقفوا بينهما منعا للاشتباك، انتابتهم كآبة كأنما أدركوا فجأة أن الوضع معقد والمصيبة مركبة، تقدم عم سليمان بخطوات بطيئة إلى وسط المقهى ثم أشار إليهم وقال:

ـ اسمعوا يا جماعة، قال ها الله ها الله على الجد.

رد أكثر من واحد:

ـ والجد ها الله ها الله عليه.

قال وهو يحاول أن يرفع صوته الضعيف ليسمعوه:

ـ عبدون مستكبر يعتذر للكوو، إحنا نروح نستسمحه.

ارتفعت أصوات مؤيدة لكن عبدون قال بصوت مرتفع:

ـ اعتذاركم للكوو لن يجيب نتيجة، كلما أذللتم أنفسكم سيذلكم أكثر.

صاح عم سليمان بغضب:

ـ أمرك غريب يا عبدون، يا أخي هو أنت وصي علينا، إحنا أحرار نعمل ما بدا لنا، مش عاجبك كلامنا تفضل فارقنا.

ابتسم عبدون بحزن وكرر عم سليمان طلبه:

ـ تفضل يا عبدون مع السلامة، أنا عاوز أكلم الجماعة في موضوع مش حيعجبك.

كان ذلك طردا صريحا، نظر عبدون إلى عم سليمان وكأنه لا يصدق ثم استدار ومشى نحو باب الخروج.

ـ استنى يا عبدون، أنا ماشي معك.

هكذا قال بحر البارمان ووضع مبسم الشيشة جانبا ونهض خلف عبدون ثم تبعه سماحي المرمطون وبعض الخدم، كان مؤيدو عبدون أقل من عشرة أشخاص من أصل ٤٤ رجلا يعملون في الخدمة، عندما خرج عبدون وأصحابه أحس بقية الخدم بارتياح وتحلقوا حول عم سليمان الذي راح يشرح فكرته، سيذهب بنفسه ليقدم اعتذارا جديدا للكوو، أيد الحاضرون الفكرة بحماس وصاح كرارة السفرجي:

ـ خذني معك يا عم سليمان.

هكذا تشكل الوفد من اثنين.. عم سليمان أكبر العاملين سنا وكرارة السفرجي أكثرهم إخلاصا للكوو وعداوة لجماعة عبدون.. قبيل منتصف الليل، استأذن كرارة من المتر شاكر بينما عهد عم سليمان لأحد السفرجية بالوقوف على البوابة وبناء على اتفاق مسبق، أوصلهما عم مصطفى السائق إلى قصر عابدين ثم عاد بسرعة إلى النادي، في مكتب الكوو نظر إليهما حميد باسترابة فقال عم سليمان بنبرة متأدبة:

ـ يا سيد حميد جئت مع كرارة لمقابلة جناب الكوو.

ـ بخصوص؟

ـ جئنا نترجى سيدنا الكوو حتى يضع حدا للفوضى التي انتشرت في النادي.

قام حميد ببطء ودخل إلى الكوو وبعد نحو نصف ساعة سمح لهما بالدخول، بدا الكوو كالعادة جليلا مهيبا، كان يرتدي بدلة الشماشرجي

الموشاة بالقصب وقد وضع نظارة القراءة الذهبية وراح يدخن سيجاره الفاخر، تطلع إليهما فبادره عم سليمان قائلا:

ـ يا جناب الكوو إحنا خدامينك، لحم كتافنا من خيرك، الولد عبدون والعيال اللي معه أفكارهم غلط في غلط، إحنا جئنا نتبرأ منهم قدام سيادتك.

نظر الكوو إلى سليمان بنظرة باردة محايدة كأنه لا يفهم ما يقوله.. تقدم كرارة السفرجي خطوتين وبدت على وجهه ابتسامة متوسلة وقال بصوت مرتجف:

ـ سايق عليك النبي ما ترجعنا مكسورين، اجبر بخاطرنا وسامحنا ورجع لنا البقشيش.. عيالنا جاعت وجنابك لا يمكن يرضيك الحال ده.

هز الكوو كتفيه ونفث سحابة من الدخان غطت وجهه وقال بهدوء:

ـ لما أنتم متبرئين من الولد عبدون كيف سكتّوا عليه؟

قال عم سليمان:

ـ يا جناب الكوو إحنا مقاطعينه تماما.

وعقَّب كرارة:

ـ الولد عبدون ما يقدرش ينطق بأي كلام سافل ضد جنابك قدامنا، كنا نموته.

هز سليمان رأسه وقال:

ـ معلوم، عبدون والعيال اللي معه بقوا منبوذين وسطنا، ما حدش فينا بيتكلم معهم.

ظل الكوو صامتا، لم يعقب، أمسك بالسيجار بين أصبعيه بينما جعل يتأمل أظافر يده اليسرى المقصوصة بعناية، بدا مستمتعا وكأنه يرشف من كوب الشاي بالنعناع، فكر كرارة وسليمان أن صمت الكوو علامة مشجعة.. تشجع كرارة وتحرك خطوة إلى الأمام وقال:

ـ يا جناب الكوو.. إحنا تحت أمرك، عاوز تضربنا اضربنا.. لكن وحياة سيدنا النبي بلاش قطع العيش.

كامل

خطر لي أنني أحلم، حدقت مرة أخرى، كانت ميتسي واقفة تحت نافذتي، أشارت إليَّ وصاحت:

ـ من فضلك انزل.

تمالكت نفسي بصعوبة وأشرت إليها أن تنتظر، ارتديت ملابسي على عجل وقفزت نازلا على الدرج، عندما وصلت إليها قلت وأنا ألهث:

ـ ميتسي، ماذا حدث؟

ـ هل تعرف مكانا نجلس فيه؟

لحُسن الحظ كنا في أول الشهر وفي جيبي مبلغ معقول.. أمسكت بيدها ومشيت بها نحو ميدان السيدة، بعد لحظات ظهر تاكسي من الناحية المقابلة أشرت إليه فتوقف، ركبنا وقلت له:

ـ فندق سميراميس من فضلك.

كنت أعرف أن الكافيتريا هناك مفتوحة طوال الليل، لم نتبادل كلمة واحدة طوال الطريق، أي كلام قبل أن أعرف ما حدث سيكون بلا معنى، دخلنا إلى البهو واخترنا مائدة تطل على النيل، ظهر الجرسون مبتسما، طلبت قهوة وطلبت ميتسي عصير ليمون، رأيت وجهها في الضوء، بدت مرهقة تماما، كانت شاحبة وثمة هالات سوداء تحت عينيها كأنها لم تنم منذ أيام، أشعلت سيجارة وتطلعت إليَّ وقالت:

ـ لقد تركت البيت.

ـ ألم يكن ممكنا أن تنتظري حتى الصباح؟

ـ لم أعد أتحمل.

ـ كل ذلك لأنك لم تذهبي إلى الملك؟

ـ موضوع الملك أحد الأسباب، مشكلتي مع أبي كبيرة وقديمة.. إذا كان هناك شخص في هذا العالم أختلف معه في كل شيء فهو أبي.

هزت رأسها ورشفت من كوب العصير وقالت:

ـ يؤسفني أن أقول إنني لا أحترم أبي.

أطرقَتْ لحظة ثم رفعتْ رأسها لتقول شيئا لكنها فجأة أجهشت بالبكاء، مددت يدي عبر المائدة وربت على يدها وقلت:

ـ ميتسي، اهدئي، أرجوكِ.

ـ أنا تعبت من كل ذلك، أبي يتحكم فيَّ لأنه ينفق عليَّ، أحس دائما بأنه يسعى لإذلالي، لديَّ إحساس بالإهانة.

ظللت صامتا.. كنت أمقت أباها وأحس بكل كلمة تقولها، استطردت ميتسي بانفعال:

- لا أعرف ماذا أفعل، لقد تركت البيت وليس لي مكان ألجأ إليه وليس معي نقود.

اندفعت أقول بحماس:

- لا تقلقي.. سننتظر حتى الصباح ثم تأتين إلى البيت عندي.

- أنت لا تنقصك المشاكل.. يكفي متاعبك في العمل ودراستك ومشكلات أختك مع زوجها، لن أسمح لنفسي بأن أكون عبئا إضافيا عليك.

تمنيت في تلك اللحظة أن آخذها في حضني، همست:

- لن تكوني عبئا عليَّ أبدا.

قالت بتأثر:

- أشكرك.

- سأحدد لك أفضل طريقة لشكري فيما بعد.

ابتسمَتْ ميتسي لأول مرة، كم بدت جميلة في تلك اللحظة، وجهها المرهق الشاحب ونظرتها الحزينة مع ابتسامتها، كل ذلك أعطاها رونقا ساحرا، بدت كلوحة بديعة أجمل من أن تكون حقيقية، طلبنا فنجانين من القهوة، حاولت أن أسري عنها.. تعمدت أن أحدثها في موضوعات عامة، انتظرت حتى بلغت الساعة الخامسة صباحا، دفعت الحساب وخرجنا إلى الشارع، برغم كل شيء كنت أحس بسعادة غامرة لأنها تمشي بجواري.. أخذنا تاكسيا إلى البيت، أمسكَتْ ميتسي بيدي ونحن نصعد السلم، فجأة، بدا لي ما يحدث غريبا، كأنني في حلم، ها أنا أصطحب ميتسي لتعيش في بيتنا، فتحت الباب بالمفتاح وطلبت

من ميتسي أن تجلس على الأريكة في المدخل حتى أعود إليها، عبرتُ الردهة إلى حجرة أمي، كما توقعت، وجدتها جالسة على سجادة الصلاة وقد انتهت من صلاة الفجر وراحت تقرأ القرآن، حييتُها وقَبَّلت رأسها فتطلعت إليَّ بقلق وقالت:

ـ أين كنت؟

جلست بجوارها وشرحت لها الموقف، ركزت على أن ميتسي في موقف صعب لأنها تركت البيت ولأنها أجنبية لا تعرف البلد وليس معها نقود لتنزل في فندق، سأظل دوما معجبا بقدرة أمي على مواجهة المواقف الصادمة، لن أنسى تعبيرات وجهها المتلاحقة، فوجِئَتْ ثم اندهشَتْ وفكرت قليلا وأخيرا تطلعَتْ إليَّ بوجه حازم وقالت:

ـ طالما لجأَتْ إلينا يبقى تعيش معنا مُعزّزة مكرمة لغاية لما تتصالح مع أهلها.

ـ لا أعتقد أنها ستتصالح مع مستر رايت.

ـ البنت لا تستغني عن أبيها.

ـ يا أمي أنا أعرف تفاصيل ليس من حقي أن أحكيها لكِ، أبوها ليس أمينا عليها.

ـ يا ساتر يا رب.

ـ أنا غرضي نستضيف ميتسي يومين ثلاثة لغاية ما تلاقي شغل وشقة تسكن فيها.

ـ أهلا وسهلا، لكن فيه حاجة لازم أقولها لك.

سكتت أمي لحظة كأنما تنتقي الكلمات ثم قالت:

ـ ألاحظ يا كامل أنك مَيّال لها، أنت حر لكن لازم تفهم أن بيت الهمامية طول عمره طاهر زي الجامع، ميتسي حتبيّت مع صالحة في حجرتها وأنت خليك بعيد عنها طول ما هي في البيت.

ـ حاضر.

ـ توعدني؟

ـ أوعدك.

تنهدت أمي وكأنما حَرَّرَتْها موافقتي من الهواجس ثم نهضت وخرجت معي إلى الصالة، كانت ميتسي لا زالت جالسة على الأريكة، استقبلَتْها أمي بترحاب صادق، احتضنتها وأخذتها من يدها ولما تبعتهما توقفت أمي وابتسمت وقالت:

ـ سيب لي ميتسي، تفضل أنت مع السلامة.

تركتهما وعدت إلى حجرتي، لم أحاول النوم لأنني كنت أعرف أنني لن أستطيع، ظللت مستلقيا على السرير، أحدق في السقف وأدخن، كنت مرهقا لدرجة أثارت مشاعري، أحسست فجأة بكراهية عنيفة لجيمس رايت؛ هذا الرجل وغد بمعنى الكلمة، هل كنت أتخيل أن يتصرف بهذه السفالة؟! هل كان بمقدوري أن أستشف أفعاله من مظهره؟ قادني هذا السؤال إلى العلاقة بين شكل الإنسان وشخصيته، ما هو الانطباع الأول الذي يتركه شخص مثل رايت أو عبد البر، استعدت لقائي الأول بكل منهما.. لم أسترح إليهما منذ اللحظة الأولى.. عندما نرى شخصا لأول مرة ينتابنا إحساس خاطف كالومضة يضيع بعد ذلك أثناء تعاملنا معه، لو قرأنا هذا الإحساس بعناية سيكون مؤشرا دقيقا على شخصيات الآخرين، كانت هذه آخر فكرة وردت على ذهني، غلبني النعاس واستيقظت متأخرا

فهرعت إلى الحَمَّام وارتديت ثيابي على عجل ثم أخذت تاكسيا من شارع السد إلى النادي، وجدت مسيو كومانوس جالسا إلى مكتبه، بادرني بلهجة لائمة:

ـ الساعة كم معك؟

ـ آسف للتأخير.

ـ ما ينفعش تتأخر يا كامل، الشغل شغل، اطلع هات صناديق البيرة الفارغة من البار.

حملت الصناديق إلى المخزن، بعد ذلك أديت بعض المهمات ولما انتهيت، جلست أراجع كل ما خرج من المخزن في اليوم السابق، كنت مرهقا لدرجة أنني كررت الحسابات البسيطة أكثر من مرة، انتبهت على يد تلمس كتفي فوجدت مسيو كومانوس يبتسم، قلت بصوت خافت:

ـ مسيو كومانوس أعتذر مرة أخرى عن التأخير، سهرت أذاكر وراحت عليَّ نومة.

بان على وجهه تعبير متسامح وقال:

ـ آخر مرة تتأخر.

ـ حاضر.

عُدت للقراءة بسرعة كأنني أقطع على نفسي خط الرجعة، لم أكن أريد أن أحكي لكومانوس عن مشكلة ميتسي مع أنني أحبه وأثق فيه، فكرت أنني في تلك اللحظة أعتبر كومانوس أجنبيا وأتوقع منه أن يغضب من وجود ميتسي في بيتي لأنها أجنبية مثله، خجلت من هذه الفكرة

العنصرية السخيفة.. كومانوس صديق أبي المخلص الذي ساعدنا وقدم لنا أنا ومحمود فرصة العمل في النادي، عندما حانت ساعة الانصراف، قلت لكومانوس وأنا أصافحه:

ـ عاوز أشكرك على كل المواقف اللي عملتها معي أنا وأسرتي.

ابتسم مسيو كومانوس بحرج وقال:

ـ أنا ما عملتش حاجة، أبوك كان أخا لي.

ارتحت بعدما شكرت كومانوس.. لا يستحق كومانوس ـ بعد كل ما فعله معي ـ أن أعامله كأجنبي، فكرت أن أعود إليه لأخبره بموضوع ميتسي ثم استسخفت الفكرة، كنت منهكا، مشوش الذهن.. مشيت في شارع سليمان باشا وفجأة طرأت عليَّ فكرة، اتصلت بالأمير من تليفون محل الدخان، ما إن سمعت صوته حتى اندفعت أقول:

ـ سمو الأمير.. أريد أن أراك الآن.

قال بانزعاج:

ـ خير يا كامل.

ـ الموضوع لا يمكن مناقشته في التليفون.

تردد قليلا، ثم قال:

ـ طيب.. تعالَ.

بعد نصف ساعة كان مدير القصر يقودني إلى الاستوديو، كان الأمير بزي العمل جالسا إلى المائدة التي يقص عليها الصور، تماما كما رأيته في المرة الأولى.

استقبلني بحفاوة ودعاني للجلوس وقال:

ـ يا رجل قلقتني، ماذا حدث؟

كأنني كنت أنتظر إشارة البدء، حكيت للأمير عن موضوع صالحة وعبد البر وأخبرته أيضا بأن ميتسي في بيتنا، لم أخفِ عنه شيئا، استمع الأمير بهدوء وكان بين الحين والآخر يسأل عن بعض التفاصيل، بعد أن فرغت أحسست براحة كأنني تحررت من عبء ثقيل، قام الأمير وصب لنفسه كأسا من الويسكي ثم وضع بضعة مكعبات من الثلج ورشف منه وبدت على وجهه ابتسامة عابثة وقال:

ـ أنت بتحب ميتسي؟

ظللت صامتا فأطلق الأمير ضحكة صاخبة وقال:

ـ باين عليك بتحبها قوي.

تمتمت قائلا:

ـ ميتسي إنسانة طيبة وراقية.

لمعت عينا الأمير وقال بحماس:

ـ هل أحببت من قبل؟

هززت رأسي بالنفي فصاح الأمير بالفرنسية:

ـ أوه، الحب الأول، أيها الشاعر، احتفظ بإحساسك نحو ميتسي حتى تكتب قصائد جميلة.

ساد الصمت من جديد ثم استعاد الأمير جديته وقال:

ـ بالنسبة للموضوع الثاني لو عاوز رأيي؟ أختك طبعا لازم تطلق، لا يمكن تعيش مع رجل بالشكل ده.

ـ هو رافض يطلق.

سكت الأمير وبدا عليه التفكير ثم ناولني ورقة وقلمًا وقال:

ـ اكتب لي اسم الأفندي زوج أختك وعنوانه بالكامل.

كتبت ما طلبه وناولته الورقة فألقى عليها نظرة ووضعها أمامه على المكتب، بعد قليل عندما استأذنتُ لأنصرف، صافحني الأمير مودعا وقال:

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء يا كامل لكنني سأعمل جهدي لأساعدك.

(٣٧)

نزل الصديقان من بيت تفيدة السرساوي بعد منتصف الليل، ركب محمود كالعادة في الخلف بينما قاد فوزي اللمبريتا وانطلق بها بسرعة هائلة، ظلا صامتَيْن، كانا متأثرَيْن بما حدث في شقة تفيدة، بعد لحظات بدأ فوزي يدندن بأغنية لعبد الوهاب ولاحظ محمود أنه لا يتجه نحو بيتهما في السيدة زينب فصاح:

ـ أنت رايح على فين؟

ـ رايح مكان جميل.

هكذا قال فوزي ضاحكا وقد بدا في حالة نفسية رائعة، اتجه فوزي إلى حي القلعة ثم انحرف يمينا إلى حارة ضيقة وركن اللمبريتا بجوار الرصيف، دخل الصديقان بيتا عتيقا وصعدا سلما ضيقا ملتويا حتى وصلا إلى السطح، كان محمود يرى هذه الغرزة لأول مرة.. جلس الرواد على أرائك خشبية تم رصها بطول السور وفي منتصف السطح انتصب إناء معدني كبير مليء بقِطَع الفحم المتوهجة بينما راح الصبيان يروحون ويجيئون وهم يحملون الجوز والمناقد، كان فوزي معروفا للرواد وأيضا لصاحب الغرزة الذي قام لتحيته وعانقه بحرارة، قال فوزي بصوت غليظ كان يستعمله أحيانا لإضفاء الوقار على نفسه:

ـ إزيك يا معلم، والله لك وحشة.

جلس الصديقان في الركن وهرع إليهما صبي الغرزة بالجوزة ومنقد الفحم المتوهج فأخرج فوزي قطعة حشيش من جيبه وراح ينزع منها بأسنانه قِطعا صغيرة يوزعها على أحجار المعسل، أشعل الحجر الأول وجذب نَفَسا عميقا جعل الماء يكركر في الجوزة ثم ناول الصبي البوصة وأخرج سحابة من الدخان من فمه وفتحتَيْ أنفه والتفت إلى محمود وقال:

ـ لازم نفرفش ونعمل دماغ بعد حكاية تفيدة دي.

كان محمود يفضل تأثير الخمر الحماسي المبهج على الحشيش الذي يثقل رأسه وكثيرا ما يصيبه بكآبة.. سحب عدة أنفاس قصيرة من الجوزة ثم أعادها إلى الصبي الذي أكمل تدخين الحجر ثم خلعه من الجوزة وبدأ في إعداد حجر جديد.. عاد محمود بظهره في المقعد وقال:

ـ إيه اللي عملته مع الست تفيدة؟ أنا كنت قاعد مكسوف يا جدع.

أطلق فوزي ضحكة صاخبة وقال:

ـ اسمع كلامي، النسوان دي لازم تعاملهم بشدة.

هز محمود رأسه وكأنه غير مقتنع ومد فوزي يده إلى جيب قميصه وأخرج جنيهين ظل يفركهما بيده وهو يقول:

ـ أهو أنا أخذت ببجاحتي ضعف اللي بتأخذه بالأدب بتاعك.

سكت محمود وقد تجمدت على وجهه ابتسامة بلا معنى، مرة أخرى يستطيع فوزي أن يبهره، مرة أخرى يثبت له أنه أكثر معرفة بالحياة والناس، كان محمود يتوقع أن تنفجر تفيدة غضبا في أية لحظة وتطردهما من بيتها لكنها، لدهشته، مع كل كلمة وقحة كان فوزي ينطق بها كانت تضطرب قليلا ثم تستجيب، بعد أن ضاجعها فوزي خرجت

معه وقد بان على وجهها المجعد طابع مسترخ منتعش، أخذها فوزي في حضنه لمرة أخيرة وعضها بلطف في أذنها فأطلقت صرخة ماجنة لا تناسب سنها. قال لها فوزي:

ـ تفيدة، أنا جاي لك يوم الأربعاء.

هزت رأسها وهي ترمقه بنظرة حالمة فوضع يده خلف رقبتها وجذبها نحوه كأنه سيضربها بالروسية وقال:

ـ أنا حأخليكِ مبسوطة دائما زي الليلة.

هكذا أسس فوزي لنوع جديد مختلف من العلاقات النسائية، كان محمود يضاجع عشيقتيه بضراوة ومع ذلك يعاملهما باحترام.. كان يعتبر روزا صديقة مخلصة وحتى داجمار الجادة الصارمة يعاملها بلياقة ويحرص على مشاعرها، لما عرف أن ابنتها ولدت بنتا في ألمانيا هنأها بحرارة وطلب إليها أن تكتب اسم المولودة في ورقة حتى يتعلم نطقه، كان محمود يبيع الجنس صحيح ولكن داخل إطار مهذب، أما فوزي فكانت معاملته الفظة مع عشيقته تُشعره برجولته وربما تثيره على نحو ما، كان يتحدث مع تفيدة السرساوي ببذاءة كاملة، كأنه يريد أن يُذكّرها دائما بأنها تريد الجنس وتدفع المقابل، كان فوزي على عكس محمود يقدم الجنس محفوفا بالإهانة، كان يضع تفيدة أمام نفسها، ينزع عنها الأوهام لتواجه الحقيقة، حتى عندما يداعبها يتحسس جسدها بصفاقة كأنه يتحرش بها، كأنه يقول لها:

ـ أنت عجوز شمطاء متصابية، شهوانية ورخيصة، تستأجرين أي شخص قادر على مضاجعتك، هذه حقيقتك، لا جدوى من التظاهر والكذب.

كان فوزي يحتقر تفيدة من أعماقه ويستخف بها ويمعن في إهانتها،

يتقلص وجهه وهو يضاجعها ويبدو عليه تعبير عدواني مُتَشفٍّ كأنه يضربها، كأنه يحمل إهانته إلى أعماقها، الغريب أن قسوة فوزي لم تُنَفِّر تفيدة بل جذبتها إليه.. كأن أداءه العدائي يثيرها ويدفعها إلى بلوغ اللذة، سيظل تجاوب تفيدة مع إهانات فوزي شيئا ملغزا، لم تكن امرأة وديعة ولا منكسرة بل إن وجهها المتحفز المتربص بملامحه الحادة وتعبيراته العدوانية يجعلها أشبه بالطيور الجارحة، برغم ذلك استطاع فوزي أن يروضها، مع كل كلمة قاسية أو حركة بذيئة كانت تفيدة تزداد انصياعا، السؤال هنا: إذا كانت تفيدة في حياتها اليومية تعتز بكرامتها ولا تقبل المساس بها فلماذا لم ترفض معاملة فوزي المهينة؟ لماذا تزداد تعلقا بفوزي كلما أبدى احتقاره لها؟ لقد جاوزت السبعين فهل تدفعها سنها المتقدمة إلى البحث عن اللذة بأي طريقة حتى لو كان الثمن إهانتها؟ أم أن إهانات فوزي تحررها من الإحساس بالذنب على نحو ما؟ تفيدة مصرية وليست أجنبية مثل عشيقتَيْ محمود، إنها في النهاية ابنة الثقافة الشرقية التي تدين العلاقات خارج الزواج، مهما عجزت عن كبح شهوتها ومهما حلَّقت في آفاق المتعة ستظل في أعماقها تكره ما تفعله وتحس بالعار على نحو ما، ربما تحقق لها إهانات فوزي تطهرا ما، انتقاما ما من نفسها، ربما تتقبل إهاناته كأنها عقاب عادل يؤلمها ويخلصها من الذنب، أيا كان السبب فإن علاقة فوزي بتفيدة اتخذت نحوا فظا لم يفهمه محمود ولم يستسغه، أصر فوزي على اصطحاب محمود معه إلى بيت تفيدة.. كان وجوده يمنح فوزي إحساسا بالزهو ويحيل حواره وحركاته مع تفيدة إلى ما يشبه عرضا مسرحيا يتم أمام مُشاهد واحد، تفتح لهما تفيدة الباب وقد ارتدت روبا حريريا يغطي قميص النوم، تصافح محمود أولا ثم تحتضن فوزي وتقول بنبرة تجتهد لكي تكون ناعمة ومغرية:

ـ ازيك يا حبيبي.

عندئذ يجيبها فوزي ببرود:

ـ أنتِ لسه صاحية؟ السهر غلط على صحتك.

تتجاهل سخريته وتجلس بجواره، تلتصق به وتهمس:

ـ وحشتني.

إن مظهر تفيدة المتبرج المتصابي: شعرها المصبوغ الخفيف الذي كشف عن صلعتها في أكثر من موقع، ماكياجها الثقيل على وجهها المتهالك، وميوعتها المصطنعة، وتظاهرها البائس بالرقة، كل ذلك كان يستفز فوزي لسبب ما فيعاملها بفظاظة، يتظاهر بمداعبتها مثلا ثم يمد يده ويقبض على قفاها أو يشد شعرها المصبوغ حتى تصرخ برقاعة، عندئذ يضحك فوزي عاليا ويقول:

ـ قومي اعملي همة.. أنا ومحمود جعانين.

ـ جبت لكم كباب وكفتة.

هكذا تقول تفيدة وهي تسرع إلى المطبخ ويتابعها فوزي قائلا:

ـ ما تنسيش النبيذ.

تعود تفيدة بلفة الكباب وزجاجة النبيذ الفرنسي.. يهب محمود لمساعدتها في إعداد المائدة، أما فوزي فيظل جالسا في مكانه يدخن.

لا يشكرها فوزي أبدا ولا يشيد بأي شيء تفعله، لا يعقب عليها إلا عندما ينتقدها، يتفقد المائدة العامرة بنظرة متفحصة ثم يبدو على وجهه انزعاج ويقول:

ـ أنت نسيت سلطة الطحينة؟

أو يضغط بأصابعه الرغيف الإفرنجي ثم يلقي به على المائدة ويقول باستياء:

ـ العيش بايت.

تسارع تفيدة إلى إصلاح الخطأ، عندئذ يأكل بشهية ويشرب عدة كئوس من النبيذ ثم يقوم إلى الحَمَّام الذي تكون تفيدة قد جهزته بالبشاكير والصابون المعطر، بالإضافة إلى فرشاة ومشط ليصفف فوزي شعره الأكرت، يأخذ حَمَّاما ويعود وقد ارتدى الروب على جسده العاري، تكون تفيدة جالسة في انتظاره ووجهها مضطرم وقد تلاحقت أنفاسها من فرط الرغبة، يجلس فوزي بجوارها، يلتصق بها بغير أن يتكلم ثم ينحني على المائدة ويلف سيجارتَيْ حشيش يدخنهما وهو يشرب النبيذ، خلال ذلك الصمت المفعم بالرغبة لا يكون باستطاعة محمود أن يتكلم، يتطلع إليهما وقد تجمدت على وجهه الأسود ابتسامة خَجْلَى مستأذنة، يتصرف فوزي وكأنه وحده، لا ينظر إلى محمود، وفي نفس الوقت يحرص على أن يستعرض أمامه طقوس اللقاء.. يستنشق الدخان المعبأ بالحشيش ويكتمه ليضاعف تأثيره ثم يسعل ويشرب جرعة من النبيذ ويمسح بيديه على صدره الفسيح المشعر ثم يتجشأ بصوت عالٍ (علامة على الرجولة)، وفي لحظة ما يلتفت إلى تفيدة التي تتقلب على صفيح ساخن، لا يتودد ولا يبتسم ولا يهمس بكلمات غزل وإنما ينهض من مكانه ويجذبها من يدها إلى حجرة النوم.

هذا العرض الذي يقدمه فوزي مع تفيدة كان يصيب محمود بحرج بالغ إلى درجة لا يستطيع معها حتى أن يتكلم أو يأكل بشهية.. إنه ينتظر ساعة على الأقل حتى يخرج فوزي من حجرة النوم، يحس بالضيق لأنه

لا يجد ما يفعله وفي نفس الوقت لا يمكنه الانصراف، أحيانا يصل إلى سمعه صدى صرخات تفيدة أثناء الحب، عندئذ ينتابه غضب لا يفهم سببه، يخرج إلى الشرفة ليراقب السيارات والمارة، يمر الوقت بطيئا، وأخيرا يظهر فوزي وقد أخذ حماما وارتدى ثيابه ويقول في زهو:

ـ يلا بنا يا محمود.

كان فوزي يأخذ منها جنيهين في المرة الواحدة، ثم بدأ ينتقي أشياء في البيت ليستولي عليها، عندما يعجبه شيء في البيت لم يكن يسرقه وإنما يلتقطه ويضعه جانبا على المائدة في الصالة، وبعد أن يأخذ الجنيهين ويطويهما ثم يضعهما في المحفظة بعناية (تماما كما يفعل أبوه وهو يتسلم إيراد البقالة) كان فوزي يتناول الشيء الذي اختاره ويقول:

ـ تفيدة أنا أخذت ده.

هكذا يخبرها بغير اكتراث فلا تجرؤ على الاعتراض أو حتى التعقيب، تهز رأسها وتبتسم ثم تلقي نظرة على ما أخذه كأنما تودعه، غنم فوزي أشياء متنوعة: زجاجة عطر وماكينة حلاقة ثم بطارية كشاف صغيرة وزجاجة ويسكي.. كان دخل فوزي من تفيدة ثمانية جنيهات شهريا بخلاف الغنائم، وكان يحتفظ بالمال كله لنفسه ولا يقتسمه مع محمود الذي غضب وسأله:

ـ يا فوزي فين الفلوس اللي بتأخذها من تفيدة؟

ـ في الحفظ والصون.

ـ أنا أول ما أقبض من روزا وداجمار أعطيك وأنت حاطط فلوسك على قلبك، أنت أناني يا فوزي.

تطلع فوزي بهدوء إلى صديقه وقال:

ـ يا معلم محمود عيب كلامك، أنا أخوك واللي في جيبي في جيبك، أنا شايل الفلوس في البوسطة، ما حدش ضامن الظروف، لو احتجنا أي حاجة يبقى معنا مبلغ احتياطي.

لم يقتنع محمود بهذا المنطق وأحس باستياء واعتبر تصرف فوزي غير لائق لكنه سكت وتحدث في موضوع آخر، لم يكن بمقدوره أن يواجه فوزي للنهاية، فوزي أستاذه الذي يرشده ويحميه، هل يستطيع الجندي أن يلوم قائده؟ أقصى ما يستطيعه أن يُبدي ملاحظة لو رفضها القائد ينتهي الأمر عند ذلك.. محمود يحتاج إلى فوزي ويسعد بصحبته وهما يعيشان معا أياما بهيجة، سهر وأموال وبنات وكل شيء ممتع في الدنيا، الأمر الوحيد الذي ينغص على محمود سعادته وجوده مع فوزي في بيت تفيدة، في كل مرة يلح فوزي عليه حتى ينصاع ويذهب معه، آخر مرة رفض محمود وحرن كالبغل وقال:

ـ يا فوزي أنا مش رايح لتفيدة ثاني.

ـ ليه؟

ـ يا عم أنت رايح تنام معها أنا إيه لازمتي؟

ـ يا أخي عاوزك معي، وبعدين أنت ناقصك إيه؟ بتأكل وتسكر ببلاش، حد لاقي!!

ـ الله الغني.

ـ يعني لما صاحبك يحتاجك تتخلى عنه، هي دي الرجولة؟

ـ أنا عمري ما أتخلى عن صاحبي لكن مش حاروح لتفيدة.

حاول فوزي إثناءه عن القرار لكن محمود كلما تذكر إحساسه بالحرج وهو جالس وحده في الصالة بينما فوزي يضاجع تفيدة يتصاعد

غضبه ويصر على الرفض، بعد أخذ ورد وجدل طويل فشل فوزي في إقناع محمود فألقى بورقته الأخيرة قائلا:

ـ خلاص يا محمود، ما تجيش تاني عند تفيدة، لكن أرجوك، تعالَ الليلة لآخر مرة.. تفيدة عاملة لنا مفاجأة.

ـ مفاجأة إيه؟

ـ لو قلتها لك ما تبقاش مفاجأة.

هنا بان التردد على محمود لكن فوزي أكد له أن المسألة تتعلق بالذوق لا أكثر ولا أقل، تفيدة تعبت نفسها وأرادت إدخال البهجة عليهما بمفاجأة أعدتها فلا يصح أن يتخلف محمود عن زيارتها، فليأتِ هذه المرة فقط وبعد ذلك لن يذهب إليها أبدا، وافق محمود على مضض، وفي المساء ذهب الصديقان إلى تفيدة ومضت الزيارة وفقا للبرنامج المعتاد، قدمَتْ لهما زجاجة النبيذ ومحشي ورق عنب ودجاجتين مشويتين التهم فوزي واحدة منهما بالكامل ثم دخل إلى الحَمَّام وعاد بالروب على جسده العاري وقال لتفيدة بمرح:

ـ أخبارك إيه؟

ـ أنا جاهزة.

ـ انطلقي.

قفزت تفيدة من مقعدها وغابت في الداخل بينما تطلع فوزي إلى محمود وهو يبتسم بغموض، بعد قليل وقفت تفيدة في منتصف الردهة وصاحت بنبرة شقية:

ـ مستعدين؟

رد عليها فوزي بلهجة مسرحية:

ـ اظهر وبان عليك الأمان.

هنا أحس محمود بقلق وخُيّل إليه أن أمرا مريبا يحدث، التفت إلى فوزي ليستفسر منه.. لكن الأنوار أُطفِئت فجأة وساد ظلام تام.

صالحة

كلما تذكرت ما حدث ذلك الصباح ضحكت.

استيقظتُ متأخرة وأخذت حَمَّامًا ساخنا خرجت منه منتعشة، صففت شعري وارتديت ثياب المنزل وذهبت إلى أمي في المطبخ فلم أجدها، بحثت عنها ولاحظت أن باب حجرة الجلوس مفتوح على غير العادة، اقتربت فرأيت مشهدا غريبا: كانت أمي جالسة مع فتاة أجنبية، ما إن لمحتني أمي حتى هرعَتْ إليَّ وجذبتني من يدي إلى الردهة وقالت بصوت خافت:

ـ عندنا بنت الخواجة رايت مدير النادي.

ـ عاوزة إيه؟

ـ اختلفتْ مع أبوها وسابت البيت.

ـ وإحنا مالنا؟

ـ أخوكِ كامل هو اللي جابها، عاوزها تعيش معانا مؤقتا لغاية لما تلاقي مكان.

هكذا قالت أمي بلهجة ذات مغزى وابتسَمَتْ.

كان ذِكْر أخي كامل كافيا لأن أتقبل أي شيء.. قلت:

ـ ما دامت رغبة كامل أنا موافقة.

ـ هي حتنام معكِ، حأفرش لها سرير جنب سريرك.

تحول إحساسي بالدهشة إلى ما يشبه المرح، كأنني مُقْدِمة على مغامرة مثيرة. سألتُ أمي:

ـ هي اسمها إيه؟

ـ ميتسي، تعالي أعرفك بها.

نهضَتْ ميتسي وابتسَمَتْ وقالت وهي تصافحني:

ـ أنتِ صالحة؟ أهلا وسهلا.. كامل كلمني عنك كثير.

ـ أنتِ بتتكلمي عربي؟

ـ أخوكِ علمني.

كانت طريقتها في نطق الحروف العربية طفولية ولذيذة، شربنا الشاي وتناولنا الإفطار، بدت لي ميتسي لطيفة ومهذبة، أصرت على أن تساعدني وأمي في إعداد الطعام، أعَرْتُها جلبابا من عندي، كان منظرها مضحكا وهي ترتدي جلباب البيت وتمسك بالمفراك وتستمع إلى شرحي وأنا أطبخ الويكا، جاء كامل وتناولنا الطعام نحن الأربعة، تبادلنا الحوار في موضوعات عامة لكني أحسست بنوع من التفاهم الصامت بين كامل وميتسي، بعد انتهاء الغداء جلسَتْ أمي مع كامل وميتسي في حجرة الجلوس، حاولت أن أنادي أمي لكي تتركهما وحدهما لكنها أصرت على البقاء معهما حتى قام كامل ليستذكر في حجرته، في آخر النهار

تزايد إحساسي بطرافة ما يحدث، قلت لنفسي إن ربنا أرسل إليَّ ميتسي لتخرجني من الكآبة التي أعاني منها، جلست مع أمي وميتسي وتحدَّثْنا طويلا.. أمي حكت عن ظروفنا وتحدثَتْ ميتسي عن حبها للتمثيل وكيف أفادتها دروس كامل، كانت تتحدث عن كامل بحماس وإعجاب، في نهاية الجلسة قَبَّلَتْها أمي وقالت:

ـ اعتبري إنك في بيتك وسط أهلك.

تطلعَتْ إلينا؛ أنا وأمي وقالت بتأثر:

ـ أشكركم، لن أنسى أبدا ما تفعلونه معي.

قالت أمي بسرعة:

ـ لم نفعل شيئا، نحن فعلا سُعَداء بوجودك معنا.

قبيل منتصف الليل استدعت أمي كامل من حجرته وصعدت معه إلى السطح، نزل كامل بعد قليل وهو يحمل على كتفه سريرا معدنيا مفكوكا واجتهد على مدى ساعة حتى نجح في تركيبه ثم صعد إلى السطح مرة أخرى وعاد بمرتبة ووسائد قامت أمي بتغطيتها بملاءة وكسوتين نظيفتين، في النهاية ارتمى كامل بجسده على السرير ليختبر قوته ثم ابتسم راضيا. ضحكت ميتسي وقالت:

ـ لو سقطتُ وأنا نائمة ستكون أنت المسئول.

رد كامل قائلا:

ـ أنا دائما مسئول عنكِ.

ساد صمت وأحسست بأنها تأثرت وأنها لولا وجودي لربما احتضنته، كنت متعاطفة مع مشاعرهما التي صِرت ألاحظها بوضوح، تستهويني

قصص الحب دائما كما أنني أحب كامل وأحب مَن يحبه.. يوما بعد يوم ازددت اقترابا من ميتسي.. صرنا كل ليلة نسهر معا في حجرتي ونتكلم حتى نسمع أذان الفجر، بعد أيام حكت لي مشكلتها مع أبيها، تعاطفت معها لكنني حرصت على ألا أبدي رأيي فيما فعله أبوها، مهما كانت غاضبة على أبيها قد يضايقها أن أنتقده، قالت ميتسي:

ـ الآن أبحث عن عمل.

ـ أنا متأكدة أنكِ ستجدين عملا، أنت تتحدثين العربية والإنجليزية وذكية وجميلة، شكرتني وبدا عليها الخجل، حكيت لها عن حياتي، أدهشني أنني ذكرت لها التفاصيل كاملة ولم أخجل منها.. أحسست بأنها تفهمني تماما، بعد أن فرغت عادت بظهرها على ظهر الفراش وتطلعت إلى السقف وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة ثم ابتسمت وقالت:

ـ صالحة، أنت أيضا قد اتخذتِ قرارا شجاعا وصحيحا، لا يجب أن تتراجعي أبدا.

ـ عبد البر يرفض تطليقي.

ـ اتركي موضوع الطلاق لكامل، المهم الآن أن تستأنفي الدراسة.

ـ أُحِسُّ بأني إنسانة فاشلة.

ـ كيف تكونين فاشلة وأنت لم تبدئي حياتكِ بعد، أنتِ لم تُخطئي في شيء، أهلكِ الذين أخطئوا.

ـ أهلي لم يَفرضوا عليَّ الزواج.

ـ كيف تتزوجين من رجل لا تعرفينه؟

ـ قلت لنفسي سأعرفه بعد الزواج.

ـ الزواج ليس وسيلة للتعارف، يُفترض أن تعرفي رجلا وتحبيه، وفي لحظة ما تقرران أن تمضيا معا بقية حياتكما، عندئذ يصبح الزواج منطقيا.

ـ بنات كثيرات يتزوجن قبل أن يعرفن أزواجهن.

ـ الزواج بدون حب هو عقد بيع لجسد المرأة مهما كان غطاؤه الديني أو القانوني، إذا تزوجت بدون حب فأنت في الحقيقة مجرد سلعة تم عرضها وأعجب بها الزبون فقرر شراءها.

كانت الفكرة جديدة بالنسبة إليَّ؛ أن يكون هذا جوهر الزواج، كل هذه الحفاوة والاحتفالات تُخفي بيعا تجاريا لسلعة، انتابني الضيق وقلت:

ـ أختلف معكِ، صحيح أنا تعجلت في الموافقة على عبد البر لكنني لم أكن سلعة في يوم من الأيام.

نهضَتْ من مكانها واقترَبَتْ مني وقالت:

ـ آسفة يا صالحة، أنا دائما أتحمس لأفكاري وأُعبر عنها بصراحة، كثيرا ما أُغضب أصدقائي بدون أن أنتبه.

قَبَّلْتها على خدها، كانت رائحة شعرها جميلة.. قمت وتوضأت وأديت الصلاة بينما ميتسي تراقبني، انتهيت من الصلاة وخلعت الطرحة وقالت لي ميتسي:

ـ شكلك جميل وأنت تؤدين الصلاة.

تلك الليلة أوينا إلى الفراش بعد صلاة الفجر.. ولما استيقظت في

الظهر تطلعت إلى فراشها فوجدته خاويا، بعد قليل سمعت طرقا خفيفا على الباب، ظهرت ميتسي وابتسمَتْ وقالت:

ـ أنا انتظرت حتى تصحي.

انتبهت إلى أنها تحمل حقيبة من القماش بدت ثقيلة، ألقت بها على الفراش ثم فتحتها وأخرجت مجموعة من الكتب وقالت بحماس:

ـ دي كتب البكالوريا، كامل جابها وأنتِ نائمة، لازم تبدئي المذاكرة كما اتفقنا.

(٣٨)

عندما عاد سليمان وكرارة من لقاء الكوو كان الخدم ينتظرونهما بلهفة، راح كل واحد يتحين الفرصة لينزل إلى البوابة أو يصعد إلى المطعم ويسأل عن نتيجة المقابلة، تكرر السؤال:

ـ عملتم إيه مع الكوو؟

كانت إجابة سليمان البوَّاب وكرارة السفرجي واحدة، يبدو أنهما اتفقا عليها، كان الواحد منهما يقول لمن يسأله:

ـ بكره الساعة خامسة تعالَ القهوة وإحنا نتكلم.

ثارت هواجس الخدم، ظن بعضهم أن مهمة كرارة وسليمان فشلت، بينما فكر آخرون أنهما يريدان أن يعلنا نتيجة الزيارة أمام الجميع تفاديا لتكرار الأسئلة واللت والعجن، في اليوم التالي جاء معظم الخدم إلى المقهى، شغلوا الجانب الأيمن بالكامل وجلس عبدون وأصحابه إلى مائدتَيْن متجاورتَيْن، انتظر عم سليمان حتى استقروا جميعا في جلستهم ثم قام وخلفه كرارة ووقفا في وسط المقهى، ساد صمت متوتر ثم قال سليمان بهدوء:

ـ الكوو رفض يرجع البقشيش.

ارتفعت صيحات معترضة وانتظر سليمان حتى هدءوا ثم استطرد قائلا:

ـ الكوو عاوز يتأكد الأول أننا عرفنا غَلَطنا قبل ما يرجَّع البقشيش.

ـ الكوو ملزم يرجع البقشيش، ده حقنا.

هكذا قال عبدون فتطلع إليه عم سليمان بحنق وصاح:

ـ اسمع يا بني أنت بتشتغل إيه؟

ـ مساعد بارمان.

ـ يعني خدام.

ـ لا يا عم سليمان، أنا مش خدام، أنا أؤدي عمل مقابل أجر.

رد عم سليمان بصوت غاضب:

ـ إحنا بقى يا عبدون طول عمرنا خدامين وكنا قابلين الوضع ومرتاحين قبل ما تطلع لنا في المقدر.

ـ الله يسامحك.

ـ يا عبدون أنت وبحر وسماحي وبقية مجموعتكم لكم تفكير غير تفكيرنا.. أنتم عاوزين تعملوا رءوسكم برأس الكوو، أنتم سبب المصيبة.

ابتسم عبدون بحزن وقال:

ـ يا عم سليمان إحنا اعترضنا على الكوو لما ضربك.

قال سليمان وهو يتحاشى النظر إليه:

ـ كتر خيرك يا عبدون لكن كفاية مشاكل، كنا مرتاحين وراضيين لغاية لما ظهرت أنت وجماعتك وعملتم هيجان، والنتيجة أن النادي بقى فوضى، كل يوم خناقات واعتراضات وآخرتها قطع أرزاقنا.

ارتفعت الأصوات تؤيد عم سليمان كأنهم وجدوا أخيرا التفسير الحقيقي لما يحدث، صاح سليمان بانفعال:

ـ يا عبدون أنت كنت عارف نظام النادي من الأول، أكيد قالوا لك قبل ما تشتغل هنا إن الكوو شديد وطبعه صعب، إيه اللي جابك؟

ـ من حقنا نشتغل ومن حقنا نتعامل باحترام.

بلغ غضب عم سليمان مداه فصاح في وجه عبدون:

ـ ممكن تتكلم عن نفسك ومالكش دعوة بنا؟

ارتفعت أصوات الحاضرين تؤيد عم سليمان، تطلع عبدون إليهم وقال:

ـ الكوو عمره ما حيرَجَّع البقشيش بالتوسل وبوس الأيادي، لازم نأخذ موقف موحد ونطلب حقنا.

قال عم سليمان:

ـ خذوا مواقف موحدة على كيفكم، إحنا لنا طريقة ثانية، إحنا حنستسمح الكوو لغاية لما يرضى عنا ويرجع البقشيش.

أجال عبدون نظره بينهم وقد بدا عليه مزيج من الأسف والغيظ ثم قال:

ـ إحنا بقى لا حنستسمح ولا حنبوس الأيادي، إحنا حندافع عن حقوقنا وحنفرض عليه إنه يرجّع البقشيش.. حتشوفوا بنفسكم.

استدار عبدون ليخرج من باب المقهى بينما ارتفعت أصوات ساخرة:

ـ ورّينا تعمل إيه يا فالح.

ـ كان غيرك أشطر.

ـ يا بني أنت عايش في الوهم.

مضى عبدون بغير أن يلتفت وتبعه سماحي وبحر والباقون، وبعد أن خرجوا وهدأت أصوات السخرية قال عم سليمان بنبرة جدية:

ـ يا إخوانا إحنا مالناش دعوة بهم، أنا وكرارة رايحين للكوو الليلة نترجاه تاني وإن شاء الله خير.

كامل

عقدنا اجتماعين في أسبوع واحد، كان الزملاء يسابقون الزمن، تمت المهمة بنجاح، وزعنا آلاف الصور في معظم المحافظات، تعمدت أن أذهب مبكرا وأتبادل الحديث مع الأمير قبل الاجتماع، توقعت أن يشير إلى الموضوع الذي طلبت مساعدته بخصوصه، لكنه تجاهل الأمر، كأنني لم أَشْكُ إليه وكأنه لم يعدني، أحسست باستياء لأنه تخلى عني.. قلت لنفسي: الأمير شامل إنسان طيب ومناضل وفنان لكنه لن يترك مشاغله حتى يحل مشكلات حياتي.

ندمت على لجوئي إلى الأمير وانتابتني حالة من الكآبة والإحباط، الشيء الوحيد الذي كان يُرَوِّح عن نفسي وجود ميتسي في بيتنا، كانت تثير حالة من البهجة.. لا تتوقف عن استطلاع كل شيء، كان شكلها طريفا وهي واقفة مع أمي في المطبخ، كانت تجد سعادة حقيقية في ممارسة الحياة المصرية، طلبت مني مرة أن أطلع معها إلى السطح لنشاهد صالحة وهي تنشر الغسيل.. قلت لها:

ـ مشهد نشر الغسيل أعرفه منذ الطفولة ولا أرى فيه شيئا جديدا.

ابتسمَتْ ميتسي وقالت:

ـ تعالَ معي وسوف أريك مدى الجمال الذي يحمله هذا المشهد، صالحة، أنا وكامل طالعين معكِ فوق السطح.

تضرَّج وجه صالحة خجلا وقالت بصوت خافت:

ـ لا أظن ما سأفعله يستحق الفرجة.

تجاهلت ميتسي ما قالته صالحة وانحنت على الإناء المستدير الممتلئ بقِطَع الغسيل المبلل، أمسكت بطرف الإناء بينما أمسكت صالحة بالطرف الآخر.. فتحت لهما باب الشقة وبدأ موكبنا في صعود درجات السلم، استغرقتني غرابة المشهد، فتاة مصرية وفتاة إنجليزية تحملان إناء الغسيل، ميتسي رايت التي ولدت ونشأت في لندن تحمل الآن إناء الغسيل في شارع السد الجواني، وضعتا الإناء تحت حبال الغسيل الممتدة عبر السطح، أمسكَتْ ميتسي بيدي وجذبتني إلى الخلف بضع خطوات ثم قالت:

ـ قف هنا حتى ترى جيدا، من فضلك يا صالحة، ابدئي في نشر الغسيل ولا تفكري في أننا نشاهدكِ، اعتبري أنكِ وحدكِ.

بدَتْ صالحة مرتبكة، انحنت وجذبت قطعة ثياب وبدأت في نشرها، قالت ميتسي وكأنها مُدرسة تشرح للأطفال في الفصل:

ـ مشهد نشر الغسيل من أكثر المشاهد التي تُعَبّر فيها المرأة المصرية عن أنوثتها، عندما تمد المرأة ذراعيها لتفرد قطعة الثياب على الحبل فإن جسدها يصل إلى أقصى درجة من الانسيابية، في تلك اللحظة، بالتأكيد تحس المرأة بأنها فاتنة، مصدر للغواية.

توقفتْ صالحة عن نشر الغسيل وراحت تتطلع إلينا وعلى وجهها ابتسامة محرجة، قالت ميتسي:

ـ صالحة من فضلك لا تخجلي، الموضوع لا يتعلق بكِ شخصيا، أنا ممثلة وقد درست التعبير بالجسد، أريد أن أشرح لكامل جمال المشهد.

انحنت صالحة والتقطت قطعة غسيل جديدة وفردتها على الحبل.. استطردت ميتسي بحماس:

ـ انظر كيف يفيض المشهد بالأنوثة، غواية المرأة المصرية وهي تنشر الغسيل لا تَقِل عن غوايتها وهي تؤدي الرقص الشرقي، طاقة الغواية واحدة في الحالتين لكن نوعها مختلف؛ غواية الرقص الشرقي صريحة ومباشرة، بمثابة دعوة للجنس، أما نشر الغسيل فهو يحمل غواية محتشمة.. مغلفة، تؤدي المرأة حركاتها وكأنها لا تنتبه إلى الإثارة التي تبعثها فيمن يشاهدها، انظر، عندما تضع المرأة المشبك في فمها ثم تتناوله بإصبعين لتمسك به قطعة الغسيل على الحبل، التعامل مع المشبك بهذه الطريقة مُحمّل بمعانٍ حسية قوية.

كان هذا أكثر من طاقة صالحة على الاحتمال فألقت بقطعة الغسيل في الإناء وقالت فيما يشبه الغضب:

ـ ميتسي، لا أستطيع أن أركز فيما أفعله، إما أن تتركاني وحدي وإما أنزل أنا وأعود بعد الظهر.

ضحكَتْ ميتسي وقالت:

ـ أوكيه، أنا آسفة.

نزلتُ مع ميتسي وتركنا صالحة تنشر الغسيل، كلما تذكرت ذلك

اليوم لا أتمالك نفسي من الضحك، إن البهجة التي أحدثتها ميتسي في أسرتنا تشبه البهجة التي يسببها طفل صغير عندما يكتشف الأشياء لأول مرة فيتلعثم ويقول تعليقات ساذجة تثير ضحك الأهل ويستمتعون بترديدها، ذات ليلة كنت أستذكر في حجرتي وقد جاوزت الساعة الثانية صباحا.. قمت إلى الحَمَّام، كنت أرتدي قميصا وبنطلونا.. منذ أن جاءت ميتسي إلى بيتنا لم أظهر بالبيجاما خارج حجرتي، مشيت في الردهة وقبل أن أمد يدي لأفتح باب الحَمَّام سمعت همسا خلفي:

ـ كامل.

التفت، كانت ميتسي واقفة في الضوء الخافت المنبعث من المصباح السهاري، قلت:

ـ ماذا حدث؟

ـ أريد أن أتكلم معك.

ارتبكت وقلت:

ـ ميتسي، لو صحت أمي الآن ووجدتنا واقفين معا سوف تغضب.

ـ لماذا تغضب أمك؟

ـ لأنني وعدتها ألا أختلي بك في بيتنا.

تجاهلت ميتسي ما قلته وهمست:

ـ كامل أنا أحبك.

ظللت صامتا وأنا ألهث من فرط الانفعال، اقتربت ميتسي حتى شممت عطرها الخفيف الآسر وطبعت قُبْلة خفيفة سريعة على شفتَيَّ ثم ابتسمت واستدارت عائدة إلى حجرة صالحة وأغلقَتِ الباب، ظللت

واقفا في مكاني، أحسست أنني أحلم، شيئا فشيئا تلاشت المفاجأة وتملكني إحساس رائع، حررتني ميتسي من هواجسي وحساباتي العقيمة، وضعتني وجها لوجه أمام الحقيقة التي طالما تهربت منها: أنا أحب ميتسي، أحب صوتها وضحكاتها وابتسامتها ووجهها ويديها حتى أخطاء اللغة التي ترتكبها وهي تتحدث العربية تبدو لي فاتنة، عُدت إلى حجرتي وأنا في حالة من النشوة، نمت بعمق وصحوت منتعشا، أخذت حَمَّاما وارتديت ثيابي فوجدت ميتسي تتناول الإفطار مع أمي وصالحة، نظَرَتْ إليَّ وابتسمَتْ وكأنها تُذكّرني بالأمس، دعتني أمي إلى تناول الإفطار فقلت:

ـ أنا متأخر عن الشغل.

هتفت ميتسي بحماس:

ـ انتظر لحظة.

عملت لي سندوتشا بسرعة وقالت وهي تناولني:

ـ أنت تحب الجبن الأبيض، خذه معك وكله في الطريق.

ابتسمَتْ صالحة وقالت أمي بنبرة حاولت أن تجعلها جادة:

ـ ما تكسفهاش يا كامل.

أخذت السندوتش وشكرتها وانصرفت بسرعة، ركبت تاكسيا لأكسب الوقت، في الطريق فكرت في ميتسي، كان حنانها هذا الصباح يحمل معنى جديدا، تذكرت أصابعها الرقيقة وهي تُعد السندوتش، من أين لها كل هذا الجمال، انتهيت من مهام العمل ثم استأذنت كومانوس وانهمكت في المذاكرة، لما دقت الساعة الخامسة كان كومانوس قد انصرف وأنا وحدي في المخزن، ظهر خليل الفرَّاش فجأة وقال بانفعال:

ـ كامل، تعالَ بسرعة، سيارة الأمير شامل تنتظرك أمام النادي.

أطفأت الأنوار وأغلقت باب المخزن بالمفتاح، خرجت وركبت سيارة الأمير.. في الطريق حاولت أن أخمن سبب الاستدعاء، لماذا يريدني الأمير، هل حدث شيء يخص التنظيم؟ هل يكلفني بمهمة جديدة؟ قادني السفرجي إلى مكتب الأمير، ما إن دخلت من الباب حتى وجدت في انتظاري مفاجأة؛ كان عبد البر جالسا أمام الأمير، بذلت مجهودا حتى أتمالك نفسي.. ابتسم الأمير وقال:

ـ أهلا يا كامل، اجلس.

صافحت الأمير وجلست على الأريكة، لاحظت أن عبد البر يتحاشى النظر إليَّ، قال الأمير:

ـ أنت فوّضتني أشوف حل لمشكلة أختك صالحة، أنا تكلمت مع الأخ عبد البر في موضوع الطلاق والرجل أبدى استعدادا طيبا للتفاهم.

قاطعه عبد البر قائلا:

ـ أنا أساسا لا أريدها، لقد تورطت في الزواج من هذه الأسرة.

صِحت فيه:

ـ احترم نفسك.

تطلع عبد البر إليَّ بنظرة حانقة وقال:

ـ أنا محترم غصبا عنك.

نهضت متحفزا، صاح الأمير:

ـ كامل، من فضلك اقعد، لسنا هنا لنتشاجر.

ساد الصمت لحظات ثم تنحنح عبد البر وقال:

ـ يا سمو الأمير، لقد تكلفت أموالا كثيرة في هذه الزيجة الفاشلة، أريد حقوقي المالية.

صِحت فيه:

ـ حقوق مالية إيه يا نصاب؟

ـ اسكت يا كامل.

هكذا صاح الأمير ثم التفتَ إلى عبد البر وقال بصوت هادئ:

ـ يا سيد عبد البر، غدا سوف يتصل بك سكرتيري لإتمام الطلاق، وبالنسبة للتكاليف سوف ندفعها لك.

هممت بالاعتراض لكني سكت احتراما للأمير الذي استطرد قائلا:

ـ نحن اتفقنا يا أخ عبد البر، سيعرض عليك سكرتيري مبلغا مجزيا، أنت رجل عاقل ولا تسعى للمشاكل؛ لذلك أتوقع منك أن تنفذ الاتفاق، لا تنسَ أنني فضلت الحل الودي لكنني عند اللزوم قد أتصرف بطريقة مختلفة.

هز عبد البر رأسه ولم يعقب، بدأ الأمير يقرأ في بعض الأوراق أمامه على المكتب، كانت هذه إشارة إلى عبد البر حتى ينصرف، قام وصافح الأمير ثم مر بجانبي وهو خارج وتمتم:

ـ السلام عليكم.

لم أرد، ما إن خرج عبد البر حتى اندفعت أقول:

ـ يا سمو الأمير هذا الرجل يبتزنا.

ابتسم الأمير وعاد بظهره في المقعد وقال:

ـ كامل، أنا في سن أبيك وأكثر منك خبرة، عبد البر كرامته مجروحة لأنكم جميعا عرفتم أنه مدمن وعاجز، طبيعي أن يحاول الانتقام منكم، أنت لم تحضر لقائي به من البداية، لولا أنني ضغطت عليه وهددته لما وافق على الطلاق، سوف يعرض عليه السكرتير مبلغا معقولا وإذا رفض فأنا أعرف كيف أجبره على الطلاق.

ـ ممكن أعرف المبلغ كم؟

ـ مش شغلك والله.

هكذا قال الأمير مداعبا، قلت بتأثر:

ـ أشكرك يا سمو الأمير.

نهض الأمير من خلف المكتب واقترب مني فنهضت واقفا، وضع يده على كتفي وقال:

ـ الموضوع الآخر أيضا تصرفت فيه، لقد استأجرت شقة صغيرة مفروشة في جاردن سيتي من أجل صديقتك ميتسي، الإيجار مدفوع لمدة عام، وخلال هذا الأسبوع سأجد لها عملا.

ـ يا سمو الأمير.. أنا فعلا عاجز عن الشكر.

قاطعني قائلا:

ـ ليس بين الأصدقاء شكر، لقد اخترت شقة جاردن سيتي بحيث تحقق لكما خصوصية كاملة، ستكون عشًّا رائعا للغرام.

غمز بعينه وأطلق واحدة من ضحكاته الصاخبة، وقفت مبهورا أمام نبل الأمير وأحسست بالذنب لأني أسأت الظن به، أراد أن يُخرجني من حالة الامتنان فقال بصوت جاد:

ـ في الفترة القادمة، سنسند إليك مهاما جديدة في التنظيم، تعالَ معي، أريد أن أعطيك شيئا.

خرجت معه من المكتب وعبرنا الصالة الفسيحة إلى الاستوديو، أضاء النور ثم فتح الدولاب وأخرج شيئا يشبه ماكينة لف السجائر لكنه كبير في حجم الراديو الموجود في صالة بيتنا، وضعه أمامي على المائدة وقال:

ـ هذه ماكينة لفرم الورق، خذها معك، كل زملائك لديهم مثلها، استعمالها سهل، تدخل رزمة الورق من هذه الناحية ثم تحرك المقبض هكذا، الليلة، قبل أن تنام يجب أن تتخلص من كل أوراق التنظيم التي عندك.

(٣٩)

حدث ذلك في ساعة الذروة، في حضور الملك وفي عز ازدحام النادي بالأعضاء، كان البار يغص بالزبائن عندما نظر بحر البارمان إلى مساعده عبدون وخرجا معا تاركين البار، كان في مشيتهما شيء ما حاسم كأنهما خارجان بلا عودة، في المطبخ قام سماحي فجأة وخرج بدون أن يستأذن ركابي الذي راح يناديه لكنه انطلق بسرعة بغير أن يلتفت خلفه، عندئذ شخر ركابي وصاح:

ـ طيب وحياة أمك يا سماحي لأوريك.

في المطعم حدث نفس الشيء، خرج السفرجية نوري وبنان وفضالي، وضعوا الصحون التي كانوا يحملونها على أقرب مائدة وسط دهشة الزبائن وخرجوا من المطعم، وفي صالة القمار أيضا خرج جابر وبشير، توقفوا جميعا عن العمل وتحركوا في لحظة ما، كأنهم يُنفذون اتفاقا، نزلوا على درجات السلم وتجمعوا في مدخل النادي، تأخر تفسير ما يحدث حتى توجه بحر إلى المتر شاكر وأخبره بأنه وزملاءه ينتظرونه أمام كابينة التليفون، لم يترك بحر للمتر شاكر الفرصة لكي يرد أو يسأل، انتهى من جملته ثم استدار وعاد من حيث أتى، سيظل ما حدث تلك الليلة يشكل واقعة فريدة في تاريخ نادي السيارات: ثمانية عمال يتركون العمل بدون إذن ويتجمهرون معترضين في مدخل النادي، هرع إليهم المتر شاكر وقال بصوت منفعل خافت:

ـ جرى إيه لكم يا أولاد، أنتم اتجننتم؟

رد عبدون بسرعة:

ـ إحنا ممتنعين عن الشغل وعاوزين نقابل الكوو.

تطلع إليه المتر شاكر باستنكار وقال:

ـ عاوزين تقابلوا الكوو روحوا له مكتبه.

رد بحر البارمان:

ـ إحنا حنفضل واقفين هنا لغاية لما يحضر الكوو ويقابلنا.

وكأنما أدرك المتر شاكر أنه لا جدوى من النقاش.. تلفت حوله وقال:

ـ خلاص، مش عاوزين تشتغلوا ما تشتغلوش لكن ما ينفعش الوقفة دي، مولانا الملك فوق وأعضاء النادي طالعين نازلين يبصوا عليكم.

لم يرد أحد، ظلوا واقفين في أماكنهم، زاد ارتباك المتر شاكر وفكر لحظات ثم قال:

ـ ادخلوا في أي مكتب لغاية لما جناب الكوو يحضر.

كان العرض غير متوقع فنظر بعضهم إلى بعض وبدا عليهم التردد لكن بحر البارمان حسم الأمر وقال:

ـ مش حنتحرك من هنا لغاية لما نقابل الكوو.

دمدموا مؤيدين فلم يجادلهم المتر شاكر، هرع إلى كابينة التليفون، اختفى فيها دقائق ثم خرج فلم يلتفت نحو العاملين الواقفين وإنما توجه نحو السلم وصعد الدرجات بسرعة عائدا إلى المطعم، كان أعضاء النادي الذين يعبرون البوابة إلى المصعد يتطلعون إلى الخدم بدهشة، استغرق الخدم المضربون في الصمت، كانوا مأخوذين، كأنهم لا

يصدقون تماما ما يفعلونه، مَن يصدق أنهم يرفضون العمل ويواجهون الكوو؟ إن ما يفعلونه غريب كأنه حلم، كانوا يعلمون أن الكوو سيصل بين لحظة وأخرى وبرغم ذلك لم يشعروا بالخوف، كانوا متماسكين لدرجة أدهشتهم هم أنفسهم، من أين تواتيهم كل هذه الجرأة؟ كأن خوفهم كان حاجزا لمَّا تجاوزوه تلاشى تماما، كانوا يحسون في تلك اللحظة أنهم مختلفون، ليسوا خدما وليس الكوو سيدهم وإنما هم عاملون في النادي يطالبون بحقوقهم ويملكون إذا شاءوا أن يمتنعوا عن العمل، هذه الثقة تملكتهم وتجلت في وقفتهم ونبرات أصواتهم، قال سماحي بصوت مرتفع:

ـ يا جماعة لما يحضر الكوو سيبوني أتكلم معه.

نظروا إليه وابتسموا، ثمة تناقض بين جسده الضئيل والجسارة التي يظهرها، قال بحر:

ـ أنا اللي حأتكلم، أنا أعرف الكوو أكثر منكم.

بدا على سماحي الامتعاض فضحك بحر وقال:

ـ ماتزعلش يا سماحي، أنا حأسيبك تتكلم لكن في الآخر.

هز سماحي رأسه موافقا وبعد قليل ظهر الكوو، اجتاز المدخل بسرعة وتبعه حميد وسليمان البواب، ظل الخدم ثابتين في أماكنهم، لم يهرعوا نحوه مُرَحّبين كما هي العادة، تقلص وجه الكوو وبادرهم قائلا وهو يلهث:

ـ سبتم شغلكم ليه؟

قال بحر البارمان بثبات:

ـ يا جناب الكوو إحنا بقى لنا ثلاثة أشهر بنشتغل مجانا.

ـ اللي يجرى عليكم يجرى على زملائكم.

رد بحر قائلا:

ـ إحنا مالناش دعوة بزملائنا، إحنا اللي واقفين قدامك مش حنشتغل في النادي قبل ما تعطينا حقنا.

أجال الكوو النظر بينهم كأنه لا يصدق ما يحدث ثم قال بصوت محشرج غريب:

ـ ارجعوا شغلكم.

رد بحر قائلا:

ـ لا يمكن نرجع الشغل إلا إذا رَجّعت البقشيش لأنه حقنا.

تشجع سماحي واندفع قائلا:

ـ معلوم، لو عاوزنا نشتغل ادفع لنا حقنا.

كانت هذه الذروة، سماحي الضئيل الضعيف الذي كان الكوو يستنكف ذكره بالاسم أو توجيه الحديث إليه، يتطاول الآن على سيده.. اربدَّ وجه الكوو وكز على أسنانه وقال بلهجة حازمة:

ـ لآخر مرة بأقول لكم اعقلوا وارجعوا الشغل.

كان وقع صوته رهيبا، ساد صمت عميق، ظل يحدق فيهم لكنهم لم يتحركوا، لم يتراجعوا ولا ظهر عليهم التردد، قال عبدون:

ـ كلامنا واضح، لا يمكن نشتغل بدون أجر.

زمجر حميد متنمرا وارتج جسده وصاح بصوته الرفيع:

ـ جرى إيه يا ولاد الكلب، هي حصَّلت تتكلموا مع سيدكم بالطريقة دي.

التفت إليه الكوو وقال:

ـ سيبهم يا حميد، على راحتهم.

ألقى بهذه الجملة بلهجة ذات مغزى كأن لها معنى مستترًا ثم استدار ببطء وخرج من البوابة، مشى الكوو بضع خطوات ثم وقف على الرصيف وأعطاهم ظهره وبدا كأنه يتحدث إلى شخص لا يرونه، فجأة، حدثت جلبة واندفع الجنود عبر مدخل النادي، لم يتسن للخدم المضربين أن يقاوموا، انقض عليهم الجنود وأمسكوا بهم وجرجروهم بقوة إلى الخارج، ارتفعت أصواتهم معترضة لكن الجنود أمطروهم باللكمات وراحوا يركلونهم حتى وصلوا إلى سيارة الترحيلات التي كانت تنتظرهم أمام الباب.

صالحة

لماذا أحببتُ ميتسي إلى هذا الحد؟

لأنها لطيفة ومهذبة ولأن كامل يحبها وأنا أحب كل مَن يحبه كامل، ربما أعجبتني التجربة ذاتها؛ أن أصاحب فتاة إنجليزية تتكلم العربية وتريد أن تتعلم كل شيء في حياة المصريين.. مع ميتسي لم أكن أشعر بالوقت، نتكلم ونتناقش ونضحك كثيرا، كانت تصر على مساعدتي وأمي في أعمال البيت وتسألني عن كل ما أفعله.. تعلمت أشياء لم

أكن أتصور أن فتاة إنجليزية تهتم بها.. كانت متعتنا الكبرى عندما نتناول القهوة معا، نجلس في الشرفة حول الصينية النحاسية الكبيرة، نضع عليها الموقد والفناجين والماء البارد المخلوط بالماورد، يوم الأربعاء بعد صلاة المغرب، بينما نستعد لشرب القهوة قالت ميتسي وهي تتناول مني علبة البُن:

ـ سأصنع القهوة بنفسي.

كانت ترتدي فستانا أزرق وقد سرَّحت شعرها على هيئة ذيل حصان فظهرت أذناها الصغيرتان الجميلتان، بعد دقائق وأنا أرشف القهوة تطلعت إليَّ ميتسي ثم ضحكت وقالت:

ـ أحيانا أتخيل أننا امرأتان تعيشان في بلاط السلطان العثماني.

ـ وماذا نفعل في البلاط؟

أشاحت ميتسي بيدها وقالت:

ـ أوه.. عادة لم تكن نساء السلطان يفعلن شيئا، نقضي النهار في الحَمَّام والتجميل، لا بد أن نعتني بأجسادنا ونكون جاهزات لأن السلطان قد يطلبنا للحب في أي لحظة.

هل تحبين أن تمثلي هذا الدور على المسرح؟

ـ أتمنى طبعا، لكني أستمتع بالخيال دائما، الممثل لازم يقدر يتخيل حياة ثانية غير حياته العادية.

سكتت ميتسي لحظة وسألتني:

ـ هل تعتقدين في تناسخ الأرواح؟

كانت هذه طريقتها في الانتقال المفاجئ من موضوع إلى آخر.

قلت:

ـ قرأت عنه.

ـ ألا يمكن أن نكون عِشْنا بأرواحنا من قبل في أماكن وظروف مختلفة، ثم متنا وأعيد بعثنا في هذه الحياة؟

ـ يجوز، لكنني مسلمة، وفي ديني يقول الله إن الروح بيده وهو المتحكم فيها.

ـ كثيرا ما أحس بأنني في حياتي السابقة كنت مصرية، أحس في مصر بألفة لا يمكن أبدا أن تتحقق من المرة الأولى.. حتى عندما أتحدث معك يا صالحة، أشعر بأنني رأيتك واستمعت إليك من قبل.

سكتت ميتسي لحظة ثم قالت:

ـ إوعي تفتكريني مجنونة.

ضحكنا ثم تطرقت إلى موضوع الدراسة فسألتني:

ـ عاملة إيه في المذاكرة؟

ـ أبذل جهدي لكن الموضوع صعب.

ـ ستجتازين الامتحان بتفوق وسَأُذَكِّركِ.

فجأة، سمعنا طرقتين خفيفتين، كانت هذه هي طريقة كامل في دق الباب، قلت:

ـ ادخل.

لم أر كامل طيلة حياتي سعيدا مثلما رأيته في تلك اللحظة، بدا وجهه مضيئا، صافح ميتسي وقَبَّلني على خدي ثم ظل لحظات ساكتا

كأنما يسيطر على مشاعره، وضع يده في جيب السترة وأخرج ورقة مطوية وقال:

ـ مبروك يا صالحة، خذي ورقة الطلاق.

ظللت لحظات حتى استوعبت. ثم قفزت من مكاني واحتضنته بقوة وأنا أردد:

«الحمد لله.. الحمد لله»، انتابني انفعال قوي فبكيت، بعد دقائق جاءت أمي لتهنئني، فكرت أن آخر ما كنت أتوقعه وأنا أُزَفُّ إلى عبد البر أن يكون زواجي كابوسا لدرجة أن نحتفل جميعا عندما أحصل على الطلاق، سألَتْ أمي ميتسي إن كانت قد أكلت الفتة من قبل، أجابت ميتسي:

ـ سمعت عنها.

قالت أمي:

ـ سوف أعمل لكم فتة باللحم.

ضحك كامل وقال:

ـ يا أمي أريد أن أنبهكِ إلى أن ميتسي إنجليزية وربما لا تتحمل معدتها الفتة المصرية.

لَوَّحت ميتسي بيدها معترضة وضمتها أمي إليها وقالت:

ـ بالعكس أنا متأكدة أنها حتحب الفتة.

كانت تلك أمسية رائعة، ضحكت كما لم أضحك في حياتي، كان منظر ميتسي طريفا وقد ارتدت جلبابا كستور ولمَّت شعرها ووقفت في المطبخ تساعد أمي في صناعة الفتة، أكلنا وشربنا عدة أدوار من الشاي،

احتفلنا حتى أذان الفجر، دخل كامل لينام وسبقتني ميتسي إلى حجرتنا، توضأت وأدينا أنا وأمي ركعتين شكرا لله ثم صلينا الصبح، نمت نوما عميقا لم أعرفه من زمن طويل، في اليوم التالي استيقظت بعد أذان الظهر فوجدت مفاجأة أخرى، كانت ميتسي في الصالة وأمامها حقيبتها وكامل جالس بجوارها، أخبرتني أمي أن ميتسي ستغادر بيتنا لأنها وجدت شقة، أحسست بصدمة، قلت بلا تفكير:

ـ حتى لو وجدت ميتسي شقة يجب أن تظل معنا.

قَبَّلَتْ أمي ميتسي على وجنتها وقالت:

ـ نفسنا تقعدي في بيتنا على طول.

تطلعت ميتسي إلينا بامتنان وقالت:

ـ أنا أيضا لا أريد أن أترككم لكني مضطرة، سأزوركم دائما، شقتي في جاردن سيتي ليست بعيدة.. تستطيعين يا صالحة أن تُحْضِري كُتبك وتذاكري عندي في هدوء.

احتضنتها من جديد فقال كامل:

ـ يجب أن ننصرف حالا، لقد استأذنت ساعة من العمل حتى أوصل ميتسي إلى شقتها.

كان الوداع حماسيا، قالت ميتسي وهي تغالب دموعها:

ـ أشكركم، لن أنسى أبدا ما فعلتموه معي.

حمل كامل الحقيبة بينما جذب ميتسي بيده الأخرى وقال مازحا:

ـ ما معنى هذه الدراما؟ المسافة بين بيتنا وشقة ميتسي عشر دقائق بالتاكسي، ابقوا روحوا شوفوها كل يوم.

بحصولي على الطلاق بدأت مرحلة جديدة في حياتي، أصبحت أرى نهاية النفق، قررت أن ألتحق بالجامعة وأحقق رغبة أبي، رُحت أستذكر بجدية، تفانت أمي في رعايتي، أعفتني من أعمال المنزل، كامل أخي تعاقد لي مع مدرسين خصوصيين، أشفقت عليه من كثرة النفقات لكنه طمأنني قائلا:

ـ الحمد لله ظروفنا المالية تحسنت، المهم تنجحي.

أحسست بأنني أخوض معركة، كنت أصحو في الضحى وبعد الحَمَّام الساخن والإفطار أجلس إلى مكتبي، أستذكر حتى منتصف الليل، لا أقطع مذاكرتي إلا لأداء الصلاة بينما أمي لا تنقطع عن إمدادي بالشاي والسندوتشات، كنت أزور ميتسي في شقتها مرة في الأسبوع على الأقل وكانت هي تزورنا دائما، بالرغم من إرهاق المذاكرة كنت أحس بثقة وتفاؤل، حتى الضرب والإهانة واللحظات العصيبة التي عِشتها مع عبد البر لم أعد أفكر فيها، قالت لي أبلة عائشة:

ـ إياكِ تبصي وراكِ، انسي عبد البر التعبان، بكره أزوجك أحسن واحد في مصر، حتشوفي.

رددت بسرعة:

ـ الأهم إني أنجح في الامتحان وأدخل الجامعة.

أطلقت أبلة عائشة ضحكة رنانة وقالت:

ـ التعليم كويس صحيح لكن الست منا عمرها ما تتهنَّى من غير رجل.

انقطع أخي سعيد عن زيارتنا.. صار يتذرع بضرورة بقائه بجوار فايقة الحامل، كنا ندرك أنه يعاقبنا على طلاقي من عبد البر، عرفنا من أبلة عائشة أن عبد البر ألغى مشروعه مع سعيد، انقطاع سعيد عن زيارتنا

ضايق أمي، رحت أواسيها، أكدت لها أن سعيد لا يمكن أن يستغني عن أمه وإخوته وأنه حتما سيعود إلينا، في أعماقي ـ للأسف ـ استرحت لغياب سعيد، عشنا فترة صافية بلا مشاكل لا أذكر بالتحديد كم استغرقت من الوقت.. ثلاثة أسابيع أو ربما شهرًا ثم حدث ما حدث تلك الليلة، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحا وأنا في حجرتي منهمكة في حل مسائل الرياضة عندما سمعت حركة في الردهة، اعتقدت أن كامل قد عاد من الخارج، شيئا فشيئا زادت الضجة وسمعت وقع أقدام، تأكد لي أن شيئا غريبا يحدث، قمت وأنصت عبر الباب المغلق، ظلت الضجة تقترب وفجأة سمعتُ أمي تصيح:

ـ ما حدش يقرب من بنتي!

(٤٠)

انطفأت الأنوار ولم يعد محمود يرى شيئا فانتابه الفزع وصاح:

ـ فيه إيه يا جماعة؟

جاءه صوت فوزي في الظلام مداعبا:

ـ أنت خفت ولا إيه؟ جمد قلبك يا معلم محمود.

ـ هو النور انقطع؟

ـ مش قلت لك تفيدة عاملة لنا مفاجأة.

ارتفع صوت محمود ساخطا:

ـ هي المفاجأة إنها تقطع علينا النور!

ضحك فوزي وقال:

ـ اصبر يا جدع.

مرت بضع دقائق والمكان يسبح في ظلام دامس، أشعل محمود ولاعته فأصدرت ضوءا خافتا ثم نهض وتقدم بحرص نحو باب الشقة وقال:

ـ بص يا عم فوزي، أنت حر مع تفيدة تلعبوا مع بعض براحتكم، أنا ماشي.

صاح فوزي:

ـ لحظة واحدة يا محمود.

تردد محمود وقبل أن يقرر ما سوف يفعله أضيئت الأنوار فجأة، أغمض محمود عينيه ثم فتحهما وعندئذ رأى مشهدا غريبا، كانت تفيدة السرساوي واقفة في وسط الصالة وهي ترتدي بدلة رقص شرقي.. قطعتان صغيرتان مغطيتان بالخرز والترتر تغطيان صدرها، وحزام من القماش معقود على وسطها، وبينهما نسيج البدلة الشفاف يُظهر جسدها الضامر، كان منظرها وهي عارية في بدلة الرقص يثير العطف، بدت بوجهها المتهالك الملطخ بالمكياج وجسدها النحيل وجلدها المنهك وصدرها الممسوح الرمزي، كأنها تقليد ركيك مكرر لفكرة الأنثى.. يبدو أنها لم تجد مقاسها فاشترت بدلة رقص واسعة بدت متهدلة وبائسة، انتابت محمود مشاعر متضاربة وراح يتطلع إلى تفيدة في بدلة الرقص وفجأة أطلق ضحكة فسرتها تفيدة على أنها إعجاب فأمعنت في عرضها المَرِح، رفعت ذراعيها إلى أعلى ودارت دورة كاملة حول نفسها. صاح فوزي ضاحكا:

ـ إيه الحلاوة دي، حرام عليكِ كفاية دلع أنا أعصابي تعبت.

قهقه محمود عاليا فتطلعت تفيدة نحوه وقالت:

ـ عاجباك بدلة الرقص؟

قال محمود وهو يجتهد ليمنع الضحك:

ـ جميلة جدا.

قام فوزي من مكانه وأعد كأسَيْ ويسكي، واحدة له والأخرى لمحمود، ثم اقترب من تفيدة وخبط مؤخرتها وصاح:

ـ عاوز أتفرج على الرقص.

اتجهت تفيدة إلى البيك آب وقامت بتشغيله فارتفع صوت الموسيقى وراح فوزي يصفق بحماس، كانت مقطوعة موسيقية شرقية ترقص عليها «سامية جمال»، لكن شتان ما بين سامية وتفيدة التي راحت تهتز بعصبية وتنحني إلى الأمام والخلف كأنها تؤدي تمرينات رياضية، كان فوزي يصفق على الإيقاع وينظر إلى محمود مبتسما كأنما يدعوه إلى المشاركة، صفق محمود قليلا لكنه لم يتمالك نفسه فارتمى على المقعد واستسلم للضحك، انساقت تفيدة لنزوتها الاستعراضية واستمرت في الرقص حتى انتهت الأسطوانة.. تصبب العرق على وجهها وراحت تلهث، صفق فوزي ومحمود وانحنت تفيدة كأنها ترد التحية للجمهور ثم أدارت الوجه الآخر للأسطوانة واستأنفت الرقص.. انقطع محمود عن الضحك ثم شيئا فشيئا بدا له ما يحدث سخيفا على نحو ما.. انتهت الموسيقى وقفز فوزي من مقعده وقال لتفيدة بنبرة ساخرة:

ـ بالراحة علينا يا شقية، السكس أبيل بتاعك الليلة جبار.

احتضنها فتملصت منه وقالت بأقصى ما أتيح لها من أنوثة:

ـ حبيبي أنا عرقانة، استنى لما آخذ حَمَّام.

قفزت عبر الردهة إلى الحَمَّام بينما صب فوزي كأسا جديدة تجرعها دفعة واحدة فزفر وتضرج وجهه ثم تناول علبة السجائر والولاعة وتطلع إلى محمود بابتسامة مزهوة وقال:

ـ بالإذن يا معلم محمود.

اتجه فوزي إلى حجرة النوم لينتظر تفيدة، كان إحساس محمود بسخافة ما حدث قد تحول إلى ضيق بالغ، كان حانقا على فوزي لأنه أرغمه على حضور هذه المسخرة.. ما دخله هو بتفيدة، إنها عشيقة فوزي فلماذا يقحمني معها؟ مَن يشيل قِربة مخرومة تخر على دماغه،

ثم ما معنى المفاجأة التي أعدتها تفيدة؟ أن تغلق الأنوار وتتركهم في الظلمة ثم تظهر ببدلة رقص تكشف عن جسدها الذي يشبه الهيكل العظمي، كلما رأى محمود هذه الحيزبون تتصابى وتتدلل أحسَّ بالغيظ وكأنه أهين، راح يلعن فوزي في سره وتصاعد غضبه لكنه قال لنفسه: «برغم كل شيء سأعمل بأخلاقي ولن أترك فوزي الليلة، سأنتظره ولكن ـ قسما بالله العظيم ـ لن آتي إلى هنا مرة أخرى أبدا».

راح محمود يجوب أنحاء الصالة ويتفرج على الصور التذكارية المعلقة على الجدران، كم كانت تفيدة جميلة وهي شابة وكم تغير شكلها؟! في الصور القديمة تبدو فعلا مثل نجمات السينما، كانت هناك صورة لها على البحر وصورة أخرى في حديقة وصورة وهي ترتدي فستان سهرة وتجلس إلى مائدة عشاء مع مجموعة من الرجال والنساء، لو أنه التقى بتفيدة وهي شابة لربما أحبها لكنها الآن تثير اشمئزازه، خرج محمود إلى الشرفة وأشعل سيجارة ثم استند بمرفقيه على سور الشرفة وراح يتابع السيارات في الشارع، فجأة سمع صوتا غريبا، التفت خلفه فوجد فوزي يصيح وهو عار تماما:

ـ محمود الحقني.. تعالَ بسرعة.

ـ فيه إيه يا فوزي؟

لم يرد فوزي وإنما هرع عائدا من حيث أتى، ألقى محمود بالسيجارة من الشرفة وانطلق خلفه، اجتازا الردهة بسرعة، كان باب حجرة النوم مفتوحا والنور مضاءً وما إن دخل محمود حتى رأى مشهدا مفزعا، كانت تفيدة عارية تماما مغمضة العينين ومسجاة على السرير بزاوية مائلة جعلت رأسها تتدلى بجوار المخدة.

صاح محمود بصوت محشرج:

ـ ما لها؟

رد فوزي وهو يلهث من الانفعال:

ـ أنا كنت نائم معها وكانت زي الفل وفجأة صرخت ولقيتها عملت كده.

سأله محمود بصوت مرتعد:

ـ يمكن أغمى عليها؟

تمتم فوزي بكلمات غامضة ثم اقترب من تفيدة وأعاد رأسها إلى الوسادة ثم راح يربت على خدها ويقول بصوت عالٍ:

ـ تفيدة.. قومي يا حبيبتي بلاش دلع.

لم ترد تفيدة ولم يَبْدُ على وضعها أدنى تغير، ظلت مُسجاة عارية على الفراش وهي مغمضة العينين، ولاحظ محمود لأول مرة قميص النوم الأحمر الملقى على الأرض، مرت لحظات ثم عاود فوزي نداءه عليها لكنها ظلت كما هي، ساكنة تماما بلا أدنى حركة، انحنى فوزي على رأسها ووضع أصابعه أمام أنفها لحظات ثم التفت إلى محمود بوجه مكفهر وهمس:

ـ باين عليها ماتت.

صرخ محمود:

ـ يا نهار أسود!

أطرق فوزي ولم يرد، عندئذ راح محمود يولول:

ـ تفيدة ماتت!! إحنا رحنا في داهية.. إحنا انتهينا.

ظل فوزي صامتا وقد بدا عليه التفكير ثم أمسك بمحمود من يده وقال بنبرة حازمة:

ـ امسك نفسك وخليك رجل، تفيدة فوق السبعين، أجلها انتهى عند كده، نعمل لها إيه؟! ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً ...﴾.

لم يكن فوزي يعرف بقية الآية، كما أن استشهاده بالقرآن في تلك اللحظة بدا غريبا، كان عاريا لم يزل، استطرد بصوت خافت كأنه يكلم نفسه:

ـ هي صِحّتها على قدها من الأول، أظن أنها تعبت من الرقص، وبعدين أنا نمت معها جامد قامت ما استحملتش المجهود والسر الإلهي طلع.

راح محمود يحدق فيه والعرق يتصبب على وجهه، هتف فوزي وهو يلتقط قميص النوم من الأرض:

ـ تعالَ ساعدني، لازم نلبّسها قميص النوم كأنها كانت نائمة عادي.

مد محمود يده وراح يجذب الجثة مع فوزي حتى أجلسها وأمسك بها من كتفيها، ألبسها فوزي قميص النوم وأعادها إلى رقدتها وغطاها ثم ارتدى ثيابه على عجل وجذب محمود عبر الردهة حتى وصلا إلى الصالة وقال:

ـ لازم نشيل أي شيء يدل على إننا كنا مع تفيدة.

أخرج فوزي منديلا أبيض وراح يدعك به كل ما يمكن أن يحمل بصماتهما، الكئوس ومقابض الأبواب وأطراف المائدة، كانت هذه الحركة التي لم يرها محمود من قبل إلا في السينما كفيلة بمضاعفة اضطرابه، فكر أنه تحول إلى مجرم مثل هؤلاء الذين يراهم في الأفلام،

انتهى فوزي من إزالة الآثار بالمنديل ووضعه في جيبه ثم بدأ يعطي محمود تعليمات محددة: أعقاب السجائر ألقها من النافذة، الطفايات اغسلها وجففها جيدا وأعدها إلى مكانها.. الأكل يرجع الثلاجة والصحون تغسل وتعود إلى رفوفها في المطبخ.. انهمك الصديقان في العمل ما يقرب من نصف ساعة ثم ألقى فوزي نظرة متفحصة على المكان وقال:

ـ آخر خطوة الآن البوّاب.. أنا متأكد إنه ما شافناش واحنا طالعين.

قال محمود بصوت يائس:

ـ حتى لو ماشافناش وإحنا طالعين حيشوفنا واحنا نازلين.

ـ ممكن تسمعني؟

عاد لمحمود إحساسه بالهلع فصاح:

ـ عليه العوض، أنا ضعت خلاص وأنت اللي ضيعتني.

قال فوزي محذرا:

ـ لو فضلت تولول زي النسوان الجيران حيسمعوك ويبلغوا البوليس.

كانت كلمة بوليس كفيلة بإسكات محمود فورا، استطرد فوزي قائلا بصوت هادئ:

ـ باب حجرة البواب أوقات يبقى مفتوح وأوقات يبقى موارب، غلط إننا ننزل في الأسانسير لأن البواب أول ما يسمع صوته بيفتح الباب.. إحنا ننزل على السلم ولو لقينا باب البواب مفتوح نستنى لما يقفله ولو لقيناه موارب نتسحب بالراحة لغاية الشارع.

كانت التفاصيل تنهمر على ذهن محمود بسرعة فعجز عن الاستيعاب،

ظل صامتا لكن إحساسه بالهلع راح يتزايد حتى بات يتنفس بصعوبة وأحس أنه سيفقد الوعي، قال فوزي كأنما يشد من أزره:

ـ عاوز تخرج من البلوى دي اسمع كلامي.

اقتربا من باب الشقة وأخرج فوزي منديله ولفه حول المقبض ثم فتحه وبعد أن خرجا شد المقبض الخارجي أيضا بالمنديل وأغلق الباب.. كان السلم مظلما وتعمَّد فوزي ألا يضغط زر النور.. نزلا في الظلام ببطء وحذر وهما يبذلان مجهودا حتى لا تُسمع خطواتهما أو ينزلقا على درجات السلم.. كانت شقة تفيدة في الدور الرابع والساعة جاوزت الواحدة صباحا، كانا محظوظَيْن لأنهما لم يصادفا أحدا على السلم ثم واتاهما الحظ مرة أخرى لأنهما وجدا باب البوَّاب مواربا.. همس فوزي لمحمود:

ـ الحمد لله.. الباب موارب.

همس محمود بصوت مذعور:

ـ ربنا يستر.

قال فوزي:

ـ امشِ ورائي من غير حس لغاية لما نطلع الشارع.

بدأ محمود السير خلف فوزي نحو باب العمارة.. عبر فوزي أمام الباب الموارب بهدوء وكاد محمود يسقط من الرعب وهو يتبعه، اجتاز الصديقان الردهة الفسيحة ولمَّا وصلا إلى باب العمارة أدركا أنهما قد نَجَيَا، زفر فوزي بقوة وقال لمحمود:

ـ الحمد لله، امشِ بطريقة عادية.

هز محمود رأسه ومشى على مهل وهو ينظر أمامه كأنه يقوم بجولة

عادية في الشارع.. ما إن تقدما بضع خطوات حتى سمعا صيحات عالية خلفهما.. اضطرب محمود بشدة وتلفت فوزي حوله ثم هتف:

ـ اجرِ يا محمود.

في لحظة كلمح البصر وبحركة واحدة كأنما باتفاق بينهما، انطلق الصديقان يعدوان بأقصى سرعة بينما صياح مطارديهما يزداد حدة.

كامل

كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا وأنا عائد إلى البيت بعد يوم طويل.. خرجت من عملي في النادي إلى اجتماع عند الأمير ثم زُرت ميتسي لأطمئن عليها وأخيرا ذهبت أذاكر مع زميل في شارع الروضة، كنت مُنهكا، أحس بصداع وأنقل قدمي على الأرض بصعوبة، مَنّيت نفسي بحَمَّام ساخن ونوم عميق، قلت لنفسي غدا عطلتي الأسبوعية من النادي، لا بد أن آخذ كفايتي من النوم حتى أستطيع الاستمرار.

كان شارع السد يكاد يخلو من المارة، قبل أن أجتاز محطة الترام فوجئت برجل لا أعرفه يعترض طريقي، وقف أمامي بطريقة تمنعني من السير، تطلع إليَّ بنظرة غريبة ثم أخرج سيجارة ووضعها على طرف فمه وقال:

ـ ممكن تولع لي.

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت الولاعة، بينما هو يقترب بوجهه ليُشعل السيجارة أحسست أن شيئا مريبا يحدث، شكرني الرجل ومشى

بعيدا، وصلت إلى البيت، اجتزت البوابة وصعدت السلم، فتحت الباب بمفتاحي، لم أكن أريد إيقاظ أمي، أخذت حَمَّاما وارتديت البيجاما واستلقيت على الفراش، لم أكد أضع رأسي على الوسادة حتى سمعت طَرْقًا على الباب، كان الطرق قويا ومتلاحقا.. هرعت نحو الباب وما إن أدرت المقبض حتى فوجئت بمن يدفع الباب بقوة، كدت أسقط على الأرض، كانوا أربعة أشخاص: ثلاثة يرتدون ثيابا مدنية وخلفهم ضابط شرطة بالملابس الرسمية، كان وجهه عابسا ونظرته باردة متفحصة، قال بصوت مرتفع:

ـ أنت كامل عبد العزيز همام؟

ـ نعم.

ـ عندنا أمر بالقبض عليك وتفتيش البيت.

ـ معك إذن من النيابة؟

ابتسم ساخرا وقال:

ـ أنا لا آخذ أذونا من النيابة.

لأول مرة ألاحظ أن الرجل الواقف بجوار الضابط هو ذاته الرجل الذي اعترضني ليشعل سيجارته، فكرت أنه ليس من الحكمة استفزاز الضابط، قلت له بهدوء:

ـ إيه المطلوب مني؟

ـ ادخل وأوقظ أهل البيت بنفسك حتى لا نفزعهم.. بعد ذلك سنبدأ التفتيش.

تقدم الضابط خطوات ثم جلس على الأريكة في الصالة وأشعل

سيجارة.. اتجهت إلى الداخل وتبعني المخبرون، عندما وصلت إلى حجرة أمي توقفت أمام الباب والتفت إلى المخبرين فتراجعوا خطوات، حتى الآن لا أفهم كيف لم تستيقظ أمي برغم الطَّرْق الشديد على الباب، أضأت النور وجلست على حافة الفراش ثم لمست وجه أمي برفق فانتبهتْ وفتحتْ عينيها، تطلعتْ نحوي بقلق وسألَتْ:

ـ خير يا ولدي؟

قلت بصوت خافت:

ـ البوليس بالخارج، عاوزين يفتشوا البيت ويقبضوا عليَّ.

أطرقَتْ أمي وراحتْ تتنفس بصوت مسموع كأنما تسيطر على مشاعرها، ثم قالت بصوت مبحوح:

ـ أنت عملت شيء غلط يا كامل؟

ـ لا.

ـ أمال عاوزين يقبضوا عليك ليه؟

ـ لأسباب سياسية.

بدا أنها لم تستوعب تماما أو أنها أدركت أنه لا وقت لتحليل الموقف.. قامت وارتدت جلبابها الأسود على ثياب النوم، أحكمت غطاء الرأس ونظرت إلى المرآة بسرعة ثم قالت:

ـ عاوزين يفتشوا فين؟

ـ عندك هنا وبعدين عند صالحة ومحمود.

سأظل طوال حياتي مبهورا بصلابة أمي تلك الليلة، كيف تحملت

الصدمة واستعادت تماسكها وتصرفت بحزم؟! دخل المخبرون وراحوا يقلبون محتويات الحجرة ثم خرجوا، لم يجدوا شيئا، تلك الليلة كان محمود يبيت عند صديق له، خرجتُ إلى الردهة فوجدت صالحة تبكي بحرارة، كانت أمي قد أيقظتها، قام المخبرون بتفتيش حجرة صالحة وحجرة محمود ثم قضوا وقتا طويلا في تفتيش حجرتي، عادوا إلى الضابط حاملين المضبوطات، تفحصها الضابط بعناية ثم تطلع إليَّ وقال:

ـ أنت بتقرأ كتب عن الماركسية؟

ـ إحنا بندرس الماركسية في كلية الحقوق.

ـ وكتاب عن العمل التنظيمي؟

ـ اشتريته من سور الأزبكية، أحب أقرأ في كل المجالات.

ابتسم الضابط وأشار إلى مفرمة الورق التي كان المخبر يحملها ثم قال:

ـ طيب يا زعيم، ممكن تشرح لي وظيفة الماكينة دي.

ـ مفرمة ورق.

ـ لازم بتفرم فيها المحاضرات.

أطلق ضحكة ساخرة ثم نهض وقال:

ـ تفضل معنا.

تقدم مني المخبر الذي أشعل السيجارة ثم جذب يدي وبدأ يضعها في الكلبشات، صرخَتْ صالحة وراحت أمي تهدئها، لم أقاوم المخبر، كنت أحس بأنني أتفرج على ما يحدث كأنه يحدث لشخص آخر، دفعني المخبر أمامه وتبعه زملاؤه والضابط، هرعت أمي وراءنا وصاحت:

ـ أنتم واخدينه فين؟

رد الضابط متهكما:

ـ عازمينه على فنجان قهوة.

قلت للضابط:

ـ أظن أبسط حقوقي أن يعرف أهلي مكان احتجازي.

فكر الضابط لحظة ثم قال لأمي:

ـ كامل سيكون عندنا في قسم السيدة.

نظرتُ إليهما؛ أمي وصالحة، حاولت أن أبتسم لأطمئنهما، عندما وصلت إلى أسفل الدرج ارتفع نحيب صالحة وصاحت أمي فجأة:

ـ كامل.

كأنها ظلت تقاوم مشاعرها حتى أفلتت منها هذه الصرخة، أخذوني في سيارة سوداء كبيرة، جلس الضابط في المقدمة بجوار السائق بينما أجلسوني في الخلف وأحاط بي مخبران، لم يركب معنا المخبر الثالث، ما إن تحركت السيارة حتى وجدت أحد المخبرين يمسك برأسي بكفه الضخمة بينما شرع الآخر في وضع غمامة على عينيَّ، حاولت المقاومة فتلقيت وابلا من الصفعات واللكمات وقال الضابط:

ـ خلاص يا روح أمك، أنت بقيت في إيدينا.. اسمع الكلام أحسن لك.

كنت قد بدأت حالة ذهنية جديدة، أستمع إلى الأصوات حولي ولا أرى شيئا.. بعد ما يقرب من ربع ساعة، توقفت السيارة وأنزلوني، دخلت معهم مبنى ما، صعدنا نحو عشر درجات ثم اجتزنا ردهة واستقللنا

المصعد، أحسست أننا في الدور الثاني أو الثالث، اجتزنا ردهة أخرى باردة ودخلنا إلى مكتب، فك المخبر يديَّ من الكلابشات ثم رفع الغمامة فأحسست بدوار واستغرقت لحظات حتى استعدت الرؤية، رأيت رجلا في الخمسين، أصلعًا وبدينًا، ويبدو متأنقا، ترك وجهه في نفسي انطباعا كريها، قال بصوت هادئ:

ـ شرفتنا يا كامل.

اندفعت قائلا:

ـ لا يجوز قانونا القبض عليَّ وتفتيش بيتي بدون إذن النيابة.. كما أنني أرفض التحقيق معي إلا في حضور محام.

ضحك الرجل عاليا كأنني قلت نكتة، أشار بيده فتلقيت وابلا من اللكمات الموجعة من المخبرين الواقفين حولي، راحا يضرباني في بطني ورأسي حتى أشار لهما الرجل فتوقفا ثم دفعاني فارتميت على الأريكة، جلسا بجواري وحاصراني من الناحيتين، ابتسم المحقق وقال:

ـ عاوز تتصل بشخص معين؟

لم أرد، ابتسم وقال:

ـ تحب مثلا تتصل بالأمير شامل رئيس التنظيم، للأسف هو ما عادش يقدر ينجدك، الأمير شامل نفسه محبوس بإذن مَلَكي، كل أصحابك محبوسين، عبدون وأوديت اليهودية وعطية الشيوعي.

أراد أن يوحي لي بأنه يعرف عني كل شيء حتى أنهار، ظللت صامتا، كنت أعلم أن أية كلمة لا تعجبه ستجلب عليَّ المزيد من اللكمات، اتكأ المحقق بذراعيه على المكتب ومد رأسه إلى الأمام وقال بصوت خفيض:

- طمني على حبيبتك ميتسي.

- أرفض الكلام بهذه الطريقة.

تلقيت لكمات من جديد، كان المخبر الجالس إلى يميني يركز ضرباته على رأسي، أحسست بدوار، استطرد المحقق قائلا:

- متى انضممت إلى التنظيم؟

- أي تنظيم؟

- يا كامل اعقل ما تضيعش مستقبلك، إحنا معنا صلاحيات كاملة، نقدر نعمل فيك أي حاجة، لو اعترفت أوعدك إني حأخليك شاهد ملك وأطلعك من القضية.

صالحة

كان من الطبيعي أن تنهار أمي وأواسيها لكن ما حدث العكس، انهارت أعصابي وراحت أمي تُهوِّن عليَّ المصيبة، كان مشهد أخي كامل ويداه مقيدتان بالحديد والضابط والمخبرون حوله لا يفارق ذهني، في الأيام التالية لم أستذكر حرفا، كنت أجلس أمام الكتاب فتغلبني الدموع وأعجز عن التركيز، ظلت أمي متماسكة لدرجة أدهشتني، هذه المرأة رأت الأهوال وظلت ثابتة كالصخر، ذهبت معها إلى قسم السيدة زينب، قابلنا المأمور، كان رجلا مهذبا، ابتسم بحرج وقال:

- كامل لم يقبض عليه بمعرفة القسم.

قالت أمي:

ـ لكن الضابط الذي قبض عليه أكد أنه في قسم السيدة.

رد الضابط قائلا:

ـ بصي يا حاجة، كامل مقبوض عليه من القلم السياسي، الضباط هناك عادة ما يضللون أهل المتهم حتى لا يعرفوا مكانه.

سكت لحظة ثم قال وهو يكتب على ورقة أمامه:

ـ أنصحك بالسؤال في المديرية، سأبعثك إلى زميل لي هناك.

لا زلت أذكر اسم ضابط المديرية: فتحي الوكيل.. ذهبنا إليه بالورقة التي كتبها المأمور، أجرى اتصالات ثم أكد لنا أن كامل في سجن الأجانب، كان المشوار بعيدا ولم يسمحوا لنا برؤية كامل، بعد أخذ وردّ وجدل وعدونا برؤيته يوم الجمعة موعد الزيارة الأسبوعي، عُدنا إلى البيت فوجدنا ميتسي تنتظرنا في بيت أبلة عائشة، تأثرت لما رأيتها، احتضنتنا أنا وأمي، انتقلنا إلى شقتنا ومعنا أبلة عائشة، جلسنا في الصالون وصنعت لهن الشاي، بدت ميتسي شاحبة وعصبية، حكت أمي ما فعلناه طوال النهار، عقبت أبلة عائشة:

ـ أنا أروح معكم يوم الجمعة بإذن الله.

قررت ميتسي أن تبيت معنا تلك الليلة ثم صارت بعد ذلك تقضي معنا طوال النهار ولا تذهب إلى بيتها إلا للنوم، أما أبلة عائشة فقد أثبتت مرة أخرى شهامتها، لم تتركنا لحظة واحدة.. بعثَتْ إلى كامل بمحام تعرفه اسمه جميل برسوم؛ رجل بدين تبدو عليه الطيبة، جاء إلى بيتنا في المساء فاستقبلناه في الصالون، سألته أمي بلهفة:

- حضرتك زرت كامل؟

بدا عليه الارتباك، خلع نظارته وأخرج منديلا وراح يمسح العدسات ثم قال:

- زرته وحضرت التحقيق.

سألته:

- كيف حال كامل؟

- بخير الحمد لله.

قالت أمي بصوت مضطرم:

- أنا سمعت أنهم بيعذبوهم.

أطرق الأستاذ جميل ثم قال بصوت خافت:

- للأسف هناك آثار ضرب على جسمه وقد أثبتُّها في التحقيق.

تمتمت أمي بكلمات لم أتبينها وصاحت أبلة عائشة:

- منهم لله المجرمين.

رد الأستاذ جميل:

- للأسف التعذيب سلوك معتاد في القلم السياسي لكن طالما أثبتنا الضرب في محضر النيابة عادة الضباط بيحسنوا المعاملة.

سألَتْه ميتسي بحدة:

- ممكن حضرتك تقول لي إيه تهمة كامل؟

ابتسم المحامي بحزن وقال:

- كامل متهم بعضوية تنظيم سري بغرض قلب نظام الحكم.

خبطَتْ أبلة عائشة صدرها وصاحت:

ـ يا خبر أسود.

تقلص وجه أمي وبدا أنها تبذل مجهودا جبارا حتى تتماسك، قالت بصوت متقطع:

ـ ابني رجل شريف لا سرق ولا قتل.

بدت جملتها خارجة عن السياق كأنما تؤكد ما تقوله لنفسها بعيدا عن الحوار.. تطلعَتْ ميتسي إلى المحامي بنظرة جادة وبدت في تلك اللحظة إنجليزية تماما، سألته:

ـ هل اعترف كامل بعضوية التنظيم؟

ـ لا.

ـ هل تعتبر موقفه القانوني سيئا.

ـ بالتأكيد، التهمة خطيرة وعقوبتها ممكن تصل إلى المؤبد.. المتهم برئاسة التنظيم هو الأمير شامل ابن عم الملك، وقد أذن الملك بالقبض على ابن عمه؛ هذه إشارة على خطورة القضية.

ـ لكنك تقول أن كامل لم يعترف.

ـ حتى الآن.

ـ حتى لو اعترف لن يؤخذ باعترافه لأنه حدث تحت التعذيب.

ـ طبعا، لكن للأسف هناك قرائن ضده، هم ضبطوا مفرمة ورق وكُتب عن العمل التنظيمي، ولا أعرف بعد إن كان زملاؤه في التنظيم قد اعترفوا أم أنكروا.

صمتنا جميعا فجأة كأنما استنفدنا طاقتنا، أراد المحامي أن يخفف عنا فابتسم وقال لأمي:

ـ إن شاء الله نزوره يوم الجمعة ونطمئن عليه.

بقدر اشتياقي لكامل كنت أخشى لقاءه، لا أتحمل أن أراه بملابس السجن وآثار الضرب على وجهه، ليلة الجمعة لم أنم، صليت الفجر مع أمي وبدأنا في إعداد الزيارة، غيارات وملابس وبيجاما جديدة وفاكهة وطعام كثير، اشتركَتْ معنا أبلة عائشة وطبخت الملوخية بالأرانب التي يحبها كامل، انضم إلينا الأستاذ جميل وميتسي، ذهبنا في سيارتَيْ أجرة، جلسنا في قاعة الانتظار.. ذهب الأستاذ جميل إلى مكتب مأمور السجن ثم عاد وقال لنا:

ـ تفضلوا.

وأنا أمشي في الردهة خُيل إليَّ أنني سأفقد وعيي، كانت اللحظة المخيفة تقترب، أخي كامل، أحبّ إنسان لي، سندي في هذه الحياة سأراه خلف القضبان مثل المجرمين، انهمرَتْ دموعي ولم أعد أرى، قبل أن ندخل استوقفنا المحامي وهمس:

ـ يجب أن تُسيطروا على مشاعركم، لو انهرتم أمام كامل سيؤذي ذلك نفسيته إلى أبعد حد.. أنتم أقرب الناس إليه وهو يستمد منكم روحه المعنوية، أرجوكم ساعدوه.

استأذنت وذهبت إلى الحَمَّام، غسلت وجهي حتى لا تبدو عليه آثار الدموع، عدت إليهم ودخلنا جميعا، كانت الحجرة فسيحة وفي آخرها يجلس الضابط على المكتب، التفت إلى اليسار فرأيت كامل.. بدا شاحبا زائغ العينين، رأيت على وجهه آثار كدمات زرقاء، صافحه محمود

ووقف بجواره صامتا، هرعَتْ أمي إليه واحتضنته وأجهشت بالبكاء، صافحنا أنا وميتسي وأبلة عائشة، جلسنا؛ كامل على المقعد وبجواره محمود، وجلس الأستاذ جميل على المقعد المقابل، بينما جلسنا أنا وأمي وعائشة على الأريكة، تنحنح الضابط وقال بلطف:

ـ كنت أتمنى أن أترككم مع كامل على راحتكم لكن لائحة السجن تمنع ذلك.

حاولنا جميعا تنفيذ نصيحة المحامي، ابتسَمَتْ أمي بصعوبة وقالت:

ـ شدة وتزول يا كامل، الأستاذ جميل طمأننا، إن شاء الله تطلع قريبا.

قالت عائشة:

ـ عمك علي حمامة بيسلم عليك وبيقولك شد حيلك.

رحت أنظر إلى أخي وأغالب دموعي.

قالت ميتسي:

ـ كامل، تذكر دائما أنك تناضل من أجل تحرير بلدك، نحن فخورون بك.

كان كامل يتطلع إلينا ويبتسم، شيء ما في ابتسامته كان يدفعني للبكاء، شيء ما ذاهل، مأخوذ، منكسر. استمرت الزيارة نصف ساعة، الغريب أننا تحدثنا في موضوعات عابرة، لم نقل شيئا له أهمية، كان حديثنا بعيدا عن مشاعرنا، وكأن الكلمات الفارغة التي نقولها مجرد غطاء يُخفي حوارا آخر صامتا وحقيقيا، في النهاية قال الضابط:

ـ آسف يا جماعة، الزيارة انتهت.

ودَّعْنا كامل كما استقبلناه؛ أحضان ودعوات، أجهشَتْ أبلة عائشة بالبكاء بينما تطلعَتْ أمي إليه واحتضنته ثم قالت بصوت عالٍ:

ـ مع السلامة يا بطل، شد حيلك.

أمسكَتْ ميتسي بيد كامل لحظات وتبادلا نظرة طويلة، عندما جاء دوري، صافحني كامل وقَبَّلني على خدي وقال:

ـ اهتمي بمذاكرتك يا صالحة.

(٤١)

على الرغم من سهراتهما الماجنة، احتفظ محمود وفوزي ـ بفضل التمرينات المنتظمة ـ بلياقة جسدية عالية كما أنهما بتأثير الذعر راحا يركضان بسرعة بالغة يلاحقهما صياح البوّابين.

ـ «امسك.. حَلّق».

ثم ظهر عسكري الدوريّة فأطلق صفارة طويلة كالعويل كانت بمثابة إنذار لكل العساكر القريبين حتى يعلموا أن مطاردة تجري في المنطقة.. استمر الصديقان يركضان وكادا يسقطان أكثر من مرة، لمح فوزي عمارة سيف الدين التي كان يعرفها لأسباب غرامية سابقة فاتجه نحوها ومحمود خلفه، مرقا من الباب ودخلا إلى بهو العمارة ولحُسن الحظ كان البوّابون غائبين أو نائمين، توقف فوزي وأمسك بيد محمود وقال وهو يلهث:

ـ العمارة لها بابان، إحنا حنطلع من الباب الثاني.

اجتاز الصديقان المدخل المعتم الفسيح وخرجا من الباب الآخر فوجدا نَفْسَيْهِما في شارع القصر العيني، ركضا في اتجاه ميدان الإسماعيلية ثم توقف فوزي وقال بحزم:

ـ امشِ عادي يا محمود.

كالعادة، كان فوزي هو الذي يحدد المسار، عَبَرا شارع القصر العيني

ووصلا إلى شارع ضريح سعد ثم عادا إلى شارع السد من طريق بعيد غير مألوف، مَرَّا في شوارع جانبية وبين الحين والحين كان فوزي يتوقف وينظر خلفه ليتأكد أن أحدا لا يتعقبهما.. بعد نصف ساعة لاح لهما باب البيت، دخلا مسرعَيْن كأنهما يؤكدان نجاتهما، قفزا درجات السلم وعندما وصلا إلى باب شقة محمود، همس فوزي قائلا:

ـ تعالَ معي فوق السطح، ضروري نتكلم.

كان محمود في حالة لا تُمكّنه من المعارضة أو الجدل.. كان كل ما حدث يُعاد تركيبه في ذهنه على مهل جزءا جزءا حتى يكتمل المشهد الأخير بتفيدة وهي ميتة وعارية فوق السرير، فتح فوزي الحجرة فوق السطح وأخرج مقعدين ومائدة صغيرة.. جلسا كالعادة بجوار السور المطل على شارع السد، أخرج فوزي قطعة حشيش من جيبه وراح يلف سيجارة ثم أطلق ضحكة خافتة وقال:

ـ الواحد محتاج يوزن دماغه بتعميرة، مفعول الكأسين راح.

كان يتظاهر بالمرح كأنما الظروف عادية تماما، كانت هذه طريقته في التغلب على صعوبة الموقف لكنها بدت مصطنعة وهشة وبلا طائل، ظل محمود صامتا يتطلع أمامه بنظرة غائبة كأنه لا يرى شيئا وبين الحين والحين يزفر ويخبط يديه بقوة على فخذيه أو يشبكهما فوق رأسه ثم انتفض فجأة وصاح بصوت مشروخ بدا وقعه غريبا:

ـ البوليس حيمسكنا ويرمينا في السجن.

ـ لا يمكن البوليس يوصل لنا، البوّاب ما يعرفش اسمي ولا اسمك.

ـ البوّاب عارف شكلنا.

ـ حتى لو البوليس حقق معنا، إحنا ما عملناش حاجة، الحياة والموت

بأمر ربنا سبحانه وتعالى، المرحومة تفيدة أجلها انتهى، كانت حتموت في كل الأحوال سواء كنا معها أم كانت وحدها.

ـ تفيدة ماتت معك في السرير.

ـ صحيح إحنا عملنا علاقة مع المرحومة إنما هي ماتت موتة ربنا.

تطلع إليه محمود غاضبا وقال:

ـ ما تقولش عملنا، أنت اللي نمت مع تفيدة، أنا ماليش دعوة.

ـ إحنا كنا عندها سوا لما ماتت.

هنا فقد محمود السيطرة على نفسه وجلجل صوته في سكون الليل:

ـ يا فوزي ما ترميش بلوتك على دماغي، أنت اللي نمت معها، أنا قلت لك مش عاوز الشغلة دي من الأول وأنت اللي قعدت تقول لي كأنك متزوجهم عرفي شفوي وكأنهم جواري من جيش الفرنجة، الله يخرب بيتك ضيعتني.

اقترب فوزي من محمود ووضع يده على كتفه لكن محمود دفعه بعيدا وقال:

ـ ابعد عني، أنا نازل.

استدار محمود لينزل درجات السلم لكنه توقف كأنما تذكر شيئا فالتفت نحو فوزي وصاح:

ـ مش عاوز أشوف خلقتك تاني، فاهم؟

ما إن دخل محمود إلى حجرته حتى استلقى على الفراش وراح يحدق في السقف ويفكر، بعد قليل تناهى إلى سمعه أذان الفجر من

جامع السيدة زينب، قام واستحم وغسل فمه جيدا حتى يزيل آثار الخمر ثم ارتدى جلبابه الأبيض وصلى، ظل جالسا على سجادة الصلاة وبدأ يقرأ القرآن وفجأة ارتجف جسده الضخم واستسلم لنوبة من البكاء العنيف، كان يحس بندم ورعب وضياع، كان معنى ما حدث واضحا في ذهنه كقطعة بللور، لقد ارتكب الزنى مع روزا وداجمار وكان ربنا سبحانه وتعالى رحيما به فستره وأعطاه فرصة تلو الأخرى لكي يعود إلى الحياة المستقيمة لكن الشيطان فوزي ظل يوسوس له فاستمر في ارتكاب الفاحشة حتى جاءه العقاب الإلهي، ها هو متورط في وفاة سيدة مهمة، سيكون عليه أن يثبت أنه لم يقتلها، أسرة تفيدة السرساوي لها نفوذ كفيل بالقضاء على مستقبله، بالإضافة إلى فضيحة بجلاجل ستظل عالقة بأسرته إلى الأبد.. راح يجتر حسرته وهو ممدد على فراشه ثم شيئا فشيئا راح في نوم قلق ورأى في الحلم تفيدة عارية تركض خلفه وهو يحاول الهرب منها ويصرخ من الفزع، انتبه على يد أمه تداعبه ففتح عينيه واعتدل جالسا في الفراش، ابتسمت وقالت بصوت خافت:

ـ صباح الخير يا محمود، صاحبك فوزي هنا.

اربدّ وجهه وكاد يقول لها إنه لا يريد أن يراه لكنه صمت وهز رأسه، خرجت أمه من الحجرة وبعد قليل دخل فوزي وأغلق الباب فقال محمود محتجا:

ـ إيه اللي جابك؟

راح فوزي يتكلم بسرعة:

ـ أنا عارف إنك زعلان مني، والله يا محمود أنا ماليش ذنب، هو أنا كنت عارف إنها حتموت؟ اسمع يا محمود أنا بأحذرك.. إياك تقول لحد على اللي حصل، لو تكلمت مع أي حد حتضيعنا.

قال محمود بصوت كالعويل:

ـ خرجني من المصيبة دي زي ما جبتها لي.

ـ ما تقلقش، أنا عامل حسابي على كل حاجة.

ـ يكون في علمك، لو البوليس قبض علينا أنا حأعترف عليك.

بدا الجزع على وجه فوزي ودمدم قائلا:

ـ وطي صوتك، أمك حتسمعنا، خلاص اتفقنا؟

ـ اتفقنا على إيه؟

ـ إياك تقول لحد، أي كلمة تطلع منك عن الموضوع ممكن تضيعنا.

لم يرد محمود، ظل عابسا محدقا في الفراغ كأنه لا يجد من الكلمات ما يصف شعوره، خرج فوزي من الحجرة وحاولت أم محمود أن تستبقيه ليتناول الإفطار لكنه شكرها وأصر على الانصراف، استحم محمود وأفطر بدون شهية وذهب إلى العمل، قام بتوصيل الطلبات وهو غائب الذهن تماما، بدا الهم على وجهه لدرجة أن عم مصطفى السائق في نهاية الوردية دعاه إلى شُرب الشاي في مقهى الفردوس، انتقى عم مصطفى مائدة منعزلة وطلب شايا وشيشة جذب منها نَفَسًا عميقا ونفثه وقال:

ـ ما لك يا محمود؟

ـ ولا حاجة.

ـ باين عليك متضايق، لازم تحكي لي.

استعاد محمود تحذير فوزي من إفشاء السر لكن نظرة عم مصطفى المشفقة الحنون قضت على مقاومته، تملكته رغبة قوية في أن يحكي

كل شيء لعم مصطفى لأنه يحبه ويثق فيه، استمع عم مصطفى إليه بانتباه ثم قال:

ـ أعوذ بالله، سترك يا رب.

أطرق محمود صامتا، كان ينتظر رأي عم مصطفى الذي أخذ نَفَسًا طويلا من الشيشة ثم قَطّب جبينه وقال:

ـ قلت لك ابعد عن النسوان ما سمعتش كلامي.

ـ الشيطان شاطر يا عم مصطفى.

ـ جنيت على نفسك وضيعت مستقبلك يا مسكين.

هز محمود رأسه واختلج وجهه بشدة، بدا التأثر على عم مصطفى فربت على كتفه وقال:

ـ ما علينا.. لازم نشوف محامي.

ـ محامي ليه؟

ـ ما فيش حاجة بتستخبى عن البوليس، زمانهم بيبحثوا عنك، ما تنساش إن الست تفيدة من أسرة كبيرة وأهلها واصلين، الواجب إننا نجيب لك محامي شاطر.

ـ أنا ما أعرفش محامي.

ابتسم عم مصطفى وقال:

ـ سيب لي أنا الموضوع ده، أنا حأتصرف.

شكره محمود ثم استأذن وعاد إلى البيت، أحس براحة لأنه لم يعد يحمل الهم وحده، هاهو عم مصطفى يقف بجواره، إنه يتوقع

مواقف صعبة يفزع من مجرد تخيلها، عندما يأتي البوليس للقبض عليه، عندما يدخل السجن مع المجرمين، عندما تعرف أمه أنه كان يزني مع العجائز، عندما تعرف صالحة أخته وكامل وسعيد أن أخاهم الأصغر منحرف ويزورونه فيرونه بملابس السجن، كل هذه الصور انهالت على رأسه كضربات موجعة لكنه الآن على الأقل يستطيع أن يعتمد على عم مصطفى والمحامي، في اليوم التالي لما ذهب محمود إلى الجراج ليبدأ الوردية تطلع إليه عم مصطفى بوجه عابس وقال:

ـ تعالَ يا محمود نخرج للشارع، عاوزك في كلمتين.

خرج محمود خلفه، ابتعد عم مصطفى عن باب الجراج حتى وصل إلى الناصية ثم استدار وأصبح في مواجهة محمود وقال:

ـ أنت فاهم المصيبة اللي جبتها لنفسك؟

رد محمود بصوت خافت:

ـ فاهم يا عم مصطفى.

ساد الصمت ثم قال عم مصطفى بغضب:

ـ أنا مش مصدق إن محمود ابن الناس الطيبين يعمل كده.

ـ الله يجازي اللي كان السبب.

ـ واحد غيرك كان المفروض يجتهد ويشتغل بشرف مش يزني مع النسوان.. المفروض تنكسف من نفسك!

أطرق محمود فبدا كطفل يعترف بذنبه واستطرد عم مصطفى قائلا:

ـ ربنا أنعم عليك بجسم كبير وعضلات قوية وصحة جامدة، كان المفروض تحمده على نِعَمه وتستعمل صحتك في طاعة الله مش في

معصيته، ربنا ستر عليك وأعطاك فرصة التوبة أكثر من مرة إنما أنت كنت مُصِر على الحرام.

تنهد محمود وقال:

ـ يا رب سامحني يا رب.

أشاح عم مصطفى بوجهه بعيدا وبدا كأنه يفكر ثم عاد وتطلع إلى محمود وقال:

ـ اسمع يا محمود، مهما حصل، حتى لو قبضوا عليك وحبسوك، إياك ترجع إلى الحرام.

ـ تبت يا عم مصطفى.

ـ توعدني؟

ـ أوعدك.

ـ نقرأ الفاتحة؟

بدا شكل محمود غريبا بجسده الضخم في الشارع وهو يتمتم بالفاتحة ثم يمسح وجهه بيديه.. فجأة، ابتسم عم مصطفى وقال بتأثر:

ـ لأجل أبوك الطيب الله يرحمه، ربنا اكتفى بالإنذار.

ـ مش فاهم.

ـ المرة دي جاءت سليمة.

تطلع إليه محمود مشدوها وصاح:

ـ قصدك إيه؟

اتسعت ابتسامة عم مصطفى وقال:

ـ الحمد لله تفيدة السرساوي لم تمت.

ظل محمود ينظر إليه وبدا أنه لا يفهم ثم تمتم بصوت محشرج:

ـ تفيدة ماتت يا عم مصطفى، أنا شفتها ميتة بعيني.

ـ طلعت مغمى عليها.

ـ مستحيل.

ـ أنا رحت بيتها الصبح وتأكدت بنفسي.

ـ لا يمكن أصدق.

ـ يا بني هو أنا حأكذب عليك، أنا شفت تفيدة بنفسي وهي نازلة من العمارة، عاوز دليل أكثر من كده؟

أصدر محمود صوتا عاليا كأنه صرخة وراح يردد: «الحمد لله.. الحمد لله»، ثم احتضن عم مصطفى بقوة ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء.

كامل

ظللت صامدا، أنكرت معرفتي بالتنظيم، تحملت دفعات متوالية من الضرب، لم أعد أعي ما يحدث حولي.. لم أستطع أن أقوم من مكاني، اضطروا إلى مساعدتي على الحركة، بدا الأمر غريبا، الذين انهالوا عليَّ بالضرب المبرح هم أنفسهم الذين يسندونني ويساعدونني على

المشي.. كانت وجوههم تعكس تعبيرا عاديا كأنهم يمارسون عملا روتينيا مكررا لم يعد أداؤه يحتاج إلى تركيز كبير، ألقوا بي على أرض الزنزانة، لا أستطيع أن أصف إحساسي وأنا أرتطم بالأرض، كان كل جزء في جسدي يؤلمني.. الزنزانة ضيقة للغاية ليس لها إلا نافذة صغيرة لا تتعدى مساحتها نصف متر.. كنا في الشتاء والأرضية بلاط والبطانية المهترئة لا تدفئني، بينما جيوش من الحشرات تجوب المكان بلا انقطاع، كان الطعام عبارة عن رغيفين وصحن طبيخ من الصعب تمييز نوعه، كنت أقضي حاجتي في جردل يتركونه عمدا لساعات طويلة حتى أشم رائحة البراز.. تعمدوا أن يحبسوني بجوار القاعة التي يعذبون فيها المعتقلين، كانت أصداء المجزرة تحاصرني طوال الليل، كان قلبي يتمزق وأنا أستمع إلى صرخات الضحايا، أحيانا كنت أفقد سيطرتي على أعصابي فأظل أصيح وأشتم وأضرب الحائط بيدي حتى يهدني التعب فأسقط على الأرض، كنت أدرك أن احتجاجي بلا طائل، بعد أيام ألح عليَّ هاجس مفزع، إذا قرروا أن يعذبوني بهذه البشاعة هل أتحمل؟ لا يمكن لإنسان مهما كانت درجة صلابته أن يتحمل هذا التعذيب لفترة طويلة، سوف تنهار مقاومتي وأعترف بكل شيء أو ربما أفقد عقلي، استدعاني المحقق من جديد، هذه المرة لم يضربني المخبرون، ابتسم المحقق وسألني بتهكم:

ـ عقلت يا كامل؟

ـ حضرتك عاوز مني إيه؟

ـ عاوزك تقول لي كل حاجة عن التنظيم.

ـ أي تنظيم؟

ـ بتستعبط يا ولد؟

هكذا صاح بصوت أجش فانهال عليَّ المخبرون بالضرب والركل، رحت أصرخ، توقف الضرب فجأة وضحك المحقق وقال:

ـ على فكرة، عندنا عرض مسلي لازم تتفرج عليه، أنا متأكد إنه حيعجبك.

أشار إلى المخبر الواقف على الباب فهرع إلى الخارج، بعد دقائق استمعت إلى صراخ وضجة. انفتح الباب ودخل المخبرون برجل قصير القامة مضروب بشدة، كان الدم متجلطا على وجهه المتورم في أكثر من موقع، تذكرت أنني رأيته من قبل وأنه يعمل في النادي، دخلَتْ معه امرأة صعيدية، أخذَتْ في الصراخ فجذبها المخبرون وراحوا يصفعونها.. قال المحقق:

ـ سماحي شغال سفرجي في نادي السيارات، عمل مشاكل قمنا استضفناه عندنا هو ومراته زهرة لغاية لما يعقل.

أصدر سماحي زمجرة أدت إلى ضربه من جديد وارتفع صوت المحقق عاليا:

ـ ولد يا سماحي، دلوقت مراتك زهرة اشتكت إنك ما بتعملش الواجب الزّوجي، إيه رأيك إحنا عندنا عساكر صعايدة وُحُوش هيعجبوها؟

أطلقت المرأة صرخة حادة تمزقت لها أعصابي، لم يتوقف سماحي عن مقاومة المخبرين مما ضاعف من الضربات والركلات التي انهالت عليه، عاد المحقق يقول بهدوء سادي:

ـ ما تتكسفيش يا زهرة.. أنا مجهز لك مخبر صعيدي جامد حيبسطك، خذوها وقلعوها للولد عبد الصمد وهو يقوم بها، اتفرج عليه يا سماحي عشان تتعلم.

اشتد صراخ السيدة وصاح سماحي:

- حرام عليكم يا كفرة.

أشار المحقق إلى المخبرين فأخرجا سماحي وزوجته.. لم أتمالك نفسي وصِحْت:

- سوف تُحاسبون على هذه الجرائم.

ابتسم الضابط وقال:

- إحنا مش مجرمين، إحنا بنحمي العرش ونحافظ على البلد.

- التعذيب جريمة يعاقب عليها القانون.

ضحك ساخرا وقال:

- القانون ده يا شاطر تذاكره في كلية الحقوق وبعد ما تتخرج لازم تنساه، عارف يا كامل لو كنت مكاني كنت حتعمل نفس اللي بأعمله.

كانت طريقته الودية تشعرني بالإهانة على نحو ما، رددت عليه بحدة:

- لا يمكن أكون مجرم مثلكم.

وجّه إليَّ المخبرون دفعة جديدة من اللكمات ثم قال المحقق بهدوء:

- لآخر مرة أنصحك تتكلم.. متى دخلت التنظيم؟

- لم أدخل تنظيمات.

هز المحقق رأسه وقال:

- خلاص يا كامل، أنا عاوز أساعدك وأنت مش عاوز تساعد نفسك.

كانت هذه إشارة للمخبرين الذين بدءوا فاصلا جديدا من الضرب، أعادوني إلى الزنزانة.. أحسست بحسرة وكآبة، فكرت أنهم يعاملونني كفأر تجارب، كل شيء يفعلونه مدروس لكي يحصلوا مني على النتيجة التي يريدونها، كان مشهد سماحي وزوجته وهما يصرخان قد انحفر في ذهني، رُحْتُ أستعيد المشهد مرة تلو الأخرى ثم بدأت أرى صالحة أختي مكان زوجة سماحي، ماذا لو فعلوا مع صالحة ما فعلوه مع زوجة سماحي، بذلت مجهودا مضنيا حتى أتماسك.. تلك الليلة انقطعت أصوات التعذيب لأول مرة، لم أعد أستمع إلى الصراخ، لماذا أوقفوا التعذيب؟ هل مات أحد المعتقلين؟ ساد هدوء لم أعرفه من قبل.. نمت بعمق، في اليوم التالي حدث تحسن نسبي في معاملتي، صاروا يُغيّرون جردل الفضلات مرتين وازدادت كمية الطبيخ وإن ظل طعمه بشعا، استدعاني المحقق وتلقاني بابتسامة (تدهشني قدرة هؤلاء الجلادين على الانتقال من حالة نفسية إلى نقيضها) قال بنبرة ودية:

ـ محاميك الأستاذ جميل عاوز يتكلم معك.

أشار إلى رجل بدين عَرّف نفسه قائلا:

ـ جميل برسوم المحامي، الست عائشة زوجة الحاج علي حمامة اتفقت معي لأجل أدافع عنك، بعد موافقتك طبعا.

ـ أهلا وسهلا.

نظر الأستاذ جميل إلى الضابط وقال:

ـ ممكن أتكلم معه خارج المكتب؟

أشار المحقق بيده وقال:

ـ اتفضل يا أستاذ، أمامك نصف ساعة.

خرجنا وتبعت الأستاذ جميل حتى أصبحنا في وسط الفناء.. تنهد بارتياح وقال:

ـ هنا أضمن، أكيد فيه تسجيل في المكتب، اسمع يا كامل، الوقت ضيق.. احكِ لي، أنا محاميك ولازم أعرف الحقيقة.

حكيت له كل ما حدث بالتفصيل، منذ التحاقي بخلية الوفد وحتى التنظيم وكيف تم القبض عليَّ. قال بنبرة جادة:

ـ أنت اعترفت بعضويتك في التنظيم؟

ـ لا.

ـ إياك تعترف.

ـ أنا تعرضت لضرب مبرح.

ـ عارف وسنثبت ذلك غدا في التحقيق، أنور مكي رئيس القلم السياسي مهتم بقضيتكم وبيشرف عليها بنفسه.

ـ تعتقد حيعملوا فينا إيه؟

ـ الحقيقة أن هناك موضوعين في نادي السيارات، العمال المضربون قبضوا عليهم وبيمارسوا عليهم تعذيب وحشي.. الموضوع الثاني التنظيم اللي أنت متهم فيه، لازم أصارحك بأن قضيتك صعبة ولها أبعاد خطيرة.

ـ صحيح الأمير شامل محبوس؟

ـ أفرجوا عنه، لكن حبسه ثلاثة أيام على ذمة التحقيق علامة خطيرة، الأمير شامل ابن عم الملك ولا يمكن محاكمته إلا بإذن ملكي، كون

الملك يحبس ابن عمه سيجعل المحققين والقضاة أميل للتشدد في القضية.

تطلعت إليه صامتا، فكرت في محنتي، تساءلت متى ينتهي هذا الكابوس، متى أعود إلى بيتي وسريري وكتبي؟ كأنما أدرك الأستاذ جميل ما أفكر فيه، ابتسم بتعاطف وقال:

- مهما عملنا أتوقع أن تحيلك النيابة إلى المحاكمة، مع ذلك سأجتهد حتى نأخذ إخلاء سبيل.

في اليوم التالي، حضر معي الأستاذ جميل التحقيق وأثبت الإصابات في جسمي وطلب إخلاء سبيلي لكن النيابة جددت حبسي أسبوعين، يوم الجمعة تلقيت أول زيارة من أهلي.. حاولت أن أبدو متماسكا، قلت لهم إنني متفائل وإنني سأخرج قريبا، رأيت في عيونهم أنهم يدركون أنني أكذب، ظلت أمي تقاوم ثم انهارت وبكت، بالرغم من عينَيْ محمود الدامعتين ونظرات صالحة المحبة المشفقة ودعاء أبلة عائشة وابتسامة ميتسي الحزينة، بالرغم من تأثري لرؤيتهم عُدت إلى الزنزانة وأنا في حالة أفضل، ارتحت إلى فكرة أنني لم أعد وحدي في أيدي الجلادين، على الأقل الآن أهلي يعرفون مكاني وسيتابعون ما يحدث لي.. كيف سينتهي كل ذلك؟ هل أقترب من نهاية النفق أم أنني لا زلت في بدايته؟ هل يُقَدَّر لي أن أخرج مرة أخرى إلى الدنيا أم أنني سأقضي سنوات في السجن؟

(٤٢)

كانت التعليمات واضحة للجنود: أن يقبضوا على الخدم المضربين بأقل قدر من الشوشرة لأن جلالة الملك كان موجودا في النادي.. نجح الجنود في مهمتم وسحبوا الخدم إلى الشارع وما إن أدخلوهم إلى سيارة الترحيل حتى انهالت الضربات واللكمات عليهم بلا توقف، زملاء المقبوض عليهم كانوا منهمكين في العمل إلا أن بعضهم تمكنوا من رؤية المشهد الحزين.. سيظل هؤلاء إلى الأبد يذكرون زملاءهم وهم يحاولون عبثا التملص من قبضة الجنود وسوف تتردد في أسماعهم إلى الأبد الصرخات والاستغاثات التي تصاعدت من سيارة الترحيل.. أصدر الكوو تعليماته للخدم بعدم الانصراف بعد انتهاء الوردية، وفي الرابعة صباحا صعدوا جميعا بقفاطين الخدمة فوق السطح، وقفوا في انتظار الكوو وراح الذين شاهدوا واقعة الاعتقال يحكونها لزملائهم بصوت خفيض مضطرم، اضطربوا جميعا وانتابهم فزع.. بدا لهم كل ما حدث قبل ذلك اليوم ثانويا وساذجا، اعتراض عبدون على الضرب وموافقة الكوو ثم عقابه لهم ومنعه البقشيش.. كأنما الأحداث السابقة كانت مجرد أفكار والآن بدأ الفعل، المعترضون على الكوو الآن مقبوض عليهم ولا يعرف أحد مصيرهم، بعد قليل ظهر الكوو وخلفه حميد فانحنى الخدم وتململوا في أماكنهم ودمدموا بعبارات خافتة كأنهم يريدون أن يُبْدُوا أقصى ما يمكنهم من الطاعة، وقف الكوو في

مواجهتهم، بدا في تلك اللحظة شامخا رهيبا منتصرا، أجال نظره فيهم ثم قال بصوت عالٍ:

ـ عبدون والعيال معه راحوا لمصيرهم.

ارتفعت أصوات الخدم:

ـ يستاهلوا الشنق.

ـ يروحوا في ستين داهية.

ـ قطع رقابيهم.

ـ إحنا مش عاوزين نشوفهم تاني.

تركهم الكوو قليلا ليعلنوا تبرؤهم من المضربين ويؤكدوا ولاءهم، حملق في الفراغ وبدا كأنما يستجمع أفكاره ثم قال بنبرة متحدية:

ـ حد فيكم معترض على أي حاجة أنا بأعملها؟

ظلوا صامتين فعلا صوته من جديد:

ـ تكلموا.. فيه حاجة مش عاجباكم؟

عندئذ أصدروا دمدمات مذعنة:

ـ أنت أبونا يا جناب الكوو.

ـ إحنا خدامينك تحت أمرك.

ـ أفضالك علينا وخيرك مغرقنا.

ـ ربنا يبارك لك.

سدد إليهم الكوو نظرة طويلة متفحصة كأنما يختبر صدقهم ويؤكد سيطرته عليهم ثم تقدم نحوهم خطوتين وصاح بنبرة احتفالية:

ـ من الليلة أنا رَفَعت العقاب، البقشيش حيرجع لكم زي الأول.

ارتفعَتْ صيحات الفرح، شكروا الكوو بحرارة ودعوا له كثيرا وعندما استدار لينزل من السطح تزاحموا حوله واختلطت أصواتهم بالشكر، استقل الكوو سيارته وخلفه حميد وانصرفا، فتح اليوم التالي صفحة جديدة: أقبل الخدم على العمل بحماس، تفانَوْا في الأداء، كانوا يخدمون الزبائن كأنهم يتحركون أمام كاميرا، يريدون في كل لحظة أن يُظهروا إخلاصهم وطاعتهم، كأنهم يقولون: «نحن أبناء الكوو وخَدَمه، لا نخرج عن طاعته أبدا، لا تربطنا أدنى علاقة بمن تمردوا، هؤلاء نالوا الجزاء الذي يستحقونه وقد نسيناهم تماما، لن نسمح لهم بتعكير صفو ولائنا لسيدنا الكوو».

كانت فرحة الخدم غامرة بعودة حياتهم إلى سابق عهدها، بعد ثلاثة أشهر من المعاناة، أخيرا، سيسترجعون البقشيش ويتمكنون من الإنفاق على بيوتهم، بقدر سعادتهم بالعفو كانت مشاعرهم نحو المعتقلين مختلطة، انتابهم ذلك الإحساس الذي ينتابنا عندما يقع مكروه لشخص قريب منا، نحزن من أجله لكن في أعماقنا نحس براحة خفية آثمة لأننا نجونا من المصيبة التي حاقت به، تملك الخدم أيضا إحساس فظ صريح بالشماتة، ولِمَ لا يشمتون في عبدون وأصحابه؟ ألم يقدموا أنفسهم باعتبارهم أبطالا يتحدون الكوو ويطالبون بحقوقهم؟ ألم يتهموهم بأنهم مذعنون وجبناء؟ ها هم الجبناء المذعنون يستردون حقوقهم ليس بالتمرد على الكوو ولا بالتطاول عليه وإنما بالطاعة.. بالإذعان الكامل وتقبُّل عقاب الكوو مهما يكن قاسيا، لقد صبروا على الأذى وانحنوا للعاصفة ففازوا في النهاية وعاد إليهم البقشيش، أما المتمردون فقد قضوا على مستقبلهم وشردوا أُسرهم. كان الخدم

في أعماقهم يتوقون لرؤية عبدون حتى يستمتعوا بممارسة شماتتهم، سيتظاهرون بالعطف عليه ثم يسألونه:

ـ شفت يا عبدون.. هل أنت راضٍ عما سببته لنفسك وزملائك؟ لو كنت سمعت كلامنا لما حدث لك ما حدث.

بعد أيام بينما هم جالسون في المقهى جاءهم عبد الرسول مساعد الشيف ركابي وأخبرهم بأن له قريبًا يعمل في وزارة الداخلية أكد له أن المحبوسين يتعرضون إلى تعذيب بشع وأن الحكومة قبضت على زوجاتهم، راح الخدم يحوقلون وقد بدا على وجوههم تعبير يتراوح بين الذعر والتشفي، راحوا يلوكون عبارات تعاطف مصطنعة بينما هم يرشفون الشاي بالنعناع ويدخنون الشيشة باستمتاع، كأنهم لما تأكد لهم مصير زملائهم الأسود أحسوا أكثر من أي وقت مضى بالنعمة الكبرى التي تُظللهم وراحوا يتذوقون سعادتهم على مهل، إنهم الآن آمنون يعملون ويكسبون ويُرفّهون عن أنفسهم بينما المتمردون يتعرضون مع زوجاتهم إلى الضرب وما هو أكثر من الضرب كما ألمح عبد الرسول الذي أكد أيضا أنه سيتم تلفيق القضايا للمعتقلين حتى يقضوا أعواما في السجن، يوما بعد يوم انتظم العمل في نادي السيارات واستقرت الأحوال حتى انزوت الحادثة كلها في الخلفية، صارت تاريخا يُحكى أحيانا إذا سنحت فرصة، عبدون كان شابا متحمسا أحمق عاش في الوهم وأثّر على بعض زملائه فتمردوا على سيدهم الكوو.. عندئذ لقوا جزاءهم العادل ليكونوا عبرة لمَن يعتبر، ثم جاء حميد وحده ذات صباح إلى النادي وتوجه إلى كابينة التليفون فهب لبيب التليفونيست واقفا وقال:

ـ أية خدمة يا حميد بك؟

ـ عبدون والعيال راجعين الصبح الساعة التاسعة.

هكذا قال حميد باقتضاب ثم استدار وانصرف، وقف لبيب مذهولا لفترة ثم هرع إلى زملائه يخبرهم، انتشر الخبر كالنار في كومة من القش الجاف، المحبوسون عائدون غدا! أثار الخبر انفعال الخدم وغذّى هواجسهم.. حميد لم يوضح، لقد قال جملة واحدة، مقتضبة ومربكة: «عبدون والعيال راجعين الصبح».. راجعين أين؟! راجعين إلى الشغل أم راجعين إلى بيوتهم؟ أم أن سيارة الترحيلات ستحضرهم وتأخذهم مرة أخرى؟ هل عفا الكوو عن المعتقلين أم أنه أراد أن يرسلهم للنادي ليراهم زملاؤهم قبل أن يذهبوا إلى السجن؟ شيئا فشيئا بدأ الخدم يُرددون تعليقات مختلفة بنبرة جديدة:

ـ يا رب يكون الكوو سامحهم.

ـ بإذن الله يخرجوا من السجن إكراما لعيالهم.

ـ هم غلطوا صحيح لكن مهما كان هم إخوتنا ما يهونوش علينا.

هكذا راحوا يرددون لبعضهم البعض كأنهم يشكلون موقفا جماعيا جديدا، صاخبا وغير حقيقي.. كأنهم يتواطئون فيما بينهم على نسيان كل شماتتهم في المحبوسين وتخاذلهم عن الوقوف معهم، إنهم الآن يتدربون على دور جديد سيمثلونه في الغد، دور الزملاء المخلصين الذين لم يغمض لهم جفن قلقا على المحبوسين والذين فرحوا من قلوبهم لنهاية الأزمة، في اليوم التالي ذهب العاملون في وردية النهار مبكرا وانضم إليهم عاملو وردية الليل الذين أكملوا سهرتهم في المقهى حتى الصباح ثم هرعوا إلى النادي ليكونوا في استقبال العائدين، وقفوا جميعا في مدخل النادي ينتظرون صامتين، لم يكن هناك ما يقال، كانوا قد أعدوا أنفسهم لمراسم الاستقبال، تخيل كل واحد فيهم ما سيفعله عندما يرى المفرج عنهم، كيف سيصيح فرحا ويعانقهم واحدا واحدا ويردد الكلمات

التي أعدها ليعبر عن سعادته برؤيتهم، ظلوا منتظرين نحو ساعة بغير أن يحدث شيء حتى تململ بعض الواقفين وتهامسوا متسائلين عن سبب التأخير، تقدم كرارة السفرجي نحو لبيب التليفونيست الجالس خلف الحاجز الزجاجي وقال بصوت مسموع كأنما يعبر عن الجميع:

ـ عندك أخبار يا لبيب؟

قال التليفونيست وهو يبتسم بعصبية:

ـ زمانهم على وصول، خير إن شاء الله.

استدار كرارة نحو زملائه وعاد ليقف معهم لكنه ما إن تحرك لبضع خطوات حتى سمع جلبة وصاح أكثر من شخص بين الواقفين:

ـ أهم وصلوا.

كان الموكب مكونا من السيارة الكاديلاك السوداء التي تقل الكوو وحميد وخلفها سيارة ترحيلات زرقاء كبيرة مغلقة بالكامل ما عدا كوتين صغيرتين مغطاتين بالسلك.. هرع سليمان إلى السيارة وفتح الباب فنزل الكوو وقفز خلفه حميد من الباب الآخر، كان الكوو عابسا تبدو على وجهه علامات التفكير والحزم كأنه على وشك أن ينجز مهمة عاجلة دقيقة، لم يتوجه إلى مدخل النادي وإنما مشى على مهل حتى أصبح في مواجهة باب سيارة الترحيلات وأشار بيده.. أصدر باب سيارة الترحيلات صريرا كئيبا وانفتح ببطء، أول مَن ظهر جندي نحيل نزل على السلم الحديدي وقفز إلى أرض الشارع ثم مرت نحو دقيقة قبل أن يبدأ المحبوسون في النزول.. بدا المشهد صادما لدرجة أن الخدم الواقفين في المدخل عجزوا عن استيعاب ما يرونه.. كان النازلون من السيارة نساء يرتدين عباءات سوداء تغطي أجسادهن ورءوسهن.. تحركت النساء ببطء وقد أحنين رءوسهن جميعا، اتجهن نحو باب

النادي وشيئا فشيئا بانت وجوههن في ضوء النهار، عندئذ هوت الحقيقة كصاعقة على رءوس الخدم، رأوا تحت العباءات السوداء زملاءهم: عبدون وسماحي وبحر ثم نوري وبنان ثم فضالي وجابر وبشير، كانت المفاجأة قوية لدرجة أن أحدا من الواقفين لم يتكلم، إذا كان للصمت طبقات فقد تراكمت كلها في تلك اللحظة واحدة فوق الأخرى، ظل الخدم مذهولين يحدقون بقوة في زملائهم تحت العباءات النسائية السوداء كأنهم يتمسكون بأمل باهت أخير في أن يتغير المشهد فجأة ويكون ما يرونه خداعا للبصر، على أن الحقيقة وُجِدت لتبقى وتزداد رسوخا، تقدم الكوو بضع خطوات وصاح في المفرج عنهم:

ـ أنتم مش عملتم رجال؟ أنا جبتكم النادي وأنتم لابسين طُرَح زي النسوان.

ظلوا صامتين مطرقين في عباءاتهم السوداء، ضحك الكوو ثم أشار بيده قائلا:

ـ اطلعوا فوق السطح.

عندئذ تشكل الموكب تلقائيا، الرجال المرتدون العباءات مشوا في المقدمة يتبعهم زملاؤهم وفي الخلف سار الكوو وحميد خلفه.. صعدوا درجات السلم في صمت لا يخدشه سوى وقع أقدامهم على الرخام، لما وصلوا إلى السطح اصطفوا، وقف المذنبون بعباءاتهم أمام سور السطح وأحاط بهم الآخرون، وقف الكوو وسطهم ثم قال للمفرج عنهم:

ـ النهارده ما لكوش شغل، حتفضلوا قاعدين هنا لغاية آخر النهار، عاوز كل الناس تتفرج عليكم بعباءاتكم الحلوة.

نطق الكوو الجملة الأخيرة على مهل كأنه يطعنهم، عاد بظهره إلى الخلف وأجال نظره في الخدم المذهولين ثم استدار ونزل السلم وحميد يقفز خلفه.. بانصراف الكوو وجد الخدم أنفسهم وحدهم، صاروا وجها لوجه أمام حدث غريب خارق، زملاؤهم المعتقلون المفرج عنهم الذين كانوا ينتظرونهم ليهنئوهم، يقفون أمامهم الآن منكسي الرءوس وجوههم هَزْلَى شاحبة كالأشباح وقد ارتدوا عباءات الحريم، تحول الصمت إلى حل، هدنة مؤقتة مع واقع يتجاوز قدرتهم على الخيال أو التصديق، مَن يبدأ الحديث الآن وكيف؟ ماذا عساه يقول؟ ماذا يقول المرتدون لعباءات النساء وماذا يقول مهنئوهم وعلام التهنئة أصلا؟ ماذا يمكن أن يقال؟ وما قيمة أي كلام؟ لم يتكلم أحد، ظلوا جميعا؛ المفرج عنهم ومُسْتَقْبِلوهم، واقفين مجمدين في أماكنهم ثم صاح سماحي فجأة بصوت كالعويل:

ـ شايفين.. الكوو لَبّسنا الطرح زي النسوان.

كانت هذه الجملة طلقة بداية، إشارة لانطلاق المشاعر العنيفة التي ألجمتها رهبة المفاجأة، اندفع الخدم نحو المُفْرَج عنهم، عانقوهم، راحوا يواسونهم بكلمات مضطربة اختلطت فلم يعد أحد يميز معانيها بينما زاد العطف من ألم المفرج عنهم فاستسلموا لعناق زملائهم وهم يجهدون للسيطرة على مشاعرهم، سالت الدموع على وجه بحر بينما تقلص وجه عبدون وعض شفته السفلى بقوة كأنه يكظم ألما حادا، وندت عن الآخرين أصوات محشرجة متألمة سرعان ما تحولت إلى صراخ وعويل.

(٤٣)

بعد أذان الظهر مباشرة، وفقا للموعد، توقفَتْ في شارع السد الجواني سيارتا أجرة وسرعان ما نزلوا جميعا، ركبت أم سعيد وصالحة وميتسي وعائشة في سيارة، بينما ركب الأستاذ جميل مع فوزي ومحمود ورجل يرتدي بدلة زرقاء في السيارة الأخرى.. جلست أم سعيد صامتة بجوار السائق، لمحت في المرآة وجه ميتسي، سبحانك يا رب، هذه أيضا إحدى العجائب؛ بنت إنجليزية جاءت من أقصى الدنيا لتدخل في حياتهم وتعيش معهم، تطلعَتْ من نافذة السيارة وتناهَى إليها الهمس الدائر بين ميتسي وصالحة ففكرت أن هاتين البنتين إذا التقيتا تجدان دائما حكايات شيقة ولا تنقطعان عن الكلام، انهمرت على ذهن أم سعيد مشاهد من حياتها، رأت كامل وهو طفل وفكرت أنه من يومه مريح وحنون ولديه إحساس بالمسئولية على عكس أخيه سعيد الأناني، تذكرت أم سعيد وفاة زوجها المفاجئة وزواج صالحة التعس وطلاقها وليلة القبض على كامل.. كانت صدمتها من حبس كامل قد تحولت إلى جرح عميق يضغط على أعصابها بلا توقف.

ـ كامل محبوس لأنه وطني وشجاع، أنا فعلا فخورة به.

هكذا تؤكد دائما لكل من يواسيها لكنها في قرارة نفسها، كانت تتمنى لو أنه لم يتورط في هذه القضية، كانت في أعماقها تعتب عليه بأقصى ما يمكنها من رِقّة، تقول لنفسها وتبتسم كأنها تحدثه: لست

غاضبة منك يا كامل، لا يمكن أن أغضب عليك مهما فعلت ولكن ألم يكن ممكنا أن تؤجل النضال حتى تحصل على الليسانس؟ ألم تفكر فينا يا ولدي؟ آلاف الشبان بمقدورهم أن يقاوموا الاحتلال لكن كم واحدا منهم ينفق على أهله مثلك؟ كم واحدا تحتاج إليه أسرته في كل لحظة كما نحتاج إليك؟

بعد نحو ساعة وصلت السيارتان إلى فناء سجن الأجانب، نزل محمود وفوزي والرجل ذو البدلة الزرقاء ثم هرع محمود ليساعد أمه والنساء على النزول، وقفوا جميعا أمام المبنى وأنهى الأستاذ جميل إجراءات الدخول بسرعة فاجتازوا البوابة الشاهقة ثم عبروا الردهة الطويلة المظلمة ولما وصلوا أمام باب مكتب مأمور السجن، فتح الأستاذ جميل حقيبته وأخرج ورقة نظر فيها كأنما يتأكد منها وقال بصوت ودي:

ـ انتظروني في الاستراحة.

دخلوا عبر الباب الجانبي إلى الاستراحة، جلسوا جميعا ولم يتكلم أحد، أم سعيد وحدها راحت تتمتم:

ـ يا رب عفوك ورضاك يا كريم، يا أرحم الراحمين.

بعد دقائق ظهر المحامي على باب الحجرة وقال:

ـ خلاص، تفضلوا معي.

نهضوا جميعا وخرجوا من الاستراحة ولما توجهت أم سعيد إلى مكان الزيارة المعتاد قال المحامي:

ـ لا، تفضلوا من الناحية الثانية.

تطلعوا إليه متسائلين فضحك وقال:

ـ البك المأمور كتر خيره ساب لنا مكتبه.

دخلوا جميعا وجلسوا في مكتب المأمور وسرعان ما ظهر كامل، كان يبدو حليق الذقن مهندما وقد صفف شعره بعناية حتى بدلة السجن الزرقاء التي يرتديها بدت هذه المرة نظيفة ومكوية، هرعت إليه أمه، احتضنته وبكت وانحنى هو ليُقَبِّل يديها، بعد ذلك جاءت صالحة واحتضنته، أما ميتسي فضحكَتْ وصافحته وقالت بمرح:

ـ تبدو في صحة جيدة، لقد تأكدت الآن أنك وسيم.

تقدم منه الرجل ذو البدلة الزرقاء وقدم نفسه قائلا:

ـ محمد عرفان، مندوب الشهر العقاري.

صافحه كامل بحرارة، بعد قليل، جلسوا جميعا حول الأستاذ عرفان الذي جلس على مقعد المأمور ووضع أمامه على المكتب دفترا كبيرا فتحه ثم بسمل وحوقل وتحدث عن الزواج في الإسلام ثم أخذ يد كامل ووضعها في يد ميتسي وغطاهما بمنديل أبيض وبدأ إجراءات عقد القران، بدا كامل سعيدا وبدت ميتسي مرتبكة وهي تتلقى التهاني بينما لم تتمالك أبلة عائشة نفسها فرفعت رأسها ووضعت يدها أمام فمها ثم أطلقت زغرودة عالية بدا وقعها المبهج غريبا على جو السجن الكئيب المقبض.

(٤٤)

كعادته كل ليلة، اطمأن الكوو على أن جلالة الملك قد خلد إلى النوم ثم راجع مع الخدم مهام اليوم التالي، وقبيل الفجر دخل إلى جناحه في قصر عابدين، جناح الكوو حجرتان فسيحتان للنوم وملحق لاستقبال الزوار ومكتب أنيق بخلاف الحَمَّام الفاخر، كان الكوو مرهقا فأخذ حَمَّاما ساخنا ثم صب لنفسه كأسا من الويسكي شربها بسرعة وجرع بعدها كوبا من الماء البارد ودلف إلى الفراش، أغمض عينيه واستلقى على جنبه الأيمن وراح شيئا فشيئا يطرق أبواب النعاس، فجأة، سمع صوتا في الحجرة، حدق في الظلام فخُيّل إليه أن عدة أجسام تتحرك عند النافذة، صاح بصوت محشرج:

ـ مَن؟

لم يرد أحد، انتفض الكوو من الفراش ومد يده ليضغط على مفتاح النور لكنه أحس بيد تقبض بقوة على رقبته وسمع صوتا أجش خلفه:

ـ عنّك أنت.

صاح الكوو بصوت عالٍ:

ـ مَن أنتم وكيف دخلتم؟

عندئذ تلقى أول صفعة، زمجر الكوو بصوت عالٍ كأنه يعترض لكن اللكمات توالت، ضربوه على رأسه وصفعوه وركلوه، كان بمقدوره أن

يميز أشباحهم في الظلام، جذبه اثنان من ذراعيه كأنه مصلوب بينما وقف أحدهم خلفه وقبض على رأسه كأنما يُعده لتلقّي الصفعات، أما الواقف أمامه فكان يحمل بطارية تُصدر دائرة ضوء صغيرة وقد بدا أنه قائد المجموعة، استمر الضرب بشكل متواصل وعنيف وأصدر الكوو أنينا عاليا ثم صاح بنبرة منكسرة:

ـ حرام عليكم.

تلقى صفعات جديدة وركله الواقف أمامه في ركبته، بدأ الكوو يتوسل:

ـ أنا رجل كبير وأنتم مثل أولادي.

ضحك قائد المجموعة وقال:

ـ الآن صرت أبا حنونا، يا لك من وضيع.

تمتم الكوو بنبرة مذعورة وهو يلهث:

ـ أنتم عاوزين إيه؟

ـ جئنا نتحاسب.

ـ على إيه؟

ـ على إجرامك.

ـ لو كنت عملت أي شيء سيئ فأنا أعتذر.

ـ الاعتذار لم يعد يفيد.

ـ سيبوني وأنا تحت أمركم.

ـ عاوزين حقنا منك، أنت سرقتنا وأذللتنا.

ـ سأحقق مطالبكم جميعا.

ـ مشكلتك أنك تعتبرنا أغبياء.

ـ أقسم لكم سأنفذ كل ما تريدون، صدقوني.

ـ لن تخدعنا مرة أخرى.

ـ أعطوني فرصة أخيرة.

ـ لا يمكن أن نوجد معا، إما نحن وإما أنت.

صرخ الكوو مستغيثا فأُطْفِئت البطارية وساد الظلام ثم دوّت طلقات نارية وسُمِعَت خطوات مسرعة وارتفعت صيحات في ردهات القصر، بعد قليل هرع الحراس إلى الجناح وأضاءوا النور فوجدوا الكوو؛ قاسم محمد قاسم، كبير شماشرجية الملك، مرتديا بيجاما حريرية زرقاء ومسجّى على الأرض وقد اخترقَتْ رصاصةٌ جبهتَه وانفرجَتْ شفتاه.. وراح يُحدق في الفراغ كأنه اندهش مرةً أخيرةً إلى الأبد.

(تمت بحمد الله)